

مجالسُ الحديثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ الجزءُ الأولُ

للإمام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

جمع وتقديم
ولده

المهندس الشيخ محمد محي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما



مجالسُ الحديثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

الجزء الأول

للإمام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

جمع وتقديم

ولده

المهندس الشيخ محمد مُحيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

اعتنى بها وخرَّج أحاديثها

خادم العلم الشريف

الدكتور بكري بريمو السمان

في هذه المجالس
بيانات بعض أحاديث سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم

التي ذكرها الإمام البخاري
رضي الله عنه
في (الجامع الصحيح)

وهي مجالس الشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين
رضي الله عنه
في جامع (الحموي)
يوم الأربعاء
بعد شروق الشمس بقليل

أيها القارئ الكريم

هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة
إلى العلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام المفسر المُحدِّث الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
وإلى ولده العالم العامل
المهندس الشيخ
محمد مُحيي الدين سراج الدين
رضي الله عنهما، وجزاك الله خيراً
الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام
www.srajalden.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول :

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال : [كتاب بدء الوحي] ، ثم أورد بسنده إلى أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت :

[أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه] - وهو التعبّد - [الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة ويتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ ، قال صلى الله عليه وسلم : فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني فقال : { اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم } فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد - رضي الله عنها - فقال : (زملوني زملوني) فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : (لقد خشيت على نفسي) فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ، ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة : هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أو مُخْرِجِيَّ هم ؟ ! قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ..

وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ .

ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي .. [.اه

وحي الله تعالى إلى رسوله هو إعلامه سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم عن أمور هامة بطريقة خفية على وجه السرعة ..

ويقال في اللغة : [وحي إليه] و [أوحى إليه] ، بمعنى واحد .

ووحى الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم على أنواع : فهناك الوحي عن طريق الرؤيا المنامية ، وهناك الوحي بتكلم الملك ، وإما أن يتمثل الملك بصورة رجل يراه رسول الله ويكلمه ، وقد يبقى الملك على حقيقته الملكية ويوحى إلى رسول الله ما أراد الله تعالى .

وقد دلّ الخبر على أن أول نوع من أنواع الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عن طريق الرؤيا المنامية كما في رواية البخاري :

(أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم) .

وفي رواية مسلم : (الرؤيا الصادقة في النوم) .

والرؤيا الصادقة أن يرى شيئاً في المنام فيأتي الواقع كما رأى مصداقاً لها ، والرؤيا الصالحة هي ما فيه صلاح الرأي ما بين تنبيه وتعليم وبشارة ..

فكان صلى الله عليه وسلم لا يرى شيئاً إلا تحقق في الواقع تحقّقاً بيناً واضحاً مثل نور الفجر لا لبس فيه ..

وبقي على ذلك مدة ستة شهور أي بدأ ذلك من ربيع الأول إلى ليلة القدر في رمضان إذ نزل عليه جبريل عليه السلام بأول خمس آيات من سورة اقرأ وهي سورة العلق ..

قولها رضي الله عنها : (يتحنث) من التحنث وهو ترك الحنث وهو الإثم ، والتباعد عنه لعبادة الله تعالى ^١ ، فلم يتدنس صلى الله عليه وسلم بدنس الجاهلية منذ صغره ، بل كان يتباعد عن قومه ويخلو بغار حراء يتعبد الله تعالى .

قول السيدة عائشة رضي الله عنها :

(يتحنث الليالي ذوات العدد ويتزود لمثلها) .

وفي هذا دليل جواز الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله تعالى ..

وليعلم الإنسان أن تعاطي الأسباب المشروعة لا ينافي التوكل على الله تعالى ، إذ إنه سبحانه هو الذي خلق الأسباب ووضعها أسباباً ولا تأثير لها من ذاتها ، بل هو سبحانه المؤثر فيها والفعال لما يريد جل وعلا ، فتبقى الأسباب أسباباً وليست أرباباً بل هي خَدَمَةٌ بين يدي رب العالمين إن شاء خلق ما أراد وإن شاء أهملها .

وعلى ذلك فلا طعام يُشبع من ذاته ، ولا ماء يروي من ذاته ، ولا دواء يشفي من ذاته ، ولا نار تُحرق من ذاتها وهكذا ، فالمؤثر والفعال في الأسباب هو خالق الأسباب ، وهو رب العالمين جل وعلا .

فشان المؤمن أن يتوكل على الله تعالى ويأخذ بالسبب الذي شرعه الله تعالى معتقداً بقلبه أن المؤثر هو الله تعالى .

^١ وهذا من صيغة السلب فيقال : [فلان حنث] أي وقع في الحنث ، و [تحنث] أي : تباعد عن الحنث ، ويقال لمن خالف ما حلف عليه : [حنث] أي وقع في إثم اليمين ، ويقال : [فلان حرج] أي وقع في الحرج ، و [تحرج] أي تباعد عن الحرج ، وكذا [مرض] إذا أصابه المرض و [تمرض] إذا أخذ بأسباب الشفاء .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

(جاء رجل على ناقة له فقال : يا رسول الله ، أدعها وأتوكل ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : اعقلها وتوكل)^١ .

قولها رضي الله عنها :

[حتى جاءه الحق فجاءه الملك وقال : (اقرأ ، قال : ما أنا بقارئ)] .

فلقد أرسل الله تعالى جبريل عليه السلام وحمّله علوماً ومعارف وأسراراً وأنواراً ليفيضها على سيدنا رسول الله ، فصار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مهبط الأسرار والأنوار والعلوم والمعارف الإلهية .

وجبريل عليه السلام رئيس الملائكة عليهم السلام ، أثنى عليه سبحانه ووصفه بقوله جل وعلا : { ذي قوة عند ذي العرش مكين * مطاع ثم أمين } فله المكانة والرتبة العالية عند أهل السماء والملا الأعلى وله الأمر عليهم ، وعليهم طاعته ، والكل يمثّل لأمر الله سبحانه وتعالى .

كما أنّ له القوة الروحية الملكية والقوة الحسية ، وقد بلغ من قوته أنه عليه السلام بريشة واحدة من أجنحته - وله ستمائة جناح - اقتلع خمس مدائن من مدائن قوم لوط وقلبها على رأسها وأهلكها بأمر الله تعالى .^٢

وهو عليه السلام أمين الله على وحيه سبحانه إلى الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وإن قول جبريل عليه السلام لسيدنا رسول الله : (اقرأ) لا عن جهل منه برسول الله أنه أمي لا يقرأ ، ولكن لتكون سبباً أن يضمه إليه ويفيض عليه ما أرسله الله تعالى به .

^١ انظره في شعب الإيمان للبيهقي وأصله في سنن الترمذي كتاب صفة

القيامة والرقائق والورع

^٢ انظر تفسير القرطبي لقول الله تعالى : { ذو مرة فاستوى } .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد) أي أحسن رسول الله بالشدة والتعب من ضمة جبريل القوية إليه ، مع أن سيدنا رسول الله قد خصّه الله بالقوة الروحية والحسية العالية .

وفي بعض روايات الحديث عند الطبراني وابن اسحق أنه صلى الله عليه وسلم قال : (فغطّني) - وهو الضم مع حبس النفس - ، وهذا يدل على معانٍ كثيرة ، ففي قوة ضمة جبريل عليه السلام لرسول الله كأنه أخذه إلى عالم آخر وهكذا .

وفي هذه الغطات الثلاث إفاضات من رب العالمين على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إفاضات علوم ومفاهيم وأسرار وأنوار لا يعلم عظيمها إلا الله تعالى ، ومنها ما رجع للنفس ، ومنها ما رجع للقلب ، ومنها للروح ، لأن قوام الإنسان على هذه الأمور الثلاثة .

وفي المرة الثالثة أرسله وقال له : { اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم } .

والمعنى : أنك يا رسول الله نشأت أمياً لم تتعلم القراءة ولا الكتابة ولم تستمع إلى أحد ، فاقرأ الآن باسم ربك ، لا بسابق علم ولا دراسة منك ، فربك الذي رباك وتعهّدك منذ الصغر هو يعلمك ويقرئك ، فاقرأ باسمه جل وعلا .

قوله تعالى : { اقرأ باسم ربك الذي خلق } أي خلق كل شيء كما قال سبحانه في آية ثانية : { الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل } .

وبعد أن ذكر سبحانه خلقه لعموم الأشياء خص بالذكر أشرف أنواع المخلوقات الدنيوية وهو الإنسان فقال تعالى : { خلق الإنسان من علق } وهذا تخصيص بعد تعميم .

فلتفكر الإنسان في أصل خلق الله له وكيف طوره سبحانه في التخليق من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن سواه جنيناً ثم طفلاً وهكذا إلى أن صار إنساناً كاملاً يتمتع بالقوى الحسية والمدارك والعقل ، فما أعظم قدرة الله تعالى الذي طور خلق الإنسان من مرتبة العلقة إلى الإنسانية الكاملة !!..

وإن الذي قدر على خلق الإنسان وتطويره في الخلق من العلقة الصمّاء إلى الإنسان الكامل لهو قادر سبحانه على أن يعلمك يا رسول الله ويفيض عليك من العلوم والمعارف الإلهية ما لم يعط غيرك بأن جعلك نبياً ورسولاً إلى كافة خلقه وختم بك الرسالات الإلهية .

قوله تعالى : { اقرأ وربك الأكرم } أي إن ربك هو أكرم الأكرمين ، وأكرميتته قد ظهرت فيك يا رسول الله على أعظم وجه لأنك يا رسول الله أكرم الخلق عليه سبحانه .

فقد نال صلى الله عليه وسلم من كرم الله تعالى ما لم ينله نبي ولا رسول غيره ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :

(وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ، ولا فخر)^١ .

قوله تعالى : { الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يعلم } .

فإذا كان الإنسان يتعلم بواسطة القلم ، والعلم على مراتب وأنواع ، فقد علّم الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بواسطة جبريل عليه السلام ، والفرق كبير بين من كان واسطة تعليمه القلم ، ومن كان واسطة تعليمه جبريل الأمين عليه السلام ، وإذا كانت علوم بني الإنسان هي بواسطة القلم فما بالك بعلوم رسول الله الذي تولى الله تعالى تعليمه بواسطة جبريل عليه السلام !؟

نعم ، الأمر أجلّ وأعظم ولا وجه للمقارنة ، ولا يعلم أحد علمه وفضله صلى الله عليه وسلم إلا الذي أعطاه جل وعلا .

^١ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب المناقب عن ابن عباس رضي الله عنهما

أما ضمة جبريل عليه السلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فهي نوع من أنواع الوحي الإلهي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويسمى: الوحي بالإفاضة .

وقد ضمّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما كما قال :

(ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : اللهم علمه الكتاب)^١ .

وفي سنن ابن ماجه : (اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب) .

وفي مسند الإمام أحمد : (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)^٢ .

فصار ابن عباس رضي الله عنهما من أكابر علماء الصحابة ، ورغم صغر سنه كان يفهم من أسرار القرآن ما خفي على غيره حتى سمّاه السلف : حبر الأمة وترجمان القرآن .

وللبحث تتمة ، ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين .

^١ انظر صحيح البخاري كتاب العلم

^٢ المسند ٢٢٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني :

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري قال : [كتاب الوحي] ثم ذكره بسنده إلى أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت :

(أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حُبب إليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنّث فيه) - وهو التعبّد - (الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزوّد لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزوّد لمثلها حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، فقال : ما أنا بقارئ ، قال : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال : اقرأ ، فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال : { اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم } .

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد فقال : زمّلوني زمّلوني ، فزمّلوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر : (لقد خشيت على نفسي) فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق .

فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة ابن نوفل ابن عم خديجة وكان
امراً تنصّر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل
بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب ، وكان شيخاً كبيراً قد عمي ، فقالت له
خديجة : يا ابن عم اسمع من ابن أخيك . فقال له ورقة : يا ابن أخي ماذا
تري ؟ فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى فقال له ورقة :
هذا الناموس الذي نزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون
حياً إذ يخرجك قومك ، فقال رسول الله : أَوْ مُخْرِجِيّ هُم ؟ قال : نعم ،
لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك
نصراً مؤزرًا .

ثم لم ينشب ورقة أن توفي ، وفتر الوحي .)

قال ابن شهاب : وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله
الأنصاري قال وهو يخبر عن فترة الوحي فقال في حديثه أي عن النبي صلى
الله عليه وسلم قال : بينما أنا أمشي إذ سمعت صوتاً في السماء فرفعت
بصري فإذا ذلك الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء
والأرض قال : فرعبت منه فرجعت فقلت : زملوني فنزل قوله تعالى : { يا
أيها المدثر * قم فأندر * وربك فكبر * وثيابك فطهر * والرجز فاهجر }
فحمي الوحي وتتابع . اهـ

يدل هذا الحديث على قوة سند هذا الدين فقد نزل على سيدنا رسول
الله بوحى من الله تعالى ، وإن باب الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم هو فيض علوم ومعارف كبيرة لا يحيط بها أحد إلا الله تعالى .

قول السيدة عائشة رضي الله عنها :

(أول ما بدئ به رسول الله من الوحي الرؤيا الصالحة)

أي : أول ما بدئ به من أنواع الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، وقد يلتبس
على الإنسان أن رسول الله لم يكن قد تزوّج السيدة عائشة رضي الله
تعالى عنها عند بدء نزول الوحي بمكة فكيف حدّثت عنه صلى الله عليه
وسلم بهذا الحديث ؟

فيقال : إن سيدنا رسول الله هو الذي أخبر السيدة عائشة رضي الله عنها عن بدء نزول الوحي فحدّثت رضي الله عنها بما سمعت من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

يدل على ذلك قولها في الحديث : (قال : فأخذني فغطني) أي قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما الرؤيا المنامية فهي على ثلاثة أنواع :

الرؤيا الصالحة أو الصادقة ، وهناك رؤيا حديث النفس ، وهناك رؤيا شيطانية يقال عنها : أضغاث أحلام ، ولكل منها حكمها .

قولها رضي الله عنها (ثم حُبب إليه الخلاء فكان يخلو بغار حراء)

وغار حراء يطل على الكعبة المشرفة ، فالجالس فيه يرى الكعبة المشرفة ، والنظر إلى الكعبة عبادة لله تعالى كما أن البعد عن المشركين عبادة ، فكان صلى الله عليه وسلم يعبد الله تعالى في غار حراء .

وللخلوة مدة معينة قد تكون ثلاثة أيام ، وقد تكون سبعة أيام ، وقد تمتد إلى الشهر ، أو إلى أربعين يوماً ، والغاية منها جلاء القلب عن الأغيار حتى يصير المختلي على وجهه إلى ربه سبحانه وتعالى ، وعلى هذا جرى أهل الله رضي الله عنهم ، وأما من جلس في الخلوة وجعلت الأفكار والخواطر تجول في نفسه فمثل هذا لم يستفد من خلوته شيئاً لأنه خلا بعقله ولم يخلُ بربه جل وعلا ، فللخلوة شروط وأحكام واستعداد .

وقولها رضي الله عنها : (حُبب إليه الخلاء) : أي أن الله تعالى هو الذي حُبب إليه أن يعتزل قومه ويخلو بربه سبحانه ، وهذا من جملة تهيئة الله تعالى وإعداده لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حتى نزل عليه الوحي .

^١ ذكر الإمام العجلوني في كشف الخفا حديث : (النظر إلى الكعبة عبادة والنظر إلى وجه الوالدين عبادة والنظر في كتاب الله عبادة) . وعزاه إلى الديلمي عن السيدة عائشة رضي الله عنها

قولها رضي الله عنها : (حتى جاءه الخبر) : أي جاءه بيان الحق بنزول الوحي عليه ، لأن الحق لا يُعرف إلا من الله الحق ، وكل ما كان عن الحق جل وعلا فهو حق .

قوله صلى الله عليه وسلم : (ما أنا بقارئ) أي لم أتعلم القراءة لأنه صلى الله عليه وسلم نشأ أمياً ، وهذه مفخرة وفضيلة في حقه صلى الله عليه وسلم إذ إن الله تعالى تولى تعليمه ، فخبر بعلوم إلهية لم يكتسبها من أحد من الخلق ، بل هي بتعليم الله ووحيه إليه ، وهذا أكبر شاهد حق على أنه رسول الله حقاً ، لأنه لو كان متعلماً لربما قالوا في حقه صلى الله عليه وسلم : إنه سمع هذه العلوم أو أخذها من غيره ، لكنه صلى الله عليه وسلم نشأ أمياً ، وقد شهد بذلك قومه ، ولم يتعلم من أحد ولم يقرأ على أحد .

فلم يوكل سبحانه تعليم رسوله صلى الله عليه وسلم إلى أحد من الناس بل تولى سبحانه تعليم رسوله وأوحى إليه القرآن والحكمة ..

قال تعالى : { وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً } .

قوله صلى الله عليه وسلم : (فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد) : وهذا نوع من أنواع الوحي كما تقدم بيانه ، فنزل جبريل عليه السلام بعلوم ومعارف وأسرار من عند الله تعالى وأفاضها على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : { اقرأ باسم ربك الذي خلق } : أي اقرأ باسم ربك لا بسابق دراسة وعلم منك ، بل اقرأ باسم ربك الذي ربك وتعهدك بعنايته منذ صغرك ، فربُّك الذي يقرئك ويعلمك ويوحى إليك .

قوله تعالى : { الذي خلق } : أي خلق كل شيء من المخلوقات ، ثم خصّ سبحانه ذكر نوع من الخليقة وهو أشرف الخليقة فقال تعالى : { خلق الإنسان من علق } فذكر سبحانه خلقه للإنسان الذي هو أشرف المخلوقات إن هو أطاع أمر الله تعالى له .

قال تعالى : { ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً } .

فهذا الإنسان - وما يتمتع به من بيان وفصاحة وعقل وعلم وحكمة وإرادة وسمع وبصر - هذا الإنسان خلقه تعالى من علق - جمع علقه - .

والمراد من الإنسان في الآية جنس الإنسان ، أي فخلق سبحانه كل إنسان من علقه ، لا أنه جل وعلا خلق كل إنسان من عدة علقات^١ .

والعلقة هي ما يتعلق بالشيء متمسكاً به ، وسميت الدودة المعروفة بـ العلقه لأنها تعلق على موضع الدم الفاسد في الجسد فتمصُّه .

وقوله تعالى : { خلق الإنسان من علق } أي من قطعة لحم كانت في الأصل نطفة اجتمعت من ماء الرجل والمرأة ، ثم طورها سبحانه إلى قطعة لحم تعلقت بجدار رحم المرأة تستمد أسباب نموها من دم المرأة ، وسميت لذلك علقه لأن تمسكها بجدار الرحم مكين ثابت كما قال تعالى : { ثم جعلناه نطفة في قرار مكين } فلينظر الإنسان وليتفكر في أصل خلقه ، وكيف أنه سبحانه حوله من نطفة إلى علقه صماء ثم طوره وطوره إلى أن صار إنساناً يتمتع بقوة وإدراك وسمع وبصر وهكذا حتى طاف الأرض وعمرها ، فليتفكر كل إنسان في تلك القدرة التي طورته من تلك العلقه إلى أن صار إنساناً خصيماً مبيناً .

نعم لا قدرة لأحد على ذلك إلا الله تعالى الذي خلق كل شيء ، وهو على كل شيء قدير ، قال تعالى : { أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين } .

وإن الذي خلق هذا الإنسان وطوره من علقه لهو قادر على أن يبعث سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم ويعلمه ويفيض عليه العلوم والمعارف وإن كان صلى الله عليه وسلم قد نشأ أمياً فهو سبحانه وتعالى أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ وَعَلَّمَهُ الْعُلُومَ وَالْأَسْرَارَ وَالْأَنْوَارَ وَأَعْطَاهُ مَا لَمْ يَعْطِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ وهذا قوله سبحانه : { اقرأ وربك الأكرم }

^١ (ال) في كلمة الإنسان في الحديث الشريف هي للجنس وليست للعهد .

أي وربك الأكرم على كل خلقه له عليك أكرمية خاصة ، ومن أكرميته عليك أنك نشأت أمياً فتولى سبحانه نشأتك ، ورباك وتعهديك ، وعلمك علوم الأولين والآخرين وفضلك على جميع العالمين .

قوله تعالى : { اقرأ وربك الأكرم } جاء بصيغة المبالغة حتى يشير إلى كثرة الكرم الإلهي على سيدنا رسول الله ، فهو صلى الله عليه وسلم مظهر الأكرمية الإلهية ولذلك نال مقام الأكرمية العظمى عند ربه جل وعلا .
وقد قال صلى الله عليه وسلم :

(وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ، ولا فخر) الحديث كما في سنن الدارمي

قوله تعالى : { الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم } {

ومن هذا نفهم مدى سعة علومه ومعارفه صلى الله عليه وسلم والأسرار التي أفاضها الله تعالى عليه ، لأن الله تعالى الذي علم الإنسان ما لم يعلم علمه بواسطة القلم المعروف ما لم يعلم من قبل ، فكيف إذا كان واسطة التعليم جبريل الأمين عليه السلام؟! حقاً إنها علوم فاقت علوم الخلق كلهم وأعجزتهم ولا يعلم حدها إلا الله تعالى الذي أفاضها عليه صلى الله عليه وسلم .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (فإذا أنا بالملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض) أي : قد ملأ ما بين السماء والأرض ، ولا يلزم هذا ألا يزاحم غيره من المخلوقات المادية إذ إن الملائكة عليهم السلام أرواحهم علوية قائمة في أجسام لطيفة نورانية فلا يقاس أحد منها بأحد الأجسام المادية ، ألا ترى أنك إذا واجهت أنواراً متعددة إلى موضع واحد فإنها تتسع ولا تتزاحم ولا تتضارب ، فانطلق من هذا المثل التقريبي إلى فهم ما هو أعظم وأدق .

وكذلك فإن نور الشمس إذا طلع ملأ ما بين السماء والأرض ولا يتزاحم مع الماديات أيضاً ، ولا تظن أن الملائكة عليهم السلام أنوار مجردة ، بل هم أجسام لطيفة خلقها الله تعالى من نور فيجري عليها أحكام عالم النور اللطيف الرباني .

وفي رواية للبخاري المتقدم ذكرها أنه صلى الله عليه وسلم رجع إلى أهله وقال : (زملوني زملوني) .

أما في رواية مسلم^١ فقد قال صلى الله عليه وسلم : (دثروني دثروني) فنزل قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } .

قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } فقد أخبر سبحانه بالحال التي كان عليها صلى الله عليه وسلم ملاطفاً مؤانساً له صلى الله عليه وسلم وقد كان متدثراً أي ملتفاً بثوبه .

قول السيدة عائشة في الحديث المتقدم : (فرجع بها إلى أهله يرجف فؤاده) أي لما اعتراه من المهابة والخشية بسبب نزول الوحي عليه ، وقد قال تعالى : { إنا سنلقي عليك قولاً ثقیلاً } أي ثقیلاً في معناه على الجسد والروح ، ويظهر أثر ذلك على جسمه الشريف صلى الله عليه وسلم فيلقى شدة عند نزول الوحي عليه ويحمرُّ وجهه ويتفصد جبينه الشريف عرقاً كما دلت على ذلك الأحاديث الشريفة^٢ .

قوله صلى الله عليه وسلم لخديجة : (لقد خشيت على نفسي) أي : خفت على نفسي أن لا أتحمّل ذلك العبء فأمرض ، وقال بعضهم : خاف صلى الله عليه وسلم على نفسه أن يقضى عليه بأن لا يتحمّل ذلك الثقل .

فقالت له أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها : (كلا والله لا يُخزيك الله أبداً) أي فإن الله تعالى يحفظك ويمدك بالقوة ويبقي عليك صحتك كاملة .

^١ انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان

^٢ قالت السيدة عائشة رضي الله عنها : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقاً) أخرجه البخاري ، ومسلم ، والترمذي ، واللفظ للبخاري .

وفي رواية مسلم قالت : (فَوَاللَّهِ لَا يُحْزِنُكَ اللَّهُ أَبَدًا) - لا يُحْزِنُكَ : بضم الياء - ويروى أيضاً بفتحها ، ويقال في لغة العرب : (حَزَنَهُ) و(أَحْزَنَهُ) إذا أوقعه في الحزن ، والمعنى واحد .

والمعنى : فلا يوقعك الله في حزن فتخشى على جسمك أن تمرض أو يصيبك أذى ، ثم عللت ذلك ذلك رضي الله عنها بقولها : (إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق) .

أي فإنك يا رسول الله منبع الخصال النبيلة والأخلاق والفضائل فكيف يُحْزِي اللهُ مَنْ هذا شأنه وصفاته؟!

فكان صلى الله عليه وسلم يصل أرحامه قبل أن ينزل عليه الوحي ، وصلة الأرحام تدل على خيرية نفس المواصل إذ إنه يصلهم وإن قطعوه ، وأما من واصل مَنْ وصله من أرحامه فقط فلا يسمى فعله مواصلة بل هو مقابلة ومكافأة أي قابل صلتهم له بمواصلته لهم ، وفي الحديث :

(ليس الواصل بالمكافئ)^١ .

وأما المواصللة التي رتب عليها الشارع فضلاً وأجرًا كبيراً وخيراً كثيراً فهي أن يصل الإنسان مَنْ قطعه ، ولا يجوز للمؤمن أن يقطع رحمه ولو كان هذا الرحم فاسقاً إلا إذا خاف من مواصلته أن يسري فسقه إليه ، فإنه إذا واصله رأى من المنكر أو سمعه ، وإما إذا كان فسقه مقتصرًا على نفسه فلا يجوز قطعه بل يجب صلته ونصحه ، وأما إذا كان يستعين بعطائك على أمور فسقه فأمسك عين المال وصله بالغذاء والكساء وهكذا .

قولها رضي الله عنها : (وتحمل الكَلَّ) أي وتحمل الكل على غيره وهو الضعيف الذي لا يستطيع أن يحمل نفسه فهو صلى الله عليه وسلم يعينه ويسعفه ويدخل في هذا الوصف العبد والعاجز .

(وتُكْسِبُ) وفي رواية (وتُكْسِبُ المعدوم) أي تُكْسِبُ المال المعدوم أي الفقير ، فكان صلى الله عليه وسلم يعين الفقير الذي عُدِمَ المال .

^١ انظر صحيح البخاري كتاب الأدب

وقال الإمام النووي رحمه الله في شرحه صحيح الإمام مسلم :
وَأَمَّا قَوْلُهَا (وَتَقْرِي الضَّيْفِ) فَهُوَ بَفَتْحِ التَّاءِ ، قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ : يُقَالُ :
قَرَيْتُ الضَّيْفَ أَقْرِيهِ قِرَى بِكَسْرِ الْقَافِ ، وَيُقَالُ لِلطَّعَامِ الَّذِي يُضَيِّفُهُ بِهِ
قِرَى .

وَأَمَّا قَوْلُهَا (وَتُعِين عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ) فَالنَّوَائِبُ جَمْعُ نَائِبَةٍ وَهِيَ الْحَادِثَةُ ،
وَإِنَّمَا قَالَتْ : (نَوَائِبِ الْحَقِّ) لِأَنَّ النَّائِبَةَ قَدْ تَكُونُ فِي الْخَيْرِ وَقَدْ تَكُونُ فِي
الشَّرِّ .

قَالَ الْعُلَمَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ : مَعْنَى كَلَامِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا :
إِنَّكَ لَا يُصِيبُكَ مَكْرُوهٌ لِمَا جَعَلَ اللَّهُ فِيكَ مِنْ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَكَرَمِ الشَّمَائِلِ
. وَذَكَرْتَ ضُرُوبًا مِنْ ذَلِكَ ، وَفِي هَذَا دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ وَخِصَالِ
الْخَيْرِ سَبَبُ السَّلَامَةِ مِنْ مَصَارِعِ السُّوءِ .

وَفِيهِ تَأْنِيسٌ مَنْ حَصَلَتْ لَهُ مَخَافَةٌ مِنْ أَمْرٍ وَتَبَشِيرُهُ وَذِكْرُ أَسْبَابِ السَّلَامَةِ
لَهُ .

وَفِيهِ أَعْظَمُ دَلِيلٍ وَأَبْلَغُ حُجَّةٍ عَلَى كَمَالِ خَدِيجَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا ، وَجَزَالَةَ
رَأْيِهَا ، وَقُوَّةَ نَفْسِهَا ، وَثَبَاتَ قَلْبِهَا ، وَعِظَمَ فِقْهِهَا . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهَا : (وَكَانَ إِمْرًا تَنْصَرَفًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ)

مَعْنَاهُ صَارَ نَصْرَانِيًّا ، وَالْجَاهِلِيَّةُ مَا قَبْلَ رِسَالَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُمُّوا
بِذَلِكَ لِمَا كَانُوا عَلَيْهِ مِنْ فَاحِشِ الْجَهَالَةِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قَوْلُهَا : (وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ وَيَكْتُبُ مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعَرَبِيَّةِ مَا شَاءَ
اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَكْتُبَ) . هَكَذَا هُوَ فِي مُسْلِمٍ : (الْكِتَابُ الْعَرَبِيُّ وَيَكْتُبُ
بِالْعَرَبِيَّةِ) . وَوَقَعَ فِي أَوَّلِ صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ (يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ فَيَكْتُبُ
مِنَ الْإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ) وَكِلَاهُمَا صَحِيحٌ . وَحَاصِلُهُمَا أَنَّهُ تَمَكَّنَ مِنْ مَعْرِفَةِ
دِينِ النَّصَارَى بِحَيْثُ إِنَّهُ صَارَ يَتَصَرَّفُ فِي الْإِنْجِيلِ فَيَكْتُبُ أَيَّ مَوْضِعٍ شَاءَ
مِنْهُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ إِنْ شَاءَ وَبِالْعَرَبِيَّةِ إِنْ شَاءَ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ .

قوله : (هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) .
(النَّامُوسُ) بِالنُّونِ وَالسِّينِ الْمُهْمَلَةِ وَهُوَ جِبْرِيلُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ وَغَرِيبُ الْحَدِيثِ : النَّامُوسُ فِي اللُّغَةِ صَاحِبُ سِرِّ الْخَيْرِ .
قوله : (يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدَعًا) الضَّمِيرُ (فِيهَا) يَعُودُ إِلَى أَيَّامِ النُّبُوَّةِ وَمُدَّتْهَا
وَقَوْلُهُ : (جَدَعًا) يُعْنَى شَابًّا قَوِيًّا حَتَّى أَبَالِغَ فِي نُصْرَتِكَ .
قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (أَوْ مُخْرِجِيَّ هُمْ) ؟
هُوَ بَفَتْحِ الْوَاوِ وَتَشْدِيدِ الْيَاءِ هَكَذَا الرَّوَايَةُ .
قوله : (وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمَكَ) أَيَّ وَقْتِ خُرُوجِكَ .
قوله : (أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا) هُوَ بَفَتْحِ الرَّايِ وَبِهَمْزَةٍ قَبْلَهَا أَيُّ قَوِيًّا بِالْغَا .
ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث :

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري قال : حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال : أخبرنا شيب عن الزهري قال : أخبرني عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش ، وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ماداً فيها سفيان وكفار قريش وهم بإيلياء ، فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال : أيكم أقرب بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ فقال أبو سفيان : فقلت : أنا أقربهم نسباً ، فقال : أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره ، ثم قال لترجمانه : قل لهم : إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبتني فكذبوه ، فوالله لولا الحياء من أن يأتروا عني كذباً لكذبت عنه .

ثم كان أول أول ما سألتني عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟ قلت : هو فينا ذو نسب ، قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ قلت : لا ، قال : فهل كان من آبائه من ملك ؟ قلت : لا ، قال : فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم ، قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ قلت : بل يزيدون ، قال : فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ قلت : لا ، قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قلت : لا ، قال : فهل يغدر ؟ قلت : لا ، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها ، قال - أي : أبو سفيان - : ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة ، قال : فهل قاتلتموه ؟ قلت : نعم ،

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ قلت : الحرب بيننا وبينه سجال ، ينال منا وننال منه ، قال : ماذا يأمركم ؟ قلت : يقول : (اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً ، واتركوا ما يقول آبائكم ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة) .

فقال للترجمان : قل له : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، وسألتك : هل قال أحد منكم هذا القول ؟ فذكرت : أن لا ، فقلت : لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت : رجل يأتي بقول قيل قبله ، وسألتك : هل كان من آباءه من ملك ؟ فذكرت : أن لا قلت : فلو كان من آباءه من ملك قلت : رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذّر الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك : أشرف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه ، وهم أتباع الرسل ، وسألتك : أيزيدون أم ينقصون ؟ فذكرت أنهم يزيدون ، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم ، وسألتك : أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الإيمان حين تخلط بشاشته القلوب ، وسألتك : هل يغدر ؟ فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر ، وسألتك : بم يأمركم ؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عن عبادة الأوثان ، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف ، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين ، وقد كنت أعلم أنه خارج ، لم أكن أظن أنه منكم ، فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه ، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه .

ثم دعا بكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بعث به دحية إلى
عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ،
أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، يؤتك الله أجره
مرتين ، فإن توليت فإنه عليك إثم الأريسين .

{ يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا
نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا
اشهدوا بأننا مسلمون } .

قال أبو سفيان : فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده
الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا ، فقلت لأصحابي حين أخرجنا :
[لقد أمر أمرُ ابن أبي كبشة ، إنه يخافه ملك بني الأصفر ، فما زلت موقناً
أنه سيظهر حتى أدخل الله عليّ الإسلام] .

ثم كتب هرقل إلى صاحب له برومية وكان نظيره في العلم وسار هرقل إلى
حمص فلم يرم حمص حتى أتاه كتاب من صاحبه يوافق رأي هرقل على
خروج النبي وأنه نبي ، فأذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له بحمص ثم
أمر بأبوابها فأغلقت ، ثم اطلع فقال : يا معشر الروم هل لكم في الفلاح
والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبي ؟ .

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب فوجدوها قد غلقت ، فلما رأى
هرقل نفرتهم وأيس من الإيمان قال : ردوهم عليّ ، وقال : [إني قلت
مقالي أنفاً أختبر بها شدتكم على دينكم ، فقد رأيت] ، فسجدوا له
ورضوا عنه فكان ذلك آخر شأن هرقل) . اهـ

لقد أورد البخاري رضي الله عنه هذا الحديث في كتاب الوحي لما ذكر أوصاف الرسول الموحى إليه صلى الله عليه وسلم .

قوله : (وكان في إيلياء) أي في مدينة بيت المقدس ، وتسمى أيضاً بيت القدس وبيت الله ، لما لها من شأن واعتبار وفضل عند الله تعالى ، وهي ثالث الحرم وأولى القبلتين .

وكان هرقل قد ذهب من حمص التي كانت وقتئذ عاصمة ملكة الروم ، ذهب منها إلى بيت المقدس ماشياً على قدميه شكراً لله تعالى على أن غلبه على جيوش الفرس الذين نزلوا بمملكة الروم قتلاً وخراباً .

وسبب ذلك أن كسرى ملك الروم وكان قد استبطأ قائد جيشه الذي أرسله لمحاربة الروم فهده وتوعده بالقتل إن هو عاد إليه فبلغ ذلك قائد الجيش فخاف من بطش كسرى فراح وتعاهد مع الروم وكف عن قتالهم وبقي وعدد من جيشه عندهم ، ولقد اتفق أن وصل كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى هرقل مع دحية بن خليفة الكلبي فرأى دحية هرقل في بيت المقدس .

وكان هرقل يتمتع بالدهاء والنباهة وكان قد درس التوراة والإنجيل واطلع فيها على أوصاف رسل الله عليهم الصلاة والسلام ، فأراد أن يتعرف إلى أوصاف سيدنا رسول الله وهل هي منسجمة ومتفقة فيما جاء في الكتب الإلهية السابقة ، وهل دعوة هذا الرسول صلى الله عليه وسلم متفقة مع ما دعا إليه الرسل قبله وهكذا ، فدعا بمن كان في بيت المقدس من العرب من بلد رسول الله مكة المكرمة ، واتفق أن كان فيها أبو سفيان وجماعة معه يبلغ عددهم ثلاثين رجلاً منهم أبو سفيان - وكان وقتئذ مشركاً لم يؤمن برسول الله بعد وقد قدم بيت المقدس للتجارة - ، وقد وقع هذا في الفترة التي هادتهم فيها رسول الله - أي عقد الهدنة بينه وبين مشركي مكة ، وهو ما يعرف بصالح الحديبية الذي اتفق فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع مشركي مكة أن لا يكون هناك حرب بينهما إلى ما بعد عشر سنين ، إلا أن كفار قريش نقضوا العهد بعدها فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفتح مكة - .

وسأل هرقل جماعة العرب : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل ؟ فقال أبو سفيان : أنا ، وذلك لأنه يلتقي مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نسباً في الجد الرابع وهو عبد مناف .

ولما جلس أبو سفيان مجلس المسؤول عن سيدنا رسول الله ولم يكن قد آمن به قال : [والله لولا الحياء من أن يأتروا علي الكذب لكذبت عنه] ، ولذلك التزم الصدق في جوابه لهرقل خشية أن يشاع بين العرب أن أبا سفيان يكذب .

وقوله : [لكذبت عنه] تضمن معنى الخبر أي : لأخبرت عنه خبراً كاذباً ، ثم سأل هرقل أبا سفيان : كيف نسبه فيكم ؟ قال : هو فينا ذو نسب ، أي ذو نسب عال شريف لا أعلى ولا أشرف منه ، وإذا افتخر المرء بنسبه وحسبه فإن النسب هو خير الآباء وشرفهم ، وأما الحسب فهو اتصاف الآباء بالمكارم والفضائل .

ولقد اجتمع النسب والحسب على أكمل الوجوه في بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جده عبد المطلب سيداً في قومه ، واشتهر بإغاثة المهوف وإعانة الفقير ونصرة المظلوم .

قال هرقل : وكذلك الرسل تبعث في نسب قومها ، أي : لقد جرت عادة الله تعالى أن يبعث الرسل في نسب شريف في قومهم ، لا في نسب دنيء وضيع ،

وذلك لأن شرف وعلو النسب والحسب في المرء له شأنه واعتباره ، كما أن من وراء ذلك حكم منها : أن يكون المرء موضع ثقة الناس فيه ، وله في قومه المكانة والاحترام ، فإذا أخبرهم صدقوه ، وإذا دعاهم أجابوه ، ولو بعث من نسب دنيء لما كان له في نفوس قومه تلك الثقة والمكانة ، ولربما عيروه وانتقصوه بدناءة حسبه ونسبه .

ثم سأله : [فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم] ؟

فسأل هرقل أبا سفيان : هل أغنياء الناس ومترفوهم في الدنيا يتبعونه أم الفقراء الذين ليس لهم في الدنيا مال ولا جاه ؟

وذلك لأن تكبر المترفين والأغنياء وبطرهم في الدنيا يحول بينهم وبين الاستجابة لدعوة الرسل عليهم السلام وقبول الحق والإذعان له ، لأنه يخالف أهواءهم وشهواتهم ، ولو أن الحق وافق أهواءهم لاتبعوه موافقة لأهوائهم ، لا لأنه الحق .

وما درى هؤلاء أن صلاحهم في الدنيا والآخرة وسعادتهم في الدنيا والآخرة لا يُنالان إلا باتباع ما جاء عن الله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم والعمل به ، لأن الذي خلق الخلق هو أعلم بما يصلحهم ويسعدهم ، ولذلك شرع لهم شرعاً فيه الصلاح والسعادة لمن عمل به . وقد قال تعالى : { وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون } .

أي جعلنا في كل قرية - وهي المدينة العامرة - مترفيها وفساقها وأكبرها ليفسدوا فيها ، وما علموا أن فسادهم وفسقهم لا يعود شره ووباله إلا عليهم .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم :

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ثم لا يزيف عنه)^١ .

أي : حتى يكون ميله النفساني متابعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من شريعة محكمة مصلحة مسعدة لمن تمسك بها ، وإلا فمن أتبع نفسه هواها فستهوي به في المهالك .

ثم سأله : [هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه] ؟

أي هل دخل أحد في دين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآمن به ثم كره دين رسول الله واستحسن ديناً غيره ودخل فيه ؟

^١ قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: خرج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وخرجته الأئمة في مسانيدهم ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني وليس عنده: ولا يزيف عنه

فقال أبو سفيان : لا ، فقال هرقل : [وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب] . أي حين تتذوق حلاوته القلوب .

واعلم أن الإيمان إذا دخل القلب وتعشقه القلب فإن له حلاوة يتذوقها القلب ، فإذا ذاق المؤمن تلك الحلاوة بقلبه فلا يمكن أن يرتد عن دينه إلى غيره ، لأن دين الإسلام هو الدين الذي جاء به خاتم الأنبياء والرسل وارتضاه الله تعالى لعباده كلهم ، قال جل وعلا : { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً } ، وأما من آمن ولم يدخل الإيمان قلبه ولم يتعشق به ولم يجد حلاوته بل تذوق الإيمان من أطراف قلبه فربما يتعرض لفتنة تخرجه من الدين ، نسأل الله العافية . آمين .

وكما يبش وجه الإنسان إذا رأى ما يسره أو سمع ما يفرحه فكذلك القلب يفرح ويبش إذا استحکم فيه الإيمان ووجد حلاوته ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

(ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً) .^١
وطعم الإيمان هو حلاوة يجدها المؤمن في قلبه كما قال صلى الله عليه وسلم : (ثلاث من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار) .^٢

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين .

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان وصحيح ابن حبان كتاب الصلاة

^٢ صحيح البخاري وصحيح مسلم كتاب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الرابع :

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

- ناقلاً قول هرقل لأبي سفيان - [بم يأمركم ؟ قال : يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً وأن نترك ما يعبد آباؤنا] - أي من عبادة الأوثان والأصنام والنجوم والكواكب - [ويأمرنا بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف] .

فلقد أمرهم صلى الله عليه وسلم بتوحيد الله تعالى وهذا يشمل قضايا الاعتقاد الإيمانية ، ثم أوصى بالأمر العملية وأولها الصلاة .

وفي رواية للبخاري : (يأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة)^١ .

وقد تطلق الصدقة على الزكاة المفروضة كما في قوله تعالى : { إنما الصدقات للفقراء والمساكين } الآية ، وقد تطلق على التبرعات وهذا ما يعرف بالقرينة .

وأما العفاف فهو التعفف عن المحرمات بتركها ، وأما الصلة فهي صلة الأرحام وهم الأقارب سواء في ذلك الأرحام المحارم أو غير المحارم كما عليه جمهور العلماء ، والأرحام المحارم هي الأرحام التي يحرم على الإنسان التزوج منها فهي حرمة مؤبدة كالجدة والعمة والخالة والأخت وبناتها وبنات الأخ .

^١ صحيح البخاري كتاب الأدب

وأما الحرمة المؤقتة فهي التي يحرم على الإنسان التزوج منها حرمة مؤقتة لسبب ، فإذا زال السبب زالت الحرمة ، فيحرم أن يتزوج أحد زوجة غيره إلا إذا مات زوجها أو طلقها ، فيجب على المؤمن أن يواصل أرحامه سواء كانوا محارم أو لا ، إلا أن مواصلة كل رحم على حسبه ، فمواصلة العمّة أو الخالة بزيارتها ومساعدتها إن كانت في فاقة ، ومواصلة الرحم الأجنبي - كبنات العم والعمّة والخالة - مواصلتها أن تسأل عنها وتتفقد أحوالها وتصلها بالمال إن كانت محتاجة وهكذا .

والرحم الأجنبي هي الرحم التي يحرم على الإنسان النظر إليها والخلوة بها ويحل له التزوج بها .

واعلم أن صلة الرحم فرض على الإنسان في شريعة الله تعالى ، وأحياناً ما يعبر العلماء عن ذلك بالواجب ، ولا يجوز للإنسان أن يساعد أو يتصدق على غير أرحامه ، وأرحامه بحاجة وفقير ، لأن الله تعالى سيسأله عن أرحامه أولاً كما قال تعالى : { واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام } أي : واتقوا الله في أرحامكم بصلتهنّ كما شرع الله تعالى { إن الله كان عليكم رقيباً } الآية .

وإن الصدقة على الرحم الفقير تعتبر صدقة وصلة أيضاً وللإنسان بها أجران ، ومن حرم أرحامه صدقته وهم بحاجة إليها فقد ارتكب إثماً كبيراً مضاعفاً لأنه تسبب أيضاً في حرمان ذلك الرحم صدقات الناس أيضاً لأنهم لا يتصدقون عليه ظناً منهم أن فلاناً الغني من أقاربه يرأف بهم ويقوم بما يلزمهم ، وهذا ما وقع فيه كثير من الأغنياء فليتقوا الله في أرحامهم وليحسنوا إليهم ، ولا يزعم أحدهم أن أرحامه يحسدونه أو يحقدون عليه فإن المعاملة مع الله سبحانه وتعالى كما بيّن سبحانه عن صفة أهل الجنة قولهم لمن يحسنون إليهم :

{ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً } .

وهكذا بعد أن استقرأ هرقل أوصاف النبي صلى الله عليه وسلم وقرنها مع ما يعلم من صفات الرسل قبله والمنزلة في التوراة والإنجيل ووجدها منسجمة متفقة مع أوصاف الرسالات الإلهية ، ونظر فيما سمع عنه صلى الله عليه وسلم ورأى أنها أوصاف قيِّمة عالية تتفق مع الشرائع الإلهية وتتضمن الصلاة والزكاة والصلة والعفاف قال : [إن يكن ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين] أي : ستنتشر دعوة هذا الرسول الكريم وتعم مملكته الأرض بما فيها مملكة هرقل ، وقد علم هذا هرقل من اطلاعه على الكتب السماوية السابقة التي جاء فيها أنه سيظهر نبي في آخر الزمن واسمه أحمد ومحمد صلى الله عليه وسلم ، وأنه ستعم رسالته العالم وتنتشر مملكته في الأرض كلها .

ثم قال : [ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه] أي بعدما عرف أن سيدنا محمداً هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرف أنه يجب عليه أن يسعى إليه ويسلم على يديه إلا أنه توقف عن ذلك بقوله : [لو أني أخلص إليه] أي أصل إليه سالماً دون معاداة قومي لي [لتجشمت لقاءه] يعني لتكلفت الوصول إليه مباحاً له على الإسلام .

فلقد خاف من أذى قومه لأنهم كانوا على الدين النصراني إلا أنه كان مخطئاً في تقدير هذا إذ غاب عنه قوله صلى الله عليه وسلم في الكتاب : (أسلم تسلم) أي تأمن من أذى قومك وغيرهم .

قال هرقل : [ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه] يعني لجعلت نفسي خادماً لرسول الله حتى أغسل قدميه وأعتبر ذلك شرفاً وعزاً لي .

أو أن المعنى : لغسلت رأسي وجسمي من غسالة قدميه صلى الله عليه وسلم متبركاً بذلك .

فتأمل أيها العاقل في كلام هرقل هذا - وهو وقتئذٍ ملك الروم - كلام مَنْ عرف الحق إلا أنه لم يعترف به أي أنه لم يذعن وينقذ لما عرف خوفاً من أذى قومه وأن يعزلوه عن الملك .

وإذا كان هرقل هذا قد تمنى وودَّ لو أنه أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل نفسه خادماً له صلى الله عليه وسلم بل خادماً لقدميه الشريفتين وأراد أن يتبرك بغسالة قدمي النبي الشريفتين صلى الله عليه وسلم ، فالأجدر والأحرى بكل مؤمن أن يتمنى ويودَّ ذلك بدافع إيمانه ومحبهته لرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولذلك كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتسارعون لنيل شرف خدمته صلى الله عليه وسلم ويتسارعون ويتدافعون للتبرك بما انفصل منه من نخامة وشعر وأظفار ، كما دلَّ على ذلك وقائع كثيرة رواها المحدثون في كتبهم ^١ ، ولو كنت منهم أيها المؤمن لفعلت كما فعلوا .

جاء في الصحيحين واللفظ للبخاري من حديث صلح الحديبية قال :

[ثم إن عروة بن مسعود - الذي جاء وقتئذٍ وسيطاً عن المشركين في مكة - جعل يرمق النبي بعينه قال : فوالله ما تنخم رسول الله نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم - أي الصحابة - فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم - رسول الله صلى الله عليه وسلم - بأمر ابتدروا أمره ، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحدِّون النظر إليه تعظيماً له صلى الله عليه وسلم .

فرجع عروة بن مسعود إلى أصحابه - في مكة - فقال : أي قوم والله لقد وفدت على الملوك ووفدت على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إن رأيت - أي ما رأيت - ملكاً قط يعظّمه أصحابه مثل ما يُعظّم أصحاب محمد محمداً ، والله إن تنخم - أي ما تنخم - نخامة إلا وقعت في كف رجل منهم فذلك بها وجهه وجلده ، وإذا أمرهم ابتدروا أمره ، وإذا توضع كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده ، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له ، وإنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها [.... الحديث .

^١ وقد ذكر الشيخ الإمام رضي الله عنه بحث التبرك مع أدلته في آخر كتابه الشمائل فارجع إليه تجد ما ينفعك بإذن الله تعالى .

فقد عرف هرقل الحق لكن لم يعترف به ولم يدعن لِمَا عرف كِبَرًا منه
وحرصاً منه على الملك وخوفاً من أذى قومه ، وكم من أناس عرفوا الحق
ولم يعترفوا به ، بل إن أعظم سبب للكفر وعدم الإذعان والاعتراف
بالحق هو الكبر والتعالي ، ألا ترى إلى قوله تعالى في إبليس عين الكفر :

{ أبى واستكبر وكان من الكافرين } ، وقوله تعالى في قوم فرعون بعدما ظهر
لهم صدق سيدنا موسى عليه السلام ورأوا الآيات والمعجزات : { وجحدوا
بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً } أي : أنكروا الحق ولم يعترفوا به بعد
أن ظهر لهم تكبراً وعلواً .

وقال سبحانه في الكافرين : { إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه } .

وقال جل وعلا : { يعرفونه كما يعرفون أبناءهم } أي يعرفون أن سيدنا
محمدًا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم كمعرفتهم بأبناءهم أنهم
أبناءؤهم وليسوا أبناء غيرهم ، إلا أنهم لم يعترفوا بما عرفوا ، وجحدوا
الحق كبراً وعناداً .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الخامس :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال : كتاب الإيمان ، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (بني الإسلام على خمس) وهو قول وفعل ، ويزيد وينقص .

قال الله تعالى : { ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم } { وزدناهم هدى } .

باب: دعاؤكم إيمانكم لقوله عز وجل : { قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم } .
ومعنى الدعاء في اللغة : الإيمان . اهـ

ثم ذكر بسنده إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان) . اهـ

قول الإمام البخاري رضي الله عنه : [الإيمان قول وعمل] وهذا ما عليه جماهير السلف الصالح رضي الله عنهم ، ونُقِلَ عن الإمام الشافعي رضي الله عنه قوله : [الإيمان قول وعمل ، يزيد وينقص] .^١
أي : يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية .

فالإيمان قول أي : النطق بالشهادتين (لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وعمل يشمل العمل القلبي وهو الاعتقاد ، والعمل الخارجي وهو العمل الصالح .

^١ انظر فتح الباري لابن حجر ١ / ٤٧

فقد قالوا : [الإيمان اعتقاد بالجنان] - أي بالقلب، [وتصديق باللسان]
- أي : النطق بالشهادتين - [وعمل بالأركان] - أي بأعضاء الإنسان
وأطرافه - كالصلاة والزكاة والحج ومناسكه وهكذا .

ومن أخلَّ بقضايا الإيمان الاعتقادية القلبية كمن أنكر الإيمان بالملائكة
مثلاً أو لم يؤمن بكتب الله تعالى النازلة على الرسل مثلاً فهو كافر خارج
عن ملة الإسلام .

ومن حقق أركان الإيمان الاعتقادية ولكن أخلَّ ببعض قضايا الإيمان
العملية بأن ترك الصلاة مثلاً أو الصيام فهو مؤمن فاسق أي : ناقص
الإيمان ، ولا يكفر إلا إذا استحلَّ بعض قضايا الإيمان العملية بأن لم
يعتقد فرضية الصلاة أو فرضية الصيام وهكذا ، أما إذا اعتقد فرضيتها
وتركها كسلاً فهو ناقص الإيمان ، فاسق .

ولا يقال عن أحد إنه مؤمن كامل الإيمان في الدنيا وآمن من العذاب في
الآخرة إلا إذا تحقق بقضايا الإيمان كلها الاعتقادية والعملية والقولية
والخلقية والأدبية ، وهذا يعني أنه تحقق واستوفى جميع شعب الإيمان
التي قال فيها صلى الله عليه وسلم ^١ :

(الإيمان بضع وسبعون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله وأدناها) -
أي : آخرها - (إمطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان) .

مع أن الحياء خُلِقَ يتخلَّق به الإنسان ، فواجب على المؤمن إذاً أن يحقق
جميع شعب الإيمان حتى الخلقية والأدبية منها حتى يكمل إيمانه ويكون
من الأبرار ، ثم يلتحق بمراتب المقرين إن هو اشتغل بالنوافل المقربة إلى
الله تعالى .

^١ كما في صحيح مسلم كتاب الإيمان

ومن مات ولم يكمل له إيمانه بأن أخلَّ ببعض شعب الإيمان ولو الخلقية منها فهو ممنوع من دخول الجنة حتى يطهر من صفة النقص التي فيه بأن يمر على براز الآخرة ويلقي من الأهوال والشدائد على حسب شدة نقصه وعيوبه فإن هو طهر وطاب دخل الجنة ، وأما إذا لم يطهر بأن كان نقصه كبيراً وذنوبه شديدة مستحكمة ولم ينل من الشفاعات ما ينقذه ، فلا بد له من غمسة في جهنم تطول مدتها على حسب نقصه وذنوبه حتى إذا طهر وطاب دخل الجنة ، لأن الجنة لا يدخلها إلا من كان طاهر النفس زكياً طيباً ، كما قال الله تعالى : { طبتم فادخلوها خالدين } .

وقال جل وعلا : { الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون } .

فلا يكمل إيمان المؤمن ولا يصير أهلاً لدخول الجنة إلا إذا تحقق بشعب الإيمان كلها ، ومنها حسن الخلق والحياء وكمال الأدب وطيب المعاشرة ولين الجانب ، ومن أهمل خصلة منها منعتة دخول الجنة حتى يلاقي من الشدائد ما يحمله على التحقق بها ، ألا ترى - وهذا من باب ضرب المثل - إلى الصبي إن كان سيئ الأدب قليل الحياء فإنك تنصحه وترغبه في حسن الخلق والحياء والأدب ، فإن هو أعرض ولم ينزجر فإنك ستعاقبه بضرب مشروع أو تمنعه عن تحقيق بعض رغباته ، كل ذلك لتحمله على التخلي عن صفات النقص والعيب والتحقق بصفات الكمال والجمال ، فتكون العقوبة بحقه تطهيراً وتزكية فافهم .

فلا تدع أيها الإنسان كمال نفسك موقوفاً على الأهوال والشدائد في الآخرة بل جاهد نفسك في الدنيا وحقق كمالها وأدبها في الدنيا حتى تطهر وتطيب .

ومن شعب الإيمان أيضاً : حسن الخلق ، فقد روى أبو داود في سننه ^١
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً) أي : مع أهله وأولاده وأصحابه
وجيرانه وجلسائه .

وفي مسند الإمام أحمد ^٢ عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم) .

أما قضايا الإيمان الاعتقادية فهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وكذلك الحب في الله والبغض في الله
فهما أيضاً من أعمال القلوب ، أي : أن تحب المؤمن لأجل الله بسبب
إيمانه وصلاحه ، لا لماله ومنصبه ووجاهته الدنيوية ، وكذلك أن تبغض
الكافر لأجل الله بسبب كفره وفجوره وليس لأغراض دنيوية .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم :

(أوثق عرى الإيمان : الحب في الله والبغض في الله) ^٣ .

وروى أبو داود ^٤ عن أبي أمامة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه قال :

(من أحبَّ لله وأبغضَ لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان) .

^١ في كتاب السنة

^٢ ٢٤٣٦١

^٣ انظر مصنف ابن أبي شيبة ومسند الطيالسي

^٤ في سننه في كتاب السنة

ويجب عليك أيها المؤمن بمقتضى إيمانك بالله أن تحب جميع المؤمنين، لأنهم مؤمنون بالله تعالى ، فتحبهم لإيمانهم وتقواهم لا لما ينالك من خيراتهم وعطائهم ، بحيث لو وقع أحدهم في ضائقة ومنعك عطاءه ، أبغضته ، فتكون بذلك قد أحببته لماله وعطائه لا لإيمانه وصلاحه ، وعار عليك أن تفعل ذلك ، فإن النفس الكريمة لا ترضى الهوان ، فكن ذا عفة وكرامة ، وأبغض المؤمن الفاسق من ناحية فسقه ومعصيته فقط لا من جميع النواحي والاعتبارات ، إذ إن كل مؤمن معرض للخطأ والخطيئة، فإن لم يتب فأبغض منه ناحية معصيته فقط ، وأبغض الكافر لكفره وظلمه لنفسه .

وإذا أعطيت مؤمناً من مالك شيئاً فأعطه إياه حباً في الله تعالى ، ولا تبغ من عطائك السمعة والرياء أو حب الظهور والتعالي عليه أو لمنفعة لك عنده ، وإذا منعت أحداً من عطائك فليكن ذلك لأجل الله لا بسبب بخل وشح نفس ، كما لو منعت أحداً من عطائك لأنك تعلم أنه سينفقها في معصية الله ، لكن لا تمنع أهله وعياله ، بل قدم له ولهم ما يحتاجونه من طعام وشراب ومتاع وغيره ، واعلم أن الصدقة غير المفروضة تجوز على غير المسلم إن علمت حاجته وفاقته ، إلا إذا أيقنت أنه سيضيعها في معصية الله تعالى ، أما الزكاة فلا تجوز إلا على المسلمين ، ولا يشترط فيهم أن يكونوا من أهل التقوى والصلاح الكامل ، بل طالما أنهم مسلمون فعليك أن توصلهم ما استطعت ، وكذلك أن تنصح من استنصحك حباً في الله لا للتشهير والفضيحة بل حباً فيه وجلباً للخير له ، ولا يكمل مؤمن إيمانه حتى يتحقق بتلك الخصال كلها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (فقد استكمل الإيمان) .

واعلم أن الإيمان يزيد وينقص ، فيزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي ، وليعلم المصر على المعصية أن إيمانه على خطر إذ إنه في نقصان مستمر ما دام هو على المعصية مصراً ، وربما أدى به إصراره إلى زوال الإيمان ، ونسأل الله العافية .

وإن المؤمن يجد من قلبه أن إيمانه يزيد بطاعة الله ، ووجد ذلك لمّا يحضر مجالس الذكر والعلم والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيخشع ووجد حلاوة في قلبه لا يجدها لما يكون منهمكاً في أعمال الدنيا وتجارته ، كل ذلك يدل على أن الإيمان يزيد وينقص ، ومن لم يجد في قلبه زيادة إيمان فإن إيمانه على نقص ، فليبادر إلى التوبة وفعل الطاعات. وقد قال تعالى : { لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر } .

وكان معاذ بن جبل رضي الله عنه يقول لمن يرى من إخوانه : (اجلس بنا نؤمن ساعة)^١ - أي : اجلس معي حتى نزداد إيماناً - فيجلسان فيذكران الله تعالى بعظمته وكبريائه وآياته وكمالاته جل وعلا ، ويحمدانه أي : على نعمة الإيمان فيزدادان إيماناً .

ولقد كان مجلس سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلس صفاء ونقاء وارتقاء ، بحيث يرتقي أصحابه رضي الله عنهم إلى مقام المعاينة في قضايا الإيمان ، حتى قال قائلهم : (نكون عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يذُكرنا بالنار والجنة كأننا رأينا عين)^٢ فما أعظم إيمان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد نبه سبحانه المؤمنين أن لا يغفلوا عن ذكره جل وعلا حتى لا يضعف إيمانهم فقال عز من قائل : { واذكر ربك في نفسك } - أي : بمراقبتك لله تعالى في سائر أحوالك - { تضرعاً وخيفةً } - أي رجاء رحمته وخوفاً من عذابه - { ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين } ، أي لا تغفل عن ذكر الله تعالى ، وما دام المؤمن في الذكر والتذكر فهو في حرس الله وحصانته ، فإذا غفل خرج من الحصن ، وتسلب عليه العدو وهو الشيطان ، وفي الحديث : (كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكر الله تعالى)^٣ . ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

^١ انظر صحيح البخاري كتاب الإيمان

^٢ انظر صحيح مسلم كتاب التوبة

^٣ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الأمثال

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أمَّا بعد : بالسَّندِ الْمُتَّصِلِ إِلَى الْإِمَامِ الْحَافِظِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةَ بْنِ بَرْدِزْبَةَ الْجُعْفِيِّ الْبُخَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : بَابُ أُمُورِ الْإِيمَانِ ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى :

{ لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } .

وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : { قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ } الْآيَةَ .

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (الإيمان بضعٌ وستون^١ شعبةً ، والحياء شعبة من الإيمان) . اهـ

قول البخاري رضي الله عنه : (باب أمور الإيمان) يعني بذلك شعب الإيمان ، وعندما يذكر البخاري رضي الله عنه في تراجمه قضايا الإيمان يريد بذلك ما كان عليه السلف الصالح من الإيمان ، وما فهموه من الإيمان .

لفظة [البر] في الأصل تُطلق على الخير الكثير لأنها مشتقة من البر - بفتح الباء - وهو الساحة الواسعة ، وأما الصغيرة فلا تسمى ب البر .

^١ وفي رواية عند مسلم : (بضع وسبعون) .

ولمّا كان الإيمان هو الخير الواسع الجامع لكل خير سمّاه سبحانه في الآية بـ
البر ، وهذا قوله تعالى : (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ) الآية .

ثم ذكر سبحانه أمهات شعب الإيمان فقال جل وعلا :

{ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى
الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ
وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا
وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ
هُمُ الْمُتَّقُونَ } .

فالبر هو الخير الواسع المتنوع ، ولا خير بهذا المعنى إلا في الإيمان الواسع
الشُّعب .

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

(يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَفِي قَلْبِهِ وَزُنْ شَعِيرَةٌ مِنْ خَيْرٍ ،
وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَفِي قَلْبِهِ وَزُنْ بُرَّةٌ مِنْ خَيْرٍ ،
وَيَخْرُجُ مِنَ النَّارِ مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، وَفِي قَلْبِهِ وَزُنْ ذَرَّةٌ مِنْ خَيْرٍ)
- يعني من إيمان ، إذ لا خير إلا من باب الإيمان ويدل عليه ما قاله الإمام
البخاري رضي الله عنه بعد هذه الرواية - : قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: قَالَ أَبَانُ:
حَدَّثَنَا قَتَادَةُ، حَدَّثَنَا أَنَسٌ، عَنِ النَّبِيِّ: (مِنْ إِيْمَانٍ) مَكَانَ (مِنْ خَيْرٍ) .

فيخرجون بشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم كما جاء في رواية المسند
لحديث الشفاعة :

(فَيَقَالُ لِي: أَخْرِجْ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنَ الْإِيْمَانِ ،
فَأَخْرِجُهُمْ) ... الحديث

قوله تعالى : { ولكن البر من آمن بالله } أي صدق تصديقاً جازماً لا يقبلُ الشكَّ والارتياب ، معتقداً عقيدةً لا تنفكُ عن قلبه أن دين الإسلام الذي جاء به سيدنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هو الدينُ الحقُّ الذي أظهره الله تعالى على سائر الأديان قبله .

وإن شأن المؤمنِ الحق أن يعتقد أن دينه دين الإسلام هو الدين الحق الذي ارتضاه الله تعالى لجميع خلقه ، ومن لم يسلم لله تعالى قلباً وقولاً وعملاً فليس بمؤمن ، قال تعالى :

{ ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين } .

ومن مقتضيات الإيمان القاطع الجازم أن لا ينتاب صاحبه أدنى ريب أو شكٍ في قضايا الإيمان لقوله تعالى : { إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون } .

ولو اجتمع على هذا المؤمن أهل الأرض كلهم ليشككوه أو يدخلوا إليه الارتياب في قضايا الإيمان لما تأثر بهم ولبقي مؤمناً صادقاً لم يتزحزح .

كما لو كان الزمن نهراً وأنت ترى ذلك وتحس به واجتمع عليك جمع كبير من الناس ليقنعوك أن الوقت ليل لَمَا صدقتهم ، ولأعرضت عنهم ، لأنك مؤمن أن الوقت نهار ، تبصره وتحس به .

وهكذا ينبغي أن يكون الإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم جازماً قاطعاً في أعلى مراتب الجزم والتصديق ، وإلا فلا يُقبل من صاحبه ، وذلك لأنَّ الإنسان إذا كان يصدق ويؤمن باليقينيات المسلّم بوجودها كالشمس والقمر مثلاً فيجب عليه أن يكون بوجود خالقها وموجدتها أشدَّ تصديقاً وإيماناً و يقيناً لأن العاقل إذا رأى بناءً فلا يحاكم عقله أبداً ولا يشكُّ أبداً بوجود الباني الذي بنى البناء ، بل هو بوجود الباني أشدُّ تصديقاً و يقيناً من وجود المبنى وإن لم يرَ الباني .

قوله تعالى : { من آمن بالله واليوم الآخر } : وهذا يعني أنّ عالم الدنيا هو اليوم الأول الذي يأتي على الإنسان ، وهو يوم له بداية ونهاية ، وقد حوى أياماً معروفةً بليها ونهارها ، وهي أيام متوالية ، وأما اليوم الآخر فهو يوم له أول ولا انتهاء له ، وليس بعده يوم لأنه آخر الأيام ، ولأنه يوم عقيم لا يلد غيره .

قال الله تعالى : { ولا يزال الذين كفروا في مرية منه حتى تأتيهم الساعة بغتة أو يأتيهم عذاب يوم عقيم } .

قوله تعالى : { ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة } فيجب الإيمان بملائكة الله تعالى ، وهم أجسام نورانية لطيفة خلقهم الله تعالى لعبادته وتنفيذ أوامره وهم على مراتب وأصناف .

وقوله تعالى : { والكتاب } أي جنس الكتاب ، ويشمل هذا جميع الكتب الإلهية النازلة على رسل الله تعالى صلوات الله تعالى وسلامه عليهم ، فيجب الإيمان بأن الله تعالى أنزل التوراة على موسى عليه السلام ، والصُّحُف على إبراهيم عليه السلام ، والزبور على داود عليه السلام ، والإنجيل على عيسى عليه السلام .

وما من رسول إلا وقد أنزل الله تعالى عليه كتاباً أو صحفاً جامعة ، وأعظمها وأجمعها القرآن النازل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن النصارى فرقة ادّعت أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول ، لكنّه مرسل للعرب فقط وليس لغيرهم من الناس ، وهذا كلام مردود عليهم باطل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أمره الله تعالى أن يقول : { قل يا أيها الناس إني رسول الله عليه وسلم أمره الله تعالى أن يقول : { قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً } فهو على زعمهم إذاً رسول يكذب على الله !! سبحانك هذا بهتانٌ عظيم ، إذ كيف يصحُّ لرسولٍ أن يكذب على الله تعالى ؟!

وقد أرسل الله تعالى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى الناس كافة ،
قال جل وعلا : { وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً } .

وقال تعالى : { قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً } .

وروى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى
الله عليه وسلم أنه قال : (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحدٌ من
هذه الأمة ، يهودي ولا نصراني ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به ،
إلا كان من أصحاب النار) .

قوله تعالى : { وآتى المال على حبه ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن
السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم
إذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا
وأولئك هم المتقون } .

فذكر سبحانه الأمور العملية بعد أن بيّن الأمور الاعتقادية .

قوله تعالى : { وآتى المال على حبه } ويحمل هذا على ما زاد على الزكاة
المفروضة من صدقات ونوافل ، بدليل أنه سبحانه وتعالى قال في الآية
نفسها: { وآتى الزكاة } أي المفروضة .

قوله تعالى : { وآتى المال على حبه } أي على حبه للمال فينفق من المال
المحسوب عنده ، ويشمل هذا أيضاً الأمور العارضة التي توجب على
المؤمن التصديق ولو كان قد أدى زكاة ماله ، ومن ذلك إغاثة الملهوف ،
وإعانة المضطر ، ويكون هذا فرضاً عارضاً عليه بسبب الحاجة .

وهذا هو المعنى المراد في الحديث الوارد عنه صلى الله عليه وسلم :

(إن في المال حقاً سوى الزكاة)^١ وهذا الحق الواجب بسبب الضرورة
العارضة .

^١ رواه الترمذي في سننه في كتاب الزكاة عن فاطمة بنت قيس رضي الله
عنها .

وقوله تعالى : { وآتى المال على حبه } ويزداد حب الإنسان للمال حال شبابه وصحته لأنه في تلك الحالة يستبعد الموت عن نفسه ، وإن الله تعالى يأمره أن ينفق من ماله وهو في تلك الحالة .

أما إذا كبرت سنه أو أصابه المرض فإنه ييأس من الحياة وينقص حبه للمال ، وليس ثواب صدقته في تلك الحالة كمن تصدق حال صحته وشبابه وقوته .

روى الشيخان والرواية للبخاري^١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

(جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا ؟ قَالَ : أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ) - أي صحيح البدن تشح بمالك - (تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمَلُ الْغِنَى^٢ ، وَلَا تُمَهِّلُ حَتَّى إِذَا بَلَغْتَ الْحُلُقُومَ قُلْتَ : لِفُلَانٍ كَذَا وَلِفُلَانٍ كَذَا ، وَقَدْ كَانَ لِفُلَانٍ) .

أي لا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم تأمر لفلان بعتاء ولفلان بعتاء ، والحال أنه سيصير لهم شئت أم أبيت لأنك ستموت عما قريب وتترك مالك لغيرك ، وصلى الله على معلم الناس الخير صلى الله عليه وسلم وجزاه الله عنا كل خير .

قوله تعالى : { وآتى المال على حبه } قد يكون المراد من قوله سبحانه : { على حبه } أي على حبه لله تعالى ، أي أنفق محباً لله تعالى ، مخلصاً مع الله ، لا يبتغي من وراء إنفاقه رياء ولا سمعة ولا ثناء الناس عليه .

ولابد من الإخلاص لله تعالى في كل عمل حتى يثبت لصاحبه الثواب ، ومن أنفق ماله رياء وسمعة فقد ذهب ماله وسيعاقب ويعذب على ذلك يوم القيامة لأنه لم يبتغ وجه الله تعالى في صدقته .

^١ انظر صحيح البخاري ومسلم كتاب الزكاة

^٢ وفي رواية عند الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة : (تأمل البقاء)

ثم بين سبحانه مصارف الصدقات فقال جل وعز :

{ وآتى المال على حبه ذوي القربى } وهم أولى بالمعروف من غيرهم ، وفي عطائك لهم صلة لهم لأنهم أرحامك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :
(الصدقة على المسكين صدقة ، وهي على ذي الرحم ثنتان : صدقة وصلة)^١ .

ومن كان غنياً موسراً وَمَنَعَ أرحامه صدقته ونفقته فقد حرمهم بذلك صدقات الناس عليهم ، لأن غيره من الأغنياء يقولون في أنفسهم : [إن أقرباء فلان الغني وأرحامه مكفيين بعطائه وصدقته] ، ولا يعلمون أنهم محرومون من خيره وصلته ، وبفعله هذا يكون قد منعهم خير الناس وصدقاتهم ، فما أقبح فعل من قطع صلة أرحامه بالعطاء والصدقات إن كانوا بحاجة وفقير ، وبفعله هذا تسبب في منع الخير عنهم ، فما أعظم ذنبه وأشرّ ذنبه !!

قوله تعالى : { واليتامى } جمع يتيم ، وهو من فقد أباه حتى يبلغ .

{ والمساكين } وهم الفقراء ، { وابن السبيل } وهو من انقطع في السفر ولو كان في بلد إقامته غنياً .

قوله تعالى : { والسائلين } وهم الذين يسألون الناس فإذا غلب على ظنك أن هذا السائل بحاجة وَجَبَ عليك أن تعطيه .

ويحرم سؤال الإنسان غيره عن غير حاجة ، كما جاء التحذير والترهيب من ذلك في أحاديثه صلى الله عليه وسلم^٢ .

^١ الحديث رواه الترمذي في سننه في كتاب الزكاة عن سلمان بن عامر رضي الله عنه .

^٢ روى الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
(مَنْ سَأَلَ النَّاسَ أَمْوَالَهُمْ تَكْثُرًا فَإِنَّمَا يَسْأَلُ جَمْرًا فَلْيَسْتَقِلَّ أَوْ لِيَسْتَكْثِرْ) ،
ومعنى (تَكْثُرًا) : أَي لِيَكْثُرَ مَالُهُ ، لَا لِحَاجَةٍ .

ولا يشترط في إعطاء السائل أن يكون عربياً جائعاً ظهرت عليه علامات الفقر والاضطرار ، لأنه قد يسألك لقضاء أمر خفي عليك كالتداوي من المرض أو سد حاجة أولاده وعياله ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

(للسائل حق وإن جاء على فرس)^١ .

أي : فلا تقل : لو كان هذا بحاجة لما ركب فرساً ، بل عليك أن تعطيه من غير مال الزكاة قياماً بحق السؤال .

قوله تعالى : { وفي الرقاب } أي تؤتي من مالك في فكِّ الرقاب المملوكة إذا كان هذا الأمر موجوداً .

قوله تعالى : { وأقام الصلاة وآتى الزكاة } وهذه أمور مفروضة لا بُدَّ منها ، أما الأمور المتقدم ذكرها فقد تكون مفروضة بالعارض أو على وجه الصدقات والقربات .

قوله تعالى : { والموفون بعهدهم إذا عاهدوا } ولم يقل جل وعلا : (وأوفوا بعهدهم إذا عاهدوا) كما هو السياق ، وإنما جيء باسم الفاعل ليبيِّن الاستمرار والمواظبة على وفاء العهد ، لأن اسم الفاعل يدل على الاستمرار ، أما الفعل (أوفى) فيدل على حدوث الفعل وهو هنا الوفاء ، وقد يتخلَّف أحياناً فلا يقال عن صاحبه عندئذٍ إنه من الموفين بالعهد .

قوله تعالى : { والموفون بعهدهم إذا عاهدوا } أي عاهدوا الله تعالى ، أو عاهدوا خلق الله تعالى ، وأول عهدٍ عاهد الإنسان فيه ربه يوم أخذ سبحانه الميثاق على بني آدم كلهم ، قال سبحانه : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ . }
ثم جاءت رسل الله تعالى تجدد العهد مع الخلق على الإيمان بالله تعالى ، وبما جاء عن الله تعالى وهكذا .

^١ رواه أبو داود في سننه في كتاب الزكاة عن سيدنا الحسين رضي الله عنه بن أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله تعالى وجهه .

وقد قال الله تعالى : { إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتاه أجرًا عظيمًا } .

فمن وقي بعهد مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وقي بعهد مع الله تعالى .

وهناك عهود الخلق مع بعضهم في البيع والشراء والمعاملات كلها .

وقد قال الله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود } .

قوله تعالى: { والصابرين في البأساء } - أي حال الشدة والفقر - { والضراء } - حال المصائب والنوائب - { وحين البأس } - أي حين تشتد الحرب - { أولئك الذين صدقوا } - أشار سبحانه لعلو رتبتههم ومنزلتهم بقوله :

{ أولئك } ، ومدحهم بأنهم صادقون في إيمانهم فقال جل وعلا :

{ وأولئك هم المتقون } ، وهذه هي صفات الصادقين المتقين كما بينها الله تعالى رب العالمين .

ثم ذكر الإمام البخاري رضي الله عنه أمور الإيمان التي ذكرها سبحانه بقوله :

{ قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون * والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون * والذين هم على صلواتهم يحافظون * أولئك هم الوارثون) .

وقد ذكر سبحانه في هذه الآيات صفات ومناقب المؤمنين ، ومن لم يتحقق بها على تمامها فهو على نقص في إيمانه ، ولا يكون مؤمناً كاملاً إلا إذا تحقق بجميع شعب الإيمان التي جاء ذكرها في القرآن الكريم والحديث الشريف .

وقوله تعالى في جملة أوصاف المؤمنين أهل الإيمان الكامل :

{ والذين هم لفروجهم حافظون * إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين * فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون } .

أي فمن سعى في صرف شهوته أو إثارتها في غير هذا المصرف الذي شرعه الله تعالى من الزوجات والمملوكات - عندما كان الرقُ موجوداً - فقد تعدى حدود الله تعالى ووقع في الحرام .

ويحرم بناء على ذلك النظر إلى صورة المرأة الأجنبية ، وإن أفتى مفتو آخر الزمن بجواز ذلك ، وذلك لأن علة التحريم قائمة ، وهي استثارة الشهوة ثم السعي إلى رؤية صاحبة تلك الصورة وما هنالك .

ويحرم بناء على ذلك أيضاً الاستمناء باليد ، وهي معصية وقع فيها كثير من شباب المسلمين ، ويسمونها العادة السرية ، وما هي إلا عادة شريفة تُنهك قوة الشاب وتضر بصحته .

ولما نزلت الآيات العشر الأولى من سورة المؤمنين قرأها النبي صلى الله عليه وسلم على الصحابة الكرام ثم رفع يديه ودعا فقال :

(اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا)^١ .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

^١ فقد روى الترمذي في سننه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : (كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا أنزل عليه الوحي سُمع عند وجهه كدوي النحل ، فأنزل عليه يوماً ، فمكثنا ساعة ، فسري عنه فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال : (اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا) ، ثم قال صلى الله عليه وسلم : أنزل عليّ عشر آيات ، من أقامهن دخل الجنة ، ثم قرأ : { قد أفلح المؤمنون } ... حتى ختم عشر آياتٍ) .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السابع :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه ، قال : باب حُب الرسول صلى الله عليه وسلم من الإيمان .

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده) .

وأورد بسنده إلى أنس رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين) .^١ اه
وقد ذكر البخاري رضي الله عنه أن الإيمان قول وعمل ، وأنه يزيد وينقص ، والعمل نوعان : قلبي وقالي ، فالإيمان يشتمل على أقوال وأعمال ، منها: القلبية الاعتقادية ، ومنها الجسمانية .

ثم ذكر البخاري رضي الله عنه أمور الإيمان أي شعبه ، ومن جملتها وأهمها : محبة النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله صلى الله عليه وسلم : (فوالذي نفسي بيده) : قَسَمٌ كثيراً ما كان يقسم به صلى الله عليه وسلم ، والمعنى : فوالذي روحي وذاتي وذراتي بيده - وهذا هو الله تعالى رب العالمين المتولي لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها بالتولية الخاصة .

^١ صحيح البخاري كتاب الإيمان

وفي هذا دليل على أن القسم قد يؤتى به على طريق الاستحلاف ، وقد يؤتى به لا على طريق الاستحلاف بل من أجل تأكيد الكلام ولفت الفكر إلى أهمية واعتبار المُقسَم عليه .

فقد أقسم رسول الله صلى الله عليه وسلم لتوكيد أهمية محبته صلى الله عليه وسلم وقوة منزلتها من الإيمان ، ويجب أن تكون محبته صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل محبوب من الوالد والولد والناس أجمعين .

ويدل الحديث أيضاً على جواز الحلف بالله تعالى ، لبيان أهمية وعظمة أمر يخبر عنه ، وإن لم يستحلف الإنسان على ذلك ، بل إن كان قصد الإنسان من الحلف لفت الفكر إلى أهمية واعتبار ما سيحلف عليه في الشرع فله في ذلك أسوة بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد جاءت أكثر روايات الحديث أنه صلى الله عليه وسلم يذكر الوالد مقدماً على الولد ، وهذا لاعتبارات متعددة ، منها : تقديم من هو الأكرم على الكريم ، إذ إن الوالد هو الأكرم والأعظم مقاماً من الولد عند كل إنسان .

ومن ناحية أخرى فإن كل إنسان لا يخلو من والد له ، ولكنه قد يكون لا ولد له ، ومن المعلوم أن الإنسان يحب والده محبة فطرية فطر الله تعالى كل إنسان عليها ، ويحبه محبة عقلية باعتبار أنه والده وله الفضل عليه ، وقد تعب وقاسى في تربيته وعنايته ، ويحبه محبة شرعية إيمانية باعتبار أن الله تعالى أمر الإنسان بالإحسان إلى والديه والبر بهما وحذر من عقوقهما ، وكذلك فطر الله تعالى كل إنسان على محبة ولده والعطف عليه والرحمة به باعتبار أنه ولده ، ومن صلبه وبضعة منه ، وكذلك جعل الله تعالى المودة والرحمة بين الزوجين ، فالرجل يحب زوجته والمرأة تحب زوجها ، كما أن النفوس جبلت على حب الجمال والكمال وحب من أحسن إليها ، ومع ذلك كله فقد بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لا يتم لمؤمن إيمانه حتى يكون هو صلى الله عليه وسلم أحب إليه من كل محبوب ، من والده وولده وزوجه وشيخه والناس أجمعين ،

وكلما ازداد المؤمن حباً في رسول الله صلى الله عليه وسلم ارتقى إيمانه في مقامات الكمال ، ولم يرضَ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أحدٍ أن يحبه كما يحب والده أو شيخه ، فلم يقل حتى يحبني كما يحب والده ، بل قال صلى الله عليه وسلم : (حتى أكون أحبَّ إليه من والده وولده والناس أجمعين) أي أن تكون محبتي عنده أعظم من محبته لوالده وولده والناس أجمعين .

ولكي تفهم سبب وحكمة وجوب محبته صلى الله عليه وسلم فوق كل محبوبٍ ، فإليك وجوهاً في بيان ذلك :

أولاً : يجب أن تعلمَ أن قضية محبته صلى الله عليه وسلم فوق كل محبوب قضية إيمانية فرضية محتمة على كل مؤمن حتى يكمل له إيمانه ، ومن لم يتحقق بذلك فهو ناقص الإيمان وفي قلبه فسوق ، لأن الله تعالى قال : { قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } أي فإن أنتم لم تتحققوا بذلك فأنتم فاسقون ، وترَبَّصوا أي انتظروا أمر الله تعالى بالعذاب .

ثانياً : يجب أن تعلم أن المحبة تقوم على أصليين ، وكل أصلٍ تتفرع عنه أصول ، أما الأصل الأول في سبب المحبة فهو الجمال ، والأصل الثاني هو النوال ، ولا بد لكل محبة أن ترجع إلى أحد هذين الأصلين ، فقد تحب إنساناً لنواله أي لما ينالك منه من سخائه ومن كرمه وعطفه عليك وإحسانه إليك ، وقد جبلت النفوس على حب من أحسن إليها .

وقد تحب إنساناً لجماله وكماله أي لتحقيقه بصفات الجمال والكمال من صلاح وتقى ونزاهة وعفاف^١ وهكذا .

^١ والجمال محبوب لا يعلل ، إذ فطر الله تعالى النفوس على حب الجمال ، كحبِّ الإنسان للأزهار والورود ، إذ إن جمالها بأشكالها وألوانها وروائحها ، أما جمال الإنسان فهو بكماله النفسي والخلقي والإيماني .

وإذا اجتمعت في إنسان صفات الجمال والنوال فإن محبتك له تكون أكبر وأعظم ، فما هو موقفك إذاً في المحبة مع من اجتمعت فيه الكمالات النفسية والخلقية والخلقية والعلمية على وجه فرداني دون خلق الله تعالى كلهم؟!

نعم يجب أن تكون محبتك له فوق كل محبة ، وهذا هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أفاض الله تعالى عليه الكمالات والمحاسن الخلقية والخلقية على وجه لم يشاركه فيه أحد ، حتى قال صلى الله عليه وسلم : (إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق)^١ .

وكثيراً ما كان صلى الله عليه وسلم يقول في فواتح خطبه : (إن أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهدى هدى محمد - صلى الله عليه وسلم)^٢ أي فإن كان الأنبياء قبله عليهم السلام قد جاء كل منهم بهدي فيه صلاح قومهم وسعادتهم فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بأفضل هدي ، وفيه صلاح وسعادة جميع الأمم إلى يوم القيامة ، وإن كان كل نبي قد جاء بالأخلاق الحسنة الفاضلة فإن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بُعث لينشر أحسن الأخلاق وأفضلها وأعلاها ، وقد امتدحه الله تعالى بقوله : { وإنك لعلى خلق عظيم } صلى الله عليه وسلم ، فهو صلى الله عليه وسلم أعظم خلق الله تعالى أخلاقاً ، وأجملهم خلقاً ، وأحسنهم سيرة ، وألينهم عشرة ، وهو أعلم خلق الله تعالى ، وأصدق خلق الله تعالى ، وأتقى خلق الله تعالى ، وأخشى خلق الله تعالى ، وأعبدهم وأحمدهم لله تعالى ، وهو أكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ، وأحبهم إلى الله تعالى ، فيجب أن يكون أحبهم إلى خلقه أيضاً حتى يكمل إيمانهم .

^١ رواه الإمام أحمد في المسند عن أبي هريرة رضي الله عنه ، ورواه الإمام مالك في الموطأ بلاغاً أنه صلى الله عليه وسلم قال : (بعثت لأتمم حسن الأخلاق) .

^٢ كما جاء في سنن النسائي كتاب صلاة العيدين .

ثالثاً : إذا كان الإنسان يحب والده لأن والده يحب له الخير ويعطف عليه ، إلا أنه قد يمتنع أحياناً عن ذلك لأسباب وموانع ، فإن سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب الخير لكل إنسان أعظم من محبة الوالد الخير لولده ، بل وأعظم من محبة الإنسان الخير لنفسه .

وانظر إلى قوله تعالى : { النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم } أي أحق بأنفسهم من أنفسهم ، وأرحم بهم من أنفسهم وهكذا .

وروى البخاري^١ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (ما من مؤمنٍ إلا وأنا أولى الناس به في الدنيا والآخرة ، اقرءوا إن شئتم : { النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم } فأیما مؤمن ترك مالاً فليرثه عصبته من كانوا ، فإن ترك ديناً أو ضياعاً) أي عيالاً (فليأتني فأنا مولاه) .

وقال سبحانه في بيان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على هداية وسعادة الناس : { لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ } أي يعز ويشق عليه ما فيه عنتكم وحرصكم ، وهو صلى الله عليه وسلم حريص على هدايتكم وإيصال الخير إليكم وسعادتكم في الدنيا وفي الآخرة ، وهو صلى الله عليه وسلم رؤوف بكم أي يسعى في دفع الضرر والعذاب عنكم ، وهو رحيم بكم يريد لكم كل خير ونفع ونعمة .

ولذلك وجب على كل مؤمن أن يحب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل محبوب ، وأن يحبه أكثر من حبه لنفسه ، لأنه صلى الله عليه وسلم يريد الخير لكل إنسان ، ويحب الخير لكل إنسان أعظم وأكثر من محبة الإنسان الخير لنفسه ، ولذلك جاء في الحديث الذي رواه الإمام أحمد^٢ عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال :

^١ في صحيحه في كتاب التفسير

^٢المسند ١٧٣٥٥

[كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فقال : والله لأنت يا رسول الله أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا نفسي .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(لا يؤمن أحدكم حتى أكون عنده أحبَّ إليه من نفسه) .

قال عمر رضي الله عنه : فلأنت الآن والله أحبُّ إليَّ من نفسي .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر) .

وقال سبحانه : { مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ } .

أي بل تكون رغبتهم في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمة على رغبتهم في أنفسهم ، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم يريد لهم الخير أكثر مما يريدونه هم لأنفسهم ، وهو صلى الله عليه وسلم أرحم بهم من أنفسهم ، لأن نفس الإنسان قد تجره إلى المهالك ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد حذَّره من كل شر ودلَّه على كل خير ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إنما مثلي ومثل الناس : كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حوله ، جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها ، فجعل ينزعهنَّ ، ويغلبنه فيقتحمن فيها ، فأنا آخذ بحجزكم عن النار ، وهم يفتحمون فيها)¹ .

فهذا موقفه صلى الله عليه وسلم مع الأمة ، إنه موقف المنقذ والمنجد الذي يُبعد الناس عن الوقوع في النار وهم يفتحمونها ولا يرحمون أنفسهم ، ولكنه صلى الله عليه وسلم رؤوف رحيم بهم .

وإذا كان الإنسان يحبُّ نفسه لأنها عزيزة عليه ، فإن نفس سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أعزُّ وأكرمُّ ، بل إن العزة كلها لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن أراد العزة فليؤمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وليدخل في ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم لينال عزة الأبد، ولولا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان للناس عزة ولا اعتبار،

¹ رواه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق عن أبي هريرة رضي الله عنه .

بل كانوا في ضلال مبين كما وصفهم سبحانه وتعالى في كتابه الكريم بقوله:
{ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ
آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ
مُبِينٍ } أي في ضلال بين حتى كانوا أضلّ من الأنعام ، إذ بلغ الجهل
والضلال بهم إلى أن يئدوا بناتهم وهن على قيد الحياة ، ويقتلوا أولادهم
خشية الفقر ، مع أن الدابة والبهيمة ترفع حافرها لئلا تُصيب ولدها بأذى
، فمن أضل إذاً الكفار أم الأنعام !؟

فما أعظم فضل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمة ، وما
أشرف مقامه !؟

إذ نقل الناس من الضلال المبين إلى النور المبين ، فمن آمن به واتبعه
فقد ترفع عن الصفات البهيمية الشهوانية ، وترقى في الكمالات الإنسانية
العلوية .

ويجب على كل إنسان أن يعلم أن أحكام الشريعة أحكام محكمة قائمة على
حكم عالية ، قد يدرك بعضها الإنسان ، وقد يخفى عليه أمور كثيرة تحتاج
إلى تدبر وتفكر منه ، فلما فرض الله تعالى علينا محبة رسول الله صلى
الله عليه وسلم فوق محبة كل محبوب ، لم يكن ذلك من باب إلزام ما لا
يلزم ، أو حكماً لا حكمة من ورائه ، بل إن من وراء ذلك حكماً عالية ، جاء
بيان بعضها في كتاب الله تعالى وحديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، ومع ذلك فإن العقول قاصرة عن إدراك جميع ما هنالك من حكم
وأسرار انطوت في أحكام الله تعالى ، التي من جملتها أن فرض على الأمة
محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق محبة كل محبوب .

ويكفيك سبباً يحملك على أن تحب رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق
محبة كل محبوب أن تعلم أنه صلى الله عليه وسلم أرحم بك من والدك
وولدك ومن الناس أجمعين ، بل ومن نفسك ، ففي يوم القيامة يوم يحشر
الناس ويتخلى الوالد عن ولده ، والولد عن والده ، حتى إن الناس يلجؤون
إلى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لإغاثتهم ، فيكون جواب كل منهم :

(وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي)^١ ، فلما يلجؤون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويستغيثون به ، يكون صلى الله عليه وسلم خير مُغيث وخير مُجير ، فيقول : (أنا لها)^٢ ، ويظهر لكل إنسان أنه صلى الله عليه وسلم يريد الخير له أكثر مما هو يريد له لنفسه ، وإن كان ذلك في الدنيا أيضاً ،

إذ قد يقدم الإنسان على نحر نفسه إذا اشتد غضبه ومقته ، ولكنه صلى الله عليه وسلم لا يرضى له ذلك ، فهو أرحم بالإنسان من نفس الإنسان .

ولما كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أرحم بالمؤمنين من أنفسهم ، جاءنا بشريعة من عند الله تعالى فيها الرأفة والرحمة ، وأحكامها مقبولة معقولة محكمة ، يدرك هذا من تعقل وتدبر وتحزر من أسر الأهواء والكبر والعجب .

ويجب على الإنسان المؤمن أن يكون موقفه مع أحكام الشريعة المُحمدية موقف المُتَحَاكِم إليها المُتَقَبِّل لها الراضي بحكمها ، لا موقف المُنتَقِد المُعْتَرِض ، الذي إذا جاء الحُكْم مُخَالَفاً لأهوائه ضاق به ذرعاً ووجد الحرج والعنت .

وقد جعل الله سبحانه وتعالى التَّحَاكِم إلى شريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والإذعان إليها مع الرضا بأحكامها جعل ذلك ميزان الإيمان ، فقال تعالى : { فلا وربك لا يؤمنون حتى يُحَكِّمُواك فيما شجر بينهم } ،

- أي حتى يتحاكموا إليك فيما وقع بينهم أو اختلط عليهم -

{ ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً } .

أي لا يصح لهم إيمانهم حتى يذعنوا لما جئت به قولاً وعملاً وعقيدة مع الرضا والتسليم القلبي .

وذلك لأن ما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من شريعة هو غاية الحكمة ، وفيها صلاح الإنسان وسعادته ، وإذا التبس على الإنسان

^١ رواه الإمام أحمد في مسنده ٢٥٦٠ عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما

^٢ كما جاء هذا في صحيح البخاري وغيره .

فَهُمْ ذَلِكَ لَضِيقِ عَقْلِهِ وَقَلَّةِ عِلْمِهِ فَعَلِيهِ التَّسْلِيمُ لِمَنْ آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى
الْحِكْمَةَ كُلَّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَقَدْ قَالَ سُبْحَانَهُ :
{ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ
اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } .

وكلما ازداد المؤمن معرفة بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
وشمائله وخصاله وفضائله الكريمة الشريفة التي خصه الله تعالى بها ازداد
حباً فيه صلى الله عليه وسلم ، فازداد إيمانه وارتقى إلى مقام الكمال ، ومن
هنا تفهم وجوب التعرف إلى جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم والاطّلاع على خصاله وشمائله وسيرته صلى الله عليه وسلم ، قال
تعالى : { واعلموا أن فيكم رسول الله } صلى الله عليه وسلم ، أي فاعرفوا
له قدره وفضله ، وقال سبحانه في الإنكار على المشركين الذين جحدوا
رسالة ونبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم : { أم لم يعرفوا رسولهم
فهم له منكرون } .

ومهما عرف الإنسان وارتقى في المعرفة ، فهو عاجز عن معرفة الكمالات
التي خصّ الله تعالى بها رسوله صلى الله عليه وسلم ، لأنها كمالات نبوية
خاصة به صلى الله عليه وسلم ، لم ينلها نبي قبله صلى الله عليه وسلم ،
فأني لأحد إدراكها ؟

وإن الدليل الصادق على محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو
اتباعه صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم ،
والتمسك بسنته صلى الله عليه وسلم على أكمل الوجوه .

ومن قدم هوى نفسه وشهواته على أمرٍ أمرَ به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على نقصٍ من محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى نقصٍ من الإيمان ، وذلك لأن من ادعى محبة شيءٍ لزمه أن يأتي بالشواهد على صدق دعواه ، فدليل المحبة الصادقة كمال اتباعه صلى الله عليه وسلم ، نسأل الله تعالى أن يرزقنا محبته جل وعلا ومحبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الوجه الذي يرضي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم عتًا . آمين

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ، والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثامن :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم ، على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه ، قال :

باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر^١

وقال إبراهيم التيمي : ما عرضت قولي على عملي إلا خشيتُ أن أكون مكذباً .

وقال ابن أبي مُليكة : أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه ، ما منهم أحد يقول : إنه على إيمان جبريل وميكائيل .

ويذكر عن الحسن : ما خافه إلا مؤمن ، ولا آمنه إلا منافق .

وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة ، لقول الله تعالى: { ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون } .

ثم أورد بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (سباب المسلم فسوق ، وقتاله كفر) . اهـ

إبراهيم التيمي رضي الله عنه أحد كبار التابعين ، كان على قدم في الصدق والإخلاص ، وكان يُعلم الناس ويعظهم ، إلا أنه كما قال يخاف أن يكون كلامه مخالفاً عمله .

^١ كما في كتاب الإيمان .

أما ابن أبي مليكة رضي الله عنه فهو تابعي جليل ، أدرك ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، منهم أبو هريرة ، وأنس بن مالك ، وأم المؤمنين السيدة عائشة ، وأسما بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهم أجمعين .

وهؤلاء الذين أدركهم كلهم كان كل واحد منهم يخاف النفاق على نفسه كما قال - والمراد من النفاق هنا النفاق العملي^١ - وذلك لِشِدَّة ورعهم وخشيتهم من الله تعالى ، فهم يخافون أن تكون أعمالهم مشوبة بشيء من الرياء والسمعة وحبِّ الظهور وعدم الإخلاص فيها لله وحده ، ولذلك ما فيهم من يقول إن إيمانه على إيمان جبريل وميكائيل عليهما السلام .

وإذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يخافون النفاق على أنفسهم ، مع أن الله تعالى شهد لهم بالإيمان الحق والإخلاص والصدق ، فهذا يعني أن من شأن المؤمن الكامل المخلص أن يخاف على نفسه النفاق والرياء ، وأن لا يزيكي نفسه بالمدح والثناء ، وأن يتَّهَم نفسه بالتقصير .

^١ وذلك لأن النفاق على نوعين : النفاق الأكبر ، وهو النفاق الاعتقادي ، وهو الكفر ، إذ يُظهِر صاحبه الإيمان ويبطن الكفر ، قال الله تعالى : { يا أيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم } . وقال سبحانه : { وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون } . وهناك النفاق الأصغر وهو النفاق العملي ، ومن علامات صاحبه أنه إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اتَّمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر ، وهكذا فأمره على خطر إذا لم يبادر إلى التوبة .

ولذلك قال الحسن البصري ^١ رضي الله عنه :

[ما خاف الله إلا مؤمن ، وما آمنه إلا منافق] .

وهذا خلاف ما عليه مؤمنو عصرنا الذين غلب عليهم الغرور وحبُّ الدَّعوى والظهور ، وكأنَّ أحدهم إذا قام من الليل يصلي ما تيسر له فقد ارتقى أعلى المقامات ، وما درى هذا الجاهل أن السلف الصالح رضي الله عنهم مع قوة إيمانهم وكثرة أعمالهم وصدقهم وإخلاصهم ، لم يرد عن أحدٍ منهم أنه مدح نفسه بكثرة عبادته أو ولايته .

أما شهادة الله تعالى للصحابة رضي الله عنهم وثناؤه عليهم بالإيمان الحق ، فقد قال جل وعلا : { والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا } وهم المهاجرون والأنصار { أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة ورزق كريم } .

^١ والحسن رضي الله عنه من أفاضل التابعين وزهادهم ، نال مقاماً عالياً في العلم والفضل والولاية ، تأثر بوعظه وتذكيره كثير من التابعين الذين سمعوا له ، وقد حصل كل ذلك بسبب نَفَحَاتِ أصابته من بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الفياض بالعلم والخير والنور والبركة ، فكانت أمه واسمها (خَيْرَة) مملوكة لأُم المؤمنين السيدة أم سلمة رضي الله عنها ، ثم أعتقتها وزوجتها فولدت الحسن ، فكانت تتردد إلى بيت السيدة أم سلمة رضي الله تعالى عنها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، وربما أرسلتها السيدة أم سلمة رضي الله عنها في بعض حاجاتها ، وتركت الحسن عندها - وهو رضيع - ، فكان إذا بكى الحسن أخذته السيدة أم سلمة رضي الله عنها ووضعتة على صدرها مداعبة ومؤانسة له ، حتى يهدأ ويسكن ، فببركة ذلك نال الحسن ما نال ، وبلغ مبلغ الرجال في العلم والتقى ، ونسأل الله تعالى نَفَحَةً مُحَمَّدِيَّةً تُسعدنا في الدنيا وفي الآخرة .

وقال سبحانه وتعالى في مدحه للصحابة الكرام وشهادته جل وعلا لهم بالإخلاص : { محمد رسول الله } - صلى الله عليه وسلم - { والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً } - أي في سجودهم وأعمالهم وجهادهم - { سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا } .

وإذا كانت صفة المؤمن الصادق الخوف من الله تعالى ، فاعلم أن الخوف قد يكون من حبوط العمل إن وقع صاحبه في ذنب جاء فيه أنه يحبط العمل ، وأعظم تلك الذنوب التلفظ بكلام الكفر ، فهي تحبط عمل الإنسان كله . وقد قال سبحانه : (لئن أشركت ليحبطنَّ عملك ولتكونن من الخاسرين) .

وهناك من الألفاظ التي يتكلم بها الإنسان متهاوناً بمعناها ومدلولها ، فيحبط كثير من أعماله وهو لا يشعر ، فقد روى البخاري ^١ عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن العبد ليتكلم بالكلمة ، ما يتبين فيها ، يزلُّ بها في النار أبعد مما بين المشرق) ، وفي سنن الترمذي ^٢ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة ، لا يرى بها بأساً ، يهوي بها سبعين خريفاً في النار) وليست هذه الكلمة من قبيل الكفر ، إذ لو كانت كذلك لحبط سائر عمله ، ولكنها كلمة فيها شيء من المس بجانب الشريعة أو النبوة المحمدية وهكذا . ومن الذنوب التي تحبط الأعمال : المنُّ على من تصدقت عليه وإيذاؤه بالكلام ، وقد قال تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم باليمن والأذى } ، وقال سبحانه : { قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حلیم } .

^١ في صحيحه في كتاب الرقاق .

^٢ في كتاب الزهد .

ومن أعظم الذنوب التي تحبب الأعمال أيضاً: إساءة الأدب مع جناب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، سواء في مجالس أحاديثه الشريفة أو ذكر قصة مولده المبارك صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد قال تعالى :

{ يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبب أعمالكم وأنتم لا تشعرون } .

وقد نصَّ العارفون على أنّ من ناظر غيره أو جادله في أمر شرعي أو حكم فقهي ، وقال له الآخر : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وذكر له حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فيجب عليه أن يصغي ولا يقاطعه ، حتى يفرغ من ذكر حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم إذا أراد الكلام بعد ذلك فليتكلم بصوت منخفض سمته الأدب والوقار ، وإلا فقد رفع صوته فوق صوت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أو عَارَضَهُ ، فيقع عندئذٍ في الإثم ويحبب من عمله الصالح على حسب ذلك وهو لا يشعر ، ومن باب أولى يحبب عمل من عارض آية من كلام الله تعالى وقاطع قائلها ولم يُصغِ إليه .

وكما يجب على المؤمن أن يخاف ويحذر من زلات لسانه ، فيجب عليه أن يحذر الفتن والشبهات والضلالات التي تُفسد عليه إيمانه وتسيء عاقبته ، إلا من خاف من ذلك ، واستعان بالله جل وعلا وسأله الحفظ من الفتن ما ظهر منها وما بطن ، وسأله حسن الخاتمة .

وقد ذكر سبحانه صفات وخصال أهل الإيمان على اختلاف مراتبهم ومقاماتهم في سورة المؤمنون ، فقال جل وعلا :

{ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون * والذين هم بآيات ربهم يؤمنون * والذين هم بربهم لا يشركون * والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة { - أي خائفة مشفقة - { أنهم } - أي لأنهم - { إلى ربهم راجعون * أولئك يُسارعون في الخيرات وهم لها سابقون } .

فذكر سبحانه من صفات المؤمنين السابقين أنهم يخافون ربهم ، لأنه ربهم جل وعلا وهم عبيده ، وشأن العبد أن يخاف مقام الرب وعظمته وجلاله ، كما هو عليه حال الملائكة الذين وصفهم سبحانه بقوله :

{ يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون } .

قوله تعالى في وصف المؤمنين السابقين : { والذين هم بآيات ربهم يؤمنون } أي إيماناً قلبياً اعتقادياً ، وإيماناً عملياً تحقياً .

{ والذين هم بربهم لا يشركون } وليس المراد في الآية السابقة من الشرك الشرك الأكبر كعبادة الأصنام ، إذ إن هذا يتنافى مع وصف الله تعالى لهم بأنهم من خشية ربهم مشفقون ، وأنهم بآيات ربهم يؤمنون .

والمراد من الشرك في الآية السابقة الشرك الأصغر ، وهو الشرك الخفي ، فهم لا يشركون مع الله أحداً ، أي أنهم يؤمنون ويعتقدون أنه لا تأثير لشيء من المخلوقات من ذاته ، بل إن الفعال والمدبر والمؤثر والضار والنافع هو الله تعالى وحده ، الذي لا حول ولا قوة إلا به ، أي لا حول لمتحول ومتحرك إلا بالله ، ولا قوة لمتقوٍ إلا بالله وحده .

فإذا شرب الإنسان العطشان الماء ، فإن الذي يرويه على الحقيقة هو الله تعالى وليس الماء ، وإذا شرب المريض الدواء فإن الذي شفاه بالدواء هو الله تعالى ، ولا تأثير للدواء من ذاته ، بل الفعال والمؤثر هو الله تعالى ، فإن شاء شفى المريض به ، وإلا فلا ، وذلك يرجع لعلمه وحكمته سبحانه ، وهكذا سائر الأسباب والوسائط ، فإن شاء سبحانه أعملها لما خلقها له ، وإن شاء أهملها ، كما سلب سبحانه صفة الإحراق من النار التي أراد النمرود أن يحرق بها الخليل على نبينا وعليه الصلاة والسلام .

كما أن قوله تعالى : { والذين هم بربهم لا يشركون } أي لا يشركون أنفسهم مع الله تعالى ، فلا يرون لأنفسهم حولاً ولا قوةً من ذاتهم ، بل حولهم وقوتهم بالله تعالى ، ولا غنى لهم عن إمداد الله تعالى لهم ولا لحظة ، وهذا مقتضى معنى قوله صلى الله عليه وسلم : (لا حول ولا قوة إلا بالله) .

قوله تعالى : { والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة } - أي يؤتون ما آتوا من أعمال صالحة - كما بيّن ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - لكنّهم على وجل وخوف أن لا تقبل منهم لنقص إخلاصهم وصدقهم فيها مع الله تعالى .

جاء في سنن الترمذي ^١ أنه لما نزلت هذه الآية سألت السيدة عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : (هم الذين يشربون الخمر ويسرقون) - يعني أهُمُ العصاة الذين يفعلون المعاصي ويخافون ؟ قال : (لا يا بنت الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون ، وهم يخافون أن لا يقبل منهم ، أولئك الذين يسارعون في الخيرات) .
أي يخافون أن لا يقبل منهم بسبب عدم إخلاصهم الكامل مع الله تعالى ، أو بسبب موانع تمنع قبول أعمالهم جاء بيانها عنه صلى الله عليه وآله سلم .

قوله تعالى : { أنهم إلى ربهم راجعون } أي لأنهم سيرجعون إلى الله تعالى وسيسألهم عن مقصودهم من أعمالهم ثم يجزيهم عليها .

ثم شهد سبحانه لهؤلاء بأنهم هم المؤمنون السابقون فقال عز من قائل :
{ أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون } .

ويروى عن الحسن البصري رضي الله عنه قوله :

(أدركت سبعين بدرياً) - أي من الصحابة الذين شهدوا غزوة بدر -

(أكثر لباسهم الصوف ، لو رأيتموهم لقلت : مجانين) - والخطاب للتابعين ، أي لقلت عنهم مجانين لشدة ورعهم وزهدهم - (ولو رأوا خياركم لقالوا : ما لهؤلاء عند الله من خلاق ، ولو رأوا شراركم) - أي العصاة منكم - (لقالوا : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب) . فانظر أيها العاقل في الفرق الكبير بين حال الصحابة الكرام والتابعين من بعدهم .

^١ في كتاب تفسير القرآن .

(ولقد رأيت أقواماً كانت الدنيا أهون على أحدهم من التراب تحت قدميه)^١ - أي لعدم قيمتها عنده - .

ومن العجيب أن بعض المؤمنين في زماننا راح يجعل عزته وشهرته تحت قدميه ، فيكتب اسمه على الأحذية التي يصنعها ، ليُذاع اسمه وينتشر خبره وتروج بضاعته ويكثر ماله !!

وشتان بين أقوام جعلوا الدنيا وأموالها تحت أقدامهم ، وأقوام جعلوا أسماءهم تحت أقدامهم لينالوا مال الدنيا .

نعم لقد غير هؤلاء ميزان المروءة والاعتبار لما استحکم حب الدنيا على قلوبهم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : (حُبُّ الدنيا رأس كل خطيئة)^٢ ، وروى أبو داود^٣ عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (حُبُّك الشيء يُعمي ويُصم) أي يعمي صاحبه ويُصمُّه عن كل شيء يضرُّه ، وذلك في سبيل الحصول على الدنيا وأموالها .

وإذا كنت أيها الجاهل قد تنازلت عن كرامتك لاسمك ووضعتته تحت الأقدام ، فاحفظ حُرمة هذا الاسم الذي سمَّاكَ به والدك ، خاصة إذا كان اسماً كريماً شريفاً مُقدَّساً .

ومن المُحرّمات التي وقع الناس فيها في زمننا التهاون برمي الأوراق والأكياس التي كُتبت عليها أسماء أو أقوال لها حُرمتها في شرع الله تعالى ، وليعلم هؤلاء أنّ من أهان شيئاً له حُرمتُهُ في شرع الله تعالى أهانَهُ الله ، ومن احترمه وأكرمه أكرمه الله .

^١ رواه أبو نعيم في الحلية عن علقمة بن مرثد وأورده المزي في تهذيب الكمال والحسين بن محمد بن إبراهيم الحنائي في كتابه العاشر من الحنائيات والحسن بن علي الجوهري في حديث أبي الفضل الزهري
^٢ أخرجه البيهقي في شعب الإيمان .
^٣ في سننه في كتاب الأدب .

وقد ذكر الإمام القشيري رحمه الله تعالى عن بشر الحافي رحمه الله تعالى أنه وجد في الطريق ورقةً مكتوباً فيها اسم الله عَزَّ وَجَلَّ ، وقد وطئتها الأقدام ، فأخذها ، واشترى بدهام كانت معه غَالِيَةً - أي طِيْبًا جيداً - فطَيَّبَ بها الورقة ، ثم جعلها في شِقِّ جدارِ عالٍ حصينٍ ، فرأى في تلك الليلة وهو نائم كأنَّ قائلاً يقولُ لهُ : (يَا بَشْرُ طَيَّبْتَ اسْمِي ، لِأَطْيَبَنَّكَ في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)^١ ويروى أنَّ هذه الرؤيا كانت سبب إنابته بِكَلِيَّتِهِ إلى مَوْلَاهُ سُبحانه ، وقد نال بِشْرُ رضي الله عنه مقاماً عالياً في العلم والورع والولاية. قال الله تعالى : { ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب } ولا بد لقلب عامرٍ بالإيمان أن يظهر أثره على الجوارح واللسان بتكريم وتعظيم ما هو كريم ومحترم في دين الله تعالى .

وهكذا قول الحسن رضي الله عنه : (ما خاف الله إلا مؤمن ، وما آمنه إلا منافق) ، فمن خافَ الله ولجأَ إليه واستعاذَ به حفظه الله تعالى وأدخله في أمانه ، وأما من أعطى نفسه الأمان دون أن يلتجأَ ويعتصم بالله تعالى فهو مغرور بنفسه ، وَيَكَلُهُ اللهُ تعالى إلى نفسه فيهوي في المهالك ، نسأل الله العافية . آمين

وقد علّم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أُمَّتَهُ أدعيةً ليذعوا بها ربهم ، ومنها : (اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كُلِّها ، وأَجِرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة)^٢ ، وجاء في الحديث القدسي : (وعزتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين ، إذا خافني في الدنيا أمنتَه يوم القيامة ، وإذا أمني في الدنيا أخفته في الآخرة)^٣ فخوف العبد من الله تعالى في الدنيا هو أمان له يوم القيامة .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين .

^١ انظر الرسالة القشيرية ص ١٠

^٢ رواه الإمام أحمد في المسند عن بسر بن أرطاة رضي الله تعالى عنه

^٣ قال الحافظ المنذري في الترغيب : رواه ابن حبان في صحيحه اه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس التاسع :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن اسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (اللهم علّمه الكتاب) .

ثم أورد بسنده إلى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

[ضمني رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : (اللهم علمه الكتاب) ^١ .

وفي رواية : [ضمني النبي صلى الله عليه وسلم إلى صدره وقال : اللهم علمه الحكمة] ^٢ - والضم لا يكون إلا إلى الصدر ، فتقول : ضم الوالد ولده أي إلى صدره ، وضمت الأم ابنها أي إلى صدرها - .

وفي رواية : (اللهم علمه الحكمة وتأويل الكتاب) ^٣

- أي : تفسير القرآن - . اه

^١ صحيح البخاري كتاب العلم

^٢ صحيح البخاري كتاب المناقب

^٣ انظر سنن ابن ماجه في المقدمة

قال الحافظ ابن حجر^١ :

أخرج البغوي في معجم الصحابة من طريق زيد بن أسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : [كان عمر يدعو ابن عباس ويقرّبه] - أي : أيام خلافته فيجلسه مع كبار الصحابة ، في حين أن ابن عباس وقتئذ حديث السن - [ويقول : إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاك يوماً فمسح رأسك وقال : " اللهم فقهه في الدين ، وعلمه التأويل "] . اهـ

ويدل هذا أولاً على أن أشرف العلوم وأفضلها هو العلم بكتاب الله تعالى وأحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لذلك أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرم ابن عباس رضي الله عنهما ويتحفه ، فضمّه إلى صدره ودعا له ، وفي هذا الضم إفاضة من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على ابن عباس رضي الله عنهما ، ففتح الله على ابن عباس علوماً ومعارف كثيرة وراح يفهم من المعاني القرآنية ما لم يفهمه غيره ، حتى سمّاه السلف رضي الله عنهم : [ترجمان القرآن وحبر الأمة] .

ولا تظن أن مفاهيم ابن عباس رضي الله عنهما قد حُرِّمها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم ، فإن لرسول الله صلى الله عليه وسلم إفاضة لأصحابه متنوعة في كفياتها ، وهي على مراتب^٢ ، ولكل منهم حظه ونصيبه الوافر منها رضي الله تعالى عنهم أجمعين .

قوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم علمه الكتاب) أي علماً خاصاً ، وإن أول ما يشمله العلم بالكتاب العلم بكيفية تلاوته وتجويده ، إذ لا بد من التحقق بالحد الأدنى من التجويد ، وهو تصحيح الحروف بالنطق ومراعاة صفاتها وأحكامها ، وهذا لأن الله تعالى أنزل القرآن بلسان عربي مبين ، فلا بد من قراءته بلسان عربي مبين فصيح .

^١ فتح الباري ١ / ١٢٣

^٢ فمنها الضم أو الغرف أو المجالسة وغيرها .

ثم هناك العلم بمعاني القرآن ، فعامة الناس يفهمون من القرآن المعاني الإجمالية الظاهرة لأنهم عرب ، والقرآن نزل بلسان عربي مبين .

ثم هناك العلم بحقائق القرآن ومعانيه العالية ، والعلم بأسرار القرآن وإشاراته العرفانية ، واستنباط الأحكام الشرعية ، فهذا كله يحتاج إلى بحث وجهد وتفهم من الله تعالى ، وهذا ما دعا به رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس رضي الله عنهما بقوله : (اللهم علمه الكتاب) فاتاه الله تعالى علوماً ومفاهيم للقرآن ما نالها إلا كبار الصحابة كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم .

وكان رضي الله عنه يقول للتابعين :

[لو تكلمت لكم على قوله تعالى : { الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمربينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً } يقول لهم : لرجتموني]^١ .

أي : لقتلتموني ، وذلك لأن عقولهم قاصرة عن فهم ما خص الله تعالى به ابن عباس رضي الله عنهما من علوم ومفاهيم لأسرار القرآن وحقائقه ومعانيه ، ولا استعداد عندهم لتقبل تلك المفاهيم العالية .

وروى الحاكم في المستدرک عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

[كان عمر رضي الله عنه يسألني مع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : أتسأله ولنا بنون مثله ، قال : فقال عمر : إنه من حيث علمتم [- أي : إنه من بيت النبوة من أقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسح على رأسه - ،] قال : فسألهم عن { إذا جاء نصر الله والفتح } فقال بعضهم : أمرنا الله أن نحمده ونستغفره ، وقال بعضهم : لا ندري ، فقال لي : يا ابن عباس ، ما تقول ؟ قال : فقلت : « هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم » وقرأ السورة إلى آخرها ، قال : فقال عمر : « والله ما أعلم منها إلا ما تعلم »] .

^١ انظر كتاب [قواعد العقائد] للإمام حجة الإسلام الغزالي ص ١١٥

ففهم رضي الله عنه ما لم يفهمه غيره من الإشارات والمعاني القرآنية ، كل ذلك ببركة دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وجاء في البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ^١ :

إن عمر كان يدعو عبد الله بن عباس فيقربه ويقول: إني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاك يوماً فمسح رأسك وتفل في فيك وقال:

(اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل) .

وإن لتفلاته صلى الله عليه وسلم آثاراً تظهر على من تفل عليه على حسب استعداده ، وما يتطلبه الحال الذي هو فيه ، فكان صلى الله عليه وسلم يتفل على المريض فيبرأ بإذن الله تعالى ، ويتفل على الجريح فيشفى بإذن الله تعالى ، وتفل صلى الله عليه وسلم في عين علي رضي الله عنه فبرأ من الرمذ الذي ألمَّ به ، وكان يتفل في البئر فيفيض ماؤها ، ويتفل في البئر المالحة فتصير ماؤها عذبة بإذن الله تعالى ^٢ ، كل ذلك من دلائل صدق نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم ، فذراته وآثاره صلى الله عليه وسلم فياضة بالخيرات والبركات والأسرار والأنوار .

واعلم أن أفضل العلوم وأشرفها وأصلها وأنفعها للإنسان وأسعدها له في دنياه وآخرته هو العلم بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم التي لا تنفك عن القرآن ، ولو فقد الإنسان هذا العلم وفقد الإيمان بالقرآن لصار أضلَّ من البهائم كما وصف سبحانه الكافرين فقال :

{ إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً } ، وقال تعالى : { والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم } .

٣٢٦ / ٨ ١

^٢ انظر البحث في كتاب (سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) للشيخ الإمام ، في الصفحة ٣٠ حول خصائص ريق النبي الشريف صلى الله عليه وسلم ، وستجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى .

ولذلك قدّم سبحانه ذكر نعمة العلم بالقرآن على نعمة خلق الإنسان وإيجاده ، لأن شرف الإنسان وفضله يترتب على إيمانه وعلمه بالقرآن ، قال تعالى في سورة الرحمن التي ذكر فيها مظاهر امتنانه سبحانه على عباده بأنواع من الرحمات العامة الجامعة ، والتي هي مظاهر وآثار لاسمه سبحانه (الرحمن) وذكر فيها وجوهاً من رحمته الخاصة بالمؤمنين ، قال تعالى : { الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان } .

وهذا الإنسان الذي ذكره سبحانه في هذه الآية بقوله { خلق الإنسان } هو أشرف إنسان أنزل الله عليه القرآن وعلمه البيان عن القرآن وهو سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهو الإنسان الكامل المكمل الذي قال الله تعالى له : { إن علينا جمعه وقرآنه } أي : نجمع القرآن في صدرك ونقرئك إياه - (ثم إن علينا بيانه) أي : أن نبينه لك حتى تبين للناس معاني القرآن وأحكامه كما قال سبحانه في آية أخرى : { وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم } ، ولذلك قال سبحانه : { الرحمن علم القرآن } أي : لأفضل إنسان خلقه ، { خلق الإنسان } وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي { علمه البيان } أي : عن القرآن فافهم ، أما خلقه سبحانه لجنس الإنسان من آدم عليه السلام وذريته فقد ذكر ذلك سبحانه بعد آيات في سورة الرحمن فقال جل وعلا : { خلق الإنسان من صلصال كالفخار } .

وفي هذه السورة - سورة الرحمن - ذكر سبحانه أنواعاً من رحماته على عباده وامتن بها عليهم ، وذكر عذاب الكافرين في جهنم فقال جل وعلا : { هذه جهنم التي يكذب بها المجرمون * يطوفون بينها وبين حميم آن * فبأي آلاء ربكما تكذبان } .

فهو سبحانه وإن عذب الكفار في جهنم إلا أنهم لم يخرجوا من دائرة اسمه سبحانه { الرحمن } ورحمانيّة الله العامة محيطّة بهم ،

وذلك لأنه سبحانه عدل بهم فعاقبهم كما يستحقون بمقتضى عدله ،
والعدل صفة كمال ورحمة ^١ .

ومن ناحية أخرى فإن الله تعالى يكشف لأهل الجنة عن عذاب الكفار
وهم في جهنم حتى تشفى صدورهم ، ويروا أن عذاب الله حلّ بأعدائهم ،
وأن الله لا يخلف الميعاد ، كما قال سبحانه : { فالיום الذين آمنوا من
الكفار يضحكون * على الأرائك ينظرون * هل ثوب الكفار ما كانوا
يفعلون } .

وهذا من جملة رحمته سبحانه بالمؤمنين أن أطلعهم على عذاب
أعدائهم الكافرين ، وأن الله قد انتقم منهم ، فيفرح المؤمنون ويحمدون
الله تعالى .

^١ كما أنه سبحانه شرع حدوداً وعقوبات في حق من ارتكب بعض
المحرمات كالزنا وشرب الخمر والسرقه ... ، وقد تخفى الحكمة من تلك
الحدود على بعض الناس ويصعب عليه تقبلها ، ولكنه إذا تعقل وتدبر
وأنصف لعلم أن الله تعالى العليم الحكيم الذي خلق الخلق - وهو أعلم
بمصالحهم - شرع لهم من الأحكام ما قام على حكم عالية ، وهذا من
جملة رحمته العامة سبحانه بعباده لأن شريعة الله لعباده هي رحمة بهم
لأن فيها صلاحهم وسعادتهم ، ففي قطع يد السارق مثلاً إيقافاً للسارق
عند حده لئلا يتمادى في السرقات ويجره ذلك إلى ما هو أعظم ، فيبقى
قطع يده رحمة به ليقف عند حده في الفساد ويرجع عما هو عليه ، ثم إن
في ذلك نشرًا للأمان بين الناس لأنهم يعلمون أن من تجرأ على السرقة
فستقطع يده ، ومن قتل نفساً بغير حق فسيقتل وهكذا ...
ألا ترى إلى من أصيب بداء في جسده كالدامل مثلاً وذهبت به إلى
الطبيب فقال : هذا يحتاج إلى شق وتجريف ، فقد يقول أهل المريض
للطبيب : ارحمه ولا تفعل به كذا وكذا ، فيقول الطبيب : أنا سأرحمه إن
فعلت به كذا وكذا ، لأني بذلك أقطع دابر الداء أن ينتشر في جسده
فيهلك .

واعلم أن شرف الإنسان وكرامته عند الله تعالى على حسب حمله للقرآن الكريم وإن كان أمياً إلا أنه مؤمن بالقرآن يحل حلاله ويحرم حرامه ويعمل بأوامره ، وذلك لأن سر القرآن وروحه قد دخلت قلبه كما تقدم معنا أن للقرآن الكريم نَصَّه وحروفه وكلماته وآياته نوراً ، قال تعالى : { فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا } ، وقال جل وعلا : { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا } فأى قلب تقبل القرآن حيي بروح القرآن وآمن ، وأى قلب عاند وعارض فقد سرت روح القرآن في قلبه لكنه أبى واستكبر عن تقبلها ، قال تعالى : { كذلك نسلكه } - أي : الروح القرآني - { في قلوب المجرمين * لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم } .

حتى قال قائلهم - الوليد بن المغيرة - لما سمع القرآن من رسول الله صلى الله عليه وسلم : [والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وما هو بقول البشر]^١ .

قال تعالى : { وإن أحد من المشركين } - وكان بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم حرب وعداوة - { استجارك } - أي : طلب الأمان والجوار منك - { فأجره حتى يسمع كلام الله } أي : أعطه الأمان واتل عليه وأسمعه كلام الله ، وإن كان أعجمياً لا يفهم العربية إلا أن لكلام الله نوراً وروحاً تسري في قلب السامع ، ولذلك جاءت الآية : { حتى يسمع كلام الله } ولم يعلقها سبحانه على الفهم فلم يقل جل وعلا : [حتى يفهم كلام الله] ، فإن كان السامع صاحب إنصاف آمن ، وإن كان ظالماً متكبراً فإنه لا يعترف به ولا يؤمن ، ظلماً وعلواً .

ولقد كان ابن عباس رضي الله عنهما يفهم من القرآن فهم أهل العناية والفضل الذي أوتيته كبار الصحابة ، كل ذلك ببركة دعوة النبي صلى الله عليه وسلم له وتقله في فمه ومسحه على رأسه .

^١ إلا أن أبا جهل وجماعته ظلوا يلحون عليه حتى تراجع عن كلامه وبقي على شركه وكفره .

ومن مفاهيمه رضي الله عنه أنه فسر العدل في الآية : { إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى } ب (لا إله إلا الله) ، ففسر العدل بالتوحيد ، وإن كان العدل هو إقامة الحق وتجنب الظلم إلا أنه يشمل معنى أعم وأكبر في نظر ابن عباس رضي الله عنهما ، ولا تخالف ولا تناقض في تلك المفاهيم ، فالفهم على مراتب وهناك فهم فوق فهم ، وفهم فوق فهم وهكذا ، وكل المفاهيم والمعاني منسجمة متوافقة لا تناقض بينها .

فتدبر قوله تعالى : { والسمااء رفعها ووضع الميزان } أي : ونصب الميزان ، وهو ميزان العدل الإلهي الذي صلح به أمر السموات والأرض ، فلا يجري في الكون أمر إلا بموجب الحكمة والعدل الإلهي ، وإن أول ما يطالبك به هذا الميزان أن تشهد بأنه (لا إله إلا الله) أي : أن تعرف لصاحب الحق بحقه ، فإذا فعلت ذلك فقد أنصفت وعدلت ، وهذا ما أمر الله به بقوله عز من قائل : { إن الله يأمر بالعدل } أي : أن تعترف وتشهد له بالربوبية والإلهية ، فهو جل وعلا الرب الخالق المدبر المعبود ، ومن نسب الألوهية لغيره فقد وقع في الظلم ، ولذلك قال الله تعالى : { إن الشرك لظلم عظيم } فلا أحد أظلم من المشرك والكافر ، لأنه نسب الحق لمن لا يستحقه ، ولم يعترف بالحق لصاحبه وقد بان له الحق وظهر .

ولقد أكرم الله تعالى أهل بيت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن فتح الله عليهم أبواباً من فهم القرآن وأسراره ما لم ينله غيرهم ، كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه لما سأله بعض التابعين : هل خصّكم رسول الله بشيء من القرآن من دون الناس ؟ قال : لا ، إلا فهماً يؤتيه الله عبداً في كتابه ^١ .

^١ روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال : قلت لعلي رضي الله عنه : هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب الله ؟ وفي سنن البيهقي : هل عندكم من النبي صلى الله عليه وسلم شيء سوى القرآن ؟ قال : لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً في القرآن .

وقال رضي الله عنه :

[لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب] - أي :
سبعين جملاً تحمل كتباً فيها معاني سورة الفاتحة ، كل ذلك من باب
الفتح الرباني والتفهم الإلهي لمن أراد سبحانه أن يكرمه ويتفضل عليه في
الدنيا والآخرة ، ولا ينال أحد ذلك إلا بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم الذي أنزل الله عليه القرآن الكريم بنصّه ومعانيه وأسراره
وروحه ونوره ، قال الله تعالى : { واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم
المفلحون }

مع أن النور - وهو القرآن - أنزل عليه صلى الله عليه وسلم إلا أنه أنزل
عليه وهو معه لا ينفك عنه ولا يفارقه ولا يُطلب إلا منه صلى الله عليه
وسلم ، ولا يبتغي إلا عنده صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي قال : (إنما
أنا قاسم والله يعطي)^٢ فهو صلى الله عليه وسلم يقسم الخيرات والبركات
الإلهية على خلق الله تعالى ، وهو الواسطة بين الله وخلقهِ ، ومن أنكر
الواسطة بين الله وخلقهِ فقد جهل حقيقة الإيمان وكذب خبر سيد الأنام
صلى الله عليه وسلم ووقع في الخسران ، لأنه ما عرف حقيقة التوحيد
حتى يعرف حقيقة الشرك ، فَوَصَمَ به مَنْ أثبت الواسطة والوسيلة .

وإليك أيها العاقل نصاً واحداً يقطع دابر المعترض المنكر ، فقد جاء في
حديث الشفاعة الذي ذكره المحدثون بروايات متعددة أن أهل الموقف
كلهم جاؤوا آدم عليه السلام أولاً وقالوا : اشفع لنا عند ربك - وفي رواية
البخاري : استغاثوا بآدم^٣ - فلم يقل لهم آدم عليه السلام : يا بَنِي لَقْد
أشركتم فلا تطلبوا من أحد من الخلق ولا تسألوا أحداً من الخلق بل
توجهوا إلى الله تعالى وادعوه دون واسطة ، بل قال : (إني لست هُناكم ،
وإنه لا يهمني اليوم إلا نفسي ، ولكن اتتوا نوحاً) ... الحديث^٤ .

^١ قال في لسان العرب : الوَقْرُ : الحِمْل الثقيل

^٢ انظر صحيح البخاري كتاب فرض الخمس

^٣ انظر صحيح البخاري كتاب فرض الزكاة

^٤ المسند ٢٤١٥

وإن في ذلك إجماعاً من أهل الموقف كلهم برّهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم على ثبوت الوساطة ومشروعيتها بل على حتميتها وأنه لا بد منها كما أراد سبحانه ، ثم إقرار جميع الأنبياء والرسل على طلب وسؤال أهل الموقف ، ولم يعنفوهم أو ينكروا عليهم سؤالهم بل أحال كل نبي الأمر إلى غيره إلى أن جاؤوا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسألوه واستغاثوا فقال : (أنا لها أنا لها) - أي : أنا أغيثكم وأشفع بكم ، فكيف يُنسب الشرك إلى من توسل واستغاث برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أقرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل الموقف كلهم على هذا لما توسلوا به واستغاثوا به وسألوه الشفاعة ؟ ! نعم لا ينكر هذا إلا جاهل أحمق .

وقد بيّن سبحانه وساطة رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله تعالى :
{ وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم * صراط الله } فالوساطة في هداية الله لخلقه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وانظر تفاصيل البحث في هذا في موضعه .

واعلم أن القرآن والإيمان متلازمان ، فمن القرآن تستمد حقائق الإيمان ، وكلما عظم علم المؤمن وتحققه بالقرآن عظمت فيه حقائق الإيمان .

وفي الحديث عن حذيفة رضي الله عنه قال : (حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأمانة) - أي : الإيمان - (نزلت في جذر قلوب الرجال) - أي : في تخوم القلب - (ثم نزل القرآن فعلموا من القرآن وعلموا من السنة)^١ ... الحديث ، - أي : فيقوى الإيمان في القلب ويزداد ويعظم كلما ازداد المؤمن أخذاً من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم علماً وتحققاً ، فمثل الإيمان في القلب كمثل نبات في تراب الأرض لا يثمر ولا يزهر إلا بالماء ، وماء الإيمان هو القرآن وحديث سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، ونسأل الله أن يجعل القرآن العظيم ربيع قلوبنا ونور أبصارنا وجلاء حزننا وذهاب همنا وغمنا ، ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس العاشر :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري قال : باب فضل من عَلَّمَ و عَلَّمَ .

ثم ذكر بسنده إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً ولا تَتُنبتُ كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعَلَّمَ ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به)^١ .

يدل الحديث على فضل من عمل بما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم عَلَّمَ غيره ، وعلى من عَلَّمَ ولم يعمل ، وإن كان الأول أفضل منه ، وأما من لم يَعْلَمْ أو يتعلم أو يُعَلِّم فهو من الخير محروم .

ويدل أيضاً على أن ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الهدى والعلم بالنسبة لقلوب العباد كمثل الغيث يصيب الأرض ، والغيث ما به الإغاثة ، وأما المطر فقد يكون للإغاثة وقد يكون للهلاك والدمار ونسأل الله العافية.

^١ صحيح البخاري كتاب العلم

فالغيث ما يغيث الله به عباده ويسد حاجتهم ، فقد ضرب صلى الله عليه وسلم مثلاً لما جاء به من الهدى والعلم بالغيث الكثير أصاب أرضاً ولم يقل صلى الله عليه وسلم : [كمثل المطر] .

فكما يحتاج الإنسان والحيوان والنبات إلى ماء السماء ، فيأتي الغيث ويسد حاجاتهم ، فكذلك ما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو غيث للقلوب والأرواح ، وهو أهم وأعظم ، والعالم محتاج إلى غيث رسول الله صلى الله عليه وسلم أقوى من حاجاتهم إلى غيث ماء السماء .

ولقد جاءنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهدى والعلم ، أما الهدى فهو الدلالة والبيان إلى ما فيه خير وسعادة الدنيا والآخرة ، ومن فقد الهدى فقد وقع في الضلال وراح يتخبط في الظلمات ، كمن مشى في طريق مظلم وراح يتخبط فيه ، حتى إذا جاء بنور أنار له الطريق جعل يمشي على هدى ، وكذا من أراد البلد الفلاني فلا بد له ممن يهديه أي يده له على طريقها وكيفية الوصول إليها ، وإلا كان سيره على ضلال .

فلقد جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يهدي الناس إلى طريق الخير والسعادة وحسن العاقبة ، وكل من اتبع طريقه صلى الله عليه وسلم انتهى إلى الجنة ورضوان الله تعالى .

وأما العلم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وكمالاته ، والعلم الذي لا بد منه لعبادة الله تعالى ، وكيفية الثناء عليه جل وعلا ، والتقرب إليه سبحانه ، وكذا العلم بما يدل على وجود الله تعالى ، وأنه جل وعلا حق واجب الوجود ، وأنه سبحانه مُتَسَمِّ بالأسماء الحسنى ، متصف بالمحاسن والكمالات المطلقة اللائقة به عز وجل ، لأن الإنسان مخلوق لا يعرف كيف يعبد ربه سبحانه ويتقرب إليه ويثني عليه بما يليق به تبارك وتعالى ، فلا بد له ممن يعلمه ذلك ، وهذا ما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكما يحيي الله تعالى الأرض المادية المعروفة يحييها بالغيث ، وهو ماء السماء الذي ينزل عليها ، كذلك يحيي أرض القلوب القاسية يحييها بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب والسنة ، قال تعالى :
{ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور } .

وقال سبحانه في إحيائه أرض القلوب : { ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون * اعلّموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها قد بينّا لكم الآيات لعلكم تعقلون } .

فلقد نبّه سبحانه العقلاء ويّين لهم أنه هو الذي يحيي القلوب الميتة ، ويُذهب عنها قسوتها ، نبه إلى ذلك بقوله جل وعلا : { اعلّموا } ، وقوله سبحانه : { لعلكم تعقلون } ، لأن إحياءه سبحانه الأرض بإنزال الغيث عليها أمر مشهود مقبول لدى كل الناس .

ومثل القلوب في تقبلها لما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن والسنة كمثال الأودية الواسعة الكبيرة النظيفة الخالية من الأوخام والأوساخ ، وهناك الأودية التي تحتوي على بعض الأوخام والشوائب ، وهناك الأودية الممتلئة بالأوخام والأوساخ ، فكذلك هناك القلوب النظيفة الطاهرة التي تسمع القرآن فتقبله وتنشره له حتى تحيا وتربع^١ وتثمر ، وهناك القلوب التي فيها بعض الشبهات والضلالات فيأتي عليها القرآن بأدلته وبياناته فيدحض تلك الشبهات والضلالات حتى تطهر ويزول عنها الخبث وتحيا بنور القرآن .

^١ يقال في اللغة : رَبَعَ الربيع أي حل .

وهناك القلوب التي لا تقبل القرآن بل تذوق حلاوته لكن لا تتشربه لأن الكبر والظلم والعجب قد سيطر عليها وحجبها عن قبول الروح القرآني وحلاوته ، قال تعالى : { أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال } .

وإذا حيي القلب بغيث القرآن ربيع وأثمر ، كما تخضر الأرض ويثمر نباتها في الربيع ، فلما يأتي الربيع - أي : الماء - ويروي الأرض اليابسة تراها تعشب وتخضر ويعلوها البهاء والنضار ، وكذلك القلوب إذا ظهر أثر ذلك على الوجه واللسان والأعضاء ، فترى الأنس والبهاء ظاهراً على وجه المؤمن الصادق وتجد أقواله طيبة وأعماله صالحة وأخلاقه كريمة وسيرته حميدة وهكذا ...

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته دعاءً لتفريج الكرب والهموم وفيه : (أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ^١) .

وقد قال سبحانه : { يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإيَّاي فاعبدون } .

فكما أن أرض الأجساد واسعة ، فأرض القلوب أوسع وأكبر ، فعلى الإنسان أن يتوجه بأرض قلبه إلى غيث رب العالمين فتحيا وتربع وتثمر وتطيب ، ولا تحجب قلبك أيها الإنسان عن الهدى والعلم الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل كن دوماً على صلة بالقرآن الكريم وأحاديث سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، واحضر مجالس العلم والوعظ والتذكير الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا قوله تعالى : { اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها } أي : يحيي سبحانه القلوب الميتة يحييها بنور الإيمان والقرآن .

^١ طرف حديث في المسند ٤٠٩١

وإن أراضي الأجسام على أنواع في تقبلها وانتفاعها بالغيث الذي ينزل عليها ، كما بين صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم ، فمنها نقية صافية تتشبع بالماء وتدخره في جوفها على نسبة معينة ، وتعطي الخير بأن تنبت الكلاً والعشب والزرع ، وهذا مثل من اهتدى وهدى غيره ، وعلم وعلم غيره .

وهناك أرض تمسك الماء بقدر يسير ، ولكن الناس ينتفعون بما أمسكته على ظهرها ، وهذا مثل من أخذ من الشرع المحمدي بمقدار ولم يسارع في الزيادة من الأعمال الطيبة والقربات ، لكنه يعلم الناس ويهدي إلى الخيرات والطاعات ، فمثل هذا على خير ، لكن الأولى به أن يبادر ويسارع إلى فعل الخير كما يدل الناس عليه ، كما لو هدى الناس إلى قيام الليل وبين لهم فضله لكنه لا يقوم ، فالأجدر به أن يقومه ويأمر الناس بالقيام وهكذا .

وهناك الأرض الصلبة الصخرية المنحدرة بحيث لا تشرب ماء ولا تمسك على ظهرها منه شيئاً ، فلا هي انتفعت ولا نفعت غيرها ، وهذا مثل من أعرض عما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يهتد ولم يهد غيره ولم يتعلم ولم يعلم غيره .

وزعم بعض الجهال أن هذه الأرض التي عليها الإنسان بجسمه سيأتيتها يوم تضيق بأهلها وتشح عليهم بأرزاقها وأقواتها ، وعليهم أن يبحثوا عن مصادر أخرى للقوت في أجرام أخرى .

وقد أخطأ وضل من زعم هذا لأنه لم يتدبر كلام الله الذي خلق الخلق ، ولم يهمل أسباب بقاء حياتهم ووجودهم ، قال تعالى : { الله الذي خلقكم ثم رزقكم } ، وقال جل وعلا : { يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة } ، وقال عز من قائل : { وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين } ، أي : قدر أقوات الخلائق التي سيخلقها على وجه الأرض بحيث يساوي ذلك التقدير ويسد حاجة السائلين أي المحتاجين للأرزاق والأقوات لاستمرار حياتهم ووجودهم .

وقوله تعالى : (سواء للسائلين) : السؤال في الآية هو سؤال الحال والحقيقة ، لا سؤال المقال ، وذلك لأن ذرات الكائنات والمخلوقات كلها تسأل الله تعالى أن يبقي عليها وجودها ويمدها بأسباب الحياة من هواء وغذاء وماء ، قال تعالى : { وآتاكم من كل ما سألتموه } .

أي : أمدّكم بكل ما سألتموه بلسان الحقيقة ليستمر بقاؤكم وحياتكم ، وذلك لأن الإنسان لم يسأل الله بلسانه أن يسخر له الشمس والقمر والهواء والأنهار ، لكن حاله وحقيقته تسأل ذلك ، وكذلك سائر المخلوقات تسأل الله المدد بأسباب الحياة ، قال تعالى : { يسأله من في السموات والأرض } وهو سبحانه يمد مخلوقاته بما تحتاج إليه ، فلا خلل ولا نقص في أقوات أهل الأرض وأرزاقهم ، لأن الله تعالى الذي خلق الخلق قدّر أقواتهم على حسب حاجاتهم .

واعلم أن سؤال الحال وسؤال الحقيقة أصدق وأبلغ من سؤال المقال باللسان ، لأن الإنسان قد يقول مقالاً لكن حقيقته تخالف ذلك ، وحاله يكذب مقاله ، كما إذا ادعى رجل فقير شاحب الوجه رث الهيئة ، ثيابه بالية ، ادعى الغنى وقال : أنا غني ، ولست بحاجة إلى أحد ، فيقال له : إن حالك يكذب مقالك ، وهكذا لو رأيت إنساناً محمراً الوجه منتفخ الأوداج فيدلك حاله على أنه في حالة غيظ وغضب وإن قال غير ذلك .

قال تعالى : { قل هو الله أحد * الله الصمد } أي : المقصود في الحاجات كلها ، فالعالم كله صامد أي : قاصد ربه أن يمده في جميع حاجاته ومهماته ، سواء كان ذلك بالسنتهم أم بحقائقهم وذواتهم ، وهو سبحانه الذي يمد الكل على حسب حاجته ، ونسأل الله تعالى أن يمدنا بالمدد المحمدي الذي أمدّ به كبار أولياء أمة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . اللهم آمين

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الحادي عشر :

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال : باب فضل العلم .

ثم أورد بسنده إلى ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (بينا أنا نائم ، أتيت بقدر لبن ، فشربت حتى إني لأرى الريّ يخرج في أظفاري ، ثم أعطيت فضلي عمر بن الخطاب .

قالوا : فما أولّته يا رسول الله ؟ قال : العلم)^١ .

القدح : هو الإناء الواسع المُعدُّ للشرب منه ، واللبن : هو الحليب الخالص .

وفي رواية للحديث : حتى إني لأرى الريّ يخرج من أظفاري^٢ .

وفي رواية : يخرج من أطرافي^٣ .

واعلم أن رؤيا الأنبياء هي نوع من أنواع وحي الله تعالى إليهم ، فهي حق .

وفي رواية : فشربت حتى رأيت الري يخرج من أناملي^٤ .

والإشارة قد تعود إلى الحليب أو الري كما قال العلماء .

^١ صحيح البخاري كتاب العلم

^٢ صحيح البخاري كتاب التعبير

^٣ المرجع السابق

^٤ انظر كتاب فضائل الصحابة للإمام أحمد بن حنبل

فلقد شرب صلى الله عليه وسلم حتى امتلأ وجعل الري يخرج من أظفاره صلى الله عليه وسلم ثم أعطى فضله - أي : ما بقي في القدر - عمر رضي الله عنه ، وبذلك نال عمر رضي الله عنه من العلم والمعرفة ما نال .

وتأويل الرؤيا : هو الإخبار عما تؤول إليه ، وذلك بتعبيرها ، أي بالعبور بها من عالم المثال إلى عالم الدنيا ، وعالم المنام عالم ينطوي في عالم المثال الواسع . واعلم أن عالم المنام عالم حقيقي له دلائله ومعانيه وآثاره ، ولو كان أمراً وهمياً أو تخيلاً لا حقيقة له لما كان له في شرع الله تعالى شأن واعتبار .

ولقد بين صلى الله عليه وسلم أنواع الرؤيا ، فهناك الرؤيا الصالحة ، وهناك رؤيا أضغاث أحلام ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : { لهم البشرى في الحياة الدنيا } ، قال : (الرؤيا الصالحة يُبَشِّرُهَا المؤمن ، هي جزء من تسعة وأربعين جزءاً من النبوة ، فمن رأى ذلك فليخبر بها ، ومن رأى سوى ذلك فإنما هو من الشيطان ليحزنه فلينفث عن يساره ثلاثاً ، وليسكت ولا يخبر بها أحداً) .

فلقد بين صلى الله عليه وسلم أن اللبث الذي رآه في المنام هو العلم في اليقظة ، ويستفاد من ذلك : أن ما يُرى في المنام لا يؤخذ على ظاهره في اليقظة .

واعلم أنه لا بد من مناسبة بين ما يراه النائم في نومه وبين حقيقة ما تؤول به رؤياه ، ومعرفة هذه المناسبة يحتاج إلى علم وتفهم من الله تعالى ، ولا يجوز لأحد أن يؤول الرؤى بدون علم ، وفي كل الأحوال عليه أن لا يتشاءم مما يراه أو يراه غيره ، وأن لا يحمل الرؤى على ظاهرها وأن يتفائل خيراً .

وقد بين صلى الله عليه وسلم ما يُطلب من الإنسان فعله إذا رأى ما يكره ، فمن ذلك : أن يتفل عن يساره ثلاثاً ، وأن يستعيذ بالله تعالى .

روى البخاري عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم حلمًا يخافه فليبصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها ، فإنها لا تضره)^١ .

فلقد أوّل صلى الله عليه وسلم اللبن - الذي رأى أنه يشربه في المنام - أوّله بالعلم وهو العلم المحمدي النافع ، ولو تفكر الإنسان لوجد المناسبة بينهما محكمة قوية ، فالحليب غذاء كامل لجسم الإنسان ، ولا ضرر يتأتى منه ، بل إنه يعطى للمرضى أيضاً ، وكما لا بد للجسم من غذاء فلا بد للقلب والروح من غذاء ، وهذا هو العلم المحمدي ، وهو العلم بآيات الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم ، وهو أعظم وأهم من غذاء الجسم ، إذ لو نقص غذاء الجسم لنحف صاحبه وضعفت قواه ، أما لو نقص العلم النافع عن قلب المؤمن لنقص غذاء روحه ولضعف إيمانه الذي تتوقف عليه حياة الأبد . وهذا اللبن - الذي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يشربه أي : الحليب - لم يُحلب من غنم أو بقر ، بل هو من الفيوضات الإلهية .

ومن ذلك نهر اللبن الذي هو في الجنة ويشرب منه أهل الجنة ، قال تعالى: { مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن^٢ لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم) .

^١ صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

^٢ والحليب بمعنى محلوب من غنم أو بقر ونحوها ، ويطلق عليه اللبن أيضاً ، وقد يكون هذا اللبن غير محلوب كما في الآية السابقة والحديث المتقدم . وأما ما يعرف في زمننا هذا باللبن فهو خاتر مأخوذ من الحليب .

فلقد شرب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى ارتوى وامتلأ ،
وجعل الري يخرج من أظفاره ، يعني إن ذراته وأجزاءه صلى الله عليه
وسلم قد امتلأت علماً وحكمة ومدداً ونوراً حتى جعلت تفيض وتنبع
بالعلوم والمعارف والخيرات والبركات التي أفاضها الله تعالى عليه ، وبهذه
الإفاضات الإلهية على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صار رسول
الله صلى الله عليه وسلم أعلم خلق الله بالله ، وأعرف خلق الله بالله ،
وأتقاهم وأخشاهم لله ، وصارت ذراته فيأضة بالخيرات والبركات وبالعلوم
والمعارف والأسرار والأنوار .

ولذلك كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرصون كل
الحرص على التبرك بآثاره صلى الله عليه وسلم أو أجزاء انفصلت عن
جسمه الشريف صلى الله عليه وسلم ، كشعره وأظفاره ونخامته وبصاقه
، لما يعلمون من شرفها وفضلها وبركاتها ، لأن هذه الذرات المحمدية
فيأضة بالعلوم والأسرار والأنوار ، كما قال صلى الله عليه وسلم :

(حتى إني لأرى الريّ يخرج من أظفاري ^(١))

وفي رواية : (يخرج من أطرافي ^(٢)) .

ولما أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم فضلة بقيت في القدح الذي
شرب منه أعطاه عمر رضي الله عنه صار بسببها عمر رضي الله عنه
عالماً عارفاً تقياً ، عُرف بين الصحابة بورعه وخشيته من الله تعالى
وفراسته وكشفه ، كل ذلك من آثار الفضلة المحمدية التي أعطاه له
رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد قال صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه :

(والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجّاً إلا سلك فجّاً غير
فجّك) ^(٣) .

^١ صحيح البخاري كتاب التعبير

^٢ المرجع السابق

^٣ صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

وقال صلى الله عليه وسلم :

(لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحدّثون فإن يك في أمتي أحد فإنه عمر)^١.

وقال ابن عمر رضي الله عنهما :

[ما سمعت عمر لشيء قط يقول : إني لأظنه كذا ، إلا كان كما يظن]^٢.

وكان رضي الله عنه إذا حدّثه أحد عن أمر وزاد في كلامه ما لا صحة له ،

قال له : احبس هذه احبس هذه .^٣

ولقد ضم رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عباس رضي الله عنهما إلى صدره - وفي هذه الضمة إفاضة منه صلى الله عليه وسلم على ابن عباس - وقال : (اللهم علمه الكتاب والحكمة) .

ونال رضي الله عنه دعاء النبي صلى الله عليه وسلم له بقوله :

(اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)^٤ ، فصار عبد الله بن عباس رضي الله عنهما بعدها حبر الأمة وترجمان القرآن .

ولقد أرسل الله تعالى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى العالم وله معهم مواقف تتوقف عليها سعادتهم في الدنيا والآخرة ، ومنها : أنه جاء يعلمهم الكتاب والحكمة ، وذلك ببياناته وأحاديثه صلى الله عليه وسلم ، قال الله تعالى : { وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً } .

وقال تعالى : { لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين } .

^١ صحيح البخاري كتاب المناقب

^٢ صحيح البخاري كتاب المناقب

^٣ انظر كتاب مساوىء الأخلاق للخرائطي وكنز العمال ١٢ / ٥٧٦

^٤ المسند ٢٩٣٧

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده:
(والله إني لأعلمكم بالله عز وجل وأخشاكم له) .

فما ظنك بعلوم رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي شرب من المعرفة
الإلهية حتى امتلأت ذراته وفاضت بالإيمان والعلوم والمعارف والأسرار
والأنوار؟!

نعم ، لقد أدرك الصحابة ذلك وعرفوه وآمنوا به ، فكانوا يتهافتون
ويتزاحمون على التبرك بآثار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأجزائه الشريفة .

وهذا ما يجب على كل مؤمن أن يعتقد ويؤمن به وهي أن ذراته صلى الله
عليه وسلم مليئة بالعلوم والمعارف ، فياضة بالخيرات والبركات ، كما قال
صلى الله عليه وسلم : (فشربتُ حتى إني لأرى الريَّ يخرج من أظفاري)^١ .
وما هذا الري إلا العلوم والمعارف الإلهية .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يعبد الله تعالى ، ويسجد لله تعالى ،
ويتجلى عليه سبحانه تجلياً خاصاً لائقاً به صلى الله عليه وسلم فتنصبغ
ذراته بتلك التجليات والأسرار والأنوار ، وتفيض على من التمسها متبركاً
مستشفعاً .

ولو كنت أيها المؤمن في عهد الصحابة رضي الله عنهم ورأيتهم يتبركون
بآثاره الشريفة صلى الله عليه وسلم ونخامته وماء وضوئه صلى الله عليه
وسلم لفعلت مثلهم بمقتضى إيمانك ومحبتك لرسول الله صلى الله عليه
وسلم ، لا عن تكلف وتردد منك ، ولو أحجمت عن فعل ذلك لكنت
مشركاً أو منافقاً ، نسأل الله العافية .

^١ صحيح البخاري كتاب التعبير

ولقد كان أهل المدينة يرسلون صبيانهم وغلماهم بالآنية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليضع يده فيها ، ويعودون إليهم بها ليتبركوا ويستشفوا متوسلين إلى الله تعالى بآثاره صلى الله عليه وسلم .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : [كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى الْغَدَاةَ جَاءَ خَدْمَ الْمَدِينَةِ بِأَيْتِهِمْ فِيهَا الْمَاءُ فَمَا يُؤْتَى بِإِنَاءٍ إِلَّا غَمَسَ يَدَهُ فِيهَا فَرُبَّمَا جَاءَهُ فِي الْغَدَاةِ الْبَارِدَةِ فَيَغْمِسُ يَدَهُ فِيهَا] .

وقال عروة بن مسعود الثقفي : (والله إن رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه مثل ما يعظم أصحاب محمد محمداً) .

وروى الإمام مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال :

(كان النبي صلى الله عليه وسلم يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها^١ ، وليست فيه ، قال : فجاء ذات يوم فنام على فراشها ، فأتيت فقيل لها : هذا النبي صلى الله عليه وسلم نام في بيتك على فراشك ، قال : فجاءت وقد عرق واستنقع عرقه صلى الله عليه وسلم على قطعة أديم على الفراش ، ففتحت أم سليم عتيدها^٢ فجعلت تنشف ذلك العرق فتعصره في قواريرها ، ففزع^٣ النبي صلى الله عليه وسلم فقال : (ما تصنعين يا أم سليم ؟) فقالت : يا رسول الله نرجو بركته لصبياننا ، فقال : (أصبت) .

والأحاديث في ذلك كثيرة يعجز المرء عن استقصائها ، وكلها دليل قاطع على إجماع الصحابة على التبرك والتوسل والاستشفاء بآثاره صلى الله عليه وسلم أو بأجزاء انفصلت عنه أو بأشياء مسّت جسده الشريف صلى الله عليه وسلم .

^١ وكانت محرماً له صلى الله عليه وسلم .

^٢ هو كالصندوق الصغير تجعل المرأة فيها ما يعز عليها من متاعها .

^٣ أي : استيقظ من نومه .

وقل لمن يعارض ويشاغب في ذلك : إن إيمانك بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إيمان ناقص ، حدّده وقيّده عقلك الناقص ، بحيث لو جاءك شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق مستوى عقلك لَمَا قبلته ، ولو أنه وافق عقلك المحدود لقبّلته ، فأنت آمنت بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على حسب ما حدد عقلك حدوداً ، ولم تؤمن برسول الله صلى الله عليه وسلم على أنه رسول الله تعالى الذي حُص بالمقامات الفردانية العالية .

فيجب عليك أولاً أن تصحح إيمانك برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتطلّع على شمائله وخصاله وخصائصه صلى الله عليه وسلم التي خصه الله بها ، وتتعرف على سيرته وسلوكه صلى الله عليه وسلم وأخلاقه العظيمة لتزداد حباً فيه ، فإن محبة المحب تزداد كلما عرف واطلع على محاسن وكمالات محبوبه ، ولا أعظم ولا أكمل من محاسنه وفضائله صلى الله عليه وسلم.

وسل الله تعالى أن يشرح صدرك للنور المحمدي ليستنير قلبك بأنوار سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله للعالمين سراجاً منيراً ، أي : منيراً لعقولهم وقلوبهم وأجسادهم وأرواحهم ، حتى إذا زكت نفسك واستنار قلبك وصار فيك القابلية والاستعداد لتلك النفحات والبركات المحمدية أصابتك نفحة محمدية ربانية تسعدك في الدنيا والآخرة ، وصار عقلك وقلبك متعلقاً متعشقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتذوقت حلاوة حبه ونعيم قربه صلى الله عليه وسلم ، لأن قلوب المتقين تنجذب إلى محبته صلى الله عليه وسلم والوقوف على بابه صلى الله عليه وسلم وهذا كلفها وولعها .

ولو أنك - من باب ضرب المثل - سألت الإبرة أو المسمار المعدني الذي ينجذب إلى قطعة الفولاذ إذا قربته منها : مالك تسرع إلى الالتصاق بها ؟

لأجابتك بلسان حاله : خلّ عني ، فما الأمر إلي ، وليس لي اختيار في ذلك .
وكذلك الناس ، فهم معادن ، كما أخبر صلى الله عليه وسلم في الحديث
الذي رواه الإمام البخاري ^١ : (الناس معادن ، خيارهم في الجاهلية
خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) .

وأشرف معدن وأفضل معدن خلقه الله تعالى هو المعدن المحمدي صلى
الله عليه وسلم ، ولا ينجذب إليه صلى الله عليه وسلم إلا القلوب
المستعدة لذلك والقابلة لذلك ، لأنه لا بد من المناسبة بين المعدنين حتى
ينجذب أحدهما إلى الآخر .

فإليه صلى الله عليه وسلم تأوي أرواح المحبين ، وفي حضرته صلى الله
عليه وسلم تجتمع قلوب المتقين ، ولو تباعدت أجسادهم في نواحي
الأرض .

ولما ودّع صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه وأوصاه ، قال
له : (لعلك لا تراني بعد عامي هذا ، ولعلك تمر بمسجدي وقبري) ، فبكى
معاذ جشعاً لفراق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالتفت صلى الله
عليه وسلم بوجهه إلى المدينة وقال : (إن أولى الناس بي المتقون من
كانوا وحيث كانوا) ^٢ .

اللهم اجعلنا منهم وعطف علينا قلب الحبيب الأعظم صلى الله عليه
وسلم . اللهم آمين

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

^١ في صحيحه في كتاب أحاديث الأنبياء
^٢ المسند ٢١٠٤٠ وصحيح ابن حبان

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني عشر :

الحمد لله رب العالمين ، و أفضل الصلاة و أكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :
باب الحرص على الحديث .

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال :

(قيل : يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك لِمَا رأيت من حرصك على الحديث ، أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : لا إله إلا الله خالصاً من قلبه ، أو خالصاً من نفسه) . اهـ

قول البخاري رضي الله عنه : [باب الحرص على الحديث] يعني الحرص على سماع الحديث من النبي صلى الله عليه وسلم الذي أفضل وأشرف كلام المخلوقات كلها .

وإذا أطلقت كلمة [حديث] فتعني حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما كلام الله تعالى فيقال له [القرآن] .

والقرآن كلام الله تعالى القديم ، وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم حادث فيقال عنه : [حديث] .

وفي لغة العرب يقال : [فلان يتحدث الحديث] أي بالأقوال ويقال : [فلان يُحدث حدثاً] أي بالأفعال ، فالتحدث بالأقوال ، والإحداث في الأفعال .

فيقال : [أحدث فلاناً حدثاً] أي فعل فعلاً ، و [تحدث فلان] أي : قال قولاً .

وإن أشرف أحاديث المخلوقات وأفصحها وأجمعها وأبينها هو حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أعطاه الله تعالى جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه . كما دل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :
(أوتيت جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه) الحديث ^١ .

وأما قوله تعالى : { الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني }
وقوله صلى الله عليه وسلم : (أما بعد فإن أصدق الحديث كتاب الله) ^٢
فيعني أن أصدق ما يُتحدث به هو كلام الله تعالى وهو محدث النزول ،
كما قال الله تعالى : { ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون } أي : محدث نزوله لا صدوره من الله تعالى فهو كلامه القديم جل وعلا .

وفي رواية للحديث المتقدم (قلت : يا رسول الله ...) ^٣ يعني أن السائل أبو هريرة رضي الله عنه كما دل عليه سياق الحديث .

ويدل هذا الحديث على أنه يجب على المؤمن أن يكون حريصاً على سماع حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والانتفاع منه .

وإن علامة الإيمان الصادق لدى المؤمن أن ينشرح صدره وينفتح قلبه وتطرب روحه لدى سماع حديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن لم يجد من نفسه ذلك فليعالج نفسه ليقوى إيمانه وتزداد محبته لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وذلك بكثرة العبادات والنوافل وذكر الله تعالى والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والتمسك بالأوامر الشرعية واجتناب المناهي .

^١ انظر مصنف ابن أبي شيبة

^٢ تقدم تخريجه

^٣ انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق

ويدل هذا الحديث أيضاً على أدب الصحابة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ سأله أبو هريرة رضي الله عنه وخاطبه بصيغة الرسالة فقال : (يا رسول الله مَنْ أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟)

وإن شرف الرسول صلى الله عليه وسلم وفضله ، وشرف رسالته وفضلها ، لا يعلمه إلا الله الذي أرسله ، وخاصة أن رسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هي أجمع الرسائل وأعمّها وأبقاها إلى يوم الدين .

وفي الحديث أيضاً تعليم لسائل العلم أدب السؤال مع معلمه .

ولقد أثنى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي هريرة رضي الله عنه لحسن سؤاله واهتمامه وحرصه على سماع أحاديثه صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك أيضاً تعليم للمعلم والمسؤول أن يثني على سائله العلم ، وأن يكرمه بالكلام ، ولا يهزأ به ولا يزدريه ولا يستخف بسؤاله .

وقوله صلى الله عليه وسلم لأبي هريرة :

(لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك)

يعني أنا أعلم حرصك على سماع حديثي يا أبا هريرة ، وأنا أعلم أنه لا يسألني عن هذا الحديث أحد قبلك .

وقول أبي هريرة رضي الله عنه : (يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة ؟) سؤال عن أسعد الناس بشفاعته صلى الله عليه وسلم ، إذ إن السعداء بشفاعته سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرون ، لكن سأل أبو هريرة رضي الله عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أسعد الناس بشفاعته صلى الله عليه وسلم .

واعلم أن شفاعته سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس على مراتب : فهناك الشفاعة العظمى العامة لجميع الخلائق بمن فيهم من كافر ومؤمن ، فيشفع صلى الله عليه وسلم في أهل الموقف بعد أن اشتدت عليهم المخاوف والأهوال ويخلصهم من أهوال الموقف حتى ينفض الأمر إلى عالم الحساب .

وهذا هو المقام المحمود المشار إليه بقوله تعالى : { عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً } وقوله صلى الله عليه وسلم في دعاء الوسيلة المطلوب من المؤمن قوله بعد سماع الأذان : (وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته)^١.

و من خطر عالم الموقف في الآخرة وعظمته أن يظهر فيه قوله تعالى : { لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه } فمنهم من أغناه شأنه عن غيره بأن اشتغل بذنوبه وسيئاته وهول ما يجري عليه ، ومنهم ومنهم ومنهم من كان شأنه وحاله مع الله تعالى ، وهؤلاء يمرون على عالم الموقف وأهواله ولا يرونه إلا كصلاة مكتوبة كما جاء في ذلك الحديث ^٢ . ومنهم في نعيم مع الله تعالى كما كان أحدهم يتنعم في صلاته في الدنيا وقد قال الله تعالى :

{ الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون } . ولم يكن من منقذ ومغيث للعالم من أهوال ذلك الموقف وكرباته إلا الحبيب الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي إذا استغاث به الناس قال لهم : (أنا لها أنا لها) .

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأذان

^٢ روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري قال : (قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ، ما أطول هذا اليوم ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة يصلحها في الدنيا) .

وفي رواية البخاري لحديث الشفاعة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : (ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة ليس في وجهه مزعة لحم ، وقال : إن الشمس تدنو يوم القيامة حتى يبلغ العرق نصف الأذن فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم)^١ .

وإن الإنسان إذا وقع في ضيق وكرب فإن أول ما يتبادر إليه ذهنه اللجوء إلى والده ، فلذلك ترى الناس يوم القيامة ذهبوا إلى أبيهم آدم واستغاثوا به فاعتذر وأظهر عجزه عن التقدم لذلك المقام فذهبوا إلى نوح عليه السلام وهكذا إبراهيم ومن ثم موسى ثم عيسى عليهم السلام .

ولو أن آدم أو نوحاً عليهما السلام دلّهما مباشرة إلى أن يذهبوا إلى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لَمَا ظهر تقاصر بقية الأنبياء عن ذلك المقام، ولما ظهر مقامه الفرداني صلى الله عليه وسلم في ذلك ، إذ لو أنهم استغاثوا مباشرة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأغاثهم لربما يتبادر إلى ذهن أحدهم أنهم لو أنهم استغاثوا بغير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لأغاثهم ، لكنهم بذهابهم إلى آدم وإلى من بعده من الرسل عليهم السلام من أولي العزم ، تبين فضله صلى الله عليه وسلم على جميع الرسل ، وأنه وحده صاحب المقام المحمود صلى الله عليه وسلم .

وهناك شفاعات خاصة يشفع بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنها للمذنبين من أمته ، وهي على مراتب : فمن المذنبين مَنْ يشفع بهم فلا يعذبهم الله تعالى ، ومنهم من يخرجهم من جهنم بعد أن تمضي عليه مدة .

^١ صحيح البخاري كتاب الزكاة

ويشفع صلى الله عليه وسلم في أقوام من أهل الجنة فيرفع الله مقامهم وتعلو منزلتهم ، وهكذا شفاعته صلى الله عليه وسلم في المؤمنين على مراتب أيضاً ، وكل منهم يسعد بشفاعته صلى الله عليه وسلم ، إلا أن أسعد الناس بشفاعته صلى الله عليه وسلم - والذي سأل عنه أبو هريرة رضي الله عنه في الحديث المتقدم - هو من قال : (لا إله إلا الله) مخلصاً من قلبه ، يعني متحققاً بها وعاملاً بمقتضاها ، وهؤلاء هم أهل كمال الإيمان ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم بفضله وكرمه وبجاه نبيه صلى الله عليه وسلم . آمين .

وفي سؤال أبي هريرة رضي الله عنه : (من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة يا رسول الله ؟) تخصيص السؤال بمن سينال شفاعته صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، لأنه صلى الله عليه وسلم له شفاعات متنوعة ومتفرقة في جميع العوالم ، وفي عالم الدنيا أيضاً كما دل على ذلك حديث الضرير الذي علمه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد روى الترمذي وغيره عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ادع الله أن يعافيني قال : " إن شئت أخرت ذلك ، وهو خير ، وإن شئت دعوت " قال أبو موسى قال : فادعه ، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويدعو بهذا الدعاء : " اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه فتقضى لي ، اللهم فشفعه في)^١ .

قوله : (اللهم فشفعه في) أي : الآن في الدنيا شفع في رسول الله صلى الله عليه وسلم وردّ علي بصري بشفاعته صلى الله عليه وسلم .

^١ انظر سنن الترمذي كتاب الدعوات وسنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة

ومن شفاعته صلى الله عليه وسلم بأهل الدنيا أن يشفع في المؤمنين
المكثرين من الصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم ، وبمن جاء إليه
مستشفعاً به مستغفراً لذنبه ، وبمن تمسك بسنته صلى الله عليه وسلم
وحرص على اتباعه وهكذا^١

وإذا كانت شفاعته صلى الله عليه وسلم في الناس يوم القيامة ثابتة لاشك
فيها فمن باب أولى ثبوت شفاعته صلى الله عليه وسلم في الدنيا التي لا
تقاس كرباتها بكربات الآخرة ولا تعدل بالنسبة لها شيئاً ، فطالما ثبتت
شفاعته صلى الله عليه وسلم فيما هو أهم وأعظم فشفاعته صلى الله
عليه وسلم في غيرها من المهمات أولى وأجدر ، وهي شفاعته صلى الله
عليه وسلم في الدنيا والآخرة فافهم ولا تنكر ، وسل الله تعالى أن ينالك
حظ وافر من شفاعته صلى الله عليه وسلم في جميع العوالم . آمين

وإن تلاوة المؤمن للقرآن الكريم وتسبيحه وتحميده وذكره لله تعالى
يشفع به الآن في الدنيا كما دلت عليه الأحاديث ، ومنها ما رواه ابن ماجه
عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : (إن مما تذكرون من إجلال الله التسبيح والتهليل والتحميد ،
ينعطفن حول العرش لهن دوي كدوي النحل تذكر بصاحبها) أي :
يشفعن به عند الله سبحانه وتعالى ، (أما يحب أحدكم أن يكون له من لا
يزال يذكر به)^٢ الحديث .

وأعظم الشفعاء عند الله تعالى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم
الذي أرسله الله تعالى وجعله واسطة بينه وبين خلقه .

^١ انظر بحث الشفاعة في كتاب (الإيمان بعوالم الآخرة) للشيخ الإمام
رضي الله عنه فسوف تجد ما ينفعك بإذن الله تعالى
^٢ قال في (الترغيب): رواه ابن أبي الدنيا وابن ماجه واللفظ له ، والحاكم
وقال : صحيح على شرط مسلم . اهـ .

فلقد سأل أبو هريرة رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أسعد الناس بشفاعته سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة الذي هو أخطر الأيام وأعظمها والذي لا يبقى فيه أحد من المؤمنين إلا ناله حظ من شفاعته سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار سعيداً بها ، إلا إن أسعدهم بشفاعته سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من بينه صلى الله عليه وسلم في الحديث : (أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة من قال : [لا إله إلا الله] خالصاً من قلبه) .

يعني قالها بلسانه خالصاً من قلبه ، لا رياء فيها ولا سمعة ، ولا يبتغي بها إلا وجه الله سبحانه وتعالى ، وطالما أنه قالها خالصاً من قلبه ، فذلك يعني أن قلبه قد غمر بالإيمان وقد أثمرت تلك الكلمة وأينعت حتى ظهر ذلك في أقواله وأفعاله فطاب كلامه وصلاح عمله وفي ذلك يقول سبحانه :
{ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون } .

فالكلمة الطيبة - والتي هي منبع الطيب وأصله - هي (لا إله إلا الله) مع ملازمتها التي لا تنفك عنها (محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) .
ومثل هذه الكلمة في قلب المؤمن كشجرة النخلة الطيبة الثابتة في تخوم الأرض والتي تؤتي أكلها على مدار السنة ، فترى أن ثمارها تؤكل كل حين ، إما بُسراً أو رُطباً أو تمرّاً ، وكذلك شجرة الإيمان في قلب المؤمن لا بد أن تؤتي أكلها كل حين وهي الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة .

وكما لا بد لشجرة النخلة بل لكل شجرة من عناية ورعاية وسقيا ، فكذلك شجرة الإيمان في قلب المؤمن لا بد أن تسقى بذكر الله سبحانه وتعالى وتلاوة القرآن الذي هو غذاء ومدد الإيمان في القلب .

وإن مستقر الأقوال الطيبة والأعمال الصالحة فوق السماء السابعة عند سدرة المنتهى التي لها اتصالات بعالم العرش ، وقد قال سبحانه وتعالى :
{ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه } .

وإن مضاعفة أجر الذكر تكون على حسب حضور القلب ، وأما من ذكر الله عن قلب غافل فله أجر لا مضاعفة فيه ، ولا تدع الذكر إذا لم يحضر قلبك بل واظب عليه ، فإنه شرف لك وطيب لنفسك ولا بد أن يحملك ذلك على حضور قلبك .

وعن المؤمن الطيب يصدر الكلام الطيب والعمل الصالح ، وكما طاب في الدنيا طاب في الآخرة ، قال تعالى : { الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون } .
وقال تعالى في أهل الجنة : { طبتم فادخلوها خالدين } .
فدخلوا الجنة وازدادوا طيباً على طيب .

وقال تبارك وتعالى : { إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير } ، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم آمين .
ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

فهرس الكتاب

٥	الدرس الأول
١٢	الدرس الثاني
٢٢	الدرس الثالث
٢٩	الدرس الرابع
٣٤	الدرس الخامس
٤٠	الدرس السادس
٥٠	الدرس السابع
٦٠	الدرس الثامن
٦٩	الدرس التاسع
٧٩	الدرس العاشر
٨٥	الدرس الحادي عشر
٩٤	الدرس الثاني عشر

مجالسُ الحديثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ الجزء الثاني

للإمام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

جمع وتقديم
ولده

المهندس الشيخ محمد محي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما



مجالسُ الحديثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

الجزء الثاني

للإمام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

جمع وتقديم

ولده

المهندس الشيخ محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

اعتنى بها وخرَّج أحاديثها

خادم العلم الشريف

الدكتور بكري بريمو السمان

وفيها بيانات
بعض أحاديث سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم

التي ذكرها الإمام النووي
رضي الله عنه
في (رياض الصالحين)

وهي مجالس الشيخ الإمام
عبد الله سراج الدين
رضي الله عنه
في جامع الحموي
يوم الخميس
بعد شروق الشمس بقليل

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.
أما بعد:

قال الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه {رياض الصالحين} باب المراقبة:

عن أبي ذر جندب بن جنادة وأبي عبد الرحمن معاذ بن جبل رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

[اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن] رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. اهـ

تقدم بعض الكلام على معنى المراقبة وقلنا: هي ملاحظة القلب للرقيب وهو الله تعالى الذي لا يغفل ولا يسهو ولا ينام، وهو سبحانه معك أينما كنت.

قال تعالى: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً).

والرقيب الحقيقي عليك هو من لازم رقبتك، فمن الذي هو معك أينما كنت ولا يغفل عنك ولا يسهو؟ نعم هو الله تعالى.

ومعنى مراقبة العبد لله تعالى أن يلاحظ العبد بقلبه أن الله معه أينما كان، وأنه سبحانه ناظر إليه مطلع عليه، يعلم ويرى ظاهره وباطنه، ويعلم سره وعلايته، ويعلم ما أخفاه في نفسه، بل ويعلم جل وعلا ما خفي في باطن الإنسان وقلبه وسيظهره له فيما بعد، وهذا قوله تعالى: (يعلم السر وأخفى).

ويجب على كل مؤمن أن يتحقق بالمراقبة لله تعالى حتى يصح إيمانه ، ويكون ذلك رادعاً له عن معصية الله سبحانه وعن الوقوع في الذنب ، لأن من راقب أن الله تعالى رقيب عليه لا يخفى عليه شيء حملة ذلك على الحياء من الله تعالى والخشية منه سبحانه ، فيسعى جاهداً إلى أن تكون حركاته وتصرفاته وأحواله وأقواله وأخلاقه مرضية عند الله تعالى وعند رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، متابعاً لما جاء عن الله جل وعلا ورسوله صلى الله عليه وسلم .

والتحقق بمقام المراقبة يتطلب من المؤمن علماً يقينياً قاطعاً لا يقبل الشك والارتياب، والمراقبة هي أن يعلم المؤمن علماً نظرياً فكرياً أن الله تعالى يراه ومطلع عليه .

وإذا أردت أن تفهم الفرق الكبير بين العلم النظري الفكري والعلم القلبي اليقيني فانظر كيف سمى سبحانه الموت بـ اليقين لأن الموت سيأتي على كل إنسان ، وما من أحد يرتاب في ذلك أو يشك أو يوسوس أنه سيموت أم لا، بل إن الموت يعلمه كل إنسان علماً يقينياً قاطعاً، ويعلم أنه سيموت عند انتهاء أجله الذي أجّله الله تعالى له كما مات أبوه وجده وهكذا.

قال تعالى: (إلا أصحاب اليمين * في جنات يتساءلون * عن المجرمين * ما سلككم في سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين) أي الموت ولم تعد تنفعهم الحسرة والندامة، قال تعالى: (واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) أي الموت ، فلا تنقطع الأعمال الشرعية التكليفية الدنيوية عن الإنسان حتى يموت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث] أي انقطع عمله التكليفي الدنيوي ، إلا أن هناك أعمالاً تكليفية برزخية تناسب كل برزخ ينتقل إليه الإنسان.

[صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له]^١.

^١ كما في صحيح مسلم كتاب الوصية وصحيح ابن حبان كتاب الجنائز عن أبي هريرة والرواية له ، وأما إكرام الله تعالى لأهل التقى والصلاح بأن يستمروا على عباداتهم وصلواتهم لله تعالى في قبورهم وفي برازخ الآخرة فهم لا يجدون بذلك كلفة أو مشقة بل يتنعمون ويتلذذون بعبادة الله تعالى.

وقد سمي صلى الله عليه وسلم الموت باليقين وذلك لما مات عثمان بن مظعون رضي الله عنه كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم مخبراً عنه :
[أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ]^١ أي الموت ، فيجب على كل إنسان أن يعلم علماً يقينياً جازماً أن الله تعالى يراه في جميع تقلباته وسكناته ، ويعلم سره وعلانيته وخفائيه وذلك لأن الله تعالى أخبرنا عن ذلك فقال جل وعلا :
(وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى) ، وقال سبحانه :
(وهو معكم أينما كنتم) أي معكم بقدرته وعلمه وإحاطته جل وعلا .

وقال تعالى : (اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير) ، وقال عز من قائل :
(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ) أي نحن معكم ولا نغفل عنكم في جميع أعمالكم وأقوالكم وخواطركم .

ومن وجه آخر فهو سبحانه الذي خلق الإنسان وخلق ويخلق أعماله وأقواله وحركاته فكيف لا يعلم ما خلق ويخلق ؟!

قال تعالى : (ألا يعلم من خلق) فخالق الشيء هو أعلم به وهو العالم به وبما أودع فيه وبما سيجري عليه وبما سيعمله ، قال تعالى :
(والله خلقكم وما تعملون) .

وإن علمه سبحانه بالمخلوقات علم سابق على وجودها ، وجاء خلقه جل وعلا الأشياء على حسب علمه وحكمته ، وعلمه سبحانه بالأشياء هو العلم المحيط بها الذي لا أول له .

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجنائز

فهو سبحانه خلقك ويعلم ما فيك وما يجري عليك وهو سبحانه يسمع كلامك قبل أن تسمعه الناس ، وهو أسمع بكلامك من الناس ، وهو سبحانه يراك وهو أبصر منك من نظر الناس إليك ، وأعلم بك منك ، وهو يعلم من نفسك ما لا تعلمه أنت من نفسك ، ويرى منك ما لا تراه من نفسك.

ولو تفكر الإنسان في نفسه لعلم أنه لا يرى من نفسه إلا بعض جهات منها كصدره وبطنه ورجليه ويديه ، ومن العجائب أنه لا يرى وجهه بل لا يرى عينيه اللتين تريانه الأشياء!.

ومن زعم أنه يرى وجهه في المرآة فيقال له:

إن المرآة إنما رأيت بها مثلاً عنك ولم تر بها حقيقة نفسك وذاتك ، ولو أن المرآة تريك حقيقة ذاتك لشعرت بألم إذا نحن وخرنا المرآة !

كما أنك لا ترى ما أودع الله في باطنك من أعضاء وأحشاء تقوم بأداء وظائفها حتى تبقى عليك حياتك ، ولا ترى دماغك وأعصابك ودمك الذي يجري في عروقك ، وكل ذلك على مرأى من الله سبحانه فهو الذي خلقك ويعلم ويرى ما أودع فيك بل يرى كل ذرة فيك ويمدها بما تحتاجه وتستحقه.

ومن أيقن بأن الله يراه ويسمعه ويعلم سره وعلايته وخفايا نفسه فقد نال مقام المراقبة لله تعالى ، ويحمله ذلك على أن يستقيم في أموره وشؤونه كلها على شرع الله فيلزم أوامر الله تعالى ويتجنب ما نهاه الله عنه حياء منه سبحانه وخشية له.

ولذلك قال العارفون رضي الله عنهم:

" لا يقع الإنسان في الذنب إلا إذا غفل عن الله تعالى".

ولما أوصى شيخ مريده قال له:

" إذا أردت أن تعصي الله تعالى فاعصه حيث لا يراك " .

أي فلا تعصه أبداً لأنه سبحانه يراك وهو مطلع عليك في سائر حركاتك
وسكناتك وتقلباتك ، وهو جل وعلا معك أينما كنت فكيف تجرؤ على معصيته
إذا أيقنت بذلك؟!

وقد أوصى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا ذر رضي الله عنه -وكان من
السابقين للإسلام - أوصاه بقوله:

[اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق
حسن]^١ .

ثم لما أسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه ومضت عليه فترة وأرسله الرسول صلى
الله عليه وسلم إلى اليمن أميراً قاضياً أوصاه بجملة من الوصايا كان منها قوله
صلى الله عليه وسلم: [اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ،
وخالق الناس بخلق حسن] .

ولذلك جاء الحديث عن أبي ذر وعن معاذ رضي الله عنهما.

وإن وصية الرسول صلى الله عليه وسلم وإن كانت موجهة لأبي ذر ومعاذ رضي
الله عنهما فهي تشمل أيضاً كل مؤمن إلى يوم الدين ، وذلك لأن الصحابة رضي
الله عنهم هم وجوه هذه الأمة وهم موضع خطابات الرسول ووصياه صلى الله
عليه وسلم ، ويخاطب من بعدهم أيضاً من الأمة، لأن الخطاب الموجه إلى
وجه الإنسان تعم منفعته ومصالحته الوجه وسائر الجسد.

قوله صلى الله عليه وسلم : [اتق الله حيثما كنت] يعني اتق الله أينما كنت وفي
أي زمن كنت فيه ، فأنت مطالب بتقوى الله في جميع حركاتك وأوقاتك ، اتق
الله في المسجد و اتق الله في الشارع و اتق الله مع الناس وفي خلواتك لوحدك
واتق الله في سفرك وحضرك وفي حلك وترحالك ومع أهلك ووحدك.

^١ سنن الترمذي كتاب البر والصلة

ولو أنك جلست وحدك بمعزل عن الناس كلهم حتى عن أهلك فيقال لك:
اتق الله ، فلا تضيع أوقات عمرك بطلاة بل املأها بذكر الله تعالى ، فإن قيل :
أنا أذكر الله تعالى فيقال : اتق الله في فكرك أثناء ذكرك لله تعالى ، وأشهد قلبك
ما يذكره لسانك ، فكم من أناس تراهم متوجهين إلى القبلة ويبد كل منهم سبحة
ويذكرون الله تعالى ويسبّحون ولكن قلوبهم تجول من فلان إلى فلان ومن أمر
إلى آخر !

وكم من أناس خلوا بأجسادهم في بيوتهم لكن قلوبهم تجول مع الناس !
وإن الإنسان بخلقه هو أعجب العجائب الخلقية فهو أعجب من السماء
وأعجب من الأرض ، وظهرت فيه من الأسرار الإلهية ما لم يظهر في السموات
ولا في الأرض إذ إن في الإنسان استعداداً أن يترقى ويعلو حتى يصير في أعلى عليين
ويلتحق بالملأ الأعلى مع الملائكة الكرام عليهم السلام ويحل في مقعد صدق
عند مليك مقتدر ، كما أن في الإنسان استعداداً أن يسفل ويهوي حتى يصير في
أسفل سافلين ، فإذا كانت البهائم كالكلاب والحمير والقردة سافلة بالنسبة
للإنسان فإن الإنسان لما كفر بالله وتمرد على شرع الله تعالى فقد تسفل بنفسه
وصفاته حتى صار أحقر من البهائم وصار أسفل منها وهذا معنى قوله تعالى:
(ثم رددناه أسفل سافلين).

ومن جادل في هذا فيقال له : إن الكلب مثلاً حيوان سافل ولا يتجاوز حد
سفالته في الدناءة والخسة إلى صفة الخنازير مثلاً ، أما الإنسان إذا تجرد عن
إنسانيته وجاوز حدها وطغى وفسق وكفر فقد تسفل بنفسه حتى يصير في
الخسة و الدناءة كالكلب ويصير في استباحة الفاحشة كالخنزير، وفي احتياله
ومكره كالقردة و الثعالب وفي الحقد كالجمل وفي البلادة كالحمار الذي لا يعرف
ما يضره مما ينفعه ، وهكذا يصير الإنسان المتمرد على شرع الله مجموعة من
الخبائث والرذائل اجتمعت فيه صفات البهائم وصار أسفل منها .

وفي هذا يقول سبحانه في الكفار: (إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً).

ويقول جل وعلا: (والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) .

أما من آمن بالله وتمسك بدين الله تعالى وراح يترقى في مقامات القرب من الله فهو الإنسان الكامل ، وهو الإنسان العلوي الرباني الذي ينال شرف القرب من حضرة الرب جل وعلا، وإن أكمل إنسان والمكمل لكل إنسان هو السيد الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء يهذب العقول والقلوب والأفكار ، ولا يُعرف الكمال الإنساني إلا عنه صلى الله عليه وسلم.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وأتبع السيئة الحسنة تمحها] وأعظم الحسنات التي تمحو الذنوب التوبة والاستغفار ، أي استغفر الله تعالى وتب إليه إن صدر منك ذنب.

واعلم أن الذنوب الكبائر لا بد لها من توبة مخصوصة حتى تُمحي، أما الذنوب الصغائر فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن هناك أقوالاً تمحو الذنوب كالتسبيح والتحميد وتلاوة القرآن والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم^١.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [وأتبع السيئة الحسنة تمحها] أي تمحو أثرها الظلماني من قلبك ، وتمحو تسطيرها من كتاب أعمالك ، وتمحو أثرها من لوحة نفسك ومن حولك، لأن للأعمال السيئة آثاراً ظلمانية من حولك ، كما أن للأعمال الصالحة آثاراً نورانية من حولك ، وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلم : [إن العبد إذا أخطأ خطيئة نكتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع واستغفر وتاب سقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلو قلبه وهو الران]^٢.

^١ روى البيهقي عن معقل بن يسار رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: [من قرأ يس ابتغاء وجه الله غفر الله ما تقدم من ذنبه، فاقروها عند موتاكم]. وجاء في مسند الإمام أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [إِنَّ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ تَنْفُضُ الْخَطَايَا كَمَا تَنْفُضُ الشَّجَرَةَ وَرَقَهَا]. وجاء فيه أيضاً قوله صلى الله عليه وسلم :

[مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرَ صَلَوَاتٍ وَحَطَّ عَنْهُ عَشْرَ خَطِيئَاتٍ] .
^٢ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن والرواية له وسنن ابن ماجه كتاب الزهد

فمن استمر على ذنوبه وأصر عليها ولم يتب منها فإن الظلمة تسري إلى صميم قلبه فلا يبقى للإيمان أثر نوراني في قلبه ، قال سبحانه في الكفار :

(كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) أي حجبت قلوبهم وأبصارهم عن تجليات ربهم سبحانه بسبب ظلمات ذنوبهم التي خيمت على قلوبهم.

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : [وخالق الناس بخلق حسن] أي عامل الناس بالخلق الحسن في مقابلتك لهم وفي كلامك وصحبتك وجوارك وسائر معاملاتك مع الناس ، واحذر فلتات لسانك أن تضر أحداً بها ، ولتكن تحيتك للناس تحية حسنة بوجه طلق ، وقد قال صلى الله عليه وسلم:
[ما من شيء أثقل في الميزان من خلق حسن]^١.

وروى بعضهم في الأحاديث المسلسلة عن الحسن بن حسان السمطي عن الحسن بن دينار عن الحسن بن أبي الحسن البصري عن الحسن بن علي رضي الله عنهما عن جد الحسن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال:
[إن أحسن الحسن الخلق الحسن]^٢.

١ المسند ٢٦٢٤٥

٢ عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى المستغفري في المسلسلات وابن عساكر وابن النجار.

وقال صلى الله عليه وسلم : [أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خُلُقاً]^١
فليس الخلق الحسن في شريعة الإسلام من باب الامتنان على الغير أو التفضل
عليه ، وإنما هو من الواجبات الإيمانية على كل مؤمن إذ لا يكمل إيمانه حتى
يحسن خلقه ، وكلما حسن خلقه زاد إيمانه ، ونسأل الله تعالى أن يجعل أخلاقنا
أخلاقاً إيمانية محمدية .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين.

^١ المسند ٧٠٩٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.
أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه
(رياض الصالحين) باب المراقبة :

الحديث الثالث: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

[كنت خلف النبي صلى الله عليه وسلم يوماً^١ فقال : يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ، إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، وإن اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف]
رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح.

وفي رواية لغير الترمذي: [احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك ، وما أصابك لم يكن ليخطئك ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً] .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم: [يا غلام]^٢ أتى بقوله [يا] مع أنه يؤتى بها لنداء البعيد والحال أن ابن عباس رضي الله عنهما قريب من رسول الله صلى الله عليه وسلم بل هو خلفه على الدابة!

^١ وكان عمر ابن عباس رضي الله عنهما وقتئذ عشر سنين ، ومن جملة أدلة العلماء أنهم استدلوا بهذا الحديث على جواز أن يركب الدابة اثنان إذا كان عندها قوة وقدرة على التحمل ، وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أردف خلفه عبد الله بن عباس على الدابة ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرحم خلق الله تعالى بخلق الله ، ولولا أن الدابة تتحمل ذلك لما أردف ابن عباس خلفه عليها.
^٢ ويؤتى بالهمزة لمناداة القريب كقولك " أ فلان "

نعم ناداه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله: [يا غلام] حتى يستجمع عقله وفكره ويتوجه بكليته إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى ما سيلقيه عليه من منافع وفوائد وخيرات فجيء بـ [يا] للتنبيه.

قوله صلى الله عليه وسلم: [إني أعلمك كلمات] أي كلمات جامعة لكل خير نافعة لك في دينك ودنياك وآخرتك.

قوله صلى الله عليه وسلم: [احفظ الله يحفظك] أي فمن حفظ الله حفظه الله ، ومن نسي الله نسيه الله تعالى أي تركه من رحمته وعنايته كما قال سبحانه: (ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم) أي فلم يعودوا يعرفون ما يضرهم مما ينفعهم.

وقال سبحانه في المنافقين: (نسوا الله فنسيهم) أي تركوا الله وتركوا دين الله وتركوا ذكر الله فتركهم الله من رحمته، ووكلمهم إلى أنفسهم ، أما نسيان العلم فهو محال في حقه سبحانه فلا يغيب عن علمه شيء كما قال تعالى مخبراً عن سيدنا موسى عليه السلام قوله: (لا يضل ربي ولا ينسى) ، فقول الرسول صلى الله عليه وسلم: [احفظ الله] أي لا تنس الله ، بل كن دائماً على تذكرك له تعالى.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [احفظ الله] أي احفظ الله بأداء ما أمرك به من أعمال كالصلاة وغيرها من الأوامر الشرعية وبأن تجتنب ما حرم الله لأن حدود الله هي محارمه كما قال تعالى: (تلك حدود الله فلا تقربوها) وقال سبحانه: (والحافظين لحدود الله) وقال عز وجل: (حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين) .

وقوله صلى الله عليه وسلم: [احفظ الله] يشمل أن يحفظ الإنسان جوارحه وحواسه عن المحرمات فيحفظ سمعه عن سماع ما حرم الله ، ويحفظ بصره عن النظر إلى ما حرم الله ، ويحفظ فرجه عن الحرام كما قال تعالى: (والذين هم لفروجهم حافظون) وهكذا...

وربَّ سائل يقول: هل يمكن أن أحفظ الله في قلبي ولا أنساه ولا أغفل عنه أبداً؟

فيقال: نعم يمكنك ذلك إذا أكثرت من ذكره جل وعلا ، وفرَّغت قلبك من الأغيار التي تشغلك عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا نظر سبحانه إلى قلبك ولم ير فيه غيره ملاًه من أنواره وأسراره جل وعلا ، وحفظك عندئذ من الزيغ والضللال وتولاك في سائر أمورك .

ولكي يتضح لك ذلك ألا ترى من وهبه الله ولداً واحداً ولم يهبه غيره ويسمونه " وحيداً " وهي تصغير كلمة " وحيد " يريدون الرقة والملاطفة ، فمثل هذا تراه لا ينسى ولده ولا يغفل عنه فإذا غدا إلى عمله فإن ابنه الوحيد لا يغيب عن باله ، وإذا سافر أو تعاطى أسباب الرزق فإن ولده لا يغيب عن باله لحظة واحدة ، كل ذلك بسبب محبته وولعه بولده .

ومن الناس أيضاً من يحب ماله أشد من محبته لولده فترى أن أمواله لا تغيب عن فكره أبداً، وتراه إذا استيقظ من نومه فإن أول ما يرد إلى فكره ماله فيقال : إن هذا حافظ للمال حقاً ولا ينساه ، مع أن كلاً من المال والولد والزوج مآله إلى الفراق و الزوال ، والعاقل من أدرك هذا ولم يلتفت إلى ذلك كله بل جعل قلبه وفكره مشغولاً بربه فلا يغيب ذكر الله عن قلبه ، ولا يكلُّ لسانه من ذكره سبحانه ، فإذا استيقظ ذكّر الله تعالى وإذا أكل ذكر الله وإذا شبع ذكر الله وإذا توضع ذكر الله وإذا خرج من بيته ذكر الله وهكذا فإن ذكر الله لا يغيب عنه في جميع أحواله وحركاته وتقلباته كما جاء بيان ذلك عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي ما ترك خيراً إلا ودل عليه أمته .

قوله صلى الله عليه وسلم: [احفظ الله يحفظك] أي يحفظك من مكاره
ومساوى الدنيا والآخرة ويتولاك على قدر ما تحفظه ، فيحفظ أولاً عليك
إيمانك لأن من نسي الله تعالى وأعرض عنه فقد عرض إيمانه للزوال كما قال عز
وجل : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) أما من حفظ الله ولم ينسه وحفظ دين
الله بأن تحقق به قولاً وعملاً فإن الله تعالى يحفظ عليه إيمانه ودينه ويزيده
هدى وصلاً ، ومن لم يشعر أن إيمانه في ازدياد فهو في نقصان إذاً كما قال
تعالى: (لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر) فلا بد له إذاً من سماع التذكير
والمواعظ التي ترقق القلب وتحمل صاحبه على الخير والخوف من الله تعالى
مما يزيده نشاطاً إلى طاعة الله تعالى فيزداد إيمانه .

ولقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم إذا جلسوا مع جنابه الشريف
وسمعوا تذكيره ووعظه ازدادوا إيماناً وارتفع مقامهم كما قالوا :

[نكون عند رسول الله يذكّرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأي عين]^١
فيرتقون إلى مقام المشاهدة وكشف الحجب.

ومن زعم أن المواعظ والتذكير ومجالس العلم لا تنفع المؤمن فقد أهمل
مواعظ النبي صلى الله عليه وسلم وتذكيره ، وكذب أصحاب النبي الذين قالوا :
" نكون عند رسول الله يذكّرنا بالنار والجنة حتى كأننا رأي عين " .

وإن تذكير الرسول ومواعظه لا تقتصر على أصحابه الكرام فقط وإنما هي لسائر
الأمّة ، ولكل مؤمن حظه من تلك المواعظ المحمدية فبادر إلى سماعها وحضور
مجالس العلم لتزداد إيماناً وخشية وعبادة لله سبحانه.

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب التوبة عن حنظلة الأسدي رضي الله عنه

قوله صلى الله عليه وسلم: [احفظ الله يحفظك] أي يحفظك في براخ الآخرة وأولها عالم القبر وهو ما بعد الموت حيث لا أنيس ولا جليس ، ولا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، فمن حفظ الله في الدنيا حفظه الله من وحشة القبر وآنسه في غربته وفرج عنه كربته في الحشر وعلى الصراط وهكذا حتى يدخل الجنة بسلام ، نسأل الله تعالى ذلك برفقة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم بفضله وكرمه جل وعلا.

قال تعالى: (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد * هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ * من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب * ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد).

قوله تعالى : (وأزلفت الجنة للمتقين) أي قربت لهم في كل عالم ينتقلون إليه ، ففي عالم الدنيا قرب الله الجنة من المتقين فهم يشاهدونها بقلوبهم وأرواحهم وإن لم يروها بأبصارهم ، وهم في نعيم وقرب وأنس يشعرون به كل على حسب رتبته في التقوى ، حتى قال إبراهيم بن الأدهم رضي الله عنه: " لو تعلم الملوك ما نحن عليه من اللذة والنعيم لنازعونا عليها بالسيوف " ^١ أي ليأخذوها منا ، وإذا صار أهل التقوى في البرزخ قربت لهم الجنة أيضاً وراحوا يجدون من نعيمها ، وفي هذا قال صلى الله عليه وسلم :

[إنما القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار] ^٢.

وكذلك في عالم الحشر يقرب الله الجنة من المتقين فيشعرون بالأمن والسلام ويجدون الروح والنعيم وإن لم يدخلوها بعد ، ألا ترى إلى من رجع من سفر كيف يشعر بالراحة والأمان بمجرد قربه من بلده وإن لم يدخله بعد؟! .

قوله تعالى:(هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ) أي يقال لهم : (هذا ما توعدون لكل أبواب) يعني رجّاع الى الله تعالى (حفيظ) وهو الذي تحقق بقول الرسول صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله يحفظك] فحفظ الله بقلبه وفي عمله بأداء أوامر الله واجتناب ما نهى الله تعالى عنه .

^١ انظر فيض القدير للمناوي ١٣٨/٢

^٢ سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

ثم بين جل وعلا صفة الحفيظ فقال : (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) أي خشي الرحمن بقلبه لأن القلب من عالم الغيب ، وإذا خشي القلب ربه خشيت الجوارح ووقفت عند حدود الله تعالى .

قوله تعالى: (من خشي الرحمن بالغيب) أي بالغيب وإن لم ير الرحمن جل وعلا يعني ببصره لكنه يخشاه بقلبه ، وذلك لأن الإنسان في الدنيا لا يرى ربه بعيني بصره ولكنه يشهده ببصيرة قلبه ويثبته بعقله لأن آياته سبحانه ظاهرة في نفس الإنسان وظاهرة فيما حوله من الأكوان كما قال تعالى: (وفي الأرض آيات للموقنين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون) .

وقال سبحانه : (سزئهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) .
قوله تعالى: (من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) أي بقلب منيب إلى الله تعالى أي يحن إليه ويرجع إليه فكلما انتقل صاحب هذا القلب من عالم إلى عالم زاد قلبه إنابة ورجوعاً إلى الله تعالى .

قوله تعالى: (ادخلوها بسلام) أي يقال لهم : ادخلوها بسلام .
(ذلك يوم الخلود * لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد) أي لهم ما يشاؤون في الجنة وما يريدون وهناك زيادة من الله تعالى لهم عما يشاؤون ، وذلك لأن مشيئتهم وأمانيتهم على حسب علمهم فهو سبحانه يعطيهم ما شاؤوا وما تمنوا حتى إذا نفذت أمانيتهم زادهم سبحانه من فضله ما لم يكن في علمهم وحسبانهم .

ومن أعظم هذه الزيادة الفضل الإلهي على أهل الجنة وهو أن يتجلى عليهم سبحانه بالرؤيا كما جاء في الحديث عَنْ صُهَيْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : [إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ : يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ ؟ فَيَقُولُونَ : أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا ، أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ ؟ قَالَ : فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ : (لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)^١ .

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان

ومن هنا فليعلم العاقل فضل المؤمن ومكانته وكرامته عند الله تعالى رب العالمين فليحفظ نفسه ولا يضيع عمره في اللهو واللعب ، ومن حفظ الله حفظه الله وأناله كرامته .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله تجده تجاهك] أي أمامك ، وقول الرسول [تجده] ولم يقل (تره) للدلالة على المواجهيد القلبية لدى المؤمن إذ إن المؤمن لا يستطيع ولا يمكنه أن يرى ربه في الحياة الدنيا لضعف نشأته الدنيوية وعدم تحمله ذلك ، حتى إذا صار في الجنة وأنشأه الله تعالى نشأة باقية أبدية يتمكن عندها أن يرى الله تعالى.

وقد خص الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم بالرؤية بأن تجلى عليه في عالم سدرة المنتهى ليلة الإسراء والمعراج فرأى الله تعالى بعيني رأسه ، وهذا من خصائصه وفضائله صلى الله عليه وسلم.

ومن المواجهيد القلبية التي يجدها المؤمن ويشهدها ببصيرته ما أخبر سبحانه عن التائب إليه فقال جل وعلا : (ومن يعمل سوءاً) أي بارتكاب كبيرة (أو يظلم نفسه) أي بارتكاب صغيرة (ثم يستغفر الله) أي تائباً إليه (يجد الله غفوراً رحيماً) أي وجداناً قلبياً وذلك لأن الذنوب تورث ظلمة على قلب مرتكبها كما قال تعالى: (كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون) ، وقال صلى الله عليه وسلم: [إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء] .

فإذا تاب العبد واستغفر من ذنبه زالت ظلمة الذنب من قلبه فشهد ببصيرة قلبه نور ربه وهذا معنى قوله تعالى: (يجد الله غفوراً رحيماً) أي غفوراً لذنبه رحيماً به ، ويجد في نفسه روحاً ونعيماً لأن قلبه شهد نور ربه جل وعلا .

وقال تعالى في بيان المواجهيد القلبية لدى المؤمن: (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله تواباً رحيماً) أي لوجدوا الله في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وجداناً قلبياً وراحوا يشهدون نور الله تعالى بقلوبهم.

قوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله تجده تجاهك] أي أمامك بالتوفيق وإلهامك الخير وبأخذ ناصيتك لما فيه رضاه جل وعلا ، وقد قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً) أي نوراً خاصاً تفرقون به الحق و الباطل ، ويكشف لكم عما فيه صلاحكم وسعادتكم في الدنيا والآخرة كما قال سبحانه : (ويجعل لكم نوراً تمشون به) أي تهتدون به إلى كل خير و رشاد.

فقوله صلى الله عليه وسلم: [إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله] لأن الأمور كلها بيد الله سبحانه ، وجاء في الأثر أن سيدنا موسى عليه السلام قال: [يا ربِّ إنَّه لتُعْرِضُ لي الحاجةُ من الدنيا، فأستحيي أن أسألك، قال: سلني حتى ملح عجينك وعلف حمارك]^١ ، فلو لم ييسرها الله لم تيسر .

ولا يعني هذا أن يمتنع الإنسان عن سؤال الناس فهم أسباب ووسائل خلقهم الله تعالى ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيًّا ، فمن سأل غيره أن يعينه على دابته أو يهديه إذا ضل طريقه وهكذا فسؤاله له على أنه واسطة في الإعانة والهداية ، وهو يعلم أن المعين والهادي على الحقيقة هو الله تعالى ، وهو سبحانه سُخَّرَ أسباباً ونصب ووسائل وأمر الإنسان أن يتعاطاها في أمور معاشه وحياته.

فقول الرسول صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله] هو سؤال عبد لربِّ بيده حوائج المخلوقات كلها، وقد قال تعالى في بيان من يسأل الواسطة حاجته : (وأما السائل فلا تنهر) أي لا تنهره وحقَّق له مراده ما استطعت .

ولو كان سؤال المخلوق لغيره حراماً أو شِرْكَاً لقال تعالى :
"وأما السائل فَرُدَّ عليه وقل له : اسأل ربك".

فقوله صلى الله عليه وسلم: [إذا سألت فاسأل الله] فهو سبحانه يجيبك ويحقق لك سؤالك بواسطة فلان وهكذا ، وهو سبحانه المجيب على الحقيقة لكن بواسطة فلان وفلان ، فمن قال مثلاً : "اللهم ارزقني" ومضى إلى متجره سخر الله له فلاناً ليبْتَاع شيئاً منه ، وإن لم يكن له متجر سخر الله له من يكرمه وهكذا.^٢

^١ انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي
^٢ ارجع إلى كتاب صعود الأقوال للشيخ الإمام رضي الله عنه

ومما تقدم يدرك العاقل أن الوساطة العظمى بين الله تعالى وخلقه هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إذ هو الوساطة في الإيمان والوساطة في هداية الناس إلى الله تعالى والوساطة في رحمة الله لخلقه والوساطة في كل خير في الدنيا وفي الآخرة.

وإن شكر الوساطة الذي كان سبباً في هدايتك أو تعليمك أو رزقك أو إعانتك أو غير ذلك أمر مشروع ، ولولا أن للوساطة شأنًا واعتباراً لما شرع الله تعالى شكر الوساطة فقال سبحانه في شكر الوالدين اللذين خلقتك بواسطتهما :
(أن اشكر لي ولوالديك) على أنهما الوساطة في خلق الله تعالى لك ،
وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لا يشكر الله من لا يشكر الناس] ¹ .

فمن الواجب عليك عقلاً وشرعاً أن تتوسل إلى الله تعالى بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو الوساطة العظمى في هدايتك إلى الله تعالى ، والوساطة العظمى في كل خير ورحمة ينالها كل مخلوق من الله تعالى ، ومن الواجب عليك أيضاً أن تؤدي حقه صلى الله عليه وسلم عليك في التعظيم والتوقير والاتباع والأدب معه صلى الله عليه وسلم وكثرة الصلاة عليه شكراً له صلى الله عليه وسلم لما له عليك من الحقوق.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

¹ سنن الترمذي كتاب البر والصلة وسنن أبي داود كتاب الأدب عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .
أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه
(رياض الصالحين) باب المراقبة:

الحديث الثالث : عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:
كنت خلف النبي يوماً فقال:

[يا غلام إني أعلمك كلمات ، احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك ،
إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت
على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على
أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام
وجفت الصحف] . رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح .

وفي رواية لغير الترمذي: [احفظ الله تجده أمامك ، تعرّف إلى الله في الرخاء
يعرفك في الشدة ، واعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك ، وما أخطأك لم يكن
ليصيبك، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسراً
]. اهـ

ذكر الإمام النووي رضي الله عنه هذا الحديث في باب المراقبة لأنه من جملة ما
يدل على وجوب مراقبة الإنسان ربه وهي أن يوقن العبد أن الله تعالى يراه ويطلع
عليه ولا يخفى عليه منه شيء بحيث تكون هذه الملاحظة القلبية ملازمة
للإنسان في سائر أحواله لا تنفك عنه ، وإلا وقع في الغفلة..

قول الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس : [يا غلام] مع أن ابن عباس
رضي الله عنهما رديف رسول الله وقريب منه ، فجاء النداء بقوله صلى الله
عليه وسلم: [يا غلام] لأجل أن ينتبه ابن عباس ويتوجه بكليته وقلبه إلى سيدنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن أداة النداء [يا] يؤتى بها لنداء البعيد جسماً أو البعيد ذهنياً حتى يحضر
بجسمه إذا كان بعيداً أو يحضر بقلبه وفكره إن كان ذهنه غائباً ومشغولاً.
قوله صلى الله عليه وسلم : [إني أعلمك كلمات] أي فانتبه إليها وخذها بقوة
أي ابذل جهدك في التحقق بها.

ثم فصل له صلى الله عليه وسلم هذه الكلمات بعد أن أجمل ، وهذا أوعى
للسامع وأرسخ في ذهنه ، وعلى هذا الأسلوب جرى علماء السلف في مقام
التعليم ، ومنهم من قال: إن التفصيل أولاً ثم الإجمال ، لكن الأكثرين على أن
الإجمال أولاً ثم التفصيل كما دلت عليه آيات القرآن الكريم وأحاديث خير الأنام
صلى الله عليه وسلم.

فمن ذلك أنه سبحانه ذكر في القرآن أولاً سورة الفاتحة ثم سورة البقرة وطوال
السور ، وكانت معاني القرآن مجملة في سورة الفاتحة ، ودل على هذا أنه
سبحانه قابل ذكر سورة الفاتحة بالقرآن الكريم كله بقوله جل وعلا :
(ولقد آتيناك سبعاً من المثاني) أي سورة الفاتحة (والقرآن العظيم) فالأولى
في مقام التعليم لأهل الأفكار العالية أن يُجمل المعلم ثم يفصل كما قال الرسول
صلى الله عليه وسلم : [إني أعلمك كلمات] ثم فصل له بقوله :
[احفظ الله يحفظك] .

وقد تقدم الكلام على ذلك إلى أن وصلنا إلى قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله] .
وليعلم كل مؤمن أن كلام الرسول صلى الله عليه وسلم كلام من آتاه الله جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه ، فمهما فهم المؤمن ومهما عرف من معانيه فالأمر أوسع وأكبر ، ولا يقف تكرار سماعك لحديث ما أو فهمك لشيء من معانيه لا يقف ذلك حاجزاً أو مانعاً لك عن سماع وتقبل معان وبيانات أخرى لهذا الحديث الشريف ، واجعل موقفك منه موقف السامع المصغي لألفاظه وبيانه ومراميه وكأنك تسمعه لأول مرة ، وذلك حتى تشملك الفائدة بزيادة إيمانك وعلمك .

قوله صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله] أي إذا سألت حاجاتك أو مهماتك سواء المتعلقة بك أو بمن حولك فاسأل الله ، والله يحب أن يُسأل لأن حوائج السائلين بيده سبحانه ، بل إن الأمور كلها بيده سبحانه كما قال تعالى : (قل إن الأمر كله لله ملكاً وتديراً وتصرفاً ، ولا شريك معه سبحانه في خلق الأمور ولا في تدبير شؤونها .

قال جل وعلا : (واسألوا الله من فضله) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من لم يسأل الله يغضب عليه]^١ ، وقال عليه الصلاة والسلام : [سلوا الله من فضله فإن الله عز وجل يحب أن يُسأل]^٢ ، فمن سأل الله حاجته فقد تقرب إلى الله بما يحبه ، ونال من الله ما يحب من حاجته ، ولكن إجابة الله عبده تكون على حسب علمه وحكمته سبحانه ، وتكون بما هو أصلح للعبد ، والإجابة حاصلة لا محالة كما بين ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله :

[مَا مِنْ رَجُلٍ يَدْعُو اللَّهَ بِدُعَاءٍ إِلَّا اسْتَجِيبَ لَهُ ، فَإِمَّا أَنْ يُعَجَّلَ لَهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِمَّا أَنْ يُدَّخَرَ لَهُ فِي الْآخِرَةِ ، وَإِمَّا أَنْ يُكْفَرَ عَنْهُ مِنْ ذُنُوبِهِ بِقَدْرِ مَا دَعَا مَا لَمْ يَدْعُ بِإِثْمٍ أَوْ قَطِيعَةٍ رَحِمٍ أَوْ يَسْتَعْجِلُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْجِلُ ؟
قَالَ : يَقُولُ : دَعَوْتُ رَبِّي فَمَا اسْتَجَابَ لِي]^٣ .

^١ سنن الترمذي كتاب الدعوات

^٢ المرجع السابق

^٣ المرجع السابق

وقول الرسول صلى الله عليه وسلم: [إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله] لا ينافي أن يسأل الإنسان غيره من الناس أو يتوسط بهم في بعض أموره وهكذا ، كما لو سألت عالماً عن أمر من أمور الدين ، أو سألت أحداً أن يهديك إلى طريق أو مكان تريده ، أو سألت أحداً أن يعينك على دابتك أو نحو هذا فإن سؤال العبد غيره من العباد هو من باب الوساطة والأخذ بالأسباب .

ولقد كان أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يسألونه عن أمور كثيرة ويجيبهم عنها ولم ينبههم بقوله : " سلوا الله ولا تسألوني " ، وهذا كما جاء خبره في القرآن الكريم :

(يسألونك) و (وإذا سألك عبادي عني) و (ويسألونك عن اليتامى) .

فقوله صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله] يعني اعلم أن الأمور كلها بيد الله خلقاً وتديراً ، ولا ينافي هذا أن تسأل المخلوق على أنه واسطة ووسيلة ، فمن أراد أن يتعلم شيئاً فيقول : " يا رب علّمني " ويذهب الى العالم فيسأله ويجيبه ، وكذلك من يقول : " اللهم ارزقني " ثم يسعى في طلب الرزق بعمله وتجارته ، فأنت تعامل الناس وتسألهم ويسألونك حاجاتهم ، وتتبادل معهم السلع والبضائع والأموال ، وهكذا يأتيك الرزق عن طريق المخلوقات إلا أن الذي ساقه لك هو الله تعالى .

ولقد هدى الله تعالى المؤمنين إلى الإيمان لكن بواسطة رسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقال جل وعلا : (من يهد الله فهو المهتد) ، وقال سبحانه وتعالى : (وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم) ، وقال عز من قائل : (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) فالهادي على الحقيقة هو الله تعالى لكن السبب والواسطة في الهداية هم الرسل عليهم الصلاة والسلام وأعظمهم رسولنا الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

وكذلك الرزاق على الحقيقة هو الله ولكن قد يرزق غيره على سبيل الوساطة كما قال تعالى: (فارزقوهم منه)، وكذلك المُطعم على الحقيقة هو الله تعالى كما قال جل وعلا: (قل أغير الله أتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يُطعم ولا يُطعم)، وقال تعالى مخبراً عن سيدنا إبراهيم عليه السلام قوله: (الذي خلقني فهو يهدين * والذي هو يطعمني ويسقين) ولكن قد يكون هناك من يطعمك من المخلوقات على سبيل الوساطة والسبب وذلك بتوفيق وإلهام من الله تعالى.

فلقد أطعمك الله بواسطة فلان ، ورزقك بواسطة فلان ، وعلمك بواسطة فلان ، وهداك بواسطة فلان ، وأعانك بواسطة فلان ، فلا تنكر الوساطة وأثبتها على أنها واسطة ، فهي لا حول لها ولا تدبير من ذاتها بل إن المؤثر والفعال في الوسائط والأسباب هو الله تعالى خالق الأسباب وخالق كل شيء.

وفي الحديث الذي رواه مسلم وغيره عن ربيعة بن كعب الأسلمي رضي الله عنه قال: [كُنْتُ أبيتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ] - وكان خادم النبي صلى الله عليه وسلم - [فَأَتَيْتُهُ بِوَضُوئِهِ وَحَاجَّتِهِ ، فَقَالَ لِي : سَلْ] - وفي رواية : [سَلْنِي أَعْطِكَ] - [فَقُلْتُ : أَسْأَلُكَ مُرَافَقَتَكَ فِي الْجَنَّةِ ، قَالَ : أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ ؟ قُلْتُ : هُوَ ذَاكَ ، قَالَ : فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ]^١.

فانظر أيها العاقل في قول الرسول صلى الله عليه وسلم : [سل] وفي رواية :

[سَلْنِي أَعْطِكَ] وقول ربيعة: " أسألك مرافقتك في الجنة " ، ولم ينهه صلى الله عليه وسلم عن هذا السؤال، ولم يقل له: " سل الله ذلك ، وأنا لا أسأل هذا " بل أجابه وأراد أن يعرف شدة حرصه على هذا الطلب فقال: [أو غير ذلك ؟] فلما رأى حرصه الشديد على ذلك بشره صلى الله عليه وسلم بقوله: [فأعني على نفسك بكثرة السجود] وأكون لك واسطة في ذلك أي أن الله تعالى سيعطيك مرادك بمرافقتي في الجنة لكن ينبغي عليك أن تعد نفسك لذلك وتتهياً لهذا الفوز الكبير بأن تكثر من الصلاة لله تعالى.

١ انظر صحيح مسلم كتاب الصلاة والمسند ١٥٩٨٣

وهذا يدل على مشروعية سؤال الوساطة وأن تتوسل بها إلى الله تعالى ،
بل أن تسأل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجاتك وتتوسل به إلى الله
تعالى ليشفع لك عند الله ليقبل مرادك.

فعلى المؤمن العاقل أن يقوم بإعطاء المراتب حقها فيعترف لله تعالى بالألوهية
والسيادة المطلقة والخلق والتدبير والتصريف ، وأن يعترف لسيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم بأنه واسطة الله العظمى وأنه الشفيع الذي لا شفيع له
وأنه الإمام الذي لا إمام له.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وإذا استعنت فاستعن بالله] أي أن المعين على
الحقيقة هو الله تعالى فإذا طلبت العون فاطلبه منه، ولا ينافي هذا أن يسخر
لك واسطة لعونك ، ولا ينافي هذا أن يسأل العبد مخلوقاً غيره أن يعينه كما قال
تعالى مخبراً عن نبي الله ذي القرنين عليه السلام قوله: (فأعينوني بقوة)
فاستعانة العبد بالله استعانة عبد معترف موقن بأن الحول والقوة لله جل وعلا
، وأما استعانته بمخلوق مثله فهي استعانة به على أنه واسطة في العون سخرها
الله تعالى له، وهذا معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم :
[والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه]¹.

وقوله صلى الله عليه وسلم :
[وتعين الرجل في دابته فتحمله عليها أو ترفع له عليها متاعه صدقة]² .
وأما معنى [لا حول ولا قوة إلا بالله] أي لا حول لمتحول عن أمر من الأمور
ولا قوة لمتقو على فعل من الأفعال إلا بالله العلي العظيم.
وإن التحقق بمعنى قولك: [لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم] هو من أعلى
مقامات ومراتب التوحيد، وإن غفلة المؤمن عن قوة الله وحوله في تحركاته
وسكناته وتحولاته في أموره ورؤيته لقوة نفسه هو من أعظم الذنوب عند أهل
الله تعالى وينبغي الاستغفار من هذه الغفلة .

¹ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

² طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الزكاة

قوله صلى الله عليه وسلم : [واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك] يعني أن الأمور كلها مقضية ، وأنه سبحانه قدر مقادير الأشياء وكتبها قبل أن يخلقها كما قال تعالى : (مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا) .

وإن قضاء الله تعالى وقدره لا يسلب العبد اختياره وإرادته ، إذ إن المسؤولية والمحاسبة لا تكون إلا على الأفعال التي تصدر من الإنسان باختياره وإرادته ، وإذا صدر منه ما لا اختيار له فيه فلا مسؤولية عليه كما لو عطس عدة مرات في صلاته وصدر منه صوت العطاس قوياً ، وأما لو صاح في صلاته باختياره فتفسد صلاته ، وكما لو اضطر إلى أكل الميتة أو الخنزير أو شرب الخمر إذا لم يجد غيره بقدر ما يدفع الموت عنه فلا مؤاخذة عليه عندئذ فافهم .

ومن ذلك يدرك العاقل أن الاختيار والإرادة صفة ثابتة في الإنسان ، وهو يفرق في أموره وحركاته بين ما لا اختيار له فيه كالعطاس والرعدة وغيرها وبين ما هو مختار فيه فالقضاء والقدر أمر ثابت والاختيار في العبد أمر ثابت ولا يظلم ربك أحداً .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الرابع

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.
أما بعد:

قال الإمام الشيخ محي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين)
باب الاستقامة :

قال الله تعالى: (فاستقم كما أمرت) وقال تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون * نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلاً من غفور رحيم).

وقال تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون * أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون).

وعن أبي عمرو - وقيل أبي عمرة - سفيان بن عبد الله رضي الله عنه قال:
[قلت : يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً غيرك ، فقال:
قل: آمنت بالله، ثم استقم] رواه مسلم .اهـ

الاستقامة هي أن يقيم الإنسان نفسه مستقيمة على أوامر الله تعالى، والإقامة تقتضي الاستيطان والثبات وعدم التحول والتردد ، واستقامة الإنسان على شرع الله تعالى تعني تحققه بأوامر الله تعالى دونما تأخر أو تباطؤ أو تكاسل أو إهمال لبعضها ، وإلا فهو لم يتحقق بعد بمقام الاستقامة.

قال تعالى: (فاستقم كما أمرت) وإن كان الأمر موجهاً الى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً فلا ينافي أن يشمل أمته لأن الرسول صلى الله عليه وسلم موضع تلقي خطابات رب العالمين.

قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا) أي استقيموا كما أمر الله تعالى دون تفريط ولا إفراط ولا مغالاة، ومن طُلب منه أن يقيم نفسه على خط مستقيم فإن ذلك يتطلب منه جهداً لكيلا يضطرب أو يميل ، وهكذا استقامة الإنسان على شريعة الله تعالى تتطلب منه جهداً واهتماماً بأمور الشريعة القولية والعملية والقلبية والخلقية .

قوله تعالى: (فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا) فأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستقيم كما أمره سبحانه ، واستقامة الرسول صلى الله عليه وسلم تتناسب مع مقامه المحمدي الخاص به ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو في الترتي الدائم في مقامات الاستقامة والقرب من الله تعالى ، ولذلك قال تعالى : (ولا تطغوا) فخاطب الأمة ولم يقل جل وعلا: " ولا تطغ " فقوله تعالى : (ولا تطغوا) أي لا تتجاوزوا حد الاستقامة الذي شرعه الله لكم.

قوله تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أي قالوا (ربنا الله) وقلوبهم مؤمنة بذلك ، وإلا فلا اعتبار لنطق اللسان إذا لم يُفُضِ الايمان إلى القلب كما هو شأن المنافقين.

فهؤلاء المؤمنون آمنوا بالله تعالى إيماناً قلبياً صادقاً وقالوا بألسنتهم (ربنا الله) أي هو سبحانه خالقهم ورازقهم والقائم عليهم والمدبر أمورهم.

قوله تعالى: (قالوا ربنا الله ثم استقاموا) أي استقاموا على ما قالوا لأن قولهم إيمانهم بالله وقولهم (ربنا الله) يتطلب منهم برهاناً وتصديقاً وهو العمل الصالح ، ولا عبرة للعمل إلا إذا استقام صاحبه بأن تحقق بما أمره الله تعالى من الإخلاص لله تعالى في أقواله وأعماله كلها.

فالاستقامة إذاً هي أن يكون المؤمن المستقيم متابعاً في أقواله وأعماله لما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومخلصاً فيها لله تعالى.

وقد بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله) - أي قالوا ربنا الله إيماناً بالله - فقال صلى الله عليه وسلم : [قل آمنت بالله ثم استقم] والإيمان تصديق بالجنان وعمل بالأركان ويدخل فيه نطق اللسان بالشهادتين.

روى ابن المبارك في الزهد والرقائق عن الزهري أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه تلا هذه الآية: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا) فقال: "استقاموا والله لله بطاعته " - أي التزموا وأمر الله تعالى - "ولم يروغوا روغان الثعالب" . وذلك لأن الثعلب لا يمشي في طريقه مستقيماً بل يمشي يمناً ويسرة حتى يلبس على من تتبعه ولا يمكّنه منه.

قوله تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة) والتنزل يعني التدرج في النزول يعني أن الملائكة تنزل على أهل الاستقامة في كل عالم يحلون فيه على حسب استقامتهم.

وتنزل الملائكة على أهل الاستقامة بالبشائر لا بالوحي إذ لا وحي بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال في الحديث كما في المسند: [لَا يَبْقَى بَعْدِي مِنَ النَّبُوَّةِ شَيْءٌ إِلَّا الْمُبَشِّرَاتُ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا الرَّجُلُ أَوْ تُرَى لَهُ] ، وهو معنى قوله تعالى في أوليائه الكرام رضي الله عنهم: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون * الذين آمنوا وكانوا يتقون * لهم البشيرة في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله) أي لا تتغير أوامر الله تعالى بتنزل البشائر على أهل الولاية (ذلك هو الفوز العظيم).

قوله تعالى: (تنزل عليهم الملائكة) أي في كل عالم ويشمل ذلك عالم الدنيا تنزل الملائكة على قلوب أهل الاستقامة بالبشائر والسكينة والطمأنينة والإلهام الصادق والدلالة على فعل الخير.

كما تنزل الملائكة على المؤمن المستقيم على أمر الله تعالى تنزل عليه حين يأتيه الموت وتبشره وتؤانسه لأن حالة الموت حالة ينتقل منها الإنسان من عالم الدنيا ويرحل فيها عن أهله وأقاربه وأصحابه فيحتاج في هذه الحالة إلى من يؤانسه ويذهب عنه فزع فتأتيه الملائكة بالبشائر والكلام الطيب ، وهذا قوله تعالى: (ألا تخافوا ولا تحزنوا) أي لا تخافوا مما ستقدمون عليه ولا تحزنوا على ما فاتكم (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) أي وعدكم الله تعالى بها في كلامه النازل على رسوله الكريم، ووعدكم بها رسول الله صلى الله عليه وسلم مخبراً عن الله تعالى.

وهكذا يستمر تنزل الملائكة على أهل الاستقامة في جميع العوالم ، ويأتونهم بالبشائر من الله تعالى لأن الملائكة لا يفعلون شيئاً إلا بأمر الله تعالى كما أخبر سبحانه عنهم قولهم (وما ننزل إلا بأمر ربك) ، وقال تعالى في حقهم : (ويفعلون ما يؤمرون) فلا يفعلون شيئاً إلا بأمر من الله جل وعلا .

قوله تعالى: (ألا تخافوا ولا تحزنوا) والخوف انزعاج النفس واضطرابها من توقع حصول مكروه في المستقبل، والحزن هو الندم والأسف على ما مضى ، فالملائكة تبشر المؤمنين المستقيمين دائماً على طاعة الله أن لا يخافوا من المكاره التي سيقدمون عليها ولا يحزنوا على ما فاتهم من الدنيا وما فيها إذ إن ما وعدهم الله هو خير كله كما ورد في دعائه صلى الله عليه وسلم لما صلى على جنازة أنه قال :

[اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ وَارْحَمْهُ وَعَافِهِ وَاعْفُ عَنْهُ وَأَكْرِمْ نُزُلَهُ وَوَسِّعْ مَدْخَلَهُ وَاغْسِلْهُ بِالْمَاءِ وَالثَّلْجِ وَالْبَرَدِ وَنَقِّهِ مِنَ الْخَطَايَا كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الْأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ وَأَبْدِلْهُ دَارًا خَيْرًا مِنْ دَارِهِ وَأَهْلًا خَيْرًا مِنْ أَهْلِهِ وَرَوْجًا خَيْرًا مِنْ رَوْجِهِ] .. الحديث^١ (وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون) أي على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كنتم في الحياة الدنيا .

وقد يحزن المؤمن على أهله وعياله ويظن أنهم سيلقون الشدة والضيم من بعده فتبشره الملائكة بأنهم يتكفلون بهم من بعده وتقول له كما أخبر سبحانه عنهم : (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا) فنحن نخلفكم فيهم ونلهمهم الخير كما كنا نفعل معكم .

(وفي الآخرة) أي نحن نبشركم ونحن معكم ونؤانسكم لأننا نحن أولياؤكم أي أحبابكم وأنصاركم وبيننا وبينكم الولاء والمحبة فلا نترككم، وكيف يتخلى الصديق عن صديقه والحبيب عن حبيبه؟! .

قوله تعالى: (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) أي بيننا وبينكم يا أهل الاستقامة مودة ومحبة وولاء، ونحن حريصون عليكم وعلى نفعكم ، فلما كنتم في الدنيا كنا نأتي إلى قلوبكم ونحذركم من الشر ونلهمكم الخير ونبشركم عند الكربات والشدائد .

^١ انظر صحيح مسلم كتاب الجنائز

وقد قال سبحانه : (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً) ويين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معنى الآية فقال:

[إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَمَّةً بِابْنِ آدَمَ وَلِلْمَلِكِ لَمَمَةٌ ، فَأَمَّا لَمَمَةُ الشَّيْطَانِ فإِيعَادُ بِالشَّرِّ وَتَكْذِيبُ بِالحَقِّ ، وَأَمَّا لَمَمَةُ الْمَلِكِ فإِيعَادُ بِالخَيْرِ وَتَصْدِيقُ بِالحَقِّ ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَعْلَمْ أَنَّهُ مِنْ اللَّهِ فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ ، وَمَنْ وَجَدَ الأُخْرَى فَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ، ثُمَّ قَرَأَ: (الشَّيْطَانُ يَعدُّكُمْ الفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعدُّكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً) وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ] ٢ .

قوله تعالى مخبراً عن الملائكة عليهم السلام قولهم: (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا) فكنا نحضر معكم مجالس الذكر والعلم كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث: [وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله و يتدارسونه بينهم إلا حفتهم الملائكة ..] ٣ الحديث ، وكنا نحضر معكم الصلوات ونصلي معكم كما قال صلى الله عليه وسلم: [إِذَا أَمَّنَ الإِمَامُ فَأَمَّنُوا فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينَهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ] ٤ يعني أن الملائكة يصلون خلف الإمام ويقولون " آمين " لما يفرغ الإمام من قراءة قوله تعالى: (غير المغضوب عليهم ولا الضالين) .

وكنا نحن الملائكة نحضر معكم مجالس صلاة الجمعة كما قال صلى الله عليه وسلم: [فَإِذَا خَرَجَ الإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ] ٥ .

قوله تعالى: (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة) فكما كنا معكم في الدنيا بالمحبة والمناصرة والمؤانسة والبشائر فلا نترككم الآن لما صرتم في الآخرة فنبقى معكم مؤانسين مبشرين حتى تدخلوا الجنة ويحل عليكم أمان الله ورضوانه .

١ أي بواسطة الملائكة

٢ انظر سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

٣ انظر مقدمة سنن ابن ماجه

٤ صحيح البخاري كتاب الأذان

٥ صحيح البخاري كتاب الجمعة

وإن أهل الجنة لا خوف عليهم ولا هم يحزنون بل تأتيهم الملائكة بالبشائر برفعة الدرجات وعلو المقامات ونيل ألوان النعيم، والسلام من الله تعالى عليهم.

قوله تعالى: (نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا) والدنيا مأخوذة من الدُّنُو بمعنى القرب ^١، وسميت بذلك لأنها أقرب حياةٍ إلى الإنسان، وأما حياة الآخرة فهي حياة أقوى وأعلى وسوف يأتي عليها الإنسان.

وقال بعضهم : الدنيا مشتقة من الدناءة إذ إن الدنيا وما فيها لا تزن شيئاً بالنسبة للجنة وما فيها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : [ما مثل الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم إصبغه في اليم فلينظر بم يرجع] ^٢.

ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من أهل الاستقامة ويوفقنا لذلك لنفوز بالكرامة.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

^١ قال المناوي في فيض القدير ٤٢/١ : والدنيا من الدنو لسبقها الآخرة أو لدنوها إلى الزوال أو من الدناءة أي الخسّة .
^٢ سنن ابن ماجه كتاب الزهد

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الخامس

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.
أما بعد:

قال الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في المبادرة إلى الخيرات :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

[بادروا بالأعمال سبعا، هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً ، أو مرضاً مفسداً ، أو هرمًا مفنداً ، أو موتاً مجهزاً ، أو الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر] رواه الترمذي وقال: حديث حسن. اهـ

لقد ذكر الإمام النووي رضي الله عنه هذا الحديث في روضة المبادرة والتسابق في الخيرات والإسراع إلى الأعمال الصالحة ، ويتحتم هذا على من أراد سلوك طريق العبادة والالتحاق بزمرة الصالحين من عباد الله تعالى.

وقد نبه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤمن وحذره من خطر تسويف الأعمال أو الإبطاء فيها أو التكاثر عن النهوض إليها فقد تعرض له العوارض وتمنعه الموانع وذكر صلى الله عليه وسلم منها أموراً جامعة فقال: [بادروا بالأعمال سبعا] أي غالبوهن واسبقوهن قبل أن تعترض أحدكم إحدى هذه الأمور وتتغلب عليه، والعوارض هي ما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: [هل تنتظرون إلا فقراً منسياً، أو غنى مطغياً ...] فقد يعتري الإنسان في عيشه الغنى أو الفقر ، وقد يعتريه في صحته المرض أو الهرم ، وقد يأتيه الموت فينهى حياته الدنيوية ، وقد يعتريه أمر خارجي فتنته عامة وهو الدجال ، وقد تدركه الساعة ولا يستطيع عندها أداء ما فاتته أو تعويض ما خسره.

وقوله صلى الله عليه وسلم : [فقراً منسياً] لأن من ضاق حاله وقل رزقه اشتغل فكره وتعب باله فتراه قد لا يصحو لعباداته ولا يخشع في خلواته ويضعف نشاطه لطاعة الله تعالى لأن الاهتمام بأمر الدنيا ومعاشها وكسبها أنساه وأعاقه عن فعل كثير من الطاعات والقربات وصفاء القلب.

قوله صلى الله عليه وسلم: [أو غنى مطغياً] لأن من فتحت عليه أبواب الدنيا ووجد من أموالها وتجاراتها ما يعشقه قلبه ويشغل فكره عن الآخرة فلا يخشع في عباداته ، وقد تأخذه الدنيا ويفتن بها فيهمل عباداته ويترك ما أوجب الله عليه ، ففقر الدنيا بلاء وغناها بلاء أي تكليف وامتحان يختبر به الإنسان ، ولا ينجو إلا من جعل تقوى الله سبحانه همته وطريقه.

وليعلم كل مؤمن أن الأجل أسرع إليه من بلوغ الأمل فلا يؤجل عمل اليوم الى الغد فقد لا يدركه ، وإن لكل وقت حقاً على الإنسان يطالبه به ، فإذا فرغ من عمل فعلية أن ينصب الى غيره، فلا كسل ولا إهمال ولا تسويف ولا بطالة في الالتزام بدين الله تعالى.

وإذا كان للإنسان في الدنيا آمال كبيرة فإن عمره في الدنيا لا يتسع لتحقيق تلك الآمال فليصرف آماله إلى الآخرة التي هي دار الخلود ، وليأخذ من الدنيا نصيبه الذي قسمه الله تعالى له على الوجه الذي شرعه جل وعلا .

وجاء في الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مرة جالساً بين أصحابه الكرام رضي الله عنهم فأخذ بخصاتين فرمى إحداهما قريباً والأخرى أبعد ، فالتفت الصحابة لمعرفة الحكمة من فعل الرسول لأنهم يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعبت ولا يلهو ، وأعماله وحركاته إنما هي بالحق والحكمة ، فقال صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً: [هذا الأجل] - للخصى القريبة - [وهذا الأمل]^١ للخصى البعيدة ، فموقف الإنسان كذلك إذا جاءه الأقرب يعني أن الإنسان بين أجل قريب وأمل بعيد ، فإذا جاءه الأقرب وهو الأجل لم ينل أمله من الدنيا.

^١ كما في شعب الإيمان للبيهقي وأصل الحديث في سنن الترمذي كتاب الأمثال

وقوله صلى الله عليه وسلم: [أو غنى مطغياً] فقد يأتي الغنى على الإنسان فيطغيه، قال تعالى: (إن الإنسان ليطغى * أن رآه استغنى) أي إن الإنسان يتعدى حدود الله وينتهك حرماته إذا رأى نفسه استغنى، فمتى رأى نفسه استغنى بالمال طغى ، ومن لم ير نفسه استغنى بالمال فلا يطغى ، لأنه وإن كثر ماله يرى نفسه مفتقراً إلى الله تعالى في كل أحواله فلا يتكبر ولا يتجبر ولا يعشق قلبه المال بل إنه يتقي الله تعالى ويمتثل لأمره ، ويرى أن ما به من نعمة هو من الله تعالى فيحمده سبحانه ويقوم بأداء حق الله عليه ، فمثل هذا يكون قد استغنى بالله عن المال ولم يستغن بماله عن الله تعالى فافهم .

قوله صلى الله عليه وسلم: [أو هرمًا مفنداً] فلا يشعر الإنسان بالزمان إلا وقد انطوى عمره وفات وقت الشباب والقوة والنشاط وكبرت سنه ووهن عظمه واحدودب ظهره ، وقد يتغير فكره ومزاجه وربما تغير رأيه واعتراه الفند وهو انحراف الرأي عن الاستقامة والصواب ، وهو مرض قد يصيب الإنسان إذا كبرت سنه ولا يعتبر ذلك عيباً أو نقصاً في حقه إذ هو مرض من أمراض الشيخوخة ، فليغتنم الإنسان حال شبابه وقوته وصلاح رأيه وصواب فكره وليبادر إلى الأعمال الصالحة قبل أن يصيبه الهرم بأمراضه .

قول الرسول: [أو موتاً مجهزاً] وهذا مما لا يضمه الإنسان فلا يضمن طول أجله فقد يأتيه الموت بغتة ويجهز عليه.

وفي هذا تنبيه للعاقل ألا يؤخر الأعمال الصالحة أو يؤجلها زعماً منه أن في العمر بقية، وليكن دوماً مستعداً للقاء ربه وهو عنه راض ، نسأل الله تعالى ذلك من فضله.

ولا يعتبر موت الفجأة عقوبة في حق من أصابه ، وعلى المؤمن أن لا يسيء ظنه بالمؤمنين فعن أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق السيدة عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن موت الفجأة فقال : [راحة للمؤمن وأخذة أسف للفاجر] ^١ أي هو بالنسبة للمؤمن تخفيف من الله تعالى عليه فلا يجد من المشقة والبلاء وسكرات الموت شيئاً.

قوله صلى الله عليه وسلم: [أو الدجال فشر غائب ينتظر] أي فلا يتكاسل أحدكم إلى النهوض إلى الأعمال الصالحة أو يتقاعس فيها وكأنه ينتظر ظهور الدجال فالدجال شر غائب ينتظر لكثرة شروره وفتنه إذ إنه يأتي بالعجائب والغرائب فيفتن بها الناس ويتبعونه ويضلون.

والدجل هو التلبيس، والدجال يظهر الأمور الباطلة والضلالات بمظهر فيه خديعة ومكر بحيث يظن الإنسان أنها حق ، إلا من نظر وتدبر. ويعتبر ظهور الدجال من العلامات الكبرى لقرب الساعة كما دلت عليه الأحاديث النبوية المتواترة ^٢.

ولما يظهر الدجال فإنه يدعي أولاً الولاية ثم النبوة ثم الألوهية وقد بين سيدنا رسول الله علامات كذبه ودجله ومنها أنه :

"مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ ، يَقْرُؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٍ وَغَيْرِ كَاتِبٍ" ^٣ .

ومنها أيضاً أنه أعور العين اليمنى ، قال صلى الله عليه وسلم:

(إِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ، وَإِنَّهُ أَعْوَرُ الْعَيْنِ الْيُمْنَى كَأَنَّ عَيْنَهُ عِنْبَةٌ طَافِيَةٌ) ^٤ .

وفي رواية : (تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ) ^٥ .

١ المسند ٢٣٨٩١

٢ قال الكتاني في كتابه (نظم المتناتر من الحديث المتواتر) ٢٢٩/١ :
والحاصل أن الأحاديث الواردة في المهدي المنتظر متواترة ، وكذا الواردة في الدجال ، وفي نزول سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام .

٣ صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة

٤ صحيح البخاري كتاب المغازي

٥ سنن الترمذي كتاب الفتن .

وهذا تكذيب للدجال الذي زعم أنه هو الرب، والرب تعالى لا يرى في الحياة الدنيا بعيني البصر، أما المشاهدات القلبية فتحصل لمن ارتقى في مقامات الإيمان.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ أَنْذَرَ أُمَّتَهُ الْأَعْوَرَ الْكَذَّابَ ،
أَلَا إِنَّهُ أَعْوَرٌ وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ ^١] قد يجعل الإنسان يتساءل:
وهل أحد من المؤمنين يصف الله بأنه أعور حتى نفى ذلك رسول الله صلى الله
عليه وسلم بقوله: [وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ] ؟

نعم لقد نبه إلى ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لأن الدجال يأتي
بالعجائب والغرائب المدهشة للعقول التي قد تسيطر على مدارك الإنسان
فلا يرى عور الدجال بل يؤخذ بالعجائب والغرائب.

ولا تفكر أن ذلك أمر مستبعد حصوله فقد عبد سبعون ألفاً من بني إسرائيل
عبدوا العجل الذي صنعه لهم السامري لما رأوا فيه من الأمر العجيب والغريب
الذي أدهش قلوبهم وسيطر على أفكارهم إلا أنهم لو تفكروا وتدبروا لما فعلوا
ذلك.

^١ صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراف الساعة

وقد كشف الله تعالى للسامري عن الفرس الذي جاء به جبريل عليه السلام إلى سيدنا موسى ليصاحبه معه إلى جبل الطور حيث رأى وقع حوافر الفرس على الأرض إذ كانت تخضر كلما رفع الفرس حوافره عنها، وكان هذا الكشف في حقه فتنة واختباراً أظهر نفاقه وكفره بموسى عليه السلام، فأخذها وألقاها في جوف العجل الذي صاغه من الذهب فصار العجل الذهبي يتحرك وله خوار وقال لبني إسرائيل: " هذا إله موسى " ، فعبدوه حتى رجع موسى إليهم وكان ما كان ^١.

وعلى المؤمن أن يكون حذراً يقظاً ينظر إلى حقائق الأمور ولا تأخذ العجائب والغرائب عقله وتفكيره فتحجبه عن رؤية الحقيقة، وقد جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: [لقيت ليلة أسري بي إبراهيم وموسى وعيسى] أي اجتمعت معهم اجتماعاً خاصاً [قال : فتذاكروا أمر الساعة ، فردوا أمرهم إلى إبراهيم فقال : لا علم لي بها ، فردوا الأمر إلى موسى فقال : لا علم لي بها ، فردوا الأمر إلى عيسى فقال : أما وجبت لها] أي وقت وجوبها وثبوتها [فلا يعلمها أحد إلا الله ، ذلك وفيما عهد إلي ربي عز وجل أن الدجال خارج] - أي سيخرج - [قال : فإذا رأيته ذاب كما يذوب الرصاص] ^٢.

قوله صلى الله عليه وسلم : [أو الساعة فالساعة أدهى وأمر] أي فأسرعوا وبادروا إلى الأعمال الصالحة قبل وقوع الساعة وقيام القيامة حيث لا ينفع الندم ولا تمنى الرجوع إلى الدنيا لتدارك ما فات .

^١ انظر ما ذكره الحافظ السيوطي في الدر المنثور عند تفسيره لقوله تعالى : (قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ)

^٢ انظر المسند ٣٣٧٥

وإن الإنسان إذا مات فقد وقعت ساعته وقامت قيامته^١ ودخل في عالم البرزخ الذي هو أول عوالم الآخرة، فالموت بالنسبة للإنسان هو القيامة الصغرى ، وأما القيامة الكبرى فهي تأتي على كل الناس وعندها يقوم الناس لرب العالمين للسؤال والحساب والجزاء ونسأل الله تعالى المغفرة والرحمة.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين

^١ قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة:
روى الديلمي عن أنس مرفوعاً: [إذا مات أحدكم فقد قامت قيامته].

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.
أما بعد:

قال الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين)
باب في قضاء حوائج المسلمين:

قال الله تعالى: (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:
[المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة] متفق عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:
[من نفّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسّر على معسر يسّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه ، ومن سلك طريق يلمات فيه علماً سهّل الله به طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده ، ومن بطأ به علمه لم يسرع به نسبه] رواه مسلم . اهـ

قوله تعالى: (وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) الخير هو العمل الذي يفعله المؤمن لينتفع وينفع به غيره ، سواء كان هذا العمل دنيوياً أو آخروياً طالما أن فيه خيراً يتعدى للغير.

ومن فعل الخير فقد تحقق بالرجاء المقبول عند الله تعالى أن يجعله من المفلحين ، فقد علق سبحانه رجاء الفلاح على فعل الخير قال جل وعلا :
(وافعلوا الخير لعلكم تفلحون) وذلك لما في فعل الخير من أثر واعتبار وفضل.

قوله صلى الله عليه وسلم : [ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته]
أي من سعى في قضاء حاجة أخيه المسلم فإن الله تعالى أولى به أن يقضي
حاجته لأنه أحق بالكمال والنوال والخير كله منه سبحانه، ومن أخذته الغيرة
على أخيه المسلم وقام لحاجته فالله سبحانه أغير من ألا يقضي حاجة من كان
في حاجة غيره.

ولا تقتصر حوائج العباد على الأمور المالية فقط بل هي من الحوائج ، فهناك
الحاجة إلى المعونة بالجاه والنصح والعلم ، وهناك من يحتاج إلى الكلام الطيب
والمؤانسة وهكذا تختلف حوائج المحتاجين.

ويجدر بنا في هذا المقام أن نلفت الانتباه الى أمر هام وقع فيه كثير من
المسلمين وهو عدم الاكتراث أو التدبر فيما يسمعه من آيات قرآنية كريمة أو
أحاديث نبوية شريفة إذا تكرر سماعه لها ، فتراه يسمع الآية أو الحديث وكأن
معانيها من الأمور المعلومة عنده ، وما درى من هذا شأنه أن معاني ومفاهيم
آيات الله تعالى لا تتناهى لأن هذه الآيات هي كلام الله تعالى، وكلامه صفته
سبحانه، وصفاته جل وعلا لا تتناهى فمعانيها لا تتناهى، وهناك فهم فوق فهم .
ولا يمكن لأحد أن يحيط فهماً بمعاني آيات الله تعالى حتى إن أهل الجنة وهم
في الجنة يقرؤون القرآن ويترقون في المفاهيم والعلوم القرآنية كما ورد في
الحديث أنه يقال لقارئ القرآن : [اقرأ وارق]^١ أي في الدرجات والفهم.

^١ انظر سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

فيجب أن يكون موقف العاقل لدى سماعه تفسير آية أو بيانها موقف المتعقل لها المتدبر فيها ، وأن يكرر سماعها مرات ومرات فربما فهم شيئاً كان غائباً عنه ، وربما انتبه لأمر كان غافلاً عنه، وكذلك يجب على العاقل أن يكون موقفه مع أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي كلام من آتاه الله جوامع الكلم وفواتحه وخواتمه .

ولكي يتضح لك الأمر جلياً فتدبر في قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) .
فربما تبادر الى ذهنك أن هذه الآية أسمعها كثيراً بل أسمعها كل جمعة على لسان الخطيب، وإن معانيها معروفة معلومة لا حاجة لبيانها ، فنقول : ولكنك ماذا تفهم من قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل) وما هو العدل في قوله تعالى:
(إن الله يأمر بالعدل والإحسان) ؟

إن مفهوم العدل في الآية الكريمة يشمل أولاً أن يعدل الإنسان في أحكام العقل، وأن يعدل في أحكام الشرع، وأن يعدل مع نفسه ومع أولاده وزوجته وجيرانه، وأن يعدل مع خلق الله كلهم حتى مع البهائم أيضاً.

وأول العدل وأصله أن يكون الإنسان عدلاً مع الله تعالى بأن يشهد أن لا إله إلا الله كما قال حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.^١

ولكي يتضح لك ذلك فاعلم أن الظلم ضد العدل وقد وصف الله سبحانه الكافرين بالظلم فقال جل وعلا: (والكافرون هم الظالمون) ، وقال عز من قائل: (إن الشرك لظلم عظيم) فالشرك ظلم لأن المشرك لما أشرك فقد ظلم في الحكم بأن حكم في عقله أن هذا الصنم أو الوثن إله مع الله تعالى وشريك لله سبحانه بينما العدل يطالبه بأن يحكم بأن لا إله إلا الله ويشهد بذلك.

فالعدل في أحكام العقل أن يشهد الإنسان أن لا إله إلا الله، وهذا ما جاءت به شرائع الله، فتوحيد الله تعالى عدل بل هو أصل العدل، والشرك ظلم عظيم.

^١ انظر الدر المنثور ١٦٢/٦

قوله صلى الله عليه وسلم: [من نَفَس عن مؤمن كربة نَفَس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة] والتنفيس هو التوسعة والتفريج وكأن الإنسان لما تصيبه الكربة يضيق صدره ويكاد يختنق ، فلما يتقدم أحد ليزيح هذا الكرب عنه ينشج صدره ويتوسع نفسه وكأن الحياة قد عادت إليه .

وقوله صلى الله عليه وسلم: [من نَفَس عن مؤمن كربة] أي ولو كانت جزئية صغيرة جداً ، لأن التنكير هنا للتصغير و التقليل [نفس الله عنه كربة] -أي كربة عظيمة -[من كرب يوم القيامة] إذ لا مناسبة ولا مقارنة بين كُرب الدنيا وكرب يوم القيامة الذي تشتد فيه الأهوال والكربات، نسأل الله العافية.

ومن هذا تفهم مدى الارتباط الوثيق بين أعمال الدنيا وأعمال الآخرة ، وأن من أحسن إلى خلق الله أحسن الله إليه، ومن أساء إليهم فقد أساء إلى نفسه وأصابه سوء عمله كما قال تعالى: (ليجزي الذين أسأؤوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) وقال سبحانه: (ثم كان عاقبة الذين أسأؤوا السوأى) .

ومن بغي و طغى عاد سوء فعله عليه، كما قال تعالى: (يا أيها الناس إنما بغىكم على أنفسكم) وقال جل وعلا: (إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها).

ومن فرَج أيضاً شدة أصابت حيواناً أو بهيمة فرَج الله عنه يوم القيامة، فمن ذلك مثلاً من سعى في تخفيف حمل ثقيل عن دابة أو نهى أحداً عن ضربها، وإن في قصة الأعرابي الذي سقى الكلب العطشان عبرة لمن اعتبر! .

فقوله صلى الله عليه وسلم: [من نَفَس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نَفَس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة] يدل على عظمة وشدة أهوال وكربات يوم القيامة ، وعلى العاقل أن يأخذ أسباب النجاة والوقاية من تلك الكربات ، ومن جملة هذه الأسباب الإحسان إلى خلق الله والسعي إلى تفريج الكربات عنهم.

١ روى الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : بَيْنَا رَجُلٌ بِطَرِيقِ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَوَجَدَ بَيْتًا فَنَزَلَ فِيهَا فَشَرِبَ ثُمَّ خَرَجَ فَإِذَا كَلْبٌ يَلْهَثُ يَأْكُلُ التُّرَى مِنَ الْعَطَشِ ، فَقَالَ الرَّجُلُ : لَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْكَلْبُ مِنَ الْعَطَشِ مِثْلُ الَّذِي كَانَ بَلَغَ مِنِّي ، فَنَزَلَ الْبَيْتَ فَمَلَأَ خُفَّهُ مَاءً فَسَقَى الْكَلْبَ ، فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ ، قَالُوا : يَا رَسُولَ اللَّهِ وَإِن لَنَا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا ؟ فَقَالَ: فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ رَطْبَةٌ أَجْرٌ .

قال صلى الله عليه وسلم:

[ومن يَسِّرْ على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة] فإذا كان المعسر مديناً لك بالمال فأمهله في دفع الدين حتى تتيسر أموره، وإذا اشتدت العسرى عليه فأسقط عنه جزءاً من الدين أو اجعله في حل منك بأن تسامحه بكامل الدين إن كنت غنياً موسراً، واعلم أن الله يقابلك على أعمالك فإن يسرت على خلقه يسر عليك، وإن شددت عليهم شدد عليك فكما تدين تدان أي كما تحاسب تُحاسب ، وكما تجازي تُجازى ، فالمعاملة مع الله تعالى.

وربما يزعم جاهل أنه لا حاجة لهذا كله وأن الله هو أرحم الراحمين فإنه غفور رحيم ويجعل من ذلك ذريعة ومبرراً له على سوء أفعاله فيقال له: إن أرحم الراحمين قد أمرنا بأوامر ونهانا عن مناهٍ وخوَّفنا من عقابه لمن خالف أوامره أو وقع في معصية ولم يتب ، وإن أرحم الراحمين بيّن لنا في كتابه الكريم وكذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بيّن لنا في أحاديثه الشريفة أن المصرين على معصية الله لهم عقاب وعذاب في القبر وفي برازخ الآخرة وفي جهنم، فلا تتجراً على معصية الله ولا تتهاون في أوامر الله وابذل في ذلك جهدك ما استطعت، وإذا بدا منك ذنب أو قصرت في عمل فارجع إلى الله واستغفر فإن الله أرحم الراحمين يغفر لك ويرحمك ، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً) ، وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : [الكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله ^١].

والكيِّس هو العاقل الفطن ومن شأنه أن ينظر في عواقب الأمور فيُعِدَّ عُدَّتَه ويعمل لمستقبله الذي لا بد من وقوعه وهو ما بعد الموت من حياة برزخية ، وسبيل ذلك أولاً أن يدين نفسه بأن يحاسبها ويقيمها على صراط شريعة الله الذي هدى إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن حاسب نفسه عرف ما لها وما عليها، فقام بما عليه من واجبات ، وقدم لنفسه أعمالاً يراها ويرى أجرها ونورها إذا صار في الآخرة .

^١ المسند ١٦٥٠١

قوله صلى الله عليه وسلم :

[ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة] وما أحوج الإنسان إلى أن ييسر الله عليه في الآخرة والتي يعتبر القبر أول برزخ من برازخها ،ومن نجا من فتنة القبر فقد نجا.

فمن أراد أن ييسر الله عليه أمور دنياه وآخرته فليجعل معاملته مع الخلق بالعفو والسماحة دون غلظة أو شدة أو تدقيق ، فمن الناس مثلاً من يكون مشغول الفكر بأمر ما ويمر عليك ويسلم فتذهب أنت وتزعم أن سلامه لم يكن لائقاً ولم تكن في وجهه تلك البسمة والبشاشة أثناء سلامه وهكذا، ولو أنك علمت ما شغله أو كربه لَعَذَرْتَهُ، فالأجدر بك إذاً ألا تشدد ولا تدقق وكن مع خلق الله سمحاً ليناً كريماً.

ومن الناس من لا يرى من معاملتك له إلا الخير والإحسان حتى إذا رأى منك زلة أو تقصيراً لسبب ما راح يذم ويقدح وكأنه لم ير منك خيراً قط !! نعم إن هذا تشديد وظلم فأين سماحة المؤمن وأين كرم أخلاقه وسعة عفوه التي رغب إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم ورتب عليها الثواب في الدنيا والآخرة؟!.

قوله صلى الله عليه وسلم: [ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة] أي ومن ستر مسلماً على زلة رآها منه أو سمعها عنه ستره الله في الدنيا والآخرة، وهذا إذا كان المؤمن متسترًا بدليل قول الرسول: [ومن ستر] أي صدرت منه وهو مستتر عليها ، فعلى من وجدها منه أن يستر ولا يفضح وإلا فضحه الله تعالى نسأل الله العافية.

وإياك أن ترى في نفسك العصمة والنزاهة من الذنوب والسيئات وتتكلم في هفوات الناس وزلاتهم دون أن تخشى أن يفضحك الله تعالى فأبي الناس يخلو من الهفوات والزلات؟ ولربما يوقعك الله في الذنب حتى يفضحك لأنك فضحت فلاناً ولم تستره ، فاحذر سوء عملك واتهم نفسك بالتقصير ولا تكشف عن أحد سترًا ، وسل الله أن يسترك في الدنيا والآخرة.

قوله صلى الله عليه وسلم: [والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه] فمن أراد أن يعينه الله تعالى في جميع أموره الدنيوية والأخروية على وجه مستمر دائم من أراد ذلك فليبادر دائماً إلى عون عباد الله المؤمنين ، ومن كان الله في عونه كفاه عن عون غيره إذ إن من أسمائه سبحانه [الكافي] فهو جل وعلا الكافي في عونه والكافي في ستره والكافي في تيسيره والكافي في رزقه وهكذا ، وهو سبحانه الذي يكفي المؤمن ما أهمه من أمور دنياه وآخرته.

واحرص أيها المؤمن أن تكون إعانتك لأخيك المؤمن على أمر شرعي أو أمر دنيوي مباح لا معصية فيه ولا ضرر من ورائه.

ولما أرسل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خباب بن الأرت رضي الله عنه في سرية وكان لخباب عيال ومال فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعين أهله على الشياه ويملاً الأواني مهما كثر عددها لأن الشاة كانت تدر الحليب على خلاف عاداتها كل ذلك بسبب بركات الرسول صلى الله عليه وسلم فلما رجع خباب عاد حلب الشاة كما كان.^١

فلا تتكبر أيها المؤمن وتأبى قضاء حاجة غيرك كشرء متاع له أو إعانتة في بعض أموره فقد كان سيد العالمين صلى الله عليه وسلم يقوم بعون المسلمين ويسعى لقضاء حوائجهم.

ولقد كان سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه يحلب الغنم لجيرانه وأهل الحي ، يفعل ذلك بكرة وأصيلاً ، ولما ولي الخلافة قيل : "الآن لا يُحلبُ لنا. فقال: بَلَى لأَحْلِبَنَّهَا لَكُمْ ، وَإِيَّيْ لَأَرْجُو أَلَا يُعَيِّرُنِي مَا دَخَلْتُ فِيهِ" ^٢ وظل مستمراً على فعل الخير مع جيرانه.

^١ قال الإمام أحمد في المسند ٢٠١٥٩: حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن أبي إسحاق عن عبد الرحمن بن زيد الفائشي عن بنت لخباب رضي الله عنه قالت : خرج خباب في سرية وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعاهدنا حتى كان يحلب عنزاً لنا، فكان يحلبها في جفنة لنا فكانت تمتلئ حتى تطفح، قالت: فلما قدم خباب حلبها فعاد حلابها إلى ما كان. اهـ

^٢ انظر كتاب التبصرة لابن الجوزي ٤٠٢/١

وقد اشتهر عن سيدنا عمر رضي الله عنه أيام خلافته أنه كان يسعى إلى بيوت الأرامل ويقوم بما يحتجنه ، ولقد رآه بعض الصحابة رضي الله عنهم خرج في إحدى الليالي إلى أطراف المدينة ودخل بيتاً صغيراً فلما أصبح ذهب إلى ذلك البيت فإذا عجوز عمياء مقعدة فقال لها: ما بال هذا الرجل يأتيك؟
فقلت: إنه يتعاهدني مدة كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى^١.
ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين.

^١ انظر البداية والنهاية لابن كثير ١٥٣/٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السابع

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.
أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه {رياض الصالحين} باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة :

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل: [ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟ فنزلت (وَمَا نَنْزَلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ)] [رواه البخاري .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [لا تصاحب إلا مؤمناً، ولا يأكل طعامك إلا تقياً].

رواه أبو داود والترمذي بإسنادٍ لا بأس به.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الرجل على دين خليله، فليُنظر أحدكم من يخالل].

رواه أبو داود والترمذي بإسنادٍ صحيح، وقال الترمذي: حديثٌ حسنٌ. اهـ

لقد ذكر الإمام النووي رضي الله عنه في كتابه {رياض الصالحين} روضة زيارة أهل الخير والصلاح وذكر فيها ما يتعلق بزيارة سيدنا موسى سيدنا الخضر على نبينا وعليهما الصلاة والسلام، ثم أتى على ذكر بعض الأحاديث الشريفة المتعلقة بفضل زيارة أهل الخير والصلاح ومجالستهم، وكان من جملة ما استدل به على ذلك زيارة جبريل عليه السلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

سبب قول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام: [ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟] أن جبريل عليه السلام أبطأ مدة بنزوله بالوحي على سيدنا رسول الله ف قيل: إن هذه المدة خمسة عشر يوماً ، وقيل : سبعة أيام ، وقيل غير ذلك ^١ ، فلما نزل سأله رسول الله : [ما يمنعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا ؟] فأوحى الله تعالى لجبريل عليه السلام أن قل: (وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً) أي وما كان ربك تاركاً لك يا محمد صلى الله عليه وسلم بل أنت على وصال واتصال.

وجاء في بعض الروايات أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام: [ما نزلت حتى اشتقتُ إليك ، فقال له جبريل : أنا كنت إليك أشوقَ ولكني مأمور ، فأوحى الله إلى جبريل أن قل له: (وما ننزل إلا بأمر ربك) ^٢ .

وهذا لقوة المناسبة بين سيدنا رسول الله وبين جبريل عليه السلام ، فالرسول صلى الله عليه وسلم صاحب النفس الإلهية الطيبة الطاهرة وإن قدسية نفس الرسول صلى الله عليه وسلم تتناسب مع روح القدس جبريل عليه السلام فكان بينهما المحبة والمودة الخاصة.

ويدل هذا أيضاً على أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو حقاً رسول الله ، وما هو بساحر ولا بكاهن كما زعم ذلك المعاندون المشركون ، قال سبحانه في الرد عليهم: (هل أنبئكم على من تنزل الشياطين * تنزل على كل أفك أثيم * يلقون السمع وأكثرهم كاذبون) .

^١ انظر تفسير القرطبي ١٢٨/١١

^٢ قال السيوطي في الدر المنثور: أخرجه عبد بن حميد وابن أبي حاتم

وإن من صفة الساحر الكذب والدجل والافتراء مما يجعله يتناسب ويتجانس مع الشياطين الذين هم أهل الشر والكذب والضلال، فالشياطين تنزل على كل أفك أثيم أي على كل كذاب فاجر ، وأنتم يا معشر قريش تعلمون أن محمداً هو الصادق الأمين ولم يبدر منه بادرة سوء من صغره إلى شبابه إلى كبره ، فكيف يُتصور أن تنزل الشياطين على من كان هذا وصف من صفاته ؟

ولا مناسبة تجمع بين الشياطين وبين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وإنما تأتي الشياطين إلى جنسها وإلى مناسبتها في الكذب والدجل ، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو منبع الخير والتقى والكمال.

وإن جبريل عليه السلام الذي وصفه الله بأنه روح القدس هو صاحب الروح الطاهرة القدسية العالية ويتناسب أن ينزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الصادق الأمين التقي النقي.

قوله تعالى: (وما ننزل إلا بأمر ربك) أي أن نزول جبريل عليه السلام إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يكون إلا بأمر الله تعالى وبمناسبات وحكم وأحكام عالية، وفي الآية دليل على أن الملائكة أمريون لا يفعلون أمراً من تلقاء أنفسهم وإنما هم كما وصفهم الله تعالى: (ويفعلون ما يؤمرون) أي فلا يفعلون إلا ما أمرهم الله بفعله.

ولا تتوهم من ذلك أنهم في فراغ وبطالة إذا لم يأمرهم الله تعالى بأمر بل إن أوامر الله تعالى لهم دائمة مستمرة إما بأعمال أو أقوال أو تدابير.

وأما أفعال الإنسان فمنها الأمرية ومنها النفسية فإذا قام يصلي مثلاً فهو يفعل ذلك امتثالاً لأوامر الله تعالى ، وكذلك صيامه وتأديته للزكاة وطوافه حول البيت ماشياً كل ذلك امتثال لأوامر الله تعالى ، أما إذا فعل أفعالاً إرضاء لحظ نفسه من الشهوات أو وقع في المحرمات فإن ذلك لا يكون إلا بأمر نفساني منه وليس عن أمر شرعي من الله تعالى.

وأما الملائكة عليهم السلام فقال فيهم سبحانه: (لا يعصون الله ما أمرهم)
أي لا يخالفون أوامر الله تعالى (ويفعلون ما يؤمرون) أي إن كل أفعالهم
وحركاتهم وأقوالهم إنما هي بأمر الله تعالى لهم ولذلك فهم في مقام العصمة ،
فلقد كان جبريل عليه السلام ينزل على سيدنا رسول الله عن أمر من الله تعالى
لا عن أمر نفسي ، وقد خص الله الأنبياء والرسل عليهم السلام بأن جعل
أفعالهم وأقوالهم عن أمر من الله تعالى ونالوا مقام العصمة أي عصمة الله تعالى
لهم عن الخطأ والخطيئة .

وقد يكرم الله تعالى بعض أوليائه وعباده الصالحين ويتولاهم في حركاتهم وسائر
شؤوناتهم فلا يتحركون إلا بأمر شرعي ، وليس لشهوات نفوسهم تأثير على
أفعالهم أو أقوالهم وهذا لأنهم هم المقربون الذين جعلوا جميع أفعالهم عبادات
لله تعالى ولا يتعاطون المباحات لحظوظ نفسية ، وأما الأبرار الذين هم دون
المقربين في الرتبة والمقام فيتعاطون المباحات .

فالمؤمنون المقربون لا يأكلون ولا ينامون بشهوة نفسية ، وإنما يقصدون من
نومهم وأكلهم وشربهم أن يقووا أبدانهم على عبادة الله وطاعته ، ولأن الله تعالى
أمرهم أن يتعاطوا أسباب الحياة ولولا ذلك لما ناموا ولما أكلوا ، فافهم .

وقل لمن زعم أنه بلغ هذه المقامات: إن تصور الشيء ليس كالتحقق به،
فقد تتصور أن تملك كذا من المال فهل يعني تصورك لذلك أنك قد ملكت ما
تصورته؟ ولو كان كذلك لقلنا لك: ابدأ بَعْدَ ما عندك من المال الذي تصورته.

وهكذا فإن مقامات العبادة والقرب من الله تعالى هي مقامات تحقيقية تعبدية
وليست مقامات يتصور الإنسان أنه نالها أو يتخيلها في فكره ويظن أنه قد بلغها.

قوله تعالى: (وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك)
أي له علم وملك ما بين أيدينا وما خلفنا ، فله سبحانه العلم المحيط بما مضى
وبما هو آت وبما هو عليه الحال ، فقوله تعالى مخبراً عن جبريل عليه السلام :
(له ما بين أيدينا) أي مما هو سيأتي علينا (وما خلفنا) أي من أمور مضت
وحصلنا عليها (وما بين ذلك) أي في الحال الذي نحن فيه فعلم ذلك كله لله
سبحانه وتعالى .

(وما كان ربك نسيّاً) أي فلا يغيب شيء عن علمه جل وعلا وإنما كتب الأشياء ومقاديرها في اللوح المحفوظ وغيره كتب ذلك للإعلام والإحكام ليطلع ملائكته والمقربين من عباده على أنه سبحانه عليم حكيم.

وهذا هو شأن ملك الملوك جل وعلا أن يعرّف خلقه بما كان وبما سيكون على حسب حكمته وعلمه سبحانه ، وينزل جل وعلا البلاغات الشرعية والبلاغات التكوينية كما قال تعالى: (هذا بلاغ للناس) .

وأما قوله سبحانه في الكافرين (نسوا الله فنسيهم) وقوله عز من قائل في الحديث القدسي: (فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي)^١ فالمراد من النسيان هنا نسيان الترك، فنقول : نسي الشيء إذا تركه ، يعني عامله معاملة المنسيّ ، فهذا الكافر لما ترك أوامر الله تعالى وأعرض عنه تركه الله تعالى في العذاب.

قول الرسول صلى الله عليه وسلم: [لا تصاحب إلا مؤمناً] وهي الصحبة التي يتخللها المودة والتزاور واللقاء والمحبة والصدقة ، فإن هذه الصحبة ينبغي أن لا تكون إلا للمؤمنين مع بعضهم البعض ، ولا ينافي ذلك أن تعامل الفاجر والفاسق معاملة خاصة لبيع أو شراء ونحو هذا.

قوله صلى الله عليه وسلم: [ولا يأكل طعامك إلا تقي] أي اجعل ولائكم وطعامك للأتقياء حتى تنال بذلك الثواب من الله تعالى بأن أكرمت الأتقياء وأعنتهم بإطعامك لهم على طاعة الله وعبادته ، وأما إذا قصدك فاسق أو كافر وهو ملهوف على الطعام والشراب فيجب عليك حينئذ إطعامه .

فقوله صلى الله عليه وسلم: [ولا يأكل طعامك إلا تقي] أي من باب الدعوة إلى الطعام لوليمة أو نحوها .

وإن للمؤكلة سرياناً روحياً قلبياً بين الآكلين ، فمن آكل وأكل مع التقي نال من خيره وبره حتى قالوا رضي الله عنهم: (المؤكلة مع الصالحين رضاع) أي يسري خيرهم وبرهم إلى من أكل معهم كما يسري الحليب والغذاء للرضيع ممن يرضعه.

^١ الحديث في صحيح مسلم كتاب الزهد والرقائق وفيه قال صلى الله عليه وسلم: [فَيَلْقَى الْعَبْدَ - أي فيلقى الله العبد - [فَيَقُولُ أَيُّ فُلٍ] - أي فلان - [أَلَمْ أَكْرِمَكَ وَأَسْوَدَكَ وَأَزَوَّجَكَ وَأَسَخَّرَ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ وَأَدْرَكَ تَرَاسُ وَتَرْبَعٌ ؟ فَيَقُولُ: بَلَى ، قَالَ: فَيَقُولُ: أَفَظَنَنْتَ أَنَّكَ مُلَاقِيٌّ ؟ فَيَقُولُ: لَا ، فَيَقُولُ: فَإِنِّي أَنَسَاكَ كَمَا نَسَيْتَنِي] .

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (لا تصاحب إلا مؤمناً) وذلك لأن العدو في الأرواح أقوى منها في الأشباح -أي الأجساد - ، وقد أثبت المشرع الحكيم أن للعدوى تأثيراً لا من ذاتها وإنما بأمر الله سبحانه ، فهي سبب كباقي الأسباب التي نصبها الله تعالى ، وليس للأسباب تأثير من ذاتها بل إن المسبب فيها والمؤثر فيها هو الله تعالى الذي إن شاء عملها وإن شاء أهملها - أي لم يُعملها - .

فقد يسري إليك ضرر من جليس السوء وصحبته وأنت لا تشعر بسريانه إليك إلا بعد حين كما يسري الداء الظاهر إلى من جالس مريضاً بداء مُعد وهو لا يشعر أن الداء قد سرى إليه إلا بعد أن يستحكم الداء فيه ويظهر أثر المرض عليه .

وقد ضرب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً في تأثر الجليس بمن يجالس فقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الشريف :

[مثل الجليس الصالح والجليس السوء] - بفتح السين ، وفي رواية: بضمها - ^١ [كحامل المسك ونافخ الكير ، فحامل المسك إما أن يحذيك ^٢ وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة] أي فالنفع و الفائدة حاصلة لك في جميع الأحوال [ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد ريحاً خبيثة] ^٣ فالضرر حاصل منه لا محالة.

ومن هنا يعرف العاقل فضل ذكر الله تعالى ويفهم قدر ذلك إذ إنه سبحانه جليس من ذكره بدليل الحديث القدسي الذي يقول فيه سبحانه: [أنا جليس من ذكرني] ^٤ ، وإن العبد لما يصلي فهو في ذكر الله تعالى كما قال تعالى: (وأقم الصلاة لذكري) وقال جل وعلا: (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) .

^١ السوء بفتح السين مصدر وبضمها اسم مصدر.

قال في عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٠ / ٣٥١: (السوء) بفتح السين ويُضم.

^٢ يعطيك

^٣ انظر صحيح البخاري كتاب الذبائح والصيد

^٤ انظره في مصنف ابن أبي شيبة وشعب الإيمان للبيهقي ومصنف عبد الرزاق وعزاه السخاوي في المقاصد الحسنة للدلمي وأبي الشيخ في الثواب

وهناك أنواع للذكر من التسبيح والتحميد والتهليل والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء والاستغفار، وأفضل الأذكار الإلهية القولية تلاوة القرآن الكريم كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم:

[فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه]¹.

وفي الحديث لما تمر الملائكة على مجالس ذكر الله تعالى ويرفعون أمرهم لله تعالى يقول سبحانه: [أشهدكم أني قد غفرت لهم ، فيقول ملك : فيهم فلان ليس منهم إنما جاء لحاجة، فيقول جل وعلا : هم الجلساء لا يشقى بهم جليسهم]².

أي هم جلساء الحق لا يشقى من جالسهم من الخلق بل يهنأ ويسعد ، وما أعظمها من سعادة أن غفر الله له لأنه جليس من هم في حضرة رب العالمين .
فقوله صلى الله عليه وسلم: [لا تصاحب إلا مؤمناً] أي كما قالوا: "الصاحب صاحب " أي يسحب صاحبه ، فاعرف من تصاحب حتى تعرف إلى أين ستسحب .. إلى السعادة أم إلى الشقاء .

كما أن المجالسة توجب المجانسة فاعرف جنس من تجالس لأنك إن جالسته ستصير من جنسه وخصته من صفاته ، وإن علم النفس على الحقيقة لا يؤخذ إلا عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي جاء ببيان أمراض النفوس وبيان طرق شفائها وطهارتها وزكاتها ، وبين تأثير النفس بمن تصاحب وبمن تجالس ، وسريان عدوى الأرواح في المتجالسين ، وبين خطورة ذلك وأرشد إلى مصاحبة ومجالسة الصالحين حتى يتأثر بهم المؤمن وينال من خيرهم وصلاتهم ، وهكذا فإن كل ذلك هو من جملة ما أوحاه الله لرسوله صلى الله عليه وسلم وعلمه إياه، ولذلك كان من مواقف الرسول صلى الله عليه وسلم مع العالم أنه جاء يزيهم كما قال تعالى: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ).
والتزكية تعني التخلي عن الرذائل والتحلي بالفضائل والكمالات، وهذا ما تجده مفصلاً في موضعه إن شاء الله تعالى.

¹ سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن وسنن الدارمي كتاب فضائل القرآن

² انظر صحيح البخاري كتاب الدعوات

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : [الرجل] - وفي رواية : [المرء]^١ -
[على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل] أي أن المرء يتأثر ويتخلق بعبادات
وأخلاق صاحبه فلينظر كل عاقل من يصاحب ، أي فلا تصحب أيها العاقل إلا
أهل الايمان والكمال حتى تكون على صفتهم وأخلاقهم .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين والحمد لله رب العالمين.

^١ كما في المسند ٧٦٨٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثامن

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب باب زيارة أهل الخير ومجالستهم وصحبتهم ومحبتهم وطلب زيارتهم والدعاء منهم وزيارة المواضع الفاضلة: وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [المرء مع من أحب] متفقٌ عليه.

وفي رواية قال: [قيل للنبي صلى الله عليه وسلم:

الرجل يحب القوم ولما يلحق بهم؟ قال: المرء مع من أحب].

وعن أنس رضي الله عنه أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: [متى الساعة؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أعددت لها؟ قال: حب الله ورسوله قال: أنت مع من أحببت]. متفقٌ عليه، وهذا لفظ مسلم.

وفي روايةٍ لهما: "ما أعددت لها من كثير صومٍ ولا صلاةٍ ولا صدقةٍ ولكني أحب الله ورسوله".

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: [جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله كيف تقول في رجلٍ أحب قوماً ولم يلحق بهم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: المرء مع من أحب].

متفقٌ عليه.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
[الناس معادن كمعادن الذهب والفضة، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، والأرواح جنودٌ مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف] رواه مسلم. اهـ

إن قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث: [المرء مع من أحب] قد بلغ حد التواتر في النقل فقد جاء من عدة طرق منها ما كان عن أبي موسى الأشعري ومنها عن أنس وعن أبي الدرداء رضي الله عنهم^١.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [المرء مع من أحب] ظاهره البشارة والطمأنينة لمن أحب الله ورسوله وأحب أولياء الله والصالحين من عباده ولكن في باطنه التحذير والإنذار لمن شغل قلبه بمحبة من لا يحبهم الله تعالى ولا يحبهم رسوله صلى الله عليه وسلم وهم الظالمون والأشقياء ، وإن انشغال القلب بمحبة الله ورسوله وأحابه دليل على عمارة هذا القلب بالإيمان ، والعكس صحيح كذلك.

ولا بد للمحبة من سبب ، والسبب هو المناسبة ، والمناسبة هي علة الضم والجمع ، فمن شأن المؤمنين أن يحب بعضهم بعضاً لأن أخوة الإيمان تجمع بينهم ، فالمناسبة والسبب الذي جعل المؤمنين يحب بعضهم بعضاً هو الإيمان بالله تعالى ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وفي هذا يقول سبحانه: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) أي بينهم ولاء ومحبة ونصح ومناصرة (يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر) .

وكذلك المنافقون فإن النفاق هو سبب وعلة اجتماعهم إلى بعضهم ومحبتهم بعضهم ، قال تعالى: (والمنافقون والمنافقات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف) .

^١ انظر كتاب تدريب الراوي للحافظ السيوطي ٦٣١/٢ فقد صرح أن هذا الحديث متواتر.

فلا بد للجمع بين القلوب من مناسبات فإذا رأيت قلبك محباً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحباً لأحباب الله تعالى فاعلم أن هناك مناسبة بين قلبك وبين قلوب الصالحين من عباد الله حتى مال قلبك إليهم وأحببتهم، وإذا رأيت قلبك يحب فلاناً المعروف بنفاقه أو ظلمه أو فسقه فابحث في نفسك وقلبك عن السبب الذي جعلك تحبه، وهل أنت أحبته لصفة معينة فيه؟ وهل تلك الصفة مَرْضِيَّة عند الله تعالى وعند رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أم لا؟

ففتش في نفسك وحاسبها عن سبب تلك المحبة فربما كنت صاحب هوى وهو صاحب أهواء فأحببته لذلك، وربما كان في قلبه زيغ اتفق مع زيغ في قلبك فأحببته، وهكذا عليك أن تحترس وتبحث عن أسباب ميل قلبك لفلان وفلان.

قول الرسول صلى الله عليه وسلم: [المرء مع من أحب] أي معه في الدنيا بالمعية القلبية والروحية والفكرية فمن كان محباً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق المحبة فإن قلبه مع رسول الله وروحَه وعقله وفكره كذلك ، ومن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلبه فإن قلبه يستسلم لما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من عقيدة إيمانية قلبية ، ومن كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بفكره وعقله يستسلم عقله لما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من أعمال وأقوال فيتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيلزم من المحبة إذناً الاستسلام للمحبوب واتباعه .

ومن تحقق بهذه المعية في الدنيا فإنه بمعيته صلى الله عليه وسلم في برازخ الآخرة كلها اجتماعاً والتقاء ومجالسة حتى يدخل الجنة وينال مرافقة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم التي سألتها أكبر الصحابة والأولياء رضي الله عنهم أجمعين.

وأما شواهد ودلائل صدق المحبة فأعظمها السمع والطاعة للمحبوب واتباع المحبوب وتعظيمه وتوقيره والإكثار من ذكره.

أما السمع والطاعة للمحبيب فهو أن تصغي إلى كلام المحبوب وأن تطيعه فيما يأمر به بدافع المحبة والرضا لا الحرج والإكراه، كما لو كان عندك ولد وحيد فإنك تسمع كلامه وتنفذ ما يطلبه منك بدافع من المحبة والحنان ، وهكذا - وهذا المثال لتقريب المعنى للذهن - لما كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو المحبوب الأعظم فكل مؤمن صادق وجب عليه السمع والطاعة له قال تعالى: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون * ومن يطع الله ورسوله ويخشى الله ويتقه فأولئك هم الفائزون) .

وأما اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم فهو دليل محبة الله تعالى ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى: (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله) ، وقال سبحانه: (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ثم لا يزيع عنه]^١.

وأما تعظيم المحبوب وتوقيره والأدب معه فقد قال تعالى: (إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه) أي تُعظّموه وتُجلّوه، والضمير هنا يعود إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم (وتُسبّحوه) أي تسبحوا الله تعالى بكرة وأصيلاً.

^١ قال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: خرّج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار، وخرجه الأئمة في مسانيدهم ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني وليس عنده: "ولا يزيع عنه".

وقد قال جل وعلا في بيان مجامع الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدَّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ * إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) .

وانظر في مواقف الصحابة رضي الله عنهم مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآيات ، وكيف كان أديبهم معه صلى الله عليه وسلم وكيف كان تعظيمهم وتوقيرهم له صلى الله عليه وسلم.

وأما الإكثار من ذكر المحبوب فهذا دليل على صدق محبته ، ألا ترى إلى أهل الدنيا كيف تتردد دائماً على ألسنتهم تجاراتها وأموالها وزخارفها؟! وأما المؤمنون الذين توجهت قلوبهم إلى محبة الله تعالى ورسوله فتراهم يكثر من ذكر الله ورسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ولا يغفلون عن أداء واجب الله عليهم، قال تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة) أي مهما عظمت وكبرت لأن التجارة الصغيرة لا تلهي صاحبها أصلاً (ولا بيع عن ذكر الله) لأنه هو محبوبهم الأعظم فكيف يغفلون عنه؟!

(وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً) أي لأنهم يخافون يوماً فهي جملة تعليلية لما سبق (تتقلب فيه القلوب والأبصار) .

واعلم أن المحب لا يلهو ولا يغفل عن محبوبه أبداً بل هو معه بقلبه وروحه وفكره وعقله إذ إن العبرة لمعية القلوب والأرواح لا لمعية الأجساد فقط ، فكم يجالس الإنسان غيره بجسمه ولكن قلبه غائب كمن جالس ظالماً لضرورة فهو معه بجسمه ولكن القلوب متباعدة وأنى لها أن تتلاقى؟!

فالمؤمن المحب لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تراه يكثر من ذكره ويلتزم جانب الأدب معه والتعظيم والتوقير له صلى الله عليه وسلم، لأنه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلبه مشاهدة ومحبة وميلاً وتعشيقاً، وهو مع النبي صلى الله عليه وسلم بجسمه اتباعاً في الأعمال والأقوال والأخلاق.

ولما سئل سيدنا علي^١ كرم الله وجهه: "كيف كان حبكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومن الماء البارد على الظمأ"^٢.

ولما أسر المشركون الصحابي الجليل زيد بن الدثينة رضي الله عنه وقدموه للقتل قالوا له: "أتحب أن محمداً مكانك، وأنت في أهلك؟ فقال: والله ما أحب أن محمداً صلى الله عليه وسلم في مكانه يصيبه شوكة تؤذيه، وأني في أهلي"^٣.

يعني لأن يُقتل هو أهون عليه من أن يصاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بشوكة في رجله الشريفة الطاهرة.

ولا يحملنك الجهل أو الحمق أن تصف أولئك الذين يكثر من الصلاة على النبي عليه أفضل الصلاة والسلام وذكر شمائله الشريفة وخصائصه المجيدة وتوقيره وتعظيمه صلى الله عليه وسلم، لا يحملنك جهلك على أن تصفهم بأنهم بلغوا حد المبالغة في حبه وتعظيمه صلى الله عليه وسلم فهم لم يبلغوا الحد الواجب عليهم في حبه والأدب معه صلى الله عليه وسلم حتى تصفهم بالمبالغة!

ولو أنك اطلعت على أدب الصحابة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى حبهم وتعظيمهم وتوقيرهم لجنابه الشريف لوصفت كل من أتى بعدهم بالتقصير في حبه والأدب معه صلى الله عليه وسلم.

^١ يعني أن التابعين سألوا سيدنا علياً رضي الله عنه: كيف كان حبكم؟ - أي يا معشر الصحابة - لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ .

^٢ انظر الشفا للقاضي عياض ٢٢/٢

^٣ انظر معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني ٢٤٧/٨

وأنى لك أيها المؤمن أن تصل إلى مقام الصحابة الذين تفانوا في حب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه وتوقيره، ولم يكن أحد منهم يرى نفسه أنه يبالغ في ذلك، بل كان واحدهم يرى نفسه مقصراً في حب رسول الله والأدب معه صلى الله عليه وسلم ، وكلهم يخافون أن يصدر منهم فعل أو قول فيه شيء من إساءة الأدب معه صلى الله عليه وسلم ، لا سيما أن الوعيد الإلهي جاء بإحباط أعمال من رفع صوته فوق صوت النبي فما بالك بمن قصّر في الأدب معه صلى الله عليه وسلم؟!

ومن لوازم محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحب المؤمن أهل بيته الكرام عليهم السلام ويحب أصحابه رضي الله عنهم أجمعين ويحب بلده ومسجده وقبره الشريف صلى الله عليه وسلم.

وقد جعل صلى الله عليه وسلم حب أصحابه الكرام رضي الله عنهم علامة على صحة الإيمان فقال: [آية الإيمان حب الأنصار]^١ .. الحديث.

ولما كانت المحبة من أعظم أعمال القلوب وهي مبنية على مناسبات قلبية متعلقة بالمحبوب إيماناً به وتعظيماً له وتكريماً واتباعاً وأدباً لهذا كله جاء الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن الرجل يحب القوم ولا يستطيع أن يعمل عملهم وفي رواية: [ولما يلحق بهم]^٢ أي بالعمل الصالح فهو يبذل جهده في اللحاق بمحبوبه ولكن لا يستطيع ذلك فهل تنفعه محبته؟

جاء جواب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وبيانه لذلك بقوله: [المرء مع من أحب] أي وإن لم يعمل مثل عمل المحبوب ما دام يبذل جهده في اتباع محبوبه صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يجمعك عملك مع أحبائك الصالحين^٣ فإن حبك لهم يجمعك بهم .

^١ صحيح البخاري كتاب الإيمان

^٢ صحيح البخاري كتاب الأدب

^٣ لعجزك أن تعمل مثلهم

وأما من ادعى محبة الصالحين مع استطاعته أن يعمل ولكنه تباطأ
وتكاسل فهو كاذب في محبته وهو يشتهي المحبة ولم يتذوقها بعد .
اللهم احشرنا في زمرة عبادك الصالحين المحبين لسيد المرسلين تحت
لوائه صلى الله عليه وسلم في جميع العوالم .
ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس التاسع : المجلس الأول في هذا الباب

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب فضل الحب في الله تعالى والحث عليه وإعلام الرجل من يحبه أنه يحبه، وماذا يقول له إذا أعلمه:

قال الله تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا).

وقال تعالى: (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم).

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

[ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الايمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار] متفق عليه. اهـ

لقد استدل الإمام النووي رضي الله عنه بهذه الآية (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) استدلالاً بها على صحبة الصحابة لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومحبتهم بعضهم وهذا قوله تعالى: (رحماء بينهم) أي يرحم بعضهم بعضاً كما ترحم الوالدة ولدها، وهذا بسبب محبتهم بعضهم محبة إيمانية لله وفي الله جل وعلا.

قوله تعالى: (محمد رسول الله) وفي هذا إعلام وإعلان من الله تعالى لخلقه بأن محمداً بن عبد الله بن عبد المطلب المعروف عند أهل الأرض وعند أهل السماء إنما هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما هو برجلٍ يطلب الملك أو الجاه أو المال، بل هو رسول الله أرسله الله تعالى إلى خلقه كافة هادياً لهم ليخرجهم من الظلمات إلى النور .

وقوله تعالى: (محمد رسول الله) ذكر سبحانه رسوله الكريم باسمه لأن المقام يقتضي ذلك إذ هو في سياق التعريف بهذا النبي الكريم وأن محمداً هو رسول الله تعالى، وأما في سياق ذكر الله تعالى لمقامات رسول الله وفضائله فقد جاءت الخطابات الإلهية لرسول الله بالفاظ التكريم لهذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى (يا أيها الرسول) (يا أيها المزمّل) (يا أيها المدثر) فناداه وخاطبه سبحانه بذكر مقاماته ومراتبه وصفاته صلى الله عليه وسلم ولم يخاطبه باسمه كما خاطب ونادى غيره من الرسل فقال جل وعلا:

(يا إبراهيم أعرض عن هذا) (يا نوح إنه ليس من أهلك)

(يا عيسى إني متوفيك) (يا زكريا إنا نبشرك بغلام) (يا موسى لا تخف) .

وكذلك ذكر سبحانه رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم بمقاماته ومراتبه في سياق الإخبار عن فضائله ومناقبه صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى: (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) ، وقوله جل وعلا : (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) الآية.

ففي الآية:(محمد رسول الله) ذكر سبحانه رسوله الكريم باسمه العَلَم لأن المقام يقتضي ذلك حتى يعرف الناس أن محمداً هو رسول الله إليهم ، فهو نبي الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل مقام يقتضي مقالاً .

وأما معنى كلمة (محمد) - وهو الاسم الذي سمي الله به رسوله صلى الله عليه وسلم- فهو كثير المحمودية عند أهل السماء والأرض ، فقد نقول عن فلان إنه محمود السيرة والخصال والشمائل لكن الأبلغ والأقوى من كلمة "محمود" كلمة " محمد " أي كثير المحمودية ، فهو صلى الله عليه وسلم كثير المحمودية على خصائصه المجيدة وخصاله الكريمة وأفعاله الرشيدة وهكذا حمدته وتحمده أهل السماء والأرض حتى أعداؤه الكفار كانوا يحمدونه وسيحمدونه في الآخرة أيضاً لما ينقذهم من أهوال الموقف ويقوم صلى الله عليه وسلم للشفاعة العظمى.

قوله تعالى:(محمد رسول الله) أي بالرسالة الجامعة لجميع رسالات من قبله من المرسلين عليهم الصلاة والسلام ، الرسالة العامة إلى جميع العالمين إلى يوم الدين ، ولا نبي ولا رسول بعده صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى: (والذين معه أشدء على الكفار رحماء بينهم) أي أن صفة أصحابه الذين معه أنهم أشدء على الكفار إذا هم حاربوهم وآذوهم وعادوهم، رحماء بينهم لأنهم يحبون بعضهم بعضاً فيرحم بعضهم بعضاً ، فمن أراد أن يعرف صفات أصحاب رسول الله الذين نشؤوا على تعاليم وتوجيهات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد ذكر ذلك سبحانه في كتابه الكريم ليكون ذلك منهاجاً لمن بعدهم من المؤمنين.

وبعد أن ذكر سبحانه صفتهم فيما بينهم ذكر جانباً من عبادتهم وحالهم مع الله تعالى فقال جل وعلا:
(تراهم زُجَّعاً سُجَّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً).

فهم لكثرة صلواتهم ونوافلهم إذا نظرت إليهم أيها الناظر رأيتهم ما بين راعع وساجد، وغايتهم من ذلك ومقصدهم نيل رضوان الله تعالى وفضله سبحانه، ولا يريدون من وراء ذلك رياء ولا سمعة ولا ظهوراً بين الناس فعبادتهم لله تعالى من أجل الله سبحانه، ومن أجل أن ينالوا رضوانه وفضله جل وعلا، فسبحان من لا مانع لعطائه جل وعلا.

وفي قوله تعالى: (يبتغون فضلاً من الله ورضواناً) يشهد جل وعلا للصحابة رضي الله عنهم بالصدق والإخلاص في أعمالهم وعبادتهم ويمدحهم سبحانه بذلك.

وإن اعتبار الأعمال عند الله تعالى هو الإخلاص بها له جل وعلا، وعمل قليل يخلص فيه العبد لله تعالى خير له من عمل كثير لا إخلاص فيه ، وقد بين ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله لمعاذ رضي الله عنه : [أخلص دينك يكفك القليل من العمل]^١.

^١ عزاه في الدر المنثور إلى ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في الشعب عن معاذ بن جبل رضي الله عنه .

ويكفي ما جرى على إبليس^١ من الطرد واللعنة عبرة وعظة لكل إنسان عاقل ، إذ إن إبليس كان يعبد الله بين صفوف الملائكة في السماء الأولى وبلغ في عبادته مبلغاً كبيراً إلا أنه كان يفتقر إلى الإخلاص والصدق وكان معجباً بنفسه مغروراً بعبادته فلما امتحن بالسجود لآدم عليه السلام صدّه غروره وكبرياؤه وامتنع عن السجود معترضاً على الله تعالى ومنتقداً أمر الله في ذلك فكانت عاقبته الطرد واللعنة، أعاذنا الله من شروره ووساوسه.

ولو كان إبليس مخلصاً لله في عبادته السابقة لحفظه الله تعالى من الزيغ والضلال والامتحان، نسأل الله الحفظ والوقاية.

قوله تعالى: (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) أي أن النور والسمت الحسن يظهر على وجوههم بسبب عباداتهم وسجودهم لله تعالى ، لأن من أخلص العبادة له تعالى ألبسه الله حلة نورانية وصبغه بصبغة الإيمان والنور والبهاء ، وهذا ما يشعر به كل إنسان، فإن هو عصى الله تكدر وأظلم وجهه، وإن هو تاب وأتاب وسلك طريق العبادة انشرح صدره واستنار وجهه.

وقد قال سيدنا عثمان رضي الله تعالى عنه:

" ما أسر عبد سريرة إلا أبداه الله على صفحات وجهه وفلّات لسانه " ^٢.
فمن واظب على عمل لا بد أن يظهر الله أثر ذلك العمل على وجهه ،
ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته .

^١ وقد أمره الله أن يسجد لآدم عليه السلام كما أمر الملائكة بذلك فقال تعالى: (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) فلما أمر الله الملائكة بالسجود لآدم أمره أيضاً.

^٢ انظر كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح ١٧٧/١

قوله تعالى: (ذلك مثلهم في التوراة) أي أن هذا هو وصف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة وهو الوصف الذي وصفهم الله به في التوراة التي أنزلها على سيدنا موسى عليه السلام ، وأما وصفهم الذي ذكرهم الله به في الإنجيل فقد قال تعالى: (ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شَطَأَهُ فَأَزْرَهُ فَاسْتَعْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سَوْقِهِ) أي كزرع أخرج فروعه فَأَزْرَهُ أي قوي هذا الزرع بفروعه فاستغلظ أي اشتد عزمها فاستوى على سَوْقِهِ أي قويته حتى قامت وامتدت سَوْقُهَا - جمع ساق - حتى صارت تعجب الرِّزَاعِ.

يعني أن أصحاب رسول الله هم فروعه صلى الله عليه وسلم وهو الذي أمدهم حتى يقووا واشتد عزمهم به صلى الله عليه وسلم فهم فروعه الذين استمدوا منه حتى صاروا رجالاً أقوياء وحملوا راية الإسلام ، وكفى بهذا الوصف فضلاً وتكريماً لأصحاب رسول الله أن الله وصفهم بأنهم فروع وزرع رسول الله الذين استمدوا منه وتقووا به حتى نهضوا واشتد عزمهم .

ومن هذا يدرك العاقل فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن مقامهم مقام كبير لا يناله أحد مهما عمل واجتهد، إذ إن فضل الصحابة لا ينال إلا بالصحبة، فهم صحبوا خير خلق الله صلى الله عليه وسلم فصاروا خير خلق الله بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولما كثرت أصحاب رسول الله زاد غيظ الكفار منهم وهذا معنى قوله تعالى: (ليغيظ بهم الكفار) .

قوله تعالى: (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا) (مِنْ) في قوله تعالى (منهم) بيانية وليست للتبويض، ويؤتى بها للبيان وشدة التأكيد على أن أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم الذين أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا .

ومن الشواهد القرآنية على (من) التي يؤتى بها للبيان قوله تعالى:
(فاجتنبوا الرجس من الأوثان) فلو كانت (من) للتبعيض لكانت بعض
الأوثان ليست رجساً!! وهذا محال .

وكذا قوله تعالى في زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:
(فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيماً) مع أنهن كلهن مؤمنات
محسنات رضي الله عنهن .

وقال تعالى في صفة الصحابة الكرام رضي الله عنهم ومحبتهم لبعضهم
(والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم) فقد ذكر
سبحانه في سورة الحشر المهاجرين أولاً وأثنى عليهم ثم ذكر الأنصار وهم
أهل المدينة الذين وصفهم بقوله جل وعلا: (والذين تبوءوا الدار والإيمان
من قبلهم يحبون من هاجر إليهم) أي تمكنوا وأقاموا في المدينة من قبل
أن يهاجر إليها المهاجرون وأهل مكة فهم يحبون من هاجر إليها من
المهاجرين محبة إيمانية صادقة.

وقوله تعالى: (تبوءوا الدار) أي الدار المعروفة التي هي أفضل دار وأكرم
دار لأن شرف الدور على شرف من دار فيها ، فما بالك بدار سيدنا رسول
الله وهي المدينة المنورة بأنوار الرسول صلى الله عليه وسلم؟!

وقوله تعالى (تبوءوا الدار والإيمان) يقال: تبوأ المكان إذا اتخذ المكان مباء
له أي مقاماً له، فهؤلاء تبوءوا بأجسادهم الدار المعروفة وهي بلدة النبي
صلى الله عليه وسلم، وتبوءوا بقلوبهم وأرواحهم الإيمان بالله تعالى
ورسوله فأجسادهم أقامت في المدينة المنورة وقلوبهم أقامت في الإيمان
بالله ورسوله ولم تمل أو تحد عنه بل هي في رسوخ وتمكن وازدياد في
الإيمان.

وقوله جل وعلا: (تبوءوا الدار والإيمان) يعني ونالوا ثمرات تحققهم بالإيمان وهي الإحسان على مراتبه ، وإن إحسان كل مؤمن على قدر إيمانه فكلما ارتقى في مقامات الإيمان علا في مقامات الإحسان.

قوله تعالى: (يحبون من هاجر إليهم) فلقد أحب الأنصار المهاجرين محبة إيمانية في الله والله تعالى، لا لأموالهم إذ إنهم تركوا أموالهم وهاجروا ، ولا لأغراض دنيوية أخرى بل لأنهم مؤمنون هاجروا في سبيل الله جل وعلا، وهذا هو الحب النافع وهو الحب الذي سببه الإيمان بالله ورسوله ، وأما إذا كانت المحبة لها سبب غير ذلك فهي محبة مذمومة مسؤولة عنها صاحبها وهي محبة ستقلب إلى بغض وعداوة يوم القيامة كما قال تعالى: (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين) .

وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضل المحبة في الله :
[ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان]- أي ومن لم تكن فيه لا يجد حلاوة الإيمان ، فحلاوة الإيمان أمر موجود ثابت حقيقي لكن لا يجده ويتذوقه إلا من تحقق بهذه الصفات الثلاثة التي ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبها يحصل الإنسان حاسة تذوق حلاوة الإيمان فيتذوقها.

[أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار] .

ولا تظهر محبتك الصادقة لشيء إلا إذا تعارضت رغبات المحبوبين
عندك ، فمثلاً قد تعارض نفسك صلاة قيام الليل مع أن سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم يحب صلاة الليل وقيامه، فإذا أطعت نفسك
وعملت بهواها وعدلت عن قيام الليل فقد قدمت ما تحب نفسك على
ما يحب رسول الله وكانت عندئذ محبتك لرسول الله ناقصة ، وقس على
ذلك سائر ما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم من أحكام
وأوامر ومَنَاهِ فانظر في موقفك منها حتى تعرف نفسك هل أنت تحب الله
ورسوله محبة صادقة أم هي ناقصة أم هي مجرد دعوى ؟

ونسأل الله تعالى من فضله أن يحققنا بالمحبة الصادقة لله ورسوله بلا
محنة ولا ابتلاء .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس العاشر

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ، أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب فضل الحب في الله تعالى والحث عليه وإعلام الرجل من يحبه أنه يحبه ، وماذا يقول له إذا أعلمه:

قال الله تعالى: (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرًا عظيمًا).

وقال تعالى: (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم) .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

[ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار] متفق عليه . اهـ

لقد ذكر الإمام النووي رضي الله عنه في جملة رياض الصالحين روضة الحب في الله تعالى، والتي لا بد للمؤمن الذي يسلك طريق الصلاح الخاص أن يتحقق بها حتى يتم له صلاحه، وأما دعوى الصلاح دون التحقق بهذه الرياض فذلك من الصلاح العام وليس من الصلاح الخاص الذي يصلح به صاحبه للتحقق بمراتب القرب من حضرة رب العالمين.

وذكر الآيات والأحاديث الدالة على فضل محبة الله تعالى، فذكر أولاً ما يتعلق بتحابب الصحابة رضي الله عنهم، وقد أخبر عنهم سبحانه أنهم يحب بعضهم بعضاً فقال تعالى: (والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم) أي أن الأنصار الذين تبوءوا الدار وهي المدينة التي هي دار الدور وأشرف المنازل والبقاع وهي أشرف دار لأنها دار فيها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم واستنارت بأنواره الشريفة فالأنصار رضي الله عنهم تبوءوا الدار بأجسادهم وتبوءوا الإيمان بقلوبهم فهم مقيمون على الإيمان، (يحبون من هاجر إليهم) فالأنصار يحبون المهاجرين في الله ولله جل وعلا، فلم يحبوهم لمالهم لأن المهاجرين هاجروا حباً في الله ورسوله، وقد جردهم المشركون من أموالهم.

ثم ذكر حديث سيدنا رسول الله الذي بين فيه صلى الله عليه وسلم الأصول الثلاثة التي من تحقق بها وجد حلاوة الإيمان فقال صلى الله عليه وسلم: [ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان] فمن تحقق بهذه الأصول صار عنده أداة ذوق يتذوق بها حلاوة الإيمان، ومن لم يتحقق بها فقد فقد أداة الذوق التي يتذوق بها حلاوة الإيمان، وهذا لأنه لا بد لكل ذوق من أداة وأسباب.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وجد بهن حلاوة الإيمان] أي حلاوة الإيمان الاعتقادي بالله جل وعلا والإيمان العملي كالصلوات والعبادات والإيمان القولي كالتسبيح والتحميد والكلم الطيب والإيمان الخُلقي والأدبي كالحياء وهو التخلق بالأخلاق الحسنة الفاضلة كالحلم والكرم والشجاعة.

قوله صلى الله عليه وسلم: [أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما]، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار].

وقال عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام: [ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم رسولاً]^١.

فقوله عليه الصلاة وأزكى السلام: [أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما] أي أن تسيطر محبة الله ورسوله على القلب وتكون فوق محبة كل محبوب، فوق محبة الوالد والولد والزوج والمال والدنيا وما فيها.

وإن السبب الذي يحمل المؤمن على المحبة هو الكمال والنوال فإذا كنت تحب فلاناً لكماله أي لأخلاقه العظيمة وسجاياه اللطيفة فإن الذي أعطاه ذلك وخلق فيه ذلك هو الله رب العالمين المتصف بالكمالات المطلقة والمحاسن المطلقة على وجه لا يتناهى .

وإذا كنت تحب فلاناً لجماله وحسنه فإن الله تعالى هو الذي أعطاه ذلك وخلق فيه الجمال والحسن، وهو سبحانه متصف بالجمال المطلق فيجب أن تكون محبتك له جل وعلا أكبر وأعظم.

وإذا كنت تحب فلاناً لنواله - أي كرمه وسخائه وجوده - فإن الله تعالى الذي خلقه أعطاه ذلك، وهو سبحانه الكريم الجواد المنعم على عباده بالآلاء والنعم، فيجب أن تكون محبتك له جل وعلا أكبر وأعظم ، بل يجب أن تكون محبتك لله تبارك وتعالى محبة عبد لسيدته ومخلوق لخالقه ومربوب لرب يربيه وينعم عليه ، ويجب أن تكون محبتك له تعالى محبة لا يشاركه فيها أحد جل وعلا.

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان وصحيح ابن حبان كتاب الصلاة

ولقد اختص الله نبينا وسيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم من سائر العالمين وفضّله عليهم واختاره رسولاً بالرسالات الجامعة والخاتمة لجميع النبوات والرسالات، وخصه بالمقامات العالية الفردانية، وأفاض عليه من العلوم والمعارف والأسرار والأنوار الإلهية ما لا يعلمه أحد من خلق الله تعالى، كما أفاض عليه الكمالات والمحاسن بأنواعها فكان صلى الله عليه وسلم عظيماً في ذاته الشريفة وأخلاقه وشؤونه وسيرته العطرة، حريصاً على هداية أمته وسعادتها في الدنيا والآخرة، فيجب على المؤمن العاقل أن يكون سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليه من خلق الله كلهم.

وكما ازداد الإنسان معرفة بالله تعالى وكمالاته التي لا تتناهى زاد حبه لله تعالى، وكما ازداد الإنسان معرفة واطلاعاً على أخلاق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجاياه زادت محبته له صلى الله عليه وسلم وهذا واجب كل مؤمن كي يكمل إيمانه.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: [أحبوا الله لما يغذوكم به من نعم] -أي يمدكم- [وأحبوني لحب الله]- أي بسبب حب الله لي - [وأحبوا آل بيتي لحبي]^١.

ومن زعم أن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما وتراه يخالف ما جاء عن الله ورسوله فهو كاذب في دعواه لأن المحبة تحقق وانصياع وليست مجرد كلام ودعاوى، ومن علامة صدق المحبة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم الاتباع، مع أنه قد يقع المؤمن في بعض المعاصي إلا أنه لا يصير عليها بل يندم ويتوب، قال تعالى: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين).

^١ رواه الترمذي في سننه في كتاب المناقب والحاكم في المستدرک عن ابن عباس رضي الله عنهما

والمعنى: قل لهم يا رسول الله: [إن كان أحد من هذه المرغوبات والمحبوبات الدنيوية من ولد ومال وزوجة وتجارة ومسكن أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فأنتم عندئذ فاسقون وانتظروا أمر الله تعالى بالعذاب، وذلك لأنكم آثرتم رغباتكم وتجارتكم ومحبوباتكم الدنيوية الفانية وآثرتم شهواتكم النفسية الدنيوية على حب الله ورسوله الذي من تحقق به - أي بالحب - نال الخير كله، خير الدنيا والآخرة وسعادة الدنيا والآخرة].

فمن تعارضت رغبات نفسه وشهواته مع ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وآثرها وقدمها عليه فهناك نقص في إيمانه بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وفي الحديث [لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ووالده وولده والناس أجمعين] ^١.

وقال صلى الله عليه وسلم: [لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ثم لا يزيف عنه] ^٢ والزيغ هو الميل.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله] أي أن يحب المؤمن أخاه المؤمن حباً في الله ولأجل الله تعالى، لأن المؤمن بالله محبته لله جل وعلا تحمله على محبة كل من آمن بالله وأحب الله، فيجب أن تكون محبة المؤمنين بعضهم محبة إيمانية ومحبة نصح وإخاء لا محبة قائمة على أغراض شخصية أو منافع دنيوية.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار] أي أن دليل الإيمان الصادق لدى المؤمن أن يكره الكفر وما يجر إليه من المعاصي كراهية حقيقية كما يكره أن يقذف في النار كراهية فطرية جبلية.

^١ رواه الشيخان والنسائي وأحمد - والرواية له - عن سيدنا أنس رضي الله عنه .
^٢ قال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: خرج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وخرجته الأئمة في مسانيدهم ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني وليس عنده: ولا يزيف عنه

ولو أن أهل الأرض كلهم اجتمعوا على أن يقنعوك أن تمد يدك إلى النار فتحرقها لما أذعنت لهم بسبب نفرتك وكراهية طبعك للنار هذا إن كنت عاقلاً، أما إذا كنت أحمق فربما أقنعوك^١ أن تحرق يدك بالنار مقابل شيء من المال ثم جعلوا يضحكون منك.

واعلم أيها العاقل أن حلاوة الإيمان في القلب أقوى وألذ وأطيب من حلاوة اللسان، لأن الإنسان لا يتذوق الحلاوة إلا ببعض الأطعمة حين تمس لسانه، وتزول تلك الحلاوة لما يبتلعها فهي جزئية مؤقتة، وأما حلاوة الإيمان فيجد المؤمن حلاوتها ونعيمها في سائر أحيانه وتقلباته وسكناته وعباداته.

وكما لا يتذوق الإنسان حلاوة الأطعمة إلا إذا كان صاحب مزاج صحيح خال من مرض وحرارة وبشرط ألا يحجب اللسان حاجب كبعض الأطعمة التي تطلي اللسان فلا يتذوق لذة الأطعمة التي يأكلها صاحبها فكذلك القلب لا يجد صاحبه حلاوة ولذة ومعنى الإيمان إلا إذا كان صحيحاً سليماً من الأمراض والأدواء القلبية ولا يحجبه عن ربه حجاب الغفلة والاشتغال بالأغيار.

وقل لمن زعم أن هذه القضايا إنما هي من باب الخيالات وضرب الأمثال والمجاز وليست هناك على الحقيقة حلاوة للإيمان في القلب وإنما هي مجازية وأما الحقيقية فهي حلاوة اللسان، قل له: ولم لم تقل إن حلاوة الإيمان في القلب هي الحقيقية وحلاوة اللسان هي المجاز؟

واعلم أن الحقائق لا تفهم إلا ممن أنزل الله عليه الحق والحقيقة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (وبالحق أنزلناه وبحق نزل وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً) فكل ما أخبر عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو حق وحقيقة، وما عليك إلا أن تجعل علومك باللغة وبلاغتها تابعة لما جاءك عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

^١ والإقناع للعقل قناع للرأس أيضاً ومن أقنعك بالدليل والبرهان فقد قنّع عقلك وكأنه ألبس رأسك قناعاً.

ولا تجعل أيها المؤمن الدنيا أكبر همك ومبلغ علمك فإنها عندئذ تسيطر على قلبك وتشغلك وتلهيك عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ،وقد نبه جل وعلا إلى ذلك في قوله: (ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر).

ولا يقال في اللغة : فلان لاه عن الشيء إلا إذا كان ذلك الشيء له أهمية وخطر وكان من الواجب أن ينتبه إليه ويسعى إليه ولكنه لها عنه بشيء تافه ،فاللهو ما يلهيك عن الأمر المهم ويشغلك بما لا يهم.

فقوله تعالى: (ألهاكم) أي شغلكم ،ففاعل {ألهى} أبلغ وأدق من فعل {شغل} كما تقدم ،وذلك لأن اللهو يأتي على القلب فينشغل الجسم ،وأما الشغل فقد يشتغل الجسم ولكن القلب يقظ متنبه ، كما قال تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله) مع أن أجسادهم تعمل وتبيع وتشترى ولكن قلوبهم يقظة حاضرة مع ذكر الله تعالى .

فقوله تعالى: (ألهاكم) أي شغل قلوبكم عما يجب عليكم أن تسعوا إليه وتبادروا إليه (التكاثر) أي من الدنيا، فمن الناس من يلهيه التكاثر من المال ومن يلهيه التكاثر من الولد، ومنهم من يلهيه التكاثر من التجارات والمناصب وهكذا.

قوله تعالى: (حتى زرتم المقابر) أي تركتم كل شيء كنتم قد تعبتم في كثرته وصرتم إلى المقابر زائرين زيارة مؤقتة حتى تقوم الساعة وينتهي الأمر إلى دار المقامة التي هي أحد الدارين الجنة نسأل الله ذلك من فضله، أو النار والعياذ بالله تعالى.

ولما سمع أعرابي قارئاً يقرأ: (ألهاكم التكاثر * حتى زرتم المقابر) قال: "بُعِثَ الناس وربّ الكعبة"^١، أي ما دام أمر القبور للزيارة فلا بد إذاً من الحشر والإعادة.

^١ انظر حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣٩٣/٨

واعلم أيها المؤمن أن القلب موضع نظر الرب جل وعلا، وهو جل وعلا ينظر نظر الرحمة والرضا لمن كان قلبه سليماً خالياً من الرعونات والأمراض، فاحذر أن تشغل قلبك بما يحجبه عن الله تعالى، ولا تشغلك الدنيا وأموالها، ولا تحمل هم الرزق فإن الله تعالى الذي خلقك تكفل برزقك، قال سبحانه: (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) وكيف يُتصور أن يخلق الله خلقه ويهمل أرزاقهم التي تتوقف عليها حياتهم واستمرار بقائهم؟!!

ولا ينافي هذا أن يتعاطى الإنسان أسباب رزقه ومعيشتة على الوجه الذي شرعه الله تعالى، قال جل وعلا: (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور) أي اسعوا في جلب أرزاقكم بالعمل والتجارة والزراعة وغيرها ولكن لا تتكفوا على أنفسكم وأعمالكم فالرزاق سبحانه وتعالى هو الذي يسوق لكم أرزاقكم على حسب علمه وحكمته سبحانه، ومع ذلك كله لا تنشغلوا وتنغمسوا في الدنيا وتغفلوا عن الآخرة فإن النشور والحشر والمصير إلى الله تعالى الذي سيسألكم ويحاسبكم ويجازيكم على أعمالكم.

قوله صلى الله عليه وسلم : [ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما] الضمير في قوله صلى الله عليه وسلم : [سواهما] عائد إلى الله ورسوله وهذا من أدلة من قال بجواز ذلك، وليس هذا من باب المساواة بين الله ورسوله بل هو من باب الدليل والمدلول فإن علامة صدق محبتك لله تعالى هي محبتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى:(من يطع الرسول فقد أطاع الله).

فكيف يُتصور أن تطيع الله دون أن تطيع رسول الله !؟

وكذلك في المحبة فلا تصح محبتك لله تعالى إلا إذا صدقت في محبتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم الذي هو أحب حبيب إلى الله تعالى وأكرم الأولين والآخرين على رب العالمين ،وقد قال صلى الله عليه وسلم: [ألا وأنا حبيب الله ولا فخر]^١ مع أن كل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام أحبب الله إلا أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم نال مقاماً في المحبة لم ينله أحد من خلق الله تعالى .

اللهم إنا نسألك حبك وحب من يحبك وحب عمل صالح يقربنا إلى حبك ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

^١ انظر سنن الترمذي كتاب المناقب و سنن الدارمي في المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الحادي عشر : حول فضائل سورة الفاتحة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في الحث على سور وآيات مخصوصة:

عن أبي سعيدٍ رافع بن المعلى رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ألا أعلمك أعظم سورةٍ في القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج قلت: يا رسول الله إنك قلت: لأعلمنك أعظم سورةٍ في القرآن، قال: (الحمد لله رب العالمين) هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته] رواه البخاري. اهـ

ولقد تقدم فيما مضى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا أبا سعيد رضي الله عنه وكان أبو سعيد يصلي نافلة فلم يجبه، ولما فرغ من صلاته جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم معتذراً وبين له أنه كان مشغولاً بصلاته، فقال له صلى الله عليه وسلم: [ألم تسمع قول الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم)^١ أي: فكان من الواجب عليك أن تقطع صلاتك وتجب دعوتي.

وقد تقدم معنا أن الصلاة حيث كانت فرضاً أو نفلاً تقطع لإجابة أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا خاص في حياته الدنيوية صلى الله عليه وسلم.

^١ انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

وأما غير الرسول صلى الله عليه وسلم إذا دعاك وأنت في الصلاة كأبيك أو أمك فإذا كنت في صلاة نفل ولم تجب دعوة أحدهما ووجد في نفسه عليك شيئاً فعليك عندئذ أن تقطع صلاة النفل وتجيب دعوته، ويُعرف ذلك من حُلق والديك في سائر الأحوال ، وأما إذا دعاك غير أمك أو أبك وأنت في صلاة النفل فلا إجابة لدعوته، ولا تقطع صلاة الفرض لدعوة أب أو أم إلا لإغاثة مستغيث من غرق أو حرق، أو إبعاد طفل أو شك أن يرمي نفسه من نافذة أو في النار.

ويقال عن سورة الفاتحة بأنها الفاتحة لأن القرآن الكريم قد افتتح بها وإن لم تكن هي أول ما نزل، إلا أن ترتيب المصحف كما هو مكتوب بين أيدينا اليوم أمر توقيفي أمر بذلك سيدنا رسول الله أصحابه الكرام رضي الله عنهم عن وحي من الله تعالى على حسب ما هو مكتوب في أم الكتاب وفي اللوح المحفوظ.

وتسمى سورة الفاتحة سورة الحمد أيضاً لأن فيها أنواعاً من محامد رب العالمين جل وعلا .

وقوله سبحانه في أول سورة الفاتحة: (الحمد لله رب العالمين) يحمدها سبحانه نفسه، وحمده جل وعلا لنفسه لا يتناهى، وأما حمد المخلوق لربه فهو حمد متنه محدود على حسب ما يلاحظه من معاني الحمد، فإن أكل حمد الله على أن أطعمه ورزقه وهكذا إن شرب أو لبس أو

والله تعالى يحمد نفسه حمداً مستمراً باقياً بمعان لا نهاية لها، وحمده سبحانه لنفسه هو الحمد اللائق به جل وعلا، فلما يقول العبد: (الحمد لله رب العالمين) ويريد بذلك كلامه سبحانه، فيكون بذلك قد تقرب إليه سبحانه بحمده لنفسه، وفرق كبير بين ذلك وبين قول العبد: " الحمد لله رب العالمين " ولم يلاحظ أنها من كلام الله ومن حمده لنفسه جل وعلا. وتسمى سورة الفاتحة سورة الثناء لأن فيها قوله تعالى: (الرحمن الرحيم) ، وسورة التحميد لأن فيها قوله تعالى: (مالك يوم الدين)، وتسمى سورة الشكر أيضاً لأن معنى الشكر فيها جاء في قوله تعالى: (إياك نعبد)، وذلك لأن الشكر يتضمن شكر اللسان وهو الحمد ، وشكر الجنان وهو اعتقادك بأن ما بك من نعمة فمن الله، وشكر الأركان والجوارح وهو صرفها في عبادة الله تعالى بعمل الصالحات وهذا قوله تعالى: (اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور) أي: قليل أولئك الذين يستوفون مراتب الشكر.

وتسمى سورة الفاتحة أيضاً سورة الشافية والرقية لأن فيها الشفاء من كل داء بإذن الله تعالى، كما روى الدرامي عن عبد الملك بن عمير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [فاتحة الكتاب شفاء من كل داء]^١ وفي شعب الإيمان للبيهقي: [فاتحة الكتاب شفاء من السم] أي من كل داء وسم.

^١ سنن الدرامي كتاب فضائل القرآن

وروى الترمذي عَنْ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

[بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَرِيَّةٍ فَنَزَلْنَا بِقَوْمٍ فَسَأَلْنَاهُمْ الْقِرَى فَلَمْ يَقْرُونَا ، فَلَدَغَ سَيِّدُهُمْ فَأَتَوْنَا فَقَالُوا : هَلْ فِيكُمْ مَنْ يَرِقِي مِنْ الْعَقْرَبِ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ أَنَا وَلَكِنْ لَا أُرْقِيهِ حَتَّى تُعْطُونَا غَنَمًا ، قَالَ : فَأَنَا أُعْطِيكُمْ ثَلَاثِينَ شَاةً فَقَبِلْنَا فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَبْعَ مَرَّاتٍ فَبَرَأَ وَقَبَضْنَا الْغَنَمَ ، قَالَ : فَعَرَضَ فِي أَنْفُسِنَا مِنْهَا شَيْءٌ فَقُلْنَا : لَا تَعْجَلُوا حَتَّى تَأْتُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : فَلَمَّا قَدِمْنَا عَلَيْهِ ذَكَرْتُ لَهُ الَّذِي صَنَعْتُ ، قَالَ : وَمَا عَلِمْتَ أَنَّهَا رُقِيَةٌ ؟ اقبضوا الغنم واضربوا لي معكم بسهم] .

قوله: "هل فيكم من يرقى" يعني: من يقرأ شيئاً على المريض أو اللديغ،

وقد اختلفت أقوال العلماء في أمر تلك الشياه التي أخذوها هل هي من باب الأجر أم الهبة؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقر بذلك وقال: [اقبضوا الغنم واضربوا لي معكم بسهم] .

فهناك من قال: هي من باب الأجرة، وعليه فإن أخذ الأجرة على القراءة لا مانع منه.

ومنهم من قال: لا يجوز أخذ الأجرة على القراءة، لأن القراءة عبادة ولا يجوز أخذ الأجرة على العبادة، وإنما هذه من باب الهبة ومن وهب لمن رقاها شيئاً جاز له أخذه.

ومما يستفاد من هذا الحديث: أن يقرأ الإنسان على نفسه سبع مرات سورة الفاتحة إن هو اشتكى من مرض أو ألم أو لدغ، ويحسن له أن يضيف إليها آيات الشفاء ثلاثاً ثلاثاً، وإن قرأها على ماء أو طعام وشرب منه فلا مانع.

وآيات الشفاء ست آيات وهي: قوله تعالى: (وإذا مرضت فهو يشفين) وقوله سبحانه: (ونزل من القرآن ما شفاء ورحمة للمؤمنين) وقوله جل وعلا: (ويشف صدور قوم مؤمنين) وقوله جل وعز: (وشفاء لما في الصدور) وقوله عز من قائل: (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) وقوله تبارك وتعالى: (يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس). ولقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ بالأسباب الحسية لمعالجة الآلام والأمراض مع أخذه صلى الله عليه وسلم بالأسباب المعنوية الروحية، ومنها الآيات القرآنية والتعاويد الواردة عنه صلى الله عليه وسلم.

وتسمى سورة الفاتحة سورة المناجاة أيضاً لأن فيها مناجاة العبد ربه، وتسمى سورة التفويض لما ورد في الحديث القدسي: [فإذا قال العبد (مالك يوم الدين) قال تعالى: فوض إلي عبدي].

وروى مسلم وغيره^١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [قَالَ اللَّهُ تَعَالَى :

قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : حَمِدَنِي عَبْدِي] .

-وفي السنن الكبرى للبيهقي: [فإذا قال العبد: بسم الله الرحمن الرحيم يقول الله: ذكرني عبدي]-.

[فإذا قال (الرحمن الرحيم) قال الله تعالى: أثني علي عبدي] أي كرر وأعاد حمده بأن ذكر صفاتي على وجه الحمد والمدح، وذلك لأن العبد حمد الله تعالى أولاً بقوله: (الحمد لله رب العالمين).

^١ انظر صحيح مسلم كتاب الصلاة ومسند الإمام أحمد ٦٩٩٠

[وإذا قال: (مالك يوم الدين) قال الله تعالى: مجدني عبدي]
والمجد في اللغة هو العظمة والشرف، وإن كل العزة والشرف والعظمة
والرفعة المطلقة لله وحده، وهو يعز من يشاء كما أعز رسوله صلى الله
عليه وسلم وأعز صحابته وأعز المؤمنين فقال تعالى :
(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين).

-وفي رواية : [إذا قال العبد: (مالك يوم الدين) قال الله تعالى: فوض إلي
عبدي]-.

[فإذا قال (إياك نعبد وإياك نستعين) قال الله تعالى: هذا بيني وبين عبدي
ولعبدي ما سأل [أي: أن عبادة العبد هي لله تعالى، والمعونة هي من الله
تعالى لعبده، والله يعطيه ذلك.

وفي قوله تعالى: (إياك نعبد وإياك نستعين) قدّم المعمول على العامل
ليفيد معنى الحصر، فلا يُعبد أحد غير الله تعالى، ولا يُستعان إلا به جل
وعلا ، فهو سبحانه يخلق القوة والعون في نفس العبد، والعبادة هي قيام
العبد بحق الرب عليه.

[فإذا قال (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ) قال الله تعالى: هذا لعبدي ولعبدي ما
سأل] أي أن الله تعالى ضمن له أن يهديه الصراط المستقيم إن سأل
العبد الله ذلك موقناً صادقاً.

ومما يدل على أن من قرأ سورة الفاتحة وآخر سورة البقرة يعطيه الله تعالى ما نواه من قراءتها ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته].

وكان من جملة أوراد السلف الصالح رضي الله عنهم ومنهم الإمام الغزالي رحمه الله ورضي عنه كان من جملة أورادهم اليومية قراءة سورة الفاتحة مائة مرة كل يوم، وذلك لما ورد من فضائلها وخصائصها.

وقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) والهداية على مراتب ، فهناك الهداية للإيمان أولاً ثم لأعمال الفرائض ثم النوافل، ولا تكون النوافل نوافل إلا إذا ازدادت على الفرائض، ولا يكون ذلك إلا إذا كانت الفرائض تامة كاملة بعددها وكيفيةها أي بخشوعها وآدابها، فالهداية في قوله تعالى:(اهدنا الصراط المستقيم) تعني التثبيت على الإيمان والزيادة من الهدى للأعمال والأقوال المرضية عند الله تعالى والتوفيق لذلك، وكأن العبد لما يقرأ (اهدنا الصراط المستقيم) يقول : اللهم ثبتنا على ما هديتنا إليه من الإيمان ، وزدنا هدى فوق هدى للأعمال الصالحة والأقوال الطيبة ووفقنا للعمل لما هديتنا إليه.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني عشر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في الحث على سور وآيات مخصوصة:

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في (قل هو الله أحد): [والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن].

وفي رواية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه: [أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟

فقال: (قل هو الله أحد * الله الصمد) ثلث القرآن] رواه البخاري^١.

وعنه رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: (قل هو الله أحد) يرددّها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالها^٢، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن] رواه البخاري^٣.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في (قل هو الله أحد) [إنها لتعدل ثلث القرآن] رواه مسلم^٤. اهـ

^١ في صحيحه كتاب فضائل القرآن

^٢ قال الحافظ في الفتح: أَي يَعْتَقِد أَنَّهَا قَلِيلَةٌ، وَالْمُرَادِ إِسْتِقْلَالَ الْعَمَلِ لَا التَّنْقِيسِ.

^٣ في صحيحه كتاب فضائل القرآن

^٤ في صحيحه كتاب فضائل صلاة المسافرين

وتسمى هذه السورة سورة (قل هو الله أحد)، وتسمى سورة الإخلاص، وسورة التوحيد، وسورة التفريد، وسورة التجريد وذلك لأن فيها إخلاص التوحيد لرب العالمين، كما أن سورة (قل يا أيها الكافرون) تسمى سورة الإخلاص لأن فيها إخلاص العبادة لله وحده، وأن لا يعبد الإنسان مع الله تعالى شيئاً سواه كان صنماً أو وثناً أو درهماً أو ديناراً، لأن مَنْ شَغَلَ المال قلبه واسترق نفسه كان فيه نوع من عبادة الأوثان، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [تعس عبد الدينار والدرهم والقטיפيفة والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض]^١.

ومما سبق يتبين لك أن سورة (قل هو الله أحد) فيها إخلاص التوحيد لله تعالى وتفريده سبحانه، وأما سورة الكافرون ففيها إخلاص العبادة لله تعالى وحده.

وقد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن سورة (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن^٢.

قوله صلى الله عليه وسلم: [والذي نفسي بيده] يقسم الرسول صلى الله عليه وسلم بالذي روحه بيده وهو الله سبحانه وتعالى، وكأنه صلى الله عليه وسلم قال: "والله الذي روجي بيده".

وقد خصص صلى الله عليه وسلم ذكر نفسه التي هي بيد الله تعالى مع أن جميع أنفس الخلائق بيده سبحانه، وذلك لأن روحه صلى الله عليه وسلم هي أعظم الأرواح، وهي أول الأرواح خلقاً، وهو صلى الله عليه وسلم أول من نبأه الله تعالى في عالم الأرواح^٣.

^١ رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه في صحيحه كتاب الرقاق

^٢ انظر فيض القدير للمناوي ٦٨٠/٤ فقد صرح بتواتر الحديث.

^٣ قال صلى الله عليه وسلم: [كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد]

كما في مصنف ابن أبي شيبة وأصل الحديث في سنن الترمذي.

ولقد أقسم صلى الله عليه وسلم بالله تعالى على صدق ما أخبر عنه، وهو في الحديث المتقدم أن سورة (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن، مع أنه صلى الله عليه وسلم هو الصادق المصدوق في قوله وخبره صلى الله عليه وسلم، نعم إن في قَسَمه صلى الله عليه وسلم حكماً وأسراراً منها لفت القلب والفكر إلى أهمية وعظمة الأمر المخبر عنه وتقويته وتأكيدِه.

وقوله صلى الله عليه وسلم [(قل هو الله أحد * الله الصمد) ثلث القرآن] فقد سمى صلى الله عليه وسلم السورة بأول آية منها، ولهذا جاز تسمية الكل بالجزء واصطُح على ذلك.

وفي هذه السورة تجريد التوحيد لرب العالمين.

وللعلماء أقوال في تحديد معنى أن سورة (قل هو الله أحد) تعدل ثلث القرآن هل ذلك من حيث المعنى أو من حيث القراءة والثواب؟

فقال بعضهم: إنها تعدل ثلث القرآن من حيث المعنى، وذلك لأن أصول العلوم القرآنية الجامعة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: علم التوحيد، وعلم الأحكام، وعلم المواعظ والتذكير، ويتفرع عن هذه العلوم علوم لا يستقصى حدها.

ولما كان موضوع سورة الإخلاص هو توحيد الله تعالى وذكر كمالاته سبحانه وتعالى، ما بين إثبات المحاسن والكمالات اللائقة به سبحانه، وتنزيهه سبحانه عن الشبيه والنقائص، كانت تعدل ثلث القرآن من حيث المعنى.

وقال بعضهم: إنها تعدل ثلث القرآن من حيث ثواب قراءتها، فمن قرأها كان له من الحسنات كمن قرأ ثلث القرآن لكن بدون مضاعفة للحسنات، أما مضاعفة الحسنات إلى عشر أمثالها وأكثر فهي لمن قرأ ثلث القرآن تفصيلاً وفعلاً.

وفي الحديث الذي رواه الترمذي ^١ عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشرة أمثالها، لا أقول (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف].

ومضاعفة الحسنة إلى عشر أمثالها تكون للقارئ ولو عن قلب غافل، ولو بغير فهم لقوله صلى الله عليه وسلم [لا أقول (الم) حرف] ولا يعلم معاني (الم) إلا أولو العلم، ومع ذلك أثبت سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مضاعفة الحسنات لمن قرأها، وأما المضاعفات الأخرى الكبيرة فتكون على درجة فهم القارئ وتدبره لمعاني آيات الله تعالى وعلى درجة خشوعه لله تعالى وخشيته منه جل وعلا.

وقد فضّل سبحانه بعض السور القرآنية على بعضها الآخر، ورتب على قراءتها الأجر الكبير فضلاً منه سبحانه على عباده المؤمنين القارئین، وهذا كما فضّل سبحانه بين الأسماء الإلهية مع أنها كلها حسنى، لكنه سبحانه جعل لبعض أسمائه خصائص وفضائل.

وأعظم الأسماء الإلهية وأفضلها الاسم الجامع (الله) ثم (الرحمن) وهناك الاسم الأعظم وهكذا.

وكما أن التوراة التي نزلت على سيدنا موسى عليه السلام هي كلام الله تعالى، وكذلك الإنجيل النازل على سيدنا عيسى عليه السلام، والزبور النازل على سيدنا داود عليه السلام هما كلام الله تعالى أيضاً، إلا أن القرآن الكريم الذي نزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو أفضل تلك الكتب وأفضل ما نزل، وهذا بنص القرآن الكريم بقوله تعالى: (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه) فللقرآن الكريم الهيمنة على جميع الكتب النازلة من عند الله تعالى.

^١ في سننه كتاب فضائل القرآن

وقد جاء هذا التفضيل بين السور والآيات القرآنية على لسان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أوحى الله تعالى إليه جميع ذلك، وليس للإنسان أن يفضل بين السور من تلقاء نفسه إلا بالاستناد إلى دليل شرعي من كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولا يجوز أيضاً التفضيل بين الأنبياء عليهم السلام إلا بدليل شرعي، وقد قال صلى الله عليه وسلم: [لا تفضلوا بين أنبياء الله] أي لا تفضلوا بينهم من تلقاء أنفسكم، بل التزموا في ذلك بما جاء عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك كما جاء عن الله تعالى وبلغنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو أفضل الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وعليهم أجمعين^٢، ويليه في الفضل سيدنا إبراهيم عليه السلام، ثم بقية أولي العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام.

وكذلك لا يجوز أيضاً التفضيل بين المؤمنين إلا بدليل شرعي، ومن الجهل والحمق الذي وقع فيه كثير من المتعبدین وأبناء الطريق أن أحدهم يفضل شيخ طريقته على غيره، ويجري الجدل والتخاصم فيما بينهم على أمر لم يكلفهم الله تعالى به، بل ابتدعته نفوسهم وأهواؤهم، فليعلم هؤلاء أن كل ما يفعلونه ويقولونه في هذا الشأن حرام، وأن لكل وليّ فضله ومقامه عند الله تعالى، وأن التفضيل بينهم لا يعلم حده إلا الله تعالى، فدع أيها العابد ما لا ينبغي، واعتقد أن لجميع الأولياء فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى، واشتغل بتطهير نفسك وتزكيتها، ولا تضيع ثواب عبادتك بالكلام الذي لا طائل منه.

١ طرف من حديث رواه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء عن أبي هريرة رضي الله عنه .

٢ جاء في مسند الإمام أحمد قوله صلى الله عليه وسلم: [أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنَسَّقُ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي وَلَا فَخْرَ].

ومن فضل الله تعالى على هذه الأمة المحمدية أيضاً أنه فضل بين الأماكن من حيث مضاعفة أجر الصلاة فيها، كالمسجد الحرام ومسجد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسجد الأقصى^١، وهناك أيضاً التفاضل في الأزمنة، فلا عمل أحب إلى الله تعالى من العمل الصالح في أيام العشر من ذي الحجة كما دلت عليه أحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم^٢.

ومن فضائل سورة الإخلاص أن قراءتها مع المعوذتين ثلاثاً صباحاً ومساءً تكفي صاحبها من كل شيء كما جاء ذلك عنه صلى الله عليه وسلم^٣، وكذلك قراءتها مع المعوذتين إذا أراد الإنسان النوم وأخذ مضجعه من الفراش وأن ينفث في يديه كل مرة ويمسح بهما وجهه وما استطاع من جسده كما جاء ذلك في الصحيح عن السيدة عائشة رضي الله عنها^٤

ومن أسرار مسح الوجه باليدين عند الفراغ من الدعاء، وكذلك مسح الوجه والجسد بعد قراءة بعض السور والآيات أن الإنسان لما دعا أو قرأ استنزل رحمة الله تعالى وبركاته وهي وإن كانت أمراً معنوياً إلا أن لها أثراً مادياً على الجسم يظهر بالشفاء من الأدوية أو طرد الآلام أو دفع الوسوس الشيطانية وهكذا، فالمسح عبارة عن إفراغ المعاني في قوالب المباني.

١ جاء في شعب الإيمان للبيهقي قوله صلى الله عليه وسلم: [صلاة في المسجد الحرام مائة ألف صلاة، وصلاة في مسجدي ألف صلاة، وفي بيت المقدس خمسمائة صلاة] وهو في مسند الإمام أحمد ١٤٧٣٣ قريباً منه.

٢ جاء في سنن الترمذي كتاب الصوم قوله صلى الله عليه وسلم: [ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام ...] الحديث، يعني أيام العشر.

٣ أخرج الترمذي في سننه أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الله بن خبيب رضي الله عنه: [قُلْ: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَتُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ].

٤ جاء في صحيح البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما فقرأ فيهما (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) و(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) و(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ) ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرّات.

ولا ينكر تأثير المعاني على المباني إلا جاهل أحمق، ولو أنك وجهت إلى المنكر هذه الكلمات لاحمر وجهه وغضب، فقل له: إنما تكلمت معك بكلام، وهو أمر معنوي فما له أثر فيك مادياً واحمر وجهك وانتفخت أوداجك وهممت بي؟

ولو أنك تكلمت مع شخص بكلام لطيف فيه المدح والثناء لرأيته تبسم وفرح وظهر ذلك على وجهه، مع أن الكلام أمر معنوي، إلا أن له أثراً مادياً لا ينكره إلا أحمق.

وإن أعظم الأسباب تأثيراً في تغيير مزاج الإنسان ومرضه هي الأمور المعنوية كالكلام المزعج الذي يسمعه من غيره أو التصرفات المشينة التي يراها ممن حوله وهكذا.

ولما كانت المعاني القرآنية تعجز عن حملها السماوات والأرض كان لها أثر كبير في قارئها إن هو استشعر معاني كلام الله تعالى وخشع لعظمته.

فقراءة سورة (قل هو الله أحد) تحفظ الإيمان على صاحبها، وقراءة (قل أعوذ برب الفلق) تحفظه من الشرور والمخاوف، وقراءة (قل أعوذ برب الناس) تحفظه من الوسوس الشيطانية والخواطر النفسانية والهواجس الظلمانية، فواظب أيها المؤمن على قراءتها.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث عشر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

يقول الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في الحث على سور وآيات مخصوصة:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [من القرآن سورة ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر الله له ، وهي (تبارك الذي بيده الملك)].

رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن.

وفي رواية أبي داود: [تشفع]. اهـ

قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من القرآن سورة] أُنْبَهُمَ الأمر أولاً ثم بيّنه وبيّن تلك السورة لما في ذلك من لفت للنظر وتأثير على النفس للاهتمام بهذا الأمر، وتقدير الكلام: من القرآن سورة شأنها عظيم وخطرها جسيم، ومن ذلك أنها شفعت لرجل مذنب كان يقرؤها حتى غفر الله له وهي سورة (تبارك الذي بيده الملك).

ويستدل من الحديث أن سورة (تبارك الذي بيده الملك) ثلاثون آية من غير البسملة، ولم يعدّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث البسملة آية من السورة، وهذا من جملة أدلة الحنفية على أن البسملة آية من القرآن الكريم تستحب قراءتها أمام كل سورة، وأنها ليست آية أول كل سورة^١، أما عند الشافعية فمن جملة أدلتهم على أن البسملة آية أول كل سورة^٢ أما جاء في الحديث أنه لما نزلت (إنا أعطيناك الكوثر) قرأها صلى الله عليه وسلم على الصحابة وقال:

^١ انظر كتاب بدائع الصنائع ٢٠٣/١

^٢ انظر نهاية المحتاج ٤٥٧/١

[أُنزِلَتْ عَلَيَّ آيَاتٌ سُوْرَةٌ فَقَرَأْتُ: (بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ * اِنَّا اَعْطَيْنَاكَ الْكُوْتُرَ * فَصَلِّ لِربِّكَ وَانْحَرْ * اِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْاَبْتَرُ).

ثُمَّ قَالَ اَتَدْرُوْنَ مَا الْكُوْتُرُ ؟ فَقُلْنَا: اللّٰهُ وَرَسُوْلُهُ اَعْلَمُ قَالَ: فَاِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدْنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيْرٌ].. الحديث كما في صحيح مسلم ^١ ، وما رواه البيهقي والدارقطني في الحديث: [قَالَ اللّٰهُ عَزَّ وَجَلَّ: اِنِّيْ قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِيْ وَبَيْنَ عَبْدِيْ نِصْفَيْنِ ، فَنِصْفُهَا لِيْ ، يَقُوْلُ عَبْدِيْ اِذَا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ : (بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ) فَيَذْكُرُنِيْ عَبْدِيْ] ^٢.

ولا تنافي ولا تعارض في أقوال العلماء إذ إن الكل من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ملتمس، وكل منهم استدل بحديث وعمل به، وعلى المؤمن أن يكون متبعاً للأئمة ويسعى في تحصيل الخير والإكثار من الحسنات .

ويدل الحديث المتقدم على أن المواظبة على قراءة سورة (تبارك) تشفع لقارئها في القبر والحشر وعلى الصراط حتى تدخله الجنة .

وروى الترمذي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:

[صَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِبَاءَهُ عَلَى قَبْرِ وَهُوَ لَا يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) حَتَّى خَتَمَهَا، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : يَا رَسُوْلَ اللّٰهِ اِنِّيْ صَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرِ وَأَنَا لَا أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ (تَبَارَكَ) حَتَّى خَتَمَهَا فَقَالَ رَسُوْلُ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هِيَ الْمَانِعَةُ هِيَ الْمُنْجِيَةُ تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ] ^٣.

^١ في كتاب الصلاة

^٢ انظر سنن الدارقطني والرواية له وشعب الإيمان للبيهقي

^٣ سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

ويبين صلى الله عليه وسلم أن هذا الرجل كان مواظباً على تلاوتها كل ليلة فأكرمه الله بقراءتها بعد وفاته في قبره، وهذا يدل على أن المؤمن الذي كان في الدنيا يتلذذ ويتنعم بعبادة الله تعالى فإن الله يكرمه بذلك بعد وفاته فيظل يعبد الله في قبره متلذذاً متنعماً إما بصلاة أو بتلاوة قرآن وهكذا.

ولا تنافي بين هذا وبين ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم في قوله : [إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له]^١ فإن العمل الذي ينقطع عن ابن آدم بعد وفاته هو العمل الدنيوي التكليفي ، فلو أنه لم يكن يصلي ومات فلا يمكنه قضاء ما فاته من صلاة بعد موته، ولو أنه لم يكن قد أدى زكاة ماله فلا يمكنه تأدية زكاة ماله بعد وفاته وهكذا، وأما الأعمال التعبدية التي كان المؤمن ينعم بها فيستمر عليها ولو بعد وفاته على سبيل التلذذ والتنعم حيث لا تكلف أو مشقة.

وهناك تكاليف في برازخ الآخرة تناسب تلك العوالم البرزخية فهناك سؤال القبر حيث يكلف الميت بالجواب، وهناك تكليف الخلائق بالسجود لحضرة الله تعالى في عالم الحشر كما قال تعالى: (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يكشف ربنا عن ساقه فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً]^٢.

^١ صحيح مسلم كتاب الوصية وسنن أبي داود كتاب الوصايا وصحيح ابن حبان كتاب الجنائز عن أبي هريرة والرواية له
^٢ صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

وهناك الامتحان العلمي الإيماني للخلائق قبل مرورهم على الصراط^١ ..

ومما جاء في فضائل سورة الملك ما جاء في مسند عبد بن حميد عن
عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لرجل : ألا أُطرفك - يعني
أتحفك - بحديث تفرح به ؟ قال : بلى يا أبا عباس يرحمك الله ،
قال: اقرأ: (تبارك الذي بيده الملك) فاحفظها وعلمها أهلك وجميع ولدك
وصبيان بيتك وجيرانك ؛ فإنها المنجية ، وهي المجادلة ، تجادل
وتخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطلب إلى ربها أن ينجيه من
النار إذا كانت في جوفه ، وينجي الله بها صاحبها من عذاب القبر ،
قال ابن عباس : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [وددت أنها في
قلب كل إنسان من أمتي] .

فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يَنَامُ كل ليلة حَتَّى يَقْرَأَ:
(الم * تَنْزِيلُ) السَّجْدَةَ، وَ(تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ)^٢.

كما كان لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أوراد كثيرة قبل النوم ومن
جملتها (المسبّحات)^٣ وغيرها.

ومن العجب أن يبلغ الجهل في بعض عوام المؤمنين إلى درجة كبيرة حتى
إن أحدهم سأني مرة عن مسألة شرعية فلما أجبته قال لي :

هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حنفي المذهب أم شافعيًا ؟

^١ انظر ذلك في كتاب الإيمان بعوالم الآخرة للشيخ الإمام رضي الله عنه.

^٢ انظر السنن الكبرى للنسائي

^٣ جاء في مختصر قيام الليل للمروزي عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:
كَانَ رَسُولُ اللَّهِ لَا يَنَامُ كُلَّ لَيْلَةٍ حَتَّى يَقْرَأَ الْمُسَبِّحَاتِ، وَقَالَ: [إِنَّ فِيهِنَّ آيَةً خَيْرًا مِنْ
أَلْفِ آيَةٍ].

وليعلم كل مؤمن أن الجهل في ما يجب أن يعلم من أمور الدين بالضرورة ليس عذراً مقبولاً عند الله تعالى طالما أن المؤمن يقيم في بلاد الإسلام إلا إذا كان يقيم في بلاد الكفار وبينهم وبين المسلمين حرب قائمة ولا يمكنه أن يهاجر إلى بلاد الإسلام ليتفقه في أمر دينه، أما إذا كان يتمكن من الهجرة إلى بلاد المسلمين فالهجرة واجبة عليه عندئذ حتى يتفقه في أمور دينه.

وليعلم كل مؤمن أيضاً أن المذاهب إنما نشأت في عصر التابعين وأتباعهم إذ جعل العلماء يجتهدون في فهم نصوص الكتاب والسنة كالإمام أبي حنيفة والإمام الشافعي والإمام مالك والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنهم وعن غيرهم من العلماء ممن لم تدون كتبهم وإنما نقل العلماء بعض أقوالهم.

وقد استدل كل مجتهد من هؤلاء العلماء على دليل من الكتاب والسنة أو إجماع الأمة أو القياس أو غير ذلك من الأدلة الشرعية، ومن هنا نشأ اختلاف أقوال الفقهاء وإن كان كل منهم على حق طالما استدل بدليل شرعي .

والخلاف في الأحكام الشرعية هو أمر مقصود من المشرع الحكيم ، وذلك لأن الشريعة المحمدية شريعة واسعة لجميع الأمم على مر الزمان إلى يوم القيامة ، فهي شريعة واحدة لكنها بمنزلة شرائع لها وجوه متعددة كعين ماء تفرع منها عدة جداول ، فمن شرب من الجدول الأول فقد شرب من العين ، ومن شرب من الجدول الآخر فقد شرب من العين أيضاً وهكذا فالفقهاء كلهم على حق.

ومما يدل على أن الاختلاف في فهم النص الشرعي هو أصل في باب الاجتهاد أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال للصحابة رضي الله عنهم لما توجه لغزوة بني قريظة - وكان الوقت قبل العصر - : [لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة]^١ فانطلق الصحابة رضي الله عنهم، فمنهم من نظر في ظاهر النص ولم يصل العصر إلا لما وصل أرض بني قريظة ، ومنهم من نظر في علة النص وهي الاستعجال في السير فصلى العصر في الطريق وأسرع في سيره إلى بني قريظة فلما وصل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني قريظة بعد غروب الشمس أقرَّ كلاً من الصحابة على ما فعل ولم يخطئ أحداً ، وهذا لأن الصحابة رضي الله عنهم فهموا ذلك من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يعطي هذه المفاهيم المتعددة^٢.

إذا علمت هذا فلا تقل بعد ذلك: هل كان رسول الله حنفي المذهب أم شافعيًا أم مالكيًا؟! ولا تقل أيضاً: هل كان رسول الله وفائي الطريقة أم قادرياً أم شاذلياً؟! لأن هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم الذين جاؤوا بعد رسول الله بعدة قرون إنما رسموا لأنفسهم ولأتباعهم طريقة في العبادة استقوها من أحاديث رسول الله وعملوا بها، ويرحم الله القائل:

وكلهم من رسول الله ملتمس عرفاً من البحر أو رشفاً من الدِّيم

^١ صحيح البخاري كتاب الجمعة وصحيح مسلم كتاب الجهاد والسير
^٢ قال ابن رجب في فتح الباري ٢٧/٧: من الصحابة من تمسك بظاهر اللفظ، ورأى أنه لا ينبغي أن يصلي العصر إلا في بني قريظة، وإن فات وقتها ، وتكون هذه الصلاة مخصوصة من عموم أحاديث المواقيت بخصوص هذا ، وهو النهي عن الصلاة إلا في بني قريظة .

ومنهم من نظر إلى المعنى، وقال: لم يرد النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وإنما أراد منا تعجيل الذهاب إلى بني قريظة في بقية النهار، ولم يرد تأخير الصلاة عن وقتها، ولا غير وقت صلاة العصر في هذا اليوم ، بل هو باق على ما كان عليه في سائر الأيام

قوله تعالى: (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير) "تبارك" في اللغة على وزن "تفاعل" ويدل على التعالي والتعاضم ، وفيه معنى البركة فيكون المعنى: "تعالى الله وتعاضم وجل وعلا عن خلقه على وجه لا يتناهى ، وكثر خيره وبره سبحانه على خلقه " .

جاء في الحديث عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما قالا: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [قال الله تعالى: الكبرياء ردائي والعز إزاري، فَمَنْ نازعني شيئاً منهما عَدَّبْتُه] ^١ .

وفي رواية : [الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَدَفْتُهُ فِي النَّارِ] ^٢ .

وفي رواية: [الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعِظْمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نازَعَنِي مِنْهُمَا شَيْئًا قَصَمْتُهُ] ^٣ .

فصفة الكبرياء والعظمة ذاتية لله تعالى فله الكبرياء المطلق والعظمة التي لا تتناهى ، وينبغي على العبد أن لا يتخلى عن صفة العبودية لله وأن لا يجاوز حده وأن يعترف بالذل والافتقار للواحد القهار جل وعلا .

وليس للعبد شيء أو صفة من ذاته بل كل ما عنده من عطاء الله تعالى ومدده وفضله، فحق لله أن يتكبر، وهو سبحانه المتكبر لأن صفاته وكمالاته جل وعلا ذاتية له غير مكتسبة، وأما العبد فإن نال شيئاً من المال أو الجاه أو العلم فكل ذلك بعطاء الله تعالى ومدده فكيف يحق للعبد أن يتكبر؟!

^١ قال الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه (الهدى النبوي والإرشادات المحمدية):

قال في: (التيسير): أخرجه مسلم وأبو داود.

^٢ المسند ٧٣٣٥ وسنن أبي داود كتاب اللباس

^٣ كما في الأسماء والصفات للبيهقي

قوله تعالى: (تبارك الذي بيده الملك) أي تعالى وتعاضم في ذاته جل وعلا وكثر خيره وبره على خلقه ، ومن جملة بركاته سبحانه على خلقه أنه بيده الملك ، وأنه خلق الموت والحياة وخلق لهم ما به بقاؤهم ووجودهم من أرزاق وأقوات وهكذا.

قوله تعالى: (بيده الملك) أي التصرف في المخلوقات ، كما أنه سبحانه بيده الملكوت كما قال سبحانه: (فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء) .

أما عالم الملك فيشمل عالم الشهادة المحسوس بالحواس سمعاً أو بصرًا أو لمساً كالهواء مثلاً فالإنسان لا يرى ذات الهواء ولكنه لا ينكر وجوده، ويستدل بدليل آثاره كتحريك الأشجار وتسيير الفلك وإثارة الغبار وهكذا.

كما أنك لا تسمع صوت الهواء أو الرياح بل تسمع صوت اصطدامه بالبنيان وتحريكه للأشجار ومروره بين تضاريس الجبال وهكذا ..

وإن المتصرف في هذه المخلوقات والمملوكات والمدبر لشؤونها على مقتضى العلم والحكمة هو الله تعالى الذي بيده الملك .

وإن قوله تعالى: (بيده الملك) ولم تأت الآية " الملك بيده" لأن في هذا التقديم معنى التخصيص والحصر ليبين جل وعلا أنه لا أحد يقدر على التصرف في تلك العوالم والمخلوقات إلا الله وحده، أما ملكوت الأشياء فهو السر القائم بها فجسم الإنسان مثلاً يعود إلى عالم الملك ، وأما روحه فتتبع عالم الملكوت، والملك والملكوت بيد الله تعالى.

ومادام ملكك وملكوتك أي جسمك وروحك بيد الله تعالى وتحت تصرفه فمالك تتكبر وتعصي أمره تبارك وتعالى والحال أنك في قبضته ومالك من أمرك من شيء؟!

ولذلك قال تعالى: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم) أي يختبركم

(أيكم أحسن عملاً وهو العزيز الغفور) .

فالمقصود من خلق الإنسان وحياته وموته اختباره وامتحانه بالتكاليف الشرعية التي اقتضاها الله تعالى لمصلحة وسعادة عباده.

فقوله تعالى: (ليبلوكم) يعني ليختبركم بما كلفكم به من الأمر و النهي (أيكم أحسن عملاً) أي أصلح عملاً مع الله تعالى.

وقد يتبادر الى ذهن الإنسان أننا بشر وقد تصدر منا الذنوب وقد نقصر في بعض الأعمال فما هو حالنا عندئذ؟

وأجاب سبحانه عن ذلك بقوله: (وهو العزيز الغفور) لمن تاب إليه واستغفره جل وعلا.

ولما ذكر سبحانه في أول هذه السورة الموت والحياة ذكر في آخرها السبب الأعظم الذي تتوقف عليه حياة الإنسان الدنيوية وهو الماء فقال تعالى: (قل رأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين) .

ومن واظب على قراءة السورة تمثلت قراءته لهذه السورة وروحانياتها يوم القيامة وشفعت لقارئها حتى يدخله الله الجنة ، اللهم اجعلنا من أهل الجنة .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم دائماً أبداً والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الرابع عشر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في الحث على سور وآيات مخصوصة:

وعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله: [يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: (الله لا إله إلا هو الحي القيوم)، فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر]. رواه مسلم. اهـ

وفي رواية لمسلم عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله: [يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قلت: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}.

قال: فضرب في صدري وقال: ليهنك العلم أبا المنذر^١.

ولقد كان أبي بن كعب رضي الله عنه حافظاً لكتاب الله تعالى ولهذا قال له الرسول صلى الله عليه وسلم:

[أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟].

ومعنى أن فلاناً يحفظ كتاب الله تعالى أو يحفظ القرآن أي أنه يقرؤه عن ظهر قلب وأن سور القرآن وآياته محفوظة في قلبه وصدرة، وليس معنى "فلان يحفظ القرآن" أي يحفظه عن التغيير والتبديل والزيادة والنقصان فإن هذا قد تكفل به الله تعالى بقوله جل وعلا: (إننا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون) أي لحافظون له عن التغيير والزيادة والتحريف على مر الزمان إلى قيام الساعة.

^١ انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

وقد جاء في فضل حفظ القرآن الكريم -أي قراءته عن ظهر قلب- أحاديث كثيرة منها قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

[مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَاسْتَضَمَّهُ] - أي قرأه عن ظهر قلب -
[فَأَحَلَّ حَلَالَهُ وَحَرَّمَ حَرَامَهُ أَدْخَلَهُ اللَّهُ بِهِ الْجَنَّةَ وَشَفَّعَهُ فِي عَشْرَةِ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ كُلُّهُمْ قَدْ وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ]^١.

فإذا كان حامل القرآن يشفع في عشرة من أهل بيته وجبت لهم النار فما أعظم مقامه وفضله وثوابه!

قول أبي بن كعب رضي الله عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[أي آية من كتاب الله معك أعظم]؟ قوله : الله ورسوله أعلم.

فاعلم أنه قد اتفقت كلمة الصحابة رضي الله عنهم على ذلك لما يسألهم رسول الله عن أمر وإن كان الجواب حسب الظاهر معروفاً عندهم إلا أنهم يقولون : " الله ورسوله أعلم " وذلك حتى ينالوا من رسول الله الجواب الحالي أو القالي لأن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد يكون عتَى من سؤاله شيئاً مخصوصاً.

ومن ذلك ما ورد في الحديث عَنْ أَبِي بَكْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

خَطَبَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ النَّحْرِ قَالَ: أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ: أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ فَقَالَ: أَلَيْسَ ذُو الْحِجَّةِ؟ قُلْنَا: بَلَى، قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟ قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَسَكَتَ حَتَّى ظَنَنَّا أَنَّهُ سَيُسَمِّيهِ بِغَيْرِ اسْمِهِ قَالَ: أَلَيْسَتْ بِالْبَلَدَةِ الْحَرَامِ؟ قُلْنَا: بَلَى [... الحديث.

^١ سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

^٢ انظر صحيح البخاري كتاب الحج

مع أنهم يعرفون اسم اليوم والشهر والبلدة إلا أن أدب الصحابة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يحملهم على عدم المسارعة إلى الجواب من جهة، ومن جهة أخرى فهم يعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يريد من سؤالهم أن يعلمهم ويلفت أفكارهم إلى أمر يجهلونه، ولو كان سؤال الرسول صلى الله عليه وسلم لهم على ظاهره المعروف عندهم لما سألهم ، ولكن لما سألهم دل على أن هناك شيئاً وراء ما يعرفونه لذلك كانوا يقولون: "الله ورسوله أعلم".

وكل ذلك يدل على أدب الصحابة مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى فطانتهم وحرصهم على تلقي العلوم والمعارف منه صلى الله عليه وسلم.

فلما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أبي بن كعب رضي الله عنه : [أي آية من كتاب الله معك أعظم]؟ قال :قلت: الله ورسوله أعلم، وانتظر الجواب الحالي من رسول الله أي استفاض واستمد الجواب من سيدنا رسول الله فأفاض عليه صلى الله عليه وسلم الجواب، فلما سأله صلى الله عليه وسلم في المرة الثانية قال: (الله لا اله الا هو الحي القيوم) فأجاب أبي بن كعب رضي الله عنه بالجواب الحالي بعد أن أفاض الرسول عليه بالجواب الحالي.

قوله رضي الله عنه : "الله ورسوله أعلم" كلمة "أعلم" من صيغ أفعال التفضيل، ويستوي فيها المفرد والمثنى والجمع كما هو في قواعد اللغة.

وليس قول الصحابة: "الله ورسوله أعلم" يدل على التسوية في العلم بين الله ورسوله وأن علم الرسول صلى الله عليه وسلم كعلم الله تعالى ، وإنما هذا من باب أن علم رسول الله صلى الله عليه وسلم هو من عند الله تعالى ، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو أعلم الخلق بالله تعالى ، وهو الناطق عن الله جل وعلا ، وهو المبلغ عن الله تعالى ما أوحاه إليه وأمره بتبليغه، قال تعالى:(وما ينطق عن الهوى *إن هو إلا وحي يوحى)

فالرسول صلى الله عليه وسلم هو الناطق عن الله تعالى لا عن هوى نفسه، مع أنه صلى الله عليه وسلم السيد المعصوم بعصمة الله تعالى، وهو السفير عن الله تعالى أي الذي يُسفر ويبيّن ما أراد الله أن يبينه لعباده، وقد قال تعالى في الملائكة: (بأيدي سفرة * كرام بررة).

قول أبي بن كعب رضي الله عنه : [فضرب في صدري] أي مسح صدري ملاطفاً مباركاً، ولم يقل: "ضرب صدري" فافهم .

وقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: [ليهنك العلم أبا المنذر] ^١ أي اهناً بهذا العلم يا أبا المنذر .

واعلم ان لمسحات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أثرها وفضائلها، فلما شكّا جرير بن عبد الله البجلي رضي الله عنه شكّا للنبي صلى الله عليه وسلم أنه لا يثبت على الخيل فمسح رسول الله على صدر جرير فصار جرير بعد ذلك خيلاً ^٢.

واعلم أيها المؤمن أن الدنيا وما فيها إنما هي لهو ولعب كما وصفها سبحانه بقوله: (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم) فمن اتخذها مطية إلى الآخرة وجعل عمله في الدنيا عملاً مشروعاً مرضياً عند الله ورسوله يكون بذلك قد امتثل أمر الله تعالى فجعل دنياه لآخرته وجعل آخرته لربه فصارت دنياه وآخرته لربه جل وعلا.

^١ جاء في القاموس المحيط: هنأه قال له: ليهنئك، وفي هذا دليل على أن العلم النافع هو أحق ما يهنأ به الانسان وأما أن تُهنئ الإنسان على نعم دنيوية فيكون ذلك بالتبعية، وإنما الأصل في ذلك أن يُهنأ على العلوم الشرعية النافعة، ولا يعرف قيمة الشيء وفضله إلا من تعقل وتفكر وتدبر.

^٢ انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير وفيه قول جرير رضي الله عنه: [مَا حَجَبَنِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْذُ أَسْلَمْتُ وَلَا رَأَيْتُ إِلَّا تَبَسَّمَ فِي وَجْهِهِ وَلَقَدْ شَكَوْتُ إِلَيْهِ إِنِّي لَا أَثْبُتُ عَلَى الْخَيْلِ فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي وَقَالَ: اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ وَاجْعَلْهُ هَادِيًا مَهْدِيًّا].

ولا يحصل هذا بالكلام فقط للمؤمن، وإنما لا بد لمن يريد التحقق به أن يجعل أكله وشربه عوناً له على طاعة الله تعالى، ويجعل نومه ليستريح من تعب الدنيا ويعطي جسمه حقه حتى يقوى وينشط في طاعة الله تعالى، وأن يكون عمله وتجارته امتثالاً لأوامر الله تعالى الذي قال: (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) كي يسعى لسد حاجاته وحاجات عياله ويقوم بحق الله في ماله وهو الزكاة والصدقات وأعمال الخير المتنوعة، وإذا لبس الثياب كان لباسه ستراً لعورته وتجبلاً وتكماً، لا تفاخراً ولا تكبراً.

وهكذا فمن راقب جميع ذلك في حياته الدنيا كانت دنياه لآخرته وكان ممن شمله قول الله تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً) أي لأنهم يخافون يوماً (تتقلب فيه القلوب و الأبصار * ليجزيهم الله أحسن مما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير حساب).

وقد دل قول الرسول صلى الله عليه وسلم: [ليهنك العلم أبا المنذر] دل على أن هناك علماً ينبغي أن يهنا به صاحبه وهو العلم بالقرآن وبخصائص وفضائل سور وآيات القرآن.

وآية الكرسي هي آية العظمة الإلهية لما اشتملت عليه من أسماء إلهية، ولقد قال بعضهم رضي الله عنه: " إن في آية الكرسي واحداً وعشرين اسماً من الأسماء الإلهية ما بين اسم ظاهر واسم مضمّر واسم مقدر" ^١.

وهي مصدرة باسمين عظيمين جاء في فضلها أنها الاسم الأعظم وهما (الحي القيوم) ^٢.

١ قال الزركشي في (البرهان) ٢٤/٤ : " وَقَدْ قِيلَ: فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ اسْمًا مَا بَيْنَ ضَمِيرٍ وَظَاهِرٍ".

٢ كما في سنن أبي داود كتاب الصلاة عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ يَزِيدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " اسْمُ اللَّهِ الْأَعْظَمُ فِي هَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ { وَاللَّهُمَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ } وَفَاتِحَةِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ { الم * اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ }

وقد جاء في بيان الاسم الأعظم عدة أحاديث منها أنه " الحي القيوم " ومنها " الرحمن الرحيم " ومنها " الحنان والمنان " ١

وقد سمي بالأعظم بمعنى أنه الجامع فيشتمل عدة أسماء ، فاسم الحي مثلاً يدخل في دائرته جميع أسماء الذات الإلهية، واسم القيوم يدخل في دائرته جميع أسماء الأفعال أي صفات الأفعال.

وقد تطلق الكلمة ويراد بها كلمات، وقد يطلق الاسم ويراد به أسماء كما هو الحال في اللغة العربية ، قال ابن مالك رحمه الله : " وكلمة بها كلام قد يُؤمّ " فلا يلتبس عليك فهم أن الاسم الأعظم يشمل عدة أسماء إلهية يطلق على جملتها الاسم الأعظم.

واعلم أيها المؤمن أن مفاتيح فهم القرآن الكريم وعلومه إنما تُلتمس عند سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أنزل الله عليه القرآن وبيانه، قال تعالى: (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم) ، وقد آتاه الله تعالى مفاتيح الخزائن كلها، قال صلى الله عليه وسلم: [إِيَّيَّ قَدْ أُوتِيَتْ مَفَاتِيحُ خَزَائِنِ الدُّنْيَا وَالْخُلْدِ فِيهَا ثُمَّ الْجَنَّةُ] ٢ فالفهم من عند الله تعالى، والقاسم للفهم هو رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال: [إنما أنا قاسم والله يعطي] ٣.

١ كما في مسند الإمام أحمد عن أنس قال : كُنْتُ جَالِسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَلْقَةِ وَرَجُلٌ قَائِمٌ يُصَلِّي فَلَمَّا رَكَعَ وَسَجَدَ جَلَسَ وَتَشَهَّدَ ثُمَّ دَعَا فَقَالَ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الْحَنَّانُ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ إِنِّي أَسْأَلُكَ " فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [أَتَدْرُونَ بِمَ دَعَا ؟] قَالُوا : اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ ، قَالَ : [وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ دَعَا اللَّهَ بِاسْمِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ] .
وفيه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ : " اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ وَحَدَّكَ لَا شَرِيكَ لَكَ الْمَنَّانُ بَدِيعَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ " فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [لَقَدْ سَأَلْتَ اللَّهَ بِاسْمِ اللَّهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أُعْطِيَ] .

٢ المسند ١٥٤٢٥

٣ صحيح البخاري كتاب العلم والرواية له وصحيح مسلم كتاب الزكاة

وروى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي جحيفة رحمه الله قال:
"قلت لعلي رضي الله عنه: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب
الله؟"

- وفي رواية: هل عندكم من النبي صلى الله عليه وسلم شيء سوى
القرآن؟ - ١

قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلاً
في القرآن". ٢

فقد نال أهل البيت فهماً في كتاب الله تعالى فوق فهم عامة الناس كل
ذلك ببركة صاحب العباء صلى الله عليه وسلم الذي يقسم الخيرات
والعطاء الأكبر على عباد الله تعالى ، فهو سبحانه الفتاح والوهاب
والمعطي ، وأما القاسم على خلق الله فهو سيدنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم على حسب تعاليم الله له.

وقد جاء في فضل قراءة آية الكرسي أحاديث متعددة منها: قراءتها وراء كل
صلاة وعند النوم. ٣

١ السنن الكبرى للبيهقي

٢ كتاب الجهاد والسير

٣ كما في الحديث [من قرأ آية الكرسي دُبُر كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا
أن يموت]. قال الإمام السيوطي في اللآلئ: أَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ وَابْنُ حَبَانَ فِي صَحِيحِهِ،
وَابْنُ السِّنِيِّ فِي عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ، وَصَحَّحَهُ أَيْضًا الضَّيَاءُ الْمَقْدِسِيُّ فِي الْمَخْتَارَةِ .
وأما قراءتها قبل النوم فدليلها ما جاء في صحيح البخاري كتاب الوكالة عن أبي
هريرة رضي الله عنه لما وكله رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه آت فجعل
يحثو من الطعام، فأخذه وقال : والله لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم، قال: إني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة، ثم قال لأبي هريرة : دعني
أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قال رضي الله عنه :قلت ما هو؟ قال: إذا أويت إلى
فراشك، فاقراً آية الكرسي: {الله لا إله إلا هو الحي القيوم}. حتى تختتم الآية، فإنك
لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح ، فقال النبي صلى
الله عليه وسلم لأبي هريرة رضي الله عنه لما حكى له ذلك : [أما إنه قد صدقك
وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة]؟. قال: لا، قال: [ذاك
شيطان] أي تمثل بصورة إنسان محتاج إلى الطعام .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على معلم الناس الخير وجزاه عنا كل
الخير، صلى الله عليه وسلم كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون
والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الخامس عشر

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب في الحث على سور وآيات مخصوصة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [بينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه، فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم، لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته] رواه مسلم^١.

جاء هذا الحديث في سياق ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في فضائل بعض سور القرآن الكريم.

قوله رضي الله عنه " سمع نقيضاً من فوقه ": أي سمع صوتاً من السماء، وهو صوت الباب الذي فتح من السماء، وقد سمع ذلك جبريل عليه السلام وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ومما يدل عليه الحديث أن للسماء أبواباً لا ثقة بها، والباب هو ما يتوصل به إلى شيء آخر.

^١ في صحيحه كتاب صلاة المسافرين

وقد نزل الملك من السماء بأمر من الله تعالى، لأن الملائكة أمريون لا يفعلون شيئاً إلا بأمر الله تعالى، قال تعالى مخبراً عن جبريل عليه السلام: (وما ننزل إلا بأمر ربك) وقال سبحانه في حق الملائكة عليهم السلام: (ويفعلون ما يؤمرون) ولذلك لا يتصور منهم فعل المناهي لأن فعل المناهي من قبل الملك يحتاج إلى أمر من الله تعالى له، والله تعالى لا يأمر بالفحشاء، كما قال سبحانه: (قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) ومن ذلك تعلم أن الملائكة الكرام معصومون بعصمة من الله تعالى عن فعل الخطأ والمناهي.

وإن ما يذكره بعضهم في حق الملائكة عليهم السلام من فعل المخالفات فهو كذب وافتراء لا صحة له ولا دليل عليه.

إن الذي نزل بالقرآن نصاً على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو جبريل عليه السلام الذي كان ينزل بالآيات القرآنية على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين) .

وأما خصائص بعض السور والآيات وفضائلها فقد ينزل بذلك بعض الملائكة غير جبريل عليه السلام كما في الحديث المتقدم ذكره أن ملكاً نزل في بيان بعض خصائص سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، مع أن الذي نزل بهما نصاً على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو جبريل عليه السلام.

وإن هذا الباب من السماء لم يفتح إلا في ذلك اليوم، ولم ينزل ذلك الملك إلى الأرض إلا في ذلك اليوم، وذلك من أجل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تكرامة وبشرى.

قوله عليه السلام: "أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة" أي فقد خص بهما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم دون غيره من النبيين عليهم الصلاة والسلام وذلك بما فيهما من الأسرار والأنوار والخصائص والفضائل.

قوله عليه السلام: " لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته " إما أن المراد بالحرف الحرف الهجائي المعروف الذي تتركب منه الكلمة، ويكون معنى "إلا أعطيته" أي أعطاك تعالى أجره مضاعفاً بنوره الكامل، وهذه المضاعفة تكون لكل قارئ ولو عن قلب غافل، وهذا خاص بهذه الآيات. وإن أقل حد لمضاعفة حسنات قارئ القرآن هو عشر حسنات لكل حرف يقرؤه، ويضاعف الله تعالى لمن شاء على حسب حال القارئ وخشوعه وتدبره لمعاني آيات الله تعالى.

أو أن المراد من قوله "إلا أعطيته" أي أعطيت الشيء الذي قصدته من تلاوتك سورة الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، فيحقق الله تعالى للقارئ لهما ما نواه من قراءته ويعطيه ما قرأه من أجله.

وهذا يدل على مشروعية قراءة الفاتحة وخواتيم البقرة، أو سورة الفاتحة فقط لمن كانت له حاجة ونوى بقراءته للفاتحة قضاء حوائجه أو حصول مراده، وهذا قوله عليه السلام: "إلا أعطيته" أي أعطيت ما أردته من قراءتك.

وإذا قيل: إنه يجب قراءة القرآن خالصاً في عبادة الله تعالى راجياً ثواب قراءته فقط.

فيقال: إن الاستعانة بعبادة الله تعالى - وتلاوة القرآن الكريم من جملة العبادات - على قضاء الحوائج وتيسير المهمات أمر مشروع ثبت في الكتاب والسنة، وقد قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين) وقد اشتملت الصلاة على تلاوة الفاتحة وشيء من القرآن الكريم وعلى التكبير والتسبيح والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء.

وقد ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أحاديث شريفة تبين فضل بعض السور والآيات القرآنية وخصائصها في قضاء الحاجات وكشف الهموم وتيسير الأرزاق.

ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: [من قرأ في كل ليلة (إذا وقعت الواقعة) لم تصبه فاقة أبداً]^١ والفاقة هي الفقر والحاجة.

وكذلك ما رواه أبو داود^٢ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال:

[من قال إذا أصبح وإذا أمسى (حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) سبع مرات كفاه الله ما أهمه، صادقاً كان بها أو كاذباً].

وفي هذا كله استعانة بتلاوة القرآن الكريم -الذي هو من جملة عبادة الله تعالى- على قضاء الحوائج الدنيوية، ولا يمنع ذلك نيل الثواب والأجر العظيم عند الله تعالى.

وجاء في الحديث أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أهّمّه أمر بادر إلى الصلاة- أي صلاة النافلة- طالباً من الله تعالى تفريج ذلك الأمر.

فقد روى أبو داود عن حذيفة رضي الله عنه قال:

[كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حَزَبَهُ أمر صلى]^٣.

وورد أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

[قم يا بلال فأرحنا بالصلاة]^٤.

وقد تكفل الله تعالى بإجابة الدعاء الذي في آخر سورة البقرة..

^١ رواه الإمام أحمد في فضائل الصحابة والبيهقي في الشعب

^٢ في سننه كتاب الأدب.

^٣ في سننه كتاب الصلاة.

^٤ في سننه كتاب الأدب.

فقد روى مسلم^١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

[لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) قال: اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم بركوا على الرُّكْب فقالوا -أي لرسول الله صلى الله عليه وسلم -: "كُلفنا من الأعمال ما نطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها".

فقال صلى الله عليه وسلم: [أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قالوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما اقترأها القوم ذلت بها ألسنتهم^٢، فأنزل الله في إثرها (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير).

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى، فأنزل الله عز وجل (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال- أي الله تعالى-: نعم.

(ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) قال: نعم.

(ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) قال: نعم. اهـ

ومعنى [نعم]: يعني أجبتك جواباً ونعم الجواب جوابي.

وهذا من عظيم فضل الله تعالى على أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تكرمه له صلى الله عليه وسلم.

^١ في صحيحه كتاب الايمان

^٢ أي انقادت بالاستسلام لها

أما خواتيم سورة البقرة فأكثر العلماء على أنها آخر ثلاث آيات منها، أي من قوله تعالى: (لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير) إلى تمام السورة.

وقد جاء في بعض الأحاديث عنه صلى الله عليه وسلم فضل آخر آيتين من سورة البقرة، وكلمة خواتيم تدل على الجمع، وقد يراد من ذلك خواتيم كلمات سورة البقرة أو خواتيم جملها .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يُقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان] ^١.

قوله تعالى: (وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) وهي أعمال القلب والنيات والهمم والعزائم القلبية، فإن أباها الإنسان أو أخفاها في نفسه فإن الله تعالى يعلمها على حد سواء، ولا يغيب عنه شيء سبحانه، ويوم القيامة يحاسبكم سبحانه على ما أخفيتم وما أعلنتم.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل قال:

[إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيّن ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له عنده عشر حسنات إلى سبع مائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، ومن هم بسيئة فلم يعملها] - أي لم يعملها خوفاً من الله تعالى - [كتبها الله له عنده حسنة كاملة] - ولكنه إذا لم يعملها لمانع أو عجز منه فعليه عندئذ وزر نيته وهمته، لأنه لم يمتنع عن فعلها خوفاً من الله تعالى، بل لمانع حال بينه وبين فعلها أو عجز وهكذا - [فإن هو همّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة] ^٢.

^١ في سننه كتاب فضائل القرآن .

^٢ رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في صحيحه كتاب الرقاق

قوله تعالى: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) وفي هذا تلقين من الله تعالى لعباده أصول الإيمان وأركانه.

قوله تعالى: (لا نفرق بين أحد من رسله) أي من حيث الإيمان، فنؤمن بأنهم كلهم رسل الله تعالى، أما من حيث الفضل فقد قال جل وعلا: (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) وأفضلهم وأكرمهم على الله تعالى هو سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم^١، ويليه أولو العزم من الرسل وهكذا...

قوله تعالى في تعليم المؤمنين وبيان موقفهم مع ما جاءهم من أوامر الله تعالى أن يقولوا (سمعنا وأطعنا) أي سمعنا سماع قبول وانقياد، وأطعنا لما سمعنا، فإن كان ما سمعنا أمراً ائتمرنا به، وإن كان نهياً انتهينا عنه، فحققنا ما سمعناه.

قوله تعالى: (غفرانك ربنا وإليك المصير) أي نسألك مغفرتك، والمعنى: أنه يا رب وإن كنا نسمع كلامك ونطيع أوامرك، فإننا نسألك المغفرة لأن أعمالنا لا تخلو من تقصير وغفلة فنحن نحتاج إلى مغفرة من عندك، وهذا معنى (غفرانك) أي حتى تجبر كسرنا وتتلافى تقصيرنا لأن مصيرنا إليك فأحسن نُزّلنا لديك.

^١ جاء في مسند الإمام أحمد قوله صلى الله عليه وسلم: [أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنَسَّقُ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِيَوَاءَ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، آدَمُ فَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِيَوَائِي وَلَا فَخْرَ].

قوله تعالى (لا يكف الله نفساً إلا وسعها) وقد ذكر سبحانه هذا بعد أن بين أصول الإيمان والأعمال بقوله جل وعلا مخبراً عن المؤمنين قولهم: (سمعنا وأطعنا) فنبه جل وعلا إلى أنه لم يكف العباد إلا بما تطيقه عقولهم وأجسامهم، فلم يكف العاقل أن يعتقد شيئاً فيه مناقضة صريحة للعقل السليم، فلم يكلفك مثلاً أن تعتقد أن الواحد هو ثلاثة والثلاثة هم واحد، بل جاءت التكاليف الشرعية الاعتقادية والعملية تناسب ما أعطى الله تعالى الإنسان من عقل ومدارك وقوة بدنية.

ومن ادعى مناقضة الشريعة للعقول دل ذلك على نقص في عقله وفهمه، لأن الله تعالى الذي خلق الخلق وهو أعلم بهم وبما يصلحهم ويسعدهم شرع لهم شرعاً مناسباً موافقاً لما خلقهم عليه ولما أمدهم به من عقل وفهم وقوة وسمع وبصر.

وقد يعجز العقل عن الإدراك والإحاطة ببعض قضايا الإيمان، وخاصة ما يتعلق بذات الله تعالى وكمالاته وصفاته، لكنه لا ينكرها بل لا يسعه إنكارها، وهذا كالبصير الذي يبصر نور الشمس ولا يستطيع ببصره إدراك حقيقتها أو الإحاطة بها ولكنه لا ينكرها.

ومن هذا - والله المثل الأعلى - يتبين لك الفرق الكبير بين رؤية الشيء والإحاطة به، وبين المعرفة والعلم بالشيء وبين إدراكه والإحاطة به، فقضايا الإيمان أمور معقولة مقبولة لدى العقل السليم لكنه لا يستطيع إدراك حقيقتها والإحاطة بها علماً ومع ذلك لا يمكنه إنكارها، وإلا لأنكر نور الشمس لأنه لم يستطع الإحاطة بها وإدراك حقيقتها، قال الله تعالى: (ولا يحيطون به علماً) جل وعلا.

ولم يكف سبحانه العباد من الأعمال إلا بما يطيقون كالصلاة والصيام والزكاة والحج...

ولو أن طاقة العبد نقصت وقوته ضعفت بسبب مرضه أو هرمه فإن التكليف يأتي مناسباً حاله فيصلي قاعداً مثلاً إذا لم يستطع الوقوف، ويدفع الفدية إذا لم يستطع الصيام وهكذا فلا تكليف فوق الطاقة.

وإن الله تعالى لا ينقص أجر العبد فضلاً منه سبحانه وكرماً كما في الحديث الذي رواه البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول صلى الله وسلم: [إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيماً صحيحاً]^١.

قوله تعالى: (لها ما كسبت)- أي من الخير- (وعليها ما اكتسبت) أي من الشر.

قوله تعالى: (كسبت) أي في أمور الخير، و(اكتسبت) في أمور الشر ليبين جل وعلا أن فعل الشرور يحتاج إلى تكلف من النفس وإلى تجرئتها بخلاف أفعال الخير التي فطرت النفس على فعلها، وزيادة المبنى تدل على زيادة المعنى، فوزن (كسبت): فعلت، ووزن (اكتسبت): افتعلت.

قوله تعالى: (ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا). (إصراً): أي تكليفاً شاقاً، وقد ألزم ذلك سبحانه الأمم السابقة بسبب مخالفتهم، قال تعالى: (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً).

قوله تعالى: (واعف عنا)- أي اصفح عنا صفحاً- (واغفر لنا)- أي استرنا سترأ (وارحمنا)- أي اجلب لنا خيراً لأن العفو هو الصفح وترك المعاقبة، والغفر هو الستر فلا يفضحك على ذنوبك، والرحمة بجلب الخير لك.

(أنت مولانا) سيدنا وخالقنا ونحن عبيدك .

(فانصرنا على القوم الكافرين) . آمين .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

^١ صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس عشر

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب فضل المشي إلى المساجد :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: [إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى علي صلاة صلى الله عليه بها عشراً، ثم سلوا الله لي الوسيلة فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلت له الشفاعة]. رواه مسلم^١

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول المؤذن]. متفق عليه^٢

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [من قال حين يسمع النداء: "اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاماً محموداً الذي وعدته" حلت له شفاعتي يوم القيامة]. رواه البخاري^٣

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: [من قال حين يسمع المؤذن: " أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً، غفر له ذنبه]. رواه مسلم^٤

^١ في صحيحه كتاب الصلاة

^٢ انظر صحيح البخاري كتاب الأذان وصحيح مسلم كتاب الصلاة

^٣ في صحيحه كتاب الأذان

^٤ في صحيحه كتاب الصلاة

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [الدعاء لا يرد بين الأذان والإقامة].

رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن^١.

قوله صلى الله عليه وسلم: [إذا سمعتم النداء] أي النداء إلى الصلاة [فقولوا مثل ما يقول] أي مثل ما يقول المنادي من الأذان.

وقد قال الله تعالى: (وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزواً ولعباً ذلك بأنهم قوم لا يعقلون) وهم المشركون وكفار أهل الكتاب.

والأذان هو نداء إلى الصلاة، وفيه يقول المؤذن: "حي على الصلاة" أي أقبل إلى الصلاة، والأذان أيضاً إعلان بدخول وقت الصلاة.

وإن المؤذن ينادي العباد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، يناديهم إلى الصلاة كما أنه مكلف بالصلاة أيضاً، فهو لا ينادي من تلقاء نفسه بل ينادي مُبَلَّغاً عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما ينادي عن أمر الله تعالى، لأنه أيضاً مأمور بالصلاة، فالمنادي على الحقيقة إلى الصلاة وقت دخولها هو الله تعالى، وإنما بَلَّغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله تعالى، وبَلَّغ المؤذن عملاً بأمر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

واعلم أن الأذان المسجَّل لا يقوم مقام الأذان لكل صلاة، لأن الأذان لا تقتصر سنته على الإعلان بدخول وقت الصلاة فقط، وإنما هو عمل سنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للنداء إلى الصلاة بألفاظ معينة، وإذا لم يؤذن مؤذن في حي من الأحياء فقد وقع أهل ذلك الحي كلهم في الإثم، لأن الأذان لكل صلاة عمل تعبدي مشروع سنَّه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

^١ سنن أبي داود والترمذي كلاهما في كتاب الصلاة

وإن الأحاديث المتقدمة تدل على فضل الأذان، وتبين آداب الاستماع إلى الأذان، وما يترتب على سماع الأذان من واجبات، ومما يؤكد أهمية ذلك حرص الصحابة الكرام على تبليغ ما سمعوه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حول ما يتعلق بالأذان وآداب الاستماع إليه.

قوله صلى الله عليه وسلم: [إذا سمعتم النداء فقولوا مثل ما يقول]-أي المنادي- [ثم صلوا علي] فينبغي على المؤمن أن يفرغ نفسه لدى الأذان ليصغي إليه ويردد ما يقول المؤذن عند سككات المؤذن أثناء أذانه.

وينبغي على مستمع الأذان عند سماعه "حي على الصلاة" أن يقول: حي على الصلاة لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي).

وعند سماعه "حي على الفلاح" أن يقول: حي على الفلاح، لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وورد في الحديث أن يقول المستمع [اللهم اجعلنا مفلحين] كما رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة.

قوله صلى الله عليه وسلم [ثم صلوا علي] ويحمل هذا الأمر على السنة المؤكدة، وقال بعضهم: بل على الوجوب كما هو ظاهره.

فينبغي بعد إجابة المؤذن أن يصلي المؤمن على النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا من جملة حقوقه صلى الله عليه وسلم على كل مؤمن، لأن الدعاء بعد الأذان مجاب، فكانت الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم هي خير دعاء للمؤمن وخير ما يفتح به الدعاء.

[ثم سلوا الله لي الوسيلة] أي ادعوا الله تعالى بدعاء الوسيلة التي هي أعلى منزلة في الجنة، بحيث إن جميع أهل الجنة يستمدون منها، وهي لا تنبغي إلا لعبد واحد، وهو سيد العباد وإمام العباد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال: [وأرجو أن أكون أنا هو] ولا شك أن رجاءه صلى الله عليه وسلم محقق، لكنه صلى الله عليه وسلم قال هذا تواضعاً لرب العالمين.

ومعنى الوسيلة الواسطة، ولما كان صلى الله عليه وسلم هو صاحب الوسيلة كان كل خير يناله أهل الجنة إنما هو بواسطته صلى الله عليه وسلم.

وإذا كانت خيرات الجنة على اختلاف ألوانها تنزل على أهل الجنة بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما بالك بخيرات الدنيا وما فيها والتي لا تعد شيئاً بالنسبة لخير الجنة التي لأدنى أهلها منزلةً قدر الدنيا وعشر أمثالها؟!!

روى الإمام مسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [سأل موسى ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة فيقال له: ادخل الجنة.

فيقول: أي رب، كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟!.

فيقال له: أترضى أن يكون لك مثل مُلِكٍ من ملوك الدنيا؟

فيقول: رضيت يا رب.

فيقول: لك ذلك، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله.

فقال في الخامسة: رضيت رب.

فيقول: هذا لك وعشرة أمثاله، ولك ما اشتئت نفسك ولذت عينك.

فيقول: رضيت رب.

قال: رب فأعلاهم منزلة؟

قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي وختمت عليها فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) ^١.

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان

فهو صلى الله عليه وسلم الواسطة الكبرى في الخيرات الإلهية للعالمين في جميع العالمين.

قوله صلى الله عليه وسلم [فمن سأل الله لي الوسيلة حلت له الشفاعة] أي ثبتت له شفاعتي يوم القيامة، وهي شفاعته خاصة لمن دعا بدعاء الوسيلة وراء الأذان، أما الشفاعة العامة فتعم جميع المؤمنين وتعم جميع أهل الموقف حتى الكفار، إذا كشف الله تعالى التجلي الإلهي بالغضب فينفض أمر أهل الموقف إلى الحساب ببركة شفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وتأتي الشفاعة الخاصة على ما تبقى من ذنوب العبد فتغفر له ويدخل الجنة، وأما من غفرت ذنوبه بالشفاعة العامة فيكون نصيبه من الشفاعة الخاصة أن يترقى مقامه في الجنة وترتفع درجته.

وقد تقدم ذكر دعاء الوسيلة كما جاء في رواية البخاري وغيره ، وزاد البيهقي في آخره [إنك لا تخلف الميعاد^١].

وينبغي أن يذكر المؤمن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بألفاظ السيادة والتعظيم فيقول: [آت سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم الوسيلة والفضيلة] لأن ذلك من جملة تعظيمه صلى الله عليه وسلم الواجب على كل مؤمن، لقوله تعالى: (وتعزروه وتوقروه) أي تعظموه وتجلوه صلى الله عليه وسلم.

والدعوة التامة في الحديث هي الأذان، والصلاة القائمة هي الصلاة التي تمتثل أمر الله تعالى وتقوم إليها.

قوله صلى الله عليه وسلم: [والفضيلة] هي ظهور رفعة درجته صلى الله عليه وسلم على كل الدرجات التي رفع الله تعالى إليها النبيين من قبله، وعلو فضله صلى الله عليه وسلم على جميع النبيين.

والمقام المحمود هو مقام الشفاعة العظمى الذي تحمده عليه الخلائق كلها.

^١ في كتابه الدعوات الكبير

ولقد كان الصحابة الكرام رضوان الله عليهم يتحینون وقت الأذان للدعاء لأنه وقت إجابة لقول النبي صلى الله عليه وسلم:

[إذا تُوب بالصلاة فتحت أبواب السماء واستجيب الدعاء]^١.

فائدة:

من الناس من يتكاسل عن أداء السنن القولية أو العملية الواردة عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويدّعي أنها من السنن التي يستحب على الإنسان فعلها وأنها ليست هي من باب الواجبات والفرائض.

فيقال لهؤلاء: إن في أداء السنن اتباعاً لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال الله تعالى: (واتبعوه لعلكم تهتدون) فقد أمر الله تعالى باتباع النبي صلى الله عليه وسلم اتباعاً كلياً في كل ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم، وإن أفعاله صلى الله عليه وسلم وإخباراته وأدعيته وأذكاره المباركة إنما هي بوحى الله تعالى وتعليمه له صلى الله عليه وسلم، ويترتب على فعلها خير كثير وفوائد جمّة في الدنيا وفي الآخرة، ولا غنى للمؤمن عن الحسنات والشفاعة يوم القيامة، فما عليه إلا أن يواظب على فعل ما ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنن وآداب لتكثر حسناته ويصير أهلاً لشفاعة النبي صلى الله عليه وسلم الخاصة به.

وإن الورع والأخذ بالأحوط أمر من صفة أولي الألباب من العقلاء فكن أيها المؤمن منهم، والزم كل ما جاء عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من سنن في الآداب والأقوال والأعمال.

وإن الأمور التي قد تكون جزئية في نظرك لها يوم القيامة أثرها ونفعها الكبير لك، فاحرص عليها أيها المؤمن وإن كنت من الخواص فإن لسانك قد لا يخلو عن الغيبة مثلاً وقلبك لا يخلو عن الغفلة.

^١ رواه الامام أحمد في مسنده برقم ١٤١٦٢

وإن حقوق الأعراس فيما بين المؤمنين أهم وأعظم من الحقوق المالية التي قد يصفح المظلوم فيها عن أكل حقه المالي، وأما إذا بلغه أنك قد اغتبتته بكلام قبيح أو بهتته بما ليس فيه فلا يصفح عنك بتلك البساطة، وإن لم يجر ذلك في الدنيا فلا بد من التقاضي يوم القيامة بالحسنات والسيئات، فلا تتهاون أو تتكاسل في فعل شيء مما ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لشدة حاجتك لنفعه وخيره وفضله العائد عليك.

ولا تكون السنن نوافل -أي زائدة على الفرائض - إلا إذا كانت الفرائض تامة كاملة من حيث الاستقصاء والخشوع فيها لله تعالى، وإلا فيؤخذ من السنن لجبر ما نقص من الفرائض، ثم يؤخذ منها أيضاً -إن بقي منها شيء- لتسديد حقوق العباد، وإن لم تكف أخذ من الفرائض، فيقع الإنسان عندئذ في نقص فيحتاج إلى من يسعفه وينقذه ويشفع به، فلا تترك شيئاً من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كنت مؤمناً عاقلاً بعد ما بان لك شدة حاجتك إليها.

ومن السنن التزام آداب سماع الأذان وما يجب قوله بعد ذلك من صلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ودعاء الوسيلة.

قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم [من قال حين يسمع المؤذن: " أشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، رضيت بالله رباً، وبمحمد رسولاً، وبالإسلام ديناً" غفر له ذنبه].
[غفر له ذنبه] أي من الصغائر، أما الكبائر فلا بد لغفرها من توبة خالصة لله تعالى، وهذه القاعدة تشمل كل ما ورد في هذا الشأن.

والتوبة عمل من أعمال القلوب تشمل ندم القلب وأسفه على ما فعل صاحبه، والعزم على أن لا يعود، وأداء الحق لصاحبه إن كان الذنب يتعلق به.

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السابع عشر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) كتاب العلم:

قال الله تعالى: (وقل رب زدني علماً).

وقال تعالى: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون).

وقال تعالى: (يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ).
وقال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء).

وعن معاوية رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
[من يرد به الله خيراً يفقهه في الدين] متفق عليه.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها] متفق عليه.
والمراد بالحسد الغبطة وهو أن يتمنى مثله. اهـ

العلم الذي ذكره سبحانه في الآيات المتقدمة هو العلم النافع الذي أنزله الله تعالى على رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم، ويتضمن العلم بكتاب الله والعلم بأحاديث سيدنا رسول الله كما أشار إلى ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله:

[مثل ما بعثني الله به من الهدى و العلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني به الله فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به] متفق عليه^١.

وقد أمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم أن يسأل الله الزيادة من العلم أي من العلم بالله تعالى وتوحيده وكمالاته سبحانه، لأن العلم بالله جل وعلا علم لا نهاية له لأنه يتعلق بصفات الله وكمالاته سبحانه التي لا تتناهى، قال تعالى: (وقل رب زدني علماً) أي علماً بك سبحانه، وإن الأمر للمؤمنين يأتي تبعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يأمر الله تعالى عباده بالاستزادة من شيء إلا بالاستزادة من العلم .

وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته الاستعاذة من علم لا ينفع فقد جاء في الحديث: [اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها]^٢.

فالعلم على إطلاقه هو ما ينفعك في دينك، وإن الدين جاء لصالح الدنيا والآخرة، فمن ذلك العلم بأحكام الله تعالى المتعلقة بمعاملة الناس مع بعضهم من بيع وتجارة ورهن وآجار، وهناك علم الأصول وما يتعلق به من أحكام، كل ذلك جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم لإصلاح أمور الدنيا وتنظيم معاملة الناس فيما بينهم ، فمن عمل به فقد امتثل أمر الله تعالى وسعد في الدنيا وفاز في الآخرة..

^١ صحيح البخاري كتاب العلم وصحيح مسلم كتاب الفضائل

^٢ صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

وإن أصل العلوم النافعة ومرجعها هو العلم بـ (لا إله إلا الله) وعنه تتفرع جميع العلوم لأن معنى (لا إله إلا الله) "لا معبود حقاً يُعبد إلا الله" فاعتراف العبد بذلك يحتم عليه أن يعبد الله تعالى.

ولا بد لعبادته سبحانه من علم ، وهذا هو العلم بأحكام الزكاة والصلاة والصوم والحج، وهناك العلم بالحلال والحرام وأحكام الله المتعلقة بمعاملات الناس فيما بينهم.

ولقد كان من دعاء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:
[اللهم انفعني بما علمتني، وعلمي ما ينفعني، وزدني علماً، الحمد لله على كل حال وأعوذ بالله من حال أهل النار^١] لأن حال أهل النار حال غضب الله وسخطه وينبغي على المؤمن أن يستعيد من غضب الله وسخطه .
وقوله صلى الله عليه وسلم: [وزدني علماً] أي علماً بك يا رب أزددْ به تقرباً منك.

ومن دعائه صلى الله عليه وسلم في قيام الليل:

[لا إله إلا أنت سبحانك ، اللهم أستغفرك لذنبي ، وأسألك رحمتك، اللهم زدني علماً ، ولا تزغ قلبي بعد إذ هديتني ، وهب لي من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب^٢].

قوله تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) أي إن العلماء بالله تعالى هم أهل الخشية من الله تعالى، وكلما ازدادوا علماً بالله وآياته ازدادوا خشية منه سبحانه أي ازدادوا خوفاً منه سبحانه وإجلالاً وتعظيماً ومهابة له جل وعلا.

^١ سنن الترمذي كتاب الدعوات

^٢ سنن أبي داود كتاب الأدب والسنن الكبرى للنسائي وصحيح ابن حبان

وإن أشد العالمين خشية لله تعالى هو أعرفهم وأعلمهم بالله تعالى وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أعلن ذلك بقوله في الحديث الشريف :

[والله إني لأعلمكم بالله عز وجل وأخشاكم له ^١] لذلك ينبغي على كل مؤمن أن يطلب الزيادة من العلم بالله وكمالاته وآياته سبحانه حتى تزداد خشيته من الله تعالى ومهابته منه جل وعلا.

قوله تعالى: (يرفع الله الذين آمنوا منكم) أي يرفع الله الذين آمنوا منكم رفعا عاما، ويشمل هذا كل مؤمن حتى العلماء إلا أنه سبحانه خص الذين أوتوا العلم بالرفع الخاص في الدرجات فقال جل وعز: (والذين أوتوا العلم درجات) أي درجات على غيرهم من الذين آمنوا .

قوله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ يُرِدُ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَإِنَّمَا أَنَا قَاسِمٌ وَاللَّهُ يُعْطِي ^٢].

وفي رواية للطبراني: [من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده ^٣] . فمن وجد في نفسه حبا للعلماء وحضور مجالس العلم وسماع دروس العلم التي تتناول بيان دين الله تعالى بما اشتمل عليه من الإسلام والإيمان والإحسان، من وجد في نفسه حبا للتعلم في ذلك وسعى إلى تحصيله فليعلم أن الله تعالى قد أراد الله به خيراً وليستبشر بفضل الله عليه.

والدين هو ما جاء بيانه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال للصحابة الكرام رضي الله عنهم : [فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ] وذلك بعدما سأله جبريل عليه السلام عن الإيمان والإسلام والإحسان وأجابه صلى الله عليه وسلم عن كل ذلك.

^١ المسند ٢٣٧٦٥

^٢ صحيح البخاري كتاب العلم والرواية له وصحيح مسلم كتاب الزكاة

^٣ انظر المعجم الكبير

وقد تمثل جبريل عليه السلام بصورة رجل وسأل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمام الصحابة فقال : [يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ قَالَ : أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ ، قَالَ : فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ].

- وفي رواية له : أن تخشى الله كأنك تراه - ، ثم قال صلى الله عليه وسلم في آخر الحديث: [فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ]^١.

فالدين يتضمن الإسلام وهو الأعمال الظاهرة الجارحية، ويتضمن الإيمان وهو الاعتقادات القلبية، ويتضمن الإحسان الذي هو أحوال القلب في معاملته مع الله تعالى كالمشاهدة و المراقبة.

فمن أراد الله به خيراً ففقهه في أمور الدين وقضاياه ووجد في نفسه حباً وسعياً لتعلم ذلك، ومن شغلته الدنيا عن تعلم أمور دينه حتى قسا قلبه ولم ير في نفسه حباً أو ميلاً لتفهم أمور دينه فهو على خطر إذ إنه وقع في الشقاء والحرمان فليتبك على نفسه وليبادر إلى التوبة والبعد عن كل ما يشغله عن الله تعالى عسى الله أن يقبله ويوفقه إلى الخير.

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان

وروى البخاري^١ عن عمران بن الحصين رضي الله عنه أنه قال:

[إِنِّي عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ قَوْمٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ فَقَالَ: أَقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا بَنِي تَمِيمٍ، قَالُوا: بَشَرْتَنَا فَأَعْطِنَا، فَدَخَلَ نَاسٌ مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ فَقَالَ: أَقْبَلُوا الْبُشْرَى يَا أَهْلَ الْيَمَنِ إِذْ لَمْ يَقْبَلْهَا بَنُو تَمِيمٍ، قَالُوا: قَبِلْنَا [أَيَ الْفُوزِ بِالْجَنَّةِ] - [جِئْنَاكَ لِنَتَفَقَّهَ فِي الدِّينِ وَلِنَسْأَلَكَ عَنِّ أَوَّلِ هَذَا الْأَمْرِ مَا كَانَ] - أَي نَسَأَلُكَ عَن هَذَا الْعَالَمِ بِمَا فِيهِ هَلْ هُوَ قَدِيمٌ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَمُّ هُوَ مَخْلُوقٌ بَعْدَ عَدَمٍ؟ - [قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ] - . وفي رواية له: [كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ]^٢ .

أي أن القديم الأزلي الذي لا أول لوجوده هو الله تعالى وحده،
وأما ما عداه فمخلوق بعد عدم.

فقوله صلى الله عليه وسلم: [كان الله ولم يكن شيء غيره] أي بالكينونة الأزلية التي لا أول لها [وكان عرشه على الماء] أي بالكينونة الحادثة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم: [كان الله ولم يكن شيء غيره].

[ثم خلق السموات والأرض وكتب في الذكر كل شيء] ويسمى اللوح المحفوظ ذكراً لأنه ما من شيء إلا وذكر فيه، ويسمى القرآن الكريم ذكراً كما في قوله تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وذلك لأن الله تعالى ذكر فيه كل شيء كما قال تعالى:

(ما فرطنا في الكتاب من شيء) أي ما أهملنا أو قصرنا في ذكر شيء في هذا القرآن، وقال جل وعلا: (وانه لذكر لك ولقومك) .

^١ انظر صحيح البخاري كتاب التوحيد

^٢ المرجع السابق كتاب بدء الخلق

وقال صلى الله عليه وسلم: [طلب العلم فريضة على كل مسلم]^١
أي العلم الذي تصح به العقيدة ويصح به العمل وما يتطلبه منك الحال
فالغني مثلاً يجب عليه أن يتعلم أحكام الزكاة ومقاديرها ومصارفها،
ولا يجب ذلك على الفقير.

وكذلك من أراد الحج فيجب عليه أن يتعلم مناسك الحج حتى يصح
حجه، وهكذا لا بد لكل مؤمن أن تكون عباداته ومعاملاته قائمة على
أساس علمي شرعي صحيح.

وإن من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم أنه جاء
يعلّمه، قال تعالى: (ويعلمهم الكتاب والحكمة) أي مما اشتمل عليه
الكتاب من أحكام واعتقاد وغير ذلك.

قوله صلى الله عليه وسلم:

[من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده] يعني يلهمه ما فيه
رشاده وصلاح نفسه.

وقد علم سيدنا رسول الله الحُصَيْن رضي الله عنه -وكان زعيماً في قومه-
علّمه أن يدعو فيقول:

[اللهم ألهمني رشدي وأعدني من شر نفسي]^٢ وفي رواية : [وقني شر
نفسي]^٣ وفي رواية: [اللهم إني أستهديك لأرشد أمري، وأستجيرك من شر
نفسي]^٤ وفي رواية: [اللَّهُمَّ قِنِي شَرَّ نَفْسِي ، وَاعْزِمْ لِي عَلَى أَرْشَدِ أَمْرِي]^٥.

^١ انظره في سنن ابن ماجه والمعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي ومسنده
أبي يعلى الموصلي، وقال الإمام السخاوي في المقاصد الحسنة: قال العراقي: قد
صحح بعض الأئمة بعض طرقه كما بينته في تخريج الإحياء، وقال المزي: إن طرقه
تبلغ به رتبة الحسن اهـ ١ / ١٤٩

^٢ سنن الترمذي كتاب الدعوات

^٣ عزها في كنز العمال إلى الروياني وأبي نعيم

^٤ انظر المعجم الكبير للطبراني

^٥ المسند ١٩١٤١

ومن ألهمه الله رشده فقد تولاه ومن لا فقد وكله لنفسه، وهذا سر معنى قوله صلى الله عليه وسلم: [وأعذني من شر نفسي].

قوله صلى الله عليه وسلم: [من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما أنا قاسم والله يعطي].

وفي هذا بيان من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن العلم لا يؤخذ إلا عنه صلى الله عليه وسلم فهو الذي أفاض الله عليه العلوم والمعارف والأسرار والأنوار وقام بقسمتها على من تعرض لها، فالمعطي هو الله إلا أن طريق العطاء وموضع تقسيم العطاء وواسطته هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فلا يمكن لأحد أن ينال شيئاً من الله تعالى من علم أو مرتبة أو منقبة أو مرتبة أو كرامة أو مقام إلا بواسطة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال العارف سيدي محمد البكري^١:

وأنت باب الله أي امرئ	أتاه من غيرك لا يدخل
ما أرسل الرحمن أو يرسل	من رحمة تصعد أو تنزل
في ملكوت الله أو ملكه	من كل ما يختص أو يشمل
إلا وطه المصطفى عبده	نبيه مختاره المرسل
واسطة فيها وأصل لها	يعلم هذا كل من يعقل

وقد يزعم جاهل أنه لا حاجة لواسطة سيدنا رسول الله للترقي في مقام القرب من الله تعالى، وأنه لا واسطة بين العبد وربّه فيقال في سياق الرد على من زعم هذا:

الإيمان الذي وفقك الله إليه هل نلته من الله تعالى مباشرة أم بواسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم؟!

ولولا أنك آمنت و أذعنت لسيدنا محمد لما صح لك إيمانك.

^١ الأستاذ الأعظم الشيخ محمد ابن الشيخ أبي الحسن محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكري الصديقي الشافعي الأشعري المصري المتوفى سنة ٩٩٣ هـ رضي الله عنه ونفعنا به.

وقد قال تعالى في بيان مقام الرسول صلى الله عليه وسلم وهدايته للناس:
(وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم* صراط الله) ولا يمكنك أن تستغني عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الذي هداك ويهديك إلى الله
تعالى، ولو أن أحداً من الآحاد أمكنه أن ينال شيئاً من المقامات
والمكرمات من حضرة رب العالمين دون واسطة سيدنا رسول الله صلى
الله عليه وسلم لصح له أن يدخل الجنة من غير أن يكون وراء رسول الله
، وهذا ما نفاه المشرع الحكيم فقد نبه صلى الله عليه وسلم أن كل
المؤمنين حتى الأنبياء والرسل والعلماء والأولياء إنما يدخلون الجنة وراء
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أمامهم وإمامهم .

وإن مقام الوسيلة في الجنة الذي خص الله تعالى به رسوله الكريم صلى
الله عليه وسلم هو أعلى مقام ومنزلة في الجنة، ولما حل رسول الله في
مقام الوسيلة أي الوساطة فقد حل في مقام الوساطة بين الله تعالى
وخلقه، فما من خير ينزل على أهل الجنة إلا بواسطة صاحب مقام
الوسيلة صلى الله عليه وسلم أبد الآبدين ودهر الدهرين إلى يوم الدين.

وإن كانت خيرات الجنة وفضائلها وما فيها من ألوان النعيم الحسية والروحية والقلبية لا تُنال إلا بواسطة الرسول صلى الله عليه وسلم فما بالك بخيرات الدنيا الجزئية التي لا تقاس أبداً بخيرات الجنة وما فيها؟! فلا تنكر واسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال:

[إنما أنا قاسم والله يعطي] كما نقول: الله تعالى هو الفتح الذي فتح قلوب المؤمنين للإيمان لكن بواسطة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال للأنصار يوماً: [يا معشر الأنصار ألم أجدكم ضلّالاً فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي]؟!.

ولو لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم واسطة بين الله تعالى وبين عباده لما قال صلى الله عليه وسلم: [بي].

وجاء في التوراة في صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح به أعيناً عمياً وآذاناً صماً وقلوباً غلفاً "².

وقال تعالى في صفة المؤمنين الصادقين: (فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون).

أي اتبعوا النور الذي أنزل عليه وهو معه لا ينفك عنه بل هو ملازم له، فمن ابتغى نور الإيمان فلا يجده إلا عند من هو معه وهو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن بيان أدلة ثبوت واسطة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بين الله وخلقه كثيرة قد أتينا على ذكرها في غير هذا الموضع.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين .

١ صحيح البخاري كتاب المغازي وصحيح مسلم كتاب الزكاة

٢ انظر صحيح البخاري كتاب البيوع

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثامن عشر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) كتاب العلم:

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: [لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها، ويعلمها] متفق عليه.

قال: والمراد بالحسد الغبطة، وهو أن يتمنى مثله.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: [مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيثٍ أصاب أرضاً؛ فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس؛ فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعانٌ، لا تمسك ماءً، ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه ما بعثني الله به، فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به] .
متفق عليه. اهـ

يبين رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث مصرف الحسد الذي هو جِبَلَّةٌ في نفس الإنسان، والحسد منه مذموم نُهي عنه وقد نبه إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة، وهناك الحسد المحمود ويسمى الغبطة.

وحسد الغبطة هو تمنى الإنسان أن يحصل على نعمة رآها على غيره دون أن تزول عنه وهو حسد ممدوح أرادته الرسول في الحديث المتقدم ، وأما إذا تمنى زوال نعمة رآها على غيره وأن تنتقل إليه فهو حسد مذموم قبيح نهى عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعلى الإنسان أن يسأل الله من فضله لأن من تفضل على غيره قادر أن يتفضل عليه، فليسأل وليطلب منه سبحانه دون أن يتمنى زوال النعمة عن غيره لأن في ذلك اعتراضاً على الله تعالى وانتقاداً لحكمته سبحانه الذي أنعم وتفضل على غيره.

وفي الحسد يريد الحاسد ضرر وأذى غيره وقد نهى الشارع عن ذلك كله، وأمر بالمحبة والود والتعاطف بين المسلمين، وأقبح الحسد أن يتمنى الإنسان زوال نعمة رآها على غيره ولو لم يتمن أن تنتقل إليه.

والحاسد حاقد إذ لم يحمل على حسد غيره إلا حقه وسخطه على قسمة الله في عطايه لخلقه، ولذلك فإن الحسد والإيمان الكامل لا يجتمعان.

والحسد يُنقص الإيمان وينقص العمل الصالح.

روى الإمام أبو داود في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[إياكم والحسد فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب] وهو الحسد الذميمة القبيح بحيث يتمنى المرء زوال نعمة رآها على غيره، وأما أن يتمنى المرء أن ينال ما نال غيره دون أن تزول عن غيره النعمة فهذا هو حسد الغبطة الذي بين الرسول صلى الله عليه وسلم للإنسان مصرفه بأن يوجه قوة محبة النعمة بأن يتمنى فعل ما عند غيره دون أن تزول عنه وهو قوله صلى الله عليه وسلم: [لا حسد إلا في اثنتين].

ولذلك فإن سائر الصفات والغرائز الإنسانية التي أودعها الله في النفس البشرية لم يأت الأمر بسحقها وإزالتها إذ إنه لا يمكن ذلك فالإنسان مجبول عليها، وإنما جاءت الأوامر الشرعية بصرف تلك الصفات والشهوات والقوى في مصارفها التي أحلها الله تعالى، فلم يأمر الله بِغَضِّ البصر كلياً فالبصر نعمة، وإنما على الإنسان أن يغيض من بصره فلا ينظر إلى ما حرم الله بل إلى ما أحل الله، وكذلك السمع وشهوة النساء والطمع فعلى الإنسان أن يطمع فيما عند الله تعالى من مغفرة وفضل، لا في الدنيا وما فيها قال تعالى مخبراً عن خليله سيدنا إبراهيم عليه السلام قوله :

(والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين).

والحرص أيضاً من صفات الإنسان فعليه أن يحرص على ما ينفعه ويبقى معه لا أن يحرص على ما يفنى من الدنيا ومتاعها.

قال صلى الله عليه وسلم:

[احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز]^١.

وإن من حكمة الشريعة الإلهية للعباد أنه سبحانه إذا حرّم أمراً حرّم جميع ما يوصل إلى ذلك الأمر من طرق، فلما حرّم سبحانه الزنا مثلاً حرّم نظر الرجل إلى المرأة الأجنبية التي يحل له نكاحها، وحرّم لمسها وحرّم شم ريحها وحرّم سماع نغمة صوتها وحرّم الخلوة معها وهكذا لئلا يقع الإنسان في جريمة الزنا، وقد قال سبحانه: (ولا تقربوا الزنا) فنهى سبحانه عن القرب من الزنا بأسبابه فضلاً عن الوقوع فيه، ألا ترى إلى أن المشرّع الحكيم نهى الإنسان أن يجالس أو يلامس أو يدنو ممن أصيب بداء مُعْدٍ لئلا ينتقل إليه المرض؟

فكما أن البعد والتوقي عن الإصابة بالمرض أمر واجب شرعاً فكذلك البعد عن طرق وأسباب الوقوع في المحرمات.

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب القدر

قوله صلى الله عليه وسلم: [لا حسد إلا في اثنتين] أي لا تحسد أحداً يا حاسد إلا في أمرين، وليكن حسدك لهما حسد غبطة وهو أن تتمنى وتسال الله أن يرزقك مالاً تنفقه في طاعة الله تعالى كما أعطى فلاناً الذي ينفق ماله في فعل الخير وصلة الرحم، وكذلك أن تدعو الله أن يعلمك الحكمة لتعلمها الناس .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [رجلٌ آتاه الله مالاً فسلطه على هلكته في الخير] أي سلط ماله على إهلاكه في فعل الخيرات وهذا يدل على سعة وكثرة نفقاته وكأنه يريد إهلاك ماله فمثل هذا يحسد حسد غبطة لأنه يتوسع ويكثر من نفقته ويسارع في الخيرات دون تقصير وشح. واعلم أيها المؤمن الموسر أن من قصدك بحاجة ولم يظهرها لأحد غيرك فعليك أن تسد حاجته وتعطيه كفايته إن كنت قادراً على ذلك، ولا تبخل عليه وتدعه يظهر حاجته لغيرك إذ تمنعه عفته ونزاهته عن عرض حاله وفاقته.

ويقول صلى الله عليه وسلم:

[مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُزْبَةً مِنْ كُزْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُزْبَةً مِنْ كُزْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ]^١.

وقال جل وعلا: (والذين في أموالهم حق معلوم * للسائل والمحروم).

وقال تعالى: (وفي أموالهم حق للسائل والمحروم).

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

أما السائل فهو الذي يسأل الناس ويعرض فاقتته، وأما المحروم فهو الفقير الذي يتعفف عن سؤال الناس، ومن اطلع على حاجته من أهله وأقاربه أو غيرهم وجب عليه مساعدته، ولا شك أن أقاربه وأرحامه أولى الناس بالإحسان إليه، وأول من يسأل الله تعالى العبد في نفقاته يسأله عن أرحامه^١.

ومن تمنى لو أن عنده من المال مثل فلان الغني الصالح الذي ينفق ماله ابتغاء مرضاة الله تعالى فله من الأجر مثله.

وفي هذا يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[إِنَّمَا الدُّنْيَا لِأَرْبَعَةٍ نَفَرٍ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَيَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَزُرُقْهُ مَالًا فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: " لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالًا وَلَمْ يَزُرُقْهُ عِلْمًا فَهُوَ يَخْبِطُ فِي مَالِهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ لَا يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ وَلَا يَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ وَلَا يَعْلَمُ لِلَّهِ فِيهِ حَقًّا فَهَذَا بِأَخْبَثِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ لَمْ يَزُرُقْهُ اللهُ مَالًا وَلَا عِلْمًا فَهُوَ يَقُولُ: " لَوْ أَنَّ لِي مَالًا لَعَمِلْتُ فِيهِ بِعَمَلِ فُلَانٍ " فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَوَاءٌ]^٢.

وإن دليل صدق النية أنه لو تيسرت له أسباب العمل الذي نواه لأقدم عليه دون تكاسل أو تردد.

وأما الأمر الثاني فهو: [ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها].

فهو الذي يحسن بالمؤمن أن يتمناه ويحسد عليه غيره حسد غبطة وهو أن يغبط رجلاً آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها الناس.

^١ جاء في المعجم الكبير للطبراني قوله صلى الله عليه وسلم: [يا أمة محمد، والذي بعثني بالحق لا يقبل الله يوم القيامة صدقة من رجل وله قرابة محتاجون إلى صدقته ويصرفها إلى غيرهم، والذي نفسي بيده لا ينظر الله إليه يوم القيامة].

^٢ سنن الترمذي كتاب الزهد ومسند الإمام أحمد ١٧٦٩٠

وفي رواية للحديث: [رَجُلٌ آتَاهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَهُوَ يَقُومُ بِهِ آتَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ^١] فهذا رجل آتاه الله القرآن أي الفهم للقرآن والعمل بالقرآن يأتى بأوامره وينتهي عما نهاه عنه ويبلغ القرآن ويعلمه ويقوم الليل به، فمثل هذا يُغبط بل يجب على المؤمن أن يتمنى أن تكون تلك النعمة عنده كما هي عند فلان.

وأما رواية: [ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها] يعني الحكمة النبوية وهي أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم التي هي بيان للقرآن الكريم، لأن القرآن هو الحكمة الإلهية وجاءت الحكمة النبوية وهي أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لتبين معاني القرآن وما فيه من حكمة، وهي أيضاً بوحى الله تعالى إلى رسول الله كما قال تعالى: (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة) وهي السنة النبوية التي ظهرت في أقوال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي أفعاله وأخلاقه وآدابه الشريفة المباركة .

والأصل في معنى الحكمة صحة العلم وصحة العمل، فالحكمة تطبق ما يقتضيه العلم الصحيح، ومن صح علمه صح عمله الذي عمّله على مقتضاه وصحت حكمته، ومن لا فحكّمته فاسدة وناقصة.

ولما كان علم سيدنا رسول الله علماً أفاضه الله عليه بأنواع الوحي فهو علم صحيح لا يحتمل الخطأ لأنه من عند الله رب العالمين، ثم حقق صلى الله عليه وسلم مقتضى ما علمه الله تعالى فكانت أقواله وأفعاله صلى الله عليه وسلم هي الحكمة النبوية الصحيحة.

قال تعالى: (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى).

ويزعم بعض الملاحدة والمنكرين رسالة سيدنا محمد أنه لا وحي من الله ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن علوم النبي صلى الله عليه وسلم هي بمقتضى ذكائه وفطانته واستقرائه لأُمور الغيب، فيقال في سياق الردود على هؤلاء:

لقد نشأ رسول الله أُمياً لم يقرأ كتاباً ولم يكتب ولم يأخذ العلم عن أحد بشهادة قومه الذين نشأ فيهم فمن أين أتى بالإخبارات عن الأمم السابقة وأحوالها وما جرى عليها وحدث عن ذلك مفصلاً؟!!

ومن أين أتى بالأخبار عن الأمور الغيبية التي ستقع في عصره وبعده إلى يوم الدين ووصفها بالتفصيل في أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم؟!!

ومن أين أتى بالقرآن الكريم الذي قرأه على الناس وأعجزهم في بيانه وفصاحته وكلماته وإخباراته وأحكامه، وعجز فصحاء العرب عن الإتيان ولو بآية مثله؟!!

نعم إن كل ذلك من شواهد صدق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه حقاً رسول الله أرسله الله وأوحى إليه وأمره أن يبلغ الناس، قال تعالى: (تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر) أي على أذى المنكرين وجحود الكافرين (إن العاقبة للمتقين) وما الأمور إلا بعواقبها، وحسن العواقب للمتقين.

وقال تعالى: (واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله والله خير الحاكمين).

ومما تقدم يتبين لك أن أقوال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأفعاله هي الحكمة أي هي الصواب والسداد لأنها بموجب العلم الصحيح، لأن العلم الصحيح هو ما كان من عند الله تعالى، وما علوم الرسول ومعارفه إلا بوحى الله تعالى له، ومن أراد الله به خيراً آتاه الحكمة أي علمه من العلوم الشرعية المحمدية فحفظها وصار يعلمها الناس ويقضي بها، ومن كان كذلك وَصَفُهُ فهو يُغْبَطُ عليه، فلا تغبط الأغنياء على كثرة أموالهم فقد تكون أموالهم حسرات عليهم يوم القيامة، بل اغبط من قام بما أوجبه الله عليه وأنفق أمواله في طرق الخير ومن تعلم الحكمة وعلمها .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس التاسع عشر

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) في كتاب العلم:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له] رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [الدنيا ملعونة، ملعون ما فيها إلا ذكر الله تعالى وما والاه وعالمًا ومتعلمًا]. رواه الترمذي وقال: حديث حسن.

قال: وقوله صلى الله عليه وسلم: [وما والاه] أي طاعة الله تعالى. اهـ
قوله صلى الله عليه وسلم: [إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث] أي انقطع وتوقف ثواب أعماله التكليفية الدنيوية من صلاة وزكاة وصوم وحج وغيرها إلا أن هناك بعض الأعمال يستمر ثوابها للإنسان ولو بعد موته وهي التي نبهنا إليها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: [صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له].

وفي هذا بيان من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لفضل العلم وشرفه ونفعه لصاحبه، وهو العلم الشرعي المتضمن العلم بآيات الله تعالى وأحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وما يتفرع عنها.

فمن مات انقطع ثواب عمله إلا العمل الذي يستمر خيره ونفعه فيستمر ثوابه لصاحبه بعد وفاته، كالصدقة الجارية وتشمل الوقف كمن بنى مسجداً أو ساهم في بنائه أو قدّم فيه ماء ليشرب منه الناس.

قوله صلى الله عليه وسلم: [أو علم ينتفع به] كمن علّم الناس أمور دينهم فانتفعوا به وعملوا بعلمه فيجري ثواب ذلك إليه لأنه اشتغل بتطبيقه وجمع كتباً فيها بيان أمور دينهم ومنافعهم فيجري ثواب ذلك إليه بعد وفاته طالما أن كتبه يتناولها الناس وينتفعون بها.

قوله صلى الله عليه وسلم: [أو ولد صالح يدعو له] فينتفع الوالد بعد وفاته بصلاح ولده وأحفاده من بعده ودعائهم له، وهذا لأن الوالد تسبب في صلاح ولده وسعى في ذلك ونوى ودعا أن ينفعه الله بذريته وأحب لهم الإيمان والصلاح، وأما إذا أراد لهم الكفر والضلال فيعود وبال ذلك عليه، نسأل الله العافية.

وأما من ابتلي بأولاد فسقة وهو لا يريد ذلك بل ينكر عليهم أفعالهم ويدعو لهم بالصلاح والدين فلا مؤاخذه عليه، ولا يجري وزرهم إلى صحيفته لأنه لم يتسبب في فسقهم وضلالهم.

ومن الصدقة الجارية أيضاً أن يورث المؤمن مصحفاً يضعه في المسجد ليقراً الناس به، وكذا أن يوقف كتباً علمية شرعية ينتفع بها طلاب العلم. ومن الصدقة الجارية أيضاً أن يوقف الإنسان للمسجد كل ما يحتاجه من متاع وأثاث، وكذلك حفر بئر في قرية يفتقر أهلها إلى الماء وهكذا فإن الصدقة الجارية تشمل كل عمل صغير أو كبير يستمر خيره وينتفع به الناس في دينهم أو دنياهم ويعود ثواب ذلك إلى صاحبه ولو بعد وفاته.

وإذا كان ابن آدم ينقطع ثواب عمله التكليفي الدنيوي بعد وفاته - إلا ما كان من الأمور الثلاثة المتقدم ذكرها في الحديث - فإن الأعمال في برازخ الآخرة لا ينقطع عنها ابن آدم، ولكل برزخ من برازخ الآخرة أعمال يترتب عليها ثواب وعقاب ويترتب عليها أمر مآله، وأول هذه الأعمال التكليفية في أول برازخ الآخرة - وهو ما بعد الموت - أن يُكَلَّفَ الإنسان بالجواب عن سؤال يلقي إليه ويترتب على جوابه ثوابه وعقابه كما دلت على ذلك أحاديث سيدنا الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يسأل الميت في قبره عن إيمانه بالله ورسوله وموقفه من رسول الله صلى الله عليه وسلم هل كان موقف المطيع الذي أجاب دعوة رسول الله واتبعه أم لا، فيقال له : [ما تقول في هذا الرجل الذي كان فيكم ؟ يعني النبي صلى الله عليه وسلم فيقول : أشهد أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبينات من عند ربنا فصدقناه واتبعناه فيقال له : صدقت وعلى هذا حييت وعلى هذا مت وعليه تبعث إن شاء الله]^١.

ولا يجيب بذلك إلا المؤمن حقاً الذي أجاب دعوة سيدنا رسول الله واتبعه حقاً إذ كيف يقول: " فصدقناه واتبعناه " من لم يتحقق بذلك في عالم تظهر فيه الحقائق، لأن حقيقة الإنسان التي تحقق بها هي التي ستجيب بقول صادر عن تحققه، ومن أجاب نال الثواب وأصاب نعيم البرزخ على حسب إيمانه، ومن لم يجب أصابه العقاب ودخل في عذاب البرزخ، أعادنا الله من عذاب القبر.

ومن كان في الدنيا يحب عملاً تعبدياً ويعشقه ويلزمه كالصلاة أو تلاوة القرآن أو الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم أو غير ذلك من القربات العملية أو القولية فإن الله تعالى يكرمه في البرزخ بأن يستمر على ذلك العمل ليتلذذ ويتنعم به وينال ثواب ذلك وترتفع درجاته في الآخرة.

^١ عزاه في مجمع الزوائد إلى الطبراني في الأوسط

ومن ذلك ما سمعه الصحابي من قبر صحابي آخر سمعه يقرأ سورة الملك كما في الحديث الذي رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

[ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِباءَهُ عَلَى قَبْرِ وَهُوَ لَا يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ (تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ) حَتَّى خَتَمَهَا ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي ضَرَبْتُ خِيبَتِي عَلَى قَبْرِ وَأَنَا لَا أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ (تَبَارَكَ) حَتَّى خَتَمَهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هِيَ الْمَانِعَةُ هِيَ الْمُنْجِيَةُ تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ]^١.

وكذلك جاء أن الله تعالى أكرم التابعي الجليل ثابتاً البناني رضي الله عنه^٢ بأن يصلي في قبره لأنه كان يحب الصلاة وخاصة في الليل وهكذا^٣.

^١ سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

^٢ قال الذهبي في سير أعلام النبلاء ٢٢٠/٥ :

ثابت بن أسلم الإمام القدوة شيخ الاسلام أبو محمد البناني ، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : إن للخير أهلاً، وإن ثابتاً هذا من مفاتيح الخير. وكان رضي الله عنه من أئمة العلم والعمل يقرأ القرآن في كل يوم وليلة . وعند محمد بن ثابت قال: مات ثابت سنة سبع وعشرين ومئة وهو ابن ست وثمانين سنة .

^٣ جاء في مصنف ابن أبي شيبة : أن ثابتاً البناني رضي الله عنه كان يقول : "اللهم إن كنت أعطيت أحداً الصلاة في قبره فأعطني الصلاة في قبري". وجاء في حلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني : حدثنا شيبان بن جسر عن أبيه، قال: أنا والله الذي لا إله إلا هو أدخلت ثابتاً البناني لحده ومعني حميد الطويل - أو رجل غيره شك الراوي - فلما سويونا عليه اللبن سقطت لبنة فإذا به يصلي في قبره فقلت للذي معه: ألا ترى، قال: اسكت، فلما سويونا عليه وفرغنا أتينا ابنته فقلنا لها: ما كان عمل أبيك ثابت؟ فقالت: وما رأيتم؟ فأخبرناها فقالت: كان يقوم الليل خمسين سنة فإذا كان السحر، قال في دعائه: " اللهم إن كنت أعطيت أحداً من خلقك الصلاة في قبره فأعطنيها " فما كان الله ليرد ذلك الدعاء.

ولا شك أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا ينقطعون عن عبادة الله تعالى أبداً كما قال صلى الله عليه وسلم: [الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون]¹.

وقال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: [لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَزْتُ عَلَى مُوسَى وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ عِنْدَ الْكَثِيبِ الْأَحْمَرِ]².

وقد يكرم الله تعالى أتباع الأنبياء بأن يستمر أحدهم على عمل كان يحبه ويلازمه في الدنيا.

قوله صلى الله عليه وسلم: [إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث] أي انقطع ثواب أعماله التكليفية الدنيوية إلا ما كان من أمور يستمر خيرها فيبقى ثوابها وهي الصدقة الجارية والعلم الذي ينتفع به والولد الصالح الذي يدعو له كما في الحديث المتقدم.

ومن جملة الأعمال التكليفية التي يكلف بها أهل الموقف في برازخ الآخرة أن تؤمر الخلائق كلها بالسجود لله رب العالمين كما قال تعالى: (يوم يكشف عن ساق ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون).

وقد جاء بيان ذلك عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله: [يكشف ربنا عن ساق فيسجد له كل مؤمن ومؤمنة ، فيبقى كل من كان يسجد في الدنيا رياء وسمعة فيذهب ليسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً]³.

¹ عزاه في مجمع الزوائد لمسند أبي يعلى والبخاري

² المسند ١٣١٠٣

³ صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

فيتجلى رب العالمين ويكشف عن عظمته وكبريائه كما يقال في اللغة - والله المثل الأعلى -: [كشفت الحرب عن ساق] ^١ أي عن شدة وهول، ويدعون إلى السجود، فمن كان يسجد لله تعالى في الدنيا يسجد له في الآخرة وينتفع بذلك السجود إما بتكفير سيئات أو رفعة درجات، ومن كانت حسناته وسيئاته متساويتين ترجح كفة حسناته بذلك السجود ويدخل الجنة.

وأما الكافر أو المنافق فيريد أن يسجد فلا يستطيع ويعود ظهره طبقاً واحداً لا ينحني، ومن هنا ندرك قيمة ومنزلة الإخلاص في عبادة الله تعالى. كما أن هناك آخر التكاليف البرزخية وهي امتحان العقيدة الإيمانية بالله تعالى، ولا ينجو إلا من كان يعتقد بالله جل وعلا أن له المثل الأعلى أي الوصف الأعلى المنزه عن الشبيه والمثيل والنظير وأنه سبحانه ليس كمثله شيء.

وجاء بيان ذلك في الحديث الذي يقول فيه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : [حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ تَعَالَى مِنْ بَرٍّ وَفَاجِرٍ أَتَاهُمْ رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي أَدْنَى صُورَةٍ مِنْ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا ، قَالَ : فَمَا تَتَنظَّرُونَ تَتَّبِعُ كُلُّ أُمَّةٍ مَا كَانَتْ تَعْبُدُ قَالُوا: يَا رَبَّنَا فَارْقْنَا النَّاسَ فِي الدُّنْيَا أَفْقَرَ مَا كُنَّا إِلَيْهِمْ وَلَمْ نُصَاحِبْهُمْ ، فَيَقُولُ : أَنَا رَبُّكُمْ ، فَيَقُولُونَ : نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْكَ لَا نُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا ، حَتَّى إِنَّ بَعْضَهُمْ لَيَكَادُ أَنْ يَنْقَلِبَ ، فَيَقُولُ : هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ فَتَعْرِفُونَهُ بِهَا ؟ فَيَقُولُونَ : نَعَمْ ، فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ .

^١ قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور : وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والبيهقي في الأسماء والصفات عن عكرمة أنه سئل عن قوله تعالى : { يوم يكشف عن ساق } قال : إن العرب كانوا إذا اشتد القتال فيهم والحرب وعظم الأمر فيهم قالوا لشدة ذلك : قد كشفت الحرب عن ساق ، فذكر الله شدة ذلك اليوم بما يعرفون .

وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً إِلَّا جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كُلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ، ثُمَّ يَرْفَعُونَ رُءُوسَهُمْ وَقَدْ تَحَوَّلَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ فَقَالَ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا^١.

ولا تنقطع التكليف الإلزامية إلا بدخول الجنة حيث ينقلب فيها التكليف إلى تكليف، فأهل الجنة يصلون ويسبّحون ويحمدون ويكبرون، ويكون ذلك على سبيل الكيف الذي لا مشقة فيه، وعلى وجه الولوج بالشيء والتلذذ والتنعيم به كما قال صلى الله عليه وسلم: [يُلْهَمُونَ التَّسْبِيحَ والتَّحْمِيدَ] - وفي مسند عبد بن حميد: [وَالتَّكْبِيرَ] - [كما تلهمون النفس]^٢.

فكما لا يجد الإنسان في حياته الدنيا كلفة ولا مشقة في شهيقة وزفيره فكذلك أهل الجنة، فإن التسبيح والتحميد وذكر الله تعالى هو حياتهم وهو نعيمهم.

ويدل ذلك أيضاً على أن عبادات أهل الجنة مستمرة متوالية لا تنقطع ولا يفترون عنها كما لا يفتر الإنسان في الدنيا عن نفسه.

وقد سمي النفس نفساً لأن حياة النفس تتوقف عليه، ولما كان التسبيح والتحميد والتقدير بالنسبة لأهل الجنة بمنزلة النفس كان به حياتهم وبقاؤهم ونعيمهم دونما مشقة أو عناء، ويدل هذا أيضاً على أن عبادة أهل الجنة في الجنة أكثر مما كانوا عليه في الدنيا وأشد إخلاصاً لأنهم يعبدون لله تعالى عن شهود قلبي وفكري وعقلي وبصري وسمعي، وهذا ما دل عليه أيضاً الحديث القدسي الذي رواه الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[إن لله ملائكة يطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قوماً يذكرون الله تنادوا "هلموا إلى حاجتكم" قال: فيحفونهم بأجنحتهم إلى السماء الدنيا، قال: فيسألهم ربهم - وهو أعلم منهم -: ما يقول عبادي؟

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان

^٢ صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

قال: يقولون: يسبحونك ويكبرونك ويحمدونك ويمجدونك، قال:
فيقول: هل رأوني؟ قال: فيقولون: لا والله ما رأوك، قال: فيقول: وكيف
لو رأوني؟ قال: يقولون: لو رأوك كانوا أشد لك عبادة وأشد لك تمجيداً
وتحميداً وأكثر لك تسبيحاً¹... الحديث

ويترقى أهل الجنة بسبب عباداتهم يترقون في المنازل والدرجات والنعيم
المتجدد لأن أحدهم لو دام عليه نعيم معين لألفه وأصابه الملل
والسامة، مما يدل على أن النعيم في الجنة نعيم متجدد متطور،
قال سبحانه: (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات
الفردوس نزلاً * خالدين فيها لا يبغون عنها حِولاً) أي لا يريدون ولا
يرغبون في التحول عنها لأنهم في نعيم دائم متجدد، وفي دار ضيافة رب
العالمين جل وعلا، كما أنه لا استعداد عندهم للتحول عنها فهي دارهم
ومقرهم، وهم أهلها الذين حلوا فيها بعد أن استعدوا وتأهلوا لنيل فضل
الله تعالى عليهم.

وجاء في الحديث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:
[يُقَالُ لِصَاحِبِ الْقُرْآنِ: اقْرَأْ وَارْقَ وَرَتِّلْ كَمَا كُنْتَ تُرْتِّلُ فِي الدُّنْيَا فَإِنَّ مَنْزِلَتَكَ
عِنْدَ آخِرِ آيَةٍ تَقْرُؤُهَا]² أي ارق في العلوم والمعارف الإلهية، وزد في
الدرجات والمنازل و النعيم في الجنة.

واعلم أن الترقى في الدرجات والنعيم في الجنة لا حد له ولا انتهاء ولا نفاذ
لأن الله تعالى يقول: (ما عندكم ينفذ وما عند الله باق) كما أن المعرفة
والعلم بالله تعالى وبصفاته وكمالاته لا انتهاء لها لأن الله تعالى لا تتناهى
أسمائه وكمالاته، وقد قال جل وعلا: (ولا يحيطون به علماً) وكيف يحيط
المتناهي بمن لا يتناهى؟!.

¹ في صحيحه كتاب الدعوات

² المسند ٦٥٠٨

واعلم أيها الإنسان أن العوالم التي خلقها الله تعالى والتي سيخلقها لا حد ولا انتهاء، وأن كل عالم تنتقل إليه هو أكبر وأوسع من العالم الذي تركته، وهذا ما تشهده في الدنيا قبل برازخ الآخرة فقد انتقلت من جزيء حي من نطفة والدك إلى رحم والدتك ثم طورك الله تعالى إلى علقة تعلقت في جدار الرحم ثم إلى مضغة أي قطعة لحم قدر المضغة ثم طورك الله تعالى وشق سمعك وبصرك وخلق سائر أعضائك إلى أن صرت جنيناً في رحم ضيق لا تشعر بما حولك، ثم نقلك سبحانه إلى عالم الدنيا الذي هو أكبر من عالم الرحم حتى إذا انتهت إقامتك في الدنيا انتقلت إلى برزخ ما بعد الموت وهو عالم أوسع وأكبر من عالم الدنيا، وخلق الله فيك من المدارك والحواس ما يناسب ذلك العالم كما قال تعالى: (وننشئكم في ما لا تعلمون) وهكذا تنتقل في عوالم الآخرة إلى أن يدخل المؤمن الجنة والكافر النار.

اللهم اجعلنا من أهل الجنة برفقة كاشف كل غُمَّة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس العشرون

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) كتاب العلم:

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [من سلك طريقاً يبتي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، وإنما ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر] رواه أبو داود والترمذي.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [نظر الله امرءاً سمع منا شيئاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع] رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. اهـ

العلم الذي جاء ذكره في الحديث المتقدم هو العلم الذي أنزله الله على رسوله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو العلم بكتاب الله تعالى والعلم بأحاديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجميع العلوم الشرعية تتفرع عن الكتاب والسنة.

قوله صلى الله عليه وسلم: [من سلك طريقاً يبتيغي فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة] أي: من خرج من بيته وقصد المسجد أو غيره ليسمع علماً يقربه إلى الله تعالى من تفسير آية أو حديث أو موعظة أو تعلم أمور دينه من الحلال والحرام فإن طريقه الذي سلكه لسماع ذلك هو طريق موصول إلى الجنة، أو أن قوله صلى الله عليه وسلم: [سهل الله له طريقاً إلى الجنة] أي بتحقيق ما تعلمه بالتطبيق والعمل به وبذلك يعدّه الله لأن يكون من أهل الجنة.

وفي الحديث بشارة لكل مؤمن يسعى في تعلم أمور دينه، وأن طريقه الذي مشى به لذلك سيصل به إلى الجنة، ومن مشى في طريق الجنة فإن الله تعالى لا يردّه ولا يخيبه.

ولا يقتصر طلب العلم على أولئك الذين انتسبوا لمدارس العلوم الشرعية، بل إن الحديث يشمل أيضاً كل من سلك سبيل العلم وهو في المساجد أو حلقات العلم أو غيرها، إذ لم تكن المدارس على الهيئات المعروفة في زمننا الحاضر مألوفة في زمن السلف الصالح، وإنما كانت حلقات علمية في المساجد أو كلمات فيها الوعظ والتذكير، والصحابة الكرام رضي الله عنهم كانوا يسمعون العلم من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد وغيره من مجالسه الشريفة فيتلو عليهم آيات الله تعالى ويبين لهم أمور الدين بأحاديثه وأفعاله وأخلاقه وآدابه الشريفة صلى الله عليه وسلم.

وأما من فرغ وقته لطلب العلم وشغل نفسه بذلك وأخلص لله في طلب العلم فإن أجره وفضله أعظم وأكبر.

ولقد كان بعض السلف يرى أنه من أراد أن يتقرب من الجنة فليتقرب من مجالس العلماء ويكون بذلك قد سلك طريق الجنة بضمانة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي بيّن في الحديث المتقدم أن السعي إلى مجالس العلماء سعي إلى الجنة.

ويقال لمن زعم أن لا فائدة ولا نفع من مجالس العلم، ويكفي المؤمن أن يعبد ربه أو ينظف قلبه ويعبد ربه، يقال له:

إن السبيل لنظافة القلب والنفس يحتاج إلى علم، كما أن عبادة الله تعالى تحتاج إلى علم ومعرفة بكيفية عبادته سبحانه.

ولقد كان من مواقف رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم أن يتلو عليهم آيات الله تعالى ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فلا بد إذاً من تعلم آيات الله تعالى وسماع أحاديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم التي بين فيها جميع ما يحتاجه الإنسان في عباداته لله تعالى بل وجميع ما يحتاج إليه في حياته الدنيا والآخرة.

وإذا كانت النجاسات الحسية الظاهرة تحتاج إلى علم يفرق به المؤمن بين النجس والطاهر فما بالك بالنجاسات النفسية والأمراض القلبية؟! فلا بد لمعرفة سبل الطهارة منها من علم شرعي محمدي إذ قد يظن المرء أنه طاهر القلب زكي النفس والحال أن أمراض القلب قد أسقمته حتى راح يدعي أنه طاهر القلب طيب النفس.

فلو أن أحداً أبيع له أن يستغني عن العلم بآيات الله تعالى وأحاديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم لاستغنى كبار الصحابة عن مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أنهم بلغوا أعلى المقامات في الإيمان إلا أن أحدهم لم يستغن عن سماع حديث واحد من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان من المعلوم عند كل عاقل أن حياة جسمه متوقفة على الهواء والغذاء والماء ولا يمكنه أن يستغني عن ذلك لتستمر عليه الحياة فكذلك حياة روحه التي قام بها جسمه لا بد لها من غذاء ومدد حتى تحيا الحياة الطيبة الأبدية، ولا تتغذى الروح ولا تحيا إلا بسماع آيات الله تعالى وأحاديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم.

ومن هنا يعلم المؤمن العاقل أنه لا يمكنه أن يستغني عن حضور مجالس العلم والوعظ مهما كثر سماعه وطال عمره.

وقد قال صلى الله عليه وسلم: [لَنْ يَشْبَعَ الْمُؤْمِنُ مِنْ خَيْرٍ يَسْمَعُهُ حَتَّى يَكُونَ مُنْتَهَاهُ الْجَنَّةُ] ^١.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع]، وفي رواية [بما صنع] ^٢.

فمن مشى إلى مجالس العلم فإن الملائكة تضع أجنحتها تواضعاً وتكريماً له، وإن الطير إذا أراد أن يتوقف عن الطيران طوى أجنحته، وفي هذا يقول سبحانه بالأمر بالتواضع: (واخفض جناحك للمؤمنين) كناية عن التواضع معهم.

قال المناوي في فيض القدير: (إن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم) تبسطها له وتفرشها تحت قدميه. ^٣ اهـ

أي: توقيراً وتعظيماً له لماله من المكانة والفضل عند الله تعالى.

وفي هذا أيضاً تبرك الملائكة بطالب العلم ^٤ إذا كان صادقاً مخلصاً لله تعالى في طلب العلم.

^١ سنن الترمذي كتاب العلم

^٢ جاء في مصنف عبد الرزاق ١/٢٠٤: [ما من خارج يخرج من بيته في طلب علم إلا وضعت له الملائكة أجنحتها رضى بما صنع].

^٣ ٦٩٣/١

^٤ ويسمى كل من قصد المسجد أو غيره لسماع العلم يسمى (طالب علم) وإن لم يكن منتسباً لمدرسة أو رباط معين، كما يسمى من خرج لشراء الخبز والخضروات والفواكه (طالب خبز) وهكذا.

ولكي يستفيد طالب العلم وينتفع بما يسمعه من آيات الله تعالى وأحاديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم عليه أن يتحقق بالإخلاص لله تعالى، وأن يطهر قلبه وينظفه من الشبهات والأمراض القلبية، ويتقبل ما يرد عليه من آيات وأحاديث بالتسليم، فإذا فعل ذلك استفاد وانتفع ووجد حلاوة ما يسمعه في قلبه..

ألا ترى أن الماء الصافي يسكب في الإناء فيتعكر إذا لم يكن الإناء صافياً نظيفاً فيظن الجاهل أن الماء عكر مشوب ولكنه في الحقيقة صاف ونظيف تعكر بما في الإناء من أوساخ وشوائب، وهذا مثل القلب وما يرد عليه مما يسمعه صاحبه من "قال الله" و"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم"، فإذا كان القلب نظيفاً خالياً من الشوائب والآفات والشبهات قبل ما يرد عليه من آيات الله تعالى وأحاديث رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ووجد حلاوتها واستفاد وانتفع بها.

وإذا كان القلب مريضاً بالكبر والتعالي أو خيمت عليه الشبهات فلا يجد حلاوة لما يسمعه من آيات الله جل وعلا وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وربما اتهمها بالنقص والخلل، والحال أن سقم قلبه ودرنه منعه من معرفة الحق والانتفاع به.

قول الرسول صلى الله عليه وسلم: [وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء] والحيتان جمع حوت وهو في الأصل السمكة الكبيرة، وقد تطلق كلمة حيتان البحر على دواب البحر كلها والظاهر هنا هو المراد كما نص عليه العلماء^١.

وإن العلم بـ "قال الله تعالى" و"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" هو نور السموات والأرض وبه قوامها، وعندما يريد الله تعالى تخريب هذا العالم بسمواته وأرضه لا يبقي في الأرض علماً بـ "قال الله جل وعلا" و"قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" فتقوم الساعة عندئذ.

^١ انظر كتاب عون المعبود شرح سنن أبي داود ١٣٧/٨ وكتاب تحفة الأحمدي شرح جامع الترمذي ٤٨١/٦

فطالما أن العلماء هو قوام السموات والأرض فإن أهل السموات والأرض يستغفرون للعالم أي يدعون له أن يغفر الله تعالى له ويعظم نفعه ويرقي مقامه.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي في سننه عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: [ذُكِرَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجلان أحدهما عابد والآخر عالم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير].

وإن أصل الخير ومنبعه هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكل من تلقى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم له نصيبه من تعليم الخير. وما دام أهل السموات وأهل الأرض يستفيدون من علم العلماء وتعليمهم الخير فإن النحلة أيضاً لها حظ في ذلك بأن العالم يبين للناس أن لا يؤذوا النحلة ولا يطيئوا جحرها، وهكذا جاء بعلم فيه رحمة حتى للنحلة فراحت النحلة تدعو وتستغفر للعالم الذي يعلم الخير.

قول الرسول صلى الله عليه وسلم: [وإن فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم] وفي حديث آخر: [وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب]^١.

اعلم أولاً أنه لا بد للعالم والعابد من علم بالواجبات الشرعية والمنهيات الشرعية فمن تعلمها واقتصر عليها وانصرف بكليته إلى عبادة الله تعالى وشغل وقته في الطاعات العلمية والقولية فيقال عنه إنه عابد.

وأما من قام بالواجبات الشرعية وانصرف إلى طلب العلم وشغل وقته ما بين طلب للعلم وتعليمه للناس فيقال عنه إنه عالم.

^١ انظر سنن الترمذي كتاب العلم

وإن عبادة العابد يقتصر نفعها على نفسه فقط، وأما العالم فقد انتفع بما تعلم وراح ينفع الناس فنفعه متعدّد إلى غيره فضله عند الله تعالى أكبر وأعظم من فضل العابد، كما يستضيء أهل الأرض بنور القمر دون غيره من الكواكب مع أن الكواكب نيرة لكن نورها لا يستنير منه أهل الأرض كما يستنيرون من نور القمر.

واعلم أن القمر والكواكب كلها إنما تستمد نورها من نور الشمس الفلكية فكذلك العلماء والعبّاد والمؤمنون إنما يستمدون النور من شمس الذات المحمدية .

وقد كان من مواقف سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع العالم أنه السراج المنير كما قال تعالى: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً * وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً) وهو صلى الله عليه وسلم يستفيض نوره من رب العالمين جل وعلا.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وإن العلماء ورثة الأنبياء] يعني أن العلم بما جاء عن الله ورسوله هو علم موروث عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا بد في كل زمن من علماء عاملين يحملون هذا العلم المحمدي يبلغونه للناس وبهم تقوم حجة الله على خلقه، إلا أنهم آخر الزمان يقل عددهم ولكن الأرض لا تخلو منهم تصديقاً لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك]¹.

وفي رواية: [ولن تزال هذه الأمة قائمة على أمر الله لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله]².

وفي رواية: [لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال]³.

¹ كما في صحيح مسلم كتاب الإمارة

² صحيح البخاري كتاب العلم عن معاوية رضي الله عنه

³ سنن أبي داود كتاب الجهاد عن عمران بن حصين رضي الله عنه

وفي رواية: [لا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى وينزل عيسى ابن مريم عليه السلام]^١.

وهذه الطائفة تشمل العلماء والأولياء والأتقياء والصلحاء.

وينبغي على المؤمن العاقل أن يسأل الله تعالى أن يعرّفه على العلماء والأولياء وأن يجمعه بهم لينال من خيرهم وينتفع بهم لأنهم كالعرائس لا يراها إلا المحارم .

ونسأل الله تعالى التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين .

^١ المسند ١٩٠٠٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الحادي والعشرون

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد:

يقول الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب فضل الذكر والحث عليه:

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: [كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أيعجز أحدكم أن يكسب في كل يوم ألف حسنة؟! فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب ألف حسنة؟ قال: يسبح مائة تسبيحة فيكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة] رواه مسلم.

قال الحميدي: كذا هو في كتاب مسلم: [أو يحط] قال البرقاني: ورواه شعبة وأبو عوانة ويحيى القطان عن موسى الذي رواه مسلم من جهته فقالوا: [ويحط] بغير ألف.

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [يصبح على كل سلامي من أحدكم صدقة، فكل تسبيحة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليل صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى] رواه مسلم.

وعن أم المؤمنين جويرية بنت الحارث رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج من عندها بكرة حين صلى الصبح وهي في مسجدها، ثم رجع بعد أن أضحى وهي جالسة، فقال: [ما زلت على الحال التي فارقتك عليها؟ قالت: نعم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وزنت بما قلت منذ اليوم لوزنتهن: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضاء نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته] رواه مسلم.

وفي رواية له: [سبحان الله عدد خلقه، سبحان الله رضاء نفسه، سبحان الله زنة عرشه، سبحان الله مداد كلماته]. اهـ

يدل الحديث المتقدم على أن الله تعالى يعطي العبد على التسبيحة الواحدة عشر حسنات فلو سبح الله مائة مرة أعطاه الله ألف حسنة وحط عنه ألف خطيئة كما تقدم، والمراد من الخطايا الذنوب الصغائر التي لا تتعلق بحقوق العباد لأن حقوق العباد لا بد أن يغفر صاحبها حقه ويضعه عن ارتكبه، وأما الذنوب الكبائر فلا بد لها من توبة خاصة.

وقد يزعم قائل أنه ينفي أخذ الحديث على إطلاقه يعني أن التسبيح يحط الخطايا كلها صغيرها وكبيرها فيقال في الجواب:

إن تكفير الخطايا مقيد بالصغائر دون الكبائر دل عليه قوله صلى الله عليه وسلم:

[الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ].^١

فقوله صلى الله عليه وسلم: [مكفرات ما بينهن] يعني من الصغائر، ولا بد للكبائر من توبة خاصة معينة تتضمن شروط التوبة النصوح من ندم واستغفار وعزم على ألا يعود إلى فعل المعصية .

وأما من سبح الله وحمده واستغفره ونوى التوبة من ذنوبه الصغيرة والكبيرة وندم وتأسف على فعلها فهو يعتبر تائباً إلى الله تعالى.

وفي رواية للحديث المتقدم: [أو يحط عنه ألف خطيئة^٢] وفي رواية: [ويحط عنه ألف خطيئة^٣] فكلمة [أو] تفيد معنى الواو كما نبه عليه المحدثون.^٤

^١ صحيح مسلم كتاب الطهارة

^٢ صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

^٣ كما في مصنف ابن أبي شيبة

^٤ قال القاري في مرقاة المفاتيح ١٥٩٥/٤: " وقد تأتي الواو بمعنى (أو) فلا منافاة بين الروایتين، والمعنى: أن من قالها يكتب له ألف حسنة إن لم يكن عليه خطيئة،

ويدل هذا الحديث أيضاً على كثرة تعرض الإنسان للذنوب الصغائر ولذلك شرع الله له أقوالاً وأفعالاً إن هو قام بها كفر الله بها عنه ما صدر منه من صغائر، وجاء بيان ذلك كله في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي الحديث القدسي يقول سبحانه: [يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار^١] فمن سَلِمَ من الكبائر قد يقع في الصغائر، ومن سلم منها قد يقع في أصغر الصغائر، وكل مؤمن على حسب إيمانه ومقامه، ألا ترى أن الآداب المطلوبة من الأولياء والعارفين أشد وأقوى من الآداب المطلوبة من غيرهم من عامة الناس.

ومن هنا تعلم أنه كلما ارتقى المؤمن في مقامات الإيمان والكمال ازدادت مسؤوليته ودقة المؤاخذة عليه من صغائر يراها من هو أدنى منه من المباحات، وهذا معنى القول :

" حسنات الأبرار سيئات المقربين، ومباحات العوام سيئات الأبرار^٢"

فمن فضائل التسبيح أنه يكفر الصغائر ويزيد في الحسنات، كما أنه يثبت الإيمان في القلب ويزيده أيضاً مراقبة لتوحيد الله تعالى على الدوام إذ قد تمر على القلب خواطر ووساوس تنافي توحيد الله تعالى عما لا يليق فيأتي التسبيح ويزيل تلك الخواطر والوساوس ويطردها.

وإن كانت عليه فيحط بعض ويكتب بعض، ويمكن أن تكون (أو) بمعنى الواو، أو بمعنى (بل) فحينئذ يجمع له بينهما، وفضل الله أوسع من ذلك".

١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

٢ هذا القول: (حسنات الأبرار سيئات المقربين) رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم ضياء الدين الكمشخاني النقشبندي في جامع الأصول في الأولياء ص ٢١٦، ورفع أيضاً شمس الدين محمد بن أبي بكر الرازي الحنفي في حقائق الحقائق ص ١٧، وممن عده حديثاً الشيخ أبو الفضل محمد بن محمد الشافعي فإنه قال في كتابه " الظل المورود " (١ / ١٢): فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: فذكره، وعزاه العجلوني في كشف الخفا إلى أبي سعيد الخراز، كما رواه ابن عساكر في ترجمته، وعزاه الزركشي في لقطته للجنيدي، والقرطبي في تفسيره للإمام الجنيدي أيضاً، وقال الإمام الغزالي في الإحياء: قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات المقربين.

وتسبيح الله تعالى هو تنزيهه جل وعلا عما لا يليق به من الآفات والعيوب والنقائص، وتنزيهه سبحانه أيضاً عن الشبيه والمثيل والنظير كما قال تعالى: (ليس كمثله شيء) وقال عز من قائل: (لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد).

فلو جال فكرك بأن صورت لله في خيالك صورة فقل: "سبحان الله" بلسانك وقلبك أي نزه الله تعالى عن الشبيه الذي قام في خيالك، ونزهه سبحانه عن التمثيل والتصوير والنظير جل وعلا.

فالتسبيح فيه تنزيه وتنزه، فبالتسبيح يتنزه المؤمن عن الذنوب وينزه عقيدته عما يعترئها من أمور لا تليق نسبتها إلى الله تعالى.

ومما جاء في فضائل التسبيح قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث: [كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم] ١.

وينبغي على الإنسان أن يجعلها من أوراده اليومية كما دلت عليه أحاديث أخرى بأن يقولها الإنسان في اليوم مائة مرة ٢.

قوله صلى الله عليه وسلم: [سبحان الله وبحمده] أي أسبح الله تسبيحاً لائقاً به، وأحمده بحمده اللائق به، والتسبيح تنزيه الله عما لا يليق، والحمد إثبات الكمالات والمحاسن اللائقة به سبحانه.

واعلم أن المدح والحمد متقاربان في المعنى إذ كل حمد هو مدح ولا عكس، والإنسان لما يمدح أو يحمد غيره إنما يمدحه أو يحمده على صفة كمال هي فيه، فقد يمدح فلاناً على علمه وصلاحه وكرمه.

١ صحيح البخاري كتاب الإيمان والندور

٢ كما في أمالي الجرجاني عن ابن عمر قال: حَضَرْتُ رَسُولَ اللَّهِ وَأَتَاهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْتُ ذَاتُ يَدَيَّ. قَالَ: فَقَالَ: "أَيْنَ أَنْتَ مِنْ صَلَاةِ الْمَلَائِكَةِ، وَتَسْبِيحِ الْخَلَائِقِ، وَبِهَا تُرْزَقُونَ؟" قَالَ ابْنُ عُمَرَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمَا تَسْبِيحُ الْخَلَائِقِ وَصَلَاةِ الْمَلَائِكَةِ؟ قَالَ: "سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ، اسْتَغْفِرِ اللَّهَ مِائَةَ مَرَّةٍ، مَا بَيْنَ طُلُوعِ الْفَجْرِ إِلَى أَنْ تُصَلِّيَ الصُّبْحَ تَأْتِكَ الدُّنْيَا صَاعِرَةً رَاغِمَةً..." الحديث

ولما يحمد الإنسان ربه سبحانه إنما يحمده على كمالاته سبحانه،
والمحامد ينبغي أن تكون على قدر كمالات ومحاسن المحمود ، وكمالات
الله تعالى لا تتناهى، فأنى للعبد أن يحصي ثناء وحمداً لربه سبحانه؟!!

وإنما يحمد العبد ربه بما حمد هو سبحانه نفسه وعلم خلقه ذلك ويين
ذلك رسوله صلى الله عليه وسلم، فتقول: "سبحان الله وبحمده" أي
أسبح الله تسبيحاً لائقاً به، وأحمده بالحمد اللائق به، كما يرتضيه هو
لنفسه جل وعلا.

ومن جملة فضائل التسبيح ما بيّنه صلى الله عليه وسلم أن الإنسان
بتسبيحه وحمده لله تعالى يُسقط عن نفسه ما طالبه الله به من صدقات
عن سلامياته أي أعضائه إذ إن على كل سلامي من الإنسان صدقة كل
صباح يصبح فيه.

روى أبو داود عن أبي بُرَيْدَةَ رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [فِي الْإِنْسَانِ ثَلَاثٌ مِائَةٌ وَسِتُّونَ مَفْصِلًا فَعَلَيْهِ أَنْ
يَتَصَدَّقَ عَنْ كُلِّ مَفْصِلٍ مِنْهُ بِصَدَقَةٍ ، قَالُوا: وَمَنْ يُطِيقُ ذَلِكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ ؟
قَالَ: النَّخَاعَةُ فِي الْمَسْجِدِ تَدْفِنُهَا، وَالشَّيْءُ تُنَحِّيهِ عَنِ الطَّرِيقِ، فَإِنْ لَمْ تَجِدْ
فَرَكْعَتَا الصُّبْحِ تُجْزِيكَ ^١] .

والصدقة على أنواع فهناك الصدقات المالية وهناك الصدقات القولية
والصدقات العملية، فمن سبح الله تعالى كل صباح ثلاثمائة وستين مرة
فقد أدى حق الله عليه بما أمره به من صدقات على كل سلامي فيه ،
ومن تصدق بصدقة عن كل سلامياته أجزأه ذلك، وكل إنسان على حسب
استطاعته.

^١ سنن أبي داود كتاب الأدب

وقد بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن في كل تسبيحة صدقة
وفي كل تحميدة صدقة وأمر بالمعروف صدقة ونهي عن المنكر صدقة.

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يندب إلى جوامع الكلم في الدعاء والتسبيح
والتحميد، ومن ذلك ما قاله لأم المؤمنين السيدة جويرية بنت الحارث
رضي الله عنها وأرضاها عنا^١:

[لقد قلت بعدك أربع كلمات ثلاث مرات لو وُزنت بما قلت اليوم
لوزنتهن] أي لرجحت بهن، والكلمات هي: [سبحان الله وبحمده عدد
خلقه] أي عدد الخلق الذين خلقهم والذين سيخلقهم، ولا يعلم عدد
ذلك إلا الخالق جل وعلا.

قوله صلى الله عليه وسلم: [ورضاء نفسه] أي تسبيحاً وحمداً يرضى به
الله تعالى.

[وزنة عرشه] أي وزنة العرش الذي هو أكبر العوالم الجسمانية المشهودة
، والمعنى: أسبح الله تسبيحاً وأحمده حمداً يزن عرش الله تعالى.

^١ ومن الواجب على كل مؤمن أن يسعى في إرضاء أمه التي ولدته فما بالك بأمهات
المؤمنين اللاتي يجب أن يكون مقامهن في منزلة أقوى وأعظم من مقام الأم؟!
وهن زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواتي قال فيهن
سبحانه: (النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) ويفهم من الآية أنه إذا
كان مقام زوجات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فوق مقام الأم لدى كل
مؤمن فإن مقامه صلى الله عليه وسلم فوق مقام الوالد لدى كل مؤمن إذ له صلى
الله عليه وسلم مقام الأولوية وليس لأبيك في النسب هذا المقام فافهم.
وقد قال صلى الله عليه وسلم: [إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بِمَنْزِلَةِ الْوَالِدِ].. الحديث كما في سنن
أبي داود، وفي صحيح ابن خزيمة: [إنما أنا لكم مثل الوالد لولده] فهو صلى الله
عليه وسلم بالمؤمنين رؤوف رحيم، وهو أوصى بهم من أنفسهم، وأرحم بهم من
أنفسهم، وأحن عليهم من أنفسهم، وأعطف على أنفسهم من أنفسهم، ولذلك
فإن من واجب كل مؤمن أن يسعى إلى إرضاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم عنه، قال تعالى: (والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) لأنه هو
صلى الله عليه وسلم الوالد الأول للمؤمنين وهو الوالد الأعظم لهم، ومما ذكر عن
عمر رضي الله عنه أنه كان يقول: "نعوذ بالله من غضب الله وغضب رسوله صلى
الله عليه وسلم". كما في صحيح مسلم كتاب الصيام

فإن قيل: إن العرش عالم حسي والتسبيح والتحميد أمر معنوي فكيف يتوازن التسبيح والتحميد مع وزن العرش؟

فيقال: إن المعاني لها صور نورانية محسوسة مشهودة في عالم المثال ، ففي عالم الدنيا نقول: هذه أمور معقولة وتلك أمور محسوسة ، وهذا يتبع عالم المعاني وذاك عالم المباني، وأما في عالم المثال فإن المعقولات والمعنويات لها أمثلة حسية نورانية، وإن للتسبيح والتحميد مثلاً نورانياً كبيراً، وعلى هذا يكون من سبح الله وحمده زنة عرشه أن يكون مثال هذا التسبيح والتحميد النوراني كبير الوزن بحيث يبلغ وزنه وزن العرش.

[ومداد كلماته] أي تسبيحاً وتحميداً يمتد امتداد كلمات الله تعالى ، وكلمات الله تعالى تتضمن كلماته القرآنية التدوينية الشرعية ، وكلماته التكوينية التي يتوقف عليها وجود المخلوقات كما قال تعالى: (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون).

وإن كل مخلوق كبير أو صغير يحتاج في كل لحظة بل أقل من اللحظة يحتاج إلى مدد الله له بأن يمدّه بالوجود وهو قول الله له (كن) حتى يبقى على هذا المخلوق كونه ، وهكذا فلا يحصي كلمات الله التكوينية إلا الله تعالى، قال جل وعلا: (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً).

فانظر في تسبيحه وتحميده صلى الله عليه وسلم، إنه تسبيح وتحميد من آتاه الله جوامع الكلم، فلم يترك شيئاً من العوالم الماضية والآتية إلا وملاًها تسبيحاً وحمداً لله تعالى.

فاتبع أيها المؤمن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء عنه من أفعال وأقوال وتسبيحات ومحامد ودعاء تنل خيراً كثيراً، وقد قال تعالى: (واتبعوه لعلكم تهتدون) ولكن هيهات لك أن تلاحظ وتشهد من المعاني ما كان يشهده سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يسبح الله ويحمده ، إذ إن ملاحظة المعاني و مشاهدة أسرارها إنما تكون على حسب العلم بالله وكمالاته وعظمته جل وعلا ، وهو صلى الله عليه وسلم أعلم خلق الله بالله، وهو أتقى خلق الله لله كما قال عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام: [والله إني لأعلمكم بالله عز وجل وأخشاكم له^١]. وترى المؤمنين كلهم يسجدون لله فهل هم في الخشوع والحضور مع الله تعالى في سجودهم على حد سواء؟!.

نعم يختلف ذلك بينهم على حسب مراتبهم في الإيمان والعلم، وكلما زاد المؤمن علماً بالله وعظمته زاد خشوعه ورقته مشاهدته. ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين.

^١ انظر المسند ٢٢٣٤٨

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثاني والعشرون

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) في باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله تعالى، فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله تعالى قسوة للقلب، وإن أبعد الناس من الله تعالى القلب القاسي] رواه الترمذي.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من وقاه الله شر ما بين لِحْيَيْهِ وشر ما بين رجله دخل الجنة].

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. اهـ

إن من جملة وظائف اللسان التي خلق الله اللسان من أجلها وأودعها فيه الكلام، فاللسان أمانة ائتمن الله الإنسان عليها، وأمره ألا يستعملها إلا فيما شرعه سبحانه بأن لا يتكلم إلا بما فيه الخير والصلاح، ونهاه عن فحش الكلام وعن جميع ما فيه الضرر والأذى كالغيبة والنميمة والكذب والسخرية وغير ذلك.

وقد خلق الله تعالى اللسان في الإنسان ومكّنه من الكلام من أجل أن ينبئ عما في نفسه، ويعبر عن المعاني التي يريدها، فمنها المصالح الدنيوية كالبيع والشراء ومعاملة الآخرين، ومنها المصالح الأخروية وهي كلام طيب يتقرب به إلى الله تعالى كتلاوة القرآن الكريم وذكر الله تعالى والصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وغير ذلك مما شرعه الله تعالى وبيّنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإن الإنسان إذا أساء في كلامه فقد خان أمانة الله تعالى التي ائتمنه عليها، وتصرف فيها على وجه لا يرضيه سبحانه.

وإن الأذى الذي يصدر أحياناً من اللسان قد يكون أشد من ضربة السنان، لما له من آثار سيئة وعواقب وخيمة في نفوس الآخرين، فمن شتم وسب غيره فقد أصابه بأذى وضرر في نفسه مالا تفعله به ضربة الحجر أو طعنة السيف، وقد يفسد الإنسان بين الآخرين بالنميمة ويغرس في نفوسهم العداوة والبغضاء، وقد يحملهم ذلك على الاقتتال، فاعتبر إذاً في خطر اللسان وما يصدر عنه من كلام!

ولذلك أمر الله تعالى الإنسان أن يشغل نفسه بذكر الله تعالى، وهذا قوله صلى الله عليه وسلم: [لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فإن كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة للقلب]^١.

يعني أن الكلام كما يؤثر في نفوس الآخرين يؤثر أيضاً في نفس المتكلم وقلبه.

وإن كثرة الكلام المباح - وهو اللغو وهو الكلام الذي لا فائدة منه - يؤثر على قلب المتكلم ويجعل فيه القسوة، فما بالك بالكلام المحرم، وما أشد تأثيره على قلب المتكلم به؟!

ويصعب ويشق على صاحب القلب القاسي أن يخشع لله تعالى إن هو دخل في الصلاة أو سمع المواعظ والتذكير القرآني والنبوي، كل ذلك لأنه شغل لسانه بلغو الكلام مما أبعد قلبه عن مراقبة الله تعالى.

^١ سنن الترمذي كتاب الزهد

وقد مدح الله تعالى وأثنى على أولئك الذين يتاجرون ويبيعون ويشترون ويضربون في الأرض ولكنهم لا يغفلون عن ذكر الله تعالى وعن الصلاة ووصفهم بأنهم (رجال) أي: أنهم رجال في طاعة الله تعالى، فقال تعالى: (رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع) - أي: مهما كانت التجارة كثيرة عظيمة، دل على ذلك التنكير في كلمة تجارة (عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً) - جملة تُعَلِّ ما تقدم أي لأنهم يخافون يوماً (تتقلب فيه القلوب والأبصار) أي: لأن القلوب معرضة للتقلب والتحول على حسب تقلب الإنسان في أحواله وأفعاله، ولا يحفظ القلب من التقلب والقسوة إلا الإكثار من ذكر الله تعالى في جميع الأحيان والأحوال.

والقلب القاسي هو القلب الذي لا يخشع لله تعالى كما قال سبحانه: (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة).

وأما القلب الذي يكثر صاحبه من ذكر الله تعالى فمثله كالأرض الخاشعة وهي الأرض التي تصدعت وتشققت واستغاثت بربها وطلبت رحمته، قال تعالى: (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير). فلما خشعت الأرض وانكسرت لربها نزلت عليها رحمة الله تعالى فحييت وأنبتت واخضرت وأثمرت، وكذلك القلوب إن هي خشعت وخضعت لربها سبحانه أنزل الله عليها من أنواره وأسواره ورحماته وأحياها حياة الأبد.

وإن للخشوع آثاراً لا بد أن تظهر على الخاشع، فلما خشعت الأرض لربها ظهر ذلك عليها بأن تصدعت وتشققت فأنزل الله عليها رحمته، وكذلك إذا خشع القلب بأن انكسر لسلطان وسطوة الرب سبحانه ظهر أثر ذلك على جسم الخاشع بأن يقشعر جلده وتدمع عيناه وتخضع جوارحه وعند ذلك ينزل عليه سبحانه من الأنوار والأسرار على حسب حال الخاشع ودرجته في التقوى.

ولقد علّمنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نستعيد من قلب لا يخشع ففي الحديث عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو بهذه الدعوات: [اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، وقلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، ونفس لا تشبع، ثم يقول: اللهم إني أعوذ بك من هؤلاء الأربعة] ١ .

قوله صلى الله عليه وسلم: [وإن أبعد الناس عن الله القلب القاسي] أي: إن أبعد قلوب الناس عن الله القلب القاسي، وكلما خشع القلب لله تعالى ازداد قرباً من الله تعالى.

وكما تتعب أعضاء الإنسان وجوارحه إن هو أجهدتها في العمل كالمشي الكثير أو كثرة القراءة والمطالعة في أمور الدنيا فكذلك يتعب القلب ويكل إن أجهده صاحبه في التفكير بأمور الدنيا وكثرة لغو الكلام حتى إذا جاء إلى صلاته وراح يحضر قلبه ليخشع فلا يستجيب له قلبه لأن التعب والكلل قد سيطر عليه.

وأما من أكثر ذكر الله تعالى ولم يغفل عن الله تعالى ولا في حال من أحواله فإن قلبه يبقى يقظاً قوياً يخشع ويخضع لله تعالى إذا دخل صاحبه في الصلاة أو جلس يقرأ القرآن الكريم ويذكر الله تعالى.

وقد أمر الله تعالى الإنسان بالمواظبة على ذكر الله تعالى في جميع الأحوال ليبقى الإنسان يقظاً حاضراً، قال جل وعلا: (واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول) أي: جهراً ودون الجهر من القول أي سرّاً (بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين).

١ انظر سنن النسائي كتاب الاستعاذة

قوله تعالى: (واذكر ربك في نفسك) وهذا هو ذكر الإنسان ربه في قلبه (تضرعاً وخيفة) يعني به ذكر القلب لله تعالى (تضرعاً) سؤالاً ودعاء ورجاء (وخيفة) أي: وخشية من عظمته وكبريائه جل وعلا (ودون الجهر من القول) يعني به ذكر اللسان ويشمل الذكر الجهري والذكر دون الجهر أي: السر (بالغدو والآصال) أي: في جميع الأوقات (ولا تكن من الغافلين) والمراد أن لا تكون من الغافلين عن ذكر الله تعالى، فاذكره بأي نوع من أنواع الذكر وفي جميع الأوقات.

وقد يجهر الإنسان بذكر الله تعالى ليدفع عنه الغفلة وتقوى همته وليطرد الشيطان عنه.

روى أبو داود عن أبي قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم خرج ليلة فإدا هو بأبي بكر رضي الله عنه يصلي يخفض من صوته ، قال: ومَرَّ بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وَهُوَ يُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَهُ ، قَالَ: فَلَمَّا اجْتَمَعَا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: يَا أَبَا بَكْرٍ مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي تَخْفِضُ صَوْتَكَ ، قَالَ: قَدْ أَسْمَعْتُ مَنْ نَاجَيْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَالَ: وَقَالَ لِعُمَرَ: مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تُصَلِّي رَافِعًا صَوْتَكَ، قَالَ: فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوْقِطِ الْوَسَّانَ وَأَطْرُدِ الشَّيْطَانَ ، زَادَ الْحَسَنُ فِي حَدِيثِهِ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا بَكْرٍ ارْفَعْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا، وَقَالَ لِعُمَرَ: اخْفِضْ مِنْ صَوْتِكَ شَيْئًا^١ .

وصلى الله على معلم الناس الخير وجزاه الله عنا كل خير.

ومن هذا أخذ القوم رضي الله عنهم بذكر الله جهراً لدفع الشيطان وتقوية الهمة وتنشيط النفس، والشيطان يفر من ذكر الله تعالى لأن الشيطان ظلمي ولما ينتشر النور تزول الظلمة.

وأما من اعتاد فحش الكلام واشتغل بالغيبة والنميمة فقد عرض قلبه للظلمة والحجاب عن رب العالمين إن هو لم يتب.

^١ سنن أبي داود كتاب الصلاة

ففي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِّتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ] [أي: سواء كان هذا الذنب فعلياً أو قولياً] [فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ (كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)] ١.

فهذا وإن كان وصفاً للكافرين إلا أن فيه تحذيراً للمؤمنين من الإصرار على الذنوب وخطر ذلك على القلوب.

ولما حجت قلوب الكافرين في الدنيا عن رب العالمين بسبب كفرهم وذنوبهم حجب الله أبصارهم في الآخرة عن رؤيته سبحانه، فقال جل وعلا في الآية بعدها: (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) وكان جزاؤهم من جنس عملهم.

وإن صاحب القلب القاسي الذي قسا قلبه بسبب كثرة لغوه وغفلته عن ربه يصعب ويشق عليه أن يحضر قلبه إذا دعا وسأل ربه، وإن الله تعالى لا يستجيب دعاء من قلب غافل لاه كما جاء عنه صلى الله عليه وسلم: [ادْعُوا اللَّهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءَ مَنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ] ٢.

يعني أن من أراد أن يستجيب الله دعاءه ويحقق رجاءه فليكثر ذكر الله تعالى في جميع أحيانه حتى لا يقسو قلبه ولا يغفل عن ربه، وإن هو دعا ربه وسأله عندئذ سأله عن قلب حاضر مراقب الله تعالى، ويكون دعاؤه عندئذ أقرب للإجابة وأرجى للقبول عند رب العالمين الذي هو أكرم مسؤول وخير مأمول سبحانه وتعالى.

١ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

٢ سنن الترمذي كتاب الدعوات

قال تعالى: (وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون) أي: فكما أجيبهم إذا دعوني عن قلب حاضر خاشع فليستجيبوا لي إذا دعوتهم إلى عبادتي وطاعتي، ومن جملة ما دعانا إليه سبحانه إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ودعانا جل وعلا إلى طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد قال سبحانه: (للذين استجابوا لربهم الحسنى).

فقوله تعالى: (فليستجيبوا لي) أي: إذا دعوتهم إلى طاعتي وعبادتي (وليؤمنوا بي) أي أجيبهم وأثيبهم إن هم عبدوني وأطاعوني (لعلهم يرشدون) أي من أجل أن ينالوا الرشاد والسداد إن هم أجابوا دعوة ربهم لعبادته، وآمنوا بأنه سبحانه يتقبل منهم ويتجاوز عن سيئاتهم ويثيبهم ويزيدهم من فضله.

وإذا كانت أعضاء الإنسان وجوارحه لا تجد المتعة والراحة إلا بأسباب معينة، فالبصر مثلاً يجد لذته بالنظر إلى اللون الأخضر والأزهار، ولا يجد السمع لذته ومتعته إلا بسماع الأصوات الشجية المشروعة، ولا يجد الظمآن راحته ولذته إلا بشرب الماء البارد، وكذا الجائع يجد راحته ولذته بأكله الطعام الطازج، فلا يجد القلب راحته ومتعته ونعيمه إلا بذكر الله تعالى واللجوء إليه سبحانه، وهذا قوله تعالى: (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب) أي تسكن وتنعم. وقوله تعالى: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) فيه تنبيه ولفت نظر للإنسان إلى أنه لا يطمئن القلب إلا بذكر الله تعالى ولو كانت الآية: "تطمئن القلوب بذكر الله" لما أفادت الحصر عندئذ، بل قوله تعالى: (ألا بذكر الله تطمئن القلوب) يفيد الحصر ليعين أنه لا تطمئن القلوب إلا بذكر الله تعالى حصراً، ولا تطمئن بذكر غيره.

وإن الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيها ذكر الله تعالى، لأنك أولاً تقول: "اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم"، ثم إنك اشتغلت بأمر أمرِك الله به بقوله عز من قائل: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً)، ثم إنه من صلى على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى الله عليه، وصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما بين عليه الصلاة والسلام ذلك بقوله: [مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا^١].

وروى الطبراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من صلى علي بلغني صلواته وصليت عليه وكتب له سوى ذلك عشر حسنات].

وقد يتعب لسان الإنسان إذا أكثر من ذكر الله تعالى لكن قلبه لا يتعب ولا يمل ولا يكل، وهذا ما يجده كل مؤمن من نفسه لأن راحة القلب ونعيمه هي في ذكر الله تعالى.

واعلم أن لكل إنسان قلبين، قلباً جسمانياً صنوبري الشكل تتوقف عليه حياة جسمه، وقلباً آخر غيبياً قائماً في هذا القلب الجسماني، وهو موضع الاعتبار والتفكير والتأثر، وهو موضع الخطابات والأوامر الإلهية للإنسان.

وقد يفقد الإنسان إحساسه بقلبه وتأثره به كما هو شأن الكافرين بسبب إعراضه عن رب العالمين، ومثل ذلك مثل سائر الجوارح والحواس التي قد تفقد إحساسها ونورها ووظيفتها، فقد يفقد الإنسان بصره مع أن له عينين كبيرتين، وقد يفقد سمعه مع بقاء أذنيه، وقد يفقد حاسة الذوق بلسانه لآفة أصابته، وكذلك قد يموت قلبه الروحاني الغيبي مع بقاء قلبه الجسماني حياً، وهذا قوله تعالى: (إن في ذلك لذكرى) أي: إن في تذكير القرآن الكريم ومواعظه لذكرى (لمن كان له قلب) أي: قلب حي يقظ، وإلا فإن جميع المكلفين لهم قلوب جسمانية تحيا بها أجسامهم.

^١ صحيح مسلم كتاب الصلاة

يعني أنه من كان قلبه حياً يقظاً تأثر بمواعظ القرآن وتذكيره وانتفع وزاده ذلك هدى، وأما من كان ميت القلب أو سقيم القلب فعليه أن يصغي سمعه لمواعظ القرآن وتذكيره ويحضر قلبه عند سماعه ما استطاع، وبمواظبته على ذلك ينشرح صدره ويدخل نور القرآن فيه فيتأثر بخبر القرآن وينتفع ويهتدي وهذا قوله تعالى:

(إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد).

ونسأل الله تعالى أن يحيي قلوبنا بذكره، ويعطف علينا قلب حبيبه الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الثالث والعشرون

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم. أما بعد:

قال الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله تعالى عنه في كتابه (رياض الصالحين) باب تحريم الغيبة والأمر بحفظ اللسان :

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

[قلت: يا رسول الله أخبرني بعمل يدخلني الجنة ويباعدني عن النار.

قال: لقد سألت عن عظيم، وإنه ليسير على من يسره الله عليه، تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت .

ثم قال: ألا أدلك على أبواب الخير؟ الصوم جنة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار، وصلاة الرجل من جوف الليل، ثم تلا (تتجافى جنوبهم عن المضاجع) حتى بلغ (يعملون)^١ .

ثم قال صلى الله عليه وسلم: ألا أخبرك برأس الأمر وعموده وذروة سنامه؟

قلت: بلى يا رسول الله قال: رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد.

ثم قال: ألا أخبرك بملاك ذلك كله؟

قلت: بلى يا رسول الله، فأخذ بلسانه وقال: كف عليك هذا.

^١ قال تعالى: (تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ).

قلت: يا رسول الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟

فقال: ثكلتك أمك! وهل يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم؟! .

رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح. اهـ

قوله صلى الله عليه وسلم: [لقد سألت عن عظيم] أي: عن أمر عظيم، وإن هذا الحديث يدل - فيما يدل - على حرص الصحابة رضي الله عنهم على الفوز بالجنة والنجاة من النار، فكانوا مع شدة خوفهم وورعهم يسألون سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أعمال إن عملوها أدخلهم الله الجنة وأنقذهم من النار، وكان صلى الله عليه وسلم يجيبهم عن ذلك ويدلهم إلى ذلك.

وهذا ما يجب على المؤمن أن يكون عليه حاله وهو أن يخاف عذاب الله تعالى ويسأله جنته ويرجوه رحمته.

وقد قال الله تعالى فيما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي: [وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمّنته يوم القيامة، وإذا أمني في الدنيا أخفته يوم القيامة] ^١ كل ذلك لأن الإنسان هو عبد الله تعالى، والله هو ربه، والله تعالى على عبده حق أن يعبد، لأنه جل وعلا هو ربه الذي خلقه ورزقه ويقويه ويمده بما يحتاج إليه، فقيامه بحق الله عليه هو بمقتضى عبوديته لله تبارك وتعالى.

وهو سبحانه حقّ على نفسه تفضلاً منه وكرماً أن يثيب العبد إن هو عبد الله جل وعلا وقام بحق الله عليه.

وأما من عصى ربه وخالف أمره فقد تجاوز حده، فإن أنكر عبوديته لله تعالى وربوبية الله تعالى عليه فقد استحق عندئذ عذاب الله تعالى عدلاً وقسطاً.

^١ كما في صحيح ابن حبان كتاب الرقائق

فالله سبحانه وتعالى رب يُعبد لذاته وإن لم يخلق جنة ولا ناراً كما تفعل ذلك الملائكة عليهم السلام.

وقد رَغِبَ سبحانه عباده في جنته وخوفهم من عذابه، فمن رغب فيما رَغِبَ الله تعالى به وأخذ أسباب ذلك فإن ذلك من جملة عبادته لله لأنه رغب فيما رغبه به الله تعالى.

وكذلك من خاف مما خوفه الله تعالى منه وهو النار وأخذ أسباب البعد عنها فهذا من جملة عبادته لله تعالى لأنه خاف مما خوفه الله تعالى منه.

وهذا هو طريق الكمال، وهو أن يعبد الإنسان ربه خوفاً ورجاء ورغبة ورهبة وهذا معنى قول السيدة رابعة العدوية رضي الله تعالى عنها: (إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكن علمت أنك إله حقاً تُعبد فعبدتك لذاتك).

ولا يعني هذا أنها تزهد في الجنة ولا تخاف من النار، بل هي تعبد الله تعالى لأنه جل وعلا رب يُعبد وأمر بعبادته فهي تعبده تبارك وتعالى وإن لم يخلق جنة ولا ناراً.

وقد أخبر سبحانه عن رسله - الذين هم سادة العالم وأفضلهم - أخبر أنهم يعبدون الله تعالى لذاته، ومع ذلك يسألون الله الجنة ويعوذون به من النار، لأنه هو سبحانه رَغِبَ عباده في جنته وخوَّفهم من ناره، ومن رغب فيما رَغِبَ الله تعالى به، وخاف مما خوف الله تعالى منه فقد عبد الله وأطاعه، ومن زهد في الجنة واستهان بالنار فقد استصغر ما عَظَّمه الله تعالى واستخف بأمر الله تعالى، وهذا ما أجاب به رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل رضي الله عنه بقوله: [لقد سألت عن عظيم] ولم يقل له: إن الأمر سهل يسير لا يحتاج إلى الاهتمام والسؤال عنه.

فدخول الجنة والنجاة من النار أمر كبير عظيم لكن الله تعالى ييسره ويسهله على من سأله وسلك طريقه، وقد قال تعالى:

(فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز).

فهذا هو الفوز الكبير والفضل العظيم الذي يتفضل به سبحانه على عباده المؤمنين المتقين، لأن الجنة جنة الله تعالى ودار ضيافته وجواره ومشاهدته وتجلياته ورؤيته سبحانه فلا يدخل الجنة إلا الطاهرون الطيبون ولهذا يقال لداخلها يوم القيامة ما جاء في الآية: (طبتم فادخلوها خالدين) وقال تعالى: (الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون).

وأما من مات من المؤمنين وله ذنوب لم يتب منها فإنه يتطهر منها في براز الآخرة لأن الذنوب أدناس لا بد من التطهر منها لدخول الجنة، ومن مر على براز الآخرة ولم يطهر من ذنوبه لأنها كثيرة مستحكمة فلا بد له من غمسة في جهنم ليتطهر، حتى إذا طهر وطاب أخرج من النار وأدخل الجنة، وذلك مع اعتبار شفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وله صلى الله عليه وسلم الشفاعة الخاصة التي ينالها كل مؤمن على حسبه.

قوله صلى الله عليه وسلم: [تعبد الله لا تشرك به شيئاً] يعني: تتحقق بقولك: "لا إله إلا الله" أي: لا معبود يُعبد بحق إلا الله تعالى.

ثم ذكر له صلى الله عليه وسلم باقي أركان الإسلام.

فذكر له فرائض الإسلام أولاً لأنه لا بد للعبد أن يتحقق بها حتى يصح له إسلامه، ثم بعد ذلك يسلك طرق النوافل وهو قوله صلى الله عليه وسلم: [ألا أدلك على أبواب الخير].

وقال تعالى في الحديث القدسي:

[وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه] ^١.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [ألا أدلك على أبواب الخير] أي: الخير الأكبر الشامل لكل خير، ومن جملته خير الدين ليزداد المؤمن تقرباً إلى الله بصدقاته وصلاته.

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [الصوم جنة] أشار بذلك إلى صيام النوافل والتي من جملتها صيام يومي الإثنين والخميس¹ وصيام الأيام البيض من كل شهر² وهي أيام الثالث عشر والرابع عشر والخامس عشر وهي التي يقارب فيها القمر حتى يصير بدرًا، وهناك صيام النصف من شعبان³ وصيام عاشوراء وصيام يوم عرفة على غير أهل عرفة⁴ وقد جاء بيان ذلك عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومن لم يستطع صيام النوافل لمرض فليנו الصيام إن هو استطاع فإن الله تعالى يثيبه على نيته.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [الصوم جنة] أي وقاية ، فصوم فريضة رمضان له وقاية، وصوم النوافل له وقاية أخرى، والوقاية تعني الحفظ من الوقوع في المخالفات فيتجنب بذلك عذاب الله تعالى وسخطه.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار] أي: تُكفِّر الذنوب الصغائر، أما الكبائر فلا بد لها من توبة معينة.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وصلاة الرجل من جوف الليل] وكل نفل يصله المسلم بعد فرض العشاء يسمى قيام الليل، وأما إذا نام في الليل وقام بعد نصف الليل يصلي فتكون صلاته قيام الليل والتهجد ،

¹ جاء في سنن الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [تُعْرَضُ الْأَعْمَالُ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ فَأَحَبُّ أَنْ يُعْرَضَ عَمَلِي وَأَنَا صَائِمٌ].

² روى النسائي في سننه عَنْ جَرِيرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عنه عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ صِيَامُ الدَّهْرِ وَأَيَّامُ الْبَيْضِ صَبِيحَةَ ثَلَاثِ عَشْرَةَ وَأَرْبَعِ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ].

³ روى ابن ماجه في سننه عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إذا كانت ليلة النصف من شعبان فقوموا ليلها وصوموا نهارها] ... الحديث

⁴ جاء في صحيح مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ ، وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ أَحْتَسِبُ عَلَى اللَّهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ].

وهذا أفضل وأعظم أجراً لأنه ترك الهجود أي النوم وقام يصلي وقت
السحر وهو وقت تجلي رب العالمين على عباده القائمين.^١

وقوله تعالى: (يدعون ربهم خوفاً وطمعاً) أي خوفاً مما عنده سبحانه من
العذاب وطمعاً فيما عنده جل وعلا من الثواب.

(ومما رزقناهم ينفقون * فلا تعلم نفس) أي نفس هذا شأنها أنها تقوم
للّه وتتجافى عن المضجع وتنفق مما رزقها الله تعالى، قال جل وعلا:
(فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) أي فلا تعلم نفس هذا وصفها
لا تعلم ما أعد الله لها من نعيم تقر به العين.

وفي الحديث القدسي يقول صلى الله عليه وسلم عن ربه جل وعلا:
[أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على
قلب بشر]^٢، ومن جملة عباد الله الصالحين بالصلاح الخاص قُوم الليل
كما قال صلى الله عليه وسلم: [عليكم بقيام الليل فإنه دأب الصالحين
قبلكم...]^٣ الحديث .

وفي الحديث الذي رواه الإمام مسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه
عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [سأل موسى ربه : ما أدنى
أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة الجنة]
-أي هو آخر من يخرج من العصاة من جهنم - [فيقال له: ادخل الجنة]
..... الحديث وفيه :

[قال: ربّ فأعلاهم منزلة؟]

^١ جاء في كتاب الزاهر للأنباري :

تهجّد: تفعلّ، من الهجود، وهو السهر. يقال: قد هجد الرجل هجوداً: إذا سهر،
وهجد هجوداً: إذا نام. وهو حرف من الأضداد اهـ ٦٦/٢

وهناك أفعال إذا دخلت عليها التاء أعطتها معنى النقيض كما في: "هجد" أي نام
"تهجد" ترك النوم، "أثم" وقع عليه الإثم، "تأثم" تباعد عن الإثم، "مرض" أصابه
المرض "تمرّض" تعاطى أسباب الشفاء من المرض وهكذا ، وتسمى تاء السلب.

^٢ انظر صحيح البخاري كتاب بدء الخلق وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة
نعيمها وأهلها

^٣ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الدعوات

قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

قال: ومصداقه في كتاب الله عز وجل (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين) [١].

وهؤلاء الذين جاء ذكرهم في الحديث القدسي المتقدم: [أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر].

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً والحمد لله رب العالمين .

١ في كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها.

فهرس الكتاب

٣	الدرس الأول
١٢	الدرس الثاني
٢١	الدرس الثالث
٢٨	الدرس الرابع
٣٤	الدرس الخامس
٤١	الدرس السادس
٤٩	الدرس السابع
٥٧	الدرس الثامن
٦٥	الدرس التاسع
٧٤	الدرس العاشر
٨٣	الدرس الحادي عشر
٩٠	الدرس الثاني عشر
٩٧	الدرس الثالث عشر
١٠٦	الدرس الرابع عشر
١١٤	الدرس الخامس عشر
١٢٣	الدرس السادس عشر
١٣١	الدرس السابع عشر
١٤١	الدرس الثامن عشر
١٤٩	الدرس التاسع عشر
١٥٨	الدرس العشرون
١٦٦	الدرس الحادي والعشرون
١٧٤	الدرس الثاني والعشرون
١٨٣	الدرس الثالث والعشرون

مجالسُ الحديثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ الجزء الثالث

للإمام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

جمع وتقديم
ولده

المهندس الشيخ محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما



مجالسُ الحديثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

الجزء الثالث

للإمام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

جمع وتقديم

ولده

المهندس الشيخ محمد محيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

اعتنى بها وخرَّج أحاديثها

خادم العلم الشريف

الدكتور بكري بريمو السمان

في هذه المجالس

بيانات بعض أحاديث سيدنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم

التي ذكرها الإمام البخاري

رضي الله عنه

في (الجامع الصحيح)

وهي مجالس الشيخ الإمام

في جامع (الحموي)

يوم الأربعاء

بعد شروق الشمس بقليل

أيها القارئ الكريم

هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة
إلى العلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام المفسر المُحدِّث الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
وإلى ولده العالم العامل
المهندس الشيخ
محمد مُحيي الدين سراج الدين
رضي الله عنهما، وجزاك الله خيراً
الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام
www.srajalden.com

المحاضرة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب العلم والعِظة بالليل

ثم ذكر بسنده إلى السيدة أم سلمة رضي الله عنها قالت :

[اسْتَيْقِظَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَقَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أَنْزَلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الْفَتَنِ، وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ، أُيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحُجْرِ، قُرْبَ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ].

وقال : باب السَّمَرِ^١ في العلم، وذكر بسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: [صَلَّى بِنَا النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ]. اهـ

لقد جاء في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يكره النوم قبل صلاة العشاء ويكره الحديث^٢ - أي الكلام - بعدها، إلا أن البخاري رضي الله عنه استدل على جواز السَّمَرِ في طلب العلم أو سماع الموعظة بالحديث المتقدم ذكره، فيكره أن يختم الإنسان صحيفة يومه بكلام دنيوي مباح ، ولذلك كره النبي صلى الله عليه وسلم الكلام بعد صلاة العشاء إلا الكلام في العلم والموعظة وذكر الله سبحانه كما تقدم.

١ قال الحافظ ابن حجر في الفتح : "وَأَصْلُهُ مِنْ لَوْنِ ضَوْءِ الْقَمَرِ ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فِيهِ ، وَالْمُرَادُ بِالسَّمَرِ فِي التَّرْجَمَةِ مَا يَكُونُ فِي أَمْرٍ مُبَاحٍ لِأَنَّ الْمُحَرَّمَ لَا إِخْتِصَاصَ لِكِرَاهَتِهِ بِمَا بَعْدَ صَلَاةِ الْعِشَاءِ، بَلْ هُوَ حَرَامٌ فِي الْأَوْقَاتِ كُلِّهَا.

ثم قال : الْحَدِيثُ بَعْدَ الْعِشَاءِ يُسَمَّى السَّمَرِ". اهـ ٣/٣٨٩

٢ كما في صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة عن أبي برزة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكره النوم قبل العشاء والحديث بعدها.

قوله صلى الله عليه وسلم : [سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أُنزِلَ اللَّيْلَةَ مِنْ الْفِتَنِ، وَمَاذَا فَتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ]:

فكلمة: [سُبْحَانَ اللَّهِ] يؤتى بها في سياق تعظيم الله عز وجل، وفيها هنا استعظام لما أنزله الله تعالى فقد كُشِفَ له صلى الله عليه وسلم ماذا أنزل الله تعالى في تلك الليلة من الفتن على أهل الفتن، ومن البلاء على أهل البلاء، ومن العقوبات على أهلها، ممن كان في زمنه صلى الله عليه وسلم ومن بعده، فهي تنزل في العوالم حتى يظهر أثرها في عالم الأرض، وقد كُشِفَ ذلك كله لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قوله صلى الله عليه وسلم : [وَمَاذَا فَتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ] أي : فهناك خزائن ربانية رحمانية فُتِحَتْ لأهلها من المؤمنين المتقين، وفي هذا دليل على أن هناك أموراً تنزل في الليل من فتن وعقوبات وبلاء ومحن على أهل الزيغ والضلال تظهر فيهم على توالي الزمن ، وهناك خزائن رحمانية تفتح أبوابها في الليل وتنزل خيراتها وبركاتها وأنوارها وأسرارها على أهلها، وجدير بالمؤمن أن يكون له نصيب منها، فليتعرض لها بأن يقوم لله تعالى في الليل مصلياً قارئاً داعياً

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : [أَيْقِظُوا صَوَاحِبَاتِ الْحَجَرِ]^١ أي: أيقظوا بقية النساء الطاهرات لينلن حظاً وافراً من تلك الخيرات والرحمات الإلهية النازلة .

قوله صلى الله عليه وسلم : [فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ] وفي رواية : [فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]^٢.

١ حُجْر: جمع حجرة، وتجمع على حُجْرَاتٍ أيضاً، سميت الغرفة حُجْرَةً لأنه يُحَجَّرُ أي يُمْنَعُ الإنسان من دخولها إلا بإذن صاحبها، وكذلك البيت أيضاً فيُحَجَّرُ على الإنسان أن يدخله إلا بإذن صاحبه. اهـ

انظر تفسير النيسابوري ١٥٩/٦ وتفسير البغوي ٣٣٧/٧ عند الكلام على تفسير سورة الحجرات

٢ كما في صحيح ابن حبان

والمعنى : رُبَّ نفس كاسية في الدنيا عارية في الآخرة لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر: [أَلَا يَا رُبَّ نَفْسٍ طَاعِمَةٌ نَاعِمَةٌ فِي الدُّنْيَا، جَائِعَةٌ عَارِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ]¹.. الحديث ، والنفس تطلق على نفس الرجل ونفس المرأة، فالرجل صاحب نفس، والمرأة صاحبة نفس، والرجل مذكر لكن نفسه مؤنثة ، والمرأة مؤنثة النفس ولكنها شخص يقال عنها: إنسان².

فقوله صلى الله عليه وسلم : [فَرُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الْآخِرَةِ] أي : رُبَّ نفس رجل أو امرأة كاسية في الدنيا بالألبسة الفاخرة لكنها عارية يوم القيامة لأن صاحبها لم يسع في تحصيل لباس الآخرة وهو تقوى الله تعالى ، فإذا كان الإنسان في الدنيا يسعى جاهداً من أجل أناقة لباسه لستر عورته ولكي يظهر جميلاً أمام الناس فعليه أيضاً أن لا يغفل عن تقوى الله تعالى ليكون له في الآخرة لباس يستره أمام الملائكة، وفي هذا يقول سبحانه : { يَا بَنِي آدَمَ } ويشمل هذا ذرية سيدنا آدم عليه السلام كلهم إلى يوم القيامة { قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ } أي يستر عوراتكم { وَرِيثًا } أي : أثاثاً لبيوتكم { وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ } أي : فلا تهملوا لباس التقوى لأنه لا بد لكم منه لستر عوراتكم في الآخرة، وإذا كانت ألبسة الدنيا تستر عورات الإنسان أمام عدد من الناس فإن من فقد لباس التقوى فضحه الله تعالى أمام الخلائق كلهم.

واعلم أيها المؤمن العاقل أن الله تعالى قد تعهد ذرية آدم عليه السلام تعهدهم بالهداية، وذلك لما أهبط آدم وزوجه وذريته إلى الأرض ، وفي هذا يقول سبحانه: { قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى } أي فإن يأتكم مني هدى فيه صلاح أمر دنياكم وآخرتكم ، وفيه بيان ما ينصركم في الدنيا وفي الآخرة وما يسعدكم في الدنيا والآخرة

{ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } لأنهم أعرضوا عن هدى الله تعالى الذي هداهم إليه بواسطة الرسل عليهم السلام.

¹ انظره في شعب الإيمان للبيهقي ومعرفة الصحابة لأبي نعيم

² وتطلق كلمة "إنسان" على الذكر والأنثى، ويقال عن الأنثى: "إنسانة" ولكنها لغة رديئة عند العرب .

وقال جل وعلا : { قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا تَيْبَتَكُمْ
مِئِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ } أي في الدنيا {وَلَا يَشْقَى} أي في
الآخرة، بل يكون على هدى وسعادة في الدنيا وفي الآخرة {وَمَنْ أَعْرَضَ عَنِّي
ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا} أي معيشة ضنكاً في الدنيا {وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَعْمَى} ... الآيات

وإذا قيل: لقد عثروا في أبحاثهم في مجال الآثار على إنسان متحجر أو
متجمد من العهد القديم، ووجدوه إنساناً وحشياً - على زعمهم - طويل
الأظافر والشعر إلى غير ذلك فيقال: إن هذا الذي عثروا عليه - إن
صح زعمهم - إنما هو من كفار الأمم السابقة الذين لم يستجيبوا لدعوة
رسلهم ولم يعملوا بهديهم، لأن الشرائع الإلهية التي جاء بها الرسل عليهم
السلام من لدن سيدنا آدم إلى خاتم الرسل سيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم هي متفقة في أصول الفطرة الإنسانية والآداب والأخلاق التي بها
جمال الإنسان وكمال صورته الآدمية، ومنها قص الأظافر ومنتف الإبط
وحلق العانة والختان وغيرها

فائدة : اعلم أن الله تعالى خلق الخلق وأرسل فيهم رسلاً وشرع لهم شرائع
فيها مصالحهم ومنافعهم وسعادتهم في الدنيا وفي الآخرة، وإن جميع
الشرائع الإلهية متفقة فيما جاءت به من الأصول الدينية لقوله تعالى :
{ إن الدين عند الله الإسلام } واشتملت على عقائد إيمانية وأعمال
جارية وأحوال قلبية إحصائية لأن الدين هو إيمان وإسلام وإحسان كما
بين صلى الله عليه وسلم في قوله : [فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ]^١
وذكر الإيمان والإسلام والإحسان ، وفي هذا يقول الله تعالى أيضاً : { شرع
لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم
وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه } ولذلك نجد أن كل
الأديان تدعو إلى وحدانية الله تعالى وإلى الإيمان بالله تعالى واليوم الآخر
والملائكة والكتاب والنبين والقضاء والقدر وكلها تدعو إلى شهادة أن لا
إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإلى الصلاة والزكاة والصيام والحج ،

^١ طرف حديث في صحيح مسلم عندما سأل جبريل عليه السلام سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم عن الإسلام والإيمان والإحسان

قال تعالى مخبراً عن عيسى ابن مريم عليه السلام قوله : { وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً } وقال جل وعلا مخبراً عن إسماعيل عليه السلام: { وكان يأمر أهله بالصلاة والزكاة } وقال جل جلاله : { يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم } .

وجميع الرسل عليهم السلام جاؤوا يدعون إلى شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكل رسول أخذ الله عليه العهد أن يؤمن بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وأن يناصره ويتبعه إذا أدركه وأن يأخذ العهد على قومه كذلك، قال عز من قائل :

{ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ } الآيات ..

إلا أن الأحكام الشرعية في الرسائل الإلهية تختلف باختلاف الأمم على حسب ما يصلح شأنهم وما يكون به سعادتهم وفلاحهم في الدنيا والآخرة وهذا راجع لعلم الله تعالى وحكمته بخلقه، قال تعالى: { ألا يعلم من خلق }، وقال عز وجل: { ألا له الخلق والأمر } فالخالق هو الذي خلق الخلق وهو أعلم بما يصلح أمرهم فشرع لهم من الشرائع ما فيه صلاحهم، فترى أن الصلاة والزكاة والصيام وبعض الأحكام متفق عليها لكنها تختلف بالمقادير والكميات وقد جمعها صاحب الجوهرة^١ بقوله:

وحفظ دينٍ ثم نفسٍ مالٍ نسبٍ ومثلها عقلٌ وعرضٌ قد وجب

^١ (جوهرة التوحيد) أحد أهم متون علم العقيدة والكلام عند أهل السنة والجماعة ، والتمن عبارة عن منظومة شعرية تتألف من ١٤٤ بيتاً لمؤلفه إبراهيم بن إبراهيم بن حسن بن علي بن عبد القدوس بن الولي الشهير محمد بن هارون اللقاني المالكي المصري ، لقبه : برهان الدين ، وكنيته: أبو الإمداد، وأبو إسحاق. واللقاني نسبة إلى لقانة -قرية من قرى مصر -.

وأجمع هدي وأعظم هدي جاء به نبي إنما هو هدي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان كثيراً ما يقول في فاتحة خطبه الشريفة : [أَمَّا بَعْدُ : فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَإِنَّ أَفْضَلَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ] وذلك لأن الله تعالى أرسله إلى كافة الخلق وجميع الأمم.

وإن هدي الرسل قبله صلى الله عليه وسلم إنما هو لإصلاح أممهم، أما هديه صلى الله عليه وسلم فهو أعم وأجمع، وقد قال صلى الله عليه وسلم : [والذي نفسي بيده لو كان موسى حياً ما وسعه إلا أن يتبعني]^١ لأن هدي سيدنا موسى عليه السلام يصلح في زمنه لبني إسرائيل والأقباط فقط، أما هدي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الهدي الجامع، وقد قال تعالى : { إنما أنت منذر ولكل قوم هاد } أي إنما أنت منذر وهاد لكل قوم، وقال جل جلاله : { قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً } وقال جل وعلا : { وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً } ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من خاصة أتباعه صلى الله عليه وسلم. آمين

فقوله سبحانه : { يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم } يشمل ذرية آدم كلهم فلقد تعهدهم الله تعالى بما فيه جمالهم وكمال صورتهم الآدمية، ومن ذلك أن علمهم صنع اللباس الذي يسترون به عوراتهم ويتجملون به أيضاً ، فكما يهتم الإنسان بنفسه أن يكون كاسياً ومرتدياً اللباس الفاخر وعليه صفة الكمال والجمال فيجب عليه أن يهتم أيضاً بلباس الآخرة ألا وهو تقوى الله تعالى، وهذا قوله سبحانه : { يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ } أي إن لباس التقوى خير من لباس الدنيا وأبقى ..

^١ مصنف ابن أبي شيبة كتاب الأدب والحديث في مسند الإمام أحمد بن حنبل برواية : [لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلَّ له إلا أن يتبعني]

وقد جاء في الحديث الذي رواه البيهقي في الشُّعَب عنه صلى الله عليه وسلم: [ألا يا رَبِّ نفس طاعمة ناعمة^١ في الدنيا جائعة عارية يوم القيامة^٢، ألا يا رَبِّ نفس جائعة عارية^٣ في الدنيا طاعمة ناعمة يوم القيامة^٤، ألا يا رَبِّ مكرم لنفسه وهو لها مهين^٥، ألا يا رَبِّ مهين لنفسه^٦ وهو لها مكرم^٧ ...] الحديث

وقد ذم الله سبحانه الكافرين الذي أعطوا أنفسهم شهواتها ونالوا من الدنيا ما يتمنون ، قال عز من قائل : {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ^٨ بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ}.
وأما المؤمن فشأنه إذا نال من الطيبات التي أحلها الله تعالى له أن يحمد الله عليه ويشكره وأن يقوم بحق الله في ماله من زكاة وصدقة وفعل للخيرات.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [قالت أم سليمان بن داود لسليمان: يا بني لا تكثر النوم بالليل فإن كثرة النوم بالليل تترك الرجل فقيراً يوم القيامة]^٩.

^١ أي مشغولة بلدات المطاعم والملابس غافلة عن أعمال الآخرة

^٢ أي تحشر جائعة عارية يوم الموقف الأعظم

^٣ أي لا يجد صاحبها من القوت إلا ما يسد رمقه ولا يجد من اللباس إلا ما يستر عورته وبعض جسده وذلك لفقره وزهده في الدنيا

^٤ وذلك بسبب طاعتها مولاها

^٥ أي لأنه أعطى نفسه شهواتها في الدنيا فعرضها لعذاب الله في الآخرة

^٦ أي يتعبد في عبادة الله وطاعته سبحانه .

^٧ يوم العرض الأكبر لسعيه لها فيما يوصلها إلى السعادة الدائمة الأبدية والراحة

المتصلة السرمدية. اه فيض القدير للمناوي ١٥٠/٣

^٨ الذل والصغار

^٩ سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

وكم يُتعب الإنسان جسمه وفكره لتحصيل أمور الدنيا ظناً منه أنه سينعم
ويترفه بها ولكنه لتحصيل أسباب السعادة الآخرة كسول متقاعس ،
وقد قال سبحانه : { وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ
لَهِيَ الْحَيَوَانُ ^١ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ } ، وقال جل وعز : { بل تؤثرون الحياة
الدنيا * والآخرة خير وأبقى } .

وقد قال صلى الله عليه وسلم: [ألا وإن عمل أهل الجنة حَزَنٌ بربوة ، ألا
وإن عمل النار سهل بسهولة] ^٢ والحَزَن هو الطريق الصعب الشاق والربوة
هي المكان المرتفع من الأرض مما يدل على أن طريق الجنة يحتاج إلى
مخالفة النفس لشهواتها وإيقافها عند حدود الله تعالى والعمل بطاعته
سبحانه، كما أن الطريق الموصل إلى النار - والعياذ بالله تعالى - طريق
سهل لأنه طريق اتباع الشهوات والمحرمات وهو طريق مائل إلى أرض
منخفضة لا صعوبة في الوصول إليه ..

ولما سأل رجل أبا هريرة رضي الله عنه عن التقوى قال له : هل أخذت
طريقاً ذا شوك؟ قال : نعم ، قال : فكيف صنعت؟ قال : إذا رأيت الشوك
عدلت عنه ، أو جاوزته ، أو قصرت عنه ^٣ ، قال : ذاك التقوى ^٤ .

أي توقي محارم الله والابتعاد عن الوقوع فيها والسير حسب أمره وطاعته
سبحانه.

ولما سأل معاذ بن جبل رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه
وسلم وقال: [يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ
قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ] أي عن أمر كبير
[وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَى مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ...] الحديث

^١ أي الحياة الحقيقية الأبدية

^٢ طرف حديث في شعب الإيمان للبيهقي

^٣ أي : كنت أرفع ثيابي وأنظر كيف أمشي وأين أضع قدمي كي لا تنزل قدمي أو يصيبني
شوك

^٤ قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور : وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن
أبي هريرة... وذكر الحديث

فمن استهان بالجنة فقد استحق ما عظمه الله تعالى وعظمه رسوله
الكريم صلى الله عليه وسلم، واستصغر ما جعله الله ثواباً لرسله وأنبيائه
وأهل طاعته ..

ولا يستهين بالجنة إلا جاهل أحمق لا يدري ما أعد الله تعالى في الجنة من
ألوان النعيم الحسية والمعنوية والقلبية والفكرية ، ومن ذلك تجليات
رب العالمين على أهل الجنة ومشاهدتهم من أنواره وأسواره جل وعلا ،
وما أنعم الله عليهم من مجالسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ،
وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وقوله صلى الله عليه وسلم: [سُبْحَانَ اللَّهِ، مَاذَا أَنْزَلَ اللَّيْلَةَ مِنْ الْفِتَنِ،
وَمَاذَا فُتِحَ مِنَ الْخَزَائِنِ] يدل على أن هناك خزائن تُفتح كل ليلة وتنزل
رحماتها وبركاتها وخيراتها على من قام الليل وتعرض لها لينال الحظ الوافر
منها، وهذا يدل على فضل قيام الليل والصلاة لله تعالى فيه والدعاء
والتوجه إليه سبحانه.

واعلم أن لله تعالى خزائن لا تنفذ كما قال تعالى : { أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ
رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ }، وهو سبحانه يفتح كل ليلة من هذه الخزائن ما فيه
خيرات وبركات لعباده ، فمن تعرض لها نال من خيراتها وأنوارها، ومن لم
يتعرض لها فقد حرم نفسه خيراً كثيراً، لأن تنزل الرحمة والخيرات الإلهية
مستمر على العباد، وكما لا بد للأرزاق الحسية المادية الجسمية من
تنزلات مستمرة كإرسال الرياح ونزول الأمطار فكذلك الأرزاق المعنوية
الإيمانية الروحية لا بد لها من تنزلات متواصلة، يقول جل وعلا :

{ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ } أي وما من شيء { إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ
مَعْلُومٍ } أي حسب ما يقتضيه علم الله وحكمته سبحانه.

وقد قال صلى الله عليه وسلم في فضل قيام الليل :

[ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا^١ حين يبقى ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له]^٢.

وفي رواية ثم يقول سبحانه : [من يُقرض غير عديم^٣ ولا ظلوم]^٤.

كما أن هناك لله تعالى خزائن تُفتح في النهار لما جاء عنه صلى الله عليه وسلم : [إِذَا أَصْبَحَ أَحَدُكُمْ فَلْيَقُلْ: " أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمَلِكُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذَا الْيَوْمِ فَتَحَهُ وَنَصَرَهُ وَنُورَهُ وَبَرَكَتَهُ وَهُدَاهُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ وَشَرِّ مَا بَعْدَهُ" ، ثُمَّ إِذَا أَمْسَى فَلْيَقُلْ مِثْلَ ذَلِكَ] مما يدل على أن لكل يوم خيره وبركته وما ينزل فيه من الأسرار والأنوار ، وجدير بالمؤمن أن يحرص كل الحرص على أن ينال حظاً وافراً من الخيرات الإلهية التي تنزل كل يوم وكل ليلة على من قصدها واستنزلها. ونسأل الله تعالى التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

^١ ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم: [ينزل ربنا] أي تنزل أنواره ورحماته تبارك وتعالى ، وليس المراد نزول انتقال ، لأن الله تعالى منزه عن المكان إذ كان ولا مكان ، ثم خلق الزمان والمكان ، وهو جل وعلا غني عن المكان، ولا يحويه مكان ولا زمان سبحانه وتعالى ، وإنما خلق سبحانه الأشياء والأمكنة والسموات والأرضين لتكون من مظاهر ملكه ومن الدلائل على سلطان ربوبيته .

ولا تفهم أيها الإنسان من كل نزول نزول انتقال وتحول فأنت تقول: " نزلت الشمس في فناء داري " إذا أشرق نورها في الدار ، وليس مرادك أن عين الشمس انتقلت إلى دارك واستقرت فيها ، فمعنى النزول هنا الظهور ، فظهرت أنوار الشمس في الدار لما ارتفعت الحجب من باب أو نافذة أو ستار .
ومن دون تشبيهه فهناك لله تعالى أنوار تنزل إلى السماء الدنيا في جوف الليل الآخر لأنه سبحانه يرفع حجباً وحجباً حتى تظهر أنواره إلى السماء الدنيا.

^٢ صحيح البخاري كتاب الجمعة

^٣ قال الإمام النووي في شرحه صحيح مسلم : قال أهل اللغة : يقال أعدم الرجل إذا افتقر فهو معدم وعديم وعدوم. اهـ ٩٩/٣

^٤ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

المحاضرة الثانية بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

الحمد لله ربِّ العالمين ، وأفضل الصَّلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا عِلْمَ لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة بن بَرْدِزْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب ما جاء في قول الله تعالى:

{وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ}

ثم أورد بسنده إلى طارق بن شهاب قال: سَمِعْتُ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ: [قَامَ فِينَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَقَامًا فَأَخْبَرَنَا عَنْ بَدْءِ الْخَلْقِ حَتَّى دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ مَنَازِلَهُمْ ، وَأَهْلُ النَّارِ مَنَازِلَهُمْ ، حَفِظَ ذَلِكَ مَنْ حَفِظَهُ ، وَنَسِيَهِ مَنْ نَسِيَهِ].

وأورد بسنده أيضاً إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : أَرَاهُ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: [يَشْتَمُّنِي ابْنُ آدَمَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَشْتَمَّنِي ، وَيُكَذِّبُنِي وَمَا يَنْبَغِي لَهُ ، أَمَا شَتَّمُهُ فَقَوْلُهُ إِنَّ لِي وَلَدًا ، وَأَمَا تَكْذِيبُهُ فَقَوْلُهُ لَيْسَ يُعِيدُنِي كَمَا بَدَأَنِي].

وأورد بسنده أيضاً إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَمَّا قَضَى اللَّهُ الْخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي].

ثم قال رحمه الله: بَاب مَا جَاءَ فِي سَبْعِ أَرْضِينَ، وَقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى:

{ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا }

ثم أورد بسنده إلى مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْحَارِثِ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَكَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَنَسِ خُصُومَةٌ فِي أَرْضٍ فَدَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَذَكَرَ لَهَا ذَلِكَ فَقَالَتْ: [يَا أَبَا سَلَمَةَ اجْتَنِبِ الْأَرْضَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ]^١ . اهـ

لقد أورد الإمام البخاري رضي الله عنه في هذا الباب عدّة أحاديث تدل على حدوث هذا العالم وأنه ليس قديماً ، وأن الله تعالى أوجده بعد عدم ، وأن القديم بالقدم الذاتي الوجودي الذي لا أول له هو الله تعالى وحده، وكل العوالم خلقها الله تعالى بعد عدم، ولها أول ولها انتهاء.

وإن من جملة معجزات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قيامه هذا المقام في الصحابة الكرام رضي الله عنهم يحدثهم عن المغيبات الماضية والآتية فحدثهم عن بدء الخليقة ، ثم عن خلق بني آدم عليه السلام وما سيجري عليهم إلى يوم القيامة، ثم عما سيجري عليهم في برازخ الآخرة إلى أن دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم .

وقد اشتمل قيامه هذا صلى الله عليه وسلم على عدة معجزات :

منها : إخباره صلى الله عليه وسلم عن الأمور الغيبية الماضية والآتية ، واتساع الزمن الذي قام فيه صلى الله عليه وسلم خطيباً في الصحابة لحديثه الشامل الذي استقصى ذكر كل شيء منذ خلق الله تعالى العالم إلى قيام الساعة إلى أن دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم ، وقد جاء في روايات لهذا الحديث أنه صلى الله عليه وسلم قام في الصحابة خطيباً من أول النهار إلى غروب الشمس^٢ ،

^١ انظر صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

^٢ كما جاء في صحيح مسلم عن عمرو بن عمرو رضي الله عنه قال : [صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَجْرَ وَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتْ الظُّهُرُ فَتَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى حَضَرَتْ الْعَصْرُ ثُمَّ نَزَلَ فَصَلَّى، ثُمَّ صَعِدَ الْمِنْبَرَ فَخَطَبَنَا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأَخْبَرَنَا بِمَا كَانَ وَبِمَا هُوَ كَائِنٌ، فَأَعْلَمْنَا أَحْفَظْنَا].

ومن الروايات ما يدل على أنه صلى الله عليه وسلم قام فيهم خطيباً عقب صلاة العصر إلى غروب الشمس لكن الظاهر هو الأول لرواية مسلم المتقدم ذكرها آنفاً.

ومن المعجزات التي ظهرت في خطبته صلى الله عليه وسلم : أنه أوتي جوامع الكلم بحيث إنه صلى الله عليه وسلم حدث الصحابة عن بدء الخلق إلى أن دخل الناس أحد دارَي البقاء والخلود : الجنة والنار ، كل ذلك في زمن محدود لكن الله تعالى مدده وبارك فيه بحيث اتسع لخطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم الجامعة الشاملة لكل شيء .

كما أن ثباته صلى الله عليه وسلم في الخطبة هذا الزمن الطويل من أول النهار إلى غروب الشمس يدل على عظيم قوته صلى الله عليه وسلم وإمداد الله تعالى له إذ إنه صلى الله عليه وسلم لم يتعب ولم يفتر ، بل كان صلى الله عليه وسلم ينزل للصلاة فقط .

كما أن الله تعالى أكرم الصحابة الكرام بسبب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعطاهم الصبر وقوة التحمل والثبات لسماع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم طول هذه المدة دون أن يمل أحدهم أو يسأم أو يحتاج لقضاء حاجة .

واعلم أنه سبحانه عالم الغيب والشهادة بالعلم المطلق ولا يُظهر على غيبه أحداً إلا من شاء بما يشاء ، قال تعالى : { قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله } وهذا هو العلم الذاتي المطلق ، ولكنه سبحانه قد يُطلع من شاء على بعض المُغيبات كما قال سبحانه : { عالم الغيب فلا يُظهر على غيبه أحداً * إلا من ارتضى من رسول } .. الآية

١ كما في سنن الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: [صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا صَلَاةَ الْعَصْرِ بِنَهَارٍ ثُمَّ قَامَ خَطِيبًا فَلَمْ يَدَعْ شَيْئًا يَكُونُ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ إِلَّا أَخْبَرْنَا بِهِ ، حَفِظَهُ مَنْ حَفِظَهُ وَنَسِيَهُ مَنْ نَسِيَهُ]... الحديث

ولكل رسولٍ لله حظ من العلم بالمغيبات ، وأعظمهم إظهاراً واطلاعاً هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهذا من جملة معجزاته صلى الله عليه وسلم الخبرية العلميّة.

وإن القديم الذي لا أول له هو الله تعالى وحده ، كما قال صلى الله عليه وسلم في ثنائه على ربه جل وعلا : [اللَّهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ] وكل ما سوى الله تعالى من موجود فهو بخلق الله تعالى وإيجاده،

فالله سبحانه وتعالى حق واجب الوجود ، وأما ما سواه فهو ممكن الوجود ، وإذا قيل: إن الله تعالى موجود^٢ فالمعنى أنه سبحانه متصف بالوجود ، ولا يذهب فكرك من كلمة (موجود) على أنها اسم مفعول إلى تصور ما لا يليق في حق الله تعالى ، وأما اسم المفعول من فعل (أوجد) فهو موجد بفتح الجيم .

وهو سبحانه موجود أي متصف بالوجود ، ولا موجد له ولا خالق له ، بل هو تبارك وتعالى خالق كل شيء .

وفرق كبير بين الوجود الحق الذي هو لله تعالى وحده ، وبين الوجود الإمكاني ، فالله تعالى واجب الوجود ، أما ما سواه من الموجودات فهي ممكنة الوجود بمعنى أنها موجودة بإيجاد الله تعالى إياها ، وأن لوجودها أولاً وانتهاء ، أما وجوده سبحانه الواجب فهو بمعنى أنه لا أول لوجوده جل جلاله ولا انتهاء .

كما أن وجوده جل وعزّ ذاتي له بمعنى أنه لم يوجد من غيره ، أما ما سوى الله تعالى من كل شيء موجود فهو موجود بإيجاد الله تعالى وخلقته، ولم يتملك صفة الوجود التي أعطاه الله تعالى إياها ، ولو أنه سبحانه قطع عن المخلوق مدد الوجود لرجع إلى العدم .

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم، والحمد لله رب العالمين .

١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار.

٢ جاء في تفسير الإمام الرازي ٢٩٧/١٧ قوله رحمه الله ورضي عنه :

(الله هو الموجود الذي يفتقر إليه ما عداه) .

المحاضرة الثالثة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب ذكر الملائكة

وقال أنس رضي الله عنه : قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم : إن جبريل عليه السلام عدو اليهود من الملائكة . وقال ابن عباس رضي الله عنهما: { وإنا لنحن الصافون } يعني الملائكة.

ثم أورد بسنده إلى مَالِكِ بْنِ صَعْصَعَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ:

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [بَيْنَا أَنَا عِنْدَ الْبَيْتِ بَيْنَ النَّائِمِ وَالْيَقْظَانِ وَذَكَرَ يَعْنِي رَجُلًا بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ فَأَتَيْتُ بِطُسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُلِيٍّ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَشَقَّ مِنَ النَّخْرِ إِلَى مَرَاقِّ الْبَطْنِ، ثُمَّ غَسَلَ الْبَطْنَ بِمَاءٍ زَمْزَمَ، ثُمَّ مُلِيَ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، وَأَتَيْتُ بِدَابَّةٍ أَبْيَضَ ، دُونَ الْبَغْلِ وَفَوْقَ الْحِمَارِ ، الْبُرَاقُ، فَأَنْطَلَقْتُ مَعَ جِبْرِيلَ حَتَّى أَتَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟

قَالَ: جِبْرِيلُ

قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ

قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قَالَ: نَعَمْ

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلِنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ.

فَأَتَيْتُ عَلَى آدَمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ ابْنِ وَنِيِّ

فَأَتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟

قَالَ: جِبْرِيلُ

قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ

قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قَالَ: نَعَمْ

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلِنِعْمِ الْمَجِيءُ جَاءَ

فَأْتَيْتُ عَلَى عِيسَى وَيَحْيَى فَقَالَا: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيِّ

فَأْتَيْنَا السَّمَاءَ الثَّلَاثَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟

قَالَ: جِبْرِيلُ

قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ

قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قَالَ: نَعَمْ

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلِنِعْمِ الْمَجِيءُ جَاءَ

فَأْتَيْتُ عَلَى يُوسُفَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ قَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيِّ

فَأْتَيْنَا السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟

قَالَ: جِبْرِيلُ

قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ

قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قَالَ: نَعَمْ

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلِنِعْمِ الْمَجِيءُ جَاءَ

فَأْتَيْتُ عَلَى إِدْرِيسَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيِّ
فَأْتَيْنَا السَّمَاءَ الْخَامِسَةَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟

قَالَ: جِبْرِيلُ

قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ

قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قَالَ: نَعَمْ

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلِنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ

فَأْتَيْنَا عَلَى هَارُونَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيِّ

فَأْتَيْنَا عَلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟

قَالَ: جِبْرِيلُ

قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ

قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قَالَ: نَعَمْ

قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ، وَلِنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ

فَأْتَيْتُ عَلَى مُوسَى فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَرْحَبًا بِكَ مِنْ أَخٍ وَنَبِيِّ

فَلَمَّا جَاوَزْتُ بَيْتِي، فَقِيلَ: مَا أَبْكَاكَ؟ قَالَ: يَا رَبِّ هَذَا الْغُلَامُ الَّذِي بُعِثَ

بِعَدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَفْضَلُ مِمَّا يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي

فَأْتَيْنَا السَّمَاءَ السَّابِعَةَ قِيلَ: مَنْ هَذَا؟

قَالَ: جِبْرِيلُ

قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟

قال: مُحَمَّدٌ

قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟

قال: نعم

قيل: مَرَحَبًا بِهِ، وَلِنِعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ

فَأَتَيْتُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَقَالَ: مَرَحَبًا بِكَ مِنْ ابْنِ وَنِيِّ

فَرَفَعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ، وَرُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبَقُهَا كَأَنَّهُ قِلَالٌ هَجَرَ، وَوَرَقُهَا كَأَنَّهُ آذَانُ الْفَيْوَلِ، فِي أَصْلِهَا أَرْبَعَةٌ أَنْهَارٌ، نَهْرَانِ بَاطِنَانِ وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ، فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: أَمَّا الْبَاطِنَانِ فَفِي الْجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ النَّيْلُ وَالْفُرَاتُ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً فَأَقْبَلْتُ حَتَّى جِئْتُ مُوسَى فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟

قُلْتُ: فُرِضَتْ عَلَيَّ خَمْسُونَ صَلَاةً، قَالَ: أَنَا أَعْلَمُ بِالنَّاسِ مِنْكَ، عَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ الْمُعَالَجَةِ، وَإِنَّ أُمَّتَكَ لَا تُطِيقُ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسَلِّهِ، فَرَجَعْتُ فَسَأَلْتُهُ فَجَعَلَهَا أَرْبَعِينَ ثُمَّ مِثْلَهُ ثُمَّ ثَلَاثِينَ ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عِشْرِينَ ثُمَّ مِثْلَهُ فَجَعَلَ عَشْرًا فَأَتَيْتُ مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَجَعَلَهَا خَمْسًا، فَأَتَيْتُ مُوسَى فَقَالَ: مَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: جَعَلَهَا خَمْسًا، فَقَالَ مِثْلَهُ، قُلْتُ: سَلِمْتُ بِخَيْرٍ، فَنُودِيَ: إِيَّيْ قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي، وَأَجْزِي الْحَسَنَةَ عَشْرًا^١ اهـ

أراد الإمام البخاري رضي الله عنه الاستدلال بهذا الحديث على وجود الملائكة الذين رأهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج، وكذلك الملائكة الذين يدخلون البيت المعمور وغيرهم.

^١ صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

وإن الإيمان بوجود الملائكة عليهم السلام ركن من أركان الإيمان
الاعتقادي ، كما قال تعالى : { لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ
وَأَتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ
وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا
عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ } .

وقال سبحانه في تلقين المؤمنين أركان الإيمان : { آمن الرسول بما أنزل
إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين
أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير }
ومن أنكروا وجود الملائكة فهو كافر خارج عن الإيمان .

أما تعريف^١ الملائكة عليهم السلام فهم أجساد لطيفة نورانية^٢ ، قامت
بها أرواح علوية ربانية ، قادرة على التشكل بأجسام مختلفة بأمر الله
تعالى ، ولا تتصف الملائكة بذكورة ولا أنوثة^٣ ، ولا يجري عليهم التناكح
والتناسل والأكل والشرب ، بل يخلق الله تعالى طوائف الملائكة بقوله
جل وعلا { كن } .

أما بنو آدم عليه السلام فهم أجسام ترابية^٤ كثيفة ، قامت بها أرواح
أمرية علوية^٥ ، ومنهم الذكر والأنثى ، ويجري عليهم التناكح والتناسل
والأكل والشرب ، وكون الآدمي كثيفاً يعني أن له حجماً وحيزاً يشغله ،
ويمس جسمه ويحس .

^١ وتعريف الشيء وحده: بيان حقيقته .

^٢ أي مخلوقة من نور .

^٣ وهناك كثير من العوالم خلقها الله تعالى لا تتصف بذكورة ولا أنوثة كالهواء
والأحجار مثلاً .

^٤ أي مخلوقة من تراب .

^٥ وفي هذا يقول سبحانه : { ويسألونك عن الروح } أي عن الروح الإنساني { قل
الروح من أمر ربي } أي من عالم الأمر الرباني .

أما الجن فهم أجساد لطيفة نارية - أي مخلوقة من نار - قامت بها أرواح علوية، ومنهم الذكر والأنثى ، ويجري عليهم التناكح والتوالد والأكل والشرب ، لكن على وجه يناسب نشأهم وخلقهم .

فالملائكة عليهم السلام أجسام لطيفة نورانية ، لا تشغل حيزاً ولا تحتل مكاناً ، فلا تتزاحم في المكان وإن كان ضيقاً ، كما لا تتزاحم الأنوار إذا سلطت إلى مكان ضيق مهما كثرت .

وفي الحديث الذي رواه الطبراني وغيره عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [مَا فِي السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ مَوْضِعٌ قَدِيمٌ وَلَا شِبْرٌ وَلَا كَفٌّ إِلَّا وَفِيهِ مَلَكٌ قَائِمٌ أَوْ مَلَكٌ رَاكِعٌ أَوْ مَلَكٌ سَاجِدٌ ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ قَالُوا جَمِيعًا : سُبْحَانَكَ مَا عَبَدْنَاكَ حَقَّ عِبَادَتِكَ ، إِلَّا أَنَا لَمْ نُشْرِكْ بِكَ شَيْئًا]^١ .

روى الإمام أحمد والترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ، أَطَّتِ السَّمَاءُ وَحَقَّ لَهَا أَنْ تَنْطَبِقَ] أي صدر لها صوت [مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعُ أَصَابِعٍ إِلَّا عَلَيْهِ مَلَكٌ سَاجِدٌ، لَوْ عَلِمْتُمْ مَا أَعْلَمُ، لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا، وَلَمَّا تَلَدَّدْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشَاتِ، وَلَخَرَجْتُمْ عَلَى - أَوْ إِلَى - الصُّعْدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ] قَالَ: فَقَالَ أَبُو ذَرٍّ: وَاللَّهِ لَوَدِدْتُ أَنِّي شَجَرَةٌ تُعْصَدُ^٢ فاتسع الملك بجسمه النوراني في موضع أربع أصابع وذلك للطافته .

وإن خلق عالم الملائكة سابق على خلق عالمي الجن^٣ والإنس ، ولا سيما الملائكة الأربعة وحملة العرش ومن حول العرش ، إذ إن خلقهم متقدم على خلق الجنة والنار والسموات والأرض، يدل على هذا ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

^١ انظر الحديث في المعجم الأوسط والكبير للطبراني ومعرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني

^٢ مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٠٥٣٩ وسنن الترمذي كتاب الزهد

^٣ وعالم الجن سابق في الوجود على عالم الإنسان .

[لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ أَرْسَلَ جِبْرِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ فَقَالَ: انظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا] وهذا يدل على أن جبريل عليه السلام مخلوق قبل خلق الجنة [قَالَ: فَجَاءَهَا وَنَظَرَ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَّ اللَّهُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهِ قَالَ: فَوَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُقَّتْ بِالْمَكَارِهِ] أي بالتكاليف الشرعية التي تكرهها بعض النفوس وتستثقلها، فلا يدخل الجنة أحد إلا بعد أن يقتحم عقبة التكاليف الشرعية ، وذلك بالتحقق بأوامر الله تعالى واجتناب ما نهى عنه [فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا فَانظُرْ إِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا، قَالَ: فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَإِذَا هِيَ قَدْ حُقَّتْ بِالْمَكَارِهِ، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خِفْتُ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا أَحَدٌ]

- أي فليس دخول الجنة أمراً سهلاً يحصل بالأمانى ، وإنما ينال بتقوى الله تعالى والعمل الصالح كما قال تعالى : { الَّذِينَ تَتَوَقَّاهُمْ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } وقد قال صلى الله عليه وسلم : [ألا إن سِلعة الله غالية ، ألا إن سِلعة الله الجنة] ١ -

[قَالَ: أَذْهَبَ إِلَى النَّارِ فَانظُرْ إِلَيْهَا وَإِلَى مَا أَعَدَدْتُ لِأَهْلِهَا فِيهَا ، فَإِذَا هِيَ يَرْكَبُ بَعْضُهَا بَعْضًا ٢، فَرَجَعَ إِلَيْهِ فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَا يَسْمَعُ بِهَا أَحَدٌ فَيَدْخُلَهَا، فَأَمَرَ بِهَا فَحُقَّتْ بِالشَّهَوَاتِ] أي بالشهوات المحرمة [فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَيْهَا، فَرَجَعَ إِلَيْهَا فَقَالَ: وَعِزَّتِكَ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ لَا يَنْجُو مِنْهَا أَحَدٌ إِلَّا دَخَلَهَا] ٣ .

أي لأن كثيراً من بني آدم يتبعون شهواتهم المحرمة ، وهي شهوات الفروج التي توقع في الحرام ، وشهوات البطون التي تؤدي إلى أكل الحرام كالربا والغش والغضب والظلم ونحو ذلك ، وكل ذلك يؤدي بهم إلى النار.

١ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع
٢ أي إن النار طبقات مجموعة بعضها فوق بعض ، جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة : ركب الشَّحْمُ بعضه فوق بعض: تجمّع الدُّهْنُ في جسمه
٣ سنن الترمذي كتاب صفة الجنة وسنن أبي داود كتاب السنة وسنن النسائي كتاب الإيمان والندور

ومما يدل أيضاً على أن حملة العرش ومن حوله مخلوقون قبل خلق السماوات والأرض والجنة والنار : ما رواه الإمام أحمد عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لجبريل عليه السلام: [مَا لِي لَمْ أَرِ مِيكَائِيلَ ضَاحِكًا قَطُّ ؟ قَالَ: مَا ضَحِكَ مِيكَائِيلُ مُنْذُ خُلِقَتِ النَّارُ] يعني أن سيدنا ميكائيل عليه السلام مخلوق قبل أن يخلق الله تعالى النار، فلما خلقها سبحانه ورأى ميكائيل عليه السلام جحيمها وعذابها - وهي مظهر غضب الله تعالى وسخطه - لم يعد عليه السلام يتبسّم بل أخذته المهابة والخشية .

وعالم الملائكة عالم نوراني لطيف غيبي لذلك لا يراهم أحد إلا بتخصيص من الله تعالى كالرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد يرى بعض الأولياء رضي الله عنهم بعض الملائكة عليهم السلام على سبيل الكرامة ، ولقد كان الصحابي الجليل سيدنا عمران بن الحصين رضي الله عنه يرى الملائكة ويسمع كلامهم ويردُّ عليهم السلام ، ولما اکتوى بالنار بسبب مرضه احتجبت عنه الملائكة ، ولما ترك الكي عادت إليه ^١ .

^١ روى الإمام مسلم في صحيحه عن مطرف رحمه الله تعالى قال : قال لي عمران بن حصين: (أحدثك حديثاً عسى الله أن ينفعك به : - وكان فيما قاله له :- وقد كان يسلم علي ، حتى اکتويت ، فتركت ، ثم تركت الكي فعاد . وروى الطبراني في المعجم الكبير عن قتادة رحمه الله تعالى أن الملائكة كانت تُصافحُ عمران بن حصين حتى اکتوى .

وجاء في شرح النووي صحيح مسلم ٣٢٦/٤ : قوله : (يسلم علي) هو بفتح اللام المشددة ، وقوله : (فتركت) هو بضم التاء أي انقطع السلام علي ، ثم تركت بفتح التاء أي تركت الكي فعاد السلام علي . ومعنى الحديث أن عمران بن الحصين رضي الله عنه كانت به بواسير فكان يصبر على المهمات وكانت الملائكة تسلم عليه ، فاكتوى فانقطع سلامهم عليه ، ثم ترك الكي فعاد سلامهم عليه .

وقال صاحب عون المعبود ٣٨٥/٨ :

(نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الكي) قال ابن رسلان : هذه الرواية فيها إشارة إلى أنه يباح الكي عند الضرورة بالابتلاء بالأمراض المزمنة التي لا ينجع فيها إلا الكي ويخاف الهلاك عند تركه ، ألا تراه كوى سعداً لما لم ينقطع الدم من جرحه وخاف عليه الهلاك من كثرة خروجه كما يكوي من تقطع يده أو رجله ، ونهى عمران بن حصين عن الكي لأنه كان به باسور وكان موضعه خطراً فنهاه عن كيه =

وقد كشف الله تعالى لسيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما فرأى مرة جبريل عليه السلام وهو يناجي سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أن من كان حاضراً وقتئذ من الصحابة الكرام رضي الله عنهم لم يرَ ما رآه ابن عباس رضي الله عنهما^١ .

أما إذا تمثل الملك بصورة محسوسة فيراه الناس عندئذٍ كما كان جبريل عليه السلام يتمثل أحياناً بصورة أعرابي^٢ أو بصورة الصحابي الجليل دحية بن خليفة الكلبي^٣ رضي الله عنه فيراه الصحابة ويسمعون صوته .

ومن زعم أن لا وجود للملائكة عليهم السلام لأنه لا يراهم ولا يسمعهم فيقال له : إن وجود الأشياء لا يتوقف على رؤيتك أو رؤية أمثالك ، وإذا كنت لا تثبت وجود الأشياء إلا برؤيتها لأنكرت كثيراً من اليقينيات المسلم بوجودها كالهواء مثلاً والعقل والروح الإنساني ،

= فتعين أن يكون النهي خاصاً بمن به مرض مخوف ، ولأن العرب كانوا يرون أن الشافي لما لا شفاء له بالدواء هو الكي ويعتقدون أن من لم يفعل بالكي هلك ، فنهاهم عنه لأجل هذه النية فإن الله تعالى هو الشافي .
قال ابن قتيبة : الكي جنسان: كي الصحيح لئلا يعتل فهذا الذي قيل فيه [لم يتوكل من اكتوى] لأنه يريد أن يدفع القدر عن نفسه ، والثاني كي الجرح إذا لم ينقطع دمه بإحراق ولا غيره والعضو إذا قطع ففي هذا الشفاء بتقدير الله تعالى .
وأما إذا كان الكي للتداوي الذي يجوز أن ينجح ويجوز أن لا ينجح فإنه إلى الكراهة أقرب. اهـ

^١ كما روى الإمام أحمد في مسنده أن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم جاء ومعه ابنه عبد الله رضي الله عنهما إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأى عبد الله بن عباس عند النبي صلى الله عليه وسلم رجلاً يناجيه ثم رجع العباس إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسأله: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَلْ كَانَ عِنْدَكَ أَحَدٌ؟ فَإِنَّ عَبْدَ اللَّهِ أَخْبَرَنِي أَنَّ عِنْدَكَ رَجُلًا تُنَاجِيهِ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : هَلْ رَأَيْتُهُ يَا عَبْدَ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: ذَاكَ جِبْرِيلُ وَهُوَ الَّذِي شَغَلَنِي عَنْكَ.

^٢ كما في الحديث المشهور الذي قال في أوله سيدنا عمر رضي الله عنه : (بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد ...) وكان سيدنا جبريل عليه السلام

^٣ روى الإمام أحمد في مسنده عن ابن عمّ رضي الله عنهما قال: كَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَأْتِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي صُورَةِ دِحْيَةَ

فإن عينيك لا ترى عين الهواء مع أنه لا يسعك إنكار وجوده بدليل آثاره
كتحريك الأشجار ، وتمويج البحار ، وإثارة الغبار ...

ومن زعم أنه يرى الهواء بما يراه من صَفار أو احمرار فيقال : ما تراه ليس
هو عين الهواء ، ولكن هذا ما حمله الهواء من غبار فتلون بلونها ، فافهم .
وإن عقل الآدمي لا يراه الإنسان بعينه مع أنه يثبت وجوده للعاقل ،
ويفرق به بين العاقل والمجنون الذي لا عقل له .

وهكذا لا يرى الإنسان روحه التي إذا فقدتها جسمه مات وتعطلت مداركه
وحواسه وقواه ، ويفرق بين الإنسان الحي الذي يحيا بروحه التي بين
جنبه ، وبين الميت الذي توفي الله روحه ولا حراك لجسمه .

وهكذا خلق الله تعالى الملائكة وأخبر عن وجودهم وأقام البراهين والأدلة
العقلية على ذلك ، وأنهم عالم حقيقي خلقهم الله تعالى لعبادته وتنفيذ
أوامره جل وعلا ، وهم على أصناف ، ولكل منهم مهمته ووظيفته التي
خلقه الله تعالى لها .

ومن الملائكة من يُجندهم الله تعالى لنصرة أنبيائه ورسله عليهم الصلاة
والسلام ، ونصرة المؤمنين في نشر دين الله تعالى ، فمن ذلك :

ما أخبر الله سبحانه أنه أيد رسوله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم
بدر، أيدهم بخمسة آلاف من الملائكة يقاتلون معهم وينصرونهم^١ ،
فقال تعالى : { إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَيِّ مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا
سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ
كُلَّ بَنَانٍ } ، وقال عز من قائل : { بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ
هَذَا يُمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين } .

وكذلك يوم غزوة الخندق يوم تجمعت أحزاب المشركين لقتال المؤمنين ،
فأرسل الله تعالى عليهم ريحاً وجنوداً من الملائكة لم يروها ، حتى اقتلعت
خيامهم وفرقت جموعهم وألقت الرعب في قلوبهم وولوا مدبرين ،

^١ جاء في تفسير ابن أبي حاتم ٤٧٣/١٤ : عن قتادة رحمه الله تعالى في قوله تعالى :
(يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) قال : وذلك يوم بدر ، أمدهم
الله بخمسة آلاف من الملائكة .

وفي هذا يقول سبحانه : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا }^١.

ومن الملائكة من وكلهم الله تعالى بحفظ الإنسان من المخاطر والمهالك التي تعرض له ، وكل ذلك بأمر الله تعالى و مشيئته على مقتضى علمه وحكمته سبحانه ، قال تعالى : { له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله } أي يحفظون بني آدم من أمر الله تعالى ، أي من أجل أن الله تعالى أمرهم أن يحفظوا هذا الإنسان فحفظوه ودفعوا عنه الضرر والأذى^٢ .

ومن الملائكة من سخرهم الله تعالى لتسيير السُّحب والرياح حسب أوامر الله تعالى لهم ، وقد قال الله تعالى في الملائكة : { فإلمدبرات أمراً }^٣ وهم صنف من الملائكة يقومون بتدبير أوامر الله تعالى في المخلوقات وسائر الأكوان ، ومن ذلك نفخ الروح في الجنين وهو في بطن أمه وتصويره وتطوير خلقه ، فهم يباشرون الأمور عن أمر الله تعالى^٤ .

وإن أفضل الملائكة عليهم السلام هو جبريل عليه السلام ، وقد أرسله الله تعالى ليلة الإسراء والمعراج إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوه إلى حضرته جل وعلا، فصحبه جبريل عليه السلام ،

^١ جاء في تفسير الطبري ٢٠/٢١٤ : يقول تعالى ذكره: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم) وذلك حين حوصر المسلمون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الخندق.

^٢ قال الألوسي في تفسيره ٩/٢١٤ : { له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله } أي يحفظونه من المضار بسبب أمر الله تعالى لهم بذلك

^٣ جاء في تفسير الطبري ٢٤/١٩٠ : قوله تعالى : (فإلمدبرات أمراً) يقول:

فالملائكة المدبرة ما أمرت به من أمر الله.

^٤ وارجع أيها القارئ الكريم إلى كتاب (الإيمان بالملائكة عليهم السلام) للشيخ الإمام رضي الله عنه تجد البحث في ذلك مفصلاً .

ولذلك كان جبريل عليه السلام لما يستفتح باب كل سماء تقول له
خزنتها:

[مَنْ هَذَا؟]

قَالَ: جِبْرِيلُ

قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟

قَالَ: مُحَمَّدٌ

قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟]

أي وقد أرسل الله إليه يدعوهُ إلى حضرته سبحانه وتعالى؟ فيكون الجواب
من جبريل عليه السلام :

[قَالَ: نَعَمْ]

قِيلَ: مَرَحَبًا بِهِ، وَلِنَعْمَ الْمَجِيءُ جَاءَ].

ويدل هذا أيضاً على فضل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشرفه
وكرامته على الله تعالى ، وأنه أفضل من جبريل عليه السلام ، إذ إن الله
تعالى أرسل جبريل عليه السلام إلى حبيبه سيدنا محمد صلى الله عليه
وسلم يدعوهُ لحضرته ويصحبهُ في إسرائه ومعراجهُ ، ويستفتح له
الأبواب، ويخبرهُ ويجيبهُ عما يسأله عنه صلى الله عليه وسلم .

ويدل الحديث المتقدم أيضاً على أن للسماء أبواباً ، ولكل باب خزنته،
ولا يمكن لأحد أن يدخل السماء إلا بإذن من الله تعالى ، وما كان هذا
لأحد بالجسم والروح إلا لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي خصّه
الله تعالى بذلك دون خلقه .

ولما كانت السماء سامية بعلوها ، وسامية بمعناها وقدسيتها ، كان لا
يدخلها إلا مؤمن طاهر النفس طيب ، ولا يكون ذلك إلا لأرواح المؤمنين
بعد وفاتهم ، وأما الكافرون فتردُّ أرواحهم بعد وفاتهم إلى أسفل سافلين ،

وقد قال سبحانه : { إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ
أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ } فإذا كانت أرواح الكفار ممنوعة ومحظوراً عليها دخول
السماء بعد مماتهم فمن باب أولى أنهم لا يمكنهم دخول السماء
بأجسامهم في الحياة الدنيا .

وقد تحدى الله تعالى الإنس والجن في ذلك وأثبت عجزهم ، فقال جل
وعلا : { يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار
السموات والأرض فانفذوا } أي والحال لا تستطيعون ذلك لأنكم
{ لا تنفذون إلا بسلطان } أي بإذن من الله تعالى يمكنكم من ذلك .

ومن زعم أن المراد من السلطان في الآية هو العلم وتقدم مخترعات
الإنسان ليعلو إلى السماء، فيقال له : هذا زعم باطل، فإن الله تعالى أثبت
عجز الإنس والجن عن ذلك ، مع أن الجن يمكنهم الارتقاء بحكم لطافة
نشأتهم دون استخدامهم لآلة أو مركبة !!

ومع ذلك فإنهم لا يستطيعون دخول السماء التي ملئت حرساً شديداً
وشهباً ، حتى إذا اقترب أحدهم من أبواب السماء لاستراق السمع من
الملائكة ، قذفته الملائكة بالشهب ، فيما أن تحرقه أو يفر وينهزم ويأتي
صاحبه الكاهن ويخبره عن كلمة سمعها من الملائكة أو نصف كلمة ويزيد
ويكذب ، كما جاء بيان ذلك عنه صلى الله عليه وسلم^١ .

١ قال البخاري في صحيحه في كتاب تفسير القرآن: حَدَّثَنَا الْحُمَيْدِيُّ حَدَّثَنَا سُفْيَانُ
حَدَّثَنَا عَمْرُو قَالَ: سَمِعْتُ عِكْرِمَةَ يَقُولُ: سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ صَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا
خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ كَأَنَّهُ سَلْسَلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ فَإِذَا
{ فُرِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا } لِلَّذِي قَالَ
{ الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ } فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ
فَوْقَ بَعْضٍ - وَوَصَفَ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ - فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ
فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الْآخَرَ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ حَتَّى يُلْقِيهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ
أَوْ الْكَاهِنِ، فَرَبَّمَا أَدْرَكَ الشَّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرَبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يَدْرِكَهُ فَيَكْذِبُ
مَعَهَا مِائَةً كَذِبَةً، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدِّقُ بِتِلْكَ
الْكَلِمَةِ الَّتِي سَمِعَ مِنَ السَّمَاءِ].

وقال تعالى : { إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ } ،
وقال سبحانه مخبراً عن بعض الجن قولهم : { وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ
لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا } ولا يكفي مجرد العلو
لدخول السماء ، إذ إنها عالم كبير له أحكامه ، ولا يمكن لأحد أن يدخله
إلا بإذن الله تعالى بعد أن يُعده وينشئه نشأة تليق بذلك العالم ، كما أعد
الله تعالى سيدنا عيسى ابن مريم عليهما السلام لذلك لما رفعه إلى السماء
الثانية ، ولو أن إنساناً حياً نزل قبراً فلا يعني هذا أنه دخل وأخذ حكم
ونشأة أهل عالم البرزخ .

ومن ناحية أخرى فإن السماء سامية بعلوها ومنزلتها ، وهي مسكن
الملائكة والأرواح العالية من النبيين عليهم السلام والصدّيقين رضي الله
عنهم ، فأى شرف لهم إذا كان الدخول عليهم يستطيعه كل إنسان إذا
تقدم في علومه ومخترعاته ؟!

وإن جميع ما يراه الإنسان ويعلمه من الكواكب والنجوم هي دون السماء
الأولى ، بدليل قوله تعالى : { ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها
رجوماً للشياطين وأعتدنا لهم عذاب السعير } ، وقوله عز من قائل :
{ وزينا السماء الدنيا بمصابيح }... الآية .

وبدليل أنه لما كانت السماء بالنسبة إلى الأرض سقفاً محفوظاً كما جاء في
قوله تعالى : { وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون }
فإن المصابيح والزينة تكون تحت السقف لا فوقه .

وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء والمعراج البيت المعمور ،
ويدخله كل يوم سبعون ألف ملك يصلون فيه ، وإذا خرجوا من الباب
الآخر لا يتيسر لهم الدخول مرة ثانية لأن التوبة لغيرهم^١ .

^١ تقدم في بداية المحاضرة قوله صلى الله عليه وسلم : [فَرَفَعَ لِي الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ
فَسَأَلْتُ جِبْرِيلَ فَقَالَ: هَذَا الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ، يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ،
إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ..] الحديث أي: لا يعودون أبداً

والبيت المعمور هو قبلة أهل السماء السابعة، كما أن بيت العزة قبلة أهل السماء الأولى ، والكعبة المشرفة قبلة أهل الأرض .

وإن الكعبة المشرفة وبيت العزة والبيت المعمور على خط واحد ، بحيث لو قدر الله تعالى لأحد أن يصعد من سطح الكعبة ويدخل السماء الأولى لدخل بيت العزة مباشرة ، ولو ارتقى إلى السماء السابعة على نفس الخط لانتهى إلى البيت المعمور مباشرة^١ ، ولذلك فإن المؤمنين لما يطوفون حول الكعبة المشرفة فهم يتشبهون بالملائكة عليهم السلام ، الذين يدخلون البيت المعمور ويحفونه ، وبالملائكة الذين يطوفون حول عرش الرحمن، قال جل وعلا: { وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين } . وسمي البيت المعمور بذلك لأن الملائكة تعمّره بعبادة الله تعالى والصلاة له سبحانه^٢ ، وقد رأى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم الخليل عليه السلام مسنداً ظهره إلى البيت المعمور - كما جاء في رواية للحديث^٣ - فهل هو عليه الصلاة والسلام مُسند ظهره إلى البيت المعمور ليسنده أم ليستند إليه ؟

١ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٩٣/٩٤: وَأَخْرَجَ الطَّبْرِيُّ مِنْ طَرِيقِ سَعِيدِ بْنِ أَبِي عَرُوبَةَ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ : ذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ مَسْجِدٌ فِي السَّمَاءِ بِحِذَاءِ الْكَعْبَةِ لَوْ حَرَّ لَحَرَّ عَلَيْهَا ، يَدْخُلُهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ كُلِّ يَوْمٍ إِذَا حَرَجُوا مِنْهُ لَمْ يَعُودُوا] .

وَقَدْ رَوَى إِسْحَاقُ فِي مُسْنَدِهِ وَالتَّبْرِيُّ وَغَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ طَرِيقِ خَالِدِ بْنِ عَزْرَةَ عَنْ عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ السَّقْفِ الْمَرْفُوعِ قَالَ : السَّمَاءُ ، وَعَنْ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ قَالَ : بَيْتٌ فِي السَّمَاءِ بِحِثَالِ الْبَيْتِ ، حُرِّمَتْهُ فِي السَّمَاءِ كَحُرْمَةِ هَذَا فِي الْأَرْضِ . اهـ

وذكر الحافظ ابن حجر في الفتح أن في كل سماء بيتاً يحاذي الكعبة وكل منها معمور بالملائكة . اهـ ١/٦٢٢

وذكر أيضاً أن في كل سماء بيتاً معموراً ، وأن الذي في السماء الدنيا حِثَالُ الْكَعْبَةِ . اهـ ٧/١٩٧

٢ قال العيني في عمدة القاري : وعمرانه كثرة غاشيته من الملائكة . اهـ ١٥/١٢٨

٣ جاء في صحيح مسلم كتاب الإيمان قوله صلى الله عليه وسلم : [فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ] .. الحديث

والحق يقال إنه عليه السلام يسند البيت المعمور الذي هو بيت الإيمان والتوحيد وعبادة الله تعالى ، وحق لمن أمره الله تعالى أن يرفع قواعد البيت الحرام في الأرض - وهي الكعبة المشرفة لتكون للناس مثابة وأمناً - أي قبلة ومرجعاً لهم في صلواتهم وحجهم - حق له عليه الصلاة والسلام أن يسند البيت المعمور في السماء السابعة ، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو حبيب الله الأعظم وهو قلب البيت المعمور، وهو أفضل من البيت المعمور وأفضل خلق الله على الإطلاق^١ ...

^١ عقد النووي في شرح صحيح الإمام مسلم باباً:

(باب تفضيل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جميع الخلائق) ثم قال: قوله صلى الله عليه وسلم : (أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ، وأول من ينشق عنه القبر ، وأول شافع وأول مشفع) وهذا الحديث دليل لتفضيله صلى الله عليه وسلم على الخلق كلهم ؛ لأن مذهب أهل السنة أن الآدميين أفضل من الملائكة ، وهو صلى الله عليه وسلم أفضل الآدميين وغيرهم... اهـ ٤٧٣/٧

وجاء في صحيح ابن حبان قول عمر رضي الله عنه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : (وأنت رسول الله وصفوته...) الحديث وجاء في تاج العروس : وصفوة الشيء ما صفا منه. اهـ فسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صفوة الله سبحانه من جميع خلقه وقال ابن كثير في تفسيره : قال تعالى : { وأنزلنا إليك الذكر } يعني: القرآن { لتبين للناس ما نزل إليهم } من ربهم، أي: لعلمك بمعنى ما أنزل عليك، وحرصك عليه، واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم... اهـ ٥٧٤/٤

وجاء في دلائل النبوة للبيهقي قول سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : (ما خلق الله خلقاً أحب إليه من محمد صلى الله عليه وسلم).

وفيهما عن بشر بن شغاف الضبي قال: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلَامٍ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَقَالَ: " إِنَّ أَعْظَمَ أَيَّامِ الدُّنْيَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ تَقَوَّمَ السَّاعَةُ، وَإِنَّ أَكْرَمَ خَلِيقَةِ اللَّهِ عَلَى اللَّهِ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ "، قُلْتُ: رَحِمَكَ اللَّهُ، فَأَيُّنَ الْمَلَائِكَةِ؟ قَالَ: فَتَنَظَرْتُ إِلَيَّ وَصَحَّحَكَ، فَقَالَ: " يَا ابْنَ أَخِي!، وَهَلْ تَدْرِي مَا الْمَلَائِكَةُ؟ إِنَّهَا الْمَلَائِكَةُ خَلِقُ كَخَلْقِ الْأَرْضِ، وَخَلْقِ السَّمَاءِ، وَخَلْقِ السَّحَابِ، وَخَلْقِ الْجِبَالِ، وَخَلْقِ الرِّيَّاحِ، وَسَائِرِ الْخَلَائِقِ، وَإِنَّ أَكْرَمَ الْخَلَائِقِ عَلَى اللَّهِ أَبُو الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقال الإمام شهاب الدين المقرئ التلمساني المتوفى سنة ١٠٤١ هـ في منظومته في العقيدة [إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة]:

وانعقد الاجماع أن المصطفى أفضل خلق الله، والخلف انتفى

وسئل مفتي المالكية في عصره أبو عبد الله محمد بن أحمد المشهور بالشيخ عlish
المتوفي سنة ١٢٩٩ هـ رحمه الله :

مَا تَقُولُ فِي سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ هُنَاكَ مَخْلُوقٌ أَفْضَلُ مِنْهُ؟
فَأَجَابَ بِمَا نَصُّهُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ أَفْضَلِ خَلْقِ اللَّهِ،
أَجْمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَفْضَلُ مِنْ بَاقِي
الْمَخْلُوقِينَ مِنَ الْإِنْسِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْجِنِّ، وَشَاعَتْ أَفْضَلِيَّتُهُ وَدَاعَتْ، وَصَارَتْ
كَالْمَعْلُومَاتِ الصَّرُورِيَّةِ حَتَّى عِنْدَ الْعَوَامِّ، فَإِنَّ الْمُؤَدِّينَ يَصْرُحُونَ بِهَا عَلَى الْمَآذِنِ لَيْلًا
وَنَهَارًا وَصَبَاحًا وَمَسَاءً وَالْمَدَاحِينَ كَذَلِكَ فِي الْأَزْقَةِ وَالطَّرِيقِ، وَدَلَائِلُ الْخَيْرَاتِ
مَشْحُونَةٌ بِذَلِكَ وَنُسْخُهَا كَثِيرَةٌ، وَقَرَأَتْهَا فِي مَسَاجِدِ الْجَمَاعَاتِ بِرَفْعِ الْأَصْوَاتِ
شَهِيرَةً، فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ اعْتِقَادُهَا.

ثم قال: قَالَ الْبُزْهَانُ اللَّقَائِيُّ فِي شَرْحِ قَوْلِهِ فِي جَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ:
وَأَفْضَلُ الْخَلْقِ عَلَى الْإِطْلَاقِ نَبِيِّنَا فَمِلْ عَنِ الشَّقَاقِ
أَفْضَلِيَّتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ مِمَّا أَجْمَعَ عَلَيْهِ الْمُسْلِمُونَ،
وَأَقَامَ عَلَيْهِ قَوَاطِعَ الْأَدَلَّةِ الْمُحَقَّقُونَ.

وَقَالَ الشَّيْخُ عَبْدُ السَّلَامِ فِي هِدَايَةِ الْمُرِيدِ لِجَوْهَرَةِ التَّوْحِيدِ :
الظَّاهِرُ أَنَّ هَذَا الْحُكْمَ وَاجِبُ الْإِعْتِقَادِ عَلَى كُلِّ مُكَلَّفٍ عَلَى مَا يُؤْخَذُ مِنْ ظَاهِرِ
كَلَامِهِمْ، وَصَرَّحَ بِهِ بَعْضُهُمْ وَلَفِظَ النَّوَوِيِّ وَلَا بُدَّ مِنْ اعْتِقَادِ التَّفْضِيلِ. اهـ ٤٤/١
وأما عن جسده الطاهر الشريف وقبره الشريف الكريم صلى الله عليه وسلم
فقد قال الإمام ابن عابدين في حاشيته في الفقه الحنفي ج ٩ ص ١٦٩ :
مطلب في تفضيل قبره المكرم صلى الله عليه وسلم
قال في اللباب : والخلاف فيما عدا موضع القبر المقدس ، فما ضم أعضاءه
الشريفة فهو أفضل بقاع الأرض بالإجماع .

قال شارحه : وكذا أي الخلاف في غير البيت : فإن الكعبة أفضل من المدينة ما عدا
الضريح الأقدس ، وكذا الضريح أفضل من المسجد الحرام ، وقد نقل القاضي
عياض وغيره الإجماع على تفضيله حتى على الكعبة ، وأن الخلاف فيما عداه .
ونقل عن ابن عقيل الحنبلي أن تلك البقعة أفضل من العرش ،
وقد وافقه السادة البكريون على ذلك .

وقد صرح التاج الفاكهي بتفضيل الأرض على السموات لحلوله صلى الله عليه
وسلم بها ، وحكاه بعضهم على الأكثرين لخلق الأنبياء منها ودفنهم فيها
وقال النووي : الجمهور على تفضيل السماء على الأرض ، فينبغي أن يستثنى منها
مواضع ضم أعضاء الأنبياء للجمع بين أقوال العلماء . اهـ .

أما المالكية : فقد قال الشيخ السمهودي في تاريخ المدينة : نقل عياض وقبله أبو
الوليد والباقي وغيرهما الإجماع على تفضيل ما ضم الأعضاء الشريفة على الكعبة ،
بل نقل التاج السبكي عن ابن عقيل الحنبلي أنها أفضل من العرش
انظر مواهب الجليل شرح مختصر الشيخ خليل ٩ / ٤٣١

وقال الشيخ محمد بن أحمد عlish المالكي في شرحه على مختصر الخليل:
ومحل الخلاف في غير الموضع الذي ضمّه صلى الله عليه وسلم فإنه أفضل من
الكعبة والسماء والعرش والكرسي واللوح والقلم والبيت المعمور. اهـ

انظر منح الجليل شرح مختصر الخليل ٥ / ٤٨١

وأما الشافعية فقد جاء في " حاشية البجيرمي على الخطيب " (٢٢٢/١) :
قال الرملي في شرحه : ومكة أي وكذا بقية الحرم أفضل الأرض للأحاديث
الصحيحة التي لا تقبل النزاع كما قاله ابن عبد البر وغيره ، وأفضل بقاعها الكعبة
المشرفة ثم بيت خديجة بعد المسجد الحرام ، نعم التربة التي ضمت أعضاء
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع ما مرّ حتى من العرش. اهـ
وقال والده في حواشي الروض :

وأفضل من السموات السبع ومن العرش والكرسي والجنة .
وأما الحنابلة :

فقد قال الإمام البهوتي في " شرح منتهى الإرادات " (١٤/٤) :
قال في الفنون : الكعبة أفضل من مجرد الحجرة ، فأما والني صلى الله عليه وسلم
فيها فلا والله ولا العرش وحملته والجنة ؛ لأن بالحجرة جسداً لو وُزن به سائر
المخلوقات لرجح . اهـ

وقال الإمام السخاوي :

مع الإجماع على أفضلية البقعة التي ضمّته صلى الله عليه وسلم ، حتى على الكعبة
المفضلة بل على العرش ، فيما صرح به ابن عقيل من الحنابلة .

ولا شك أن مواضع الأنبياء وأرواحهم أشرف مما سواها من الأرض والسماء ، والقبر
الشريف أفضلها ، لما تنزل عليه من الرحمة والرضوان والملائكة التي لا يعلمها إلا
مانحها ، ولساكنه عند الله من المحبة والاصطفاء ما تقصر العقول عن إدراكه . اهـ

من التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة السخاوي الصفحة ١٢

وروى الدارمي وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر رضي الله عنه :

[يا أبا ذر أتاني ملكان وأنا ببعض بطحاء مكة ، فوقع أحدهما إلى الأرض وكان الآخر
بين السماء والأرض ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو؟ قال : نعم .

قال : فزِنُهُ برجل ، فوُزِنَتْ به فوزنته ، ثم قال : زنه بعشرة ، فوُزِنَتْ بهم فرجحتهم ،

ثم قال : زنه بمائة ، فوُزِنَتْ بهم فرجحتهم ، ثم قال : زنه بألف ، فوُزِنَتْ بهم

فرجحتهم ، كأني أنظر إليهم ينتثرون علي من خفة الميزان ، قال : فقال أحدهما

لصاحبه : لو وزنته بأمته لَرَجَحَهَا] .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [كأني أنظر إليهم ينتثرون علي من خفة الميزان]

أي يتساقطون من خفة تلك الكفة

لأن البيت المعمور بيت من بيوت الله تعالى له شرفه وفضله على غيره ،
أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو خليفة الله الأعظم الذي قال
الله في حقه مبيناً ذلك : { إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله
فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه
الله فسيؤتيه أجراً عظيماً } .

وقد حفظ الله تعالى الكعبة المشرفة بيته الحرام حفظها من أن يصلها
الظالمون بالأذى والخراب، وذكر سبحانه ذلك في القرآن الكريم على
سبيل ذكر فضله ونعمه وإكرامه لحبيبه صلى الله عليه وسلم فقال تبارك
وتعالى : { ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل } أي ألم تعلم علم يقين
كأنه رؤيا عين : كيف فعل ربك بأصحاب الفيل { ألم يجعل كيدهم في
تضليل * وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل *
فجعلهم كعصف مأكول } .

والله تعالى نسأل أن يعطف علينا قلب الحبيب الأعظم سيدنا محمد
صلى الله عليه وسلم ، ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة الرابعة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد:

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب فضل فاتحة الكتاب

ثم أورد بسنده إلى أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رضي الله عنه قال:

[كُنْتُ أَصَلِّي فَدَعَانِي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أُجِبْهُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي، قَالَ: أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ {اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}، ثُمَّ قَالَ: أَلَا أَعْلَمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ؟ فَأَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَدْنَا أَنْ نَخْرُجَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ قُلْتَ لِأَعْلَمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ، قَالَ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ^١.

وروى ابن ماجه عن أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قال:

[بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثِينَ رَاكِبًا فِي سَرِيَّةٍ، فَنَزَلْنَا بِقَوْمِ فَسَأَلْنَاهُمْ أَنْ يَقْرُونَا فَأَبَوْا، فَلَدَغَ سَيْدُهُمْ فَأَتُونَا فَقَالُوا: أَفِيكُمْ أَحَدٌ يَرِقِي مِنَ الْعَقْرَبِ؟ فَقُلْتُ: نَعَمْ أَنَا وَلَكِنْ لَا أَرْقِيهِ حَتَّى تُعْطُونَا غَنَمًا، قَالُوا: فَإِنَّا نُعْطِيكُمْ ثَلَاثِينَ شَاةً، فَقَبِلْنَاهَا فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ {الْحَمْدُ} سَبْعَ مَرَّاتٍ

فَبَرِيءٌ وَقَبَضْنَا الْغَنَمَ، فَعَرَضَ فِي أَنْفُسِنَا مِنْهَا شَيْءٌ فَقُلْنَا: لَا تَعْجَلُوا حَتَّى نَأْتِيَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمَّا قَدِمْنَا ذَكَرْتُ لَهُ الَّذِي صَنَعْتُ فَقَالَ: أَوْ مَا عَلِمْتَ أَنَّهَا رُقِيَةٌ؟ افْتَسِمُوهَا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا^٢.]

^١ صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

^٢ سنن ابن ماجه كتاب التجارات

إنما سميت سورة الفاتحة بذلك لأن القرآن الكريم افتتح بها^١ ، لا باعتبار أنها أول ما نزل من القرآن ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أن تُكتب أمام سور القرآن بوحى من الله تعالى^٢ ، وهي من حيث ترتيب النزول ثالث ما نزل على خلاف بين العلماء بينها وبين أوائل سورة : { ن والقلم }^٣.

وتسمى سورة الفاتحة أيضاً بـ "فاتحة القرآن" و"فاتحة الكتاب" ، ويقال لها أيضاً: "أم القرآن" و"أم الكتاب"^٤ يعني القرآن ،

١ انظر تفسير الرازي ١٥٧/١

٢ روى الإمام أحمد في مسنده عن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: [إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الرَّمَانُ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنَ السُّورِ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، وَكَانَ إِذَا أُنزِلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ يَدْعُو بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ عِنْدَهُ يَقُولُ: ضَعُوا هَذَا فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَيُنَزَّلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ فَيَقُولُ: ضَعُوا هَذِهِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَيُنَزَّلُ عَلَيْهِ الْآيَةُ فَيَقُولُ: ضَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا].

٣ انظر ما ذكره العلامة الزرقاني في كتابه (مناهل العرفان في علوم القرآن) في مبحث : (أول ما نزل على الإطلاق).

٤ فاتحة الكتاب تسمى أم الكتاب يعني أم القرآن الكريم، أما قوله تعالى: { يمحوا الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب } يعني الكتاب الذي حوى مقادير الأشياء كلها وكتب فيه كل شيء، وهو قوله تعالى: { وإنا } إشارة إلى القرآن { في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم }.

روى الدارقطني في سننه عن علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، أنّهما سمعا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجهر في المكتوبات بـ { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } في فاتحة القرآن .. الحديث

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : { الحمد لله رب العالمين } سبع آيات أولهن { بسم الله الرحمن الرحيم } وهي السبع المثاني ، وهي فاتحة الكتاب وهي أم القرآن . وفي مسند أبي داود الطيالسي برواية : [السَّبْعُ الْمَثَانِي هِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ]. وروى البيهقي في شعب الإيمان عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [إِنَّ اللَّهَ أَعْطَانِي فِيمَا مَنَّ بِهِ عَلَيَّ: أَلِيَّ أَعْطَيْتُكَ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ، وَهِيَ كَثْرٌ مِنْ كُنُوزِ عَرْشِي...] الحديث

وروى الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [الْحَمْدُ لِلَّهِ أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي].

وذلك لأن أم الشيء مبدؤه ومرجعه ، ولما كانت جميع المعاني القرآنية منطوية ومجملة في سورة الفاتحة سميت أم القرآن وأم الكتاب من هذه الناحية ، ومن ناحية أخرى فهي أم القرآن ، أي : تؤم القرآن يعني أنها أمامه وبقية السور القرآنية مقتدية بها أي : تالية لها ، وقد تعددت أسماء سورة الفاتحة لكثرة فضائلها وخصائصها .

ولم يكن أبو سعيد رضي الله عنه يعلم الحكم بقطع الصلاة - وإن كانت فرضاً- إجابة لدعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم له^٢ مع أنه كان يصلي نفلًا^٣، وقد بين له صلى الله عليه وسلم الحكم بقوله : [ألم يقل الله : { استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } أي: إذا دعاكم لما يحييكم به ، والمراد هنا حياة القلب والروح لأنهم أحياء الجسم .

وإذا كان الجسم الإنساني يحيا بالروح الإنساني التي ينفخها الملك في جسم الإنسان وهو في بطن أمه، فإن هذه الروح الإنسانية لا بد لها من روح أخرى تحيا بها ، وهذه هي الروح القرآنية التي جاء بها رسول الله عليه وسلم ، والمشار إليها بقوله تعالى : { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا }.

قال الإمام البخاري في صحيحه: وَسَمَّيْتُ أُمَّ الْكِتَابِ لِأَنَّهُ يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ.

^١ وسمي الإمام إماماً لأنه يقوم أمام المصلين ويقتدون به.

^٢ قال الحافظ ابن حجر في الفتح : إِجَابَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ فَرَضَ يَعْصِي الْمَرْءُ بِتَرْكِهِ

^٣ جاء في عون المعبود ٣/٣٩١ : قال ابن الملك: وقصته أنه قال: مررت ذات يوم على المسجد ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فقلت: لقد حدث أمر، فجلست فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (قد نرى قلب وجهك في السماء) فقلت لصاحبي: تعال حتى نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن المنزل فنكون أول من صلى، فكنت أصلي فدعاني النبي صلى الله عليه وسلم فلم أجبه حتى صليت، قال: ألم يقل الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم).

فأي قلب استجاب لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به حيي صاحبه حياة الأبد ونال سعادة الدنيا والآخرة ونال الحياة الحقيقية العالية ، وأي قلب أعرض وجحد مات صاحبه ميتة الأبد وشقي شقاء الأبد ، فهو ميت وإن كان جسمه حياً ، قال تعالى : { والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون }.

واعلم أن الإنسان نوعان : إنسان حيواني بهيمي لا يعرف من حياته الإنسانية إلا الأكل والشرب والشهوات ، وهذا هو الإنسان الكافر الذي وصفه الله تعالى بأنه كالأنعام كما جاء في قوله جل وعلا: { والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم }، وقوله عز وجل: { أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً }.

وإنسان علوي رباني وهو الإنسان المؤمن الذي يعلم أن الله خلقه ليشرفه بمعرفته والإيمان به وعبادته جل جلاله ، وهو الإنسان الذي نال الحياة الحقيقية الأبدية التي خسرها الكافر وتأسف عليها يوم القيامة ، كما أخبر سبحانه : { يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى * يقول يا ليتني قدمت لحياتي } أي : يا ليتني كنت في الدنيا آمنت وعملت وقدمت لحياتي التي صرت إليها الآن حتى أحيى الحياة السعيدة الطيبة الأبدية .

قوله تعالى : { واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه } يحذر سبحانه الإنسان إن هو أعرض واستمر على إعراضه وعناده عن قبول الحق والرجوع عن الباطل فإن الله يجعل بينه وبين قلبه حائلاً لا يستطيع بعده الإيمان أو الرجوع عما هو فيه ، وإن أراد ذلك فلا يطاوعه قلبه ، وهذا نتيجة عناده وإصراره ، ولذلك يقول سبحانه : { فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم } أي: بسبب ميلهم وإعراضهم وإصرارهم ، وقال عز من قائل : { بل طبع الله عليها بكفرهم } أي: بسبب كفرهم وعنادهم ، وقال جل وعلا : { ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة } أي: لأنهم أعرضوا وعاندوا مرة بعد مرة .

وفي ذلك تحذير للعصاة المصيرين على ذنوبهم وإرشاد لهم أن يرجعوا عما فيه ويتوبوا إلى الله تعالى قبل أن يؤدي بهم إصرارهم إلى استحلال ما حرم الله فيخرجوا من الدين وهم لا يشعرون .

قوله صلى الله عليه وسلم لأبي سعيد بن المعلى : [أَلَا أَعَلَّمُكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ] ثم شغله صلى الله عليه وسلم بحديث آخر ومشى حتى قارب أن يأتي باب المسجد ، ففعل ذلك صلى الله عليه وسلم ليمتحن حرص أبي سعيد واهتمامه بتعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجد منه ما يريد^١ ، إذ قال له أبو سعيد بعد ذلك : [يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّكَ قُلْتَ : لَأُعَلِّمَنَّكَ أَعْظَمَ سُورَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ] .

وفي هذا دليل على أن لا يوضع العالم نفائس العلم وجواهره إلا عند أهله الراغبين فيه والحريصين عليه ، ومن هنا يدرك العاقل قيمة وفضل العلوم التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحرص الصحابة رضي الله عنهم على سماعها وأخذها من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : { ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم }

فقوله جل وعلا: { سبعاً من المثاني } يعني سورة الفاتحة أي: سبعاً من الآيات المثاني، وهناك السور السبع المثاني ، وهي السبع الطوال : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف وبراءة مع تابعها الأنفال^٢ .

وقد أطلقت صفة { السبع المثاني } على سورة الفاتحة لأنها سبع آيات بإجماع الأئمة، وهي مثاني لأنها تُتلى أي: تُكْرَر وتُعاد في كل ركعة من ركعات الصلاة، أو هي مأخوذة من الثناء لأن فيها ثناء كبير على الله تعالى ، وفيها يعلم الله تعالى عباده كيف يُثنون عليه^٣ ، فأولاً يذكر العبد اسم الله جل وعلا { الرحمن الرحيم } بقوله : { بسم الله الرحمن الرحيم }

١ قال الحافظ ابن حجر في الفتح : قَوْلُهُ : (ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي) زَادَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ " يُحَدِّثُنِي وَأَنَا أَتَّبِطَأُ مَخَافَةَ أَنْ يَبْلُغَ الْبَابَ قَبْلَ أَنْ يَنْقُضِي الْحَدِيثَ " . اهـ ٢٨٥/١٢

٢ انظر كتاب (الإتقان في علوم القرآن) للحافظ السيوطي
٣ انظر تفسير الخازن لقوله تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ)

ثم يحمده سبحانه بقوله { الحمد لله رب العالمين } ثم بتكرار ذكر
كمالاته وأسمائه سبحانه { الرحمن الرحيم * مالك يوم الدين } .

روى مسلم والإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :
سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

[قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا
سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: حَمَدَنِي عَبْدِي^١

وَإِذَا قَالَ: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي

وَإِذَا قَالَ: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ}

قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي^٢، وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي

فَإِذَا قَالَ: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ}

قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ

فَإِذَا قَالَ: {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}

قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ^٣.

وفي هذا بشارة لمن دخل في الصلاة وقرأ سورة الفاتحة فإن الله تعالى
يناجيه ويقبل ثنائه ويجيب دعاءه، وإذا أجاب الله عبده فقد ضمَّنه،
فليحسن المصلي قراءته وليحضر قلبه مراقباً مناجاة الله له وإجابته له
سبحانه.

^١ وفي رواية للبيهقي في السنن الكبرى:

[فإذا قال العبد: (بسم الله الرحمن الرحيم) يقول الله: دَكَّرَنِي عَبْدِي].

^٢ يعني: عظمي

^٣ صحيح مسلم كتاب الصلاة ومسند الإمام أحمد ٦٩٩٠

وتسمى سورة الفاتحة "مثاني" أيضاً من الثنّيا^١ أي: الاستثناء، فقد استثنى الله تعالى هذه السورة من بين سائر الكتب السابقة وخص بها هذه الأمة المحمدية^٢ فخص الله تعالى خير الأمم بأفضل سورة وأعظمها .

ويحسن بنا أن نبين معنى قوله تعالى: {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون} .

يعني قد مضى قبلكم أمم فاضلة خيرة أنتم خيرها وأفضلها عند الله تعالى وليس المراد من قوله تعالى: {كنتم خير أمة} أي: خيراً من الأمم الشريرة الكافرة التي مضت قبلكم، إذ لا معنى للخيرية عندئذ.

فالمراد إذاً: كنتم خير أمة خيرة أخرجت، لأن التفضيل يكون بين شيئين أو أكثر اشتركا في صفة، وفُضِّل أحدهما على الآخر فيجري التفاضل بينهما.

وهكذا فقد جاء بيان ذلك عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صاحب البيان عن القرآن الذي قال: [أَلَا إِنَّكُمْ تُوَفُّونَ] - وفي رواية: [إِنَّكُمْ تَتِمُّونَ]^٣ [سَبْعِينَ أُمَّةً] أي : من الأمم الخيرة الكريمة [أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ] وما نالت هذه الأمة ذلك إلا لأنها أمة إمام الأنبياء والمرسلين وأفضل الأنبياء والمرسلين، فنالت الشرف والفضل على باقي الأمم باتباعها لرسولها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهي الأمة المصطفاة التي ورثت عن رسولها صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى : { ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا } .

ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من أتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم المتمسكين بهديه.

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

^١ جاء في مختار الصحاح : (الثنّيا) بِالضَّمِّ اسْمٌ مِنَ (الِاسْتِثْنَاءِ)

^٢ انظر تفسير الألوسي ٤٠/١

^٣ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

^٤ مسند الإمام أحمد ١٩١٧٦

المحاضرة الخامسة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

بَاب مَا جَاءَ فِي فَاتِحَةِ الْكِتَابِ

وَسُمِّيَتْ أُمَّ الْكِتَابِ لِأَنَّهُ يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ، وَالَّذِينَ : الْجَزَاءُ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، كَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ:

{ بِالَّذِينَ { بِالْحِسَابِ { مَدِينِينَ { مُحَاسِبِينَ

ثم أورد بسنده إلى أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

[كُنْتُ أَصَلِّي فِي الْمَسْجِدِ فَدَعَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ أَجِبْهُ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ أَصَلِّي، فَقَالَ: أَلَمْ يَقُلْ اللَّهُ

{ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ }

ثُمَّ قَالَ لِي: لِأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ لِأَعْلَمَنَّكَ سُورَةً هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ؟ قَالَ: { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } هِيَ السَّنْبُعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ].

بَاب { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ }

ثم أورد بسنده إلى أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا قَالَ الْإِمَامُ { غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ } فَقُولُوا: آمِينَ، فَمَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ [١]. اهـ

١ صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

لقد سمى رسول الله صلى الله عليه وسلم سورة الفاتحة (أم القرآن)
و (أم الكتاب) كما جاء عنه في الحديث الذي رواه الإمام البخاري :

[لا صلاة لمن لم يقرأ بأم الكتاب]^١

وفي رواية : [لا صلاة لمن لم يقرأ بأم القرآن]^٢.

وسميت فاتحة الكتاب بـ "أم الكتاب" و "أم القرآن" ^٣ لتقدمها على بقية
السور ، وعليه جرى الإمام البخاري رضي الله عنه فقال:

"وَسُمِّيَتْ أُمُّ الْكِتَابِ لِأَنَّهُ يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا فِي الْمَصَاحِفِ، وَيُبْدَأُ بِقِرَاءَتِهَا فِي
الصَّلَاةِ"، فهي تتقدم على كل السور من حيث قراءتها في الصلاة، وهي أم
بهذا المعنى كما تتقدم الأم في الخلق على أولادها، وقد تقدم بيان ذلك.

وقال بعض السلف رضي الله عنهم : سميت سورة الفاتحة أم القرآن
باعتبار أن أم الشيء مرجعه وأصله، مما يدل على أن المعاني القرآنية
انطوت في سورة الفاتحة وأجملت فيها كما أجملت الشجرة في نواتها^٤.

وسورة الفاتحة هي أعظم سور القرآن كما بين ذلك رسول الله صلى الله
عليه وسلم بقوله لأبي سعيد رضي الله عنه: [لَأَعْلَمَنَّكَ سُورَةَ هِيَ أَعْظَمُ
السُّورِ فِي الْقُرْآنِ]، وقد جاء هذا الحديث أيضاً عن أبي بن كعب رضي الله
عنه كما رواه الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ عَلَى أَبِي بِنِ كَعْبٍ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبُيُّ، وَهُوَ
يُصَلِّي ، فَالْتَفَتَ أَبِيٌّ وَلَمْ يُجِبْهُ، وَصَلَّى أَبِيٌّ فَخَفَّفَ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى رَسُولِ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ،

^١ في صحيحه كتاب القراءة خلف الإمام

^٢ صحيح مسلم كتاب الصلاة

^٣ روى الترمذي في سننه عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [الْحَمْدُ لِلَّهِ أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي].

^٤ جاء في تفسير القرطبي : وقيل: سميت أم القرآن لأنها أوله ومتضمنة لجميع
علومه، وبه سميت مكة (أم القرى) لأنها أول الأرض ومنها دحيت، ومنه سميت
الأم أماً لأنها أصل النسل، والأرض أماً. اهـ ١١٢/١

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ، مَا مَنَعَكَ يَا أُبَيُّ أَنْ تُجِيبَنِي إِذْ دَعَوْتُكَ؟ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي كُنْتُ فِي الصَّلَاةِ
أَي لَدَلِكْ لَمْ أُجِيبْكَ فِي الْحَالِ [قَالَ: أَفَلَمْ تَجِدْ فِيمَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ أَنْ
{اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ}؟
قَالَ: بَلَى، وَلَا أَعُودُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ].

أي أنني من الآن فصاعداً أجيبك حالاً إذا دعوتني ولو كنت في الصلاة
بدليل ما جاء في رواية البيهقي أن أبي بن كعب رضي الله عنه قال :
[لَا جَرَمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا تَدْعُونِي إِلَّا أُجِيبُكَ، وَإِنْ كُنْتُ مُصَلِّياً].
ومن هنا استدل العلماء على وجوب قطع الصلاة إذا نادى المصلي رسول
الله ولو كانت صلاته فرضاً^١.

وقد بين سيدنا رسول الله سبب ذلك بقول الله تعالى : { استجبوا لله
وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } أي لأنه يدعوكم إلى أمر فيه حياتكم ،
ولا شيء أهم وأعظم عند المؤمن من حياة قلبه وروحه ..
وقد نص العلماء على أن المصلي إذا رأى طفلاً يشرف على الهلاك بأن كان
سيرمي نفسه من سطح ، أو رأى أعمى يوشك أن يقع في بئر ، أو استغاثه
إنسان لدفع ضرر عنه وجب عليه أن يقطع صلاته لإنقاذ غيره من الهلاك
وللحفاظ على حياته ..

فماذا يجب على المصلي إذا دعاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما فيه
حياة قلبه وروحه ؟

نعم يجب عليه أن يقطع صلاته ويجيب رسول الله صلى الله عليه وسلم
وهذا قوله تعالى : { استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } أي إذا
دعاكم رسول الله لما يحييكم به ، وإن دعوة رسول الله صلى الله عليه
وسلم لكم هي دعوة من الله تعالى .

١ قال الحافظ ابن حجر في الفتح : إجابة النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة
فَرَضَ يَعْصِي الْمَرْءُ بِتَرْكِهِ

فلقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا سعيد رضي الله عنه لما يحييه بأن علمه أعظم سورة في القرآن الكريم فقال : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ .

وقال صلى الله عليه وسلم لأبي بن كعب رضي الله عنه:

[أَتَّحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةَ لَمْ يَنْزَلْ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلَهَا؟ قَالَ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: فَقَرَأْتُ الْقُرْآنَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْزَلْتُ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلَهَا، وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنْ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيَتْهُ].

فلقد دعاها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى سورة الفاتحة وهي من القرآن الكريم ، والله تعالى يقول : { استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } أي لما يحييكم به وهو القرآن الكريم النازل عليه صلى الله عليه وسلم، مما يدل على أن للإنسان روحاً يحيا بها القلب والروح الإنسانية حياة الأبد ، وهذا ما ذكره سبحانه بقوله : { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا } فكما يحيا الجسم الإنساني بالروح الإنساني التي ذكرها جل وعلا في قوله: { ويسألونك عن الروح } أي الروح الإنسانية { قل الروح من أمر ربي } أي من عالم الأمر الرباني وهو عالم لطيف يوجد بقول الله تعالى : { كن } ولا يتوقف وجوده على مدة ولا مادة، ولا بد للروح الإنسانية والقلب الإنساني من روح عالية لحياتهما وهذه هي الروح القرآنية التي تحيا بها الأرواح الإنسانية حياة السعادة الأبدية .

وكما يحتاج جسمك إلى مدد وغذاء فإن روحك الإنسانية تحتاج أيضاً إلى مدد وغذاء، وما مددها وغذاؤها إلا الروح القرآنية التي إن استجاب الإنسان لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآمن به وبما جاء به حييت روحه حياة الأبد، وإن أعرض وجحد ماتت روحه ميتة الأبد - وإن كان جسمه حياً - فحياته كحياة الأنعام لا يعرف إلا طعامه وشرابه وشهوته وفيه يقول سبحانه: { والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون }

ويقول عز من قائل في صفة الكافرين : { إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً } .

فقوله تعالى : { استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } أي لما يحييكم به وهو القرآن الكريم الذي جاءكم به، ولا يفهم القرآن إلا عن الذي نزل عليه وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى : { وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ } فجاءت أحاديثه صلى الله عليه وسلم بيانات للقرآن الكريم، فالقرآن الكريم والسنة المحمدية هما حياة الأرواح والقلوب

واعلم أن الإنسان مركب من جسم وروح كما قال سبحانه : { فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين }، فبالجسم والروح صار الإنسان إنساناً، وبالروح صار لهذا الجسم الإنساني مدارك وحواس وقوى وسمع وبصر وتفكير وإرادة وغير ذلك، ولا يتمتع الإنسان بحواسه ومداركه وقوته إلا إذا كان قلبه سليماً صحيحاً لأن القلب هو واسطة وباب الروح إلى الجسم، وبالروح يستمر القلب في نبضه ليوصل إلى سائر أطراف الجسم ما تحتاجه من غذاء، وما الروح إلا بيد الله تعالى، بل كل شيء بيده سبحانه الذي قال جل وعز : { تبارك الذي بيده الملك } وقال عز من قائل : { فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء }، والروح تابعة لعالم الملكوت، والجسم عالم من عوالم الملك، وكلاهما بيد الله تعالى .

ومتى انقطع مدد الروح للقلب توقف القلب فمات الجسم الذي كان القلب ينبض ليبقى عليه حياته، وهذا من حيث الحياة الجسمانية، وأما من حيث الحياة الروحية فاعلم أن الله تعالى قد أودع في قلب الإنسان الحسي الصنوبري قلباً آخر لطيفاً ربانياً وهو موضع الإدراك والتبصر، ومتى صح في الإنسان هذا القلب صار إنساناً حقيقياً، وإذا فقد الإنسان قلبه الروحي الرباني صار إنساناً بالصورة حيواناً على الحقيقة، ألا ترى إلى قوله تعالى : { إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب }

مع أن كل إنسان يتمتع بالقلب الجسدي إلا أن المراد : إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب حي يقظ وهو القلب اللطيف الرباني ، ولذلك من فقد هذا القلب فلا ينتفع بتذكير القرآن الكريم ومواعظه .

وكما أن نور البصر قام في حدقة العين ولولاه لما صار الإنسان بصيراً ولو كان له عينان كبيرتان، وكذلك قام القلب اللطيف الرباني في القلب الجسدي ولولاه لصار الإنسان حيواناً لا يعرف سوى الأكل والشرب والشهوة، فمن أصغى سمعه وتحرر من عبودية الكبر والتعالي دخلت روح القرآن الكريم - التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - دخلت قلبه الروحاني الرباني فحي قلبه وصار صاحبه منصفاً مؤمناً يعرف حكمة الله تعالى من خلقه ويتمسك بشرعه سبحانه، وإذا كان الإنسان يحرص على حياته الدنيوية المؤقتة ويبعد جسمه عن المهالك والمتالف خشية أن تزهد روحه الإنسانية فيفقد حياته الدنيوية فمن باب أولى وأجدر ينبغي عليه أن يكون حرصه على حياته الأخروية الأبدية أشد وأعظم، وأن يبعد نفسه عن الفسوق والكفر والضلال لئلا يموت قلبه الروحاني فيخسر سعادة الأبد، ويشقى شقاء الأبد بحياة ضيقة شديدة عسيرة ، ولذلك ترى الكافر يتمنى الرجعة في الآخرة كما أخبر سبحانه عن ذلك بقوله : { وحيء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان } أي الإنسان الكافر {وأنى له الذكرى} أي ماذا تنفعه الذكرى وقد عاين سوء عمله وعاين جهنم وما فيها؟! ولا رجعة إلى الدنيا حتى يؤمن وينتفع بتذكره {يقول يا ليتني قدمت لحياتي} أي يا ليتني في الدنيا قدّمت وعملت حتى أجد ثواب ذلك الآن في الآخرة التي هي الحياة الحقيقية الباقية وأحيا الحياة السعيدة الأبدية.

وقوله تعالى مخبراً عن الكافر : { يا ليتني قدمت لحياتي } أي لحياة روحه وقلبه التي قد خسرها لما كان في الدنيا بأن أعرض واستكبر عن دعوة الرسول الذي جاء بروح من عند الله تعالى تحيا بها الأرواح حياة الأبد قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } أي إذا دعاكم صلى الله عليه وسلم لما يحييكم به وهو القرآن النازل عليه الذي قال الله تعالى فيه: { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا}، ومن شأن الروح أن تعطي الحياة ، وهذا هو الروح القرآني الذي تحيا به الأرواح الإنسانية حياة الأبد،

وقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْ كان في زمنه ودعا كل إنسان يأتي من بعده إلى يوم القيامة دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان والإسلام، وأن يأخذوا بالقرآن الكريم وما جاء عنه صلى الله عليه وسلم من بيانات للقرآن الكريم وهي أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم.

وكما أنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة رضي الله عنهم ورسول إلى مَنْ كان في زمنه صلى الله عليه وسلم فهو أيضاً رسول إلى كل فرد من أمته يأتي إلى يوم القيامة، وفي هذا يقول سبحانه: { قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ } أي لأُنذِرْكم به وأنذر به من بلغه هذا القرآن، ومن بلغه القرآن فقد بلغته دعوتي، وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه ابن مردويه وأبو نعيم والخطيب عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [من بلغه القرآن فكأنما شافهته به] أي فكأنه رأي وسمع القرآن مني وقامت حجة الله عليه [ثم قرأ: { وأوحى إليّ هذا القرآن لأُنذِرْكم به ومن بلغ }].

وأخرج ابن أبي شيبة وابن الضريس وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: { وأوحى إليّ هذا القرآن لأُنذِرْكم به ومن بلغ } قال: (من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم)، وفي لفظ: (من بلغه القرآن حتى يفهمه ويعقله كان كمن عاين رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلمه)^١.

وقال تعالى في وصف المؤمنين الذين استجابوا لدعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم: { ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيمان } وهذا المنادي هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي نادى العالم كلهم ودعاهم للإيمان بربهم { أن آمنوا بربكم فآمنوا }.

^١ انظر الدر المنثور للحافظ السيوطي ٣٩/٤

قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه } أمر سبحانه عباده أن يستجيبوا لدعوة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقد دعاهم أولاً للإيمان وأركانه من الأمور الاعتقادية، ثم دعاهم للالتزام بالأحكام الشرعية بامثال الأوامر واجتناب المناهي، ثم حذر وأنذر سبحانه عباده من الإعراض والاستكبار عن إجابة دعوة رسوله صلى الله عليه وسلم، فمن أعرض واستكبر ولم يؤمن - بعد أن عرف الحق وسمع دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقامت عليه الحجة وسمع التذكير والمواعظ مرات ومرات إلا أنه كان يعرض ويستكبر في كل مرة - فإن الله تعالى بعد ذلك يحول بينه وبين قلبه أي يجعل حائلاً بينه وبين قلبه عقوبة له فلا يُوفَّق إلى الإيمان، وإن هو أراد الإيمان لا يجد في قلبه استجابة له وهذا معنى قوله تعالى : { فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ وَقَتْلِهِمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا } أي على قلوبهم { بِكُفْرِهِمْ } أي بسبب كفرهم وإعراضهم بعد أن عرفوا الحق ولم يعترفوا به ويدعنا له، فطبع الله على قلوبهم وختم عليها بخاتم الكفر { فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا } . وتشمل هذه العقوبة الإلهية أيضاً عصاة المؤمنين المصيرين على معصية الله تعالى ولا يتوبون منها فقد يجر أحدهم الإصرار على المعصية يجره إلى استحلالها فيقع في الكفر من حيث لا يشعر ، كما قد يعاقب بإصراره على المعصية بأن يحول الله بينه وبين قلبه فإن هو أراد التوبة لا يجد من قلبه استجابة ونسأل الله العافية .

ونظير ذلك كرجل نصحه الأطباء بل نصحه كل العقلاء بأن لا يتعاطى الخمر والمخدرات والمسكرات لأنها تضر بجسده وقد توصله إلى درجة الإدمان بحيث لو أراد تركها ما استطاع، إلا أن هذا الرجل لم يستجب لأحد وبقي في تعاطيه للمخدرات والمسكرات حتى أضرت بجسده فلما حاول تركها لم يتمكن بل راح يجد في نفسه وقلبه رغبة شديدة فيها ولم يستطع الحياة بدونها فصار أسير سكره، ولمّا يجِدُ في تركه لها ربما تودي بحياته، ونسأل الله العافية من كل داء وبلاء ظاهر وباطن،

وكذلك الإصرار على الكفر والمعاصي قد يوصل صاحبه إلى أن يُختم على قلبه فلا يستطيع الإيمان ولا التوبة ...

جاء في الحديث عن سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :

[الطابع مُعَلَّقة بقائمة عرش الله عز وجل ، فإذا انتهكت الحرمة وعُمل بالمعاصي ، واجترأ على الرب ، بعث الله الطابع فيطبع على قلبه ، فلا يعقل بعد ذلك شيئاً]^١ أي : يطبع الله على قلب المصّر على كفره ومعصيته .

وقوله تعالى { واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه } ينبّه سبحانه عباده إلى أنه أقرب للإنسان من قلبه لأنه يحول بين المرء وقلبه فليحذر الإنسان ربه وليتق الله في السر والعلانية، ومن راقب الله تعالى في جملة أحواله وخشي الله تعالى وابتعد عمّا نهاه الله تعالى عنه ثبت الله قلبه على الإيمان وختم له بحسن العاقبة ، قال تعالى : { يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ } فمن ارتكب المعاصي واتخذ ربه وراءه ظهرياً وأصر واستكبر حال الله بينه وبين قلبه وساءت خاتمته ، نسأل الله العافية.

وقد سميت سورة الفاتحة بهذا الاسم لأن المصاحف تفتتح بها كما أمر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم بوحى من الله تعالى^٢، كما وأن على المصلي أن يفتتح صلاته من القرآن بها.

^١ شعب الإيمان للبيهقي والتوبة لابن أبي الدنيا

^٢ روى الإمام أحمد في مسنده عن عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : [إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ مِمَّا يَأْتِي عَلَيْهِ الرَّمَانُ يُنَزَّلُ عَلَيْهِ مِنَ السُّورِ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، وَكَانَ إِذَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ الشَّيْءُ يَدْعُو بَعْضَ مَنْ يَكْتُبُ عِنْدَهُ يَقُولُ : ضَعُوا هَذَا فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَيُنَزَّلُ عَلَيْهِ الْآيَاتُ فَيَقُولُ : ضَعُوا هَذِهِ الْآيَاتِ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا، وَيُنَزَّلُ عَلَيْهِ الْآيَةُ فَيَقُولُ : ضَعُوا هَذِهِ الْآيَةَ فِي السُّورَةِ الَّتِي يُذَكِّرُ فِيهَا كَذَا وَكَذَا] .

ويقال لها (سورة الدعاء) لأن الله تعالى علّم بها العباد كيف يدعونه ،
وذلك بأن يبدأ الداعي بالحمد ثم بالثناء على الله تعالى ثم بتمجيد الله
تعالى ثم يسأل الله تعالى ويدعوه.

وقوله تعالى: {الحمد لله رب العالمين} كأن الله تعالى يقول لعباده: قولوا:
{الحمد لله رب العالمين} فعلم سبحانه العباد كيف يحمّدونه ويثنون
عليه لأن العبد لا يمكن أن يحمّد ربه بمحامد سينشئها من نفسه وعلمه
إلا إذا علّمه الله تعالى ذلك، وهذا ما جاء بيانه في كتاب الله تعالى وسنة
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد اختتمت سورة الفاتحة بكلمة (آمين) التي تعني : (اللهم استجب)
وهي ليست آية من الفاتحة ولا من القرآن الكريم بل يستحب أن يؤتى بها
عند ختم سورة الفاتحة وعند ختم الدعاء للداعي ولسامعي الدعاء^١

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث: [إذا قال الإمام {غير المغضوب
عليهم ولا الضالين} فقولوا: " آمين " فإن الملائكة تقول: " آمين "، وإن
الإمام يقول: " آمين " فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من
ذنبه]^٢ يدل على أن هناك جملة من الملائكة الكرام عليهم السلام يقتدون
بكل إمام،

^١ وقد تقدم معنا أن آيات سورة الفاتحة سبع آيات بلا خلاف بين الأئمة لكن
الخلافاً في تلك الآيات ، فالشافعية اعتبروا البسملة من الفاتحة ، والآية السابعة
هي من قوله تعالى : (صراط الذين أنعمت عليهم) إلى آخر السورة، والبسملة عند
الشافعية آية من كل سورة من سور القرآن يؤتى بها في أول السورة.
أما الحنفية فقالوا: إن البسملة آية من القرآن يستحب أن يؤتى بها أول كل سورة،
وليست البسملة آية من سورة الفاتحة، واعتبروا أن الآية السابعة هي قوله تعالى :
(غير المغضوب عليهم ولا الضالين)، ولذلك يجهر الشافعية بالبسملة في الصلاة
الجهرية، ويسر بها الحنفية . اهـ

انظر حاشية ابن عابدين ٣٢٩/١ ، ونهاية المحتاج ١ / ٤٥٧
وفي الصحيحين والرواية لمسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال: [إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ
فَأَمَّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينَهُ تَأْمِينِ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ].

^٢ سنن النسائي كتاب الافتتاح

ويتوقف عددهم على حسب درجة ذلك الإمام في التقوى والصلاح، وهؤلاء الملائكة المقتدون بالإمام يقولون: "آمين" إذا قرأ الإمام.

قوله تعالى: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} فليسارع الإنسان المقتدي إلى قوله "آمين" ليوافق قوله قول الملائكة في الزمن فيلتحق تأمينه بتأمين الملائكة.

وإن تأمين الملائكة يُرفع إلى الله تعالى ويجاب، ومن فضله ورحمته سبحانه أنه لا يرد من كان تأمينه معهم لأنه قد سلك نفسه في سلكهم فقبله الله جل وعلا وغفر له، ولا تقس أحكام الإمام والمقتدين في الصلاة على صلاة الملائكة فهم يقتدون بالإمام وإن كانوا في السماء والإمام في الأرض.

وقوله صلى الله عليه وسلم: [فمن وافق تأمينه تأمين الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه] إن جمهور العلماء على أن هذه الموافقة موافقة زمنية، وقال بعضهم: إن الموافقة هي في الحضور والخشوع، لأن صلاة الملائكة تكون عن حضور وخشوع وخشية لله تعالى، فمن وافق تأمينه في الحضور والخشوع تأمين الملائكة في الحضور والخشوع غفر له ما تقدم من ذنبه، والقول الأول أوسع وأرجى لرحمة الله ومغفرته سبحانه وهو أن يوافق قول المصلي "آمين" زمن قول الملائكة المقرين "آمين" ، وهم يقولونها عند قراءة الإمام: {غير المغضوب عليهم ولا الضالين} كل ذلك يدل على عظمة فضل الصلاة وقوة اعتبارها عند الله تعالى، وأن للمصلي صلة بربه سبحانه في صلاته ، وصلة برسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، وصلة بالملائكة عليهم السلام ، وصلة بعباد الله الصالحين كلهم رضي الله عنهم، ويكفي المصلي فضلاً وشرفاً أنه في صلاته يدعوه ربه ويناجيه جل وعلا .

^١ قال الإمام النووي في شرحه صحيح الإمام مسلم : وقوله صلى الله عليه وسلم : (من وافق قوله قول الملائكة) ومن وافق تأمينه تأمين الملائكة معناه : وافقهم في وقت التأمين فأمن مع تأمينهم فهذا هو الصحيح والصواب ، وحكى القاضي عياض قولاً أن معناه : وافقهم في الصفة والخشوع والإخلاص . اهـ ١٤٥/٢

ومن ختم دعاءه بقوله [آمين] أجاب الله دعاءه ، لما روى أبو داود في سننه عن أبي مُصَبِّحِ الْمَقْرَائِيِّ قَالَ: [كُنَّا نَجْلِسُ إِلَى أَبِي زُهَيْرِ النُّمَيْرِيِّ، وَكَانَ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَيَتَحَدَّثُ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ، فَإِذَا دَعَا الرَّجُلُ مِنَّا بِدُعَاءٍ قَالَ: اخْتِمُهُ بِآمِينَ، فَإِنَّ آمِينَ مِثْلُ الطَّابَعِ عَلَى الصَّحِيفَةِ، قَالَ أَبُو زُهَيْرٍ: أَخْبَرَكُمْ عَنْ ذَلِكَ، خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ فَأَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ قَدْ أَلَحَّ فِي الْمَسْأَلَةِ، فَوَقَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَمِعُ مِنْهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْجَبَ إِنْ خَتَمَ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: يَا أَيُّ شَيْءٍ يَخْتِمُ؟ قَالَ: بِآمِينَ، فَإِنَّهُ إِنْ خَتَمَ بِآمِينَ فَقَدْ أَوْجَبَ، فَاَنْصَرَفَ الرَّجُلُ الَّذِي سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَى الرَّجُلَ فَقَالَ: اخْتِمْ يَا فَلَانُ بِآمِينَ ، وَأَبْشِرْ^١ وهذا يدل على أنه يسن للداعي نفسه أن يختم دعاءه بكلمة [آمين] عملاً بهديه وإرشاده صلى الله عليه وسلم.

وروى البيهقي في دلائل النبوة عَنْ حَبِيبِ بْنِ مَسْلَمَةَ الْفِهْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [لَا يَجْتَمِعُ مَلَأٌ فَيَدْعُو بَعْضُهُمْ وَيُؤْمِنُ بَعْضُهُمْ إِلَّا أَجَابَهُمُ اللَّهُ].

وإذا كانت [آمين] يُختم بها الدعاء فقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم في ختم مجلس كل عبادة - ويشمل ذلك الدعاء والصلاة وقراءة القرآن وغير ذلك - أن يقول العبد: { سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين } .

قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور:

وأخرج ابن أبي حاتم عن الشعبي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من سره أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليقل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: { سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين } .

^١ سنن أبي داود كتاب الصلاة

وأخرجه البغوي في تفسيره من وجه آخر متصل عن سيدنا علي كرم الله وجهه ورضي عنه ، موقوفاً. اهـ^١

وبعد أن يفرغ المصلي من صلاته والأوراد الواردة بعد الصلاة ، عليه أن يختم ذلك بقوله: { سبحان ربك رب العزة عما يصفون * وسلام على المرسلين * والحمد لله رب العالمين } لما روى الطبراني عنه صلى الله عليه وسلم :

[مَنْ قَالَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ: { سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ * وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ * وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَقَدْ اِكْتَالَ بِالْجَرِيْبِ] أي بالمكيال [الأوفى من الأجر].

وفي رواية : أن يقرأ ذلك ثلاث مرات دبر كل صلاة بعد فراغه من أوراده ودعائه^٢.

وأما سيدنا أبي بن كعب الذي روى الحديث المتقدم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد كان من كبار قراء الصحابة ومقرئهم لما ورد في الحديث: [وأقرؤهم أبي] ^٣ ، وقد أكرمه سبحانه وشرفه بأن أمر نبيه الكريم صلى الله عليه وسلم أن يقرأ عليه القرآن - وإن كان صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن ويبلغ دعوة الله تعالى لكل الناس - .

ففي الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن قتادة عن أنس رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَبِي: [إِنَّ اللَّهَ أَمَرَنِي أَنْ أَقْرَأَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ، قَالَ أَبِي: اللَّهُ سَمَّانِي لَكَ؟ قَالَ: اللَّهُ سَمَّانِي لِي، فَجَعَلَ أَبِي يَبْكِي.

قَالَ قَتَادَةُ: فَأَنْبِئْتُ أَنَّهُ قَرَأَ عَلَيْهِ {لَمْ يَكُنْ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ} ^٤.

^١ ٣٧٢/٨

^٢ انظر كتاب معرفة الصحابة لأبي نعيم الأصبهاني

^٣ روى الترمذي في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَأُهُمْ أَبِي، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ].

^٤ صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

وفي السورة قوله تعالى : { رسول من الله يتلو صحفاً مطهرة * فيها كتب قيّمة }.

وفي مسند الإمام أحمد:

[قَالَ أُبَيُّ: وَقَدْ ذُكِرْتُ ثُمَّ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟] أي : هناك في الملاء الأعلى ؟

[قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَبِكَيْ أُبَيُّ]^١.

وفي رواية الطبراني أنه قال : [يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَذُكِرْتُ هُنَاكَ ؟ قَالَ : نَعَمْ بِأَسْمِكَ وَنَسَبِكَ فِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى]^٢ أي قال جل وعلا لرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم : اقرأها على أبي بن كعب، فجعل أبي بن كعب يبكي رضي الله عنه لشدة فرحه بفضل الله تعالى ورحمته به أن ذكره جل وعلا عنده وفي الملاء الأعلى ..

وإن الشرف الأكبر والفضل الأكبر للإنسان أن يذكره رب العالمين جل وعلا بحضرتة وفيمن عنده، وقد قال تعالى : { ولذكر الله أكبر } أي ولذكر الله تعالى عبده إذا ذكره عبده هو أكبر من ذكر العبد ربّه، وهذا لأنه سبحانه يذكر من ذكره، كما قال جل وعلا : { فاذكروني أذكركم } وفي الصلاة يذكر المصلي ربه جل وعز.

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

^١ ١٥٤٢٨

^٢ انظر المعجم الكبير للطبراني

المحاضرة السادسة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب فضل سورة البقرة

ثم أورد بسنده إلى أبي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَّاهُ]¹.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ:

[وَكَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَخْتُو مِنْ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: إِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ، قَالَ: فَخَلَّيْتُ عَنْهُ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّهُ سَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَخْتُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ وَعَلَيَّ عِيَالٌ لَا أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ ، فَأَصْبَحْتُ ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ وَعِيَالًا فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ، فَرَصَدْتُهُ الثَّلَاثَةَ فَجَاءَ يَخْتُو مِنْ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ وَهَذَا آخِرُ ثَلَاثِ مَرَّاتٍ أَنْتَ تَزْعُمُ لَا تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ، قَالَ: دَعْنِي أُعَلِّمَكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللهُ بِهَا، قُلْتُ: مَا هِيَ؟ قَالَ: إِذَا أُوْتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ ،

¹ صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ،
فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي
اللَّهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: مَا هِيَ؟ قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أُوْتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ
فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ}
وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ، وَلَا يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ،
وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ^١، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا إِنَّهُ
قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟
قَالَ: لَا، قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ^٢]. اهـ

إن سورة البقرة هي فسطاط القرآن لأنها أطول سورة في القرآن ، جاء فيها
ذكر العقيدة الإيمانية والأحكام الشرعية بما فيها من معاملات وآداب^٣ ..

وقد بين صلى الله عليه وسلم أن في سورة البقرة آيات لها خصائص
وفضائل ، ومنها آية الكرسي وخواتيم السورة .

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم : [مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ
مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ] أي من قرأ من قوله تعالى : { آمَن
الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون .. } إلى تمام السورة.

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم في حديث آخر فضل قراءة آخر ثلاث
آيات من سورة البقرة ، من قوله تعالى : { لله ما في السموات وما في
الأرض ... } إلى آخر السورة .

^١ قال الحافظ ابن حجر في الفتح : فِيهِ التَّفَات ، إِذِ السِّيَاقُ يَقْتَضِي أَنْ يَقُولَ :
وَكُنَّا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الْكَلَامُ مُدْرَجًا مِنْ كَلَامِ بَعْضِ
رُؤَاتِهِ ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَهُوَ مَسُوقٌ لِلْإِعْتِدَارِ عَنِ تَخْلِيَةِ سَبِيلِهِ بَعْدَ الْمَرَّةِ الثَّلَاثَةِ ،
حِزْبًا عَلَى تَعْلِيمِ مَا يَنْفَعُ .

^٢ صحيح البخاري كتاب الوكالة

^٣ قال القرطبي في تفسيره : ويقال لها: فسطاط القرآن، قاله خالد بن معدان،
وذلك لعظمها وبهائها، وكثرة أحكامها ومواعظها. اهـ ١٥٢/١

روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [أُعْطِيَتْ خَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، وَلَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيُّ قَبْلِي] فمن قرأ آخر ثلاث آيات من سورة البقرة فقد حاز على الفضائل الواردة في قراءتها وقراءة الآيتين من آخرها .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ] أي بعد العشاء ، كما دل عليه رواية : [مَنْ قَرَأَهُمَا بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ] يعني أن قراءتها في ليلة تبدأ من بعد صلاة العشاء، ولو قرأها الإنسان قبل أن ينام أجزاءه ذلك .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [كَفَّتَاهُ] من أي شيء وعن أي شيء كفتاه ؟ نعم ، يقال في اللغة : كفاه من الشيء ، وكفاه عن الشيء ^٢ .

قال بعض العلماء رضي الله عنهم في قوله صلى الله عليه وسلم: [كفتاه] أي من شر الشياطين، ودل على هذا المعنى ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في أحاديث ثمانية ، والأحاديث الشريفة يفسر بعضها بعضاً كما أن الآيات القرآنية يبين بعضها بعضاً ، ففي الحديث الذي رواه الترمذي عن النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْفِي عَامٍ ^٣ ،

١ قال الحافظ ابن حجر في الفتح : وَقَدْ أَخْرَجَ عَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ الْعَسْكَرِيُّ فِي " نَوَابِ الْقُرْآنِ " حَدِيثَ الْبَابِ مِنْ طَرِيقِ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ عَنْ زُرِّ بْنِ حُبَيْشٍ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ قَيْسٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو بِلَفْظٍ: [مَنْ قَرَأَهُمَا بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ أَجْرَاتَا : { أَمَنْ الرَّسُولُ } إِلَى آخِرِ السُّورَةِ] . اهـ ٢٢١/١٤

ويقال لصلاة المغرب " العشاء الأولي " كما في عرف السلف الصالح رضي الله عنهم، قال ابن العربي في أحكام القرآن : وَقَوْلُ أَنَسٍ فِي الْبُخَارِيِّ : " الْعِشَاءُ الْآخِرَةُ " يَدُلُّ عَلَى الْعِشَاءِ الْأُولَى . اهـ ١١٨/٦

٢ انظر (لسان العرب) مادة : (كفى)

٣ أي بألفي سنة ، وتسمى السنة عاماً لأنه يعم ، وقوله : [بألفي عام] أي : من تلك الأعوام المترتبة على حركة الأفلاك العرشية، والتي أشار إليها قوله تعالى : { وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ } لأن قوله صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْفِي عَامٍ] يعني أنه لم يكن هناك شمس ولا قمر بعد حتى تنشأ الأشهر والأعوام المعروفة في عالم الأرض .

أَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَلَا يُقْرَأُ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ
فَيَقْرُبُهَا شَيْطَانٌ].

وفي رواية النسائي: [إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
بِالْفِي سَنَةٍ - وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ: - بِالْفِي عَامٍ، فَهُوَ عِنْدَهُ عَلَى الْعَرْشِ، وَإِنَّهُ أَنْزَلَ
مِنْ ذَلِكَ الْكِتَابِ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَلْجُ بَيْتًا
قُرِئَتْ فِيهِ ثَلَاثَ لَيَالٍ]^١ أي : إذا قرئتا في ليلة تكون وقاية وحفظاً لتلك الدار
ثلاث ليالٍ، وما أحوج الإنسان إلى أن يقيه الله شر الشيطان ووسوسته
ومكائده، فواظب أيها المؤمن على قراءة ما أوصاك به رسول الله صلى
الله عليه وسلم كل ليلة حتى تكون في حفظ الله جل وعلا ووقايته .
وقال بعضهم : [كفتاه] أي : من شر كل ذي شر من الشياطين وغيرها .

وقال كثير من السلف في قوله صلى الله عليه وسلم : [كفتاه] أي :
تكفيانه عن صلاة الليل ، فيكتب لقارئها ثواب قيام الليل ، وقد دل ذلك
رواية للحديث : [من قرأ خاتمة الْبَقَرَةِ أَجْرَأَتْ عَنْهُ قِيَامَ لَيْلَةٍ] ويحمل هذا
على من كانت عادته قيام الليل إلا أنه عجز في بعض الليالي عن القيام
لتعب أو مرض ألم به ، فإن الله تعالى يعطيه ثواب قيام الليل إن هو قرأ
بِالآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ.

واعلم أن كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كلام جامع ، فقوله
صلى الله عليه وسلم : [كفتاه] يعني كفتاه من الشرور والمكاهر كلها
وتكفيانه أيضاً عن قيام الليل ، ويكتب له ثواب قيام الليل إجمالاً ،
أما من قام الليل وصلى ودعا فله ثواب ذلك مفصلاً مضاعفاً .

^١ سنن النسائي الكبرى

ونظير ذلك قوله صلى الله عليه وسلم كما في سنن الترمذي : [مَنْ قَرَأَ
{قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ} فَقَدْ قَرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ]^١ يعني من حيث الإجمال ، أما من
حيث التفصيل ، فقد روى الترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله
عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ
اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، لَا أَقُولُ {الم} حَرْفٌ ، وَلَكِنْ
أَلِفٌ حَرْفٌ وَوَلَامٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ]^٢.

وقال بعضهم في قوله صلى الله عليه وسلم : [كَفْتَاهُ] أي : من حيث
العقيدة والإيمان ، فإذا قرأ بهما معتقداً بهما فهو مؤمن وعقيدته بهما
كافية^٣ ، لأن في هذه الآيتين يلحق الله تعالى عباده العقيدة الإيمانية ، وهي
قوله تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ
وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ } وقوله جل وعلا مخبراً عن المؤمنين { وَقَالُوا
سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا } وفي هذا يلحق الله تعالى عباده موقفهم مع ما جاء عنه
جل جلاله ومع ما جاء عن رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم وهو
موقف السمع والطاعة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهو قولهم كما
علمهم سبحانه : { غفرانك ربنا وإليك المصير } .

قوله تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ } يعني ذلك الرسول الذي
هو علم الأعلام المعروف المحمود عند أهل الملائكة الأعلى وعند جميع
خلق الله تعالى وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

[ال] في قوله تعالى : { الرسول } هي للعهد أي : الرسول المعهود ذهنياً
والمعلوم عند كل إنسان من الأولين والآخرين ، سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم .

وقوله تعالى : { آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ } أي : إيماناً خاصاً به
صلى الله عليه وسلم لائقاً بمنصب نبوته ورسالته صلى الله عليه وسلم .

^١ سنن الترمذي كتاب الحج

^٢ سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

^٣ انظر فتح الباري ٢٢١/١٤

قوله جل وعلا: { والمؤمنون كل آمن } أي: كل آمن على حسب مقامه وعلمه ومعرفته بالله تعالى، وذلك لأن قوة الإيمان تتوقف على معرفة الإنسان وعلمه بالله تعالى، وهو صلى الله عليه وسلم أعلم خلق الله بالله جل وعلا، فلا إيمان كإيمانه صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال تعالى: { آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه } والوقف هنا، ثم ذكر سبحانه المؤمنين تبعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عز من قائل: { والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله .. } الآية^١ ليبين جل وعلا أن إيمانه صلى الله عليه وسلم ليس كإيمان أحد، كما أن إيمان المؤمنين يتفاوت على حسب درجاتهم في العلم والمعرفة والخشية من الله سبحانه وتعالى.

والحكمة في الوقف عند قوله تعالى: { من ربه } ثم تتابع الآية { والمؤمنون كل آمن } أن يظهر الفرق بين إيمانه الخاص صلى الله عليه وسلم وإيمان غيره من المؤمنين.

ومنهم من ذكر أن الوقف على قوله تعالى: [آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون] ثم تبدأ { كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله } الآية، وذلك ليظهر للإنسان أنه لا يصح إيمان مؤمن إلا بمتابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يجوز فصل التابع عن المتبوع، كما لا يصح فصل المقتدي عن الإمام، فإيمان المؤمنين مقرون بإيمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم متبعون له، وإن كان هو صلى الله عليه وسلم صاحب الإيمان الخاص بين خلق الله كلهم.

ثم يبدأ القارئ متابعة قراءته من قوله تعالى: { كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله } أي: كل من رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن المؤمنين آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على حسب مقامه.

^١ جاء في كتاب القطع والائتناف لأبي جعفر النحاس المتوفى سنة ٣٣٨ هـ: قوله تعالى: (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) قال نافع: تم . قال يعقوب: ومن الوقف التام (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) قال: (والمؤمنون) رفع بالابتداء ، لا بفعلهم . اهـ ص ١٢١

وفي الآية ذكر سبحانه أركان الإيمان كلها وهي الإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه، ودخل في ذلك الإيمان بالقدر ، لأن الكتب تشتمل الكتب التشريعية الإلهية النازلة على الرسل ، والكتب القضائية التي كتب فيها مقادير الخلائق كلها ، والكتابة على مراتب ، فهناك أم الكتاب وهناك اللوح المحفوظ وهناك صحف الملائكة وهكذا .

{ لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير } ودخل في هذا الإيمان باليوم الآخر التي تصير فيه الخلائق كلها إلى الله تعالى .

وفي هذه الآية يلقن الله تعالى عباده جملة العقائد الإيمانية ليؤمنوا بها ويكونوا على السمع والطاعة لكل ما جاءهم عن الله تعالى وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقوله تعالى : { وقالوا سمعنا وأطعنا } أي : سمعنا بأذاننا وقلوبنا سماع قبول ، وأطعنا عملاً أي : تحققنا بما سمعنا ، لا أنهم سمعوا بأذانهم وعصوا وخالفوا ما سمعوا كما هو شأن الكفار والمنافقين .

وطاعة الله تعالى هي امتثال أمر الله تعالى عن طواعية ومحبة له سبحانه، لا عن بغض وتضجر من امتثال ذلك الأمر ، فإذا مررت أيها المؤمن أو سمعت قول الله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم } الآية ، فقد أسمعك الله تعالى هذه الآية ، فأطع الله تعالى بما أمرك به في هذه الآية ، ولا تسخر من أحد من خلق الله تعالى ، وهكذا يجب أن يكون موقفك مع كل ما جاءك عن الله سبحانه وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن الله تعالى يقول : { وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا } ويقول جل وعلا : { من يطع الرسول فقد أطاع الله } .

ومن تحقق بقول الله عز وجل : { وقالوا سمعنا وأطعنا } كان جوابه عند سؤال الملكين له يسيراً عليه فيقول بلسان حقيقته : فأجبنا واتبعنا^١ .

^١ كما جاء في صحيح البخاري كتاب العلم

وقد ذكر سبحانه عن المؤمنين وأخبر عنهم بصيغة الماضي وهي أقوى من صيغة الأمر - عند من يفهم - فكأنه سبحانه قال للمؤمنين : قولوا وآمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله، فأمنوا وامثلوا أمر الله تعالى فأخبر سبحانه عنهم بأنهم آمنوا .

قوله تعالى : { لا نفرق بين أحد من رسله } يعني لا نفرق بين أحد من رسله بالإيمان ، بل نؤمن برسول الله تعالى كلهم وأن الله تعالى أرسلهم - عليهم الصلاة والسلام - إلى أقوامهم وأقاموا الحجّة عليهم وهكذا، ونؤمن بأن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم هو صاحب الرسالة العامة لجميع الأنام على مر الزمان إلى يوم القيامة .

أما التفريق بين الرسل من حيث الفضل فقد فرّق الله تعالى بينهم ، وفضّل بعضهم على بعض فقال عز من قائل : { تلك الرسل فضّلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله } أي : فضله الله على غيره بالتكليم وهو سيدنا موسى عليه السلام { ورفّع بعضهم درجات } وهذا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي رفع الله درجاته على غيره من الرسل الكرام عليهم السلام ، وجمع له جميع مقامات وفضائل من قبله من الرسل وزاده بالمقام المحمدي الخاص به صلى الله عليه وسلم { وآتينا عيسى ابن مريم البينات } ومنها إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله تعالى .

وقال تبارك وتعالى : { ولقد فضّلنا بعض النبيين على بعض } إلا أننا نؤمن بهم جميعهم ، ولا نفرّق بينهم من حيث الإيمان برسالاتهم ، أما من حيث الفضل فقد فضّل الله تعالى بعضهم على بعض ، ونؤمن بما أخبرنا الله تعالى عن ذلك .

وقد ذكر سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم في الوسط بين ذكر
سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما السلام في قوله جل وعز :
{تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم
درجات } وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم { وآتينا عيسى ابن مريم
البيّنات } لأن الوسطية تعني الأفضلية كما هو في لغة العرب، يقال :
"فلان وسط في قومه" أي : شريف في قومه ، و"فلان ذو نسب وسط"
أي : نسب شريف عال ، وقال تعالى : { قال أوسطهم ألم أقل لكم لولا
تسبحون } أي : قال خيرهم وأفضلهم : { ألم أقل لكم لولا تسبحون } ،
وذلك لأن الوسط بين الأطراف هو الذي جمع كمالات الأطراف كلها^١.

^١ قال الطبري في تفسيره ١٤٢/٣ : وأما "الوسط"، فإنه في كلام العرب الخيار،
يقال: "فلان وسط الحسب في قومه"، أي متوسط الحسب، إذا أرادوا بذلك الرفع
في حسبه، و"هو وسط في قومه، وواسط"، وقال زهير بن أبي سلمى في "الوسط":
هم وسط ترضى الأنام بحكمهم إذا نزلت إحدى الليالي بمعظم. اهـ
وقال الآلوسي في تفسيره : ومعنى : { وَسَطًا } خياراً أو عدولاً ، وهو في الأصل اسم
لما يستوي نسبة الجوانب إليه كالمركز. اهـ ٣٨/٢
وجاء في لسان العرب :

قال الحسن للأعرابي: [خيرُ الأمور أوسطُها] قال ابن الأثير في هذا الحديث:
كلُّ خَصْلَةٍ محمودة فلها ظَرْفَانِ مَدْمُومَانِ، فإن السَّخَاءَ وَسَطٌ بين البُخْلِ والتبذيرِ،
والشجاعة وَسَطٌ بين الجبن والتهوُّرِ ، والإنسانُ مأمورٌ أن يتجنب كلَّ وَصْفٍ
مَدْمُومٍ، وتجنُّبه بالتعَرِّي منه والبُعد منه، فكلمًا ازداد منه بُعداً ازداد منه تقرباً،
وفي الحديث: [الوالد أوسطُ أبواب الجنة] أي خيرُها، يقال: " هو من أوسطِ قومه "
أي خيارِهم، وفي الحديث أنه كان من أوسطِ قومه أي من أشرفهم وأحسبهم،
وفي حديث رُقَيْقَةَ: [انظروا رجلاً وسيطاً] أي حَسِيباً في قومه، ومنه سَمَّيت الصلاة
الوَسْطَى لأنها أفضلُ الصلوات وأعظمها أجراً، ولذلك حُصِت بالمُحَافَظَةِ عليها ،
و"فلان وسيطٌ في قومه" إذا كان أوسطهم نسباً وأزفَعهم مَجْداً، وفي التنزيل العزيز:
(وكذلك جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا) قال الزجاج: فيه قولان، قال بعضهم: (وَسَطًا) عَدْلًا
وقال بعضهم: خياراً ، واللفظان مختلفان والمعنى واحد لأن العَدْلَ خَيْرٌ والخير
عَدْلٌ. اهـ ٤٢٦/٧

ولقد جمع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كمالات الرسل قبله وزاد عليهم بالمقام المحمدي الخاص به صلى الله عليه وسلم ، وكان هديه أفضل هدي ، وشريعته أفضل الشرائع التي جاء بها من قبله ، كما في المسند عن جابر رضي الله عنه قال: [خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِمَا هُوَ لَهُ أَهْلٌ ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَإِنَّ أَفْضَلَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ...] [١] الحديث

وإذا كانت شريعة سيدنا موسى عليه السلام قد تميزت بالشدة والخشونة^٢ ، وشريعة سيدنا عيسى عليه السلام تميزت باللين والتسامح^٣ ، فإن شريعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاءت بكمال الشرائع كلها، فوضعت الشدة في مواضعها لإقامة حدود الله تعالى ودرء المفسد، وفيها العدل، ولكنها رغبت أيضاً في العفو والصفح كما قال تعالى: {وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَى} وقال سبحانه: {وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُور} وكانت أمته صلى الله عليه وسلم خير الأمم وأفضلها كما قال سبحانه وتعالى: { كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ } ، وقال جل وعلا: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } أي: خياراً عدلاً { لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً } فتقف هذه الأمة موقف الشهادة على غيرها من الأمم،

١٣٨١٥١

^٢ وذلك لثلاثم وتعالج بني إسرائيل الذين كانوا يتصفون بالغلظة والعناد
^٣ كما أخبر سبحانه عن عيسى عليه السلام: { ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم } وقال جل وعلا: { وآتيناها الإنجيل وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة } . وجاء في تفسير الطبري عند قوله تعالى: { ومصدقاً لما بين يدي من التوراة ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم } قال: كان الذي جاء به عيسى ألين من الذي جاء به موسى، وكان حرم عليهم فيما جاء به موسى من التوراة، لحوم الإبل ، فأحلها لهم على لسان عيسى، وحرمت عليهم الشحوم، وأحلت لهم فيما جاء به عيسى وفي أشياء من السمك، وفي أشياء من الطير، وفي أشياء حرمها عليهم، وشدها عليهم، فجاءهم عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل، فكان الذي جاء به عيسى ألين من الذي جاء به موسى صلوات الله عليه. اهـ ٤٣٩/٦

وتشهد أن الرسل قد بلغوا أممهم رسالات ربهم، والشهادة كما يقولون: هي نصف الحكم، لأن الحكم على الآخر يتوقف على شهادة الشاهدين، ولذلك تقف هذه الأمة موقف الشهادة في مكان مرتفع مشرف على باقي الأمم.

روى ابن ماجه في سننه عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلُّ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيُقَالُ: هَلْ بَلَغْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيُقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتُدْعَى أُمَّةٌ مُحَمَّدٍ فَيُقَالُ: هَلْ بَلَغَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: وَمَا عَلَّمْتُمْ بِذَلِكَ؟] أَي : وَمَنْ أَعْلَمَكُمْ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَغُوا؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَغُوا، فَصَدَّقْنَا، قَالَ: فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}¹.

وفي رواية البيهقي: [قال : فيقال : وما علمكم بهم أنهم قد بلغوا؟ قال : فيقولون: جاءنا رسولنا بكتاب أخبرنا أنهم قد بلغوا فصدقناه ، قال : فيقال: صدقتم، قال : وذلك قول الله عز وجل في كتابه : { وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً }² أي كما أخبر القرآن الكريم الذي جاء به سيد الأنام صلى الله عليه وسلم، فشهدوا بناء على خبر القرآن ، وذلك لأن خبر القرآن أقوى من رؤيا العين ، لأن القرآن الكريم لا يخطئ ، وأما العين فتخطئ في الرؤية، وقد ترى الأشياء على غير حقيقتها ، كما ترى الطائرة في جو السماء صغيرة لا يتجاوز حجمها قدر الكف ولكنها في الحقيقة أكبر من ذلك بكثير ، وقد ترى العين صفائح المروحة ثابتة، لكنها في الحقيقة تدور بسرعة عجزت العين عن إدراك سرعتها ، وقد تظن الماء المنحدر من الأنبوب متوقف لكنه في الحقيقة متتابع

¹ سنن ابن ماجه كتاب الزهد

² انظر شعب الإيمان للبيهقي

عجزت العين عن رؤية تتابعه في الجريان ، وهكذا فقد يخطئ نظر
الإنسان في كثير من الأحيان ،

فيأتي عقله السليم ويصحح له أخطاء النظر ، إلا أن العقل قد يخطئ
أحياناً ويعجز عن إدراك حقيقة بعض الأشياء ، فيأتي خبر القرآن وحديث
سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ويهدي العقل للصواب ، لأن شريعة الله
تعالى نزلت من لدن أحكم الحاكمين على السيد المعصوم بعصمة الله
تعالى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد بلغها الناس ، قال تعالى :
{ وبالحق أنزلناه وبالحق نزل } فلا يُعرف الحق إلا من الحق وهو الله جل
وعلا .

ولا بد للشاهد من تعديل وتزكية حتى تُقبل شهادته ، فمن الذي يُعدّل
ويزكي هذه الأمة المحمدية المتبعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم حتى
تُقبل شهادتها على غيرها من الأمم أن رسلهم قد بلغتهم؟!

نعم هذا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال الله تعالى فيه
{ ويكون الرسول عليكم شهيداً } فيشهد صلى الله عليه وسلم لأمته أنهم
عدول ثقات أخيار .

ومن هنا تعلم أن مرجع الأمور للذي تنحل به العقد وتنفرج به الكرب
وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي شفع أولاً بأهل الموقف
كلهم وأنقذهم من أهوال الموقف وكرباته حتى انفض الأمر بهم إلى
الحساب ، وجرى هناك التخاصم والجدال بين الأمم ورسولهم فجاء سيدنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم وزكى وعدّل أمته المتبعة له صلى الله
عليه وسلم فشهدوا على من قبلهم ، وانفض أمر الحساب ليأخذ كل
إنسان جزاءه ، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يشهد له رسول الله صلى
الله عليه وسلم بالتزكية والعدالة. آمين

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة السابعة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب فضل سورة البقرة

ثم أورد بسنده إلى أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَاهُ]¹.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

[وَكَلَّنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَخْتُمُ مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ وَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]... فذكر الحديث ثم قال [فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ، قَالَ: مَا هِيَ؟

قُلْتُ: قَالَ لِي: إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ الْآيَةَ {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ} ، وَقَالَ لِي: لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلَاثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: ذَاكَ شَيْطَانٌ]². اهـ

¹ صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

² صحيح البخاري كتاب الوكالة

اعلم أن الآيتين الأخيرتين من سورة البقرة لهما خصائص وفضائل كما أن خواتيم سورة البقرة - وهي الآيات الثلاث الأخيرات منها - لها من الفضائل والخصائص ما نبه عليه صلى الله عليه وسلم في أحاديثه الشريفة ، فيستحب للإنسان أن يقرأ كل ليلة الآيات الثلاث من آخر سورة البقرة ويكون بذلك قد جمع الفضائل والخصائص في فضل ذلك¹.

أما آية الكرسي فهي سيدة آي القرآن وأعظم آية في القرآن لما جاء عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه سَأَلَ أَبِي بِن كَعْبِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ:

[أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللهِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، فَرَدَدَهَا مِرَارًا ، ثُمَّ قَالَ أَبِيُّ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ، قَالَ: لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْدِرِ [أَي هَنِئًا لَكَ بِهَذَا الْعِلْمِ] وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ لَهَا لِسَانًا وَشَفَتَيْنِ تُقَدِّسُ الْمَلِكَ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ]² فلم يكن أبي بن كعب رضي الله عنه يعلم أي آية هي أعظم إلا أن توجهات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإمداداته له كشفت له عن ذلك فعرف وأجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقره صلى الله عليه وسلم وهناك بهذا العلم، وهو العلم بأسرار وخصائص السور والآيات القرآنية.

ولقد كانت آية الكرسي هي أعظم آية في كتاب الله تعالى لأنها جمعت من الأسماء الإلهية ما لم تجمعها آية غيرها، فقد اشتملت على سبعة عشر اسماً من أسماء الله تعالى ما بين صريح ومضمر، ومنهم من قال: إن فيها واحداً وعشرين اسماً من أسماء الله تعالى³.

¹ كما تقدم في بداية المحاضرة السابقة

² مسند الإمام أحمد ٢٠٣١٨ وأصل الحديث في صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

³ قال الزركشي في البرهان في علوم القرآن : قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ الْمُتَمِّرِ الْمَالِكِيُّ كَانَ جَدِّي رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: اشْتَمَلَتْ آيَةُ الْكُرْسِيِّ عَلَى مَا لَمْ يَشْتَمِلْ عَلَيْهِ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى ، وَذَلِكَ أَنَّهَا مُشْتَمَلَةٌ عَلَى سَبْعَةِ عَشَرَ مَوْضِعًا فِيهَا اسْمُ اللهِ ظَاهِرًا فِي بَعْضِهَا وَمُسْتَكْتَنًا فِي بَعْضٍ . اهـ ٤٤٣/١

وقال في موضع آخر : وَقَدْ قِيلَ فِي آيَةِ الْكُرْسِيِّ أَحَدٌ وَعِشْرُونَ اسْمًا مَا بَيْنَ ضَمِيرٍ وَظَاهِرٍ . اهـ ٢٤/٤

وتسمى آية الكرسي أيضاً [سيدة آي القرآن] لما ورد عنه صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ^١، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، وَفِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ، هِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ].

والسَّنام هو الشيء العالي المرتفع عن غيره ومنه سنام الجمل، ولما اشتملت سورة البقرة على مجامع لمعاني القرآن سميت بـ [سنام القرآن] فقد اشتملت على أصول الفقه الإيمانية والأحكام الشرعية والأوامر والمناهي^٢.

وقد سميت آية الكرسي بهذا الاسم إما لذكر الكرسي فيها أو لتكرُّس أي تَجَمُّع الأسماء الإلهية فيها ...

أما قوله تعالى : { وسع كرسيه السموات والأرض } يعني أن الكرسي وسع السموات والأرض كما وسع من العوالم ما لا يعلمه إلا الله تعالى.

وعالم الكرسي^٣ عالم كبير تَكَرَّسَتْ أي اجتمعت فيه عوالم كثيرة^٤ .. وما نسبة السموات والأرض فيه إلا كحلقة في فلاة كما قال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر رضي الله عنه : [يَا أَبَا ذَرٍّ، مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلَّا كَحَلَقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضِ فَلَاةٍ] أي : كحلقة ملقاة في فلاة [وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كَفَضْلِ الْفَلَاةِ عَلَى الْحَلَقَةِ]^٥ فما أكثر وأعظم عوالم الله التي تدل على سعة قدرته وعلمه وعظمته سبحانه !

^١ جاء في تحفة الأحوذى : قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ) بِفَتْحِ السَّيْنِ أَيْ رَفْعَةً وَعَلَوًّا، أَسْتُعِيرَ مِنْ سَنَامِ الْجَمَلِ ثُمَّ كَثُرَ اسْتِعْمَالُهُ فِيهَا حَتَّى صَارَ مَثَلًا، وَمِنْهُ سُمِّيَتْ الْبَقَرَةُ سَنَامَ الْقُرْآنِ ، قَالَهُ الطَّبْيِيُّ .

وَقَالَ الْجَزْرِيُّ فِي النَّهَائِيَةِ : سَنَامٌ كُلُّ شَيْءٍ أَغْلَاهُ. اهـ ١٩٦/٧

^٢ انظر تحفة الأحوذى ١٩٦/٧

^٣ وهو من التكرس والتكريس بمعنى التجمع ويقال عن مجموعة أوراق : كراسه، وسمي الكرسي الذي يجلس عليه الإنسان بذلك لأنه يجمع نفسه فيه، وكذا

الكرسي الذي يوضع عليه المصحف وهكذا ... ، انظر لسان العرب مادة (كرس)

^٤ جاء في تفسير الإمام الرازي ٣ / ٤٥٠ : وأما الكرسي فأصله في اللغة من تركيب

الشيء بعضه على بعض ، ومنه الكراسه لتركب بعض أوراقها على بعض . اهـ

^٥ كما في صحيح ابن حبان والأسماء والصفات للبيهقي

ولا تحملنك الظنون والأوهام على أن الكرسي لجلوس الحق سبحانه عليه، فهو سبحانه منزّه عن الشّبه بالمخلوقات ، وكان جل جلاله ولا مكان ولا زمان ولا عرش ولا كرسي ولا شيء ، فكما كان سبحانه غنياً عن كل ما سواه فلا يزال كذلك أزلاً أبداً جل وعلا ، وإنما خلق العرش والكرسي والعوالم كلها لإظهار عظمتة وقدرته جل جلاله ، والعرش منزل التدابير الإلهية ، وفي الكرسي تتفصل تلك التدابير وتتنزل في العوالم ..

ومن فضائل آية الكرسي ما جاء في فضل قراءتها وراء الصلوات المكتوبة:

فعن أبي أمامة رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: [من قرأ دُبُرَ] أي : وراء [كل صلاة مكتوبة] أي : مفروضة [آية الكرسي] أي : واظب على قراءتها [لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت]^١ ، وكذا قراءتها قبل النوم فمن قرأها قبل نومه وكلّ الله به ملكاً يحفظه من الشياطين والآفات كما تقدم في الحديث : [لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنْ اللَّهِ حَافِظٌ ، وَلَا يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ] .

واعلم أن السر في ذلك يكمن في قوة حضور الإنسان عند قراءته ، فكما لا بد للسلاح القوي من يد عامرة قوية كذلك لا بد لتلك القراءات والأوراد من قلب حاضر حتى تكون فاعليتها أشد وأقوى ..

وقد اعترفت الشياطين نفسها أن من قرأ آية الكرسي قبل أن ينام لا يمكنها أن تقربه أو تمسه بسوء كما تقدم في الحديث ...

قول أبي هريرة رضي الله عنه : [فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنْ الطَّعَامِ] أي : هو شيطان تمثل بصورة إنسان إلا أن أبا هريرة رضي الله عنه لم يعلم حقيقته حتى أخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك ...

^١ رواه ابن مردويه ، وقال الحافظ ابن كثير: ورواه النسائي في [عمل اليوم والليلة] عن الحسن بن بشر، وأخرجه ابن حبان في [صحيحه] من حديث محمد بن حميد الحمصي، وهم من رجال البخاري، فهو إسناد على شرط البخاري.

قوله صلى الله عليه وسلم: [صدقك وهو كذوب] أي : لقد صدقك هذا الشيطان في هذه المسألة - وإن كان الكذب شأنه وصفته - إلا أنه صدقك في أن آية الكرسي تحفظ قارئها قبل النوم من الشياطين ..

واعلم أن الحصانة والمناعة والوقاية لا تنحصر فقط بالأشياء المادية المحسوسة بل قد تكون بالمعاني والأمور الروحانية العلوية ، وأعظمها كلمات الله تعالى وآياته ، وقد قال سبحانه : { وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً } فهو حجاب يحجب المحتجب به لكنه محجوب مستور عن الناظر إليه ، وهذا أبلغ وأنكى ...

ومن ذلك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة هجرته الشريفة إلى المدينة المنورة خرج بين صفوف المشركين وهو يقرأ أول سورة {يس} إلى قوله تعالى : { فأغشيناهم فهم لا يبصرون } فجعلوا لا يبصرون رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يمر بينهم^١ .. فلم يحتجب عنهم صلى الله عليه وسلم بحجاب مادي كخشب أو حجر ولكنه حجاب لطيف يحجبه صلى الله عليه وسلم عنهم ولا يرونه، وهذا أشد وأقوى لأن من رأى الحجاب قد يسعى إلى إزالته ليصل إلى المحتجب ، لكنه لا يرى الحجاب ولا من احتجب به، وفي هذا من تصغير وإذلال العدو ما فيه ..

ومن فضائل آية الكرسي ما رواه الإمام أحمد في مسنده عنه صلى الله عليه وسلم : [والذي نفسي بيده إن لها] - أي لآية الكرسي- [لساناً وشفقتين تقدر الملك عند ساق العرش]^٢ ...

وفي الحديث عَنْ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [إِنَّ مِمَّا تَذْكُرُونَ مِنْ جَلَالِ اللَّهِ: التَّسْبِيحُ، وَالتَّهْلِيلُ، وَالتَّحْمِيدُ، يَنْعَطِفْنَ حَوْلَ الْعَرْشِ، لَهُنَّ دَوِيٌّ كَدَوِيِّ النَّحْلِ، تُذَكِّرُ بِصَاحِبِهَا، أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ، أَوْ لَا يَزَالَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ]^٣

١ انظر دلائل النبوة لأبي نعيم والبيهقي

٢ المسند ٢١٣١٥

٣ سنن ابن ماجه كتاب الأدب

يدل ذلك على أن تلاوة القرآن وذكر الله بالتحميد والتسبيح والتهليل والتكبير وغيره تتمثل بصور نورانية تصل إلى عرش الرحمن جل جلاله ، وتذكر بقارئها وتشفع به في الدنيا قبل الآخرة ، لقوله صلى الله عليه وسلم: [أَمَا يُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكُونَ لَهُ، أَوْ لَا يَزَالَ لَهُ مَنْ يُذَكِّرُ بِهِ] - أي الآن في الدنيا - ، وقد قال عز من قائل في كتابه العزيز: { إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه } فالكلام الطيب والعمل الصالح ترفعه الملائكة إلى الله تعالى ، ويحط عند سدرة المنتهى ، وتشع أنواره إلى عرش الرحمن ، كل ذلك تكريم وتشريف لهذا الكلم الطيب والعمل الصالح، إذ إن من اللائق به أن يرفع إلى أعلى عليين لا أن يبقى في الأرض ، بل هو أنفس وأعظم من أن تكون خزانة الذهب والفضة الأرضية حافظة له بل يرفع إلى ما هو أجلّ وأعلى ..

والعمل الصالح هو العمل المصحوب بالإخلاص لله تعالى ، الموافق لما شرع الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ..

وإذا كان العمل الصالح والكلم الطيب يرفع إلى سدرة المنتهى بل إلى عرش الرحمن فما بالك بالإنسان الصالح الذي صدر منه هذا العمل الصالح؟! وإذا كان كتاب الأبرار - أي : كتاب أعمالهم الصالحة وأقوالهم الطيبة - في أعلى عليين ، فما بالك بذواتهم؟! ... نعم إن مقرهم في جنة عدن ، جوار عرش الرحمن ، فوق السماء السابعة ، عند سدرة المنتهى ، عندها جنة المأوى كما قال صلى الله عليه وسلم : [فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فَسَلُّوهُ الْفِرْدَوْسَ فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الْجَنَّةِ وَأَعْلَى الْجَنَّةِ ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الْجَنَّةِ]^١ ، وكما قال تعالى : { إن المتقين في جنات ونهر * في مقعد صدق عند مليك مقتدر } فبدء الجنة من عالم السدرة وانتهاءها عند عرش الرحمن ولا يعلم عظيمها إلا الله تعالى الذي خلقها ، قال سبحانه : { وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض } أي : سماوات العالم الآخر وأرضه لقوله تعالى : { يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات } أي : أيضاً تبدل ...

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التوحيد

وأما الجنة فتستمد أنوارها من قناديل العرش ، وأنوار العرش أنوار قوية باهرة لذلك فإن أهل الجنة في ظلال دائم ، لقوله تعالى : { مثل الجنة التي وعد المتقون } - أي : صفتها - { أكلها دائم وظلها } أي : دائم أيضاً.

وإذا كان ظل الدنيا للابتعاد عن حر الشمس ووهجها فإن الجنة لا شمس فيها ولا قمر ، كما أخبر سبحانه : { لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً } وإنما الظل فيها لتخفيف وتعديل نسبة الأنوار الظاهرة الباهرة حتى يكونوا في نعيم دائم ، فظلال الجنة نورانية ومنها الظلال الرحمانية ، ومنها ظلال تجليات رب العالمين وهكذا .

وقد قال سبحانه : { إن المتقين في جنات ونهر }

قال بعض العلماء : في جنات ونهار ، أي : في جنات وأنوار وإشراقات إلهية عالية .

ونسأل الله تعالى الجنة برفقة فاتح باب الجنة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم. آمين

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة الثامنة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب فضل سورة البقرة ^١ ، ثم أورد بسنده إلى أَبِي مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ قَرَأَ بِالْأَيَّتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقْرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَاهُ] .

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : [وَكَلَّمَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْتُو مِنْ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ: لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ... فَقَصَّ الْحَدِيثَ ، فَقَالَ: إِذَا أُوْتِيَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ لَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلَا يَقْرُبُكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ ، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: صَدَقَّكَ وَهُوَ كَذُوبٌ ذَلِكَ شَيْطَانٌ] . اهـ

وإن سورة البقرة هي أطول سورة في القرآن الكريم ، وهي أجمع سورة للأحكام والعقيدة ، وقد ختمها الله تعالى بآيتين فيهما تلقين عقيدة الإيمان للمؤمنين ، وما يجب على المؤمنين أن يكون موقفهم مع الله تعالى ومع رسوله الكريم ﷺ ، وهو السمع والطاعة ، وقد جاءت الآية على طريق الخبر : { آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير * لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين } .

^١ كما في كتاب فضائل القرآن

وهذا ليتضمن معنى الأمر ، وكأنه جل وعلا يقول : (قولوا هذا وتحققوا به) ، فكأنهم قالوا ، فأخبر عنهم بما قالوا وتحققوا به .

قوله تعالى : { آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه } {

ذكر سبحانه سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم في الآية بصفة الرسالة من باب التكريم والتشريف له ﷺ كما هي عادته سبحانه في القرآن الكريم بأن يذكره ﷺ بمقاماته ومراتبه ، كقوله تعالى : { يا أيها النبي { يا أيها الرسول { يا أيها المدثر { يا أيها المزمل { تشريفاً وتكريماً له صلى الله عليه وآله وسلم .

قوله تعالى : { بما أنزل إليه من ربه } وهو القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى عليه بالوحي القرآني ، والحكمة وهي الأحاديث النبوية الشريفة التي أنزلها الله تعالى عليه بالوحي النبوي ، وفي هذا يقول سبحانه : { وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً } ، وقال عز من قائل : { واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفاً خبيراً } ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : [ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه]^١ أي : وحياً من الله تعالى وهي الأحاديث النبوية الشريفة.

قوله تعالى : { آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه } أي : من ربه الذي رباه بالتربية الخاصة ، وعناه بالعناية الخاصة ، وهو ربه سبحانه أعلم به وبما خصه من العلوم والمعارف والمقامات ، وهو جل جلاله الذي أعده وأمدّه لتقبل نزول القرآن الكريم عليه وما هنالك من الوحي النبوي وما فيه من علوم وأسرار .

ولا تفهم من نزول القرآن الكريم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه مجرد سماع للقرآن الكريم كما تسمعه أنت من قارئ مثلاً ، بل إن نزول القرآن الكريم هو نزول في القلب والروح والعقل والحواس والمدارك وسائر الذرات حتى تنصبغ بالصبغة القرآنية .

^١ طرف حديث في المسند ١٦٥٤٦ وسنن أبي داود كتاب السنة

ولا يمكن لأحد غير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يتحمل نزول القرآن الكريم لأن هذا الأمر يحتاج إلى إعداد من الله تعالى وإمداد منه سبحانه وتعالى ، ولم يكن هذا إلا لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

ولما كان الوحي القرآني ينزل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يحمر وجهه الشريف ﷺ ويتفصد جبينه عرقاً ، ولا يكلم أحداً ، ولا يكلمه أحد ، لأنه صلى الله عليه وآله وسلم ينتقل إلى طور علوي ملكوتي يتلقى فيه القرآن الكريم من جبريل عليه السلام ، وجبريل عليه السلام كما هو على حقيقته الملكية الجبريلية .

روى البخاري عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : [يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ وَهُوَ أَشَدُّ عَلَيَّ فَيُفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعْيِي مَا يَقُولُ .

قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يُنْزَلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبُرْدِ فَيُفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفْصَدُ عَرَقًا]^١ .

قوله تعالى : { آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير } .

أي : آمنوا بما أمروا به تبعاً لرسول الله ﷺ فذكر سبحانه الإمام أولاً وهو سيدنا رسول الله ﷺ ، ثم ذكر المأمومين وهم أتباعه الذين آمنوا به وبما جاء به ﷺ .

^١ صحيح البخاري كتاب بدء الوحي

قوله تعالى : { وقالوا سمعنا وأطعنا } أي : بعد أن تحققوا بشعب الإيمان الاعتقادية قالوا : سمعنا لأوامر الله تعالى التي جاءت في كتاب الله تعالى ، والواردة على لسان سيدنا رسول الله ﷺ ، سمعنا ذلك سماع قبول وإجابة ، وأطعنا : أي امتثلنا لأوامر الله تعالى عن طواعية مناقلبية ، وعن محبة ، لا عن كراهية .

وذلك لأن الطاعة هي الانقياد عن طوع قلبي لا عن كره أو بغض ، ويدل على ذلك قوله تعالى : { ثم استوى إلى السماء وهي دخان } وهذا في طور من أطوار تخليق الله تعالى للسموات والأرض { فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً } أي : كونا خلقاً كما أردت ، فأمرهما سبحانه أن يمتثلا أمره سواء ذلك عن طواعية منهما أو إكراه { قالتا أتينا طائعين } أي : امتثلنا أمرك يا رب عن طواعية ومحبة ، وهذا مقتضى قوله سبحانه وتعالى : { والله غالب على أمره } فإذا أراد شيئاً كان لا محالة ^١ ، وأما الانقياد والامتثال للأمر عن كراهية فلا يسمى طاعة .

١ أما قوله تعالى : { ولله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وظلالهم بالغدو والآصال } فجميع المخلوقات تسجد لله طوعاً ، ويشمل هذا المؤمنين من بني الإنسان ؛ وأما السجود لله تعالى كرهاً فهذا يكون للكفار ، إذ إن حقائق ذراتهم تسجد لله تعالى وإن كانوا هم يستكبرون عن السجود لله تعالى ، ولذلك فإن العذاب في الآخرة يكون على الناحية الاختيارية من الكافر والذي استكبر عن السجود لله تعالى باختياره .

وانظر قوله تعالى : { ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض والشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب وكثير من الناس } وهم المؤمنون { وكثير حق عليه العذاب } وهم الكافرون الذين استكبروا عن السجود لله تعالى { ومن يهن الله فما له من مكرم إن الله يفعل ما يشاء } وهذا يدل على أن سجود هذه الأشياء التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في الآية سجود تكليفي حقيقي ؛ فكما كلف سبحانه الإنسان أن يسجد له ، كلف تلك المخلوقات أن تسجد له ، دل عليه قوله جل وعلا : { وكثير حق عليه العذاب } وهم الكافرون الذين امتنعوا عن السجود لله تعالى ، وكما أن سجود الإنسان المؤمن لله تعالى سجود حقيقي على أعضائه السبعة ، وقد قرن سبحانه سجود الأشياء بسجود الإنسان ، فكذلك سجود تلك الأشياء سجود حقيقي لا مجازي ، لكن سجود كل شيء على حسبه ، وهو سجود يناسب خلقه وصورته .

ولذلك فقوله سبحانه وتعالى مخبراً عن المؤمنين قولهم : { سمعنا وأطعنا } يعني أنهم سمعوا لأوامر الله تعالى سماع قبول وإجابة ، وامتثلوها عن طواعية أي : عن محبة الله تعالى ورغبة لا عن كراهية ، فهم يُصلّون ويصومون ويتصدقون بدافع المحبة لله تعالى والرغبة فيما عنده ، لا أن أحداً يتمنى في نفسه لو أن الله تعالى لم يأمره بالصلاة ، أو ينهه عن كذا وكذا .

ولينظر كل إنسان في نفسه كيف موقفه مع العبادات ، هل هو موقف الطائعين المحبين أم موقف الكارهين أو المستثقلين ؟

فإن وجد في نفسه كرهاً أو استئثاراً أو سآمة من عبادة الله تعالى وأوامره ، فليحاسب نفسه وليتخلص من صفة النفاق التي فيه ، إذ قال الله تعالى في المنافقين : { وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراؤون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً } .

وإن وجد في نفسه محبة لعبادة الله تعالى ورغبة في ذلك فليحمد الله تعالى وليسأله الثبات والزيادة .

قوله تعالى : { غفرانك ربنا } أي : اغفر غفراناً أنت أهل له بحيث تأتي مغفرتك على جميع ذنوبنا ما علمنا منها وما لم نعلم .

فإما أن كلمة { غفرانك } هي مفعول مطلق على معنى (اغفر غفرانك) ، أو أنها مفعول به أي : (نسألك غفرانك) أي : مغفرتك التي أنت أهل لها ، لأنه سبحانه أهل التقوى وأهل المغفرة .

{ وإليك المصير } : أي : فأنت بدأت خلقنا وإليك مصيرنا ، فأحسن مصيرنا إليك بأن تكون قد غفرت لنا ورحمتنا .

قوله تعالى : { لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت } : وفي هذا بيان منه سبحانه أنه لا يكلف نفساً بما لا تطيق ، فلما قال المؤمنون : { سمعنا وأطعنا } بيّن سبحانه أنه لا يكلفهم إلا ما يطيقونه ، فليس في أوامر الشريعة ما لا تسعه نفس مكلف ، لأنه لا يقال عن الشيء أنه واسع إلا إذا كان يسع الشيء ويسع غيره أيضاً ،

وهذا قوله تعالى : { لا يكلف الله نفساً إلا وسعها } فجاءت التكاليف الشرعية بحيث تتسع لها النفوس ولا تضيق بها .

فمثلاً ترى القوة البشرية تتسع لأداء عشر صلوات في اليوم والليلة ، إلا أن الله تعالى لم يكلفنا إلا بخمس صلوات ، وهكذا سائر التكاليف الشرعية .

ومن وهن عظمه أو مرض جسمه ولم يستطع الصلاة قائماً فليصل قاعداً ، ولا تصح صلاة الفرض إلا بالقيام لمن استطاع ذلك ، وأما صلاة النفل فللكل إنسان أن يصليها قائماً أو قاعداً ، لكن الأجر في القعود لمن استطاع القيام هو نصف الأجر فيما لو صلاها قائماً .

وهكذا فلقد أعطى الله تعالى الإنسان نسبة من القوى والمدارك والحواس ، وأمره بأوامر شرعية مصلحة له على نسبة ما أعطاه من القوة ، بل على نسبة أقل مما أعطاه من القوى ، بحيث إن القوى التي عند الإنسان تتسع لما أمره الله تعالى وزيادة .

قوله تعالى : { لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت } : وفي هذا بيان من الله تعالى على أنه سبحانه غني عن العالمين فلا تنفعه طاعاتهم له جل وعلا ، ولا تضره معاصيهم ، بل إن نفع وخير طاعاتهم يعود إليهم ، وضرر وشر معاصيهم يعود وبالاً عليهم ، فكما كان سبحانه غنياً عن العالمين قبل أن يخلقهم ، فهو لا يزال غنياً عنهم بعد أن خلقهم ، وكيف يتصور في العقل حاجة الرب سبحانه وتعالى إلى خلقٍ هو خلقهم وأمدهم ورزقهم ؟!

بل إن الخلق كلهم فقراء إلى الله تعالى ، والله تعالى هو الغني الحميد ، وقد قال سبحانه وتعالى : { يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد * إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد * وما ذلك على الله بعزيز } .

والفقر في الآية هو الفقر الذاتي الحقيقي ، لا فقر المال فحسب ، بدليل قوله تعالى : { إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد } أي : فأنتم مفتقرون إلى الله تعالى أن يمدكم بالوجود في كل لحظة ، وأن يثبت عليكم نور الوجود وما تحتاجونه لبقاء وجودكم كالماء والهواء والغذاء ، فلولا أن الله تعالى يمدك بالسمع والبصر أنى لك أن تسمع وتبصر ؟!

وفي هذا يقول سبحانه : { أمن يملك السمع والأبصار } .

وهكذا سائر حواسك وقواك .. أنت لا تملك شيئاً منها ، فأنت فقير إلى الله تعالى كل الفقر أن يمدك بما تحتاج إليه من حياة ووجود وسمع وبصر ورزق ومال ...

قلا تنكر فقرك إلى الله تعالى ، واعترف بقيومية الله عليك .

قوله تعالى : { لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت } : أي لكل نفس ما كسبت من أعمال الخير ، وعليها وبال ما اكتسبت من أعمال الشر .

ومن هنا يفهم العاقل أن التكاليف الشرعية هي مصلحة ومنفعة للإنسان ، فمن قام بها ممثلاً أوامر الله تعالى ومنتهياً عما نهى عنه سبحانه عاد خير ونفع ذلك له ، ومن أهملها وارتكب المخالفات عاد عليه ضرر ووبال فعله بالشر .

قوله تعالى : { لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت }

فرّق سبحانه بين فعل الخير بقوله جل جلاله : { ما كسبت } ، وفعل الشر بقوله عز وجل : { ما اكتسبت } حتى يبين أن كسب الإنسان للخير لا يحتاج إلى صعوبة ومشقة ، بل إن نفسه مفطورة على فعل الخير ، أما فعل الشر فيحتاج إلى تكلف وبذل مشقة ، وذلك لأن زيادة المبنى في فعل { اكتسبت } يدل على زيادة المعنى .

ومن ذلك ما يجد الإنسان من نفسه إن هو أراد معصية الله تعالى ، فتراه يجر نفسه ويقاومها ويتجاهل واعظ قلبه وتأنيب ضميره ، حتى إذا أقدم على فعل المعصية مرة بعد مرة ضعف واعظ الإيمان في قلبه فلا يجد في نفسه ما وجد أول مرة عندما أقدم على معصية الله تعالى .

قوله تعالى : { ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا } : وفي هذا يعلم الله سبحانه وتعالى عباده كيف يدعونه ، وذلك بعد أن لقنهم أركان عقيدتهم ، وكأنه سبحانه قال : قولوا : { ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا } .

والنسيان قد يطلق على ذهاب الشيء من ذاكرة الإنسان ، وقد يُطلق على ترك الشيء وإن كان حاضراً في الحافظة ، كما يُطلق الخطأ على فعل شيء دون قصد ، وقد يطلق الخطأ على الخطيئة وهي فعل القبيح عن تقصد .

وعلى ذلك فقد يكون المراد من النسيان في قوله تعالى : { ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا } أي : إن تركنا بعض الأوامر والواجبات علينا { أو أخطأنا } أي : إن ارتكبنا بعض المخالفات والمناهي التي نهيتنا عنها يا رب .

أو : أن المراد من النسيان غياب الشيء عن الذاكرة ، والمعنى : لا تؤاخذنا إن صدر منا شيء لا ترضاه عن نسيان منا ، أو : أننا أخطأنا أي : فعلناه بدون تقصد .

فإن قيل : إن الله تعالى لا يؤاخذ الإنسان إن نسي شيئاً من ذاكته أو أخطأ من غير قصد ؟!

فيقال : إن الله تعالى لا يؤاخذ الإنسان على الخطأ والنسيان فضلاً منه سبحانه ، لكنه إذا أخذ فقد آخذه بالعدل ولم يظلمه ، لأن النسيان نتيجة لعدم الاهتمام بالأمر ، والخطأ نتيجة الغفلة وعدم الانتباه والتيقظ في الأمر ، فإن أخذ سبحانه على النسيان والخطأ فقد أخذ على عدم الاهتمام والغفلة ، فافهم .

وقد تفضل سبحانه على عباده لما قالوا : { ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا } فلم يؤاخذهم ، وقال جل جلاله : [نعم] .

فقد روى مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

[لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

{ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبِكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ }]

قال : فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَاتَّوَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرَّكْبِ فَقَالُوا : أَيُّ رَسُولَ اللَّهِ كَلَّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نَطِيقُ الصَّلَاةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ ،

وَقَدْ أَنْزَلْتَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةَ وَلَا نُطِيقُهَا ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتْرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ : (سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا) ؟ بَلْ قُولُوا : { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } قَالُوا : { سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ } فَلَمَّا افْتَرَاهَا الْقَوْمُ ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي إِثْرِهَا :

{ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ }

فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللَّهُ تَعَالَى فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :

{ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا }

قَالَ : نَعَمْ

{ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا }

قَالَ : نَعَمْ

{ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ }

قَالَ : نَعَمْ

{ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ }

قَالَ : نَعَمْ [١] .

ومعنى [نعم] : أجبتك جواباً ، ونعم الجواب جوابي .

وروى ابن ماجه عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه] ٢ .

١ صحيح مسلم كتاب الإيمان

٢ سنن ابن ماجه كتاب الطلاق

وفي رواية له أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : [إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه]^١.

وجاء في صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال نبي الله صلى الله عليه وآله وسلم : [من نسي صلاة أو نام عنها فكفارتها أن يصلّيها إذا ذكرها]^٢.

وفي رواية له عن أبي هريرة رضي الله عنه : [فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ : { أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي }^٣ فلم يؤاخذ به سبحانه على نسيانه .

قوله سبحانه وتعالى : { ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا } أي : لا تحمل علينا تكاليف فيها ثقل ومشقة علينا كما حملتها على الذين من قبلنا بسبب ذنوبهم وعنادهم ومعارضتهم لرسولهم عليهم الصلاة والسلام ، كما جرى من بني إسرائيل مع سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام .

ومن تلك التكاليف الشاقة عليهم أنه سبحانه شرع القصاص في القتل وإن أخطأ الإنسان في القتل فلا تجزئه دية إلا أن يقتل قصاصاً ، وكذلك لو أصاب ثوبه نجاسة فلا يُطهّره الماء بل يطهر بقص موضع النجاسة من الثوب^٤ ، يقول الله تعالى : { فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً } .

قوله تعالى : { ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به } أي : بأن نقع في المعاصي والذنوب فتنزّل علينا المصائب والنوائب والمهلكات والعقوبات الإلهية .
{ واعف عنا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا } فالعفو هو عدم المعاقبة ، فلا تعاقبنا يا رب إن نحن أذنبنا .

^١ المصدر السابق

^٢ صحيح مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة

^٣ المصدر السابق

^٤ انظر تفسير الألوسي ٢ / ٤٠٥

{ واغفر لنا } أي : استرنا ولا تفضحنا ، وذلك لأن شأنك يا رب أن تستر القبيح وتظهر الجميل ، وأما من فضح نفسه ولم يُبالِ فإن الله تعالى يفضحه .

ألا ترى أنه سبحانه ستر ما في أحشائك من أوساخ وأوخام ورائحة كريهة ، وأظهر منك الجمال والحسن ؟!

فلا تظهر من نفسك إلا الجميل الذي يرضاه الله سبحانه وتعالى .

جاء في الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: [يا من أظهر الجميل وستر القبيح ، يا من لا يؤاخذ بالجريرة ، ولا يهتك الستر ...]^١ .

قوله تعالى : { وارحمنا } أي : أغدق علينا كل خير قد اشتمل عليه هذا الدعاء وهو : { واعف عنا واغفر لنا وارحمنا } فقد اشتمل على التخلي من آثار الذنوب ، والتخلي بالخيرات والرحمات الإلهية .

قوله تعالى : { أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين } أي : أنت سيدنا ومتولي أمورنا فانصرنا على القوم الكافرين من الإنس والجن ، ومن جملة الكافرين : الشياطين ، ومنهم الشيطان الذي وُكِّل بكل إنسان حتى يزين له الشر ، فسل الله تعالى أن ينصرك عليه .

وفي الحديث الذي رواه مسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ ، قَالُوا : وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : وَإِيَّايَ إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ]^٢ .

ومن نصره الله تعالى على الشياطين فقد ارتقى إلى مصاف الملائكة عليهم السلام .

^١ طرف حديث رواه الحاكم في كتاب الدعاء والتكبير والتهليل والتسبيح والذكر ، وقال : صحيح الإسناد ، فإن رواه كلهم مدنيون ثقات اه .

^٢ صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار

وجاء في الحديث عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [إن الله عز وجل ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنز الذي تحت العرش ، فتعلموهن ، وعلموهن نساءكم وأبناءكم ، فإنهما صلاة وقرآن ودعاء]^١.

وفي رواية : [إنهن قرآن ، وإنهن دعاء ، وإنهن يدخلن الجنة ، وإنهن يرضين الرحمن]^٢.

وما ظنك أيها المؤمن بدعاء علم الله تعالى عباده أن يدعو به ؟
ألا يجيب من دعاه به !؟

سبحانه هو أجل وأعظم أن يحرم العطاء لمن سأله ودعاه .

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: [كَفَّتَاه] أي من شر الجن والإنس .

وعن ابن مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: [أنزل الله آيتين من كنوز الجنة ، كتبهما الرحمن بيده قبل أن يخلق الخلق بألفي عام ، من قرأهما بعد العشاء الآخرة أجزأتاه عن قيام الليل]^٣.

وقال سيدنا علي رضي الله عنه : [ما أرى أحداً يعقل ، بلغه الإسلام ، ينام حتى يقرأ آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة ، فإنها من كنز تحت العرش]^٤
يشير رضي الله عنه إلى مواظبة الصحابة الكرام رضي الله عنهم على قراءة هاتين الآيتين كل ليلة .

^١ رواه البيهقي في شعب الإيمان واللفظ له والحاكم في المستدرک والدارمي في سننه كلاهما في كتاب فضائل القرآن بلفظ قريب .

^٢ قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور: أخرجه أبو عبيد وابن الضريس وجعفر الفريابي في الذكر عن محمد بن المنكدر .

^٣ عزاه الحافظ السيوطي في الدر المنثور إلى ابن عدي

^٤ انظر تفسير ابن كثير عند الكلام على فضل هاتين الآيتين الكريمتين ، وانظر فضائل القرآن لابن الضريس

والأجدر بالمؤمن أن يقرأ من قول الله سبحانه وتعالى : { لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير } إلى تمام السورة حتى يجمع الفضائل التي وردت فيها ، لِمَا جَاءَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي فَضْلِ قِرَاءَةِ خَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ .

ومن ذلك ما رواه مسلم عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمَا قَالَ :

[بَيْنَمَا جِبْرِيلُ قَاعِدٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ نَقِيصًا مِنْ فَوْقِهِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ: هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَحَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ فَقَالَ: هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزِلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ، فَسَلَّمَ وَقَالَ: أَبَشِرْ بِنُورَيْنِ أُوتِيْتَهُمَا لَمْ يُؤْتِيَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ، فَاتِحَةُ الْكِتَابِ وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيْتَهُ]^١.

وجاء عن ابن مسعود رضي عنه في فضل قراءة عشر آيات من سورة البقرة للحفظ والحصانة : أربع من أولها ، وآية الكرسي ، وآيتين بعدها ، وثلاث آيات من آخرها .

فقد روى الدارمي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : [من قرأ أربع آيات من أول سورة البقرة ، وآية الكرسي ، وآيتين بعد آية الكرسي ، وثلاثاً من آخر سورة البقرة ، لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان ، ولا شيء يكرهه ، ولا يُقرآن على مجنون إلا أفاق]^٢.

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

^١ في صحيحه كتاب صلاة المسافرين

^٢ في سننه كتاب فضائل القرآن

المحاضرة التاسعة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب فضل سورة الكهف

ثم أورد بسنده إلى البراء بن عازب رضي الله عنه قال:

[كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَاطِنَيْنِ ١ ، فَتَغَشَّتُهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو ، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ ، فَقَالَ: تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنْزَلَتْ بِالْقُرْآنِ] ٢. اهـ

وقد جاء في فضل قراءتها أحاديث كثيرة منها :

ما جاء في صحيح مسلم وغيره عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال بعدما حذر من الدجال : [فَمَنْ أَدْرَكَهُ مِنْكُمْ فَلْيَقْرَأْ عَلَيْهِ فَوَاتِحَ سُورَةِ الْكَهْفِ] ٣.

وجاء في مسند الإمام أحمد عن معاذ بن أنس رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : [مَنْ قَرَأَ أَوَّلَ سُورَةِ الْكَهْفِ وَآخِرَهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا مِنْ قَدَمِهِ إِلَى رَأْسِهِ ، وَمَنْ قَرَأَهَا كُلَّهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ] ٤.

١ جَمَعَ شَاطِنٌ بِفَتْحِ الْمُعْجَمَةِ وَهُوَ الْحَبْلُ

٢ صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

٣ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الفتن وأشرط الساعة وجاء في سنن أبي داود بزيادة : [فَإِنَّهَا جَوَارِكُمْ مِنْ فِتْنَتِهِ] .

٤ ١٥٠٧٣

وجاء في مصنف عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال : [من قرأ عشر آيات من أول الكهف عُصِمَ من فتنة الدجال] .

وفي رواية في مسند الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْكُفْهِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ]^١ .

وفي رواية في صحيح مسلم عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ سُورَةِ الْكُفْهِ عُصِمَ مِنْ الدَّجَالِ]^٢ .

وفي رواية لمسلم أيضاً : [من آخر سورة الكهف] .

وفي رواية للترمذي : [مَنْ قَرَأَ ثَلَاثَ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْكُفْهِ عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ]^٣ .

ولكي يأخذ الإنسان بهذه الروايات كلها فعليه أن يعمل بالأحوط ويحفظ ويقرأ عشر آيات من أول سورة الكهف وعشر آيات من آخرها ، فيحفظه الله تعالى من فتنة الدجال ، والتي هي من أعظم الفتن ، فمن باب أولى يحفظه الله تعالى من الفتن التي هي دون فتنة الدجال .

وقد علّم النبي صلى الله عليه وسلم أمّته أن يستعينوا بالله تعالى من فتنة الدجال لشدة خطرها على إيمان المؤمن ودينه^٤ ، فإنه يأتي بالعجائب والغرائب ، منها : الجسمية والنفسية والسحرية والجوية ، ولا ينجو من فتنته إلا من أعاده الله تعالى وحفظه .

١ ٢٦٢٤٤

٢ صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

٣ سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

٤ ومن هذا ما رواه البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو : [أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْبُخْلِ ، وَالْكَسَلِ ، وَأَزْدَلِ الْعُمْرِ ، وَعَذَابِ الْقَبْرِ ، وَفِتْنَةِ الدَّجَالِ ، وَفِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ] .

وإن الدجال الذي حدث عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحذر منه وأمر بالاستعاذة منه هو دجال آخر الزمن ، إلا أن هناك فتناً كبيرة تسبق ظهور الدجال ، وقد أخبر عنها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من ذلك ما جاء في صحيح البخاري ومسلم واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُبْعَثَ دَجَالُونَ كَذَّابُونَ قَرِيبٌ مِنْ ثَلَاثِينَ كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ]^١.

وفي رواية عند أحمد : [وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي]^٢ صلى الله عليه وسلم .

وقد بين سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قرأ عشر آيات من أول سورة الكهف أو من آخرها - كما تقدم ذكر الروايات - حفظه الله تعالى من فتنة الدجال الكبرى ، أي : وحفظه من جميع الفتن والتي هي دون فتنة الدجال ، وحفظ عليه دينه وثبت عليه إيمانه .

وإن المناسبة في ذلك هي أن الله تعالى حفظ أهل الكهف الذين فرّوا بدينهم من بطش الملك الكافر الظالم وأوووا إلى الله تعالى فأواهم إليه سبحانه وحفظهم في الكهف ثلاثمائة سنة وتسع سنين ، كما أخبر سبحانه : { إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشداً * فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً } وقال عز من قائل : { ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً } أي : من السنين القمرية^٣ ، ثم بعثهم الله تعالى من بعد نومهم وأيدهم بالكرامات وخوارق العادات ، وجعلهم عبرة وآية للناس تدل على قدرة الله تعالى ورحمته سبحانه وحفظه لمن لجأ إليه ، وإكرامه سبحانه لأولياؤه .

^١ صحيح البخاري كتاب الفتن وصحيح مسلم كتاب الفتن وأشرط الساعة

^٢ ٢١٣٦١

^٣ انظر تفسير الخازن ٣٠٨/٤

ومما جاء في فضل قراءة سورة الكهف ما جاء عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ]^١.

ورواه الدارمي في سننه موقوفاً على أبي سعيد رضي الله عنه ، ولفظه :
[مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ أَضَاءَ لَهُ مِنَ النُّورِ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ
الْبَيْتِ الْعَتِيقِ]^٢ .

وروى أبو بكر بن مَرْدَوَيْهِ فِي تَفْسِيرِهِ بِإِسْنَادٍ لَا بَأْسَ بِهِ عَنِ ابْنِ عَمْرِو بْنِ رَاضِي
اللَّهِ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ
الْكَهْفِ فِي يَوْمِ الْجُمُعَةِ سَطَعَ لَهُ نُورٌ مِنْ تَحْتِ قَدَمِهِ إِلَى عَنَانِ السَّمَاءِ
يُضِيءُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَغُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَ الْجُمُعَتَيْنِ]^٣ أي : من صغائر
الذنوب ، أما الكبائر فلا بد لها من توبة خاصة ، ويُحْمَلُ عَلَى ذَلِكَ جَمِيعُ
مَا وَرَدَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَحَادِيثٍ فِي هَذَا الشَّانِ ، وَهَذِهِ
القاعدة دل عليها قوله صلى الله عليه وسلم: [الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ
وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ مُكْفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ
الْكَبَائِرَ]^٤ ، فلا بد إذاً للكبائر من توبة خاصة ، وقد ينوي الإنسان ويعزم
على التوبة أثناء قيامه بمثل هذه الأعمال ، كقراءة سورة الكهف أو غير
ذلك مما ورد عنه صلى الله عليه وسلم فيغفر الله تعالى له ويتوب عليه
إن هو صدق في توبته وندم على فعله الذنب ، أما إن كان الذنب يتعلق
بحقوق العباد المالية أو العرضية من سب وغيبة وقبح فعله أذاه
الحقوق لأهلها أو طلب العفو والسماح عنه منهم حتى يقبل الله تعالى
توبته .

^١ كما في السنن الكبرى للبيهقي ومستدرک الحاكم وقال : صحيح الإسناد

^٢ في كتاب فضائل القرآن

^٣ كما في الترغيب والترهيب للحافظ المنذري

^٤ صحيح مسلم كتاب الطهارة

وقد جاء في بعض الروايات المتقدمة قوله صلى الله عليه وسلم :
[مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْكَهْفِ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ ...] الحديث ، فلو أخذ الإنسان
بالروایتين فجمع بينهما بأن قرأ سورة الكهف ليلة الجمعة ويومها لكان قد
أخذ بالأحوط وضمن الأجر والنور ، وإن كان قد ورد في غالب الروايات
قراءة سورة الكهف يوم الجمعة .

وكان سيدنا الحسن بن سيدنا علي رضي الله عنهما يقرأ سورة الكهف كل
ليلة^١ ، لما ورد في الحديث الذي أخرجه ابن مردويه وغيره عن عبد الله بن
مغفل رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
[البيت الذي تقرأ فيه سورة الكهف لا يدخله شيطان تلك الليلة]^٢.

فانظر في فضائل قراءة هذه السورة ، فإن قراءة عشر آيات من أولها
وآخرها كل يوم تحفظك من الفتن كلها حتى من فتنة الدجال ، وقراءتها
ليلة الجمعة ويومها تغفر لك ذنوبك ، وتضيء لك على الصراط ، وتصل
نور قلبك بالبيت العتيق ، وقراءتها كل ليلة تحفظك من الشيطان
ومكائده ، فللسورة نفسها خصائص متعددة إذا قرأتها في أوقاتها المعينة
التي حددها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن العلم بهذه
الأمر لا يُكتسب بالتفقه والبحث بل هو علم نبوي غيبي أفاضه الله
تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلمه خصائص السور والآيات
القرآنية ، وفضائل قراءتها في أوقات معينة .

ومن ذلك : أن قراءة آية الكرسي وراء كل صلاة ترفع الحجب بينك وبين
دخول الجنة ، أما قراءتها قبل النوم فتحفظك من الشيطان تلك الليلة
كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم : [من قرأ آية الكرسي دُبُرَ] أي : وراء
[كل صلاة مكتوبة] أي مفروضة [لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن
يموت]^٣.

^١ انظر كتاب قيام الليل لمحمد بن نصر المروزي

^٢ عزاه في كنز العمال إلى الطبراني وابن مردويه وأبي الشيخ في الثواب

^٣ عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى النسائي والرويانى وابن حبان والدارقطني في
الأفراد والطبراني والضياء عن أبي أمامة رضي الله عنه

وجاء في بعض الآثار أن من قرأ خمس آيات من آخر سورة الكهف قبل نومه سخر الله تعالى له ملكاً يوقظه من نومه متى أراد وقت السحر ، ولا تستبعد ذلك ، فقد يحرك الله تعالى سبباً من الأسباب بواسطة الملك ، كإغلاق باب ، أو بكاء طفل ، أو يسخر له من يوقظه من أهله .

فقد جاء عَنْ أم المؤمنين السيدة عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: [أَلَا أُحَدِّثُكُمْ بِسُورَةٍ مَلَأَ عَظَمَتُهَا مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، وَلِكَاتِبِهَا مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ ذَلِكَ ، وَمَنْ قَرَأَهَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ عُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ، وَمَنْ قَرَأَ الْخَمْسَ الْأَوَاخِرَ مِنْهَا عِنْدَ نَوْمِهِ بَعَثَهُ اللَّهُ أَيَّ اللَّيْلِ شَاءَ؟

قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: سُورَةُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ]^١.

ومن السور التي ينبغي قراءتها كل ليلة سورة الواقعة لتيسير الأرزاق الحسية والجسمانية والإيمانية القلبية وتوسعتها .

فقد روى الديلمي في الفردوس عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً :
[علّموا نساءكم سورة الواقعة ، فإنها سورة الغنى] .

وكذلك سورة الملك التي تقي قارئها كل ليلة ، تقيه من فتنة القبر وعذاب القبر كما جاء في سنن الترمذي عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ :

[ضَرَبَ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِبَاءَهُ عَلَى قَبْرِ ، وَهُوَ لَا يَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ ، فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ : { تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ } حَتَّى خَتَمَهَا ، فَأَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي ضَرَبْتُ خِبَائِي عَلَى قَبْرِ وَأَنَا لَا أَحْسِبُ أَنَّهُ قَبْرٌ فَإِذَا فِيهِ إِنْسَانٌ يَقْرَأُ سُورَةَ { تَبَارَكَ الْمُلْكُ } حَتَّى خَتَمَهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هِيَ الْمَانِعَةُ هِيَ الْمُنْجِيَةُ تُنْجِيهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ]^٢.

^١ انظر الأماي الخميسية للشجري وقد عزاه السيوطي في الجامع الكبير إلى الديلمي وابن مردويه

^٢ انظر سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

وفتنة القبر هي سؤال الملكين الميت في قبره عن التوحيد والإيمان بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويشتدُّ هذا السؤال على الكافر والمنافق إذ يأتيه الملكان بصورة منكرة وقول منكر ، ويغلطان عليه في السؤال ، فيأخذوه الفرع والدهشة ، فيضطرب ويمتحن ويضل في جوابه ، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة بجاه حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم .

وأما سؤال المؤمن فيكون على طريق المذاكرة والمؤانسة والملاطفة ، ويكون ذلك على حسب قوة إيمانه وحبه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يشتد السؤال على ضعيف الإيمان والذي ارتكب الكبائر ولم يتب منها قبل موته ويطول به الأمر إلى سبعة أيام^١ .

وأما تسمية ملكي السؤال بـ [منكر ونكير] فهي ثابتة في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم^٢ ، لأنهما يسألان الكافر والمنافق بأسلوب المنكر له حتى ينزلق في الجواب ويضل .

وأما من أشرب قلبه حب النبي صلى الله عليه وسلم فيكون جوابه سريعاً يُنبئ عن حقيقة إيمانه وحبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، خاصة أن هناك من المؤمنين المحبين من يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يُقال له : [ما كنت تقول في هذا الرجل ؟]^٣

ومنهم من يلقنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الجواب ، ونسأل الله تعالى ذلك من فضله بجاه حبيبه الأعظم ونبيه الأكرم صلى الله عليه وسلم .

^١ قال السيوطي في الدر المنثور ٦ ١ ٦١ : وأخرج أحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية عن طاوس رضي الله عنه قال : [إن الموتي يُفتنون في قبورهم سبعاً ، فكانوا يستحبون أن يُطعم عنهم تلك الأيام] . اهـ

^٢ جاء في سنن الترمذي كتاب الجنائز عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [إذا قُبر الميت أتاه ملكان أسودان أزرقان ، يقال لأحدهما : المنكر ، وللآخر : النكير...] الحديث

^٣ كما جاء هذا في صحيح البخاري كتاب الجنائز وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

واعلم أن القبر هو أول برزخ من برازخ الآخرة يدخله الإنسان بعد موته ،
واعلم أن الآخرة دار ظهور الدقائق وتحقيق الحقائق كما قال الله تعالى في
وصف يوم القيامة وأنه يوم تحقق فيه الحقائق ، قال جل وعلا :
{ الحاقة * ما الحاقة }.

فإذا علمت هذا تعلم أن جواب الميت في قبره لا يكون صادراً عن حافظته
الذهنية، لكنه جواب ينبئ عن حقيقته التي تحقق بها ، ألا ترى إلى
العجوز الأمية المؤمنة والتي نشأت على الفطرة ولم تتعلم الكتابة ولا
القراءة فإن ما تحققت به من إيمان وفطرة يُنبئ عنها .

وإن العلم بخصائص وفضائل وأسرار الآيات والسور القرآنية هو من جملة
العلوم النبوية التي أفاضها الله تعالى على نبيه وحبيبه سيدنا محمد صلى
الله عليه وسلم ، وإن العلوم النبوية التي أوتيها سيدنا محمد صلى الله
عليه وسلم هي علوم خاصة به ، لا يمكن لأحد غيره صلى الله عليه وسلم
أن يتحمل ولو شيئاً منها لعدم استعداده لذلك ، ومن هذا قوله صلى الله
عليه وسلم : [إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ ، وَأَسْمَعُ مَا لَا تَسْمَعُونَ ، أَطَّتِ السَّمَاؤُ
وَحُقِّ لَهَا أَنْ تَنِيَّطَ ، مَا فِيهَا مَوْضِعٌ أَرْبَعُ أَصَابِعٍ إِلَّا وَمَلَكَ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ
سَاجِدًا لِلَّهِ ، وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَصَحِحْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا ،
وَمَا تَلَدَّدْتُمْ بِالنِّسَاءِ عَلَى الْفُرْشِ ، وَلَخَرَجْتُمْ إِلَى الصُّعَدَاتِ تَجَارُونَ إِلَى اللَّهِ]
قال أبو ذر رضي الله عنه : لَوَدِدْتُ أَيُّ كُنْتُ شَجَرَةً تُعْضَدُ]^١

قوله صلى الله عليه وسلم : [وَاللَّهِ لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَصَحِحْتُمْ قَلِيلًا
وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا] أي : لتغير حالكم واضطراب مزاجكم لعدم استعدادكم
وتحملكم لشيء مما أعلمه من علوم النبوة التي أفاضها الله تعالى علي ،
وذلك بعد أن أعده الله تعالى وأمده لتلقي ذلك على وجه انفرد به صلى
الله عليه وسلم دون العالمين.

^١ سنن الترمذي كتاب الزهد

وقد أُذِنَ له صلى الله عليه وسلم أن يُحَدِّثَ عن بعض المغيبات التي أطلعه الله تعالى عليها ، وهذا من باب علوم النبوة ، ومن ذلك ما كان يُخبر عنه صلى الله عليه وسلم بقوله : [أُذِنَ لي] ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : [أُذِنَ لي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ مَلَائِكَةِ اللَّهِ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ ، إِنَّ مَا بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ إِلَى عَاتِقِهِ مَسِيرَةُ سَبْعِ مِائَةِ عَامٍ]^١ .

وفي رواية للطبراني عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [أُذِنَ لي أَنْ أُحَدِّثَ عَنْ مَلِكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ ، رَجُلَاهُ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى ، وَعَلَى قَرْنِهِ الْعَرْشُ ، وَبَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ حَقَقَانُ الطَّيْرِ سَبْعِمِائَةَ سَنَةٍ ، يَقُولُ الْمَلِكُ: سُبْحَانَكَ حَيْثُ كُنْتُ]^٢ .

وأما علوم الشريعة وهي الرسالة التي بعثه الله تعالى لتبليغها للناس - وهي ما يتعلق بأحكام الحلال والحرام والمواعظ والتذكير - فقد بَلَّغَهَا صلى الله عليه وسلم على أكمل الوجوه، ونصح الأمة ودلها على كل خير ، وحذرها من كل شر إلى يوم القيامة ، وهذا بمقتضى قوله تعالى : { يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ { أَي : من القرآن الكريم ومما أمرك الله تعالى بتبليغه من أحكام الشريعة } وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ } .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

^١ سنن أبي داود كتاب السنة

^٢ انظر المعجم الأوسط

المحاضرة العاشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب نزول السكينة والملائكة عند قراءة القرآن^١

ثم أورد بسنده إلى أسيد^٢ بن حضير رضي الله عنه قال :

بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة ، وفرسه مربوطة عنده ، إذ جالت الفرس ، فسكت فسكتت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت وسكتت الفرس ، ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها ، فأشفق أن تصيبه ، فلما اجتّره رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها ، فلما أصبح حدّث النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :

[اقرأ يا ابن حضير ، اقرأ يا ابن حضير]

قال : فأشفقت يا رسول الله أن تطأ يحيى ، وكان منها قريباً ، فرفعت رأسي فانصرفت إليه ، فرفعت رأسي إلى السماء ، فإذا مثل الظّلة فيها أمثال المصابيح ، فخرجت حتى لا أراها .

قال : [وتدري ما ذاك ؟] .

قال : لا .

قال : [تلك الملائكة دنت لصوتك ، ولو قرأت لأصبحت ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم] . اهـ

^١ صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن .

^٢ على وزن زبير

لقد ورد في بعض روايات الحديث أن أسيد بن حضير رضي الله عنه كان يقرأ سورة البقرة في صلاته في قيام الليل ، وكان يقرأها جهراً ، على عادة الصحابة الكرام رضي الله عنهم والسلف الصالح كذلك ، إذ كانوا يقرؤون جهراً في صلاة الليل - إلا لمانع شرعي فيقرؤون عندئذ سراً - ولقد كانت بيوت الصحابة رضي الله عنهم تدوي بالليل كدوي النحل من قراءتهم ، وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف أحياناً في الليل على بيوت الصحابة الكرام رضي الله عنهم ليسمع قراءتهم ويهديهم ويرشدهم لما فيه الأحسن والأكمل ، كما قال لأبي بكر رضي الله عنه : ارفع قليلاً ، ولعمر رضي الله عنه : اخفض قليلاً^١ ، وهكذا ...

وإن من شأن المؤمن أن يكون شغله وديدنه تلاوة القرآن الكريم في الليل والنهار والصبح والمساء ، كما كان عليه سلفنا الصالح رضي الله عنهم .

قوله: [فجالت الفرس] أي اضطربت وتحركت .

قوله صلى الله عليه وسلم: [اقرأ يا ابن حضير ، اقرأ يا ابن حضير] أي : لو أنك بقيت تقرأ ولم تتوقف لاستمرت الملائكة في تنزيلها ولرأى ذلك جميع الناس .

ولقد رأى أسيد بن حضير رضي الله عنه تنزل الملائكة بصورة سحابة مضيئة تنبعث منها الأنوار أمثال المصابيح ، وكلما قرأ دنت ، وكلما وقف تراجعت إلى السماء وهكذا ...

وفي رواية عند مسلم: [تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ كَانَتْ تَسْتَمِعُ لَكَ ، وَلَوْ قَرَأْتَ لِأَصْبَحْتَ يَرَاهَا النَّاسُ مَا تَسْتَرُّ مِنْهُمْ]^٢ .

^١ فقد روى الترمذي في سننه في كتاب الصلاة ، ، عن أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لأبي بكر رضي الله عنه : [مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ وَأَنْتَ تَخْفِضُ مِنْ صَوْتِكَ ، فَقَالَ: إِيَّيَّيْ أَسْمَعْتُ مَنْ نَاجَيْتُ، قَالَ: ارْفَعْ قَلِيلًا، وَقَالَ لِعُمَرَ: مَرَرْتُ بِكَ وَأَنْتَ تَقْرَأُ وَأَنْتَ تَرْفَعُ صَوْتَكَ، قَالَ: إِيَّيْ أَوْقِطِ الْوَسْطَانَ ، وَأَطْرُدِ الشَّيْطَانَ ، قَالَ: اخْفِضْ قَلِيلًا] .

^٢ صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

وفي رواية عند الحاكم أنه صلى الله عليه وسلم قال له : [تلك الملائكة
نزلت لقراءة القرآن ، أما إنك لو مضيت ^١ لرأيت العجائب] ^٢.

قوله صلى الله عليه وسلم : [تلك الملائكة دنت لصوتك] أي لأجل أن
تسمع صوتك الحسن بالقراءة .

ولقد كان أسيد بن حضير رضي الله عنه حسن الصوت في تلاوته للقرآن
الكريم ، شأنه في ذلك شأن كل الصحابة رضي الله عنهم الذين كانوا
يحسنون أصواتهم في تلاوة القرآن الكريم عملاً بهدي النبي صلى الله عليه
وسلم لهم ، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ليس مِنَّا من لم يَتَغَنَّ بِالْقُرْآنِ] ^٣.

وقال عليه الصلاة والسلام لأبي موسى الأشعري رضي الله عنه لما سمع
قراءته : [يَا أَبَا مُوسَى لَقَدْ أُوتِيتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ] ^٤.

وقال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن زيد في وصف بلال رضي الله عنه
لما أمر بتعليمه الأذان : [فإنه أُنْدَى وَأَمَدٌ صَوْتًا مِنْكَ] ^٥.

وينبغي على كل مؤمن أن يحسن كل عمل يباشره ، وتحسين كل شيء على
حسبه ، وأما التنفير والغلظة فليسا من الدين في شيء .

^١ أي : بقيت على قراءتك .

^٢ المستدرک کتاب فضائل القرآن .

^٣ صحيح البخاري كتاب التوحيد

^٤ صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

^٥ هذا كما جاء في حديث بدء الأذان ، وقد رواه الترمذي في سننه في كتاب الصلاة
عن عبد الله بن زيد رضي الله عنه قال : [لَمَّا أَصْبَحْنَا أَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَخْبَرْتَهُ بِالرُّؤْيَا ، فَقَالَ : إِنَّ هَذِهِ لَرُّؤْيَا حَقٌّ ، فَقَمَّ مَعَ بِلَالٍ فَإِنَّهُ أُنْدَى
وَأَمَدٌ صَوْتًا مِنْكَ ، فَأَلْقَى عَلَيْهِ مَا قِيلَ لَكَ ، وَلِينَادُ بِذَلِكَ ، قَالَ : فَلَمَّا سَمِعَ عَمْرُ بْنُ
الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نِدَاءَ بِلَالٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالصَّلَاةِ ، خَرَجَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَجْرُ إِزَارَهُ وَهُوَ يَقُولُ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ ،
لَقَدْ رَأَيْتُ مِثْلَ الَّذِي قَالَ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَلِلَّهِ الْحَمْدُ ،
فَذَلِكَ أَثْبُتٌ] .

وقد أشار البخاري رضي الله عنه إلى رواية: [تلك السكينة تنزلت بالقرآن]^١ ولا ينافي هذا رواية: [تلك الملائكة نزلت لقراءة القرآن] فإن الملائكة لما تنزل تنزل معها السكينة .

والسكينة هي أمر روحاني نوراني رباني ينزل على القلب بصحبة الملائكة فيسكن لها القلب أي يطمئن ، وينشرح بها الصدر .

ولقد وعد الله تعالى المؤمنين بإنزال السكينة عليهم في حالة الفرع والحرب ، وذلك حتى تطمئن قلوبهم وترتاح نفوسهم .

ولما بشر الله تعالى رسوله الكريم سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم بما فتح له وأعطاه بقوله جل وعلا : { إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً * ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً * وينصرك الله نصراً عزيزاً } بشر المؤمنين أيضاً بإنزال السكينة على قلوبهم ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم فقال عز من قائل: { هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً } .

ومن جملة أسباب نزول السكينة على القلب تلاوة القرآن الكريم ، والإكثار من ذكر الله تعالى ، والصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن الجهر بتلاوة القرآن الكريم في الليل سبب لنزول السكينة ، وإن كان الإسرار بقراءته يستنزل السكينة أيضاً ، إلا أن الجهر به أفضل لأنه أظهر في تحسين الصوت ، إلا لمانع شرعي كمرعاة مريض أو طفل نائم وما أشبه ذلك .

^١ فقد روى في صحيحه في كتاب فضائل القرآن عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: [كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الْكَهْفِ وَإِلَى جَانِبِهِ حِصَانٌ مَرْبُوطٌ بِشَظَيْنَيْنِ، فَتَعَشَّثَهُ سَحَابَةٌ فَجَعَلَتْ تَدْنُو وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنْزَلَتْ بِالْقُرْآنِ] .

وإن توالي نزول السكينة على قلب المؤمن الذي يسعى في استئزالها يجعل منه صاحب نفس مطمئنة، ومتى نال المؤمن ذلك صار في ضمان الله تعالى ، لقوله سبحانه { يا أيها النفس المطمئنة * ارجعي إلى ربك راضية مرضية * فادخلي في عبادي * وادخلي جنتي } .

وإن للنفس ثلاث مراتب:

أولها: الأمانة التي تأمر صاحبها بالسوء ، كما ذكر سبحانه عن ابن آدم لما قتل أخاه { فطوعت له نفسه قتل أخيه } ، وذكر سبحانه عن السامري قوله : { وكذلك سولت لي نفسي } ، وذكر سبحانه عن إخوة يوسف عليه السلام قول أبيهم سيدنا يعقوب عليه السلام لهم : { بل سولت لكم أنفسكم أمراً } .

فكما أن للشيطان أمراً بالسوء وتزييناً له، فكذلك للنفس الأمانة ، ولو لم يكن ذلك فمن هو الذي وسوس لإبليس وغرّه وأمره بالامتناع عن السجود لآدم عليه السلام ؟ !

نعم إن نفسه هي التي سولت له ذلك، إذ لا شيطان قبله يزيّن له ويوسوس له.

وإن الآية { إن النفس لأمانة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم } ذكرها سبحانه مخبراً عن زليخا امرأة العزيز ، وهذا ما دلت عليه سياق الآيات ، وإلا فإن سيدنا يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام صاحب نفس طاهرة زكية ، حفظه الله تعالى وعصمه عن نية الفاحشة والهّمّ بها، وهذا قوله تعالى مخبراً عن زليخا قولها : { ولقد راودته عن نفسه فاستعصم } أي حاولت معه مرة بعد مرة لفعل الفاحشة فلم يكن منه إلا الامتناع ؛ ولمّا لم يمتثل عليه السلام لأمر زليخا همت به ضرباً ليذعن لأمرها ، فهمم بها ضرباً ليبعداها عن نفسه ، وهذا قوله تعالى : { ولقد همت به وهمم بها لولا أن رأى برهان ربه } أي لولا وجود نور النبوة فيه لكان منه ما كان { كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء } وهي نية الفاحشة أو الهّمّ بها ، والفحشاء هي الزنا ، فحفظه الله تعالى وعصمه من ارتكاب الصغائر والكبائر ، فافهم.

وأما النفس اللوامة فقد يقع صاحبها أحياناً في المعصية ولكن نفسه تلومه على ذلك فيتوب، وكلما عاد إلى الذنب لامته نفسه وعاد إلى التوبة حتى إذا استقر على شرع الله تعالى وسكنت نفسه على ما يرضي الله تعالى صار صاحب نفس مطمئنة .

ولهذه النفس مراتب ومقامات كثيرة ، لأن منازل السير والسلوك إلى ملك الملوك جل وعلا منتهية ، أما مراتب القرب من الله تعالى فلا انتهاء لها ، وهذا معنى قولهم: [السير إلى الله له حدٌ ، أما السير في الله فلا نهاية له] .

وكلما ازداد المتقرب من الله تعالى قرباً زادت معرفته بعظمة الله تعالى ، وزادت خشيته من الله تعالى ، وزاد اعترافه بالتقصير عن أدائه حقَّ الله تعالى ، بمقتضى قوله جل وعلا : { وما قدرُوا الله حقَّ قدره } .

ألا ترى إلى إمام الصديقين أبي بكر رضي الله عنه لما سأل رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه دعاء يدعو به في صلاته فقال له ﷺ : [قل : اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً ^١ ، ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لي مغفرة من عندك ، وارحمني ، إنك أنت الغفور الرحيم] ^٢ ، كل ذلك مع أن الصديق رضي الله عنه لم يشرب الخمر ولم يَزُنِ زمن الجاهلية ، فما بالك عن طاعاته وعباداته في الإسلام !؟

نعم إن ذنوبه تفهم معناها إذا فهمت أن حسنات الأبرار سيئات المقربين . وإذا نزلت السكينة في قلب المؤمن عند قراءته للقرآن الكريم زادت إيماناً فيسكن القلب وينشرح الصدر وترتاح النفس لأن من أثر السكينة على النفس أنها تبعث فيها رَوْحاً ^٣ ، كقوله تعالى : { فأما إن كان من المقربين * فروح وريحان وجنة نعيم } .

^١ وفي رواية عند مسلم: [ظلماً كبيراً] كما في صحيحه كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

^٢ صحيح البخاري كتاب الدعوات

^٣ بفتح الراء وسكون الواو وفتح الحاء

والرَّوْحُ : ما يكون به ارتياح الإنسان وسروره وانتعاشه ، وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ فَإِنَّهَا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، وَسَلُّوا اللَّهَ خَيْرَهَا وَخَيْرَ مَا فِيهَا وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ ، وَتَعَوَّدُوا بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ]^١ أي : تأتيكم بروح من عند الله تعالى تبعث فيكم النشاط والحركة والارتياح .

وإن قوله صلى الله عليه وسلم لأسيد رضي الله عنه: [أما إنك لو مضيت أي : بقيت على قراءتك [لرأيت العجائب] دليل على إطلاع الله تعالى عباده الصالحين على بعض العوالم الغيبية والانكشافات العلوية ، فلا تنكر على أهل الله تعالى ذلك .

ومما جاء في فضل سورة البقرة ما رواه الإمام مسلم عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : [اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه ، اقرءوا الزهراوين البقرة وسورة آل عمران فإنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيابتان أو كأنهما فزقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما ، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا تستطيعها البطلة]^٢ .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ] أي: لا يستطيع قراءتها من كانت نفسه كسولة خموله ، وذلك لطولها ، ولا يستطيع تطبيق أحكامها لكثرتها ، إذا فيها ألف أمر وألف نهي كما قال بعضهم^٣ .

وقد استعاذ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكسل وأرشد أمته إلى ذلك ، فقد روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

[كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ، وَالْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَضَلَعِ الدِّينِ وَغَلَبَةِ الرِّجَالِ]^٤ .

١ المسند ٢٠٢١٥

٢ صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

٣ انظر كتاب : (الإتقان في علوم القرآن) ٤ / ١٤٢

٤ صحيح البخاري كتاب الدعوات

والكسل في أمور الدين من صفات المنافقين ، قال الله تعالى : { وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى } ، وقال سبحانه : { ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى } وهذا لأنهم صرفوا نشاطهم وقوتهم في تحصيل أموال الدنيا وزينتها ، حتى إذا أتوا للقيام بحق الله تعالى عليهم غلب الكسل والخمول عليهم ، ونسأل الله العافية .

أو أن المراد بالبطلة السحرة لأنهم على أمر باطل ، فمن واظب على تلاوة سورة البقرة حفظه الله تعالى وأولاده من السحر والنفوس الخبيثة الشيطانية ، وما أحوج المؤمنين في زمننا إلى ذلك .

وإن كلمات الله تعالى نافذة لا يستطيع أن يجاوزها - أي يقتحم حجابها - برُّ ولا فاجر ، فمن تحصن بكلمات الله تعالى وأسمائه سبحانه حفظه الله وعصمه من الشرور والمكاره .

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

المحاضرة الحادية عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه، قال :

باب فضل القرآن على سائر الكلام

ثم أورد بسنده إلى أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَأَلْتُرْجَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ ، وَالَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَالْتَّمْرَةِ طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَلَا رِيحَ لَهَا ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الرَّيْحَانَةِ رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ ، وَمَثَلُ الْفَاجِرِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ طَعْمُهَا مُرٌّ وَلَا رِيحَ لَهَا] .^١ اهـ

وقد أشار الإمام البخاري رضي الله عنه في ترجمته لهذا الحديث أشار إلى حديث آخر ، قد يكون ذكره في باب آخر من أبواب صحيحه ، أو أنه صح عند غيره من المحدثين ، لكنه لم يذكره في صحيحه لأنه لم يأت على شرطه^٢ .

^١ صحيح البخاري كتب فضائل القرآن

^٢ قال الحافظ في الفتح : قوله : (باب فضل القرآن على سائر الكلام) (هَذِهِ التَّرْجَمَةُ لَفْظِ حَدِيثِ أَخْرَجَ التِّرْمِذِيُّ مَعْنَاهُ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدِ الْخُدْرِيِّ) قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ : مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ عَنْ ذِكْرِي وَعَنْ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلُ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ ، وَفَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ] وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ إِلَّا عَطِيَّةَ الْعَوْفِيِّ فِيهِ ضَعْفٌ .

ثم قال : (وَأَخْرَجَهُ ابْنُ الضَّرِيرِ أَيْضًا مِنْ طَرِيقِ الْجَرَّاحِ بْنِ الصَّحَّاحِ عَنْ عَلْقَمَةَ بْنِ مَرْثَدٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيِّ عَنْ عُثْمَانَ رَفَعَهُ : [خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ] - وَحَدِيثُ عُثْمَانَ هَذَا سَيَأْتِي بَعْدَ أَبْوَابِ بَدُونِ هَذِهِ الزِّيَادَةِ) . اهـ ١٤ \ ٢٣٤

فقد روى الترمذي وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[يَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذِكْرِي عَنْ مَسْأَلِي أَعْطَيْتُهُ
أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ ، وَفَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ
عَلَى خَلْقِهِ]^١ .

وفي رواية : [فَضْلُ الْقُرْآنِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَى خَلْقِهِ]^٢ .

وفي رواية : [من شغله ذكرى عن مسألتى]^٣ والمراد من الذكر هنا :
القرآن الكريم ، لقوله تعالى : { إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون }
وقوله جل وعلا : { ص والقرآن ذي الذكر } .

ويقال عن القرآن الكريم إنه ذكر لأن فيه ذكر الله أي ذكر الله جل جلاله
لنفسه بالأسماء والصفات والكمالات والتسبيح والحمد والتكبير وهكذا ..

كما أن في القرآن الكريم ذكر كل شيء مما يتعلق بالمخلوقات والسوابق
واللواحق.

واعلم أنه لا بُد للمحدِّث - الذي يحدِّث الناس أحاديث سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم - لا بد له عند تحديثه أن يصل سنده إلى مصنف
كتاب الحديث الذي يريد التحديث منه ، كالبخاري مثلاً أو غيره ، ثم
يذكر سند البخاري إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا
يحتاج إلى إجازة للمحدِّث يجيزه بها من أُجيز بذلك عن شيوخه ، وكلُّ
منهم قد أُجيز عنمن قبله وهكذا .

^١ سنن الترمذي والدارمي كلاهما في كتاب فضائل القرآن والبيهقي في الأسماء
والصفات

^٢ أَخْرَجَهَا ابْنُ عَدِيٍّ مِنْ رِوَايَةِ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفُوعًا
، انظر فتح الباري ١٤ \ ٢٣٤

^٣ جاءت هذه الرواية في مصنف ابن أبي شيبة ، والزهد للإمام أحمد بن حنبل
والبخاري في خلق أفعال العباد وشعب الإيمان للبيهقي وغيرها .

وإن اتصال السند بين المحدث إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
لدليل على قوة المحدث في علمه وإطلاعه على أحاديث سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، ولولا ذلك لما أجازته شيوخه بذلك .

كما أن مجلس الحديث الذي يصل فيه المحدث سنده إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم لهو مجلس يتميز بنورانية وروحانية ونفحات خاصة
من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا يجدها الإنسان في غيره من
المجالس ، ولا يعرف سر وحكمة وقيمة اتصال السند والإجازة بالتحديث
إلا أهل الفضل والعلم .

قوله تعالى في الحديث القدسي : [مَنْ شغله القرآن] أي : قراءة القرآن
[وذكرني عن مسألتي] أي: عن دعاء الله وسؤاله [أعطيته أفضل ما
أعطي السائلين] .

فمن شغل نفسه بتلاوة كلام رب العالمين جل جلاله ، وله حاجات يريد
قضاءها عند من يملك حوائج السائلين ويعلم ضمائر الصامتين ، حقق
الله تعالى رجاءه، وأعطاه سؤاله على وجه أفضل ما يعطي به السائلين .

وينبغي على كل مؤمن أن يتخذ لنفسه ورداً يرد إليه كل يوم وليلة ، بمعنى
أن يكون له حصة من الوقت كل يوم وليلة يخصصها لتلاوة شيء من
القرآن الكريم والأذكار الواردة عن سيد الأنام صلى الله عليه وسلم ، والتي
أمر بها القرآن الكريم كالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والاستغفار
والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والدعاء ، ويكون هذا الورد
بالنسبة لقلبه وروحه بمثابة الماء للعطشان الذي يرد عليه ليرتوي ويأخذ
حاجته منه ، فإن تلاوة القرآن الكريم وذكر الله تعالى يزيدان الإيمان في
القلب ، ويدفعان عنه الوسوس والشبهات ، ويبعثان الطمأنينة في قلب
الذاكر ، كما يبعث الماء النشاط والحيوية في عروق وبدن الشارب منه ،
وهذا معنى قولهم : [من لا ورد له لا وارد له]^١ .

^١ ويقال لمن ورد الماء للشرب : وارد ، ولمن ارتوى وأخذ من الماء : صادر ، كما قال
تعالى : (ولما ورد ماء مدين) الآية ، وقوله سبحانه (حتى يصدر الرعاء) الآية .

ولقد كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعيّن على نفسه ورداً من القرآن الكريم كل يوم ، كما دلت عليه الأحاديث التي ذكرنا شيئاً منها في كتابنا (تلاوة القرآن المجيد) .

ولما وفد إليه صلى الله عليه وسلم بعض الضيوف أّخر استقبالهم لأنه كان مشغولاً في تلاوة ورده من القرآن الكريم ، فقد روى أبو داود عن أوس بن حذيفة رضي الله عنه قال : قدمنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيفٍ ، قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتينا كل ليلة بعد العشاء يحدثنا .

قال : فلما كانت ليلة أبطأ عن الوقت الذي كان يأتينا فيه ، فقلنا : يا رسول الله لقد أبطأت عنا الليلة ؟

قال : [إنه طراً علي حزبٌ من القرآن ، فكرهت أن أجيء حتى أتمّه] .

قال أوس رضي الله عنه : فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يحزّبون القرآن ؟

فقالوا : ثلاث ، وخمس ، وسبع ، وتسع ، وإحدى عشرة ، وثلاث عشرة ، وحزب المفصل وحده^١ .

وفي مسند الإمام أحمد أن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ :

[مَنْ فَاتَهُ شَيْءٌ مِنْ وَرْدِهِ - أَوْ قَالَ : مِنْ جُزْئِهِ مِنَ اللَّيْلِ - فَقَرَأَهُ مَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ إِلَى الظُّهْرِ فَكَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنْ لَيْلَتِهِ]^٢

والإيمان في القلب كالشجرة التي من أراد لها أن تؤتي ثمارها فلا بد له أن يتعهدّها بالسقيا وإزالة الأعشاب الضارة عنها ، وأن يجنبها الرياح الشديدة والأعاصير المدمّرة .

ولا تُسقى شجرة الإيمان في القلب إلا بتلاوة القرآن الكريم وذكر الله تعالى، الذي هو مما أمر به القرآن الكريم وأمر به سيد الأنام صلى الله عليه وسلم .

^١ سنن أبي داود كتاب الصلاة

^٢ المسند ٢١٥

ولا بد للورد من مواظبة لإمداد شجرة الإيمان في القلب ، كما لا يستغني الإنسان عن طعامه وشرابه ، ولا تغنيه أكلة وشرية الأمس عن اليوم .

وقد قال سبحانه : { ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء * تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون } ، والكلمة الطيبة هي : [لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم] والتي هي أصل وأساس الإيمان .

وأما ما يؤذي شجرة الإيمان في القلب فهي الشبهات والضلالات التي إذا أحاطت بالقلب ربما قضت على الإيمان الذي فيه ، كما تقضي الأعشاب الضارة والأشواك على الشجرة إذا كثرت من حولها وأحاطت بها .

وكما أن الهواء الشديد والأعاصير يضرّان الأشجار ، فإن هوى الإنسان يهوي به ، ويفسد عليه إيمانه ، إن هو اتبع هواه وأرسل نفسه في شهواتها.

ولا بد للإنسان - حتى يسلم عليه إيمانه ويقوى ويزداد - لا بد له من أن يجعل هوى نفسه تابعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تطهر نفسه ويطيب قلبه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : [لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه] أي ميل نفسه وما تشتهيه نفسه [تبعاً لما جئت به]^١ .

فلا يهوى إلا ما هوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يستحسن إلا ما حسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يكره إلا ما كرهه رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى في الحديث القدسي : [مَنْ شَغَلَهُ الْقُرْآنُ وَذَكَرِي عَنْ مَسْأَلِي أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِيَ السَّائِلِينَ] .

^١ قال الإمام النووي رضي الله عنه : حديث حسن صحيح ، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح .

أي فمن شغله ورده اليومي من تلاوة القرآن عن سؤالي حاجاته أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ، وذلك لأنه شغل نفسه بتلاوة كلام الله تعالى ، كما في رواية : [مَنْ شَغَلَهُ قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ عَنِ مَسْأَلَتِي أُعْطِيَتْهُ أَفْضَلَ ثَوَابِ السَّائِلِينَ]^١ .

قوله صلى الله عليه وسلم : [وفضل كلام الله على سائر الكلام] أي كلام المخلوقات [كفضل الله على خلقه] أي ولا نسبة في ذلك ولا مقارنة ولا مشابهة ، إذ لا يساوي فضل كلام الله تعالى أي فضل ، بل له الفضل المطلق كله ، لأنه كلام الله تعالى على الحقيقة ، وكلامه صفته ، وصفاته جل وعلا غير مخلوقة فكلامه سبحانه غير مخلوق ، وأنى لصفة المخلوق أن تشابه أو تماثل صفة الخالق جل وعز؟!

بل إن أصل التوحيد والإيمان تمييز القديم عن الحادث ، وكل ما سوى الله فهو مخلوق حادث بذاته وصفاته ، أما هو سبحانه فهو وحده القديم الذي لا أول له ، والباقي الذي لا آخر له .

وقد تكلم الله تعالى بالقرآن الكريم ، وأسمعه جبريل عليه السلام فتلقاه عنه ، ونزل به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال جل وعلا : { وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ } ، فلم يتلق جبريل عليه السلام القرآن عن اللوح المحفوظ ، بل تلقاه عن حضرة الله تعالى ، ونزل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان القرآن الكريم مسطوراً في اللوح المحفوظ ، كما سطرت فيه أحكام الله القضائية ، وذلك حتى تلوح أي تظهر للملائكة المكلفين بتنفيذها في الأكوان ، وحتى تأخذ الملائكة ما أمرت به من القرآن الكريم لتتعبد به وتتقرب بتلاوته إلى الله تعالى ،

يدلك على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : [الْمَاهِرُ بِالْقُرْآنِ] أي في تلاوته [مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ ، وَالَّذِي يِقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعْتَعُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ]^٢ .

^١ سنن الدارمي كتاب فضائل القرآن

^٢ صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها واللفظ له والمسند ٢٥٠٩٣ عن أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق السيدة عائشة رضي الله عنها وعن أبيها

وقال تعالى : { كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * في صحف مكرمة * مرفوعة مطهرة * بأيدي سفرة * كرام بررة } فقد كتبت في صحف الملائكة أجزاء من القرآن ليتعبدوا ربهم سبحانه بتلاوتها وهكذا ...

كما أن القرآن الكريم مسطور في اللوح المحفوظ على الترتيب الذي هو على ترتيب المصحف الذي أمر بترتيبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس على ترتيب النزول ، وهذا من حكم تسطير القرآن في اللوح المحفوظ حتى يرثبه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو عليه في اللوح المحفوظ.

وكما أن الملائكة عليهم السلام تتعبد ربها جل وعلا وتتقرب إليه بتلاوة القرآن الكريم ، فكذلك أيضاً تتعبد ربها سبحانه بالاستماع لمن يتلو القرآن ، فتحضر الملائكة مجالس تلاوة القرآن وذكر الله تعالى كما دلت عليه الأحاديث الشريفة .

ولعظيم فضل كلام الله تعالى كان لقارئه الأجر العظيم ، وله بكل حرف حسنة ، والحسنة تضاعف إلى عشر أمثالها ، وهذه المضاعفة للقارئ سواء كانت تلاوته بفهم أم بغير فهم ، لأنه صلى الله عليه وسلم قال : [مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ ، وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، لَا أَقُولُ : { الم } حَرْفٌ ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ ، وَوَاوٌ حَرْفٌ ، وَمِيمٌ حَرْفٌ] .^١ ولا يفهم معنى قوله تعالى : { الم } إلا أهل العلم ، ومع ذلك ذكرها رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً لمضاعفة الحسنات .

أما قراءة القرآن بفهم وتدبر فتكون مضاعفة الحسنات عند ذلك أكبر وأكثر على حسب الفهم والتدبر والخشوع لله تعالى .

ولما رأى الإمام أحمد رضي الله عنه رب العزة في منامه سأله : يا رب ما أفضل ما يتقرب المتقربون به إليك - أي من الكلام - ؟

قال جل وعلا : بكلامي يا أحمد.

قال : ربّ بفهم أم بغير فهم ؟

^١ سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

قال سبحانه : بفهم وبغير فهم^١ .

وفي الحديث : [وَمَا تَقَرَّبَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِمِثْلِ مَا خَرَجَ مِنْهُ ، يَغْنِي الْقُرْآنَ]^٢ .

وهذه الرؤيا المنامية لله تعالى قد تحصل لبعض الأولياء رضي الله عنهم ، أما رؤية الله تعالى في يقظة الدنيا فما كانت ولن تكون لأحد إلا لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي رأى ربه جل وعلا ليلة الإسراء والمعراج ، وأما بقية المؤمنين فيكون أول لقاء لهم لله تعالى بعد الموت ، إذا لم تكن هناك حُجُب وموانع تحول بين ذلك ، وهي الذنوب والمعاصي .

وقد قال صلى الله عليه وسلم :

[تَعْلَمُونَ أَنَّهُ لَنْ يَرَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رَبَّهُ حَتَّى يَمُوتَ]^٣ .

والمؤمن يرى ربه بعد موته وهو عنه راض ، وهذا اللقاء هو أسعد وأهنأ اللقاءات ، ونسأل الله تعالى أن يجعل أسعد أيامنا يوم نلقاه وهو راض عنا بجاه حبيبه الأعظم صلى الله عليه وسلم . آمين

ومن هجر تلاوة القرآن الكريم فقد عرّض نفسه للوعيد الذي أخبر سبحانه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سيقول يوم القيامة : { وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً } ، وقد ذكر سبحانه ذلك بصيغة الماضي لتحقق وقوعه ، وكأن الأمر قد وقع ، وها هو أمامك فما هو موقفك أيها الإنسان من ذلك ؟؟

وهجر القرآن على أنواع :

فمن الناس من هجر الإيمان به وهم الكافرون .

^١ انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ١ / ٤ والطبقات الكبرى للإمام

الشعراني ٣٨٣ وتفسير حقي ٣ / ٤٨٨

^٢ مسند الإمام أحمد ٢١٢٧٤ وسنن الترمذي كتاب فضائل القرآن عن أبي أمامة رضي الله عنه

^٣ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الفتن

ومنهم من هجر العمل به وهم الفاسقون وأمرهم على خطر .

ومنهم من هجر تلاوته فهو بذلك قد هجر العمل ببعض أوامر القرآن الكريم ، لأن القرآن الكريم يأمر بتلاوته .

وبين الإيمان والقرآن صلة وملازمة ، فلا بد لكل مؤمن ليثبت عليه إيمانه ويزداد لا بد له من أن يكون مع القرآن على صلة دائمة ، وقد روى البخاري وغيره عن حذيفة رضي الله عنه قال :

حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثَيْنِ ، رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ ، حَدَّثَنَا أَنَّ الْأَمَانَةَ - أَي الْإِيمَانَ - نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ - أَي فِي أَصُولِ الْقُلُوبِ - ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ ثُمَّ عَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ ، وَحَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِهَا ، قَالَ :

[يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ فَتُفْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ فَيَظَلُّ أَثْرَهَا مِثْلَ أَثْرِ الْوَكْتِ ، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتُفْبِضُ فَيَبْقَى أَثْرَهَا مِثْلَ الْمَجْلِ كَجَمْرِ دَخَرَجْتَهُ عَلَى رَجُلِكَ فَتَنْفِطُ فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ ، فَيُصْبِحُ النَّاسُ يَتَّبَاعُونَ فَلَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ ، فَيُقَالُ: إِنَّ فِي بَنِي فُلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا ، وَيُقَالُ لِلرَّجُلِ: مَا أَعْقَلَهُ وَمَا أَظْرَفَهُ وَمَا أَجْلَدَهُ ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِنْ ثِقَالٍ حَبَّةٍ خَرَدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ ، وَلَقَدْ أَتَى عَلِيَّ زَمَانٌ وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْتُ ، لَئِنْ كَانَ مُسْلِمًا رَدَّهُ عَلَيَّ الْإِسْلَامُ ، وَإِنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا رَدَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ فَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ أَبَايَعُ إِلَّا فُلَانًا وَفُلَانًا]^١.

وينبغي على المؤمن أن يعظم المصحف ويكرمه ، لأنه كلام رب العالمين ورسالته إلى خلقه .

وقد قال تعالى : { ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب } أي : تعظيم شعائر الله تعالى دليل على تقوى القلب ، وشعائر الله تعالى هي معالم دينه وشريعته ، ولا أعظم من المصحف إذ إنه أصل الدين والشريعة .

^١ صحيح البخاري كتاب الرقاق واللفظ له وصحيح مسلم كتاب الإيمان

وقد أخبر سبحانه عن علو مكانة القرآن عنده ورفعة مقامه فقال تعالى :
{ وإنه { أي القرآن { في أم الكتاب { أي فوق العرش { لدينا { أي عندنا
{ لعلي حكيم { أي له العلو والرفعة .

وإذا أرسل لك من يعزُّ عليك رسالة وبلغه أنك أكرمتها وعظمتها ، لعلوت
في نظره ولنلت كرامته ، ولو بلغه أنك استهنت برسالته لسقطت من
عينه ولحُرمت فضله وكرامته ، فعلى قدر تعظيمك لكتاب الله تعالى
تكون عظمتك عند الله تعالى – والله المثل الأعلى - .

وقد روى ابن أبي داود في كتاب: [المصاحف] عن إبراهيم التيمي قال: كان
- أي: في عصر الصحابة رضي الله تعالى عنهم - يقال: عظّموا
المصاحف. اهـ

ومن جملة تعظيمه : القيام له لتناوله ، وتقبيله ، ورفعته في مكان عال
محترم في البيت .

وإن الذي جمع شعائر الله كلها هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم
الذي انطوت فيه معالم الدين كلها ، فوجب تعظيمه صلى الله عليه
وسلم على كل مؤمن واحترامه وتوقيره صلى الله عليه وسلم .

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يعظّمون سيدنا رسول الله صلى الله
عليه وسلم أشدّ من تعظيم رعيّة الملك الملك ، وقد قال عروة بن
مسعود رضي الله عنه الثقي لقريش لما رجع إليهم من عند النبي صلى
الله عليه وسلم ، قال : (أي قوم : والله لقد وفدت على الملوك ، ووفدت
على قيصر وكسرى والنجاشي ، والله إنّ رأيتُ) أي ما رأيت (ملكاً قطُّ
يعظّمه أصحابه ما) أي مثل ما (يعظّم أصحاب محمد) صلى الله عليه
وسلم (محمداً) صلى الله عليه وسلم ، كما جاء هذا في حديث صلح
الحديبية الذي رواه البخاري وغيره ^١ .

ونسأل الله تعالى أن يرزقنا الأدب مع سيدنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وأن يرزقنا شفاعته ومرافقته في جميع العوالم .

^١ صحيح البخاري كتاب الشروط ومسند الإمام أحمد ١٨١٦٦

وإذا كان مقياس وميزان الإيمان حُب الأنصار ، الذين هم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن الإيمان كله هو حب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيمه والأدب معه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :
[آيَةُ الْإِيمَانِ] أي علامة الإيمان [حُبُّ الْأَنْصَارِ ، وَآيَةُ النَّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ]^١.

وكما يجب على المؤمن أن يسعى في زيادة إيمانه فيجب عليه أن يزداد محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعظيماً له حتى يزداد إيمانه. ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

^١ صحيح البخاري كتاب الإيمان عن أنس رضي الله عنه .

المحاضرة الثانية عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بزْدْرِبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً

ثم أورد بسنده إلى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَبَّابًا وَلَا فَحَّاشًا وَلَا لَعَانًا ،
كَانَ يَقُولُ لِأَحَدِنَا عِنْدَ الْمَعْتَبَةِ : [مَا لَهُ تَرِبَ جَبِينُهُ]^١ . اهـ

أي لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً بكلامه ، بل كان يقابل الناس بلين الكلام ، ولم يكن متفحشاً بأفعاله صلى الله عليه وسلم ، بل كان صلى الله عليه وسلم لئِن الجانب ، عظيم الخلق ، لا يقابل أحداً بما يكره ، كما بيّنت ذلك أحاديث الصحابة رضي الله عنهم في وصف شمائله وخصاله صلى الله عليه وسلم^٢ .

وكان صلى الله عليه وسلم يُداري ضُعفاء القلوب والإيمان حتى يجلبهم ويرغبهم في دين الإسلام، ولما استأذن عيينة بن حصن الفزاري - وكان حديث عهد بالإسلام ، ضعيف الإيمان - لما استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما رآه ، قال صلى الله عليه وسلم : [بئس أخو العشيرة ، وبئس ابن العشيرة] فلما جلس تَطَلَّقَ النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه .

^١ صحيح البخاري كتاب الأدب

^٢ انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ١٢١٦٧ والأدب المفرد للبخاري ١٥٦/٢

- وفي رواية : فلما دخل ^١ ألان له الكلام ^٢ - فلما انطلق الرجل قالت له السيدة عائشة رضي الله عنها : يا رسول الله حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا ، ثم تطلّقت في وجهه وانبسبت إليه .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [يا عائشة متى عهدتني فحاشاً ؟ إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شره] ^٣ .
وفي رواية [اتقاء فحشه] ^٤ .

وقد استدل العلماء من هذا الحديث على عدة أمور منها :
وجوب الاستئذان لمن أراد أن يدخل على غيره .

واستدل العلماء أيضاً على أن ذكر الفاسق المعلن لفسوقه أو الشرير المجاهر بشرّه ، لا يُعتبر غيبة منهياً عنها ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الرجل المعروف بسوء خلقه وغلظته وشرّه ، ذكره بالذم لما استأذن عليه بقوله : [بئس أخو العشيرة] .

ومنها : وجوب مداراة الفسقة وضعفاء الإيمان لاستجلابهم وتقوية الإيمان في قلوبهم ، وعدم تنفيرهم بسيئ الكلام ، وهذا ما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الأحمق المَطَاع ، لأنه إذا استجلبه وتمكن الإيمان في قلبه ، فإن قومه من وراءه سيتبعونه ويثبتون على دين الله تعالى .

^١ قال الحافظ في الفتح ١٧ / ١٨٠ : قَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: هُوَ عِيْنَةُ بَنِ حِصْنِ بَنِ حُدَيْفَةَ بَنِ بَدْرِ الْفَزَارِيِّ ، وَكَانَ يُقَالُ لَهُ: الْأَحْمَقُ الْمَطَاع ، وَرَجَا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَقْبَالِهِ عَلَيْهِ تَأْلَفَهُ لِيُسَلِّمَ قَوْمَهُ لِأَنَّهُ كَانَ رَئِيسَهُمْ . اهـ

وكان من المؤلفات قلوبهم وقد حسن إسلامه في عهد خلافة عمر رضي الله عنه .
وقال النووي في شرحه صحيح مسلم : وأما (بئس ابن العشيرة أو رجل العشيرة) فالمراد بالعشيرة : قبيلته ، أي: بئس هذا الرجل منها .

^٢ صحيح البخاري كتاب الأدب

^٣ المصدر السابق

^٤ المصدر السابق

وقد قال العلماء رضي الله عنهم بمشروعية المداراة في دين الإسلام ،
وأما المداهنة فهي حرام منهي عنها وتعدُّ من النفاق .

والمداراة هي بذل الدنيا لإصلاح الدين ، أو الدنيا ، أو كليهما معاً ،
ويشمل هذا بذل المال أو القول اللين لأجل إصلاح أمر الآخر في دينه
ودنياه أو أحدهما .

وأما المداهنة فهي بذل الدين في سبيل الدنيا ، وهذا حرام ، من
المنهيات، كمن يتكلم مع غيره بكلام لا يرضاه الله ورسوله صلى الله عليه
وسلم في سبيل الحصول على مال أو رتبة وهكذا ..

وقد بين هذا سبحانه بقوله : { ودوا لو تدهن فيدهنون } أي :
ود المشركون لو تدهن معهم ، بأن توافقهم على بعض أمور الجاهلية
والكفر ، فيدهنون لك ، ولكنه صلى الله عليه وسلم ما فعل ذلك^١ .

والمداهنة مأخوذ من الدَّهان ، وكأن كلاً من الطرفين يدهن ما يلين
صاحبه ويرضيه ، وهذا نفاق مذموم في شرع الله تعالى .

ولما أرسل الله تعالى موسى وهارون - على نبينا وعليهما الصلاة والسلام -
لما أرسلهما إلى فرعون - وكان فرعون ظالماً طاغياً - أمرهما بلين الخطاب
له والكلام معه ، فقال تعالى : { فقولا له قولاً ليناً لعله يتذكر أو يخشى } ،
وهذا على سبيل المداراة ، لا المداهنة ، ولو أن موسى عليه السلام قابله
بالغلظة والفظاظة لنفر وطغى ، ولَمَّا استمع إلى بينات موسى عليه السلام
وبراهينه ، وعندها لا يحصل المقصود من دعوته وهدايته إلى الله تعالى .

وقد بين سبحانه في القرآن الكريم كيف ألانَ موسى عليه السلام الكلام
لفرعون ، بأن كان كلامه معه على سبيل العرض لا الأمر ، فقال تعالى في
بيان ذلك : { فقل هل لك إلى أن تزكى * وأهديك إلى ربك فتحشى } .

^١ جاء في تفسير القرطبي ١٧ / ٢٢٨ : والمدهن الذي ظاهره خلاف باطنه، كأنه
شبه بالدهن في سهولة ظاهره.

وجاء في لسان العرب ١٣ / ١٦٠ : قال أبو الهيثم الإذهان المُقارِبَة في الكلام ،
والتلّيين في القول ، ومن ذلك قوله تعالى : { ودُّوا لو تدهن فيدهنون }
أي : ودُّوا لو تُصانِعهم في الدِّين فيُصانِعوك .

ولقد كان صلى الله عليه وسلم عظيم الخلق ، لا يقابل أحداً بما يكره ،
وإذا رأى من أحد إساءة أو تقصيراً فلا يلعنه ولا يسبّه ، بل كان جلّ عتابه
أن يقول : [ما له تربّ جبينه] أي : ما الذي اعترى فلان حتى قصر أو
أساء؟ تربّ جبينه ، وهي كلمة جرت على لسان العرب ، ولكن لا يريدون
معناها.

والأصل في معناها أن يصيب التراب جبينه ، يعني أن يوضع جبينه على
الأرض .

وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم: [تربت يداه]^١ أي صارت يداه على
التراب ، فهي كناية عن الفقر الشديد أو الغنى الكثير^٢ ، ولا يُراد من هذه
الكلمات معانيها ، وإنما يؤتى بها على سبيل التنبيه والزجر ، كقوله صلى
الله عليه وسلم : [ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ]^٣ .

وأما إذا كان الأمر يتعلق بانتهاك حرّات الله تعالى فكان رسول الله صلى
الله عليه وسلم يغضب ، كما ورد أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ينتقم
لنفسه ، إلا إذا انتهكت حرّات الله تعالى ، فكان يغضب لله تعالى ،
لا لنفسه^٤ .

وقد ذكر سبحانه في أول سورة { ن } - ثاني أو ثالث ما نزل من القرآن -
على خلاف في أقوال العلماء - ذكر سبحانه في أول هذه السورة بيان سعة
عقله الشريف صلى الله عليه وسلم وعِلمه ، وعظمة خُلقه صلى الله عليه
وسلم ، فقال سبحانه : { ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك
بمجنون * وإن لك لأجرأ غير ممنون * وإنك لعلى خلق عظيم } .

^١ طرف حديث في سنن أبي داود كتاب الطهارة ، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح
٢٠٧ / ١ : أَي : إِفْتَقَرْتُ وَصَارَتْ عَلَيَّ التُّرَابُ ، وَهِيَ مِنَ الْأَلْفَازِ الَّتِي تُطْلَقُ عِنْدَ
الرَّجْرِ وَلَا يُرَادُ بِهَا ظَاهِرُهَا .

^٢ انظر فتح الباري للحافظ ابن حجر ١٤ / ٣٣٠

^٣ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الإيمان

^٤ روى الإمام مسلم في صحيحه عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها
قالت : [وَمَا أَنْتَقَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِنَفْسِهِ إِلَّا أَنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللَّهِ
عَزَّ وَجَلَّ]

قوله تعالى : { ن } وهو حرف من حروف الهجاء التي افتتح الله تعالى بعض سور القرآن ببعضها ، وقد كتبت في القرآن بحقيقتها ، لكنها تلفظ باسمها ، فتقرأ { كهيعص } مثلاً : كاف ، ها ، يا ، عين ، صاد ، مع أن كل حرف مكتوب بحقيقته ، وحقيقة الحرف هو أول حرف من اسمه ، فحقيقة كاف : (ك) وهكذا ...

وقد يطلق النون في لغة العرب على الحوت ، كما قال سبحانه :
{ وذا النون } - أي صاحب الحوت وهو سيدنا يونس عليه السلام -
{ إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين } ، وقال سبحانه في آية ثانية :
{ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم } .
وقد يطلق النون على الحرف المعروف من حروف الهجاء ، ويشار به إلى معانٍ عالية .

وقد يطلق النون على دواة المداد - التي يوضع فيها حبر الأقلام للكتابة بها - وهكذا فإن نون هي موضع المدد^١ .

فلما قال سبحانه : { ن والقلم وما يسطرون } دل على أن المراد من { ن } : المدد ، وهو المدد الإلهي الفياض الذي أفاضه الله تعالى على القلم الأول لما قال سبحانه له : [اكتب .

فقال : ما أكتب ؟

قال : اكتب القدر ، ما كان وما هو كائن إلى الأبد]^٢ .

ولما أمد الله تعالى القلم بمدده كتب ما هو كائن إلى يوم القيامة كما في الحديث المتقدم .

قوله تعالى : { وما يسطرون } أي وما تُسطره الأقلام التي تأخذ عن القلم الأول ، فلقد أقسم سبحانه بالمدد الإلهي ، وبالقلم الأول ، وبالأقلام التي تأخذ عن القلم الأول ، أقسم بذلك كله على كمال عقله الشريف صلى الله

^١ انظر الدر المنثور للحافظ السيوطي ١٠ / ٧١

^٢ رواه الترمذي عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه .

عليه وسلم ، وسعة علومه ، وعظمة نعمة الله تعالى عليه بالنبوة
والرسالة العامة ، فقال جل وعلا : { ما أنت بنعمة ربك بمجنون } أي :
بل أنت صاحب العقل الأول والأرجح ، لأن في هذا النفي إثبات لكمال ما
يقابله ، كقوله تعالى : { وما ربك بغافل عما تعملون }

أي : بل هو البصير العليم ، الخبير بكم وبأعمالكم ، على وجه مطلق لا
يتناهى ، يليق بجلاله سبحانه .

وقوله تعالى : { ما أنت بنعمة ربك بمجنون } ومن نعمة الله تعالى على
رسوله صلى الله عليه وسلم : النبوة والرسالة وإنزال القرآن الكريم عليه ،
- الذي أتى على ذكر العلوم كلها - وإن هذه العلوم والمعارف العلوية
والفيوضات الإلهية لا يتحملها إلا من أعده الله تعالى وأمده بالعقل
الواسع الكبير .

قوله تعالى : { ما أنت بنعمة ربك بمجنون } أي فكيف يصح لدى عاقل
أن يظن أن فيك يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - شائبة الجنون
- كما زعم المشركون المعاندون - وأنت الذي نزلت عليه النبوة والرسالة
وتحمّلت تلك العلوم التي لا يسعها إلا من كان أكمل خلق الله تعالى عقلاً،
وأشدهم ذكاء وفطنة ونباهة !؟

ونقول من باب المثال : لو اتهم إنسانٌ طبيباً عالمياً ماهراً معروفاً بعلومه
ونفعه للناس ، اتهمه بالجنون ، لكان هذا الإنسان هو المجنون ، فما بال
هؤلاء المشركين المعارضين الذين عجزوا عن الإتيان بمثل هذا القرآن
النازل على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم راحوا ينسبون إليه
الجنون ، مع أنه أكمل خلق الله تعالى عقلاً وعلماً ومعرفة !!

نعم ما قالوا ذلك إلا لضلالهم وعنادهم وعداوتهم لسيدنا محمد صلى
الله عليه وسلم الذي شهد الله تعالى له بأرجحية عقله الشريف وسعة
علمه صلى الله عليه وسلم ، والذي أمده الله تعالى به بالمدد الفياض
اللامتناهي ، والذي أشار إليه جل وعلا بقوله : { ن } .

وعن عقله الشريف وعلمه الواسع صلى الله عليه وسلم تستمدُّ العقول ،
كما استمدت الأقلام عن القلم الأول ، وما استمداده صلى الله عليه وسلم
إلا عن حضرة رب العالمين جل وعلا .

قوله تعالى : { ما أنت بنعمة ربك بمجنون } أي على صبرك على ما
يقولون فيك يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لأنك أنت صاحب
العقل الأول، والعلم الأوسع ، ومع ذلك نسبوا إليك الجنون ،
وهذا أمر يُغضبك ويؤذيك ، ولكن أجرك عند الله تعالى لا يعلمه إلا الله
تعالى ، لتحملك أذاهم وصبرك عليهم .

قوله تعالى : { وإن لك لأجرًا } أي إن لك بالخصوص لأجرًا عظيمًا لا ثِقًا
بك، { غير ممنون }^٢ أي غير مقطوع بل هو مستمر دائم .

قوله تعالى : { وإنك لعلى خلق عظيم } أي فهم يتكلمون فيك ويؤذونك ،
لكن خُلقك العظيم يجعلك تعفو وتصفح ، وهو صلى الله عليه وسلم
عظيم في أخلاقه كلها ، عظيم في كرمه ، عظيم في سماحته ، عظيم في
شجاعته ، عظيم في حلمه ، عظيم في صبره ، عظيم في انتصاره للحق
وهكذا .. فهو عظيم في كل جانب من جوانب الخُلق صلى الله عليه
وسلم.

وقوله تعالى : { وإنك لعلى خلق عظيم } يعني أن الأخلاق العظيمة كلها قد
تحقق بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلاها وارتقاها ،
فلا خُلق أعظم أو أعلى من خُلقه صلى الله عليه وسلم ، ولا مجال لخُلق
مهما عظم أن يتعالى على خُلق رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن كلام الله تعالى معجز في نصه ومعانيه وعلومه وإخباراته ، ومهما فهم
العلماء وبحثوا في معاني كلام الله تعالى ، فإنهم لا يحيطون بمعاني كلام
الله تعالى علمًا ولا معرفة ، ولذلك لا يمكن لأحد الإحاطة بما اشتمل عليه

١ التنوين هنا للتعظيم والتفخيم .

٢ من الشيء : إذا قطعه ، انظر تفسير ابن كثير ٨ / ١٨٨ ولسان العرب ١٣ / ٤١٥

قوله تعالى : { ن والقلم وما يسطرون * ما أنت بنعمة ربك بمجنون *
وإن لك لأجرأ غير ممنون * وإنك لعلی خلق عظیم } .

وإن فهم معاني القرآن الكريم يحتاج من الإنسان إلى طهارة قلب وصفاء
نفس ، وأن يجعل عقله تابعاً لما جاء به القرآن الكريم ، لأن القرآن الكريم
خاطب العقلاء وأولي الألباب ، وأما من تحكم في القرآن بعقله فهو أسير
أهوائه وآرائه ، وقد قال سيدنا عثمان رضي الله عنه :
(لو طُهرت قلوبكم ما شيعتم من كلام الله عز وجل)^١ .

وإذا كان الجسم يطهر بالماء ، فإن طهارة القلوب لا تكون إلا بتقوى الله
تعالى في السر والعلانية ، ومراقبته والخشية منه سبحانه .

وإن الناس في تأثرهم وتذكرهم بكلام الله تعالى على صنفين ، كما قال
سبحانه : { إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب { أي قلب حي سليم من
الأمراض والآفات } أو ألقى السمع وهو شهيد { أي فإن كان في قلبه مرض
أو آفة ، فعليه أن يصغي إلى كلام الله تعالى ، ويُشهد قلبه ما تسمع أذناه
فعندئذ يبرأ قلبه ويحيا بإذن الله تعالى فيتأثر ويتذكر .

وإذا فقد الشيء حقيقة ما خلق له أو صنع من أجله ، فيكون اسمه عندئذ
اسماً مجازاً وعرفاً ، لا حقيقة ، كالسيارة إذا تعطلت عن السير ، فهي
سيارة بالاسم فقط ، ولكنها في الحقيقة هيكل من حديد ، وهكذا قلب
الإنسان إذا فقد نور الإيمان ، فهو قلب في شكله واسمه ، وهذا قوله تعالى
: { إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب { أي قلب حي بنور الإيمان بالله
تعالى ، وهو قلب على الحقيقة ، فشأن هذا القلب أن يتذكر ويخشع إن
سمع صاحبه كلام الله تعالى .

وأما من لم يكن قلبه على تلك الدرجة من الحياة والنور الإيماني ، فعليه
أن يُلقي سمعه لكلام الله تعالى ، ويحضر قلبه ما استطاع ، فيحيا قلبه
ويستنير ويتذكر ويخشع ، وهذا معنى قوله تعالى : { أو ألقى السمع وهو
شهيد } ، كل هذا يدل على أن القلوب تشفى وتحيا بكلام الله تعالى ،
قال عز من قائل : { قل هو للذين آمنوا هدىً وشفاءً } .

^١ انظر كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل ٢٠٧/٢

ولما كانت قلوب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله عنهم عامرةً بالإيمان والهدى والتقى والنور - وخاصةً آل بيته صلى الله عليه وسلم الكرام رضي الله عنهم ورضي عنا بهم - كانت مفاهيمهم وعلومهم لمعاني القرآن الكريم عظيمة كبيرة ، ولهذا قال سيدنا علي كرم الله تعالى وجهه ورضي عنه : [لو تكلمت لكم على سورة الفاتحة لأوقرتُ سبعين بعيراً]^١ .

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

^١ قال الشيخ الإمام في كتابه (حول تفسير سورة الفاتحة) : والمعنى: لو تكلم على ما فهمه الله تعالى من معاني سورة الفاتحة لمألاً كتباً كثيرةً يحتاج حملها لسبعين جملاً. اهـ

المحاضرة الثالثة عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب المِقة من الله تعالى

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [إِذَا أَحَبَّ اللَّهُ عَبْدًا نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ]^١ .

باب الحب في الله تعالى

وأورد بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : [لَا يَجِدُ أَحَدٌ خَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَحَتَّى أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ ، وَحَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا]^٢ .

المِقة : هي المحبة ، يقال : وَمَقَّه يَمَقُّه وَمَقًّا وَمِقةً : إذا أَحَبَّهُ^٣ .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ الْمِقةَ مِنَ اللَّهِ]^٤ أي : إن المحبة من الله تعالى ، فإذا أحب الله عبداً جعل محبته في قلوب عباده فأحبوهُ ، وإذا كرهه الله عبداً كرهه فيه عباده .

^١ صحيح البخاري كتاب الأدب

^٢ المصدر السابق

^٣ قال في لسان العرب ٣٨٥/١٠ : وَمِقةً يَمَقُّه مِقةً وَمِقةً : أَحبه

^٤ طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٢١٢٤٠

وقد أشار البخاري رضي الله عنه في ترجمته لهذا الحديث إلى رواية :
[المِقة من الله ، والصّيت من السماء] ^١ ، ولم يذكرها في صحيحه لأنها
لم تأت على شرطه في الجامع الصحيح ، وإن صحت عند غيره ، وقد
يذكر روايات مثلها في كتابيه: [الأدب المفرد] و [التاريخ الكبير] .
والصّيت مأخوذ من الصوت ، فيقال : صيت وصوت ، كما يقال : ريح
وروح .

والصّيت : هو الشهرة والثناء الحسن ، وإذا أطلقت كلمة الصّيت دلت
على الثناء الحسن ، وقد تأتي مقيدة لتدل على معنى سيئ ^٢ .
ولا يملك أحد المقة والصّيت إلا الله تعالى ، فهو يجعل محبة من أحب
في قلوب عباده فيحبونه ، وينشر له الشهرة والثناء الحسن بين عباده .
قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث : [نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا
فَأَحِبَّهُ] هذا أمر إيجادي تكويني ، إذ يخلق الله تعالى محبة من أحبه في
جبريل عليه السلام فيحبه جبريل عليه السلام ، وبنداء جبريل عليه
السلام في أهل السماوات : [إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّهُ] يخلق الله تعالى
محبه في أهل السماوات فيحبون من أحبه الله تعالى .
قوله صلى الله عليه وسلم [ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي أَهْلِ الْأَرْضِ] أي فتنزل
محبة هذا الذي أحبه الله تنزل في قلوب المؤمنين من أهل الأرض
فيحبونه .

وفي رواية للحديث أنه صلى الله عليه وسلم قال : [فَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ
{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } ^٣

^١ أخرجها الإمام أحمد والطبراني وابن أبي شيبة عن أبي أمامة رضي الله عنه كما في
الفتح ١٩٠/١٧

^٢ انظر فتح الباري ١٩٠/١٧

^٣ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

أي حباً ثابتاً عند أهل السماوات والأرض بعد أن جعل لهم سبحانه من لدنه وُدّاً فأحبهم وجعل محبتهم عند أهل العرش والفرش^١ .

وفي رواية مسلم : [وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ ، قَالَ : فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ] لأن أمر الله تعالى له أمر إيجادي لا يتخلف [ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ ، ثُمَّ تَوَضَّعَ لَهُ الْبُغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ]^٢ .

وفي المعجم الأوسط للطبراني واللفظ له وأصله في مسند الإمام أحمد^٣ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [إِنَّ الْعَبْدَ يَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ اللَّهِ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكُ ، فَيَقُولُ اللَّهُ: يَا جِبْرِيلُ، إِنَّ عَبْدِي فُلَانًا يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي] أي يعمل صالحاً ويدعوني ويسألني أن أرضى عنه [فَرِضَائِي عَلَيْهِ] أي فيعلن سبحانه في الملأ الأعلى رضاه على فلان الذي التمس رضاه بالقول والعمل.

[قَالَ: فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَى فُلَانٍ] أي رحمة الرضا، لأن الرضوان يستلزم الرحمات [وَتَقُولُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، حَتَّى يَقُولَهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ يَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : وَهِيَ الْآيَةُ الَّتِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فِي كِتَابِهِ: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا } .

[وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ سَخَطَ اللَّهِ] أي يستمر بعمله الذي يغضب الله تعالى [فَيَقُولُ اللَّهُ: يَا جِبْرِيلُ، إِنَّ فُلَانًا يُسَخِطُنِي، أَلَا وَإِنَّ غَضْبِي عَلَيْهِ، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: غَضِبَ اللَّهُ عَلَى فُلَانٍ، وَيَقُولُ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُ مَنْ دُونَهُمْ، حَتَّى يَقُولَهُ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ يَهْبِطُ إِلَى الْأَرْضِ] .
وفي هذا دليل على أن للأعمال الصالحة التي يعملها المؤمن آثاراً صالحة عند أهل السماوات والأرض ، وآثاراً صالحة في عالم الدنيا وعالم الآخرة .

١ والفرش: الأرض ، وقد قال سبحانه : { الذي جعل لكم الأرض فراشاً } يفرشها أهل الأرض في حياتهم وحركاتهم وجلووسهم ونومهم .

٢ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

٣ ٢١٣٦٧

وكذلك الأعمال السيئة فلها آثار سيئة في الدنيا والآخرة ، وعند أهل السماء والأرض .

وقد نبّه سبحانه إلى آثار الأعمال الصالحة وآثار الأعمال السيئة ، فقال سبحانه في المنافقين والكافرين : { أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ } .

وكلام الله تعالى يطالبك أن تتفكر فيه وتتدبر فيه حرفاً حرفاً ، وكلمة كلمة ، وآية آية ، لأنه كلام رب العالمين المحكم المعجز الذي لا حشو فيه ولا فضول .

فقوله تعالى : { حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ } : أما في الآخرة فحبوط العمل بأن لا ثواب ولا اعتبار له ، وأما حبوط العمل في الدنيا فيعني أن للأعمال آثاراً في الدنيا وآثاراً في الآخرة ، إن كانت صالحة فآثارها صالحة ، وإن كانت فاسدة سيئة فآثارها سيئة

فمن عمل الصالحات ثم كفر أو ارتد أو نافق فقد حبط عمله الصالح في الدنيا وحبط أجره في الآخرة ، وأما إذا بقي مؤمناً يعمل الصالحات فله ثواب عمله في الدنيا وفي الآخرة ، وما هو أثر عمله الصالح في الدنيا ؟؟

نعم ينال حب الله تعالى وحب خلقه ، كما قال تعالى : { إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً } أي الآن في الدنيا قبل الآخرة ، وهذا بحق من لم يرتكب ذنباً كبيراً يوجب حُبوب عمله كالتلفظ بكلمة كفرًا ونفاقاً ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم :

[من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله]^١ ، ومن الذنوب التي تحبط بعض الأعمال الصالحة اقتناء الكلب ، لِمَا جاء في الحديث : [مَنْ اقْتَنَى كَلْبًا لَيْسَ بِكَلْبٍ مَاشِيَةٍ أَوْ ضَارِيَةٍ نَقَصَ كُلَّ يَوْمٍ مِنْ عَمَلِهِ قِيرَاطَانِ]^٢ أي: من أحسن أعماله الصالحة ، والمن والأذى يبطلان ثواب الصدقة لقوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى }

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة

^٢ صحيح البخاري كتاب الذبائح والصيد

فيجب أن تفهم أن هناك ذنوباً يرتكبها العبد تحبب بعض أعماله الصالحة، أما الكفر والردة والنفاق فتحبب كل الأعمال الصالحة ، نسأل الله العافية .

فقوله سبحانه في المنافقين والكافرين : { حببت أعمالهم في الدنيا والآخرة } يعني أن للمؤمنين ثواب أعمالهم في الدنيا والآخرة .

ومن جملة ثواب عمل المؤمن في الدنيا أن الله تعالى يجعل له محبة ثابتة عند أهل السماء وأهل الأرض ، ولهذه المحبة آثار وفوائد ترجع على هذا المؤمن المحبوب فيدعون له ويستغفرون ويسلمون ..

ومن جملة ذلك أيضاً : أنه سبحانه يعلن رضاه عليه في الملأ الأعلى ، وينشر الثناء الحسن عليه عند أهل السماء والأرض ، ويذكره سبحانه في الملأ الأعلى ويمدحه ويثني عليه ، وقد قال تعالى : { فاذكروني أذكركم }

وفي الحديث القدسي : [أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني ، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم]^١.

وكل ذلك الثواب يناله المؤمن الصالح في الدنيا قبل ثوابه في الآخرة .

ولما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم خيار خلق الله تعالى ، فقد نالوا ثناء الله عليهم في جميع الكتب الإلهية ، حتى ذكر ذلك في القرآن الكريم .

ومن ذلك قوله تعالى : { وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ * إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ * وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ * وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ * هَذَا ذِكْرٌ } أي هذا ذكر الله تعالى لأحبابه بأن يثني عليهم ويمدحهم { وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ } .

^١ صحيح البخاري كتاب التوحيد وصحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

كما أنه سبحانه ذكر الأولياء بالمدح والثناء الحسن فقال عز من قائل :
{ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ } .

ومن فسد عمله وساء فقد حبط عمله في الدنيا قبل الآخرة ، فلا ذِكر
حسن له ، ولا محبة من الله له ، ولا رضا من الله عليه ، ولا محبة من
خلق الله له ، بل العكس ، ويحبط عمله في الآخرة بالعذاب والعقاب ،
نسأل الله العافية.

والوُد مرتبة في الحب تدل على ثبوته ورُسوخه وتمكنه في المحب ، لأن
كلمة الود تطلق على الشيء الثابت الذي يُدَّق في الأرض ليثبت غيره من
خَيْمة ونحوها^١ .

وإن صفة المؤمن الكامل أن يكون حبه الأشد والأقوى هو حبه لله تعالى
ولرسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى : { والذين آمنوا
أشدَّ حباً لله } أي إن غاية حبهم الشديد هي لله ولرسوله صلى الله عليه
وسلم الذي بيّن ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم : [ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ
وَجَدَ خَلَاوَةَ الْإِيمَانِ : أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ
يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَدَّفَ
فِي النَّارِ]^٢ .

وإن حُب الله تعالى وحُب رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم أمران
متلازمان لا يفترقان ، فمن أحب الله تعالى أحب حبيبه الأعظم سيدنا
محمداً صلى الله عليه وسلم ، ومن أحب سيدنا محمداً صلى الله عليه
وسلم فقد أحب الله تعالى لأنه صلى الله عليه وسلم رسول الله تعالى
وحبيبه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : [لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى
أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ]^٣ .

^١ جاء في تفسير البحر المحيط لابن حيان الأندلسي ٨ / ٥٦ : قرأ الجمهور { وداً }
بضم الواو ، وقرأ أبو الحارث الحنفي بفتحها . اهـ

وجاء في لسان العرب ٣ / ٤٥٣ : وَالْوَدُّ الْوَتْدُ بِلُغَةِ تَمِيمٍ . اهـ

^٢ صحيح البخاري كتاب الإيمان

^٣ المصدر السابق

وروى الإمام أحمد في مسنده عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال :
احتبس علينا رسول الله ﷺ ذات غداة من صلاة الصبح حتى كدنا نترأى
قرن الشمس ، فخرج ﷺ سريعاً فتوّب بالصلاة ، فصلّى وتجوّز - أي أسرع
- في صلاته فلما سلم ﷺ قال : ((كما أنتم على مصافكم)) - أي لا تفارقوا
مكانكم - ثم أقبل إلينا فقال : ((إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة ،
إني قمتُ من الليل فصلّيت ما قدر لي فنعست في صلاتي حتى استيقظت
فإذا أنا بربي عزّ وجلّ في أحسن صورة^١ ، فقال : يا محمد أتدري فيم
يختصم الملائكة الأعلی ؟ قلت : لا أدري يا ربّ ، فأعادها ثلاثاً ، فرأيته وضع
كفّه بين كتفيّ حتى وجدتُ برّدها بين ثديي^٢ ، فتجلّى لي كلّ شيء ، وعرفتُ
- وفي رواية الترمذي : فعلمتُ ما في السماوات وما في الأرض - فقال : يا
محمد فيم يختصم الملائكة الأعلی ؟^٣ قلتُ : في الكفّارات والدرجات ، قال :
وما الكفّارات ؟ قلتُ : نقل الأقدام إلى الجماعات ، والجلوس في المساجد
بعد الصلوات^٤ ، وإسباغ الوضوء عند الكريهات . قال : وما الدرجات ؟

^١ قال ابن الأثير في جامع الأصول: الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها ، وعلى
معنى حقيقة الشيء وهيئته ، وعلى معنى صفته ، يقال : صورة الفعل كذا وكذا:
لهيئته ، وصورة الأمر كذا وكذا: لصفته ، فيكون المراد بما جاء في الحديث : إنه أتاه
في أحسن صفة ، ويجوز المعنى إلى النبي ﷺ أي أتاني ربي وأنا في أحسن صورة. اهـ
قال الشيخ الإمام : ومما يؤيد أن الصورة قد يراد بها الصفة قوله ﷺ : [إنَّ أوَّل
زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر] أي على صفته في النور والإضاءة ،
وليس المراد هيئته المستديرة . اهـ

^٢ في هذا رموز وإيماءات إلى إفاضات وتجليات فيها انكشافات ومشاهدات وعلوم
وإطلاعات ، فسبحان مَنْ تنزّه عن الكميات والكيفيات ! .

^٣ قال ابن الأثير : الملائكة هم أشرف الناس وسادتهم وأراد هنا بالملائكة الأعلی الملائكة
المقربين اهـ .

^٤ قوله صلى الله عليه وسلم [والجلوس في المساجد بعد الصلوات] أي دون أن
يكون هناك كلام دنيوي مع الناس ، وفي الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه:
[الْمَلَائِكَةُ تُصَلِّي عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مُصَلَّاهُ الَّذِي صَلَّى فِيهِ ، مَا لَمْ يُحَدِّثْ ،
تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ] ودعاء الملائكة محقق الإجابة ، لأنهم أمريون
لا يفعلون شيئاً إلا بأمر الله تعالى ، فلما أمرهم سبحانه بالاستغفار لأحد يعني أنه

قلتُ : إطعام الطعام ، ولين الكلام ، والصلاة^١ والناس نيام^٢ ، ثم قال :
 سَلْ ، قلتُ: اللهم إني أسألك فعل الخيرات ، وترك المنكرات ، وحبَّ
 المساكين ، وأن تغفر لي وترحمني ، وإذا أردت فتنةً في قومٍ فتوقني غير
 مفتون ، وأسألك حُبَّك وحبَّ مَنْ يحبُّك ، وحبَّ عمل يقربني إلى حُبِّك .
 وقال ﷺ : إنها حقٌّ فادرسوها وتعلّموها [٣].

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
 وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

سبحانه يريد أن يغفر له ، وقد قال سبحانه في الملائكة عليهم السلام :
 { ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم } .١هـ
 انظر ما سبق في كتاب (الإيمان بالملائكة) للشيخ الإمام رضي الله عنه ، ص ١٠٩
 ١ وقال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه :
 [أَلَا أَدُلُّكَ عَلَىٰ أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ
 الْمَاءُ النَّارَ ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ] .
 جاء في تحفة الأحوذى ٤١٥/٦ :
 [وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ] مُبْتَدَأُ خَبْرُهُ مَحْدُوفٌ أَي كَذَلِكَ ، يَعْنِي: تُطْفِئُ
 الْخَطِيئَةَ ، أَوْ هِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ .
 قَالَ الْقَاضِي : وَقِيلَ : الْأَظْهَرُ أَنْ يُقَدَّرَ الْخَبْرُ وَهُوَ (شِعَارُ الصَّالِحِينَ) كَمَا فِي جَامِعِ
 الْأُصُولِ ، ذَكَرَهُ الْقَارِي .١هـ
 أي شعار الصالحين بالصلاح الخاص ، فمن أراد أن يكون من الصالحين فليلبس
 لباسهم الذي هو شعارهم ولا ينفك عنهم ، وهو قيام الليل .
 ٢ فاختصام الملاء الأعلى هو التقاؤل الذي يجري بينهم في شأن الكفارات والدرجات
 من الأعمال والأقوال على اختلاف أنواعها فيتباحثون في الدرجات واستحقاقاتها
 ومقتضياتها ، وأيها أحب إلى الله تعالى ، وأيها أعظم درجة وأكثر ثواباً ، وفي
 الكفارات ومقدار ما تكفر من الذنوب وتقي من العقوبات ، فيجري بينهم التقاؤل
 في ذلك ثم يُرفع الأمر إلى ربِّ العزّة أحكم الحاكمين وأرحم الراحمين فيحكم حكمه
 في ذلك ، ولا معقب لحكمه جلّ وعلا .
 ٣ ورواه الترمذي عن ابن عباس وقال : حسن صحيح ، وروى النسائي بعضه
 والحاكم وقال : على شرطهما .

المحاضرة الرابعة عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم . أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بَرْدِزْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب قول الله تعالى

[يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين]

وما يُنهي عن الكذب^١

ثم أورد بسنده إلى عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ الصَّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُصَدِّقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا ، وَإِنَّ الْكُذْبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا].

وأورد بسنده أيضاً إلى أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

[آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ حَانَ].
وأورد بسنده أيضاً إلى سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

[رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيَانِي قَالَا: الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يَكْذِبُ بِالْكَذْبَةِ تُحْمَلُ عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ ، فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ]. اهـ

^١ أي باب ما يُنهي فيه عن الكذب ، انظر صحيح البخاري كتاب الأدب

قوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين } : ابتداء نداءه سبحانه للمؤمنين بقوله جل جلاله : { يا أيها } وهذا التأنيب للتنبيه إلى أهمية ما سيخبرهم أو سيأمرهم به سبحانه .

ولما كانت أوامر الله تعالى لعباده كلها عظيمة وفيها مصالح العباد لذلك جاء الابتداء بها بقوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا } .

وفي هذه الآية أمر سبحانه وتعالى المؤمنين بالتقوى والكينونة مع الصادقين فقال عز وجل : { اتقوا الله وكونوا مع الصادقين } .

وتقوى الله تعالى هي توفّي عذابه وسخطه وعتابه وحجابه ، لأنها على مراتب ، ولا يحصل ذلك إلا بامتثال أوامر الله تعالى واجتناب ما نهى عنه .

وقوله تعالى : { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله } أي أنتم الذين آمنتم بالله تعالى فإن إيمانكم يطالبكم بتقوى الله تعالى حتى يصبح إيمانكم ويكمل ، وهذا يدل على أنه لا بد للإيمان الاعتقادي من عمل يصدّقه ، ولذلك قرن سبحانه العمل الصالح بالإيمان في كثير من الآيات فقال جل وعز : { إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات } .

ومن زعم لجهله أن الدين أمر يتعلق بالقلب فقط ولا حاجة للصلاة وما هنالك ، فيقال له : إن الدين الذي ارتضاه الله تعالى لنا وأمرنا أن ندين به قد بيّنه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نزل عليه القرآن والوحي والبيان ، فقد بيّن صلى الله عليه وسلم أن الدين يشتمل على الإيمان وهو الأمور الاعتقادية القلبية ، ويشتمل على الإسلام وهو الأمور العملية ، ويشتمل على الإحسان وهو مشاهدات القلب العامر بالإيمان للأنوار والأسرار الإلهية ، فقال صلى الله عليه وسلم : [فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم]^١ وهذا بعد أن سأل جبريل عليه السلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان والإسلام والإحسان في الحديث المشهور .

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

وبعد هذا البيان للدين عن صاحب البيان صلى الله عليه وسلم لا مجال لأحد أن يتحكم في تعريف الدين ، وأن يقيد مفهومه بالمعاملة أو حسن الخلق أو مداراة الناس ، فإن الدين يشمل اعتقاداً وأعمالاً وأقوالاً وآداباً وأخلاقاً ، كما بين ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء عنه .

قوله تعالى : { اتقوا الله وكونوا مع الصادقين } أي : لتثبت عليكم تقواكم لله تعالى ، وتزداد عليكم بصحبة الأتقياء الصادقين ، وذلك لشدة تأثير الصحبة على الصاحب ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم :
[لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيًّا]^١ .

وإن المجالسة تورث المجانسة ، وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم أثر ذلك لما ضرب مثلاً يبين فيه حقيقة ذلك ، فقد روى البخاري عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
[مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالسَّوِّءِ كَمَثَلِ الْمِسْكِ وَالنَّافِخِ الْكَبِيرِ ، فَحَامِلُ الْمِسْكِ] أي إن جلست معه [إِمَّا أَنْ يُحْذِيكَ] أي يدهنك بالمسك [وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً] أي فالنفع والفائدة حاصلة شئت أم أبيت ، بلا اختيار منك ولا منه ، فإن اختار أن يحذيك أصبت خيراً ، وإن اخترت أن تشتري منه حصلت خيراً ، وإن لم يحصل هذا ولا ذاك وجدت ريحاً طيبة أنعشتك ، فالنفع والخير حاصل في كل الحالات .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : [وَنَافِخُ الْكَبِيرِ] إن جلست إليه [إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ] لتطير شرر النار ، وإن تجنبت ذلك فلا بد لك أن تجد ريحاً خبيثة كما قال صلى الله عليه وسلم [وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً]^٢ .
فلا مناص إذاً من الضرر ، فاحذر أيها المؤمن صحبة ومجالسة الفساق والزنادقة والكفار لئلا تتأثر بهم ويسري إليك الضرر والفساد .

^١ سنن الترمذي كتاب الزهد

^٢ صحيح البخاري كتاب الذبائح والصيد

وهذا قوله تعالى: { يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين } أي اتقوا الله ، واصدقوا مع الله ، وكونوا مع الصادقين مع الله تعالى ، ومن صدق مع الله تعالى صدق مع الناس وحسن تعامله مع الناس ، ومن حسن تعامله مع الناس ليكسب ثناءهم ومدحهم دون أن يراقب ربه في معاملاته فهو مُراءٍ كذابٌ .

وقد بين صلى الله عليه وسلم أن الصدق يستلزم أموراً، وأن الكذب يستلزم أموراً ، وأن الإنسان إذا صدق في القول أداه إلى صدق العمل ، ويؤديه ذلك إلى عمل البر ، وعمل البر يوصله إلى الجنة .

وفي رواية للإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا . وَإِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ ، فَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا]^١.

وينبغي في صدق القول مراقبة الله تعالى بالقلب فيما يقوله ، لا إرضاء للناس .

والصدق في القول هو الكلام الموافق لواقع ما تتكلم عنه بشرط أن يكون قلبك موافقاً لهذا الواقع ، فمن قال: (لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) فهي كلمة الصدق وقول الصدق ، ويجب عليك أن تكون مصدقاً بها موقناً بها ، حتى يكون قولك موافقاً لما اعتقده قلبك.

^١ صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

وأما من قال : (لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) وهو منافق لا يعتقد بها ، فهو بذلك قد قال كلاماً موافقاً للواقع لكنه مخالف لما في قلبه ، وإنما قالها إرضاء للناس ، فالصادق من تكلم بكلام موافق للواقع مطابق لما في قلبه ، وأما إذا وافق الواقع وخالف ما في قلبه فهو كاذب ، ولهذا قال تعالى : { إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون } فوصفهم سبحانه بالكاذبين مع أنهم تكلموا بكلام موافق للواقع ، وهو أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم حقاً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا أنهم خالفوا ما في قلوبهم من الكفر ، ولم يوافق قولهم ما في ضمائرهم وقلوبهم ، لأنهم لم يعتقدوا أن سيدنا محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوافق كلامهم الواقع وخالف ما في قلوبهم فهم كاذبون .

فقد بين صلى الله عليه وسلم أن من التزم الصدق في أقواله حمله ذلك وجزه إلى عمل البر والتقوى والصلاح .

والبر هو الإيمان بشعبه كلها ، لقوله تعالى : { ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبیین وآتى المال على حبه ذوي القربى والیتامى والمساکین وابن السبیل والسائلین وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرین فی البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذین صدقوا وأولئك هم المتقون } .

قوله صلى الله عليه وسلم : [وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ] أي إن أعمال البر - وهي الأعمال الإيمانية - توصل صاحبها إلى الجنة .

قوله صلى الله عليه وسلم : [وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصَّدْقَ] . أي في كلامه وبيعه ووعوده وعهوده وعقوده [حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدْقًا] أي في ديوان الصديقين ، ومن سُجِّلَ في ديوان الصديقين لا يمحي منه ، وحسنت عاقبته ، وصار في ضمان الله تعالى .

قوله صلى الله عليه وسلم: [وَآيَاتُكُمْ وَالْكَذِبِ ، فَإِنَّ الْكُذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ] أي فمن كذب بلسانه واعتاد الكذب في كلامه فإن ذلك سيؤدي به إلى الفجور^١ ، أي إلى الفجور العملي ، فيفجر ويخرج عن أوامر الله تعالى ويقع في ما حرّم الله تعالى [وَانَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكُذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا] فيسجل في ديوان الكذابين فتسوء عاقبته ، نسأل الله العافية .

ومما جاء عنه صلى الله عليه وسلم في التحذير من الكذب ما ورد في مسند الإمام أحمد عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ] أي الصفات [كُلُّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ]^٢ أي فقد يقع المؤمن في بعض المخالفات الشرعية ثم يرجع ويتوب ، إلا أن طبع الخيانة والكذب ينافي أصل الإيمان ، ومن اتصف بهما فقد عرض إيمانه للزوال ، وذلك لشدة خطر الكذب والخيانة وفسادهما وضررهما على المؤمنين .

ومن الخيانة أن يرجع التاجر عن بيع بضاعته بعد أن عقد مع المشتري عقد البيع ، وذلك لأن ثمن البضاعة قد ارتفع قبل أن يسلمها للمشتري ولم يكن بينهما خيار ، فينكث ويرجع عن بيعه ويخون صاحبه ، وكان هذا الخائن ما درى أن عقد البيع ملزم للطرفين ، إلا إذا رضي أحدهما بالعدول عنه .

ومن الخيانة أن يزين البائع للمشتري بضاعة ويصفها بخلاف ما هي عليه حتى يورطه بها مستغلاً طيب نفسه وجهله بالأسعار ، والحال لو أنها عرضت عليه لما اشتراها ولو بربح ما باعها .

^١ والفاجر : من خالف أصله وجاوز حده ، والأصل في المؤمن التزام مقتضيات الإيمان من أوامر ومناهج ، فمن تعدى حدود الله تعالى ووقع في محارمه فقد خالف ما يتطلّب منه إيمانه ، وفجر بأن جاوز حده .

وقد بين صلى الله عليه وسلم أن عذاب الكذابين يبدأ بعد موتهم ، وقد رأى ذلك سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدث عنه في حديث طويل أشار إليه الإمام البخاري رضي الله عنه ، فرأى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العصاة من أهل البرزخ وهم يعدّون بسبب معاصيهم التي ارتكبوها في الدنيا ...

روى البخاري عن سمرّة بن جندب رضي الله عنه قال:

[كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا صَلَّى صَلَاةً أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ: مَنْ رَأَى مِنْكُمْ اللَّيْلَةَ رُؤْيَا؟

قال: فَإِنْ رَأَى أَحَدٌ قَصَّهَا فَيَقُولُ مَا شَاءَ اللَّهُ ، فَسَأَلْنَا يَوْمًا فَقَالَ : هَلْ رَأَى أَحَدٌ مِنْكُمْ رُؤْيَا ؟ قُلْنَا: لَا ، قَالَ: لِكَيْ رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ أَتَيْتَنِي فَأَخَذَا بِيَدِي فَأَخْرَجَانِي إِلَى الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ ، فَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ وَرَجُلٌ قَائِمٌ بِيَدِهِ كَلُوبٌ مِنْ حَدِيدٍ ، - قَالَ بَعْضُ أَصْحَابِنَا عَنْ مُوسَى -: إِنَّهُ يُدْخِلُ ذَلِكَ الْكَلُوبَ فِي شِدْقِهِ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ ، ثُمَّ يَفْعَلُ بِشِدْقِهِ الْآخِرِ مِثْلَ ذَلِكَ ، وَيَلْتَمِمْ شِدْقَهُ هَذَا فَيَعُودُ فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ ، قُلْتُ: مَا هَذَا ؟ قَالَا : انْطَلِقْ ، فَاَنْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى رَجُلٍ مُضْطَجِعٍ عَلَى قَفَاهُ ، وَرَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِهِ بِفَهْرٍ أَوْ صَخْرَةٍ فَيَشْدُخُ بِهِ رَأْسَهُ ، فَإِذَا ضَرَبَهُ تَدَاهَدَةَ الْحَجَرِ فَاَنْطَلَقَ إِلَيْهِ لِيَأْخُذَهُ فَلَا يَرْجِعُ إِلَى هَذَا حَتَّى يَلْتَمِمْ رَأْسَهُ وَعَادَ رَأْسَهُ كَمَا هُوَ ، فَعَادَ إِلَيْهِ فَضَرَبَهُ ، قُلْتُ: مَنْ هَذَا ؟ قَالَا : انْطَلِقْ ، فَاَنْطَلَقْنَا إِلَى ثَقَبٍ مِثْلِ التَّنُورِ أَعْلَاهُ ضَيْقٌ وَأَسْفَلُهُ وَاسِعٌ يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نَارًا ، فَإِذَا اقْتَرَبَ ارْتَفَعُوا حَتَّى كَادَ أَنْ يَخْرُجُوا فَإِذَا حَمَدَتْ رَجَعُوا فِيهَا ، وَفِيهَا رِجَالٌ وَنِسَاءٌ عُرَاةٌ ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا ؟ قَالَا : انْطَلِقْ ، فَاَنْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى نَهْرٍ مِنْ دَمٍ فِيهِ رَجُلٌ قَائِمٌ عَلَى وَسَطِ النَّهْرِ.

- قَالَ يَزِيدُ وَوَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ جَرِيرِ بْنِ حَازِمٍ - : وَعَلَى شَطِّ النَّهْرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ الَّذِي فِي النَّهْرِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ رَمَى الرَّجُلُ بِحَجَرٍ فِيهِ فَرَدَّهُ حَيْثُ كَانَ ، فَجَعَلَ كُلَّمَا جَاءَ لِيَخْرُجَ رَمَى فِيهِ بِحَجَرٍ فَيَرْجِعُ كَمَا كَانَ ، فَقُلْتُ: مَا هَذَا ؟ قَالَا : انْطَلِقْ ، فَاَنْطَلَقْنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى رَوْضَةٍ خَضْرَاءَ فِيهَا شَجَرَةٌ عَظِيمَةٌ وَفِي أَصْلِهَا شَيْخٌ وَصِيبَانٌ ، وَإِذَا رَجُلٌ قَرِيبٌ مِنَ الشَّجَرَةِ بَيْنَ يَدَيْهِ نَارٌ يُوقِدُهَا ، فَصَعِدَا بِي فِي الشَّجَرَةِ

وَأَدْخَلَانِي دَارًا لَمْ أَرِ قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهَا ، فِيهَا رِجَالٌ شُيُوحٌ وَشَبَابٌ وَنِسَاءٌ
وَصِيبِيَانٌ ، ثُمَّ أَخْرَجَانِي مِنْهَا فَصَعِدَا بِي الشَّجْرَةَ فَأَدْخَلَانِي دَارًا هِيَ أَحْسَنُ
وَأَفْضَلُ ، فِيهَا شُيُوحٌ وَشَبَابٌ ، قُلْتُ : طَوَّفْتُمَانِي اللَّيْلَةَ فَأَخْبِرَانِي عَمَّا رَأَيْتُ ،
قَالَا : نَعَمْ ، أَمَّا الَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بِالْكَذْبَةِ فَتُحْمَلُ
عَنْهُ حَتَّى تَبْلُغَ الْآفَاقَ فَيُصْنَعُ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ يُشَدِّحُ رَأْسَهُ
فَرَجُلٌ عَلَّمَهُ اللَّهُ الْقُرْآنَ فَتَامَ عَنْهُ بِاللَّيْلِ وَلَمْ يَعْمَلْ فِيهِ بِالنَّهَارِ ، يُفَعَلُ بِهِ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي الثَّقَبِ فَهُمْ الرُّنَاةُ ، وَالَّذِي رَأَيْتَهُ فِي النَّهْرِ
آكَلُوا الرَّبَا ، وَالشَّيْخُ فِي أَصْلِ الشَّجْرَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَالصِّبْيَانُ
حَوْلَهُ فَأَوْلَادُ النَّاسِ ، وَالَّذِي يُوقِدُ النَّارَ مَالِكُ خَازِنُ النَّارِ ، وَالدَّارُ الْأُولَى الَّتِي
دَخَلْتَ دَارَ عَامَّةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَمَّا هَذِهِ الدَّارُ فَدَارُ الشُّهَدَاءِ ، وَأَنَا جَبْرِيلُ ،
وَهَذَا مِيكَائِيلُ ، فَارْفَعْ رَأْسَكَ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فإِذَا فَوْقِي مِثْلُ السَّحَابِ ، قَالَا :
ذَاكَ مَنَزِلِكَ ، قُلْتُ : دَعَانِي أَدْخُلُ مَنْزِلِي ، قَالَا : إِنَّهُ بَقِيَ لَكَ عُمْرٌ لَمْ
تَسْتَكْمِلْهُ ، فَلَوْ اسْتَكْمَلْتَ أَتَيْتَ مَنْزِلَكَ]^١ .

وروى مسلم في صحيحه عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ تُبْتَلَى فِي قُبُورِهَا ، فَلَوْلَا أَنْ لَا
تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهُ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ ،
ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا بِوَجْهِهِ فَقَالَ : تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ

قَالُوا : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ النَّارِ

فَقَالَ : تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ

قَالُوا : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ

قَالَ : تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ

قَالُوا : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْفِتَنِ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ

قَالَ : تَعَوَّذُوا بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ

قَالُوا : نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَالِ]^٢ .

^١ صحيح البخاري كتاب الجنائز

^٢ صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

وإن رؤيته صلى الله عليه وسلم للمُغَيَّبَات وإخباره عنها يجب أن تكون عند الإنسان بمنزلة العيان ، بل أقوى وأثبت ، لأنه صلى الله عليه وسلم هو أعلم خلق الله بالله جل وعلا ، وأصدق خلق الله تعالى ، فرؤيته صلى الله عليه وسلم ليست كرؤية غيره ، لأن الله تعالى أمده وأعده لذلك ، ورؤيته صلى الله عليه وسلم لا تحتمل الخطأ والشك لأن الله تعالى الذي أرسله أراه وأسمعه وأطلعه على ذلك .

ولو أن أحداً من الناس كشف الله تعالى له عن عذاب المقبورين لدُعر وخاف وولى مدبراً لعدم تحمله واستعداده لذلك ، وهذا من رحمة الله تعالى بخلقه أن حجب عذاب المقبورين عنهم حتى يدفن الأحياء منهم الأموات ، ويتمكنوا من دخول المقابر ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : [فَلَوْلَا أَنْ لَا تَدَافِنُوا لَدَعَوْتُ اللَّهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ الَّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ ...] الحديث كما تقدم ، وقد يكشف الله تعالى لبعض أوليائه عن حال أهل البرزخ من باب الإكرام لهم ، ومن ذلك ما جاء عن الشيخ داود الطائي رضي الله عنه ونفعنا به ، عندما مر بقبر ، فسمع صوتاً في القبر : ألم أصل ، ألم أرك ، ألم أفعل كذا وكذا ؟ - أي : المأمورات -

^١ هو سيدي أبو سُليمان داود بن نصير الطائي - نسبة إلى قبيلة بني طيء - الإمام، الفقيه، القدوة، الزاهد ، وُلِدَ: بَعْدَ الْمِائَةِ بِسَنَوَاتٍ ، سمع الحديث الشريف ، واشتغل بالفقه مدة ، ثم اختار العبادة والزهد، فبلغ منهما الغاية.

من كلامه رضي الله عنه : (ما أخرج الله عبداً من ذل المعاصي إلى عز التقوى إلا أغناه بلا مال، وأعزه بلا عشيرة، وآنسه بلا بشر) .

وَقَالَ أَبُو الرَّبِيعِ الْوَاسِطِيُّ: قُلْتُ لِدَاوُدِ الطَّائِيِّ: أَوْصِنِي ، فَقَالَ: صَمَّ عَنِ الدُّنْيَا ، وَاجْعَلْ فَطْرَكَ الْمَوْتَ ، وَفِرْ مِنَ النَّاسِ كَفَرَارِكَ مِنَ السَّبْعِ .

وَلَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِ جِنَازَتِهِ، حَتَّى قِيلَ: بَاتَ النَّاسُ ثَلَاثَ لَيَالٍ مَخَافَةَ أَنْ يَفُوتَهُمْ شُهُودُهُ.

تُوِّفِيَ سَنَةَ اثْنَتَيْنِ وَسِتِّينَ وَمِائَةٍ ، وَقِيلَ: سَنَةَ خَمْسٍ وَسِتِّينَ لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ

(انظر الرسالة القشيرية ص ١٢ ، وطبقات الأولياء لابن الملقن سراج الدين ص

٢٠٣ ، وسير أعلام النبلاء ٧ / ٤٢٥) .

فأجيب : بلى يا عدو الله ، ولكن كنت في الدنيا إذا خلوت بارزت الله تعالى بالمعاصي ولم تراقبه ^١ . اهـ

وكما أنّ عدوى الأجسام في الأمراض ثابتة بإذن الله تعالى وإرادته ^٢ فإنّ عدوى الطّباع والأخلاق ثابتة أيضاً وأشدُّ تأثيراً ،

ولذلك تجدُ مثلاً مَنْ جالسَ قوماً شأنهم الخِفة والصَّحْكُ صارَ مثلهم ، وهو لا يشعُر ، ومَنْ جالسَ أهلَ الأدبِ والعِلْمِ والفضْلِ تأثّر بهم وسرى من حالهم إليه ، ولذلك أمر سبحانه بصُحبة ومُجالسة الصّادقين فقال :
{ اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصّادِقِينَ } أي كُونُوا مِثْلَهُمْ فِي الصّدْقِ ، وَكُونُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَنَالَكُمْ مِنْ خَيْرِهِمْ وَفَضْلِهِمْ الَّذِي يَتَفَضَّلُ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ عَلَيْهِمْ ،
فقد جاء في الحديث القدسي في مدح القوم الذين جلسوا يذكرون الله تعالى : [هُمْ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ] ^٣ .

فلَمَّا جالَسَهُم الرجلُ - الذي جاء لحاجةٍ - أكرمه الله تعالى بسببهم ، وعَفَّر له كما عَفَّر لهم .

ونسأل الله تعالى التّوفيقَ ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

^١ انظر تفسير النيسابوري ٢ / ٢٢٩ ومرواة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح

٣١٧٨/٨

^٢ أما قوله صلى الله عليه وسلم: [لَا عَدْوَى] - كما جاء في صحيح البخاري - أي : لَا عَدْوَى مِنْ ذَاتِهَا ، كَمَا كَانَ يَعْتَقِدُهُ الْمُشْرِكُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، بَلْ هِيَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَشِيئَتِهِ ، وَقَدْ أَمَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالِابْتِعَادِ وَالتَّوَقِّي مِنَ الْأَمْرَاضِ الْمُعْدِيَةِ مِنْ بَابِ الْأَخْذِ بِالْأَسْبَابِ - وَإِنْ كَانَ كُلُّ شَيْءٍ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَدَرَهُ - فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [وَفِرَّ مِنَ الْمَجْدُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ] .

^٣ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

المحتوى

١	المحاضرة الأولى
١١	المحاضرة الثانية
١٥	المحاضرة الثالثة
٣٤	المحاضرة الرابعة
٤١	المحاضرة الخامسة
٥٥	المحاضرة السادسة
٦٧	المحاضرة السابعة
٧٤	المحاضرة الثامنة
٨٧	المحاضرة التاسعة
٩٦	المحاضرة العاشرة
١٠٤	المحاضرة الحادية عشرة
١١٥	المحاضرة الثانية عشرة
١٢٤	المحاضرة الثالثة عشرة
١٣٢	المحاضرة الرابعة عشرة

كُتُبُ لِلْمُؤَلِّفِ

- * حول تفسير سورة الفاتحة - أم القرآن الكريم .
- * حول تفسير سورة الحجرات .
- * حول تفسير سورة (ق) .
- * حول تفسير سورة الملك .
- * حول تفسير سورة الإنسان .
- * حول تفسير سورة العلق .
- * حول تفسير سورة الكوثر .
- * حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
- * هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
- * هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكير في الأكوان .
- * تلاوة القرآن المجيد - فضائلها - آدابها - خصائصها .
- * شهادة لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ :
- * فضائلها - معانيها - شواهدا ومشاهدا - مطالبها .
- * سيدنا محمد رسول الله ﷺ : خصاله الحميدة - شمائله المجيدة .
- * الهدى النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.
- * التقرب إلى الله تعالى : فضله - طريقه - مراتبه .
- * الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدين - فضائلها - آثارها - آدابها .
- * الصلاة على النبي ﷺ : أحكامها - فضائلها - فوائدها .
- * صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.
- * الدعاء : فضائله - آدابه - ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .

- * الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
- * الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن .
- * حول ترجمة الإمام العلامة المرحوم محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى.
- * شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
- * الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار.
- * أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .
- * مناسك الحج ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .
- * الصيام : آدابه - مطالبه - فوائده - فضائله .

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام :

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام – المؤلفات المكتوبة

من آثار الشيخ الإمام

- * محاضرات حول الفضائل المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم .
- * محاضرات حول الإسراء والمعراج : آثاره - فضائله - أسرارته.
- * محاضرات حول الإيمان بالقضاء والقدر.
- * دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم .
- * محاضرات حول عالم الجنة : مراتب الجنة - ألوان النعيم في الجنة - صفات أهل الجنة .
- * محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم - الجزء الأول .
- * محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم في الوعظ والتذكير - الجزء الثاني .
- * محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم - موقف تعليم الكتاب - الجزء الثالث.
- * محاضرات حول مقامات أهل الإيمان - الجزء الرابع .
- * محاضرات حول هجرة سيدنا رسول الله ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.
- * محاضرات حول تفسير خواتيم سورتي البقرة وآل عمران والمعوذات وأذكار بعد الصلوات.
- * محاضرات حول مقتضيات الشهادة بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ .
- * مجالس الحديث النبوي الشريف - الجزء الأول .
- * مجالس الحديث النبوي الشريف - الجزء الثاني .

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام :

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام - المؤلفات المكتوبة

قَبَسَات من المؤلفات

- * حُكْمُ أَبَوَيْ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الشَّرِيفَيْنِ .
- * آثار الزكاة وأنوارها ، وعقاب مانع الزكاة .
- * أربعون حديثاً من جوامع كلم النبي ﷺ .
- * الأمر بالمحافظة على الصلاة ، والتحذير من تأخيرها والوعيد الشديد لمن تركها
- * البشائر الغرر للمكثرين من الصلاة على سيد البشر ﷺ .
- * التوسل والاستغاثة بسيدنا محمد ﷺ .
- * الكلام حول الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده .
- * بيان قصة الغرائق الباطلة .
- * رحمة سيدنا محمد ﷺ للعالم .
- * سبب وجود بعض الأحاديث التي فيها ضعف في مؤلفات الإمام .
- * شفاعة سيدنا محمد ﷺ العامة والخاصة .
- * صلاة الاستخارة ودعاؤها .
- * حول مولده الشريف ﷺ والابتهاج والاحتفال بيوم مولده الشريف ﷺ .
- * سبب ذكر بعض البشائر المنامية في كتاب الصلاة على النبي ﷺ .
- * صلاة التراويح وعدد ركعاتها .
- * عصمة سيدنا محمد ﷺ من الخطأ في جميع أحواله .
- * وصول الثواب إلى الأموات .
- * معاني الصلاة الإبراهيمية .
- * محبة الصحابة لسيدنا محمد ﷺ .

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام :

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام – قبسات من المؤلفات

مجالسُ الحديثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ الجزءُ الرابعُ

للإمام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

جمع وتقديم
ولده

المهندس الشيخ محمد محي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما



مجالسُ الحديثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

الجزء الرابع

للإمام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

جمع وتقديم

ولده

المهندس الشيخ محمد مُحيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

اعتنى بها وخرَّج أحاديثها

خادم العلم الشريف

الدكتور بكري بريمو السمان

في هذه المجالس

بيانات بعض أحاديث سيدنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم

التي ذكرها الإمام البخاري

رضي الله عنه

في (الجامع الصحيح)

وهي مجالس الشيخ الإمام

في جامع (الحموي)

يوم الأربعاء

بعد شروق الشمس بقليل

أيها القارئ الكريم

هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة
إلى العلامة الكبير والعارف الشهير
الإمام المفسر المُحدِّث الشيخ
عبد الله سراج الدين الحسيني
وإلى ولده العالم العامل
المهندس الشيخ
محمد مُحيي الدين سراج الدين
رضي الله عنهما، وجزاك الله خيراً.
الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام
www.srajalden.com

المحاضرة الأولى بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم.
أما بعد:

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بزْدِرْبَةَ الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب من لم يواجه الناس بالعتاب^١ .

ثم ذكر بسنده إلى السيدة عائشة رضي الله عنها قالت:

[صَنَّعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا فَرَحَّصَ فِيهِ ، فَتَنَزَّرَهُ عَنْهُ قَوْمٌ ، فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَطَبَ فَحَمِدَ اللَّهُ ثُمَّ قَالَ:

مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّرُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ !!

فَوَاللَّهِ إِنِّي لَأَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشِيَّةً] .

وذكر بسنده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

[كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَدْرَاءِ فِي خِدْرِهَا ، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]^٢ . اهـ

فلقد كان صلى الله عليه وسلم إذا رأى من أحد شيئاً يكرهه لا يقابله بالعتاب ، وإنما يعرض له فيقول : [ما بال أقوام يفعلون كذا ، ما بال أقوام يقولون كذا وكذا] وهكذا ، وفي هذا تنبيه لمن صدر منه ما يوجب العتاب، وتنبيه لغيره ألا يقع فيما وقع فيه غيره .

١ صحيح البخاري كتاب الأدب

٢ المصدر السابق

وقول عائشة رضي الله عنها : [صَنَّعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا فَرَحَّصَ فِيهِ] - أي : كان صلى الله عليه وسلم ينام النصف الأول من الليل ويقوم النصف الآخر وأحياناً يقوم الليل كله وأحياناً ثلثيه ، كما قال الله تعالى : { يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ * قُمْ لِلَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا * نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا * } أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلاً {.

كما أنه صلى الله عليه وسلم تزوج النساء وعاش زوجاته الطاهرات أمهات المؤمنين بأحسن معاشرة كما قال صلى الله عليه وسلم :

[خَيْرُكُمْ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي]^١.

وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يصوم أياماً متتاليات ، وأحياناً يصوم يوماً ويفطر يوماً - يعني من حيث النوافل - فبلغ ذلك جماعة من الصحابة كانوا على حداثة عهد في التعبد ، فتزوه بعضهم ، وقال بعضهم: أنا لا أنام الليل أبداً ، وقال الآخر : أنا أعتزل النساء ولا أتزوج ، وقال الآخر : أنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقد جاء في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : [جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَرْوَاحِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوبًا فَقَالُوا: وَإَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ ، قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أَصَلِّي اللَّيْلَ أَبَدًا ، وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ ، وَقَالَ آخَرُ : أَنَا أَعْتَرِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوِّجُ أَبَدًا ، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهِمْ فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ لِكَيْيَ أَصُومُ وَأُفْطِرُ وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوِّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي]^٢.

١ سنن الترمذي كتاب المناقب

٢ صحيح البخاري كتاب النكاح

ويدل هذا الحديث على أن الإنسان مهما أراد أن يرتقي في عبادة الله تعالى فليس له إلا اتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي جاء بأحسن هدي وأفضل طريق للسير في عبادة الله تعالى .

وأما من ابتدع طريقة في عبادة الله تعالى ولم يتبع ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزعم أن ذلك طريق موصل إلى الله تعالى فقد أخطأ وضلّ ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

[فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي] .

فلا رأي فوق رأيه صلى الله عليه وسلم ، ولا هدي فوق هديه صلى الله عليه وسلم ، بل إن الإنسان لا يكون على هدى إلا إذا اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه: { واتبعوه لعلكم تهتدون } .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : [أَمَّا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمُ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمُ لَهُ] أي وإن كان صلى الله عليه وسلم يصلي من الليل ويرقد ، ويصوم ويفطر ويتزوج النساء ، فإن عبادته صلى الله عليه وسلم وأعماله هي أعلى مراتب التقوى وأكملها ، وإن سيرته وسلوكه صلى الله عليه وسلم في عبادة الله تعالى هي سيرة أتقى العالمين لرب العالمين وأعلم العالمين بالله تعالى ، فلا أحد من الخلق يستطيع أن يجاري رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبادته مهما رقى وارتقى في مقامات العبادة والقرب لأن مقاماته صلى الله عليه وسلم خاصة انفرد بهما دون خلق الله كلهم.

إذ كيف يتصور لشمعة أضواءت وقت الظهيرة أن تتباهى وتتفاخر بنورها أمام نور الشمس الباهر؟!

وإذا كانت شمس السماء الفلكية التي قال الله تعالى فيها: {وجعلنا سراجاً وهاجاً} إذا كانت تنير المحسوسات وتتوقف عليها حياة أهل الأرض الجسمانية فإن شمس النبوة المحمدية صلى الله عليه وسلم تنير الأشباح والأرواح والعقول والأفكار ، ولذلك قال تعالى: {يا أيها النبيّ إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً* وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً} .

وإذا كان الإنسان يستغني أحياناً عن الشمس الفلكية ، وقد يتضرر من حرها ووهجها إلا أنه لا غنى له عن شمس النبوة المحمدية ولا للحظة ، كما أنه لا يتأتى منها إلا النور ولا غنى للإنسان عن النور في جميع أحيانه .

قال سبحانه: {قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين} ومن شأن النور أن يكشف لك عن حقائق الأمور ، ويظهر لك وقائعها ، وإن نور البصر الذي أودعه الله تعالى في عين الإنسان يريه المحسوسات ، وقد يلتبس عليه بعضها ، فلا بد له من نور آخر ليصحح أخطاء البصر وهو نور العقل ، فبنور العقل يعرف الإنسان أن دولاب المروحة يدور بسرعة ، وإن كان بصره يراه ساكناً ، وبنور العقل يعرف الإنسان أن الطائرة التي تطير في السماء في أعالي الجو كبيرة الحجم ، وإن كان البصر يراها قدر الشبر مثلاً، وهكذا يأتي نور العقل ويصحح أخطاء البصر.

وكذلك فإن العقل يقصر ويعجز عن إدراك المغيبات ، وفهم أسرار الشريعة وقضايا الإيمان ، فيأتي نور الإيمان الذي جاء به خير الأنام صلى الله عليه وسلم وينور العقل ويهديه إلى أمور قصر عن إدراكها وفهمها .

ومن هنا تعلم أن قضايا الإيمان وجميع ما أخبر عنه القرآن وجاء عن سيد الأنام صلى الله عليه وسلم كلها قضايا معقولة مقبولة عند أهل العقول الكاملة المتحررة من رق الأهواء والآراء ، وهذا ما بينه سبحانه في كثير من الآيات بقوله جل وعلا : {لعلكم تعقلون} { إن كنتم تعقلون} { لعلكم تذكرون} { لآيات لأولي الألباب}، فخاطب سبحانه أهل العقول أن يتعقلوا فيما أنزله عليهم وما جاءهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيان للقرآن الكريم وأحكام الشريعة، خاطبهم أن يتعقلوا فيها ليفهموا الحكم فيها، ومن زعم أن بعض إخبارات القرآن تتناقض مع العقل فقد كذب خبر القرآن وافترى الكذب على الله تعالى ، لأن الله تعالى يقول: {لعلكم تعقلون} أي : من أجل أن تتعقلوا و تتدبروا خبر القرآن الكريم ، لأن إخبارات القرآن معقولة مقبولة عند من تعقل وأنصف .

ولذلك يجب على كل إنسان أن لا يُعمل فكره ورأيه ليعارض ما جاء به القرآن ، بل عليه أن يتعقل ويتدبر في خبر القرآن ، ويجعل عقله ورأيه تابعاً لما جاء عن الله ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال صلى الله عليه وسلم:

[لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به]

وفي رواية: [ثم لا يزيغ عنه]^١ والزيغ هو الميل .
وإذا كانت حياة أجسام أهل الأرض متوقفة على شمس السماء الفلكية فإن حياة أرواحهم متوقفة على شمس النبوة المحمدية صلى الله عليه وسلم ، فهو صلى الله عليه وسلم الذي جاء بالروح القرآني من عند الله تعالى ، لينشرها في العالمين وتحيا بها أرواحهم حياة الأبد ، قال الله تعالى: { وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا } ، وقال جل وعز: { يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم } أي : لما يحييكم به ، فمن أراد الحياة الحقيقية الطيبة السعيدة في الدنيا والآخرة فلا يجدها إلا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك باستجابة دعوته والعمل بما جاء به صلى الله عليه وسلم ، ومن أراد أن يستنير عقله وفكره وروحه وقلبه بل وجسمه ووجهه ، فلا يجد ذلك النور إلا عند سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله تعالى للعالمين سراجاً منيراً ، فعلى الإنسان أن يهتدي بهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يعمل بإرشاداته ليحيا سعيداً في الدنيا والآخرة.

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين.

^١ قال ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم: خرّج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب الأربعين ، وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وجياد الآثار مما أجمع الناقلون على عدالة ناقله ، وخرّجته الأئمة في مسانيدهم ، وخرّجه عن الطبراني بزيادة : [لا يزيغ عنه] ، ورواه الحافظ أبو بكر بن عاصم الأصبهاني وليس عنده : [لا يزيغ عنه] .

المحاضرة الثانية : بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة و أكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .
أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب علامة الحب في الله تعالى ، وقوله تعالى : { قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله } .

ثم أورد بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: [الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ] .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
[جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ] .

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :
[قِيلَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ ، قَالَ: الْمَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ] .

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:
[مَتَى السَّاعَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: مَا أَعَدَدْتُ لَهَا؟ قَالَ: مَا أَعَدَدْتُ لَهَا مِنْ كَثِيرِ صَلَاةٍ وَلَا صَوْمٍ وَلَا صَدَقَةٍ ، وَلَكِنِّي أَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، قَالَ: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ]^١ .

لقد أورد الإمام البخاري رضي الله عنه في هذا الباب الأحاديث المتقدمة ، وإما أن يكون أراد من ترجمته لهذه الأحاديث علامة المحبة لله تعالى أو أنه أراد المحبة في الله - أي : محبتك المؤمنين في الله تعالى - أو ما يجمع الأمرين معاً .

وإن العلامة الجامعة لصدق محبة المؤمن لله تعالى هي ما أشارت إليه الآية: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} فهذه الآية تبين العلامة الصادقة لمحبة الله تعالى، وللمحبة في الله تعالى ، وهذه العلامة هي اتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد افتتحت الآية بقوله تعالى: {قل} ، ومثل هذا يكون في معرض الجواب عن سؤال سئل عنه صلى الله عليه وسلم أو أنه رد وبيان من الله تعالى لمن ادعى شيئاً.

وقد زعم قوم من كفار قريش أنهم يحبون الله تعالى وراحوا يعبدونه دون أن يتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل قوله تعالى : {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله}.

وقد قال الحسن البصري رضي الله عنه : قال قوم على عهد النبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد، إنا نحب ربنا ! فأنزل الله عز وجل: {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم}، فجعل اتباع نبيه محمد صلى الله عليه وسلم علماً لحيته، وعذاب من خالفه^١.

وقال بعض العلماء : سبب نزول الآية أن اليهود والنصارى زعموا أنهم أحباب الله تعالى كما أخبر سبحانه عنهم: {وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه} أي : نحن أبناؤه في المحبة ، كما أن الولد يحب أباه وهو محبوب عند أبيه ، وما أرادوا أنهم أبناء الله نسباً، فنزل قوله تعالى رداً عليهم : {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} وبين أن دليل المحبة هو اتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم^٢.

^١ انظر تفسير الطبري للآية الكريمة

^٢ انظر تفسير البيضاوي ١ / ٣٣٧

والحق أن هذه الآية جاءت رداً على كل من زعم وادعى محبة الله تعالى من مشركي العرب وغيرهم من أهل الكتاب دون أن يتبع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فدليل صدق الله تعالى هو اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن تحقق بذلك نال محبة الله تعالى كما قال جل وعلا : { يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم } فمن دخل في مقام المحبة لله تعالى والمحبوبة نال مغفرة الله تعالى، لأن المحب ذنبه مغفور وعمله مشكور وسعيه مبرور.

ومن ادعى محبة الله تعالى ولم يجد في نفسه متابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيقال له: أنت لست من المحبين، بل أنت ممن يشتهي الحب، وهناك فرق كبير بينهما ، و إليك مثلاً يوضح لك الأمر - من باب ضرب المثل ولله المثل الأعلى - : رجل يحب الأكلة الفلانية فإذا كان حبه لها حقيقياً صادقاً فتراه لا يهدأ له بال ولا تسكن له نفس حتى يسعى في تحصيلها حتى يأكلها ، وأما المشتهي للأكلة الفلانية فيقول : يا ليت لي من يقدم لي الأكلة الفلانية، وتراه يتمنى ويشتهي وهو قاعد لا يتحرك في تحصيلها ، فالمحب الصادق يسعى للوصول إلى محبوبه ، ولا يكون التقرب إلى المحبوب الأعظم إلا باتباع أحب محبوب إلى الله تعالى ومن ادعى أنه يحبك وأنت عليه كريم وغالي ، وأنت وأنتك .. لكنه لا يسعى في رؤيتك ولقائك أو الاجتماع بك ، فهو إما كاذب في دعواه أو أنه يشتهي محبتك ولكن لم يحصل عليها بعد.

وإن زعم أن أمور دنياه وتجارته وأمواله تشغله عن رؤيتك والاجتماع بك فقل له : إذا أنت تحب أموالك أكثر مني ، وكذا من ادعى أنه يحب الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكن أمور الدنيا وأموالها وتجارته تشغله عن ذكر الله وعن الصلاة وعن أداء حق الله تعالى في أمواله فهو كاذب في محبته لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، لأن أمواله أحب إليه من الله ورسوله والدار الآخرة ، ولذلك شغلته عن القيام بحق الله عليه واتباع ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد توعد الله من هذا شأنه بقوله عز من قائل:

{قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين} أي: فمن كان هذا وضعه فهو فاسق ولينتظر أمر الله به بالعذاب.

وكيف لا يحب الإنسان ربه وهو سبحانه قد خلقه ورباه وأعطاه وأنعم عليه وهداه لما فيه سعادة دنياه وآخرته ، ثم يثيبه ويكرمه ويدخله دار ضيافته؟!

ولهذا قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي :

[أحبوا الله لما يغذوكم من نِعْمه] - أي : لما يمدكم به من نعم لا تحصى-
[وأحبوني بحب الله] - لأن الله يحبني- [وأحبوا أهل بيتي بحبي] ١ .

وقد نال صلى الله عليه وسلم مقام حبيب الله الأعظم مع أن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هم أحباب الله تعالى ، إلا أن مقامه صلى الله عليه وسلم في محبة الله تعالى ومحبة الله له مقام فردي لم يشاركه فيه أحد من الأنبياء والرسل ، ولذلك قال ﷺ : [أنا وأنا حبيب الله ولا فخر] ٢ .

ولذلك لا يتقدم إلى مقام الشفاعة العظمى في وقت اشتد فيه غضب الله تعالى ، لا يتقدم للشفاعة ويكشف التجلي بالغضب على أهل الموقف ، إلا حبيب الله الأعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، في حين اعتذر جميع الأنبياء عن التقدم للشفاعة لما طلب أهل الموقف منهم ذلك ، وتقدم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلاً: [أنا لها أنا لها] ٣ .

١ سنن الترمذي كتاب المناقب والمعجم الكبير للطبراني ومستدرک الحاكم
٢ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب المناقب وسنن الدارمي في المقدمة

٣ قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ١٨ / ٤١٠ :
وَوَقَعَ فِي رِوَايَةِ مَعْبُدِ بْنِ هِلَالٍ: [فَيَأْتُونِي فَأَقُولُ: أَنَا لَهَا أَنَا لَهَا]

ومن روايات الحديث المتقدم : قول الرجل لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

[يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَقُولُ فِي رَجُلٍ أَحَبَّ قَوْمًا وَلَمْ يَلْحَقْ بِهِمْ؟]^١

[الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ]^٢

[يَا رَسُولَ اللَّهِ الْمَرْءُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَعْمَلْ بِعَمَلِهِمْ]^٣

فقال صلى الله عليه وسلم : [المرء مع من أحب] .

وقد ذكر البخاري رضي الله عنه هذا الحديث وترجم له : (علامة حب الله عز وجل) وذلك ليبين أن المرء المحب لا يلزم لصدق محبته أن يكون متبعاً اتباعاً كلياً لما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن صدر عنه ذنب أو تقصير لعذر فلا ينفي عنه أصل المحبة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم ، ولكنه لم يتحقق بكمال المحبة ، والمحبة على مراتب، وأي الناس يستطيع أن يعمل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم في العبادات و الطاعات؟!

وفي الحديث الذي رواه البزار وغيره عَنْ عُمَرَ رضي الله عنه أَنَّ رَجُلًا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قَدْ جَلَدَهُ فِي الشَّرَابِ ، فَأُتِيَ بِهِ يَوْمًا فَجَلَدَهُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: اللَّهُمَّ الْعَنَّهُ مَا أَكْثَرَ مَا يُؤْتَى بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: " لَا تَلْعَنُهُ فَإِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ " .^٤

فأثبت له صلى الله عليه وسلم محبة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم مع تكرار صدور الذنب منه ، فهو يتوب في كل مرة لكن نفسه تغلبه فيقع في المعصية مرة أخرى فيتوب ويستغفر في كل مرة ويرجع إلى ربه راجياً مغفرته .

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأدب

^٢ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأدب

^٣ انظر سنن الدارقطني والمعجم الكبير للطبراني

^٤ رواه البزار في مسنده بهذا اللفظ وانظره في مصنف عبد الرزاق وتاريخ

دمشق لابن عساكر

فالمحبة تستلزم من المحب أن يعمل ما يستطيع من العمل متابِعاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولهذا نظر الصحابة رضي الله عنهم في أعمالهم فأروها دون أعمال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنهم لا يستطيعون أن يعملوا عمله مهما بذلوا جهدهم ، لكنهم يحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم فخافوا أن يكونوا كاذبين في محبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم فجرى منهم هذا السؤال^١ في الحديث المتقدم : [الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَمَّا يَلْحَقْ بِهِمْ] أي: في العمل فقال صلى الله عليه وسلم: [المرء مع من أحب] فبشَّروهم صلى الله عليه وسلم بالمعية له صلى الله عليه وسلم، وأن محبتهم صادقة وإن تقاصرت أعمالهم عن عمل المحبوب صلى الله عليه وسلم .

وأما من تكاسل عن العمل في اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ميلاً ليهوى نفسه وشهواتها، ويدعي أنه محب لله تعالى ولرسوله ﷺ ، فهذا المتكاسل كاذب في دعواه ، لأن المحب يسعى جاهداً في اتباع محبوبه ، وتشفع له محبته في تقصيره و يلحقه الله بمحبوبه فضلاً منه وكرماً. ويرحم الله القائل :

تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا لعمرى في القياس بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وفي رواية عن أبي ذر رضي الله عنه قال :

[قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ الرَّجُلُ يُحِبُّ الْقَوْمَ وَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَعْمَلَ كَعَمَلِهِمْ؟

- أي فكيف هو منهم ؟ -

قَالَ ﷺ: أَنْتَ يَا أَبَا ذَرٍّ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ ، قُلْتُ: فَإِنِّي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، قَالَ

ﷺ: فَأَنْتَ يَا أَبَا ذَرٍّ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ]^٢.

١ وقد جاء نحو هذا الحديث عن عدد من الصحابة رضي الله عنهم : منهم أنس وأبو ذر وأبو موسى الأشعري والأعرابي الذي جاء على ناقته وغيرهم.

٢ المسند ٢٠٤٩٠

وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم للسائل :
[فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكَ مَا احْتَسَبْتَ] أي : ولك أجر ما احتسبته في
محبتك الصادقة .

ويدل هذا الحديث على أن المحبة عمل كبير من أعمال القلوب له شأنه
واعتباره عند الله تعالى .

والاحتساب أن يحسب المؤمن العمل الذي يعمله عبادة يبتغي الأجر فيه
من الله تعالى ، لا أنه يعمل العمل ويحسبه عادة .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : [مَنْ صَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا] أي :
إيماناً بالله تعالى محتسباً أجر صيامه عند الله تعالى ، لا أن صومه كالعادة
[غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ] ٢

وهكذا قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري :

[مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ] ٣ .

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد ومسلم :

[إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً] ٤

أي : احتسب في إطعامه لأهله و عياله الأجر عند الله تعالى ولم يطعم أهله
وعياله معتبراً ذلك من عاداته وإلا فلا ثواب ولا أجر له .

١ طرف حديث في المسند ١٢٨٨٣ ونص الحديث : عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ :
[كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهِ فَسَأَلَهُ رَجُلٌ : مَتَى السَّاعَةُ يَا
رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : أَمَا إِنَّهَا قَائِمَةٌ فَمَا أَعَدَدْتُ لَهَا ؟ قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَعَدَدْتُ مِنْ
كَثِيرِ عَمَلٍ إِلَّا أَنِّي أَحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، قَالَ ﷺ : فَإِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكَ
مَا احْتَسَبْتَ] .

٢ انظر صحيح البخاري كتاب الإيمان وصحيح مسلم كتاب صلاة
المسافرين وقصرها

٣ انظر صحيح البخاري كتاب الصوم

٤ رغم أنها نفقة واجبة عليه ، والحديث في المسند ١٦٤٦٣ وصحيح مسلم
كتاب الزكاة

فبالنية والاحتساب تنقلب عادات المؤمن إلى عبادات إن هو نوى من عمله
الديني ما يرضي الله سبحانه واحتسب الأجر عند الله تعالى ، وبفقدان
النية والاحتساب قد تنقلب عبادات الإنسان إلى عادات فليحذر ذلك
وليراقب الله تعالى في جميع أعماله .

وإن من أهم وأعظم أعمال القلوب محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم وتعظيمه بالقلب أولاً، ويأتي اللسان معبراً عما في القلب من حب
وتعظيم لجنابه العظيم صلى الله عليه وسلم ، وقد قال سبحانه: {ومن
يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب } ليبين أن التعظيم يكون بالقلب
أولاً، وتعبّر عنه الجوارح واللسان .

وإن أعظم شعائر الله ومعالم دينه بل إن مجمع شعائر الله الدالة على
الله هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم رسول الله، ولذلك كانت
محبه صلى الله عليه وسلم وتعظيمه و الأدب معه أموراً واجبة على كل
مؤمن حتى يصح ويكمل إيمانه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث
الذي رواه الإمام البخاري : [لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده
وولده والناس أجمعين]^١ .

وفي مسند الإمام أحمد: [والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون
أحب إليه من نفسه]^٢ .

وإن قضايا الإيمان قضايا معقولة مقبولة لدى أصحاب العقول السليمة
المتجردة عن الأهواء وهم أولو الأبواب الذين دخلوا الباب ووصلوا إلى
اللباب بحيث راحوا يتفهمون أسرار وحكم أحكام الله تعالى ومخلوقاته ،
ولما كانت محبة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هي أعظم قضايا
الإيمان فلا يدرك سر ذلك إلا من تعقل وتدبر.

١ صحيح البخاري كتاب الإيمان

٢ المسند ١٨١٩٣

فإن الإنسان يحب والده لأنه يحب الخير له فوق كل محبوب ، وبه فخره واعتزازه ! وكذا يحب أمه لأن فيها الرحمة والحنان عليه وتحب له الخير، وكذا ولده وأهله ، بل إن الإنسان يحب نفسه لأنها تريد الخير له ، فإذا وُجد من يحب الخير لك أكثر مما تحب لنفسك ، وأكثر مما يحبه لك والدك وولدك والناس أجمعين ، بل هو حريص عليك وعلى نفعك وهدايتك وسعادتك وأولى بك من نفسك ، وهذا هو سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي قال الله فيه : {النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم} أي : أحق بأنفسهم من أنفسهم وأرحم بهم من أنفسهم وأعطف وأحن ، ألا يجب عندئذ على كل مؤمن عاقل أن يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر من محبته لنفسه؟!!

نعم هذا أمر إيماني معقول مقبول لا يجحد به إلا معاند معارض ، فافهم. وقد يرضى الإنسان لنفسه أن يذهب عقله بشرب الخمر مثلاً ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى له ذلك ، وقد يقدم على نحر نفسه ، لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يرضى له ذلك ، لأنه أرحم به من نفسه ، وفي هذا يقول سبحانه : { لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم }.

وروى الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[مَا مِنْ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَأَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، اقْرَأُوا إِنْ شِئْتُمْ : { النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ } فَأَيُّمَا مُؤْمِنٍ تَرَكَ مَالًا فَلْيَرِّثْهُ عَصَبَتُهُ مَنْ كَانُوا ، فَإِنْ تَرَكَ دِينًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ ^١ . صلى الله عليه وسلم . وإن المؤمنين في محبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم على مراتب ، وأعظمهم محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو أشدهم قرباً منه وولاء له ونيلاً لشفاعته صلى الله عليه وسلم .

ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : [المرء مع من أحب] والمحبة على مراتب فالمعية على مراتب .

١ صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

ولما ذاق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حلاوة ونعيم ولذة مرافقته صلى الله عليه وسلم في الدنيا راحوا يطلبونها أن تدوم لهم في الآخرة أيضاً فجاء بيان الله تعالى لهم : { ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً * ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً } .

أي عليماً بمن يليق لهذا الفضل العظيم . ونسأل الله ذلك من فضله العظيم بجاه ذي الخلق العظيم صلى الله عليه وسلم .

ومن جهة أخرى : إذا كانت المحبة يرجع سببها إلى أمر دنيوي وهو الجمال والنوال ، والجمال محبوب لذاته لا يُعلل ، وجمال كل شيء على حسبه ، فقد اجتمعت مراتب الجمال و الكمال في سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بل عنه تؤخذ ومنه تفيض ، وكذا النوال والإحسان والعطاء ، ولا أعظم من إحسان من جاء ينقذك من شقاء الأبد إلى سعادة الأبد صلى الله عليه وسلم .

ألا يجب عندئذ أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم محبوب عند كل إنسان عاقل ؟!

وقد قال صلى الله عليه وسلم : [إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ أُمَّتِي كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا فَجَعَلَتِ الدُّبَابُ وَالْفَرَاشُ يَقَعْنَ فِيهَا ، وَأَنَا آخِذٌ بِحُجْرَتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَقَحَّمُونَ فِيهَا]^١ .

فما أعظم رأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم ؟!

اللهم صل على سيدنا محمد بقدر حبك فيه ، وفرِّج عنا ما نحن فيه .

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

١ سنن الترمذي كتاب الأمثال واللفظ له ، وهو في صحيح البخاري كتاب الرقاق وصحيح مسلم كتاب الفضائل بلفظ قريب

المحاضرة الثالثة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد:

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب التكبير والتسبيح عند المنام^١

ثم أورد بسنده إلى علي رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها شكّت ما تلقى في يدها من الرّحى فأتت النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تسألُهُ خادِمًا فلم تجده، فذكرت ذلك لعائشة، فلما جاء أخبرته، قال: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبت أقومُ فقال: مكانك، فجلس بيّتنا حتى وجدت برد قدميه على صدري، فقال: ألا أدلكما على ما هو خيرٌ لكم من خادمٍ؟ إذا أويئتما إلى فراشكما أو أخذتما مضاجعكما فكبرا ثلاثا وثلاثين، وسبحا ثلاثا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثين، فهذا خيرٌ لكم من خادمٍ .

وفي رواية له^٢ عن علي رضي الله عنه أيضا أن فاطمة رضي الله عنها اشتكت ما تلقى من الرّحى مما تطحن فبلغها أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أتى بسبي، فأنته تسألُهُ خادِمًا فلم توافقهُ، فذكرت لعائشة فجاء النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكرت ذلك عائشة له فأتانا وقد دخلنا مضاجعنا، فذهبتا لنقوم فقال: على مكانكما، حتى وجدت برد قدميه على صدري فقال: ألا أدلكما على خيرٍ مما سألتماه؟

إذا أخذتما مضاجعكما فكبرا الله أربعًا وثلاثين، واحمدا ثلاثا وثلاثين، وسبحا ثلاثا وثلاثين، فإن ذلك خيرٌ لكم مما سألتماه .

١ أي عند النوم، وهذا الباب في صحيح البخاري في كتاب الدعوات

٢ في صحيح البخاري في كتاب فرض الخمس

وفي رواية له^١ أيضاً عن علي رضي الله عنه أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي صلى الله عليه وسلم تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحي ، وبلغها أنه جاءه رقيق ، فلم نصادفه فذكرت ذلك لعائشة ، فلما جاء أخبرته عائشة ، قال : فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا فذهبنا نقوم فقال : على مكانكما ، فجاء فقعد بيني وبينها حتى وجدت برد قدميه على بطني ، فقال :

[ألا أدلكما على خير مما سألتكما؟]

إذا أخذتما مضاجعكما أو أويتما إلى فراشكما فسبحا ثلاثا وثلاثين ، وأحمدا ثلاثا وثلاثين ، وكبيرا أربعاً وثلاثين ، فهو خير لكم من خادم]. وفي رواية للإمام أحمد^٢ عن علي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما زوجه فاطمة رضي الله عنها ، بعث معه بخميلة ووسادة من آدم ، حشوها ليف ، ورحين وسقاء وجرتين .

فقال علي لفاطمة رضي الله عنهما ذات يوم : والله لقد سنوت حتى لقد اشتكيت صدري ؛ قال : وقد جاء الله أباك بسبي ، فأذهبي فاستخدميه .

فقالت : وأنا والله ، قد طحنت حتى مجلت يداي .

فأت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما جاء بك أي بُنيّة ؟

قالت : جئت لأسلم عليك ، واستحيت أن تسأله ورجعت .

فقال : ما فعلت ؟

قالت : استحيت أن أسأله ، فأثيناها جميعاً ، فقال علي رضي الله عنه : يا رسول الله ، والله لقد سنوت حتى اشتكيت صدري ؛ وقالت فاطمة رضي الله عنها : قد طحنت حتى مجلت يداي ، وقد جاءك الله بسبي وسعة ، فأخدمنا .

١ في كتاب النفقات

٢ كما في المسند ٧٩٧

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكُمْمَا وَأَدْعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى بُطُونُهُمْ، لَا أَجِدُ مَا أَنْفِقُ عَلَيْهِمْ، وَلَكِنِّي أْبِيعُهُمْ وَأَنْفِقُ عَلَيْهِمْ أَثْمَانَهُمْ].

فَرَجَعَا، فَاتَاهُمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ دَخَلَ فِي قَطِيفَتَيْهِمَا ، إِذَا غَطَّتْ رُؤُوسَهُمَا تَكْشَفَتْ أَقْدَامُهُمَا، وَإِذَا غَطَّتَا أَقْدَامَهُمَا تَكْشَفَتْ رُؤُوسُهُمَا، فَتَارَا، فَقَالَ: [مَكَانَكُمَا].

ثُمَّ قَالَ: [أَلَا أُخْبِرُكُمْمَا بِخَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَانِي ؟].

قَالَا : بَلَى .

فَقَالَ : [كَلِمَاتٌ عَلَّمْنِيهِنَّ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام ، فَقَالَ: تُسَبِّحَانِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا ، وَتَحْمَدَانِ عَشْرًا ، وَتُكَبِّرَانِ عَشْرًا ، وَإِذَا أُوْتِيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا فَسَبِّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ].

قَالَ : فَوَاللَّهِ مَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ عَلَّمْنِيهِنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ]. اهـ

لَقَدْ ذَكَرَ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هَذَا الْحَدِيثَ فِي كِتَابِ الدَّعَوَاتِ مُسْتَدِلًّا بِهِ عَلَى أَنَّ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ وَالتَّكْبِيرَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَذْكَارِ الْمَطْلُوبَةِ مِنَ الْمُؤْمِنِ عِنْدَمَا يُرِيدُ النَّوْمَ.

وَتُعْتَبَرُ هَذِهِ الْأَذْكَارُ وَالْأَدْعِيَةُ مِنَ الْآدَابِ النَّبَوِيَّةِ الَّتِي أَرشَدَ إِلَيْهَا سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛ فَهَدَى الْإِنْسَانَ إِلَى آدَابٍ فِي نَوْمِهِ ، وَآدَابٍ عِنْدَ أَكْلِهِ وَشُرْبِهِ ، وَآدَابٍ فِي جَمِيعِ أُمُورِ مَعَاشِهِ وَحَرَكَاتِهِ وَتَقَلُّبَاتِهِ ؛ كُلُّ ذَلِكَ حَتَّى يَتَحَقَّقَ الْإِنْسَانُ بِالْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ الَّذِي أَرَادَهُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ ، وَيَرْتَقِيَ بِنَفْسِهِ عَنِ مُسْتَوَى الْبَهِيمِيَّةِ وَالْحَيَوَانِيَّةِ .

وَلَمَّا يُرِيدُ الْإِنْسَانُ النَّوْمَ فَهُوَ سَيَدْخُلُ فِي عَالَمٍ آخَرَ لَهُ شَأْنُهُ وَاعْتِبَارُهُ فِي شَرَعِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِدَّ وَيَتَهَيَّأَ لِدُخُولِ هَذَا الْعَالَمِ ، وَذَلِكَ بِاتِّبَاعِ مَا جَاءَ عَنِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ آدَابِ النَّوْمِ ، وَمِنْهَا: النَّوْمُ عَلَى ظَهَارَةٍ مِنَ الْحَدَثِ الْأَكْبَرِ وَالْأَصْغَرِ ، وَقِرَاءَةُ الْمُعَوِّذَاتِ وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ وَالْأَذْكَارِ الَّتِي جَاءَ بَيَانُهَا فِي أَحَادِيثِهِ وَإِرْشَادَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْإِنْسَانَ لَمَّا يَنَامُ يَتَوَقَّى اللَّهُ تَعَالَى رُوحَهُ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ هُوَ عَالَمُ بَرَزُخٍ أَيْ وَسْطِ مَا بَيْنَ عَالَمِ الدُّنْيَا وَعَالَمِ الْبَرَزُخِ الَّذِي هُوَ مَا بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَفِي هَذَا يَقُولُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ } - أَي مَا عَمِلْتُمْ .

ويقول سُبْحَانَهُ: { اللَّهُ يَتَوَقَّى الْأَنْفُسَ } - أَي الْأَرْوَاحَ - { حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا } - أَي يَتَوَقَّى أَيْضاً رُوحَ الْإِنْسَانِ الَّذِي لَمْ يَمُتْ ، لَكِنْ بِتَوَفِيَةٍ خَاصَّةٍ ، وَهِيَ نَوْعٌ مِنَ التَّوَفِيَةِ بِحَيْثُ يَبْقَى لِلرُّوحِ أَثَرٌ عَلَى الْجِسْمِ فِي حَيَاتِيَّتِهِ ، إِلَّا أَنْ مَدَارِكَهُ وَحَوَاسَّهُ الْخَارِجِيَّةَ تَتَوَقَّفُ عَنِ الْإِحْسَاسِ إِلَى حَدِّ مَا { فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ } أَي يُمْسِكُ سُبْحَانَهُ رُوحَ هَذَا الْإِنْسَانِ الَّذِي قَضَى عَلَيْهِ الْمَوْتَ ، وَلَا يُرْسِلُهَا إِلَى هَذَا الْإِنْسَانِ لِيَحْيَا بِهَا جِسْمَهُ ، وَهَذَا هُوَ الْمَوْتُ وَهُوَ فَصْلُ الرُّوحِ عَنِ الْجَسَدِ كُلِّيًّا ، وَتَوَجُّهُ الرُّوحِ إِلَى عَالَمٍ آخَرَ وَهُوَ عَالَمُ الْبَرَزُخِ ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: { وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } أَي: وَيُرْسِلُ رُوحَ هَذَا الْإِنْسَانِ النَّائِمِ إِلَيْهِ لِيُعِيدَ مَدَارِكَهُ وَإِحْسَاسَهُ فِي جِسْمِهِ إِلَى الْحَيَاةِ ، فَيَسْتَيْقِظُ النَّائِمُ مِنْ نَوْمِهِ ، وَلِذَلِكَ جَاءَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي آدَابِ النَّوْمِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ^١ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا حَدَثَ بَعْدَهُ ، وَإِذَا وَضَعَ جَنْبَهُ فَلْيَقُلْ :

بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ وَضَعْتُ جَنْبِي ، وَبِكَ أَرْفَعُهُ ، اللَّهُمَّ إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي ١ فَاعْفِرْ لَهَا ، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا ٢ فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ] ٣ .

وَمِنْ آدَابِ الاستيقاظِ مِنَ النَّوْمِ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ :
[الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ] ٤ .

فالنائم يتوفى الله تعالى رُوحَهُ بنوع من التَّوْفِيَةِ ، وتُسَمَّى الموت الأصغر ، وتَعْرُجُ رُوحُهُ إِنْ كَانَ مُؤْمِنًا صَالِحًا مُوَظَّبًا عَلَى قِرَاءَةِ مَا جَاءَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَذْكَارِ قَبْلِ النَّوْمِ ، تَعْرُجُ رُوحُهُ إِلَى السَّمَاءِ ، وَرُبَّمَا تَدْخُلُ عَالَمَ البَرِّخِ وَتَجْتَمِعُ بِالصَّالِحِينَ ، وَقَدْ يُكْرِمُهُ اللَّهُ تَعَالَى بِرُؤْيَا سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَرُبَّمَا يَطَّلِعُ عَلَى بَعْضِ أُمُورِ غَيْبِيَّةِ سَتَقَعُ فِي عَالَمِ الأَرْضِ وَهَكَذَا ، فَتُسَمَّى عِنْدُنَا هَذِهِ بِالرُّؤْيَا الصَّادِقَةِ أَوْ الصَّالِحَةِ الَّتِي هِيَ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النَّبُوءَةِ كَمَا بَيَّنَّ ذَلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ .

١ أي رُوحِي بالموت .

٢ أي إلى جِسمي ولم تَقْضِ عَلَيَّ الموت .

٣ وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، ذَكَرَهَا فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ الدَّعَوَاتِ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي مَا خَلْفَهُ عَلَيْهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي ، وَبِكَ أَرْفَعُهُ ، إِنْ أَمْسَكَتَ نَفْسِي فَارْحَمَهَا ، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ] .

٤ أَخْرَجَهُ البُخَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ الدَّعَوَاتِ ، عَنْ حَدِيثِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، وَلَفْظُهُ قَالَ : كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ مِنَ اللَّيْلِ وَضَعَ يَدَهُ تَحْتَ خَدِّهِ ، ثُمَّ يَقُولُ : [اللهم باسمك أموت وأحيا] وَإِذَا اسْتَيْقَظَ قَالَ : [الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النُّشُورُ] .

فقد روى الترمذي ^١ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ رضي الله تعالى عنه قَالَ : سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} قَالَ : [هِيَ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ ، يَرَاهَا الْمُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ] .

فَالرُّؤْيَا الْمَنَامِيَّةُ الصَّادِقَةُ لَهَا شَأْنُهَا وَاعْتِبَارُهَا فِي دِينِ اللَّهِ تَعَالَى ، كَمَا نَصَّ عَلَى ذَلِكَ خَبَرُ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ فِي رُؤْيَا سَيِّدِنَا يُوسُفَ عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ، وَلَمْ يَكُنْ قَدْ نُبِيَ بَعْدَ ، ثُمَّ أَخْبَرَ عَنْهُ سُبْحَانَهُ : { وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا } .

وَأَمَّا الرُّؤْيَا الْمُضْطَرِبَةُ أَوْ الْمُزْعِجَةُ وَالَّتِي لَا تَنَاسُبُ فِي مُجَرِّيَاتِ حَوَادِثِهَا ، فَهِيَ حَدِيثُ نَفْسٍ أَوْ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ، غَالِبًا يَرَاهَا مَنْ لَمْ يَتَّبِعْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي قِرَاءَةِ أَذْكَارِ مَا قَبْلَ النَّوْمِ ، وَلَمْ يَتَحَقَّقْ بِالْآدَابِ الْوَارِدَةِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِمَنْ أَرَادَ النَّوْمَ .

وَإِنَّ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ وَالتَّكْبِيرَ بِالْأَعْدَادِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا فِي الْحَدِيثِ ، هِيَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَذْكَارِ الَّتِي أُرْشِدَ إِلَيْهَا سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَالَّتِي يَنْبَغِي قِرَاءَتَهَا قَبْلَ النَّوْمِ ، وَمِنْ أَسْرَارِهَا : أَنَّهَا تُكْسِبُ مَنْ قَالَهَا بِحُضُورِ قَلْبٍ تُكْسِبُهُ قُوَّةً وَنَشَاطًا فِي جِسْمِهِ وَ مَدَارِكَهُ لِمَا يَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمِهِ .

وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ تَعَالَى النَّوْمَ لِلْإِنْسَانِ لِيَسْتَرِيحَ بَدَنُهُ مِنْ تَعَبِ الدُّنْيَا وَنَصَبِهَا وَيَهْدَأَ فِكْرَهُ مِنْ هُمُومِهَا وَأَحْزَانِهَا .

وَلِكَيْ يَجِدَ الْإِنْسَانُ فِي نَوْمِهِ الْغَايَةَ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى النَّوْمَ مِنْ أَجْلِهَا عَلَى أَكْمَلِ الْوُجُوهِ ، فَعَلَيْهِ أَنْ يَلْتَزِمَ الْآدَابَ وَالْأَذْكَارَ النَّبَوِيَّةَ لِمَا فِيهَا مِنْ حِكْمٍ وَأَسْرَارٍ .

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَنَامُ سَاعَاتٍ كَثِيرَةً وَلَا يَجِدُ فِي نَفْسِهِ الْقُوَّةَ وَالنَّشَاطَ حِينَ يَسْتَيْقِظُ ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَنَمْ قَطْ ، فَجَاءَ إِرْشَادُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالتَّزَامِ تِلْكَ الْأَذْكَارِ قَبْلَ النَّوْمِ حَتَّى يَسْتَفِيدَ الْإِنْسَانُ مِنْ نَوْمِهِ وَيَسْتَعِيدَ قُوَّتَهُ وَنَشَاطَهُ ، وَلَا يَحْتَاجُ إِلَى مَنْ يُعِينُهُ فِي أُمُورِ مَعَاشِهِ ، وَهَذَا مَا أَرَشَدَ إِلَيْهِ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ بِقَوْلِهِ : [أَلَا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ خَادِمٍ ؟ إِذَا أُوتِيْتُمَا إِلَى فِرَاشِكُمَا ، أَوْ أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا] - شَكُّ مِنَ الرَّأْيِ - [فَكَبَّرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَسَبَّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ خَادِمٍ] .

وَإِذَا كَانَتْ التَّسْبِيحَاتِ وَالتَّحْمِيدَاتِ وَالتَّكْبِيرَاتِ بِالْأَعْدَادِ الْمُتَقَدِّمَةِ فِي الْحَدِيثِ تُكْسَبُ قَائِلُهَا قُوَّةً وَنَشَاطًا فِي يَوْمِهِ إِذَا قَالَهَا قَبْلَ نَوْمِهِ ، فَإِنَّ مِنْ خَصَائِصِهَا وَأَسْرَارِهَا أَيْضًا أَنَّ مَنْ قَالَهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَإِنَّهَا تَجْبُرُ مَا حَصَلَ لَهُ فِي صَلَاتِهِ مِنْ غَفْلَةٍ وَتَقْصِيرٍ ، فَلِكُلِّ وَقْتٍ خَصَائِصُهُ وَأَسْرَارُهُ ، وَلَا يَعْلَمُ هَذَا إِلَّا مَنْ نَبَّأَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ ، وَهُوَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الَّذِي أَطْلَعَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِيمَا أَطْلَعَهُ عَلَى خَصَائِصِ وَأَسْرَارِ الْأَوْقَاتِ وَمُنَاسِبَاتِ الْأَذْكَارِ لَهَا .

وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ^١ وَغَيْرُهُ عَنْ كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَالَ : [مُعَقَّبَاتٌ لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ أَوْ فَاعِلُهُنَّ ، دُبْرُ كُلِّ صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ : ثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَسْبِيحَةً ، وَثَلَاثٌ وَثَلَاثُونَ تَحْمِيدَةً ، وَأَرْبَعٌ وَثَلَاثُونَ تَكْبِيرَةً] .

وَمَعْنَى : [لَا يَخِيبُ قَائِلُهُنَّ] يَعْنِي أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُكْمِلُ لَهُ صَلَاتَهُ بِهَذِهِ التَّسْبِيحَاتِ ، فَلَا يُخَيِّبُهُ فِي صَلَاتِهِ وَيَتَقَبَّلُهَا مِنْهُ ، وَإِذَا دَعَا اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ صَلَاتِهِ فَلَا يُخَيِّبُ اللَّهُ تَعَالَى دُعَاءَهُ .

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْمُتَقَدِّمِ : [فَكَبَّرَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَسَبَّحَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، وَاحْمَدَا ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ ، فَهَذَا خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ خَادِمٍ] وَقَدْ دَلَّتْ رَوَايَاتٌ أُخْرَى عَلَى الْبَدْءِ بِالتَّسْبِيحِ ثُمَّ التَّحْمِيدِ ثُمَّ التَّكْبِيرِ .

وعلى الإنسان أن يعمل بكلِّ رواياتِ الحديثِ فتارةً يأخذُ بروايةٍ: أربعةٌ وثلاثينَ تكبيرةً ويختُمها بـ [لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له ، له المُلْكُ ، وله الحمدُ ، يُحيي ويُميتُ ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ] ، وتارةً يأخذُ بروايةٍ: ثلاثاً وثلاثينَ تكبيرةً ويختُمها بـ [لا إلهَ إلا اللهُ وحده لا شريكَ له ، له المُلْكُ ، وله الحمدُ ، يُحيي ويُميتُ ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ] ، لأنَّ كلَّ رواياتِ الحديثِ صحيحةٌ وعلى الإنسانِ أن يستقصيَ العملَ بها.

وينبغي على الإنسانِ المواظبةَ على تلكِ الأذكارِ التي أرشدنا إليها سيدنا رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآله وسلم في أوقاتها المُعيَّنة ، وذلك حتى يجدَ لها أثراً في نفسه ، ونوراً في قلبه وعقله ، ومن نامَ عنها أو نسيها فليأتِ بها حينَ يذكُرُها.

ومثالُ هذا كَمَن أرادَ الاستِشفاءَ بدواءٍ مُعيَّنٍ من مَرَضٍ أصابَه ، فعليه المُواظبةُ عليه في أوقاتِ مُعيَّنة ، وبكميَّاتِ مُعيَّنة ، حدَّدها له الطَّبيبُ ، وإذا لم يفعلْ ذلكَ فإنه لا يجدُ للدَّواءِ أثراً ولا نفعاً.

فَمَن أرادَ تطهيرَ نفسه وتركيتها فعلية التِّزامِ واتباعَ ما جاء به سيدنا رسولُ الله صلى اللهُ عليه وآله وسلَّم الذي أرسله اللهُ تعالى للعالمينَ مُعلِّماً ومُرَكِّباً وهادياً ومُرشداً ، وأنزل اللهُ عليه الكتابَ والحِكْمَةَ ، وبذلك يصيرُ الإنسانُ إنساناً علويّاً ربّانياً سامياً أهلاً لمراتبِ القُربِ من حَضرةِ الرَّبِّ جلَّ وعلا.

وقد جعلَ اللهُ تعالى في الإنسانِ قُوَّةً واستعداداً لم يجعلها في السَّمَاوَاتِ ولا في الأرضِ ولا في الجبالِ ، ألا وهي القُوَّةُ على حَمْلِ الأمانةِ التي عَجَزَتِ السَّمَاوَاتُ والأرضُ والجبالُ عَنْ حَمْلِهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ، وما هذه الأمانةُ إلا التَّكليفُ الشَّرعيُّ بما فيها من عَقَائِدَ وَأَعْمَالٍ وَأَقْوَالٍ وَأَخْلَاقٍ و آدابٍ.

وقد تقدَّم الإنسانُ لحَمْلِ هذه الأمانةِ لَمَّا عُرِضَتْ عليه ، لما رأى في نفسه الحَاجَةَ إليها ، حتَّى يُزيلَ عن نفسه صِفةَ الظُّلمِ والجَهِلِ ، ويرتقي بنفسه في مراتبِ الكَمالِ الإنساني إن هو حَمَلَ هذه الأمانةَ ، وفي هذا يقولُ سبحانه: {إِنَّا عَرَضْنَا الأمانةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً}.

وَجُمْلَةٌ : { إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } جُمْلَةٌ تَعْلِيلِيَّةٌ لِمَا سَبَقَ ، أَي لَأَنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا فَحَمَلَ الْأَمَانَةَ لِيُزِيلَ عَن نَفْسِهِ الظُّلْمَ وَالْجَهْلَ بِأَنْوَاعِهِ .

كَمَا تَقُولُ عَن فُلَانٍ إِذَا شَرِبَ الْمَاءَ : إِنَّهُ كَانَ عَطْشَانًا ، أَي لَأَنَّهُ كَانَ عَطْشَانًا .
وَتَقُولُ لِمَن لَبَسَ الثِّيَابَ : إِنَّهُ كَانَ عُرْيَانًا ، أَي لَأَنَّهُ كَانَ عُرْيَانًا .

فَلَمَّا تَعَرَّضُ الْمَاءَ عَلَى قَوْمٍ لَا يَتَقَدَّمُ لِلشَّرْبِ إِلَّا مَنْ كَانَ عَطْشَانًا ، وَهَكَذَا تَقَدَّمَ الْإِنْسَانُ لِحَمَلِ أَمَانَةِ اللَّهِ تَعَالَى الْكُبْرَى لَمَّا رَأَى فِي نَفْسِهِ الْحَاجَةَ إِلَيْهَا ، وَلَأَنَّهُ لَا يُزِيلُ عَنْهُ صِفَاتِ الظُّلْمِ وَالْجَهْلِ إِلَّا إِذَا حَمَلَهَا وَتَحَقَّقَ بِهَا .

قَوْلُهُ تَعَالَى : { وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ } أَي حَمَلَ الْإِنْسَانُ أَمَانَةَ اللَّهِ تَعَالَى الْكُبْرَى لَمَّا عُرِضَتْ عَلَيْهِ ، لَأَنَّهُ نَظَرَ فِي نَفْسِهِ فَرَأَى صِفَاتِ الظُّلْمِ وَالْجَهْلِ لَا تَزُولُ عَنْهُ إِلَّا بِحَمَلِ تِلْكَ الْأَمَانَةِ وَالْقِيَامِ بِهَا .

وَعَن هَاتَيْنِ الصِّفَتَيْنِ - وَهُمَا الظُّلْمُ وَالْجَهْلُ - تَتَفَرَّعُ جَمِيعُ الدَّاءَاتِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْعُيُوبِ النَّفْسِيَّةِ ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْمُؤْمِنَ هُوَ الَّذِي حَمَلَ الْأَمَانَةَ وَقَامَ بِأَدَائِ حُقُوقِهَا عَلَيْهِ .

وَأَمَّا الْكَافِرُ فَقَدْ حَمَلَ الْأَمَانَةَ ، لَكِنَّهُ خَانَ اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَخَانَ أَمَانَتَهُ ، فَلَمْ يَقُمْ بِأَدَائِ حُقُوقِهَا ، بَلْ جَحَدَ وَأَنْكَرَ ، مَعَ أَنَّهُ تَقَدَّمَ لِحَمَلِهَا لَمَّا عُرِضَتْ عَلَيْهِ ، وَلَكِنَّهُ تَكَاسَلَ وَتَقَاعَسَ عَنِ الْقِيَامِ بِمَقْتَضِيَاتِ تِلْكَ الْأَمَانَةِ ، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى : { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ } .

وَقَالَ تَعَالَى : { مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ } - أَي كُفُّوا بِالْعَمَلِ بِمَا فِيهَا مِنْ عَقَائِدِ وَأَعْمَالِ وَأَقْوَالِ وَأَخْلَاقِ وَآدَابِ - { ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا } - أَي لَمْ يَقُومُوا بِالْعَمَلِ بِمَا فِيهَا - { كَمَثَلِ الْجِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا } الْآيَةَ .

وَلَقَدْ جَرَى عَرَضُ هَذِهِ الْأَمَانَةِ عَلَى الْإِنْسَانِ فِي عَالَمِ الدَّرِّ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَخْرَجَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ صُلْبِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ذُرِّيَّتَهُ عَلَى هَيْئَةِ الدَّرِّ وَتَلَبَّسَتْهَا أَرْوَاحُهُمْ ، وَاسْتَنْطَقَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِقَوْلِهِ : { أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى {..الآية، ثُمَّ جَرَى عَرَضُ الْأَمَانَةِ عَلَيْهِمْ فَحَمَلُوهَا لِحَاجَتِهِمْ إِلَيْهَا وَلِيَتَشَرَّفُوا بِحَمْلِهَا'.

وَلَقَدْ جَاءَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يُبَيِّنُ لِلنَّاسِ حُقُوقَ هَذِهِ الْأَمَانَةِ وَوَجَابَاتَهَا عَلَيْهِمْ مِنْ عَقَائِدٍ وَأَعْمَالٍ وَأَخْلَاقٍ وَأَدَابٍ.

وَمِنْ جُمْلَةِ ذَلِكَ مَا أُرْشِدَ إِلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْإِنْسَانُ قَبْلَ نَوْمِهِ مِنْ آدَابٍ وَأَذْكَارٍ ؛ وَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يُوَاطِبَ عَلَيْهَا لِمَا لَهَا مِنْ آثَارٍ وَأَسْرَارٍ تَعُودُ عَلَى صَاحِبِهَا بِالْأَجْرِ وَالْفَضْلِ ؛ وَلِذَلِكَ جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ^٢ عَنْ سَيِّدِنَا عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : (مَا تَرَكْتُهُ مُنْذُ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قِيلَ لَهُ : وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ ؟

قال : وَلَا لَيْلَةَ صِفِّينَ) - أي ولا تلك الليلة الشديدة الدهماء .

وَفِي رِوَايَةِ أَبِي دَاوُدَ^٣ عَنْ عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : (فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، إِلَّا لَيْلَةَ صِفِّينَ ، فَإِنِّي ذَكَرْتُهَا مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَقُلْتُهَا) .

١ ولا يقتصر فهمك لمعنى الحمل على حمل الأثقال المادية المحسوسة فقط ، فهناك حمل الماديات وحمل المعنويات ، ولو قلت لآخر : سأحملك سلاماً لفلان ، فهل يعني أنه حمله على ظهره ؟! وهكذا.. فحمل الأمانة منه ما يكون في القلب وهي العقائد الإيمانية ، ومنه ما يكون بالجسم والجوارح وهي الأعمال التعبديّة كالصلاة والزكاة وغيرهما ، ومنها حمل الأخلاق والآداب الشرعية وهو التحقُّق بها .

٢ في كتاب الذكر والدعاء

٣ في سننه في كتاب الأدب

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ شَدِيدٌ حَرَصِ الصَّحَابَةِ الْكِرَامِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ عَلَى التَّمَسُّكِ بِمَا أُرْسِدَ إِلَيْهِ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَحَرِيٌّ بِنَا أَنْ نَتَمَسَّكَ بِتِلْكَ السُّنَنِ وَالْآدَابِ النَّبَوِيَّةِ لِشِدَّةِ حَاجَتِنَا إِلَيْهَا ، وَإِذَا كَانَ الصَّحَابَةُ الْكِرَامُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ الْمَشْهُودَ لَهُمْ بِالْفَضْلِ وَالْخَيْرِيَّةِ عَلَى سَائِرِ الْقُرُونِ ، كَانَ مَوْقِفُهُمْ مَعَ مَا هَدَاهُمْ إِلَيْهِ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَخْلَاقٍ وَأَدَابٍ عَمَلِيَّةٍ وَقَوْلِيَّةٍ مَوْقِفَ الْمُتَّبِعِ الْحَرِيصِ الْمُتَمَسِّكِ ، فَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَوْقِفُ الْأُمَّةِ مِنْ بَعْدِهِمْ ؟

قوله صلى الله عليه وسلم في رواية الإمام أحمد المتقدمة: [وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكُمْ وَأَدْعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطَوَّى بُطُونُهُمْ ، لَا أَجِدُ مَا أَنْفِقُ عَلَيْهِمْ ، وَلِكَيْ أبيعَهُمْ وَأَنْفِقُ عَلَيْهِمْ أَتَمَانَهُمْ ^١] وَهُمْ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ، ثُمَّ قَالَ لَهُمَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: [أَلَا أُخْبِرُكُمْمَا بِخَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَانِي؟]

وَلِبَيَانِ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَدْ ذَكَرَ قِسْمَةَ الْغَنَائِمِ بِقَوْلِهِ: { وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ } فَتُخْمَسُ الْغَنَائِمُ أَرْبَعَةَ أَخْمَاسٍ : لِلغَانِمِينَ أَيِ الْمُجَاهِدِينَ ، لِلرَّاجِلِ سَهْمٌ ، وَلِلْفَارِسِ سَهْمَانِ أَوْ ثَلَاثَةَ أَسْهُمٍ - عَلَى خِلَافِ بَيْنِ الْفُقَهَاءِ ، وَأَمَّا الْخُمْسُ الْمُتَبَقِي فَخُمْسٌ مِنْهُ خَاصٌّ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَخُمْسٌ لِذَوِي الْقُرْبَى ، وَخُمْسٌ لِلْيَتَامَى ، وَخُمْسٌ لِلْمَسَاكِينِ ، وَخُمْسٌ لِابْنِ السَّبِيلِ .

١ وَلَا تَفْهَمُ مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لِلسَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ وَرُوجِهَا سَيِّدَنَا عَلِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: [وَاللَّهِ لَا أُعْطِيكُمْ وَأَدْعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ] لَا تَفْهَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قَدْ رَدَّ طَلَبَ ابْنَتِهِ السَّيِّدَةِ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَلَمْ يُعْطِهَا خَادِمًا ، فَقَدْ حَقَّقَ لَهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ طَلَبَهَا وَالغَايَةَ الَّتِي سَأَلَتْ مِنْ أَجْلِهَا الْخَادِمَ ، وَهِيَ الْإِعَانَةُ فِي شُؤُونِ الْبَيْتِ ، فَقَدْ دَلَّهَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَى مَا يُعِينُهَا عَلَى ذَلِكَ ، وَيُعْطِيهَا الْقُوَّةَ وَالنَّشَاطَ ، وَدَلَّهَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهَا مِنَ الْخَادِمِ أَوْ الْأُمَّةِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ .

فَأَمَّا الْخُمْسُ الْخَاصُّ بِهٖ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَلَهُ التَّصَرُّفُ بِهِ كَيْفَ شَاءَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَقَدْ يُنْفِقُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَزَوْجَاتِهِ الطَّاهِرَاتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُنَّ أَوْ يُؤْتِرُ غَيْرَهُ .

وَأَمَّا الْخُمْسُ الَّذِي هُوَ لِذَوِيهِ فَهُوَ لِذَوِي الْقُرْبَى ، وَمِنْهُمْ سَيِّدُنَا عَلِيُّ وَالسَّيِّدَةُ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمُ أَجْمَعِينَ .

فَلَمَّا قَالَ لَهُمْ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [وَاللَّهُ لَا أَعْطِيكُمَا وَأَدْعُ أَهْلَ الصِّفَةِ] أَيِّ مِنْ خُمْسِهِ الْخَاصُّ بِهٖ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، وَالَّذِي هُوَ حَقُّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَآثَرَ بِهِ أَهْلَ الصِّفَةِ وَقَدَّمَ لَهُمْ عَلَى أَنْ يُعْطِيَ خَادِمًا لِابْنَتِهِ عَلَيْهَا السَّلَامُ وَرَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا ، وَفِي هَذَا غَايَةُ الرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، أَنَّهُ يُعْطِي مِنْ نَصِيبِهِ أَهْلَ الصِّفَةِ وَيُؤْتِرُهُمْ عَلَى ابْنَتِهِ ، إِلَّا أَنَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ دَلَّهُمَا عَلَى مَا هُوَ خَيْرٌ لَهُمَا مِنْ خَادِمٍ - أَيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ - أَمَّا فِي الدُّنْيَا بِأَنْ يُمِدَّهُمَا اللهُ تَعَالَى بِعَوْنٍ وَقُوَّةٍ تُغْنِيهِمَا عَنِ الْخَادِمِ ، وَهِيَ خَيْرٌ لَهُمَا مِنْ مَعُونَةِ الْخَادِمِ وَقُوَّتِهِ ، وَأَمَّا الْخَيْرُ فِي الْآخِرَةِ فَبِحُصُولِ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ ، لِأَنَّ التَّسْبِيحَ وَالتَّحْمِيدَ وَالتَّكْبِيرَ مِنَ الْأَقْوَالِ الطَّيِّبَةِ الَّتِي يَتَقَرَّبُ بِهَا الْإِنْسَانُ إِلَى اللهِ تَعَالَى .

وَأَمَّا مَعْنَى التَّسْبِيحِ : فَهُوَ تَنْزِيهِ اللهِ تَعَالَى عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِهِ ؛ وَالتَّحْمِيدُ : هُوَ إِثْبَاتُ الْمَحَاسِنِ وَالْكَمَالَاتِ اللَّائِقَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى ؛ وَالتَّكْبِيرُ : هُوَ الْاعْتِرَافُ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ أَجَلُّ وَأَعْظَمُ وَأَكْبَرُ مِمَّا سَبَّحَ الْإِنْسَانُ وَحَمِدَ .

وَنَسَأَلُ اللهُ تَعَالَى التَّوْفِيقَ ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

المحاضرة الرابعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد:

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

بَابِ التَّعَوُّذِ وَالْقِرَاءَةِ عِنْدَ الْمَنَامِ^١

ثم أورد بسنده إلى السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أخذ مضجعه نَفَثَ في يَدَيْهِ، وَقَرَأَ بِالْمُعَوِّذَاتِ، وَمَسَحَ بِهِمَا جَسَدَهُ .

وفي رواية له^٢ عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى نَفَثَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ ، وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُؤْفَى فِيهِ طَفِئَتْ أَنْفُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفُثُ ، وَأَمْسَحُ بِبِيَدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ .

وفي رواية له^٣ عن السيدة عائشة رضي الله عنها أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى يَفْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ وَيَنْفُثُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَجَعُهُ كُنْتُ أَقْرَأُ عَلَيْهِ وَأَمْسَحُ بِيَدِهِ رَجَاءَ بَرَكَتِهَا.

١ في صحيحه في كتاب الدعوات

٢ في صحيحه في كتاب المغازي

٣ في صحيحه في كتاب فضائل القرآن

وفي رواية له^١ عن السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَيْضًا أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا، فَقَرَأَ فِيهِمَا : { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } و { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ } و { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ } ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتِطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ .

وفي رواية له^٢ عن السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَيْضًا : [كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ ، نَفَثَ فِي كَفَّيْهِ ب { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } وَبِالْمُعَوَّذَتَيْنِ جَمِيعًا ، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ وَمَا بَلَغَتْ يَدَاهُ مِنْ جَسَدِهِ ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا : فَلَمَّا اسْتَكَيْتَنِي كَانَ يَأْمُرُنِي أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ بِهِ] . اهـ

وهذه مِنَ الْأَذْكَارِ الَّتِي أَرْشَدَ سَيِّدُنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ إِلَى قِرَاءَتِهَا قَبْلَ النَّوْمِ ، وَذَلِكَ إِذَا أَحَدَ الْإِنْسَانَ فِرَاشَهُ ، لِأَنَّ هُنَاكَ مِنَ الْأَذْكَارِ مَا يُطَلَبُ مِنَ الْإِنْسَانِ قِرَاءَتِهَا إِذَا أَمْسَى ، وَمِنْهَا مَا يُطَلَبُ مِنْهُ قِرَاءَتِهَا فِي اللَّيْلِ قَبْلَ أَنْ يَنَامَ ، وَمِنْهَا مَا يُطَلَبُ مِنْهُ إِذَا أَحَدَ مَضْجَعَهُ لِلنَّوْمِ .

وَتُعْتَبَرُ سُورَةُ { قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ } مِنَ الْمُعَوَّذَاتِ مِنْ بَابِ التَّغْلِيْبِ لِأَنَّهُ لَيْسَ فِيهَا كَلِمَةٌ { أَعُوذُ } .

وَالْحَقُّ أَنَّهُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا كَلِمَةٌ { أَعُوذُ } فَفِيهَا مَعْنَى التَّعَوُّذِ وَالْحِفْظِ مِنَ الشَّيْطَانِ وَشُرُورِهِ وَوَسَاوِسِهِ ، فَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

[لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ هَذَا: خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهُ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَلْيَقُلْ : آمَنْتُ بِاللَّهِ] .

١ في صحيحه في كتاب فضائل القرآن

٢ في صحيحه في كتاب الطب

وفي رواية : قال صلى الله عليه وسلم : [فإذا قالوا ذلك فقولوا : { الله أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ } - ثُمَّ لِيَتْفُلَ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا ، وَلْيَسْتَعِذْ مِنَ الشَّيْطَانِ]^١ .

وتُسمى سورة { قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ } سورة الإِخْلَاص ، لأنَّ فيها إِخْلَاصَ التَّوْحِيدِ لله تعالى ، ففيها معنى التَّوْحِيدِ العِلْمِيِّ العِتْقَادِيِّ .
وأما سورة { قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ } فتُسمى سورة التَّوْحِيدِ أي التَّوْحِيدِ العَمَلِيِّ وهو تَوْحِيدُ العِبَادَةِ لله تعالى .

وقد جاء في فَضْلِ قِرَاءَةِ سورة { قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ } ما رواه الترمذي^٢ عن فَرْوَةَ بنِ نَوْفَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أَنَّهُ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ :
يَا رَسُولَ اللهِ عَلَّمَنِي شَيْئًا أَقُولُهُ إِذَا أَوَيْتُ إِلَى فِرَاشِي .
قَالَ : [اقْرَأْ { قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ } فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشَّرِكِ] .

وعندَ أَبِي دَاوُدَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِنَوْفَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ :
[اقْرَأْ { قُلْ يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ } ثُمَّ نَمْ عَلَى خَاتِمَتِهَا ، فَإِنَّهَا بَرَاءَةٌ مِنَ الشَّرِكِ]^٣ .
والتَّفْتُ هو النَّفْحُ مع شيءٍ مِنَ الرِّيقِ وينفثُ الإنسانُ في يَدِهِ بعدَ أَنْ يَفْرَعُ مِنَ قِرَاءَةِ المَعْوِذَاتِ وَيَمْسَحُ سَائِرَ جَسَدِهِ وَيَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ كَمَا وَرَدَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

وأما قوله تعالى : { وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي العُقَدِ } فالمرادُ مِنْهُ السَّحْرَةُ .
و{ النَّفَّاثَاتِ } جَمْعُ نَفَّاثَةٍ أي النَّفْسِ التي تَنفُثُ في العُقَدِ مُسْتَعِينَةً بِأرواحِ شَيْطَانِيَّةٍ بعدَ أَنْ تَتَلَوَّ أَسْمَاءَ شَيْطَانِينَ وَأرواحِ سُفْلِيَّةٍ خَبِيثَةٍ وَتُرِيدُ الشَّرَّ والضَّررَ لِمَنْ تَوَجَّهَتْ عَلَيْهِ بِالنَّفْثِ في العُقَدِ ، قال اللهُ سبحانه وتعالى :
{ وَمَا هُمْ بِبَصَّارِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ } .

١ وكلا الرّوايتين أخرجهما أبو داود في كتاب السنّة

٢ كما في كتاب الدعوات

٣ كما في كتاب الأدب

وقد يَعْتَرِي الإنسانَ وَحْشَةٌ فِكْرِيَّةٌ أَوْ ضَيْقٌ صَدْرٍ فَلَا يُظَنَّ فِي نَفْسِهِ عِنْدَئِذٍ أَنَّهُ مَسْحُورٌ فَيُضْطَرِّبُ وَيُبْحِثُ عَمَّنْ يُزِيلُ عَنْهُ السَّحَرَ ، بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ بِالْإِرْشَادَاتِ الْمُحَمَّدِيَّةِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ وَالتَّعَاوِذِ النَّبَوِيَّةِ الْوَارِدَةِ عَنْ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَالَّتِي مِنْ أَهْمِّهَا : قِرَاءَةُ الْمُعْوِذَاتِ عَلَى الْوَجْهِ الْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهُ ، فَيُشْرِحُ اللهُ صَدْرَهُ وَيُزِيلُ عَنْهُ مَا يَشْكُو بِأَذْنِ اللهِ تَعَالَى .

وَمِمَّا يُطَلَبُ قِرَاءَتُهُ قَبْلَ النَّوْمِ آيَةُ الْكُرْسِيِّ لِمَا جَاءَ عَنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ^١ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : [وَكَلَّنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْتُو مِنْ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ وَقَلْتُ : وَاللَّهِ لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال : إني محتاجٌ ، وعليَّ عيالٌ ، ولي حاجةٌ شديدةٌ .

قال : فخليتُ عنه ، فأصبحتُ ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يا أبا هريرة ، ما فعلَ أسيركَ البارحة ؟

قال : قلتُ : يا رسولَ اللهِ شكَا حاجةً شديدةً وعيالاً ، فرحمتهُ فخليتُ سبيله .

قال : أما إنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ ، لِقَوْلِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ سَيَعُودُ ، فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْتُو مِنْ الطَّعَامِ ، فَأَخَذْتُهُ فَقَلْتُ : لَأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

قال : دعني فإنني محتاجٌ وعليَّ عيالٌ ، لا أعودُ ، فرحمتهُ فخليتُ سبيله ، فأصبحتُ ، فقال لي رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يا أبا هريرة ، ما فعلَ أسيركَ ؟

قلتُ : يا رسولَ الله، شكا حاجةً شديدةً وعيالاً ، فرحمتهُ فخليتُ سبيله ؛ قالَ : أما إنه قد كذبتك وسيعودُ ، فرصدتهُ الثالثة ، فجاء يحثو من الطعام ، فأخذتهُ فقلتُ : لأرفعنك إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا آخرُ ثلاثِ مراتٍ ، أنك تزعمُ لا تعودُ ثمَّ تعودُ ؛ قالَ : دعني أعلمك كلماتٍ ينفعك اللهُ بها.

قلتُ : ما هي ؟

قالَ : إذا أويتَ إلى فراشك ، فاقراً آيةَ الكرسيِّ { اللهُ لا إلهَ إلا هوَ الحَيُّ القيُّومُ } حتى تختتمَ الآيةَ ، فإنَّكَ لن يزالَ عليك من الله حافظٌ ، ولا يقربنك شيطانٌ حتى تصبحَ ، فخليتُ سبيله ، فأصبحتُ ، فقالَ لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم : ما فعلَ أسيرك البارحة ؟

قلتُ : يا رسولَ الله زعمَ أَنَّهُ يعلمني كلماتٍ ينفعني اللهُ بها، فخليتُ سبيله.

قالَ : ما هي ؟

قلتُ : قالَ لي : إذا أويتَ إلى فراشك فاقراً آيةَ الكرسيِّ ، من أولِّها حتى تختتمَ الآيةَ { اللهُ لا إلهَ إلا هوَ الحَيُّ القيُّومُ } وقالَ لي :

لن يزالَ عليك من الله حافظٌ ، ولا يقربك شيطانٌ حتى تصبح .

وكانوا أحرص شيء على الخيرِ ، فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم : أما إنَّه قد صدقك وهو كذوبٌ ، تعلمُ من تخاطبُ منذُ ثلاثِ ليالٍ يا أبا هريرة ؟

قالَ : لا.

قالَ : ذاك شيطانٌ [.

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ كان يقرأُ المسبِّحاتِ قبلَ أن ينامَ - أي قبلَ أن يأخذَ مضجعه للنوم - فقد روى الترمذي¹ عن العرياضِ بن سارية رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم كان يقرأُ المسبِّحاتِ قبلَ أن يرقدَ ويقولُ : [إنَّ فيهنَّ آيةً خيرٌ من ألفِ آيةٍ] .

والمسبّحات هي السُّور المفتوحة بـ {سَبَّحَ} و{يَسْبَحُ} و{سَبَّحَ} ، وهي سورة الحديد والحشر والصّف والجمعة والتغابن وسورة سَبَّحِ اسم رَبِّكَ الأعلى. ولا تدخل سورة الإسراء في المسبحات ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يقرأها أحياناً في الليل.

وأما الآية التي هي خير من ألف آية والموجودة في هذه السور فقال عنها بعض العلماء : هي آية : { هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ } وهي في سورة الحديد ، وذلك لأنّه سبحانه ذكر فيها جملةً من الأسماء الجامعة والتي يشتملُ كلُّ اسمٍ منها على أسماء كثيرة.

ومن جملة خصائص الآيات الثلاث من أول سورة الحديد أنها تدفع الوسوس والأوهام الظلمانية.

وأما قراءة الآيات بعدها: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ * يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ }

فلها من الخصائص والأسرار ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

وذهب كثيرٌ من العلماء إلى أنّ الآية التي هي خيرٌ من ألف آية هي التي في آخر سورة الحشر ، من قوله تعالى : { هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ * هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ * هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمَصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }.

ويحسنُ بالإنسان أن يقرأ من قوله تعالى: { لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ } ... إلى آخر السورة ، بعد أن يتعوذُ بالله ثلاث مرّات بقوله : { أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ } .

روى الترمذي والإمام أحمد^١ عن معقل بن يسار رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [من قال حين يصبح ثلاثاً مراتٍ : أعوذُ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ، وقرأ ثلاث آياتٍ من آخر سورة الحشر، وكلَّ اللهُ به سبعين ألفَ ملكٍ يصلونَ عليه حتى يمسي ، وإن مات في ذلك اليوم مات شهيداً، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة] .

وعلى المؤمن أن يتقبلَ جميعَ ما يبلغه عن الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم مع التسليم والإذعان الاعتقادي والعملي والقولي ، وإن خفي على الإنسانِ حكمةُ بعض الأحكام الشرعية ، فإن ذلك لقصور فهمه وعجز عقله عن إدراك الحكم المترتبة على الأحكام الشرعية ، وعليه عندئذ أن يسلم ويذعن لمن آتاه الله تعالى الحكمة العالية وبعثه للعالمين معلماً ومزكياً وهادياً ومرشداً ومبشراً ونذيراً وواعظاً ومذكراً ، قال الله تعالى : { وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا } والحكمة في الآية هي السنة المطهرة بما حوت من أحاديثه صلى الله عليه وسلم وأفعاله وعاداته .

فهو صلى الله عليه وسلم مظهر شريعة الله تعالى ، فأقواله وأفعاله وعاداته فيها التشريع لأُمَّته إلى يوم الدين فكيف يصح عقلاً وشرعاً عندئذ أن يقع منه خطأ؟!

سبحانك هذا بهتانٌ عظيمٌ .

وقد أجاب صلى الله عليه وسلم على من ارتاب في ذلك وتردد في نفسه: هل يُخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم كما هو حال بقية البشر؟؟

بيّن ذلك صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما لما كان يكتب كل شيء يسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقال له بعض الصحابة : أتكتب كل شيء تسمعه ، ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بشراً يتكلم في الغضب والرضا ؟

١ أخرجه الإمام الترمذي في كتاب فضائل القرآن والإمام أحمد في المسند

- أي فقد تُخرِجه حالةُ الغضبِ عن صوابِ القولِ - .

روى أبو داود^١ عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما قال: كنتُ أكتبُ كلَّ شيءٍ أسمعُهُ من رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أريدُ حفظَهُ ، فنهتني قريشٌ ، وقالوا: أتكتبُ كلَّ شيءٍ تسمعُهُ ، ورسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَشْرٌ يتكلمُ في الغضبِ والرِّضَا ؟

فأمسكتُ عن الكتابةِ ، فذكرتُ ذلكَ لرسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فأوماً بأصبعه إلى فيه ، فقال :

[اكتبْ ، فوالَّذي نفسي بيده ما يخرجُ منه إلا حقٌّ] .

وعند الدارمي^٢ : [اكتبْ ، فوالَّذي نفسي بيده ما خرجَ منه إلا حقٌّ] .

نعم ما خرجَ من فمه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وما يخرجُ منه : إلا حقٌّ .

إذا علمتَ هذا أيُّها العاقلِ فاعلم أنَّ الله تعالى قد جعلَ من أحاديثه وأفعاله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وآدابه ميزاناً للمفاهيم والحكمة.

قالَ اللهُ تعالى : { اللهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ } ... الآية.

فلا بُدَّ إذاً من الرُّجوعِ إلى ما جاءَ عن سيدنا رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتصحيحِ كلِّ فهمٍ حولِ آيةٍ أو أمرٍ من أمورِ الدِّينِ ، لا بدَّ من الرُّجوعِ إلى بياناته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لمعرفةِ صحَّةِ هذا الفهمِ أو الحكمةِ ، فإنَّ وافقَ ما جاءَ عن سيدنا رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان مقبولاً وإلا فهو رَدٌّ .

١ في كتابِ العلمِ

٢ أخرجها في المقدمة

وأما قوله صلى الله عليه وسلم : [الكلمة الحكمة ضالّة المؤمن ، فحيثُ وجدها فهو أحقُّ بها]^١ فهذا يعني أنّ هذه الحكمة التي عثر عليها المؤمن من أقوال الحكماء أو غيرهم لا تُسمّى حكمة إلا إذا كانت موافقة لما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي لا حكمة فوق حكمته صلى الله عليه وسلم.

وقد علّمنا ذلك صلى الله عليه وسلّم حينما قال :

[أصدق كلمة قالها الشاعر ، كلمة لبيدٍ : ألا كلُّ شيءٍ ما خلا الله باطلٌ ؛ وكادَ أميةُ بن أبي الصّلتِ أن يُسلمَ]^٢.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم عن أمية بن أبي الصّلتِ:

[آمن شعره وكفر قلبه]^٣

فلقوله :

إن تغفر اللهم تغفر جمّا وأيُّ عبدٍ لك لا ألمّا

إني إذا ما حدتُ ألمّا أقولُ : يا اللهم يا اللهم

وكذلك تمثله صلى الله عليه وسلم بقول الشاعر:

ويأتيك بالأخبار من لم تُزودْ

١ رواه الترمذي في سننه في كتاب العلم

٢ رواه البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار

٣ رواه الفاكهي وابن منده من حديث سيدنا ابن عباس رضي الله عنهما ؛ انظر فتح الباري ، كتاب مناقب الأنصار عند الكلام على قوله صلى الله عليه وسلم : [وكادَ أميةُ بن أبي الصّلتِ أن يُسلمَ] .

٤ وصدر هذا البيت : ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً

روى الترمذي والإمام أحمد واللفظ له عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا استرأ الخبر، تمثّل فيه ببيت طرفة^٢: ويأتيك بالأخبار من لم تزود]

فقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الحكمة والأقوال لأنها توافق ما جاء به صلى الله عليه وسلم من شرع حكيم ولا تعارضه، ولما عارضت لم يقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ردّها فلم يتمثّل قول لبيد في الشطر الثاني من البيت المتقدم ذكره: وكلُّ نعيمٍ لا محالة زائلٌ

لأنّ نعيم الجنة لا يزول عن أهل الجنة أبداً، بل هم في نعيم دائم متجدد . ولقد كان أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصين كلّ الحرص على اتباعه صلى الله عليه وسلم في سائر أفعاله صلى الله عليه وسلم وعاداته، فهذا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يلتقي برجل من اليمن كان قد فرغ من طوافه حول الكعبة، فسأله عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: هل قبّلت الحجر؟

قال: لا، خشيتُ .

قال ابن عمر رضي الله عنهما: وماذا خشيت؟

قال: كان فلان وفلان يقبل الحجر فخشيت أن أزاحمهم - ولم يكن هناك زحام شديداً - فقال ابن عمر رضي الله عنهما: دع كلمة خشيت في اليمن وافعل كما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم - أي قبل الحجر كما قبّله رسول الله صلى الله عليه وسلم^٣.

١ أخرجه الترمذي في سننه في كتاب الأدب والإمام أحمد في مسنده ٢٥١٣٤ .

٢ أي الشاعر طرفة بن العبد البكري.

٣ وهذا إذا لم يكن الزحام شديداً، أمّا إذا اشتدّ الزحام فعلى المؤمن أن لا يُزاحم الناس، ويكفيه عندئذ الإشارة إلى الحجر واستلامه ولو من بعيد، وقد فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا أيضاً.

وينبغي على كل مؤمن المواظبة على الأذكار التي وردت عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في سائر الأوقات والمناسبات ، وذلك حتى تقوى صلته بالله تعالى ومراقبته له سبحانه ، بحيث لو دخل في الصلاة المكتوبة حضر قلبه وخشع لله تعالى ، أمّا لو غفل عن ذكر الله تعالى سائر وقته ثم جاء إلى الصلاة شقّ وتعذّر عليه أن يخشع فيها ويحضر قلبه لإدراك معنى ما يقرأ، وسرّ ما يفعل، من قيام وركوع وسجود وعود بين يدي الله تعالى . ومما أُرشد إليه صلى الله عليه وسلم أمته: قراءة سورة { يس } والدُّخان والواقعة كلّ ليلة ، وكذلك سورة السّجدة والمُلك^١ .

فأمّا سورة الواقعة فهي لتسهيل الأرزاق الحسيّة والمعنويّة الجسميّة والروحيّة الإيمانيّة ، إذ إنّ كلّ شيء لا يظهر في الأرض إلا بعد تنزله من عالم العرش والكرسي والسّدرة ثم السّماوات ، قال جل وعلا : { وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم } ، وقال عز من قائل : { الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهنّ ينزل الأمر بينهنّ } .. الآية ، أي ويظهر أثر هذا الأمر في الأرض ويأخذ حكم الأرض بعد أن كان في السّماء أمراً وهكذا...

١ روى الطبراني في الصغير والأوسط عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [من داوم على قراءة يس كل ليلة ثم مات ، مات شهيداً] .

وروى الترمذي في سننه في كتاب فضائل القرآن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ قَرَأَ {حَم} الدُّخَانَ فِي لَيْلَةٍ أَصْبَحَ يَسْتَعْفِرُ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ] .

وروى البيهقي في شعب الإيمان عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْوَاقِعَةِ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، لَمْ يُصِبْهُ فَاقَةٌ أَبَدًا] .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن جابر رضي الله عنه قال: [كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا يَنَامُ حَتَّى يَقْرَأَ {الْم تَنْزِيلُ} السَّجْدَةَ، وَ{تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ}] .

وينبغي على المؤمن أن لا تقتصر همته على طلب الرزق المادي الجسماني دون أن يسأل الله تعالى الرزق الروحاني الإيماني والذي يطمئن القلب به وتنعم النفس به ويتلذذ صاحبها بالتجليات الإلهية عليه والنفحات الرحمانية .

ومن طلب مال الدنيا بغية الأذخار والاستكثار فقط ما ناله إلا الشقاء في الدنيا والعذاب في الآخرة ، لأنه منع حق الله تعالى في ماله ، لأن المال أمانة أئتمن الله تعالى عليها الإنسان ، ويين له كيف يحسن التصرف في هذه الأمانة ، فإن هو خالف أمر الله تعالى فقد خان الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وآله وسلم وخان أمانته ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : { آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ } .

وَمِنَ الْأَغْنِيَاءِ مَنْ يَحْرُمُ أَرْحَامَهُ الْفُقَرَاءَ صَلَاتِهِ وَصَدَقَاتِهِ زَعَمًا مِنْهُ أَنَّهُ يَخَافُ حَسَدَهُمْ أَوْ أَنَّ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ عداوةً قَدِيمَةً زَمَنَ آبَاءَهُ وَأَجْدَادَهُ!

فيقال له عندئذ : إن المواصل من يصل من قطعه ، أمّا من واصل من وصله فهي مُقابلة لصلته وليست مُواصلة ، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم:

[ليسَ الواصلُ بالمُكافئِ ، ولكن الواصل الذي إذا قُطعت رِجْمُهُ وصلها]^١ .

وَمَنْ حَرَمَ أَرْحَامَهُ عَطَاءَهُ وَصَدَقَتَهُ فَقَدْ حَرَمَهُمْ أَيْضًا إِحْسَانَ النَّاسِ إِلَيْهِمْ وَصَدَقَاتِهِمْ لِأَنَّهُمْ يَظُنُّونَ أَنَّ فُلَانًا الْعَنِي - وَهُمْ أَقْرَبَاؤُهُ - يَقُومُ بِحَاجَاتِهِمْ وَيَكْفِيهِمْ سُؤَالَهِمْ ، فَمَا أَشْنَعُ عِنْدئذٍ فَعَلَهُ ، وَمَا أَقْبَحُ ذَنْبَهُ لِأَنَّهُ حَرَمَ أَرْحَامَهُ وَتَسَبَّبَ بِفَعْلِهِ هَذَا بِحَرْمَانِهِمْ مِنْ عَطَاءِ النَّاسِ وَصَدَقَاتِهِمْ !! .

ومن حقوق الله تعالى على الإنسان في ماله : القرض الحسن -الذي مع الأسف تركه كثير من المؤمنين وأهملوه.

١ رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما في صحيحه في كتاب الأدب

وليعلم كل إنسان أن الله تعالى قد شرع وبين وجوه التعاون بين المؤمنين ،
فهناك الصدقات والإقراض الحسن ، لأن من الناس من لا يقبل الصدقة ،
وهناك التعاون في الأعيان ويُسمى (العارية) ، ولا تجري العارية على الأموال
بل تُسمى عندئذٍ قرضاً .

وقد أوعد الله تعالى من منع العارية إن استعار من أحد شيئاً وهو قادرٌ على
إعادته ، وجعل سبحانه منع العارية من صفة المنافقين ، فقال جلّ وعلا :
{ رأيت الذي يكذب بالدين * فذلك الذي يدعُ اليتيم * ولا يحضُّ على طعامِ
المسكين * فويلٌ للمصلين * الذين هم عن صلاتهم ساهون * الذين هم
يراءون * ويمنعون الماعون }.

والماعون : هو الإناء في الأصل ، ويشمل المعنى كل من منع غيره إعاره شيءٍ
وهو قادرٌ على أن يُعيّره ، وهكذا شرع سبحانه التعاون بالأموال إقراضاً وفي
الأعيان عاريةً.

ومن الإثم الذي وقع فيه أغنياء الرّمان أن منَعوا الإقراض الحسن ، ممّا
جعل المحتاجين يلجؤون إلى القرض بالرّبا، والذي يقعُ إثمُه على فاعله
والمُتسبّب فيه.

ونسألُ الله التّوفيقَ، وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة الخامسة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.
أمّا بعد:

بالسند المتّصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب الدعاء نصف الليل

ثمّ أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [يتنزل ربنا تبارك وتعالى كلّ ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر ، يقول : من يدعوني فأستجيب له ؟ من يسألني فأعطيه ؟ من يستغفري فأغفر له ؟] .

وقد أشار البخاري رضي الله عنه في ترجمته لهذا الحديث بقوله : (نصف الليل) أشار إلى رواية للحديث^٢: [ينزل الله عز وجل كلّ ليلة إلى السماء الدنيا لنصف الليل الآخر أو لثلث الليل الآخر - شك من الراوي - ، فيقول : من ذا الذي يدعوني فأستجيب له ؟

من ذا الذي يسألني فأعطيه ؟

من ذا الذي يستغفري فأغفر له ؟

حتى يطلع الفجر ، أو ينصرف القارئ من صلاة الصبح]

١ أي وثلث الليل الآخر داخل في النصف .

٢ أخرجها الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وفي رواية عند مسلم وغيره : [إِذَا مَضَى شَطْرُ اللَّيْلِ]^١.

وفي رواية في مسند الإمام أحمد : [ثلثا الليل]^٢.

وفي رواية^٣ : [ثلث الليل الأول] .

وفي رواية عند الإمام أحمد أيضاً : [ينزلُ اللهُ عزَّ وجلَّ في كلِّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا فيقولُ : هل من سائلٍ فأعطيهِ ؟

هل من مستغفرٍ فأغفر له ؟

حتَّى يطلعَ الفجرُ]^٤ - وهذا المطلقُ يُحملُ على المقيّدِ المذكورِ في الرّواياتِ السَّابِقةِ.

وفي رواية عند البخاري: [ينزلُ ربُّنا تباركُ وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السَّماءِ الدُّنيا حينَ يَبقى ثلثُ اللَّيْلِ الآخرِ يقولُ :

من يدعوني فأستجيبَ له ؟

من يسألني فأعطيهِ ؟

من يستغفرني فأغفرَ له ؟]^٥.

وقوله صلى الله عليه وسلم : [تباركُ وتعالى] فيه بيانُ تنزيهِه اللهُ تعالى وعلوّه عن الشَّبهِ والنَّظيرِ والمثيلِ في ذاته وصفاته وأفعاله سبحانه وتعالى.

١ انظر صحيح الإمام مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها والسنن الكبرى للنسائي وكتاب النزول للدارقطني ص ٧

٢ ١٥٦٢٥

٣ انظر صحيح الإمام مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها وسنن الترمذي كتاب الصلاة

٤ ١٦١٤٥

٥ صحيح البخاري كتاب الجمعة

وإنَّ أصلَ العقيدةِ التي فطرَ اللهُ تعالى عليها أهلَ السَّماءِ والأرضِ هي تسبيحُ اللهُ تعالى وحمدهُ ، بمعنى تنزيهِ اللهُ تعالى عن النَّقائصِ والعيوبِ والآفاتِ وعن كلِّ ما لا يليقُ به سبحانه ، وإثباتِ المحاسنِ والكمالاتِ اللائقةِ به سبحانه على وجهٍ لا يتناهى ، وهذا معنى قولك : (سبحانَ اللهُ وبِحَمْدِهِ) أي: أُسَبِّحُ اللهُ ، يعني أنزّه اللهُ تعالى عن كلِّ ما لا يليقُ به ، وأُثبِتُ له المحاسنَ والكمالاتِ التي اتَّصفَ بها سبحانه ، فهو تسبيحُ مصحوبٌ بالحمدِ ، وهذا ديدنُ كلِّ شيءٍ خلقه اللهُ تعالى وفطره عليه ، قال تعالى : {تَسْبِحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبِحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}.

وقد يُكتفى أحياناً بذكرِ التَّسْبِيحِ فقط فيتضمَّنُ معنى الحمدِ أيضاً ، وقد يذكرُ الحمدُ فقط فيتضمَّنُ معنى التَّسْبِيحِ أيضاً ، فتسبيحُ فيه حمدٌ ، وحمدٌ فيه تسبيحٌ.

وقوله صلى اللهُ عليه وسلم في هذا الحديث الشريف: [يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا - أو كما في رواية : يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى] هو نزولٌ أو تنزُّلٌ منزَّهٌ عن الشَّبهِ والمثَلِ ، فليسَ نزولُهُ سبحانه انتقالاً من علوٍ إلى سُفْلٍ ، بل هو نزولٌ أو تنزُّلٌ لائقٌ به سبحانه ، مُنزَّهٌ عن الشَّبهِ والنَّظيرِ ، ولا يمكن للمخلوقِ أن يدركَ حقيقةَ صفةٍ من صفاته سبحانه أو يحيطَ بها.

وقد أشارَ صلى اللهُ عليه وسلم إلى تنزيهِ اللهُ تعالى في ذلك بقوله : [تَبَارَكَ وَتَعَالَى] ومعنى [تَبَارَكَ] : أي كُثِرَتْ أَسْمَاؤُهُ وَصِفَاتُهُ وَكَمَالَاتُهُ عَلَى الْوَجْهِ الثَّابِتِ وَالِدَّائِمِ.

واعلم أنَّ كلمة [تَبَارَكَ] تدلُّ على ثلاثة معاني : الكثرةُ في صفاتِ اللهُ تعالى وأسمائه ، وأنها دائمةٌ أزلاً أبداً لا تتغيَّرُ ولا تتبدَّلُ ، وفيها معنى التَّعَاطُفِ والتَّعَالَى ، فلا نظيرَ له ولا شبيهةَ له سبحانه في أسمائه وصفاته جل وعلا^١.

١ انظر لسان العرب ١٠/٩٣٥

ومعنى : [ينزلُ ربُّنا] أي نُزولاً مُنزهاً عن الشَّبهِ ، يليقُ بجلالِهِ وعظمتِهِ سبحانه ، وهذا مذهبُ السَّلفِ رضيَ اللهُ عنهم في الاعتقادِ ، وهو إثباتُ ما وردَ عنه سبحانه في القرآن الكريم والحديث الشَّريف مع التَّنزيه عن التَّشبيهِ ، وأمَّا مجردُ الإثباتِ بلا تنزيهٍ ، فهو تشبيهٌ وتجسيمٌ يُنافي صحَّةَ الإيمانِ بالله تعالى الذي قال جل وعلا: { ليسَ كمثلِه شيءٌ وهو السَّميعُ البصيرُ } .

ومَنْ أثبتَ ولم ينزِّه فقد شبَّه وجسَّم ، ومن لجأ إلى التَّنزيه حتى ظنَّ أنَّه لا وجودَ ولا حقيقةَ لصفاته سبحانه فقد عطلَّ ما أثبتَه سبحانه لنفسِه .

والله تعالى حقٌّ واجبُ الوجودِ ، فلمَّا قال عز من قائل: { ليسَ كمثلِه شيءٌ } فلا يحملنَّك ذلكَ على تعطيلِ الصِّفاتِ فقد قال سبحانه : { وهو السَّميعُ البصيرُ } : أي فهو جل جلاله حقٌّ واجبُ الوجودِ متَّصفٌ بالكمالاتِ المطلقةِ اللائقةِ به سبحانه على وجهٍ لا يتناهى .

ومِنَ العلماءِ مَنْ يؤوَلُّ تلكَ الصِّفاتِ المتشابهةِ بصرفِ معناها إلى معنى آخرَ يليقُ به سبحانه ، وهو مذهبُ علماء الخلفِ في ذلك ، ويُلجأُ إلى ذلكَ إذا كان فهمُ الإنسانِ وعقله قاصراً عن تقبيلِ معنى التَّنزيهِ وعدمِ التَّشبيهِ في صِفاتِ الله تعالى ، وعلى هذا فيكونُ معنى قوله صلى اللهُ عليه وسلم : [ينزلُ ربُّنا تباركُ وتعالى كلَّ ليلةٍ] يعني: تتنزلُ رحماتُه وأسرارُه وأنوارُه وألطفُه جل وعلا ، ومعنى قوله تعالى : { يدُ اللهُ فوقَ أيديهمُ } أي قدرةُ الله وهكذا...

وليس صحيحاً ما يقال: إنَّ مذهبَ السَّلفِ أسلمٌ ، ومذهبَ الخلفِ أعلمٌ وأحكمٌ ، بل هو كلامٌ منقوضٌ مردودٌ ، وخلاصتُه : أنَّ من كانَ عنده استعدادٌ لتلقِّي عقيدةِ السلفِ كما هي دونَ أن ينتابه شيءٌ من التَّشويشِ والاضطرابِ فعليه بمذهبِ السَّلفِ وهو الأكملُ ، وأمَّا مَنْ تقاصرَ بفهمه وعقله عن قبولِ ذلكَ مع التَّنزيه عن التَّشبيهِ فعليه بمذهبِ الخلفِ وهو مذهبُ التأويلِ ، وهو مذهبٌ صحيحٌ في الاعتقادِ والإيمانِ ، فكلا المذهبينِ صحيحٌ ولكنَّ مذهبَ الخلفِ كاملٌ ، ومذهبَ السَّلفِ أكملٌ .

أَمَّا السَّلْفُ الصَّالِحُ عَلَى لِسَانِ الْمُحَدِّثِينَ وَعُلَمَاءِ التَّفْسِيرِ وَعُلَمَاءِ التَّوْحِيدِ -
لَا عُلَمَاءَ الْكَلَامِ - فَهُمْ أَهْلُ الْقُرُونِ الثَّلَاثَةِ الْمَشْهُودِ لَهُمْ بِالْخَيْرِيَّةِ عَلَى لِسَانِ
خَيْرِ الْبَرِيَّةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ : [خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ، ثُمَّ الَّذِينَ
يَلُونَهُمْ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ]^١ - وَفِي بَعْضِ الرِّوَايَاتِ : [ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ]^٢ .

وَقَدْ وُجِدَ فِي زَمَنِ الْخَلْفِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَنَسٌ لَا اسْتِعْدَادَ عَنْدهُمْ لِتَلْقَى
عَقِيدَةَ السَّلْفِ فِي إِثْبَاتِ مَا وَرَدَ عَلَى مَا وَرَدَ مَعَ التَّنْزِيهِ ، فَلَجَّؤُوا إِلَى تَأْوِيلِ
الصِّفَاتِ عَلَى الْمَعَانِي اللَّائِقَةِ .

فَلَمَّا جَاءَ رَجُلٌ إِلَى الْإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَهُوَ مِنَ السَّلْفِ
الصَّالِحِ لَا مِنْ أَتْبَاعِ التَّابِعِينَ - وَقَالَ لَهُ :

مَا مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : { يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ } ؟

قَالَ لَهُ : يَعْنِي : قُدْرَةُ اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ قُدْرَتِهِمْ .

فَأَوَّلَ لَهُ ، إِذْ لَمْ يَرِ فِيهِ الْاسْتِعْدَادَ وَالتَّحْمَلَ لِمَذْهَبِ السَّلْفِ فِي الْعَقِيدَةِ . اهـ

قَوْلُ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : [يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى
كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ] ... الْحَدِيثُ

أَيُّ فَهْوٍ وَقَتٌ يَتَجَلَّى اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ عَلَى عِبَادِهِ بِالْقَبُولِ وَالْإِجَابَةِ وَالْمَغْفِرَةِ
وَالرَّحْمَةِ ، وَبِذَلِكَ التَّجَلِّيِ تَرْتَفِعُ الْحُجُبُ حَتَّى تَفِيضَ الْأَسْرَارُ وَالْأَنْوَارُ وَتَصِلَ
إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، وَمَا عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ إِلَّا التَّوَجُّهُ وَقَتْنِدٌ لِاسْتِنزَالِ تِلْكَ
الْخَيْرَاتِ وَالْبَرَكَاتِ وَالرَّحْمَاتِ مِنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا ، كَسَحَابَةٍ أَظَلَّتْ أَرْضَ قَوْمٍ
فَعَلَيْهِمْ وَقَتْنِدٌ أَنْ يَسْتَمَطَّرُوهَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِيَنَالُوا مَاءَهَا وَخَيْرَهَا .

١ رَوَاهُ الْإِمَامُ الْبُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ فِي كِتَابِ الشَّهَادَاتِ عَنْ سَيِّدِنَا عَبْدِ اللَّهِ
بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

٢ مَسْنَدُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ٣٤١٣

فعلى المؤمن العاقل أن يلبّي دعوة ربّه في ذلك الوقت وينهض من نومه وينتبه من غفلته ليقابل ذلك التّجلي الإلهي بالتّحلي بعبادة الله تعالى ودعائه والصّلاة له سبحانه ، وهذا قوله تعالى في الحديث السابق: [مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ ؟] أي فأحصل له الإجابة ، لأنّ إجابة الله تعالى لعبده فيما يدعو له تكون بموجب حكمته سبحانه وعلمه بما هو - أي:

هذا العبد السّائل - أحوج إليه ، كما جاء بيان ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في أنّه سبحانه إمّا أن يعجّل إجابة الدّاعي ويعطيه ما سأله ، وإمّا أن يدفع عنه من البلاء ما لم يكن يعلمه ذلك العبد ، وإمّا أن يدخر له إجابة دعوته إلى الآخرة لعلمه سبحانه بحاجة العبد إلى ذلك يوم القيامة^١.

وإنّ الله تعالى يجيب دعوة عبده إذا استوفى الدّاعي شروط الإجابة التي أعظمها : حضور القلب في الدّعاء والتّوجّه إلى الله تعالى ، وذلك ما لم يدع العبد باثم أو قطيعة رحم.

وقد يجيب الله سبحانه وتعالى دعوة العبد المُشرك إذا دعاه لأموال الدنيا ، كما قال سبحانه : { وترجون من الله ما لا يرجون } ، فأثبت للمشركين رجاء من الله تعالى لكن في أمور دنيوية ، ومنها كثرة المال والأولاد.

وأما دعاء المشركين ربّهم في أمور الآخرة كطلب المغفرة وهم على شركهم أو سؤالهم تخفيف العذاب يوم القيامة فلا يجيبهم سبحانه إلى ذلك ، كما قال تعالى: { وما دعاء الكافرين إلا في ضلالٍ }.

١ روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي سعيد رضي الله عنه أنّ النّبّيّ صلّى الله عليه وسلّم قال: [مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ وَلَا قَطِيعَةٌ رَحِمَ إِلَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا. قَالُوا: إِذَا نَكَّرَ، قَالَ: اللَّهُ أَكْثَرُ].

وإنَّ قوله تعالى مخاطباً المؤمنين: { وترجونَ منَ الله ما لا يرجونَ } أي ما لا يرجوهُ المشركونَ من حطامِ الدُّنيا ، إنَّ في الآية تنبيهاً للمؤمنِ أن لا تكون همتهُ وعزيمتهُ في الدُّعاءِ مقتصرةً على أموالِ الدُّنيا وما فيها ، كما هو حالُ أهلِ الدُّنيا من المشركين وغيرهم ، بل لتكنَ همتهُ أعلى من ذلك ، ورغبتهُ فيما عندَ الله تعالى أعظم ، وليسألِ الله تعالى أن يكرمهُ بنيلِ مقاماتِ القربِ منه سبحانه والتلذُّذِ بعبادتهِ وطاعتهِ جل وعزَّ ، وإلى هذا أشارَ قوله تعالى: { ومنهم من يقولُ ربِّنا آتنا في الدُّنيا حسنةً وفي الآخرةِ حسنةً وقنَّا عذابَ النَّارِ } أي: آتنا ما يحسنُ به حالنا في الدُّنيا وفي الآخرةِ ، فسألوهُ سبحانه خيرَ الدُّنيا وخيرَ الآخرةِ ، وسألوهُ الوقايةَ من النَّارِ ، ونسألُ الله تعالى ذلكَ من فضلهِ .

وعلى المؤمنِ أن لا يضيعَ وقتَ السَّحرِ بالنَّومِ أو السَّهرِ فيما لا فائدةَ منه ، ولتكنَ له حصَّةٌ كلَّ ليلةٍ يقومُ فيها لله تعالى مصلياً داعياً مستغفراً ربَّه سبحانه وتعالى ، وليتعرَّضَ لنفحاتِ الله تعالى في ذلكَ الوقتِ .

وإنَّ أشدَّ ما يتحسَّرُ عليه المؤمنُ بعد موتهِ هو تضييعهُ لوقتِ السَّحرِ بالنَّومِ والغفلةِ ، وذلكَ لما يرى ويشهدُ من أنوارِ وأسرارِ التَّجلياتِ الإلهيةِ على القائمينَ في السَّحرِ ، والتي حرمَ نفسه خيرها لما كانَ في الدُّنيا .

ونسألُ الله تعالى العظيمَ ربَّ العرشِ العظيمِ ، بجاهِ رسولهِ ذي الخُلُقِ العظيمِ صلى الله عليه وسلم أن يتفضَّلَ علينا بما هو أهلهُ، إنَّه هو أهلُ التَّقوى وأهلُ المغفرةِ .

ونسألُ الله التوفيقَ، وصلى الله على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً، والحمد لله رب العالمين .

المحاضرة السادسة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أمّا بعد: بالسند المتّصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال : باب الدعاء في الصلاة

ثم أورد بسنده إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: عَلَّمَنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي، قَالَ: [قُل:اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

كُنَّا نَقُولُ فِي الصَّلَاةِ: "السَّلَامُ عَلَى اللَّهِ، السَّلَامُ عَلَى فُلَانٍ، فَقَالَ لَنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ: [إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، فَإِذَا قَعَدَ أَحَدُكُمْ فِي الصَّلَاةِ فَلْيَقُلْ: "التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ" فَإِذَا قَالَهَا أَصَابَ كُلَّ عَبْدٍ لِلَّهِ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ صَالِحٌ "أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ" ثُمَّ يَتَخَيَّرُ مِنَ الثَّنَاءِ مَا شَاءَ]¹.

أي من الدعاء . اهـ

قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عَلَّمَنِي دُعَاءً) -أي: دعاء جامعاً للخير في الدنيا والآخرة - (أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي) - أي: أدعو به في صلاتي لأنها أقرب أحوال العبد من ربه ، والصلاة صلة العبد بربه أي: أقرب ما يكون منه ، وإن أقرب أحوال الصلاة إلى الله تعالى هي حالة السجود .

¹ صحيح البخاري كتاب الدعوات

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : [قُلْ:اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا] - وفي رواية : [اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَبِيرًا] ١ - ولا تنافي بين الروایتين ولا بأس للمصلي أن يقول مرةً بهذه ومرةً بتلك ، أو أن يقول :

(اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا كَبِيرًا) .

قوله صلى الله عليه وسلم: [قُلْ:اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا] مع أن الصديق رضي الله عنه لم يرتكب الكبائر في حال الجاهلية فما بالك بعد الإسلام؟!

نعم إن الذنب أمر نسبي يختلف من مُذنبٍ إلى آخر على مرتبة كل مؤمن في الإيمان .

والقاعدة المشهورة في بيان ذلك: (حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومُباحات عوام المؤمنين سيئات عند الأبرار) والأبرار هم أهل الإيمان الكامل الذين تحققوا بشعب الإيمان كلها ، أما المقربون فقد زادوا على الأبرار وسبقوهم بالنوافل ، فقد يصدر من المؤمن الكامل هفوات وتقصيرات تصير في حقه ذنباً ، وذلك بالنسبة لمقامه عند الله تعالى ومقام الله عليه ، ومن ذلك ما علّم رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر رضي الله عنه ، لا أن أبا بكر رضي الله عنه قد وقع في المعاصي والذنوب المعروفة إذ إنه رضي الله عنه بلغ من ورعه أن يضع تحت لسانه حصاة^٢ لئلا يتسرع في الكلام خشية أن يقع في غيبة أحد أو في كلام سييء أو لا طائل منه فتذكره تلك الحصاة أن يتفكر فيما سيقوله ، فإن كان خيراً نطق به وإلا أمسك عن الكلام .

١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

٢ انظر كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ١١١/٣

واعلم أنه كلما ارتقى المؤمن في مراتب الإيمان صفا قلبه وقوي نور بصيرته، ومن شأن النور أن يظهر لك الأمور، وكلما قوي النور كشف لك عن حقائق الأمور، وكذلك لما يقوى نور الإيمان في قلب المؤمن يرى في نفسه ذنباً لم يكن يراها من قبل فيستغفر منها ويتوب إلى الله تعالى منها... وهكذا.

ألا ترى إلى نور الشمس المادي المشهود بالأبصار إذا دخل الغرفة من نافذة متوجهاً كالشعاع، فترى خلال الشعاع الغبار الدقيق الذي لا يظهر للعيان عادة، بل إن قوة نور الشمس أظهرت النواغم والدقائق، وكذلك إذا دخل نور الإيمان قلب المؤمن فإنه يرى هفواته وذنوبه وزلاته التي كان في عمى عنها مع أنها كانت موجودة فيه إلا أنه لم يرها إلا لما قوي نوره فتحتاج هذه الدقائق والصغائر إلى مغفرة الله تعالى ورحمته.

ومن الذنوب عند أهل الإيمان الكامل الغفلة عن المسبب حين تعاطي الأسباب، إذ لا بد للمؤمن أن يراقب الله تعالى في جميع أحواله فلا يغفل أبداً عن أن الله تعالى هو الذي يُذهب ظمأه بشربة الماء، وهو سبحانه الذي يقويه ويغذيه بتناول الطعام، وهو سبحانه الذي يشفيه بتناول الدواء، وهو سبحانه الذي يبقي عليه حياته بتنفس الهواء... وهكذا شأن الأسباب، وليس للأسباب تأثير من ذاتها بل هي خلق من خلق الله تعالى، خلقها الله تعالى وأمر بالأخذ بها مع عدم الغفلة عن أنه سبحانه هو المؤثر والفعال فيها، إن شاء أعملها، وإن شاء أهملها، فقد يُحرق بالنار وقد لا يُحرق كما جعلها برداً وسلاماً على خليفه سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى السلام، وقد يُغرق بالماء وقد لا يُغرق كما أغرق قوم نوح وأنجى نوحاً على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأزكى السلام وأنجى من معه في السفينة، وقد يشفي بالدواء وقد لا يشفي لحكمة ربانية وهكذا.

فمن غفل عن رؤية المسبب والمؤثر في الأسباب -وهو الله تعالى- فقد وقع في الشرك الخفي ويسمى الشرك الأصغر وهو ذنب كبير يحتاج إلى توبة واستغفار.

ولذلك من نظر إلى نفسه ورأى أن له وجوداً وقواماً وقوة وسمعاً وبصراً وإرادة وغفل عن أن ذلك كله بخلق الله تعالى وقدرته وإيجاده ومدده.. وأن لا شيء له من ذاته، من غفل عن ذلك فقد وقع في الشرك الأصغر أيضاً.

وربما يعرف العبد ذلك معرفة عقلية علمية ليست معرفة تحققية فيقال: هذا أيضاً ذنب ، إلا أن التفكير والنظر إلى أن قوتك وقوامك ووجودك وسمعك وبصرك إنما هي بإيجاد الله ومدده أمر مطلوب ملاحظته ومشاهدته على الدوام ، والغفلة عنه -ولو للحظة- ذنب يحتاج إلى استغفار، فافهم من هنا معنى الذنب في حق المقربين أو الأبرار أو عوام المؤمنين .

قوله صلى الله عليه وسلم: [وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ] وفي هذا توحيد لله تعالى بأنه هو وحده الغفار ، ولا أحد سوى الله تعالى يستطيع أن يغفر الذنوب وذلك من وجوه متعددة كنا قد ذكرناها في غير هذا المبحث ، ومنها أن لا أحد يستطيع أن يزيل ظلمة الذنب عن القلب إلا الله تعالى وذلك لأن للذنوب آثاراً ظلمانية على قلب المذنب نفسه ، وفي الحديث: [إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِّتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ]^١....

كما أنه لا أحد يستطيع أن يمحو أثر الذنب من كتب الملائكة ومن حافظة الملائكة الكرام الكاتبين ومن حافظة الأشهاد -وهي كل من شاهد المذنب أثناء ذنبه ممن حوله من الأرض والجدار والشجر والمدر- وهكذا لا يستطيع أحد أن يمحو أثر ذلك كله إلا الله تعالى ، كما أنه لا أحد يغفر الذنوب على الحقيقة إلا الله تعالى فهو سبحانه وتعالى يغفر لعبده دونما مقابل ، بل هو سبحانه الغني عن سائر خلقه أزلاً أبداً ، وأما العبد إذا عفا عن أساء إليه فقد غفر له طمعاً في مغفرة الله تعالى كما في الحديث [ارحموا تُرحموا، واغفروا يغفر الله لكم]^٢ .

١ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

٢ طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٦٣٤٩ والأدب المفرد للإمام البخاري

واعلم أن النفس لوحٌ يلوح فيها ما يبدو منك ، وذلك لأن اللوح يطلق على كل ما لاح أمامك سواء كان مسطوراً أم مشهوداً بصور أخرى ، ويلوح في نفس الإنسان آثار أعماله وأقواله ، فإن كانت أعمالاً صالحة وأقوالاً خيرة لاحت في نفسه أنوارها ، وإن كانت غير ذلك لاحت في نفسه ظلمة المعاصي، ولو كشف لإنسان الحجاب عن لوح نفسه لقرأ فيها ظلمات الذنوب ولرآها أشد من ظلمة الليل، لكن الله تعالى الغفار يستر عباده ولا يفضحهم ، إلا من جاوز حده كلياً رفع الله عنه الستر وفضحه ، ونسأل الله العافية .

وقال بعض العارفين في قوله تعالى : { اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً } أي انظر في نفسك فتلوح لك فيها أعمالك وأقوالك في الخير والشر فكن أنت المحاسب لنفسك .

قوله صلى الله عليه وسلم : [فَاعْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ] أي مغفرة من فضلك وكرمك ، مغفرة عامة تأتي على ذنوبي كلها فتغفرها .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ] يعني : مغفرة من فضلك، لا أنها مرتبة على توبتي واستغفاري ، فإن استغفاري وتوبتي قاصران عن أن يحيطا بذنوبي .

قوله صلى الله عليه وسلم : [وَارْحَمْنِي] أي اجلب لي خير الدنيا والآخرة - [إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] فقوله صلى الله عليه وسلم : [الْغَفُورُ] يقابل قوله : [فَاعْفِرْ لِي] ، وقوله : [الرَّحِيمُ] يقابل قوله : [وَارْحَمْنِي] ، وجملة [إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ] جملة تعليلية أي : لأنك أنت الغفور الرحيم فاغفر لي وارحمني وفي هذا توسل إلى الله بأسمائه سبحانه .

ومما جاء في أدعية آخر الصلاة قبل السلام ما رواه البخاري أيضاً عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : [اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثَمِ وَالْمَغْرَمِ] ^١ .

١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأذان

ولقد كان صلى الله عليه وسلم يدعو بذلك آخر صلواته ليعلم الأمة أهمية الدعاء وحتى يسمع الصحابة ويبلغوا عنه ، وإلا فهو صلى الله عليه وسلم معصوم من عذاب القبر ، ولن يدرك المسيح الدجال .

وقال بعضهم : إنه صلى الله عليه وسلم يعوذ أمته بقوله: [اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ] فالرسول صلى الله عليه وسلم يعيد أمته المتبعة له من عذاب القبر ومن فتنة الدجال ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم قال: "اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر لأمتي" ، وذلك لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين رؤوف رحيم فدعا لهم وأعادهم .

قوله صلى الله عليه وسلم : [وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَالِ] والدجال في اللغة هو الكذاب المحتال ، وإذا أطلقت كلمة الدجال فيراد منها دجال آخر الزمن الذي جاء ذكره بالأحاديث المتواترة ، ومن أنكره فهو كافر.

وإن من جملة عقيدة أهل السنة والجماعة الاعتقاد بظهور الدجال آخر الزمن ، وأن سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام ينزل ويقتله ، وتطلق كلمة [المسيح الدجال] على دجال آخر الزمن بالتقييد فيقال: المسيح الدجال ، أما إذا أطلقت كلمة المسيح فيراد منها سيدنا عيسى بن مريم عليه السلام .

وذكر بعضهم أنه يطلق على الدجال: (المسيح) بالخاء ، وعلى غيره (المسيح) بالحاء^١ ، إلا أن كل الأحاديث الصحيحة جاءت على ذكر المسيح الدجال بالتقييد.

أما الدجال فقد سمي بـ (المسيح) لأنه أحد جانبي وجهه ممسوح من العين^٢ إلى الخد فهو ممسوح العين اليمنى وما حولها ، ونسأل الله العافية ، كما أنه يمسح الأرض^٣ أو يطوف الأرض ما عدا الحرمين .

١ انظر البحث حول هذه المسألة في فتح الباري ١٣٦/٢٠

٢ جاء في مسند الإمام أحمد قوله ﷺ: [أُنذِرُكُمْ الْمَسِيحَ الدَّجَالَ وَهُوَ رَجُلٌ مَمْسُوحُ الْعَيْنِ...] الحديث

٣ انظر حاشية السندي على سنن ابن ماجه ٢٨٧/٢

وأما سيدنا عيسى عليه السلام فهو المسيح بمعنى (ماسح) ^١، فكان يمسح الأكمه و الأبرص والأعمى والمريض فيبرأ بإذن الله تعالى كما جاء في الآية: { وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله } كما أنه عليه السلام مسح جبريل عليه السلام بأمر الله وبارك فيه ، وإن فتن المسيح الدجال فتن كبيرة تجتمع فيها جميع الفتن التي مرت على أهل الأرض من لدن سيدنا آدم عليه السلام ^٢، ويأتي الدجال بالعجائب والغرائب ما يفتن به ضعفاء الإيمان كما ورد أنه يمر على مقبرة فينادي أهلها فيقومون من قبورهم فيراهم الناس بصور من يعرفونهم من أقرباء وأصحاب ، وما ذلك في الحقيقة إلا شياطين تتمثل بصورة آدمية ، فيراهم الناس ويظنون أنهم أهل تلك المقبرة ^٣.

قوله صلى الله عليه وسلم: [وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ] أي من فتنة الحياة الدنيا ، فمن الواجب على المؤمن أن يستعيد بالله تعالى من أن يُفتن في دينه ، ويسأل الله أن يحفظه من فتن الحياة الدنيا ، فقد تكون هذه الفتن في ماله أو ولده أو زوجه ، وقد قال تعالى : {واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم } والفتنة في الأصل ما فيه الافتتان و الاختبار ، والفتنة والمحنة والابتلاء والاختبار كلها بمعنى واحد ، فقد يفتن الله تعالى العبد ويختبره في أمر ما، فإما أن يبقى على إيمانه وتمسكه وإما أن يزيغ ويضل ونسأل الله العافية .

١ انظر تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي ٣٩٣/٨

٢ جاء في مسند الإمام أحمد قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أكبر من الدجال]، وفي رواية عنده : [ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة أمر أعظم من الدجال].

٣ جاء في سنن ابن ماجه ومستدرک الحاكم قوله صلى الله عليه وسلم عن الدجال: [وإن من فتنته أن يقول لأعرابي : أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهد أني ربك ؟ فيقول : نعم ، فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه، فيقولان : يا بني ، اتبعه ، فإنه ربك]... الحديث

وقال تعالى : {وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلمهم يرجعون} أي اختبرهم الله تعالى بالنعم والخيرات التي يحسن بها حالهم : هل يعترفون ويشكرون أم يجحدون ويكفرون؟ واختبرهم سبحانه بالمصائب والنوائب التي يسوء بها حالهم : هل يصبرون ويرجعون إلى الله تعالى متضرعين أم يتضجرون ويزيدون في ضلالهم ؟

وقوله تعالى : {واعلموا} تنبيه إلى خطر الأمر الذي سيعلمهم عنه {أنما أموالكم وأولادكم فتنة} أي يختبركم الله تعالى بها ، فإن فتح الله على إنسان أبواب الخيرات ووسع عليه رزقه وقام بشكر الله تعالى من أداء حق الله في ماله من زكاة وصدقات وفعل للخيرات فإن المال في حقه عندئذ نعمة أنعم الله بها عليه ، وإلا كان في حقه فتنة يُفتن بها إن هو بخل وشح وأنفقه في المعاصي والملاهي ، وكذلك من رزقه الله تعالى الأولاد فقام بتربيتهم تربية إسلامية صالحة وتعهدهم بالصلاة والتعاليم والآداب الشرعية والسنة المحمدية كان الولد في حقه عندئذ نعمة ، وإن هو أهمله وتركه يتخبط في الضلالات و الشهوات المحرمة كان في حقه عندئذ فتنة افتتن بها وخسر ، نسأل الله العافية ، وقد بين ذلك سبحانه بقوله جل وعلا : { إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم } وكما أن الوالد قد يضلّ ولده أو يهوده أو ينصره أو يمجسه كما بين صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : [كُلُّ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ عَلَى الْفِطْرَةِ فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ] ^١ كذلك فإن الولد قد يكون سبباً في فتنة أبيه وضلاله إن هو تعلم علوم الدنيا وأعجب بنفسه وخالط الكفرة واعتاد عاداتهم وعمل بها واستحسنها فيقوم بسفه أباه ويسخر من لحيته وسبحته وعبادته فيتأثر الأب - ضعيف الإيمان - يتأثر بأفكار ولده وآرائه الضالة ونسأل الله العافية .

وقد أخبر سبحانه عن ذلك في قصة الخضر وموسى عليهما السلام لما قتل الخضر الغلام وبين لموسى الحكمة من قتله له : {وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً} .

١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجنائز

وقال صلى الله عليه وسلم: [إِنَّ الْغُلَامَ الَّذِي قَتَلَهُ الْخَضِرُ طَبِعَ كَافِرًا ، وَلَوْ عَاشَ لَأَزْهَقَ أَبَوَيْهِ طُغْيَانًا وَكُفْرًا]^١ .

قوله صلى الله عليه وسلم: [وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَفِتْنَةِ الْمَمَاتِ]
فقد يفتن الإنسان أيضاً في حياته الدنيا وسائر معاملاته إن هو لم يلزم حدود الله تعالى فيها .

وفتنة المحيا أن يفتن الإنسان عند موته - نسأل الله العافية - فليسأل المؤمن ربه أن يحفظه ويقيه ذلك كله، وهناك فتن السؤال في القبر لما يسأل الملك الميت في قبره عن إيمانه برسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولان له بأسلوب الممتحن والمختبر: [ما كنت تقول في هذا الرجل؟]^٢ وفي رواية: [وما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟]^٣ .

فمن كان مؤمناً حقاً ثبته الله تعالى وأمهده وأجاب بما تحقق به فيقول: أشهد أنه عبد الله ورسوله جاءنا بالبينات والهدى فأجبناه واتبعناه ، ولا يجيب بهذا الجواب إلا من أجاب دعوة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإيمان واتبعه حقاً ، وفي هذا يقول سبحانه: { يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين } أي لأنهم ظالمون جحدوا وعاندوا { ويفعل الله ما يشاء } .

قوله صلى الله عليه وسلم: [اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْمَأْثِمِ وَالْمَغْرَمِ] وفي ذلك تعوذ بالله تعالى من أن يقع الإنسان في ذنوب مع الله تعالى أو حقوق مع خلق الله تعالى .

وقوله صلى الله عليه وسلم: [مِنَ الْمَأْثِمِ] أي الإثم وهي الذنوب ، فليسأل الإنسان ربه أن يحفظه من الذنوب ما ظهر منها وما بطن وما صغر وما كبر .

١ صحيح مسلم كتاب القدر

٢ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الجنائز وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

٣ طرف حديث في سنن أبي داود كتاب السنة والمسند ١٧٨٠٣

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَالْمَغْرَمِ] أي الدين الثقيل وهو من حقوق العباد، ومن أخذ أموال الناس قرضاً أو استثماراً لها بطرق مشروعة من تجارة ونحوها ، وقصده أن ينتفع بها وينفع الناس من وراء ذلك لكنه لضائقة أصابته عجز عن أداء حق الناس وهو حريص على أدائها لأصحابها ولا يتهور في أعماله أو يتسبب في ضياع ماله فمثل هذا يؤدي الله عنه يوم القيامة ويرضي سبحانه خصومه ، أما من أخذها مستهتراً بأدائها غير مكترث بها أهانه الله وأتلفه كما بين ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله: [مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّاهَا اللَّهُ عَنْهُ وَمَنْ أَخَذَهَا يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ]¹.

فلا يحلُّ للإنسان أن يتوسع في الدين من غير ضرورة لئلا يعجز عن أدائه وهذا ما علمنا صلى الله عليه وسلم أن نستعيد بالله منه وهو المغرم، نسأل الله تعالى العافية .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة السابعة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، وأفضل الصلّاة وأكمل التّسليم على سيّدنا محمّد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علّمتنا إنك أنت العليم الحكيم.
أمّا بعد:

بالسند المتّصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب : يستجاب للعبد ما لم يعجل

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول : دعوتُ فلم يستجب لي] .

باب: رَفَعِ الأَيْدِي فِي الدُّعَاءِ

وقال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه :

(دعا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم ، ثمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ ورَأَيْتُ بياضَ إبطِيهِ).

وقال ابنُ عمر رضي الله عنه :

(رَفَعَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يَدَيْهِ)^١ - أي حينَ دَعَا - .اهـ

وفي روايةٍ للحديثِ المتقدّم عندَ الإمامِ مسلمٍ : [يستجابُ لأحدكم ما لم يعجلُ فيقولُ : قد دعوتُ ربِّي فلمَ يستجبُ لي]^٢ .

أما منزلة الدُّعاء في الدِّين فهو عبادةٌ لله تعالى ، لقوله تعالى : { وقالَ ربِّكم ادعوني أستجبُ لكم إنَّ الذينَ يستكبرونَ عنْ عبادتي سيدخلونَ جهنّمَ داخرينَ } .

١ انظر صحيح البخاري كتاب الدعوات

٢ انظر صحيح مسلم كتاب الذِّكْرِ والدُّعَاءِ والتوبة والاستغفار

ف قوله تعالى: { ادعوني } أمرٌ للعباد أن يدعوه ، وامثالُ أمرِ الله تعالى فيما أمرَ هو عبادةُ الله تعالى ، فالذي يدعو ربّه إنّما قامَ بعبادته ، أمّا استجابهُ الله تعالى لعبده فيما دعا فهذا أمرٌ آخرُ يرجعُ إلى علمِ الله تعالى وحكمته وفضله.

ومن عصى أمرَ الله تعالى ولم يدعُ الله جل وعلا فقد استكبرَ عن عبادة الله تعالى ، وهذا قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي } - أي عن دُعائي - { سيدخلون جهنم داخرين } أي ذليلين.

فالمقصودُ الأوّلُ من الدُّعاء أن يعبدَ الإنسانُ ربّه بدعائه له.

وقد ذكّرَ سبحانه في كتابه العزيز وأخبرَ عن الكافرين أنّ قلوبهم قد قست ولم تعد تدعو ربّها وتتضرعُ إليه حتّى في الشدائدِ والكرباتِ ، فقال سبحانه على سبيل الإنكارِ والرّجسِ : { فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرّعوا ولكن قست قلوبهم وزين لهم الشيطانُ ما كانوا يعملون }.

أما شأنُ المؤمنين فهو التّضرعُ إلى الله سبحانه وتعالى وسؤاله وانكسارُ القلبِ له.

وإن إجابة الله تعالى لعبده حاصلَةٌ لا محالة ، كما بيّن ذلك سيّدنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقوله: [ما من مسلمٍ يدعو بدعوةٍ ليسَ فيها إثمٌ ولا قطيعةٌ رحمٍ ، إلا أعطاهُ اللهُ بها إحدى ثلاثٍ : إمّا أن تُعجّلَ له دعوتهُ ، وإمّا أن يدخرها له في الآخرةِ ، وإمّا أن يصرفَ عنه من السوءِ مثلها] - أي مثل ما دعا- [قالوا : إذا نُكثِرُ ، قال : اللهُ أكثَرُ]^١ .

١ مسند الإمام أحمد ١٠٧٠٩

وفي رواية عند الإمام مُسَلِّم^١ عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ : [لا يزالُ يستجابُ للعبدِ ما لم يدعُ باثمٍ أو قطيعةَ رَحِمٍ، ما لم يستعجلْ.

قيلَ : يا رسولَ اللهِ ما الاستعجالُ ؟

قَالَ : يقولُ : قدْ دعوتُ وقدْ دعوتُ ، فلمْ أَرِ يستجيبُ لي ، فيستحسرُ^٢ عندَ ذلكَ ويدعُ الدُّعاءَ] .

فالإجابةُ إذاً حاصِلةٌ ، لكنْ بما فيه الأصلحُ والأَنْفَعُ للدَّاعي ، وهذا من فضلِ الله تعالى ورحمته بالدَّاعي.

وقد روى الحاكمُ في المستدرِكِ عن جابرِ بنِ عبدِ اللهِ رضي اللهُ تعالى عنهما عن النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلَّم قال : [يدعو اللهُ تعالى بالمؤمنِ يومَ القيامةِ^٣ حتى يوقفه بين يديه فيقولُ : عبدي إني أمرتُكَ أنْ تدعوني ، ووعدتُكَ أنْ أستجيبَ لك ، فهل كنتَ تدعوني ؟

فيقولُ : نعم ربِّ .

فيقولُ : أما إنكَ لم تدعني بدعوةٍ إلا استجبتُ لك ، فهل دعوتني يومَ كذا وكذا لِغَمٍّ نزلَ بك أنْ أُفْرَجَ عنكَ ففَرَّجتُ عنكَ ؟

فيقولُ : نعم يا ربِّ

فيقولُ : إني عَجَلتُها لك في الدُّنيا ، ودعوتني يومَ كذا وكذا لِغَمٍّ نزلَ بك أنْ أُفْرَجَ عنكَ فلم ترَ فرجاً ؟

قال : نعم يا ربِّ .

فيقولُ : إني ادَّخرتُ لك بها في الجنَّةِ كذاً وكذاً .

١ صحيح مسلم كتاب الدُّكرِ والدُّعاءِ والتوبة والاستغفار

٢ أي يملُّ فلا يدعُو اللهُ تعالى بعدَ ذلك .

٣ أي يطلبُ عبده المؤمنَ .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فلا يدعُ اللهُ دعوةً دعا بها عبدهُ المؤمن إلا بين له : إمّا أن يكونَ عَجَلَ له في الدُّنيا ، وإمّا أن يكونَ ادّخرَ له في الآخرةِ .

قال : فيقولُ المؤمنُ في ذلك المقام : يا ليتهُ لم يكن عَجَلَ له في شيءٍ من دُعائه [.

وأما قوله صلى الله عليه وآله وسلم : [وإمّا أن يصرفَ عنه من السُّوءِ مثلها] أي من البلاء الذي كان سيصيبُ هذا العبد لولا دُعَاؤه الذي ردَّ ودفعَ هذا القضاء ، وإن كان الكُلُّ بقضاءِ الله تعالى وقدره .

روى ابنُ حَبَّانَ في صحيحه والحاكمُ واللفظُ له وصحَّحَ إسنادهُ عن ثوبانَ رضيَ اللهُ عنه قالَ : قالَ رسولُ اللهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ : [لا يَرُدُّ القَدَرَ إلا الدُّعاء ، ولا يزيدُ في العُمُرِ إلا البرُّ ، وإنَّ الرَّجَلَ لِيُحْرَمَ الرِّزْقَ بالذَّنْبِ يُصِيبُهُ] .

فالذَّنْبُ حجابٌ يحجبُ وصولَ الرِّزْقِ إلى المُذنبِ .

وأما ما تراه من تسهيلِ أمورِ الدُّنيا على الفُسَّاقِ والعصاةِ فهذا من بابِ المكر والاستدراج ، لا من بابِ الرِّزْقِ الإلهي النَّافع لهم ، كما دلَّت على ذلك الأحاديثُ النَّبويَّةُ .

وقد قال اللهُ تعالى في الكفار : { سنستدرجهم من حيث لا يعلمون * وأملي لهم } - أي وأعطيتهم أموالَ الدُّنيا لا إكراماً لهم بل كيداً بهم - { إنَّ كيدي متينٌ } .

وقال اللهُ تعالى : { ولا يحسبنَّ الذينَ كفروا أنَّمَا نُملي لهم خيراً لأنفسهم إنَّمَا نُملي لهم ليزدادوا إثماً ولهم عذابٌ مهينٌ } .

١ أخرجهُ ابنُ حبانَ في كتابِ الرِّقائِقِ والحاكمُ في كتابِ المناسكِ .

روى ابن ماجه^١ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : [أَيُّهَا النَّاسُ ! اتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ ، فَإِنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَوْفِيَ رِزْقَهَا ، وَإِنْ أَبْطَأَ عَنْهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ ، خُذُوا مَا حَلَّ وَدَعُوا مَا حُرِّمَ] .

وروى الطبراني في الكبير وأبو نعيم في الحلية عن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : [إِنَّ رُوحَ الْقُدْسِ نَفَثَ فِي رُوعِي : أَنْ نَفْسًا لَنْ تَمُوتَ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ أَجْلَهَا وَتَسْتَوْعِبَ رِزْقَهَا ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمَلُوا فِي الطَّلَبِ ، وَلَا يَحْمِلَنَّ أَحَدُكُمْ اسْتِبْطَاءَ الرِّزْقِ عَلَى أَنْ يَطْلُبَهُ بِمَعْصِيَةِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ] - أي من الرزق النافع الطيب - [إلا بطاعته]^٢ .

فليعلم الإنسان أن ما جاء من الرزق عن غير طاعة الله تعالى فهو مكر به واستدراج له ، نسأل الله العافية.

وأما قوله صلى الله عليه وسلم: [لا يردُّ القدر إلا الدعاء] هذا لأنَّ الدعاء هو سبب من جملة الأسباب التي خلقها الله تعالى ، وأمر الإنسان أن يأخذ بها لتستمر حياته ويصل إلى مقصوده.

وقد ربط سبحانه المقدرات والحوادث بأسباب معينة لا بُدَّ منها لحصول المقصود وإن كان الكلُّ بقضاء الله تعالى وقدره.

فكما يجوع الإنسان بقضاء الله وقدره ، فإنه يدفع عنه الجوع بالطعام فيأكل بقضاء الله وقدره ، ويشبع بقضاء الله وقدره ، وبذلك يكون الإنسان قد دفع عنه قدر الجوع بأن تعاطى سبب دفع ذلك وهو الأكل ، وهو بقدر الله تعالى أيضاً ، ولو شاء الله لما أشبعه وإن أكل.

١ سنن ابن ماجه كتاب التجارات

٢ عزاه في الكنز لأبي نعيم في الحلية ورواه الطبراني في الكبير وأصله في سنن ابن ماجه في كتاب التجارات

وهكذا لو شاء الله تعالى لَمَا أَرَوَى فُلَانًا وَإِنْ شَرِبَ ، ولما رَزَقَ فُلَانًا الْوَلَدَ وَإِنْ تَزَوَّجَ ، ولما شَفَى فُلَانًا وَإِنْ تَعَاطَى الدَّوَاءَ ، وهكذا لَأَنَّ الله تعالى قد خلق الأسباب وجعلها خُدَامًا بَيْنَ يَدَيْهِ تَعْمَلُ بِأَمْرِهِ وليس لها تَأْثِيرٌ مِنْ ذَاتِهَا ، فَإِنْ شَاءَ سَبَحَانَهُ أَعْمَلَهَا لِمَا خَلَقَهَا لَهُ وَإِنْ شَاءَ أَهْمَلَهَا.

وَلَا بُدَّ إِذَا مِنْ تَعَاطِيِ الْأَسْبَابِ ، لَأَنَّ الله تعالى قد شرعها وأمر بالأخذ بها ، فالمؤمنُ الذي عمل الصَّالِحَاتِ يَدْخُلُهُ اللهُ تعالى الْجَنَّةَ بسببِ إيمانه وعمله الصَّالِحِ، كما قال اللهُ تعالى : {ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون} ، والكافرُ يَدْخُلُ النَّارَ بسببِ كفره وفسادِ عمله.

وبسببِ أَلْفَاظٍ مَعْيَنَةٍ يَنْطَقُ بِهَا الْإِنْسَانُ بِوُجُودِ شَاهِدِينَ يَسْمَعَانِ تَصِيرُ الْمَرْأَةُ زَوْجَتَهُ وَتَحُلُّ لَهُ بَعْدَ أَنْ كَانَتْ حَرَامًا عَلَيْهِ.

وَتَحْرُمُ عَلَيْهِ أَيْضًا بِسَبَبِ أَلْفَاظِ الطَّلَاقِ إِنْ هُوَ تَلَفَّظَ بِهَا.

وَبِسَبَبِ أَعْمَالِ الْبِرِّ وَصَلَةِ الرَّحْمِ يَطِيلُ اللهُ تعالى عَمْرَ الْإِنْسَانِ وَإِنْ كَانَ عُمُرُهُ مَقْدَرًا مَحْدُودًا ، إِلَّا أَنَّهُ سَعَى فِي الْبِرِّ وَصَلَةِ الرَّحْمِ الَّتِي هِيَ أَيْضًا بِقَدْرِ اللهِ تعالى وَسَعَى بِإِطَالَةِ عُمُرِهِ ، وَكَذَا الرِّزْقِ وَالشَّفَاعَةِ وَالسَّعَادَةَ وَإِجَابَةَ الدُّعَاءِ وَدَفْعَ الْقَضَاءِ ، وَالْكَلِّ بِقَضَاءِ اللهِ تعالى وَقَدْرِهِ.

١ ولا يتنافى هذا مع قوله صلى الله عليه وسلم: [لن ينجي أحداً منكم عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمّدني الله برحمته] - أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق - إذ إنه سبحانه لا يتفضل إلا على من كان أهلاً ومستعداً لفضل الله تعالى ، ولا ينال الإنسان ذلك إلا بالإيمان وطاعة الله تعالى فيصير أهلاً لأن يتفضل الله تعالى عليه ويدخله الجنة ، وليس عمل الإنسان موجباً على الله تعالى أن يدخله الجنة بل أوجب سبحانه على نفسه فضلاً منه وكرماً أن يدخل الجنة من آمن به وعبده .

ولو لم يحصل الإنسان من دُعائه على ما رجاهُ فقد حصلَ على عبادة الله تعالى لا محالة ، لأنَّ الدُّلَّ وانكسارَ القلبِ لله تعالى ورفعَ اليدين إلى الله تعالى إنما هي عبادةٌ لله تعالى لها شأنها واعتبارها عندَ الله تعالى ، وقد قال بعضهم رضي الله عنه : (لأنَّ أحرَمَ الدعاءِ أشدُّ علي من أن أُحرَمَ الإجابة)^١ أي لِمَا يجدُ في دعائه من لَذَّةِ نعيمِ مُنْجاةِ الله تعالى.

فمن دعا الله تعالى وسأله فقد عبدَ الله تعالى ، وقامَ بحقِّ الله تعالى عليه مُمتثلاً أمره سبحانه ، وأمَّا إجابة الله تعالى لعبده فيما سأله ورجاه فهذا مقصود العبدِ ، وإنَّ القيامَ بحقِّ الله تعالى أكبرُ وأعظمُ من حُصولِ العبدِ على مراده.

وقد أخبرَ سبحانه في القرآنِ الكريمِ عن جميعِ رسله وأنبيائه والمقرَّبينَ من عباده أنَّهم سألوا الله تعالى ودَعَوْهُ ، لِمَا في الدعاءِ من عُبوديَّةِ لله تعالى يشعرُ بها الدَّاعي على حسبِ إيمانه.

وأما حصولُ الإجابةِ فحاصلٌ لا محالة ، لكن يرجعُ إلى علمِ الله تعالى بما هو الأصلحُ والأُنفعُ لهذا الدَّاعي ، فقد يدعوهُ في أمرِ دنيوي ويلجُ فيه ، لكنَّه سبحانه يعلمُ أنَّ فتنًا وشُبُهَاتٍ ستعرضُ على هذا الدَّاعي ، وقد يزلُّ ويزيغُ إيمانه بسببِها ، فأخَّرَ له إجابةً دعائه لأمرٍ دنيوي ، لكنَّ أجابه بأن حفظه من تلكِ الفتنِ لئلا يزيغَ ويهلكَ.

١ قال الإمام القشيري في الرسالة القشيرية : (وقد قال أبو حازم الأعرج: لئن أحرَمَ الدعاءِ أشدُّ علي من أن أُحرَمَ الإجابة).

وفي الحديث الذي رواه الترمذي^١ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [مَنْ فُتِحَ لَهُ مِنْكُمْ بَابُ الدُّعَاءِ فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الرَّحْمَةِ، وَمَا سُئِلَ اللَّهُ شَيْئًا يَعْنِي أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يُسْأَلَ الْعَافِيَةَ].

وقال صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ وَمِمَّا لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ اللَّهِ بِالدُّعَاءِ]^٢ أي لولا أنه سبحانه أراد الخير بك والرحمة لك لما ألهمك الدعاء ولما وفقك له.

وإنَّ إعراضَ الإنسانِ عن الدعاء وتركه له علامة على قساوة قلبه و شدة حجابِه فتراه إذا ألمَّت به مصيبةٌ أو نزلت به شدةٌ اضطربَ وضجرَ وعانى وضابقت عليه نفسه ومع ذلك كله لا يلجأ إلى ربه ويدعوه ويسأله أن يكشف ما نزل به ! وهذه مصيبةٌ فوق مصيبةٍ . نسأل الله العافية .

ولذلك حريٌّ بكل مؤمنٍ أن يدعو لنفسه ولوالديه وأولاده وزوجه وإخوانه من المؤمنين كلهم ، وخاصةً أولئك الذين وقعوا في الشدائد ولكن قسوة قلوبهم حالت بينهم وبين الدعاء.

كما ينبغي على المؤمن أن يدعو ربه في جميع حالاته أي في حال النعمة وحال النعمة ، وحال الكرب وحال الفرج ، وحال الصحة وحال المرض ، وحال العسر وحال اليسر، ومن أكثر الدعاء والسؤال حالة الرخاء فإن الله تعالى يرحمه وينقذه حال الشدة وإن قصر في الدعاء.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : [تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة]^٣.

١ سنن الترمذي كتاب الدعوات

٢ سنن الترمذي كتاب الدعوات

٣ رواه الإمام أحمد في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما ولفظه قال:

كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: [يَا غُلَامُ أَوْ يَا غُلِيمُ أَلَا أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهِنَّ؟ فَقُلْتُ: بَلَى، فَقَالَ: أَحْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، =

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى يحبُّ الملحِّينَ في الدُّعاءِ^١،
وذلك لأنَّهم التزموا مقامَ العبوديَّةِ له وعكفوا على بابِه متضرِّعينَ منكسرينَ
سائلينَ راجينَ.

وإنَّ للمؤمنِ أسوةَ حسنةَ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، فعليه أن
يقتدي به صلى الله عليه وسلم ويهتدي بهديه.

ومن ذلك : ما وردَ أنَّه صلى الله عليه وسلم كانَ يسألُ الله تعالى ويدعوه في
سائرِ أحيانه وأحواله ، ويُعلمُ الصَّحابةَ رضي الله عنهم دعواتٍ معينةً.

ويعجزُ الإنسانُ عن الإحاطةِ بجميعِ أذكارِه وأدعيتهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ
وَسَلَّمَ ، لكن عليه أن يبذل جهده في العملِ بها ما استطاع لأنها أدعيةٌ
محمديَّةٌ صدرتْ مِنْ أَعْلَمِ خَلْقِ اللهِ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا ، وَأَقْرَبِ خَلْقِ اللهِ إِلَى
اللهِ، وَسَيِّدِ الْمُتَوَكِّلِينَ عَلَى اللهِ ، وَإِمَامِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ
وآلِهِ وَسَلَّمَ.

= أَحْفَظَ اللهُ تَجْدُهُ أَمَامَكَ، تَعَرَّفَ إِلَيْهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ، وَإِذَا
سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهُ، وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ، قَدْ جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ،
فَلَوْ أَنَّ الْخَلْقَ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَرَادُوا أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ
يَقْدِرُوا عَلَيْهِ، وَإِنْ أَرَادُوا أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَكْتُبْهُ اللهُ عَلَيْكَ لَمْ يَقْدِرُوا
عَلَيْهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ فِي الصَّبْرِ عَلَى مَا تَكَرَّهُ خَيْرًا كَثِيرًا، وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ
الْفَرْجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا].

وفي روايةٍ مسندِ عبد بن حميدٍ: [تَعَرَّفَ إِلَى اللهِ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفَكَ فِي الشَّدَّةِ].

١ فقد روى الطبرانيُّ والبيهقيُّ وغيرهما بسندِ الثَّقَاتِ عن السيدة عائشة رضي
الله عنها مرفوعاً : [إِنَّ اللهُ تَعَالَى يَحِبُّ الْمَلْحِينَ فِي الدُّعَاءِ]

انظر فيض القدير : ٢٩٢/٢ .

ولمَّا سأل سيدنا أبو بكر الصِّدِّيق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سيدنا رَسولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يعلمه دُعَاءَ يَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِهِ قَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ فَاعْفُرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ]¹.

وكذا تعليمه صلى الله عليه وسلم لسيدنا علي رضي الله عنه أن يقول:
[اللَّهُمَّ اهْدِنِي و سَدِّدْنِي] ² .

وجاء في سُنَنِ التِّرْمِذِيِّ ³ عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قَالَ : عَلَّمَنِي رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : [قُلْ : اللَّهُمَّ اجْعَلْ سِرِّي خَيْرًا مِنْ عِلَانِي ، واجعلْ علانيتي صالحَةً ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ صَالِحِ مَا تُؤْتِي النَّاسَ مِنَ الْمَالِ وَالْأَهْلِ وَالْوَالِدِ ، غَيْرِ الضَّالِّ وَلَا الْمُضِلِّ] .

إذا عرفت هذا كله فلا يحملنك جهلك على أن تدعي أنك من أهل التَّوَكُّلِ والتَّسْلِيمِ ولا حاجة لك إلى الدُّعَاءِ ، فَإِنَّ سَيِّدَ الْمُتَوَكِّلِينَ وإمام خلقِ اللهِ تعالى أجمعين قد سأل ودعا الله تعالى ، وكذا صحابته الذين اصطفاهم الله تعالى من بين خلقه ليكونوا أصحاباً لرسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأنصاراً لشريعته ، وإن خير الهدى هدي سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

ونسألُ الله تعالى أن يجعلنا ممَّن سألوه فأعطاهم ودعوه فأجابهم .

ونسألُ الله التوفيق ، وصلى اللهُ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين.

١ صحيح البخاريّ كتاب الدعوات

٢ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الذكر والدُّعَاءِ والتوبة والاستغفار

٣ في كتاب الدعوات

المحاضرة الثامنة بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصَّلَاة وأكمل التَّسْلِيم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علَّمتنا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ.

أَمَّا بعد: بالسَّنَدِ الْمُتَّصِلِ إِلَى الْإِمَامِ الْحَافِظِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةَ بْنِ بَرْدِزْبَةَ الْجُعْفِيِّ الْبُخَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ :

باب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لخادمه بطول العمر وبكثرة ماله
ثمَّ أورد بسنده إلى أنسٍ رضي الله عنه قالَ : قالَتْ أُمِّي : يا رسولَ اللهِ
خادمك أنسٌ ، ادعُ اللهَ لهُ .

قالَ : [اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ]^١ . اهـ

وقد كانَ البخاريُّ رضيَ اللهُ عنه حريصاً على أن يذكرَ في تراجمه للأحاديثِ
جُمْلَةً من الأحاديثِ الشريفة، ثم يأتي على ذكرِ الحديثِ المناسبِ لترجمته.

وقد أشارَ في ترجمته لهذا الحديثِ المُتقدِّمِ أشارَ إلى روايةٍ ذكرها في كتابه
(الأدب المفرد)^٢ وهي : أنَّ رسولَ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم دعا لأنسٍ رضيَ
اللهُ عنه بقوله: [اللهم أكثر ماله وولده ، وأطِلْ حياته ، واغفر له] .

وكتابُ الأدبِ المفردِ كتابٌ جمعَ فيه البخاريُّ رضيَ اللهُ عنه أحاديثَ لم
يلتزم فيها شروطُ الصَّحَّةِ التي التزمها في جمعه لكتابه الصحيح.

فقد يذكرُ البخاري رضي اللهُ عنه في ترجمته للحديثِ جُمْلَةً من حديثٍ لم
يستوفِ شرطه وإنما جاء على شرط آخر عند المحدثين.

١ صحيح البخاري كتاب الدعوات

٢ باب من دعا بطول العمر ، وتمامُ الحديثِ قوله رضي اللهُ عنه : (فدعا لي
بثلاث ، فدفنت مائة وثلاثة ، وإن ثمرتي لتطعم في السنة مرتين ، وطالت
حياتي حتى استحيت من الناس ، وأرجو المغفرة).

وفي رواية للحديث عند مسلم عن أنس رضي الله عنه قال:

[قَالَتْ أُمِّي: يَا رَسُولَ اللَّهِ خُودِيْمُكَ ادْعُ اللَّهَ لَهُ] - فعرضته على رسول الله صلى الله عليه وسلم خادماً فقبله رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له - [قَالَ: فَدَعَا لِي بِكُلِّ خَيْرٍ، وَكَانَ فِي آخِرِ مَا دَعَا لِي بِهِ أَنْ قَالَ: اللَّهُمَّ أَكْثَرُ مَالِهِ وَوَلَدَهُ وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ]¹.

وفي الحديث دليلٌ على استحبابِ أن يسألَ الإنسانُ البركةَ والكثرةَ في ماله وولده وإطالةَ عُمره ، وذلكَ حتى يزيدَ من طاعاتِهِ وعباداتِهِ لله تعالى ، وأن يتوسَّعَ في أعمالِ البرِّ والخيرِ والصَّدقةِ والنَّفقةِ في سبيلِ الله تعالى.

ولو لم يكنْ لهذا الدعاءِ خيرٌ عظيمٌ لَمَا دَعَا لأنسَ رضيَ اللهُ عنه بذلكَ ، إذ إنَّ أنساً خادماً رسولِ اللهِ صلى اللهُ عليه وسلم ومحبوبٌ عنده ، وأرادَ صلى اللهُ عليه وسلم أن يتحفَّه ويكرمه فدعا له بذلكَ.

وإذا وسَّع اللهُ تعالى على عبدٍ فإنَّ أوَّلَ ما يجبُ عليه فعله أن يوسَّعَ على أهله وولده وعياله ، ثم يلتفت إلى الأرحامِ والأقاربِ وهكذا دون إسرافٍ وبطرٍ.

وبسبب دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لأنس رضي الله عنه جعل بستانه يُثمِرُ مرَّتين في السنَّة ، وانتشرت الزُّهور والرياحين في بستانه ²، ومن أثر دعوة النبي صلى الله عليه وسلم أكرمه اللهُ تعالى بأنواع من الإكرام ، ومنها: أنَّ مطر السماءِ كان أحياناً يمطر بستانه فقط.

وقد وردَ أنَّ خادمَ أنس رضي اللهُ عنه الذي كان يقوم بالعناية ببستانه جاءه يوماً - وذلك بعد وفاة النبي صلى اللهُ عليه وسلم - وشكا له أن شجر البستان بحاجة إلى سُقيا ، فقام أنس رضي اللهُ عنه فتوضَّأ وصلَّى ركعتين ودعا اللهُ تعالى ، فإذا بسحابةٍ أظلت البستان وأمطرت ، فقال أنس رضي اللهُ عنه لبعض أهله : انظروا هل المطر عامٌّ جاوَزَ البستانَ أم خاصٌّ به ؟

١ صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة

٢ جاء في سنن الترمذي كتاب المناقب أنه رضي اللهُ عنه كان له بُسْتَانٌ يَحْمِلُ فِي السَّنَةِ الْفَاكِهَةَ مرَّتين وَكَانَ فِيهَا رِيحَانٌ كَانَ يَجِيءُ مِنْهُ رِيحُ الْمِسْكِ.

فقيل له : إنَّه لم يجاوز البستانَ ولا مقدارَ شعرةٍ^١.

ولقد أكثرَ اللهُ تعالى مالَ أنسٍ رضي اللهُ عنه وأكثرَ ولده ، فقد تزوج ما أحلَّ اللهُ تعالى له من النساءِ ، حتى دُفِنَ في حياته مائةً وخمسةً وعشرونَ من أولاده^٢ ، وأطال اللهُ تعالى عمره حتى عمَّر مائةً وسبعَ سنين^٣ ، وهو في كمال عقله ومداركه وقوته رضي اللهُ تعالى عنه.

ولا يظنُّنَّ جاهلٌ أنَّ الدعاءَ بكثرةِ المالِ والولدِ هو دعاءٌ بأمرٍ دنيوي يشغلُ عن اللهُ تعالى ، فإنَّ المالَ لا يشغلُ صاحبه عن اللهُ تعالى إلا إذا انهمك في تحصيله وبخل في إنفاقه في وجوه البر والخير.

وقد جعلَ اللهُ تعالى المالَ قوامَ الحياة ، كما قال سبحانه وتعالى : { ولا تُؤتوا السُّفهاءَ أموالكم التي جعلَ اللهُ لكم قياماً } أي قوام حياتكم ومعاشكم. والسُّفِيه والْأحمقُ بمعنى واحد ، ويطلقُ على ناقصِ العقل الذي لا يحسنُ التصرفَ بالمالِ.

وقوله تعالى : { ولا تُؤتوا السُّفهاءَ أموالكم } يشملُ الأولادَ والزَّوجاتِ - إن كنَّ مسرفاتٍ لا يحسننَّ التَّصرفَ بالمالِ - وكذا الأبناءَ وإن بلغ أحدهم ولكنَّ عقله وفكره لم يكتمل في نضوجه بعد فهو طائشٌ في تصرفاته فيسرفُ في الإنفاقِ ويهدرُ مالَ أبيه.

١ انظر تاريخ دمشق لابن عساكر ٣٦٤/٩ والطبقات الكبرى لابن سعد ٢١/٧

٢ نقل الحافظ القسطلاني في شرحه على المواهب ما رواه الطبراني عن أنس رضي اللهُ عنه أنه قال : [فلقد دفنت من صُلبِي سوى ولد ولدي مائةً وخمسةً وعشرين] وهو في صحيح البخاري كتاب الصوم بلفظ قريب

٣ انظر الإصابة في تاريخ الصحابة ٢٧٧/١

فيجب على الرَّجُلِ العَاقِلِ أن لا يتنازلَ عن أمواله كُلِّها لأولادهِ حتى لا يَمْنَعوه بعدَ ذلك ويصيرَ أسيرَ عَطَائِهِمْ ، وتتوالى عليه الحسراتُ في وقتٍ لم تُعد تنفعُه النَّدامَةُ ، وإن هو أعطى أولاده شيئاً من ماله ليكونَ لهم عوناً في عملِ الدُّنيا وتركَ باقي ماله في ملكيَّته ليرثه أولاده من بعدهِ لكانَ ذلك خيراً له ، لأنَّه بذلكَ يكونَ متبعاً لشرعِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم الذي بيَّن الحقوقَ والموارِيثَ.

ولقد دعا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لخادمه أنسٍ رضي الله عنه بكثرةِ المالِ والولدِ ، وذلكَ حتى يستعينَ بماله على طاعةِ الله تعالى ويتوسع في عملِ الخيراتِ والصَّدقاتِ ، وقد جاء في الحديث الذي رواه مسلمٌ وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ : قالَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

[مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ] - أي حتى ينميها ويربيها - [وَأِنْ كَانَتْ تَمْرَةً ، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلَوْهُ أَوْ فَصِيلُهُ]¹.

كما أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم دعا له بكثرةِ الولدِ لأنَّ الإنسانَ المؤمنَ إذا كثُرَ أولاده وهم مؤمنون متَّقون ، فإنَّ ثوابَ أعمالهم يُكتبُ في صحيفته ، وكذلك ذريَّته من بعده ، لأنَّه كان سبباً في وجودهم وتربيتهم على حبِّ الله تعالى وحبِّ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، كما يكونون عوناً له على أمورِ الدُّنيا.

وأما إذا فسقَ الأولادُ وضلُّوا بعدَ ذلك فلا يحملُ والدهم شيئاً من أوزارهم لقوله تعالى: {ولا تزرُ وازرةٌ وزرَ أخرى} أي: ولا تحملُ نفسٌ ذنوبَ نفسٍ أُخرى ، وقال تعالى: { وإن تدعُ مثقلةً } - أي نفسٌ مثقلةٌ بالذنوبِ - { إلى حملها لا يحملُ منه شيءٌ ولو كان ذا قربي }.

¹ صحيح مسلم وسنن النسائي وسنن ابن ماجه كلهم في كتاب الزكاة

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْءٌ]^١ الحديث.

وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [إِنَّ الدَّالَّ عَلَى الْخَيْرِ كَفَاعِلِهِ]^٢.

ومن تسبب في خير ناله من ذلك الخير ، ومن تسبب في شر ناله من ذلك الشر ، فلو اعتاد الرجل في بيته على الصلاة وحرص على صلاة الجماعة مع أولاده مثلاً لكان فعله هذا تعليماً لأولاده على التزام الصلاة ، ولو اعتاد الكلام الطيب لتبعه أولاده ، وهكذا لو أسفرت المرأة في خروجها لأسفرت بناتها ، فكل من الأب والأم يؤثر على أولاده بالحال والقال والعمل ، وقد قال الله تعالى : { إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم } أي آثار أعمالهم وأقوالهم وأحوالهم التي أثرت في غيرهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، وكل ذلك يكتب في صحيفة الإنسان.

روى البخاري وغيره عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : [كلكم راع ، وكلكم مسؤول عن رعيته ، الإمام راع ومسؤول عن رعيته ، والرجل راع في أهله وهو مسؤول عن رعيته ، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيته ، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته ، وكلكم راع ومسؤول عن رعيته]^٣.

١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الزكاة

٢ سنن الترمذي كتاب العلم

٣ صحيح البخاري كتاب الجمعة واللفظ له وصحيح مسلم كتاب الإمارة
وسنن الترمذي كتاب الجهاد

وقد دعا سيدنا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لخادمه أنسٍ رضي الله عنه أيضاً بطول حياته بقوله: [وأطّل حياته] وبهذا استدللَّ الإمام البخاريُّ رضي الله عنه على استحبابِ أن يسألَ المؤمنُ ربَّه طولَ العمر، وذلك لأنَّ فيه زيادةً في الخيرِ، كما جاء في الحديث عنه صلَّى الله عليه وسلم: [وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ]^١.

وروى الترمذي عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُسْرِ رضي الله عنه أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قَالَ: [مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ]^٢.

وروى الإمام أحمد في مسنده عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

[أَلَا أُنبئُكُمْ بِخَيْرِكُمْ؟

قَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ.

قَالَ: خِيَارُكُمْ أَطْوَلُكُمْ أَعْمَارًا وَأَحْسَنُكُمْ أَعْمَالًا]^٣.

وقد سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له :

[يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ؟

قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَحَسَنَ عَمَلُهُ.

١ روى الإمام مسلم في صحيحه عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ:

[كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي، وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي، وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ].

٢ سنن الترمذي كتاب الزهد

٣ ٦٩١٤

قَالَ- أَي السَّائِلِ -: فَأَيُّ النَّاسِ شَرٌّ ؟

قَالَ: مَنْ طَالَ عُمُرُهُ وَسَاءَ عَمَلُهُ^١ .

وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

[كَانَ رَجُلَانِ مِنْ بَلِيٍّ مِنْ قُضَاعَةَ أَسْلَمَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاسْتَشْهَدَا أَحَدُهُمَا وَأَخَّرَ الْآخَرُ سَنَةً .

قَالَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ: فَأَرَيْتُ الْجَنَّةَ، فَرَأَيْتُ فِيهَا الْمُؤَخَّرَ مِنْهُمَا أُدْخِلَ قَبْلَ الشَّهِيدِ فَعَجِبْتُ لِذَلِكَ، فَأَصْبَحْتُ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ ذَكَرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أَلَيْسَ قَدْ صَامَ بَعْدَهُ رَمَضَانَ وَصَلَّى سِتَّةَ آلَافِ رَكْعَةٍ أَوْ كَذَا وَكَذَا رَكْعَةً صَلَاةَ السَّنَةِ^٢ .

أي فبأعماله وعباداته تلك رفع الله تعالى مقامه وسبق صاحبه إلى الجنة ، وما كان ذلك له لو لم يكن قد عاش أكثر منه .

فطول العمر للمؤمن زيادة له في الخيرات ورفعته له في الدرجات .

ولقد مرّ النبي صلى الله عليه وسلم بقبر رجل مؤمن فقال :

[مَنْ صَاحِبُ هَذَا الْقَبْرِ ؟

فَقَالُوا : فُلَانُ .

فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: رَكْعَتَانِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ بَقِيَّةِ دُنْيَاكُمْ^٣]

أي لما رأى ذلك المتوفى من عظيم الأجر والثواب والنعيم المترتب على فعل الخيرات والطاعات .

١ انظر سنن الترمذي كتاب الزهد

٢ المسند ٨٠٤٩

٣ انظر المعجم الأوسط للطبراني

فلا تضيع أيها العاقل ولو ساعةً من عمرك فيما لا فائدة لك منه ، واغتنم أوقات عمرك بطاعة الله تعالى والإكثار من ذكره سبحانه وتعالى، ولا يشغلنك حطامُ الدُّنيا وأموالها عن القيام بحقِّ الله تعالى عليك وطاعتك له سبحانه ، فإنَّ الموتَ إذا جاءك تركت كلَّ شيءٍ من أموالِ الدُّنيا وزينتها ورحلت إلى عالمٍ آخر ، واعلم أنَّ الأشياءَ كلَّها تتساوى في نظر الإنسانِ إنَّ هوَ سيتركها كلَّها ، فيتساوى الذهبُ والفضَّةُ مع الحذاءِ والمكنسة عند ذلك الذي حضره الموت ، ولو كان لشيءٍ من الدُّنيا نفع له بعد موته لاصطحبه معه ، والحالُ أنَّه يرحلُ عن الدُّنيا ولا شيءٍ معه منها سوى عمله الذي قدَّمه وهو في الدُّنيا والذي سيجده ويجد آثاره بعد موته ، فلا تتعب نفسك في تحصيلِ ما ستتركه، بل في تحصيلِ ما سيبقى معك وهذا شأنُ العاقلِ .

ونسألُ الله تعالى أن يُوفِّقنا لطاعته واتِّباع رسوله صلى الله عليه وسلم على أكملِّ الوجوه ، ونسألُ الله التوفيق ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم تسليماً والحمد لله رب العالمين .

المحاضرة التاسعة بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصَّلَاة وأكمل التَّسْلِيم على سيِّدنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا عِلْمَ لنا إلا ما علَّمتنا إنَّك أنت العليم الحكيم.

أمَّا بعد: بالسَّنَد المُتَّصِل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمَّد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المُغيرة بن بردِزبه الجُعفي البخاري رضي الله عنه قال : باب فضل التسبيح

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [من قال : " سُبْحَانَ اللَّهِ وبحمده " في يومٍ مائةً مرَّةً حطَّت خطاياهُ وإن كانت مثلَ زبدِ البحرِ].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

[كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرَّحمن: سبحان الله العظيم ، سبحان الله وبحمده]^١ .

التَّسْبِيح : مصدر من فعل "سَبَّح" ، وتسبيحك لله هو تنزيهك ، بأن تقول: "سبحان الله" ، يعني تنزه الله تعالى عمَّا لا يليق به جل وعلا تنزيهاً مطلقاً لائقاً بجلاله سبحانه ، والتَّحْمِيد : إثبات المحاسن والكمالات المطلقة لله تعالى على وجه لا يتناهى، وقد قُرنَ بين التَّسْبِيح والتَّحْمِيد في كثير من الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة ، قال تعالى : { وإن من شيءٍ إلا يُسَبِّح بحمده } الآية ، وفي الحديث المتقدم: [سبحان الله وبحمده] .

أمَّا معنى قول العبد : [سبحان الله وبحمده] فهو : أنزه الله تعالى تنزيهاً لائقاً به ارتضاه لنفسه سبحانه ، لا التَّنْزِيهِ الذي يتصوَّره الإنسان ، لأنَّه تنزيه محدود مُقَيَّد بفهم الإنسان وعِلْمه ، أما التَّنْزِيهِ اللائق به سبحانه فهو تنزيهه عمَّا لا يليق به ، وهو التَّنْزِيهِ الذي نرَّه به نفسه سبحانه وتعالى .

١ انظر صحيح البخاري كتاب الدعوات

فالعبد يسبِّح الله تعالى ويتقرَّب إليه بالتَّسْبِيح الذي ارتضاه الله تعالى لنفسه ، وعَلَّمه لمخلوقاته على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام ، وهذا معنى: [سبحان الله وبحمده] أي أحمده بجمده اللائق به الذي ارتضاه هو لنفسه جل وعلا ، وَمَنْ لَاحِظَ أَنَّهُ يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بِتَسْبِيحِ سَبِّحْ بِهِ اللَّهُ نَفْسَهُ ، وَتَحْمِيدِ حَمْدِ اللَّهِ بِهِ نَفْسَهُ ، فَقَدْ اتَّصَفَ بِصِفَةِ أَهْلِ الْكَمَالِ وَالْمَعْرِفَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى ، وَهُوَ التَّسْبِيحُ وَالتَّحْمِيدُ اللَّائِقُ بِهِ سُبْحَانَهُ .

وقد سَبَّحَ اللهُ نفسه ، وحمد نفسه ، وأخبر عن ذلك في كثير من الآيات القرآنية ، كقوله تعالى: { فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ* وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ } .

وفي رواية عند مسلم للحديث المُتَقَدِّم: [من قالَ حِينَ يُصْبِحُ وَحِينَ يُمَسِي: "سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ" مائة مرّة ، لم يأتِ أحدٌ يوم القيامةِ بأفضلَ ممّا جاءَ به ، إلا أحدٌ قال مثلَ ما قالَ أو زادَ عليه]¹ .

والمُرَاد من قوله صلى الله عليه وسلم: [حين يصبِحُ] أي بعد صلاة الصبح ، [وحين يمسي] أي بعد صلاة المغرب ، وذلك حتى يدخل الإنسان نهاره على التَّسْبِيح ، ويدخل ليله على التَّسْبِيح ، فيكون بذلك قد دخل ليله ونهاره بصدق وخرج بصدق ، ولا يَضِقُ فِكْرُكَ وَقَلْبُكَ عَنْ قَبُولِ فَهْمِ ذَلِكَ فَإِنَّ الْآيَةَ: { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا } وإن نزلت في هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة على ساكنها الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ ² ، لكنَّ حَكْمَهَا عَامٌّ ، كما قالوا: [خصوص السَّبب لا يمنع عموم النَّص] ³ .

١ صحيح مسلم كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار

٢ روى الترمذي في سننه عن ابن عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ:

[كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ ثُمَّ أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ فَنَزَلَتْ عَلَيْهِ { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مَخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا } .

٣ انظر كتاب الأشباه والنظائر للإمام السبكي ١٣٦/٢ وكتاب المحصول

للإمام الرازي ١٢٥/٣ وكتاب بدائع الصنائع للكاساني ١٧٥/٢ وكتاب

الذخيرة للقرافي ٤٩/٩ والمغني لابن قدامة ١٢١/٣

فقوله تعالى: { وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مَدْخَلَ صِدْقٍ } - أي في كلّ مدخل سأدخله من عمل أباشره أو قول أبدؤه أو زمن أستقبله - { وأخرجني مخرج صدقٍ } بأن يكون دخولي وخروجي في ذلك كلّه بصدق وإيمان وهكذا ، لأنّ الإنسان قد يدخل في الشّيء بصدق وإيمان ، ولكنّه يخرج لا عن صدق وإيمان ، فسأل الله تعالى أن يدخلك أول النهار بصدق وإيمان في أقوالك وأفعالك ، وتستمر على ذلك حتى تخرج من النهار بصدق وإيمان ، وتدخل أول الليل بصدق وإيمان محافظاً على ذلك إلى الفجر وهكذا...

قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم: [حُطَّتْ خطاياهُ وإنْ كانت مثلَ زبدِ البحرِ] أي غفر الله له ذنوبه الصّغائر ، لأن الكبائر لا بد لها من توبة نصوح بشروطها المعروفة.

وقد روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: [الصَّلواتُ الخمسُ ، والجمعةُ إلى الجمعةِ ، ورمضانُ إلى رمضانَ ، مكفّرات ما بينهنّ ما اجتنبت الكبائر]^١ أي فلا بدّ للكبائر من توبة خاصة بها .

ومن جلس يسبّح الله تعالى وعزم بذلك على التّوبة من الكبائر التي اقترفها، وندم قلبه على فعلها ، وعزم أن لا يعود إلى فعلها فإنّ الله تعالى يكفر عنه عندئذ الكبائر والصّغائر ، وإذا كان ذنبه يتعلّق بحقوق العباد سواء المالية أو الأدبية فعليه أن يرجع الحقّ إلى أهله أو يسألهم العفو والصّفح وأن يكون منهم في حلّ ، وذلك حتى يقبل الله توبته ويغفر له.

ومن لم يستطع هذا ولا ذاك فأمره موقوف على الآخرة ، وعلى قدر صدق توبته يرضي الله تعالى خصومه في الآخرة ليعفوا عنه.

وإنّ أصل الإيمان بالله تعالى هو التّسبيح والتّحميد أي تنزيه الله تعالى عما لا يليق ، تنزيهاً ارتضاه لنفسه سبحانه ، وإثبات المحاسن والكمالات اللائقة به سبحانه.

والله تعالى متَّصف بالكمالات المطلقة على وجه لا يتناهى ، وهو جل وعلا يُحمد على كمالاته فله المحامد كلها ، وهذا معنى: { الحمد لله } فهو سبحانه يُحمد على ما اتَّصف به من كمالات لا تتناهى ، وعلى ما مِنْهُ من نعم وإمداد لخلقه ، فالحمد لله على ذاته المتَّصفة بالكمالات المطلقة ، والحمد لله على ما مِنْهُ من نعم وفضل ومدد وخير وعطاء ونوال ، وإلى هذا يشير قوله تعالى: { الحمد لله ربَّ العالمين } أي خالقهم ومربيهم وممِّدَّهم ورازقهم.

وتسمى الكمالات محامداً ، لأنَّ صاحبها الذي اتَّصف بها يُحمد عليها ، كمن اتَّصف بالأدب وحسن الخلق والصَّلاح والكرم والمروءة فهو يحمد على ذلك كلّه ، أمَّا ربُّ العالمين جل وعلا والذي ليس كمثله شيء ، فكمالاته مُطلقة لا تتناهى ، فمحامده لا تتناهى.

ولذلك لا يحصي عبْدُ ثناء عليه ولا حمداً له سبحانه وتعالى ، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: [أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخِطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَيَّ نَفْسِكَ]¹ .

وليست كمالات الله تعالى تشبه كمالات الإنسان ، إذ إنَّ كمالات الإنسان مقيدة تليق به كمخلوق ، ومن كمالاته : أَنَّهُ يَأْكُلُ وَيَشْرَبُ وَيَتَزَوَّجُ .
أمَّا كمالات الله تعالى فهي مُطلقة لائقة به جلَّ وعلا ، ولا حدَّ في حصرها وانتهائها.

وإنَّ كمال كلِّ مخلوق يكون على حسب ما خلقه الله تعالى له ، فمن كمال الرَّجُلِ الخُشونة والجلادة ، و من كمال المرأة الرِّقة والنُّعومة ، ومن تكلف غير ذلك فقد خرج بنفسه عن فطرة الله تعالى التي فطره عليها .

١ سنن أبي داود كتاب الصلاة واللفظ له وموطأ الإمام مالك كتاب النداء

للصلاة عن السيدة عائشة رضي الله عنها.

روى البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: [لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال]^١.

أمَّا كمالات الله تعالى فلا تشبهه كمالات أحد من خلقه ، بل كمالاته جل وعلا كمالات مطلقه تليق بجلاله وعظمته سبحانه ، ولا مشابهة بين الخالق والمخلوق ، ولا مناسبة ولا مماثلة ، بل هو سبحانه ربُّ خالق قديم أزلي ، أمَّا العبد فهو مخلوق مربوب حادث بعد عدم.

وكمالُه سبحانه ذاتي له ، أمَّا كمال العبد فمخلوق مكتسب ، ولولا خلق الله تعالى وإمداده للإنسان ولصفاته لَمَا كان له وجود ولا سمع ولا بصر.

وإنَّ الله تعالى قد فطر الموجودات والخلائق كلها على فطرة التوحيد أي على تسبيحه وتحميده سبحانه ، وهذا قوله تعالى: { وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبُحُ بِحَمْدِهِ } الآية ، وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [إِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ نُوحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ قَالَ لِابْنَيْهِ : إِنِّي قَاصٌّ عَلَيْكُمَا الْوَصِيَّةَ : آمُرُكُمَا بِاثْنَتَيْنِ وَأَنْهَاكُمَا عَنْ اثْنَتَيْنِ .

آمركم : ب لا إله إلا الله ، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كفة ووضع لا إله إلا الله في كفة ، رجحت بهن لا إله إلا الله ، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كنَّ حلقةً مبهمةً قصمتهنَّ لا إله إلا الله .
وآمركم : ب سبحان الله وبحمده ، فإنها صلاة كل شيء ، وبها يرزق الخلق ، وأنها كما عن الشرك والكبر.

قال : قلت أو قيل : يا رسول الله ، هذا الشرك قد عرفناه ، فما الكبر؟

أن يكون لأحدنا نعلان حسنتان لهما شراكان حسنان ؟

قال : لا .

قال : هو أن يكون لأحدنا حلةً يلبسها ؟

١ صحيح البخاري كتاب اللباس وسنن ابن ماجه كتاب النكاح

قال : لا

قال : الكبر هو أن يكون لأحدنا دابةً يركبها ؟

قال : لا

قال : أفهو أن يكون لأحدنا أصحابٌ يجلسون إليه ؟

قال : لا

قيل : يا رسول الله ، فما الكبر ؟

قال : سفهُ الحقِّ ، وغمصُ النَّاسِ [١] .

ومن زعم أن { لا إله إلا الله } هي كلمة ، ولا ثقل لها جسماني أو مادي حتى تقصم حلقة السماوات والأرض .

فيقال : إنَّ قوة الأمور وعظمتها تكون بما حملته من معانٍ علوية ، ولا أقوى ولا أثبت ولا أصدق من كلمة { لا إله إلا الله } .

ولكي تفهم ذلك جلياً ، فيقال لك :

إذا كنت قوي الجسم متيناً ، فهل قوة جسمك ومثانتك إلا بسبب شيء لطيف سرى فيك ولا تراه ، وهو روحك ، بحيث لو فقدتها لزال قوتك ومداركك كلها ؟!

ألا ترى إلى قوّة الكهرباء والإشعاعات التي بواسطتها يشقون الصخور والحديد ، مع أنّ الكهرباء والإشعاعات لا تلمس ولا تُرى ، لكنَّ أثرها ومعناها ظاهر في تحريك المحركات وتسيير العربات وغير ذلك .

فما تحركت الكنائف إلا بقوة اللطائف ، فلا تنكر ذلك فتكون أحماً .

ومن زعم أن لا تأثير للكلام مادي ولا جسماني ، فيقال له : " أنت أحق جاهل " فتراه يتأثر ويحمر وجهه ويغضب ويهيج .

١ انظر المسند ٦٢٩٥ و ٦٨٠٤

فقل له عندئذٍ : لَمَ اعتراك هذا ، فأنا لم أضربك بعصا ولا بحجر ، بل وجَّهت إليك كلاماً ، وأنت تزعم أن الكلام لا تأثير مادي له ؟!

فيقول عندئذٍ : إنَّ لكلامك معنى أثر فيّ.

فقل له عندئذٍ : هذا ما أردته منك ، وهو أن تسلّم أنَّ للأمور المعنوية وللکلام تأثيراً مادياً في المباني ، فلكلّ كلام معنى ، ولكلّ معنى مبني ، وله قوّة وفعالية ، ولا أعظم ولا أقوى من كلمة { لا إله الا الله } .

قوله عليه السلام : [وأمركما : بسبحان الله وبحمده ، فإنَّها صلاةٌ كلّ شيءٍ ، وبها يُرزقُ الخلقُ] فجميع الأشياء تسبّح الله تعالى وتحمده ، وبذلك تستمد الرزق من الله تعالى ، والله تعالى يحجب المشرك والمتكبر عن حضرته ، ولذلك فإن صالح الخلق يمقتون المشرك والمتكبر ، فالمُتَكَبِّر ممقوت عند الله تعالى وعند الصالحين من خلق الله تعالى ، والمُتَوَاضِع لله تعالى قريب من الله تعالى قريب من الصالحين قريب من خلق الله تعالى.

ويحتاج الإنسان في حياته دوماً إلى التَّسْبِيح والتَّحْمِيد ، لأنَّه قوت القلوب ، وبه يدفع الإنسان عن نفسه الشُّبُهَات والضَّلَالَات والوساوس الشيطانية التي قد تعتريه ، وإن التبس عليه فهم وتقبُّل أفعال الله تعالى في خلقه وخفيت عليه حكمة الله تعالى من وراء ذلك فعليه بتسبيح الله تعالى حتى لا يقع في الاعتراض والانتقاد على قضاء الله وقدره وهكذا...

فليؤمن العبد أن الله هو العليُّ الحكيم المتصرِّف بشؤون عباده بالحقِّ والعدل ، ولا يظلم أحداً مثقال ذرّة ، وهو الرحمن الذي وسعت رحمته كلَّ شيء ، وهو الرحيم الذي خصَّ المؤمنين برحماته وأفضاله ، قال عز من قائل : { وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا } .

وإذا عظم في نظرك شيء وكبر ، فسبِّح الله تعالى ، فإنَّ الذي خلقه هو أعظم وأكبر وأجل ، قال سبحانه : { سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبَتُ الْأَرْضُ وَمَنْ أَنْفُسَهُمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ } .

ولا تستبعد شيئاً عن قدرة الله تعالى التي لا حدَّ لها ، ونزّه الله تعالى وسبِّحه عن أن يكون لقدرته حدٌّ أو أن يعجزه شيء في السماوات أو في الأرض.

وينبغي على الإنسان أيضاً أن لا يغفل عن حمد الله تعالى ، لأنه دائماً يتقلب في نعم الله تعالى عليه وفضله عليه ، وقد قال تعالى : { وإن تعدوا نعمة الله لا تُحصوها } .

وأعظم نعمة لدى الإنسان المؤمن أنعم الله بها عليه ، هي نعمة الإيمان ، التي من فقدها فقد خسر الدنيا والآخرة ، وقد قال تعالى : { ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الرّاشدون * فضلاً من الله ونعمة والله عليم حكيم } فعلى المؤمن أن يحمد الله تعالى على نعمة الإيمان ، وأن يسأله ثبات الإيمان وزيادته في قلبه والتوفيق للعمل بمقتضياته ، وقد قال تعالى : { قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون } أي فليفرحوا بفضل الله تعالى عليهم أن وفقهم للإيمان ، وبرحمته لهم أن جعلهم من أمة خير الأنام صلى الله عليه وسلم ، والله تعالى المنّة عليهم في ذلك، قال جل جلاله: { بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان } .

ولله تعالى المنّة عليهم أن بعث فيهم خير خلقه رسولاً، وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقال عز من قائل: { لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين } .

ولمّا مرّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم برجل وهو يقول : " الحمد لله الذي هداني إلى الإسلام وجعلني من أمة أحمد صلى الله عليه وسلم " قال له: [شكرت عظيماً]^١ .

١ انظر شعب الإيمان للبيهقي.

إذ إنّ فضائل و خصائص ومكارم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على غيرها من الأمم كثيرة ، وهي خير الأمم ، لأنّ رسولها صلى الله عليه وسلم هو خير الرسل وأعظمهم ، بل هو سيدهم وإمامهم في الدنيا وفي الآخرة ، ويشرف المقتدي على شرف إمامه ، ويشرف التّابع على شرف متبوعه ، ونسأل الله تعالى أن يجعلنا من خاصة أتباعه وأحبابه صلى الله عليه وسلم. آمين

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة العاشرة بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم .

كتاب الرقاق .

باب: لا عيش إلا عيش الآخرة .

ثم أورد بسنده إلى ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [نِعْمَتَانِ مَغْبُوبُونَ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفِرَاقُ].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

[اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَأَصْلِحِ الْأَنْصَارَ وَالْمُهَاجِرَةَ].

وعن سَهْلِ بْنِ سَعْدِ السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: [كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْخَنْدَقِ وَهُوَ يَحْفِرُ وَنَحْنُ نَنْقُلُ التُّرَابَ وَبَصُرَ بِنَا فَقَالَ:

اللَّهُمَّ لَا عَيْشَ إِلَّا عَيْشُ الْآخِرَةِ، فَأَغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَةَ].

باب مَثَلِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ، وَقَوْلِهِ تَعَالَى:

{ إِعْلَمُوا أَنَّهَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُوَ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ }.

ثم أورد بسنده إلى سهل رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [مَوْضِعُ سَوْطٍ فِي الْجَنَّةِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَلَعْدْوَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا]. اهـ

وفي هذا الكتاب ذكر البخاري رضي الله عنه جملة من الأحاديث التي ترقق القلوب وتلطفها وتوقظها من غفلتها وتذكرها بالآخرة ، وإلى ذلك ذهب كثير من المحدثين ، حيث يفردون في تراجمهم للأحاديث كتاباً قد يسمونه كتاب الزهد أو كتاب الوعظ والتذكير أو كتاب الرقاق ...

وإن خير ما يرقق القلوب ويلطفها إنما هو تذكيره صلى الله عليه وسلم ، ولذلك جاء عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ أَصْحَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالُوا لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [إِنَّا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ فَحَدَّثْتَنَا رَقَّتْ قُلُوبُنَا] الحديث - أي : تلطفت و صفت.

وذلك لأن العمل في أمور الدنيا والانغماس فيها يقسي القلب ويظلمه فلا بد للإنسان أن يرعى قلبه ويسعى في تلطيفه بسماعه لمواعظ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتذكيره .

قوله صلى الله عليه وسلم: [نِعْمَتَانِ مَغْبُوتُونَ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصَّحَّةُ وَالْفَرَاغُ] وفي هذا تنبيه من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لعموم المؤمنين على اختلاف مراتبهم ، ولا ينبغي للإنسان أن يخرج نفسه من هذا العموم مزكياً لنفسه مدعياً أنه لا يشمل التنبيه النبوي المحمدي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن مواعظه وإرشاداته وتذكيره صلى الله عليه وسلم يشمل جميع المؤمنين على اختلاف مراتبهم وتفاوت درجاتهم وإيمانهم ، إلا أن كلاً ينتفع من الوعظ والتذكير على حسبه .

وقوله صلى الله عليه وسلم: [نِعْمَتَانِ] - أي : عظيمنتان كبيرتان لا أعظم منهما إلا نعمة الإيمان وأنت من أمة خير الأنام صلى الله عليه وسلم .

فالصحة أن يكون الجسم صحيحاً خالياً من الأمراض المُقعدة التي تمنع صاحبها عن القيام بعبادة الله تعالى حق القيام ، وكذلك أن يكون قلبه خالياً من الهموم والغموم والأحزان التي تشغله فتمنعه عن التلذذ بعبادة الله تعالى.

والفراغ في الوقت أن يجد الإنسان سعة في وقته ولا يجد ما يملأ به هذا الفراغ ، فليحرص عليه عندئذ ولا يضيعه بالقيال واللغو واللعب .

قوله صلى الله عليه وسلم : [مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ] من الغبن وهو الخسارة ، وقد تكون الخسارة جزئية أو كلية ، والمعنى : أن كثيراً من الناس في خسارة لنعمة الصحة ونعمة الفراغ التي أنعم الله بهما عليهم ، وذلك لأن من أتعب جسمه وأنهك قواه في اشتغاله باللغو واللعب وحطام الدنيا فقد خسر صحته - التي أنعم الله بها عليه وأمره أن يصرفها في عبادته والتقرب إليه - وكذا الفراغ إن شغله الإنسان باللغو واللعب وما لا فائدة منه.

وقد قال سبحانه : { وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ } أي : إن الإنسان لفي خسر من عمره الذي هو رأس ماله للآخرة إلا من آمن وملاً وقته بعمل الصالحات ، وأوصى نفسه وغيره بفعل أوامر الشريعة والانتهاز عن ما نهت عنه .

وإن الله تعالى الذي أنعم على الإنسان بصحة جسمه وسمعه وبصره ومداركه سوف يسأله عنها: هل أحسن التصرف بها بأن استعملها فيما يرضي الله تعالى أم أنه خان هذه الأمانات ؟

وفي هذا يقول سبحانه : { إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً } ، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن أول ما يسأل العبد عنه يوم القيامة من النعيم أن يقال له : ألم نُصِحِّحْ لك جسمك ونزوك من الماء البارد؟]¹.

وهذا أول سؤال فيما يتعلق بالنعمة الجسمية التي أنعم الله بها على الإنسان، وإلا فهناك سؤال عن الإيمان وعن الصلاة وعن حقوق العباد وهكذا... فيسأل الله الإنسان عن صحة جسمه أين صرفها؟ وفيما استعملها؟ وأين أتعب جسمه؟ ويسأله عن كل النعم حتى نعمة الماء البارد العذب لما شربه: هل حمد الله عليه؟

وقال ابن مسعود رضي الله عنه يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في معنى قوله تعالى: { ثم لتسئلن يومئذ عن النعيم } قال : [الأمن والصحة]².

وأما الاشتغال في الدنيا فلا بد منه على أن يكون على الوجه الذي شرعه الله تعالى في البيع والمعاملة ، وأن تكون نيته في عمله أن ينتفع وينفع الآخرين، وأن يسعى على عياله مبتغياً فضل الله تعالى ورزقه وأن لا يعتمد على عقله وتدبيره وفهمه وأن لا يكون همه جمع الأموال والتكاثر فيها ، بل عليه أن يحسن التصرف فيما رزقه الله تعالى ، وأن يؤدي حق الله في ماله ، ومن كان هذا شأنه فقد جعل دنياه لآخرته ، وآخرته لربه فصار الكل لله تعالى ، وصار يُؤجر على عمله في الدنيا لأنها لم تشغله عن العمل لآخرته ، وقد قال سبحانه : { رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً } - أي : لأنهم يخافون يوماً {تتقلب فيه القلوب والأبصار}.

فمهما عظمت تجاراتهم فلا تشغلهم عن ذكر الله تعالى ومراقبته والقيام بحقوقه سبحانه عليهم .

١ قال السيوطي في الدر المنثور : وأخرج أحمد في زوائد الزهد وعبد بن حميد والترمذي وابن جرير وابن حبان وابن مردويه والبيهقي في شعب الإيمان وذكر الحديث

٢ انظر كتاب الزهد للإمام أحمد بن حنبل

وأما من ضيع عمره في القيل والقال والاشتغال بعيوب الناس ، وفي اللذائذ والشهوات المحرمة فقد عُيِن في عمره أي : خسره - بأن عَبَن هو نفسه وضيّع عمره وأفنى جسمه ، وهذا قوله تعالى : { والعصر } - أي : والعصر الذي حوى عمر كل معمر - { إن الإنسان لفي خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر } .

واعلم أن الزمان أمر نسبي قد ابتدأ منذ خلق الله السماوات والأرض ، ويُعرف بدوران الفلك ومقارنة الحوادث بهذه الدورة حتى إذا جاء يوم القيامة انتهى الزمن في عالم الدنيا ، فانتهى يوم الدنيا ودخل اليوم الآخر الذي أوله يوم القيامة ، وهو يوم عظيم لا يلد يوماً غيره كما وصفه سبحانه : { أو يأتيهم عذاب يوم عقيم } .

وقد بين سبحانه أنه لا بطالة في دين الإسلام ، ولا ضياع للعمر فيه ، وأنه على كل مؤمن أن يحرص على وقته وأن يغتنمه بالعمل الصالح ، وهذا ما أرادته سبحانه بقوله : { فإذا فرغت فانصب * وإلى ربك فارغب } أي : فإذا فرغت من عمل فانصب إلى غيره ، ولتكن رغبتك ومقصودك من ذلك كله وجه الله تعالى ، وهذا معنى قوله تعالى : { وإلى ربك فارغب } أي : تكون الرغبة إليه سبحانه ، فلا رياء ولا سمعة ولا مباهاة ولا حب ظهور وترفع .

وهذا الخطاب في قوله تعالى : { فإذا فرغت فانصب } موجه إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه رأس النوع الإنساني ، وذلك لأن الخطاب يتوجه دوماً إلى الرأس وإن لم يكن موضوعه يتعلق به ، ألا ترى إذا كلمت إنساناً فإنك تنظر إلى وجهه ورأسه ولا تنظر إلى يديه أو قدميه مهما كان موضوع خطابك وكلامك ، حتى وإن كان يتعلق بقدميه فلا تنظر إليهما بل تنظر إلى رأسه .

١ الزمن: هو مقارنة الحوادث بدورة الفلك.

ولما كان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وجه الأمة ورأس النوع الإنساني جاءت الخطابات الإلهية موجهة إليه ، وقد يكون موضوعها يتعلق بالأمة أو بغير ذلك كما في قوله تعالى : { لئن أشركت ليحبطن عملك } وهو السيد المعصوم بعصمة الله تعالى ، وقوله : { يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين ... } وهكذا فافهم .

وهناك من الخطابات الإلهية ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم خصوصاً بأن يتضمن أحكاماً شرعية خاصة به صلى الله عليه وسلم، ومنها ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم، والمؤمنون تبع له في ذلك لقوله تعالى : { واتبعوه لعلكم تهتدون }.

وقوله تعالى : { وإلى ربك } يدل على الحصر { فارغب } ولم تأت الآية (وارغب إلى ربك) ، فالتقديم والتأخير يدل على الحصر - أي : فارغب إلى الله تعالى ولا تمل عن الله تعالى أبداً ، ولا تنصرف رغبتك عن الله تعالى إلى الرغبة فيما يشغلك عن الله جل وعلا لأن التقرب إلى الله والرغبة فيما عند الله هذا هو حياة الإنسان وسعادته ، لأن كل شيء يمر على الإنسان لا بد أنه سيتركه ويفارقه إلا الحي الباقي الذي قال جل وعز :

{وهو معكم أين ما كنتم} أي : في الدنيا وفي البرزخ وفي الحشر وفي النشروفي الصراط ، وأينما كنتم فهو معكم فكونوا معه - أي : بالمراقبة والمحبة والمهابة والخشية ، ولا تصرفوا رغبتكم عنه إلى غيره.

ولا تقرّب إلى الله تعالى ولا دخول عليه إلا باتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم والدخول من بابه، فهو صلى الله عليه وسلم باب الله الأعظم

وأنت باب الله أي امرئ أتاه من غيرك لا يدخل^١

١ والبيت لسيدي العارف بالله تعالى الشيخ محمد ابن الشيخ أبي الحسن محمد بن محمد بن عبد الرحمن البكري الصديقي الشافعي الأشعري المصري المتوفى سنة ٩٩٣ هـ رحمه الله تعالى ورضي عنه

وقال الإمام الجنيد رضي الله عنه :

[الطُّرُقُ كُلُّهَا مَسْدُودَةٌ عَلَى الْخَلْقِ إِلَّا مَنْ اقْتَفَى أَثَرَ الرَّسُولِ ﷺ وَاتَّبَعَ سُنَّتَهُ
وَلَزِمَ طَرِيقَتَهُ فَإِنَّ طُرُقَ الْخَيْرَاتِ كُلِّهَا مَفْتُوحَةٌ عَلَيْهِ]¹.

ولذلك فإن الأنبياء عليهم السلام دخلوا على الله تعالى يوم القيامة من باب
رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي شفع في الخلائق كلها وفتح باب
الشفاعة للأنبياء عليهم السلام ولأتباعهم ، وهذا قوله صلى الله عليه
وسلم: [إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ كُنْتُ إِمَامَ النَّبِيِّينَ وَخَطِيبَهُمْ وَصَاحِبَ شَفَاعَتِهِمْ
غَيْرَ فَخْرٍ]².

فهو صلى الله عليه وسلم شفيح الكل ولا شفيح له ، وهو إمام الكل الذي
أمَّهم في الدنيا ليلة الإسراء والمعراج ، وسيؤمهم يوم القيامة ، ولا إمام له
صلى الله عليه وسلم .

ومن مناقب الإمام الجنيد رضي الله عنه أنه لما بلغ مبلغ الرجال - أي : في
الإيمان والعلم والكمال - قال له شيخه وخاله السري السقطي: "يا بني تكلم
على الناس" - أي : عِظِ الناس وذكِّرهم - فتقاصر في نفسه وقال له : "أنا
أتكلم على علماء بغداد؟! - أي : وفيها من العلماء وقتئذ الأكابر والفحول -
فبات تلك الليلة فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال له : [تكلم
على الناس] فاستيقظ وصلى ما تيسر ثم مضى إلى المسجد ، ومرّ في طريقه
على بيت خاله السري حتى يخبره بالرؤيا ، فطرق الباب عليه ، فناداه من
وراء الباب : أما صدقتني حتى أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! .

فذهب إلى المسجد وجلس على الكرسي - وقد اجتمع الناس وتزاحموا
لسماع وعظه وإرشاده - فجاء رجل مثلثم متنكر ووقف وقال :
يا إمام: ما معنى [اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله]³؟ .

١ حلية الأولياء ٢٥٧/١٠

٢ مسند الإمام أحمد ٢٠٢٩٣ وسنن الترمذي كتاب المناقب وسنن ابن
ماجه كتاب الزهد

٣ طرف حديث شريف رواه الترمذي في سننه في كتاب تفسير القرآن

فأطرق الجنيد ثم رفع رأسه وقال له : أسلم يا نصراني ، فقد آن أوان إسلامك، وكان الرجل نصرانياً متنكراً بزّي المسلمين فأسلم و آمن^١. اهـ
وهكذا كان جواب الإمام رضي الله عنه جواباً عملياً ، وكان هذا أول مجلس للتذكير .

وكان السَّرِيُّ السَّقَطِيُّ يبيع سقط الناس - أي: الألبسة المستعملة - ويَتَّجِر في السوق، فجاءه سيدي معروف الكرخي يوماً، ومعه صبي يتيم، فقال: "أَكْسُ هذا اليتيم" قال سري: فكسوته ، وفرح به معروف، وقال: "بَغَّضَ اللهُ إليك الدنيا، وأراحك مما أنت فيه"، فقامت من الحانوت وليس شيء أبغض إليّ من الدنيا ، وكل ما أنا فيه من بركات معروف^٢.

ويجدر بنا هنا أن نذكر سلسلة أئمة القوم رضي الله عنهم فنقول:

١ انظر وفيات الأعيان ٣٧٤/١ والرسالة القشيرية ٣٩٦/٢

٢ انظر الرسالة القشيرية ٤٥/١

أبو بكر الشبلي رضي الله عنه^١ عن الإمام الجنيد^٢ رضي الله عنه عن السري السقطي^٣ رضي الله عنه عن معروف الكرخي^٤ رضي الله عنه

١ سيدي الإمام أبو بكر الشبلي ، وقد ذكر كثير من مؤرخي الصوفية أن اسمه دلف بن جحدر الشبلي ، بينما ذهب آخرون الى أن اسمه جعفر بن يونس، وقد روى السلمي هذه التسمية الأخيرة في طبقاته عن أحد معاصريه ، ورأى ذلك مكتوباً على قبر الإمام الشبلي ببغداد، وقد ولد رحمه الله تعالى ورضي عنه في بغداد، وتوفي فيها سنة ٣٢٤ هـ عن سبع وثمانين سنة

٢ سيدي الإمام الأكبر و العارف الأشهر، شيخ مذهب الطريقة وعلم أعلام هذا الشأن ، أصله من نهاوند، ومنشؤه بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج؛ فلذلك يقال له: (القواريري)، توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة ٢٩٧ هـ

٣ الإمام القدوة، شيخ الإسلام، أبو الحسن البغدادي ، ولد في حدود الستين ومئة، هو خال الجنيد وأستاذه رضي الله تعالى عنهما، صحب معروف الكرخي وهو أجل أصحابه ، وكان أوحد أهل زمانه في الورع والأحوال السنية وعلم التوحيد ، وهو أول من يتكلم فيه ببغداد ، وإليه ينتمي أكثر المشايخ ببغداد، ومات بها سنة إحدى وخمسين ومائتين للهجرة ، وقبره بالشونيزية ظاهر يزار.

ومن كلامه رضي الله عنه: (من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه ويقل غمه من سماع الكلام الذي يغمه فليعتزل الناس لأن هذا زمان عزلة ووحدة). اهـ

انظر سير أعلام النبلاء ١٨٥/١٢ والطبقات الكبرى للشعراني ٧٣

٤ سيدي معروف الكرخي علم الزهاد، بركة العصر، أبو محفوظ البغدادي، قال إسماعيل بن شداد: قال لنا سفيان بن عيينة: ما فعل ذلك الخبر الذي فيكم ببغداد ؟ قلنا: من هو ؟ قال: أبو محفوظ معروف. قلنا: بخير، قال: لا يزال أهل تلك المدينة بخير ما بقي فيهم. وقد استجيب دعاؤه في غير قضية ، وعن إبراهيم الحربي قال: (قبر معروف الترياق المُجَرَّب) يريد إجابة دعاء المضطر عنده لأن البقاع المباركة يستجاب عندها الدعاء ، توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة مئتين للهجرة النبوية الشريفة. انظر سير أعلام النبلاء ٣٣٩/٩

عن داود الطائي^١ رضي الله عنه عن حبيب العجمي^٢ رضي الله عنه عن الحسن البصري^٣ رضي الله عنه عن الإمام سيدنا علي^١ كرم الله وجهه ورضي عنه عن سيد الكونين وإمام المرسلين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

١ سيدي داود بن نصير، أبو سليمان الطائي، الكوفي، الإمام، العالم، العامل، العابد، الزاهد، أحد أصحاب الإمام أبي حنيفة رحمهما الله تعالى ورضي عنهما، وكان ممن شغل نفسه بالعلم، ودرس الفقه وغيره من العلوم، ثم اختار بعد ذلك العزلة والانفراد والخلو، ولزم العبادة، واجتهد فيها إلى آخر عمره.

وقدم بغداد في أيام المهدي، ثم عاد إلى الكوفة، وبها كانت وفاته سنة ستين ومائة للهجرة النبوية الشريفة رحمه الله تعالى ورضي عنه. قال عطاء: كنا ندخل عليه فلم يكن في بيته إلا بارية، ولبنة يضع عليها رأسه، وإجانه فيها خبز، ومطهرة يتوضأ منها، ومنها يشرب.

انظر الطبقات السننية في تراجم الحنفية ٢٧٩

٢ هو سيدي حبيب بن محمد العجمي، أبو محمد البصري، أحد الزهاد المشهورين الموصوفين بالزهد والورع والكرامات واستجابة الدعاء.

عبد الله ستين سنة ولم يشتغل بشيء من الدنيا قط .

توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة تسع عشرة ومائة للهجرة، كما أفاده ابن الجوزي في " المنتظم " .

انظر سير أعلام النبلاء ١٤٣/٦ وتاريخ دمشق لابن عساكر ٥١/١٢

٣ سيدي أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري؛ كان من سادات التابعين وكبرائهم، وجمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة. وأبوه مولى زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه، وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، وربما غابت في حاجة فيبكي فتعطيه أم سلمة رضي الله عنها لبنا تعلله به إلى أن تجيء أمه، فيرون أن تلك الحكمة والفصاحة من بركة ذلك.

وقيل له: إن فلاناً اغتابك، فبعث إليه طبق حلوى وقال: بلغني أنك أهديت إلي حسناتك فكفأتك.=

ونسأل الله التوفيق ، وصلى الله على أكرم الأولين والآخرين سيدنا محمد
وعلى آله وصحبه أجمعين ، والحمد لله رب العالمين.

= ومولد الحسن لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه
بالمدينة، وتوفي بالبصرة مستهل رجب سنة عشر ومائة ، وكانت جنازته
مشهودة، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

انظر وفيات الأعيان ٦٩/٢

١ سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه
عمره : ٦٣ سنة .

مولده : ولد بالبیت الحرام بمكة المكرمة يوم الجمعة في اليوم الثالث
عشر من شهر رجب السنة العاشرة قبل البعثة النبوية ، وهو أول هاشمي
وُلد من هاشميين .

أمه : فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف رضي الله عنها .

كنيته : أبو الحسن .

ألقابه :

١- الأمين : لبقائه في مكة لرد الأمانات التي كانت عند سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

٢- أبو تراب : كناه به النبي صلى الله عليه وسلم (كما في الصحيحين) .

٣- أمير المؤمنين .

٤- المرتضى .

٥- الإمام .

٦- المجتبي .

توفي رضي الله عنه شهيداً ليلة الجمعة ٢١ رمضان سنة ٤٠ هـ بالكوفة

بسم الله الرحمن الرحيم المحاضرة الحادية عشرة

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أمّا بعد: بالسند المتّصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

بَاب قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ * إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ} جَمَعَهُ سَعُرٌ قَالَ مُجَاهِدٌ.

{ الْغُرُورُ } الشَّيْطَانُ.

ثم أورد بسنده إلى ابن أبان قال :

أَتَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ بَطْهُورٍ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى الْمَقَاعِدِ ، فَتَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَضَّأَ وَهُوَ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ ثُمَّ قَالَ: [مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ هَذَا الْوُضُوءِ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ] .

قال: وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا تَغْتَرُّوا] . اهـ

لقد ذكر البخاري رضي الله عنه هذا الحديث في كتاب الرقاق الذي ذكر فيه جملة من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم التي ترقق القلوب وتلين قسوتها و تنبها من غفلتها لما فيها من الموعظة و التذكير بالآخرة و لقاء الله تعالى ..

و إن أعظم ما يشغل قلب الإنسان عن ربه هو الدنيا و أموالها و زخارفها و .. لذلك نبه الله تعالى عباده إلى ذلك فقال : { يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور } ... الآيات .

والمعنى : إن وعد الله تعالى بالقيامة و السؤال و الحساب و العرض على الله تعالى و الجنة و النار .. كل ذلك أمر حق لا بد من وقوعه فلا تشغلکم الحياة الدنيا عن الاشتغال بالحياة الآخرة و الاستعداد لها بأن تغتروا بالدنيا و تركزوا إليها و تشتغلوا عن الآخرة ، و قد قال الله تعالى : {قل متاع الدنيا قليل و الآخرة خير لمن اتقى } ، و قال جل و علا : {وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو و لعب و إن الدار الآخرة لهي الحيوان } أي الحياة الحقيقية الباقية .

وإن قوله تعالى : { فلا تغرنكم الحياة الدنيا } يدل على أن الدنيا غرارة تغر الإنسان و تخدعه بأموالها وزينتها و زخارفها ، و لولا أنها غرارة ما حذر الله عباده منها .

وقد جاء تحذيره تعالى من الدنيا بصيغة التأكيد فقال عز من قائل: {فلا تغرنكم} ^١ ليدل على أنها كثيرة الغرور ، وكثير من يغتر بها ويطمئن إليها وقل من يسلم من غرورها .

وقوله تعالى : {ولا يغرنكم بالله الغرور} أي : الشيطان المعروف بخداعه ومكره بالإنسان ، و قد بين سبحانه للإنسان بأن الشيطان عدو له فقال عز وجل: { إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً } أي : فطالما أنه عدو لكم يريد بكم كل شر فاتخذوه عدواً ولا تتخذوه صاحباً ناصحاً بل أعلنوا عداوته و مقاومته و احذروا شروره و استعيذوا بالله تعالى منه .

و إن طرق عداوة الشيطان للإنسان كثيرة فيأتي كل إنسان على حسب قوة إيمانه ويستمر في تزيين الشر له ويوسوس له على أنه محض الخير ، و قد يثبّط همته في طاعة الله ويزين له بأنه رجل كثير العمل ...

ولا بأس إن أحر تلك الصلاة أو صلاها قاعداً وذلك ليحرمه من الخير وهكذا.... فإن للشيطان على الإنسان مداخل كثيرة وأساليب متنوعة يخدع بها الإنسان ليوقعها في المهالك.

١ جاء فعل الأمر مؤكّداً بنون التوكيد الثقيلة زيادة في التأكيد على ضرورة تجنب الإنسان من الدنيا الغرارة

وإن الشيطان عدو للإنسان مبین كما وصفه سبحانه فهو مبین العداوة للإنسان لا يخفيها و لكنه قد يأتي الإنسان بوساوس ليزين له أنه يريد له الخير ولكنه عدو لا يريد بالإنسان إلا الشر ، ألا ترى إلى عداوته التي ظهرت أول ما ظهرت مع أبي البشر آدم عليه الصلاة والسلام؟!

ولا بد للإنسان من ميزان يزن به ما يرد على قلبه من خواطر وإلهامات ووساوس بهذا الميزان ليميز بين الإلهام الرحماني والإلهام الشيطاني والخواطر النفسانية ، فما كان مصدره رحمانياً علوياً ملكياً قبله وأخذ به، وما كان غير ذلك ردّه .

و هذا الميزان هو ميزان الشريعة المحمدية التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي ذكره سبحانه بقوله: {الله الذي أنزل الكتاب بالحق و الميزان} أي : و أنزل الميزان بالحق أيضاً ، فكما أنزل الله سبحانه الكتاب على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل عليه أيضاً الميزان وهو الوحي النبوي الذي أنزل عليه، ويتضمن أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته و يطلق على ذلك كله السنة المحمدية المطهرة ، وهي أيضاً الحكمة التي أنزلها الله تعالى عليه صلى الله عليه وسلم كما قال سبحانه : {وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة} الآية ..

وهذا الميزان هو ميزان الفهم القرآني والمعاني والأقوال والأفعال، فكل ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم هو الحق وفيه صلاح الإنسان وسعادته، وفيه الحكمة لأن الحكمة وضع الشيء في موضعه اللائق به .

وكل شيء خالف شرعه صلى الله عليه وسلم وما جاء عنه فهو مردود، لا مصلحة للإنسان فيه وإن استحسنته بعض العقول ، لأنه لو كان عقل الإنسان ميزاناً يزن المفاهيم و المعاني لَمَا تضاربت العقول في استحسان بعض الأمور أو ردها وإنكارها؟!

ولذلك لا بد للعقول الإنسانية من ميزان أقوى وأعظم ترجع إليه ، وهذا هو ميزان الشريعة الإلهية الذي نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي وصفه سبحانه بالحكمة، وإن الذي خلق الإنسان هو أعلم به وبما يصلحه وينفعه ، وأعلم بما يضره ويفسده ، قال عز من قائل : {ألا يعلم من خلق} و لذلك شرع للإنسان شرعاً يصلحه ويسعده ، قال تعالى : {ألا له الخلق والأمر}، وقال صلى الله عليه وسلم :

[أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ شَيْءٍ يُقَرَّبُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ النَّارِ إِلَّا قَدْ أَمَرْتُكُمْ بِهِ، وَلَيْسَ شَيْءٌ يُقَرَّبُكُمْ مِنَ النَّارِ وَيُبْعِدُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا قَدْ نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ...]^١. الحديث

قوله تعالى: {فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور} أي : فلا يغرنكم الشيطان فقد يزين لكم أموراً ويحسنها في نظر أحدكم ولكنها قبيحة مذمومة عند الله تعالى ، وهذا ما يعرف بالرجوع إلى الميزان المحمدي ﷺ ، فقد يزين الشيطان للإنسان ويحسن له الاستكثار من أموال الدنيا ويوسوس له أن ذلك خير له في حقه وينفع عند كِبَره كما ينفع أولاده من بعده ، وأن تكاليف العيش باهظة ، وهكذا يذهب الإنسان في تلك المتاهات ويجدّ ويشقى في تحصيل أموال الدنيا ويهمل آخرته والعمل لها حتى يأتيه الموت وهو في غفلة فيترك الدنيا وما فيها ويترك ماله الذي أفنى عمره في جمعه ليتقاسمه ورثته ، حتى إذا صار في قبره فهناك يصحو من غفلته وتتوارد عليه الحسرات ولا تنفعه الندامة ، ونسأل الله العافية.

^١ مصنف ابن أبي شيبة كتاب الزهد واللفظ له ومستدرک الحاكم كتاب البيوع

ولو أن الإنسان سعى في الدنيا وجمع من أموالها حباً في فعل الخيرات وقام بحق الله تعالى عليه فإن ذلك في حقه نعمة ويكون المال بالنسبة إليه قرابة يتقرب بها إلى الله تعالى إذا أدى زكاة ماله و أنفقه في فعل الخيرات. وليعلم كل غني أنه إذا أدى زكاة ماله للفقير فقد أعطاه بذلك حقه وليس له منة أو فضل على ذلك الفقير كمن أدى الأمانة إلى من ائتمنه عليها فليس له فضل على صاحبها إذا أداها له ، وكمن رد قرضاً استقرضه، وكذلك من أعطى زكاة ماله للفقراء فقد أدى ما أوجبه الله عليه حيث شرع جل وعلا حقاً في أموال الأغنياء للفقراء، والمال كله لله تعالى ، وإنما استخلف الإنسان عليه وأمره أن يصرفه في المصارف التي أمره بها ، قال جل وعز: { آمنوا بالله ورسوله و أنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه } فهناك الزكاة والصدقات والمساهمة في فعل الخيرات والقرض الحسن وهكذا .. فليعلم الغني أن للفقير المنة والفضل عليه بأن يقبل من زكاة ماله إذ لو أجمع فقراء البلد أن لا يقبلوا زكاة أموال الأغنياء وصدقاتهم الواجبة عليهم لكان على الأغنياء أن يستعطفوا الفقراء ويرجوهم أن يقبلوا منهم زكاة أموالهم لتسقط عنهم ويتخلصوا من الإثم ، ولذلك قال تعالى : { وفي أموالهم حق للسائل والمحروم } ، وقال جل وعلا : { وآت ذا القربى حقه والمسكين } فأثبت سبحانه للفقراء حقاً في أموال الأغنياء ، فلا تقل على سبيل المنّ والمفاخرة : "إني أمنّ على فلان وأعيّر فلاناً " بل المنّ والفضل كله لله تعالى فهو سبحانه يرزقك وجعل في رزقك رزقاً لغيرك فلا تبخل بأدائه ...

قوله تعالى: { فلا تغرنكم الحياة الدنيا } أي بأموالها وزخارفها ومآكلها ومشاربها أيضاً إذ ليس من شأن المؤمن أن يكون الأكل و الشرب همه فيسعى إلى تحضير الأكلة الفلانية أو الشربة الفلانية ويهتم لذلك ويبذل جهده في تحصيل ما اشتتهت نفسه من الطعام والشراب وكأنه خلق لذلك فقط ، ويغيب عنه أن الله تعالى قد خلقه لعبادته والتلذذ والتنعم بنعمه سبحانه، وسخر له الأكوان حوله ليحيا حياة سعيدة، وسخر له الطعام والشراب ليأكل ويتقوى بهما على عبادة الله وطاعته فيبقي على حياته وتزيد عليه قوته ويقوم بحق الله عليه ، ولم يخلقه الله سبحانه ليأكل ويشرب فقط ، ولو كان كذلك فهو والبهائم سواء !

وفي الحديث الذي رواه الإمام أحمد في مسنده : [مَا مَلَأَ ابْنُ آدَمَ وَعَاءَ شَرًّا مِنْ بَطْنٍ]^١ وفي رواية : [ما ملا آدمي وعاء شراً من بطنه]^٢.

وقل للذي يفرح بالدنيا إن هي أقبلت عليه بأموالها وتجاراتها وزخارفها أكثر من فرحه وسروره إن هو قام بعبادة الله وطاعته والقيام بحق الله في ماله قل له: أنت مغرور بالدنيا وإن زعمت خلاف ذلك، لأن الله تعالى قال : { قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون } أي: هو خير مما يجمعون من أموال الدنيا ، وقال تعالى مخبراً عن قوم قارون الذين نصحوه وذكروه: { إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين }.

قوله في الحديث المتقدم: [فأحسن الوضوء] فسرته رواية ثانية للحديث: [فغسل ثلاثاً ثلاثاً]^٣ وهذا هو الإسباغ في الوضوء كما كان عليه صلى الله عليه وسلم .

وقد أخبر عثمان رضي الله عنه أنه توضأ كما توضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلغ ذلك من حوله معلماً لهم أن يكونوا في وضوئهم متبعين لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قوله صلى الله عليه وسلم: [مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ وُضُوءِي هَذَا ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكَعَتَيْنِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ]^٤ ، وفي رواية ثانية: [مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ وُضُوءِي هَذَا ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ]^٥ لم يقيدها في المسجد ثم قال صلى الله عليه وسلم: [لَا تَغْتَرُّوا] .

وفي رواية: [مَا مِنْ أَمْرٍ يَتَوَضَّأُ فِيْهِ خَيْرٌ مِنْ وُضُوءِهِ ثُمَّ يُصَلِّي الصَّلَاةَ إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصَّلَاةِ الْآخَرَى حَتَّى يُصَلِّيَهَا]^٦ وهذا المعنى قائم على صغائر الذنوب، وإلا فلا بد للكبائر من توبة نصوحة كما جاء في غير هذا الموضع.

١ ١٦٥٥٦

٢ انظر سنن النسائي الكبرى

٣ المسند ٤٦٢

٤ المسند ٤٢٩

٥ المسند ٤٤٨

٦ طرف حديث في موطأ الإمام مالك كتاب الطهارة

وَمَنْ تَوَضَّأَ لِيُصَلِّيَ صَلَاةً مَكْتُوبَةً تَسْبِقُهَا سَنَةٌ فَإِنْ رَكَعَتِي تَحِيَّةَ الْوُضُوءِ تَدَخَّلَ فِي تِلْكَ السَّنَةِ ، وَقُلْ هَذَا فِي الْمَسْجِدِ ، أَمَا غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ النَّوَافِلِ فَلَا تَدَخُلُ فِي غَيْرِهَا كَرَكَعَتِي الْاسْتِخَارَةَ وَالْحَاجَةَ وَالْعِيدِينَ .

وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ لَصَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ قَبْلَ دُخُولِ وَقْتِهَا لَزِمَهُ صَلَاةُ تَحِيَّةِ الْمَسْجِدِ ، فَإِنْ دَخَلَ بَعْدَ دُخُولِ الْوَقْتِ دَخَلَتْ تِلْكَ التَّحِيَّةُ فِي السَّنَةِ الَّتِي سَيُصَلِّيُهَا ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ سَنَةٌ قَبْلَ فَعَلَّكَ تِلْكَ التَّحِيَّةُ فِي الْفَرَضِ نَفْسَهُ ، وَكَذَا تَحِيَّةَ الْوُضُوءِ .

قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَا يَحْدُثُ فِيهَا نَفْسُهُ] أَيُّ أَنْ يَمْنَعُ قَلْبَهُ مِنَ الْإِشْتِغَالِ بِالْأَحَادِيثِ النَّفْسِيَّةِ وَيَجْعَلُ قَلْبَهُ مُتَوَجِّهًا لِلَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يَخَلُّ بِهَذِهِ إِنْ تَوَارَدَتْ عَلَيْهِ الْوَسَاوِسُ وَالْخَوَاطِرُ وَلَكِنَّهُ يَرُدُّهَا وَيُدْفَعُهَا وَلَا يَسْتَسَلِمُ لَهَا ، لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [لَا يَحْدُثُ فِيهَا نَفْسُهُ] وَهَذَا الْمَصْلِيُّ قَدْ دَفَعَ مَا وَرَدَ عَلَى قَلْبِهِ .

وَمِنْ مَكْرِ الشَّيْطَانِ وَكَيْدِهِ بِالْمُؤْمِنِ أَنْ يَأْتِيَ فِي صَلَاتِهِ وَيَذْكُرُهُ بِأُمُورٍ هَامَةٍ وَقَدْ يَذْكُرُهُ بِأُمُورٍ قَدْ تَكُونُ مَنْسِيَّةً عِنْدَ الْمَصْلِيِّ وَذَلِكَ حَتَّى يَشْغَلَهُ فِيهَا عَنِ الْحُضُورِ وَالتَّوَجُّهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، لَا نَصْحًا لَهُ وَتَذْكَيرًا . وَكَمَا يَدْفَعُ الْإِنْسَانُ وَيَقَاوِمُ بِيَدَيْهِ مَنْ يَحَاوِلُ إِيْذَاءَهُ وَالضَّرْرَ بِهِ فَكَذَلِكَ يَدْفَعُ وَيَقَاوِمُ بِقَلْبِهِ الْوَسَاوِسَ الشَّيْطَانِيَّةَ وَالْخَوَاطِرَ النَّفْسَانِيَّةَ الَّتِي تَرِدُ عَلَيْهِ لِتَشْغَلَهُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَلِكُلِّ عَضْوٍ فِي جَسْمِ الْإِنْسَانِ صِفَةُ الْمَقَاوِمَةِ عَلَى حَسَبِ ذَلِكَ الْعَضْوِ .

وَكَأَنَّ الْإِنْسَانَ يَسْتَعِينُ بِاللَّهِ تَعَالَى لِيَنْصِرَهُ عَلَى عَدُوِّهِ حِينَ مَقَاوِمَتِهِ لَهُ فَكَذَلِكَ عَلَيْهِ أَنْ يَسْتَعِينُ بِاللَّهِ تَعَالَى لِيُدْفَعَ عَنِ قَلْبِهِ وَسَاوِسِ الشَّيْطَانِ وَلِيَنْصِرَهُ عَلَيْهِ ، فَلْيَسْتَنْصِرْ بِاللَّهِ وَلْيَتَحَصَّنْ بِهِ .

وقوله صلى الله عليه وسلم: [لا تغتروا] المراد أن من توضأ فأحسن وضوءه وصلى ركعتين غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، لينبه الإنسان أن لا يغتر بنفسه وأنه قد غفرت له ذنوبه ويدخل عليه الفخر بنفسه وأنه العابد الذي قد غفر الله له ذنوبه وأنه ... وأنه ... فإنه إن فعل ذلك واغتر بنفسه فقد أفسد حاله ومآله وارتكب من المنكرات ما لا يشعر به من سوء ظن بالناس وأنه أفضل منهم وأنه المتعالي عليهم وهكذا .

فقوله صلى الله عليه وسلم : [لا تغتروا] أي : لا تغتروا في عباداتكم ولا في أعمالكم بل إن وفقكم الله للعبادة فاشكروا الله تعالى على ذلك واعلموا أن الفضل لله عليكم أن وفقكم لعبادته .

وإن قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث المتقدم : [غفر الله له ما تقدم من ذنبه] وكذا قوله صلى الله عليه وسلم في غير هذا الحديث بعد أن بيّن أن هناك أفعالاً أو أقوالاً من فعلها أو ذكرها غفر الله له ما تقدم من ذنبه ، هذا يدل على كثرة تعرض الإنسان للوقوع في الذنوب ، ويدل على سعة رحمته سبحانه وتعالى بعباده أن شرع لهم من الأعمال والأقوال ما يغفر لهم بسببها ذنوبهم المتقدمة .

وأما الذنب ونسبته إلى المؤمن فتختلف من مؤمن إلى آخر على حسب مراتب المؤمن في الإيمان والعرفان ، والقول المأثور في بيان ذلك:

[حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومباحات العوام سيئات الأبرار]^١.

وإن الإيمان نور كشف لصاحبه يستنير به عقله وقلبه وروحه وجسده ، وكلما ارتقى المؤمن في مراتب الإيمان زاد نوره قوة ، ودق نظره فراح يكشف له ذلك النور عن دقائق الأمور فيرى في نفسه ذنوباً صغائر لم يكن يلقي لها بالاً من قبل فيتوب منها ويستغفر الله تعالى .

^١ هذا القول: [حسنات الأبرار سيئات المقربين] رَفَعَهُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم الشيخ ضياء الدين بن مصطفى بن عبد الرحمن الكمشخاني الحنفي النقشبندي الخالدي المتوفى سنة ١٣١١ هـ ، رفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم في كتابه : (جامع الأصول في الأولياء) ص ٢١٦ ، ورفع أيضاً الشيخ شمس الدين محمد بن أبي بكر الرازي الحنفي في كتاب (حدائق الحقائق) ص ١٧ ، و ممن عدّه حديثاً، الشيخ أبو الفضل محمد بن محمد الشافعي فإنه قال في كتابه (الظل المورود) : فقد روي أنه صلى الله عليه وسلم قال: فذكره ، وعزاه العجلوني في كشف الخفا وابن عساكر في تاريخه إلى أبي سعيد الخراز - وهو شيخ الصوفية ، القدوة أبو سعيد ، أحمد بن عيسى البغدادي الخراز المتوفى سنة ٢٧٧ هـ رضي الله عنه - ، وعزاه الزركشي في لقطته - واسم الكتاب : (لقطه العجلان وبلة الظمان) ألفه الشيخ الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي الشافعي رحمه الله المتوفى سنة ٧٩٤ هـ ، ويشتمل الكتاب على البحث في أصول الفقه و المنطق و الفلسفة و التوحيد - عزاه الزركشي في لقطته للجنيدي ، وعزاه القرطبي في تفسيره للإمام الجنيدي أيضاً، وقال الإمام الغزالي في (الإحياء): قال القائل الصادق: [حسنات الأبرار سيئات المقربين] . قلت : وقد أضحى هذا الحديث الشريف قاعدة مقررة مشهورة بين جميع طبقات العلماء والعرفاء سلفاً وخلفاً كما صرح بذلك سيدنا الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه الإيمان بعوالم الآخرة في بحث الشفاعة ص ٢٣٤ . اهـ .

وهكذا كلما ارتقى في مراتب الإيمان ظهرت صغائر كانت خفية عليه فيستغفر منها ويبقى طول حياته في مقام التوبة ولا يفارقه ، عملاً بقوله تعالى: {وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون} على اختلاف مراتبكم ودرجاتكم في الإيمان { لعلكم تفلحون} فمن المؤمنين من يتوب من الكبائر ، ومنهم من يتوب من الصغائر ، ومنهم من يتوب من صغائر الصغائر ، وهكذا كل على حسب إيمانه ومقامه .

ومن الذنوب التي يغفل المؤمن عنها وقد وقع فيها وهو لا يشعر بوقوعه فيها : رؤيته للأسباب وغفلته عن المسبب لها والمؤثر فيها وهو الله تعالى ، فإن الإنسان مثلاً يأكل الطعام ويشرب الشراب ويتنفس الهواء ويتعاطى الدواء لكن عليه أن لا يغفل أن هذه أسباب ووسائط خلقها الله تعالى وليس لها تأثير من ذاتها بل المؤثر فيها والفعال هو الله تعالى ، فهو سبحانه المغذي بالطعام لمن أكل الطعام ، وإن شاء غذى بالطعام وإن شاء لا ، وليس للطعام قوة التغذية من ذاته بل هو خلق من خلق الله تعالى ، وهكذا الماء فالإنسان يشربه ليرتوي به ولكن الذي يرويه هو الله تعالى ، وكذا الدواء فهو سبب من الأسباب التي خلقها الله تعالى وجعلها أسباباً ، إن شاء أعملها وإن شاء أهملها ، فمن غفل عن ذلك عند أخذه لسبب من هذه الأسباب فقد ارتكب ذنباً ، وما أكثر ذنوب الإنسان ، وما أحوجهم إلى مغفرة الله ورحمته!.

ومن الذنوب أيضاً : غفلة الإنسان عن التحقق بمعنى : [لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم] أي : لا حول لمتحول ولا تأثير لمؤثر ولا قوة لمُتَقَوِّ إلا بالله العلي العظيم ، وليس للمتحول من حول ولا قوة من ذاته بل إن حوله وقوته بالله تعالى.

وإن التحقق بمعنى [لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم] هو التحقق بالمرتبة الخامسة من مراتب التوحيد وهي [سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم].

وأما قولك : [سبحان الله] أي أنزه الله تعالى تنزيهاً عن النقائص والآفات والعيوب ، وأنزّهه عن كل ما لا يليق به جل وعلا ، كما نزهه سبحانه هو نفسه.

وقولك: [الحمد لله] اعتراف العبد بأن الله تعالى متصف بالكمالات والمحاسن اللائقة به جل وعلا كما أثبتتها سبحانه لنفسه.

وقولك: [لا إله إلا الله] أفراد له سبحانه بالذات والصفات ، فلا شريك ولا نصير ولا مثل ولا شبيه له جل وعلا في ذاته ولا في صفاته سبحانه وتعالى ، ولا إله غيره ، ولا رب سواه.

وقولك : [الله أكبر] فهو سبحانه أعظم وأكبر وأجل مما سبّحته وحمدته، فهو كما سبّحته وحمدته وأعظم من تسبيحك وتسبيح غيرك، وله الأكبرية المطلقة ، كما قال تعالى : { وكبره تكبيراً }.

وإذا كانت الشمس الفلكية التي هي خلق من خلق الله تعالى لم يعرف الإنسان عنها إلا القليل ويقول: "هي أكبر وأعظم مما أعرفه" فما بالك - والله المثل الأعلى - بالذي خلقها وأمدّها ويمدّها سبحانه؟!!

فمهما عرف العارفون فهو سبحانه كما عرفوا وأكبر وأعظم مما عرفوا.

وقولك : [لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم] أي اعتراف العبد بأنه لا حول لمتحول من حال إلى حال ، ومن فعل إلى فعل ، ولا قوة لمتقو على أمر يريده إلا بالله العلي العظيم .

وإذا عرف الإنسان ذلك عرف كثرة ذنوبه ، ومنها قول الله تعالى في الحديث القدسي : [يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار] - أي معرضون للخطايا في الليل والنهار- [وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستغفروني أغفر لكم] .^١

اللهم اجعلنا من الذين إذا أحسنوا استبشروا ، وإذا أسأؤوا استغفروا . آمين ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين.

١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

المحاضرة الثانية عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس الأول في هذا الباب

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أمَّا بعد: بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب الغنى غنى النفس^١.

وقول الله تعالى : { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ * وَلَا نكَلْفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ } .

قال ابن عيينة: لم يعملوها، لا بد من أن يعملوها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس].^١هـ

وقد جمع البخاري رضي الله عنه في هذا الكتاب كتاب الرقاق جملة من الأحاديث التي ترقق القلوب وتلطفها من قسوتها وتوقظها من غفلتها ، وقد جرى على ذلك كثير من المحدثين فمنهم من ترجم ذلك بكتاب المواعظ ومنهم من ترجم ذلك بكتاب الزهد وهكذا ..

^١ صحيح البخاري كتاب الرقاق

أما الآيات : { أَيْحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مَشْفُقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يَوْمَنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ }.

فقد ذكر سبحانه هذه الآيات في سورة المؤمنون التي مدح فيها سبحانه المؤمنين وأثنى عليهم وذكر أوصافهم في طاعة الله تعالى ثم حذر سبحانه من حال الكافرين فقال : { أَيْحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ * نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ } أي : أَيْظُنُّ الْكَافِرُونَ الظَّالِمُونَ أَنْ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَوْلَادِ وَأَمْوَالِ الدُّنْيَا وَزَخَارِفِهَا وَعِلْمِهَا أَيْظُنُّ هَؤُلَاءِ أَنْ ذَلِكَ خَيْرٌ فِي حَقِّهِمْ؟ وَأَنْ ذَلِكَ مِنْ بَابِ فَتْحِ الْخَيْرَاتِ عَلَيْهِمْ وَرِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ؟ { بَلْ لَا يَشْعُرُونَ } أي : بَلْ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا يَظُنُّونَ وَيُزَعِّمُونَ ، وَغَابَ عَنْهُمْ أَنْ ذَلِكَ شَرٌّ فِي حَقِّهِمْ وَأَنَّهُ مِنْ بَابِ اسْتِدْرَاجِهِمْ وَالْمَكْرِ بِهِمْ ..

ولو أنهم آمنوا وامتثلوا أوامر الله تعالى لكان ما فتح الله عليهم من أبواب الدنيا وخيراتها لكان ذلك خيراً في حقهم.

ومن أراد الله به خيراً شغله به عن غيره ، ومن أراد به شراً - نسأل الله العافية - شغله بالأغيار عنه.

ثم بين سبحانه صفة المؤمنين الذين يسارع لهم في الخيرات وهم على رضا من الله تعالى وقد نالوا سعادة الدنيا والآخرة فقال جل وعلا : { إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مَشْفُقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يَوْمَنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ }.

قوله تعالى : { مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مَشْفُقُونَ } والخشية أخص من الخوف لأنها تكون عن علم بما تخشاه ، أما الخوف فهو أعم لأنه قد يكون عن علم وقد لا يكون عن علم بمن تخاف منه ، كما لو تراءى لك شبح من بعيد فإنك تخاف منه ولا تدري من هو هذا المقبل فقد يكون صاحبك وقد يكون عدوك ..

وعلى قدر العلم بالله تعالى تكون شدة الخشية منه سبحانه، وقد قال تعالى: { إنما يخشى الله من عباده العلماء } أي العلماء بالله تعالى هم أهل الخشية من الله تعالى ، وخشيتهم من الله تعالى على قدر علم أحدهم بالله تعالى ، وإن أعلم خلق الله بالله وأخشاهم له هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أعلن ذلك بقوله صلى الله عليه وسلم:

[والله إني لأعلمكم بالله عز وجل وأخشاكم له].^١

قوله تعالى : { من خشية ربهم مشفقون } أي : إن خشيتهم من الله تعالى أدت بهم إلى الإشفاق فصاروا يشفقون أي يخافون ويحذرون كل الحذر من حجاب الله تعالى بأن تحتجب قلوبهم عن ربهم ، وكفى باحتجاب الله عن الإنسان عذاباً إن هو انتبه من غفلته واستيقظ من سكرته ، ولذلك ذكر سبحانه أنواع العذاب في جهنم في عدة من الآيات القرآنية ، ثم لما ذكر عذاب الحجاب أفردته بالذكر لخطره وشدة هوله عند من يعقل ويعرف ، فقال عز من قائل: { كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون } لأنهم حجبا قلوبهم عن الله تعالى لما كانوا في الدنيا فلما جاؤوا في الآخرة احتجب عنهم سبحانه فلا يرونه ، وهم في أشد الشوق لرؤيته ، ولو لم يكن الحجاب عذاباً للكفار لَمَا ذكره الله سبحانه وتعالى عنهم .

وإذا كان احتجاب الله تعالى عن الإنسان أشد أنواع العذاب له ، فإن رفع الحجاب وتجلي الحق على الإنسان هو من أعلى مراتب النعيم بل هو فوق كل نعيم ، قال تعالى : { وجوه يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة }.

قوله تعالى : { والذين هم بآيات ربهم يؤمنون } أي : يوقنون بآيات الله القرآنية التدوينية المتلوة إيماناً صادقاً بما أخبر سبحانه دون ارتياب أو شك ، وهم يؤمنون بآيات الله التكوينية وهي ما يرونه ويشهدونه من حولهم وفوقهم من سموات وأراض ونجوم وبحار كما قال سبحانه: { سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق } وأنها مجال تنجلي فيها قوة الله وعظمة الله وكمالات الله جل وعلا ..

^١ المسند ٢٣٧٦٥

وهذا هو شأن المؤمن أن يستدل بكل شيء على الله تعالى ، وما هذه العوالم إلا علامات دالة على الله تعالى وعلى قدرته وعظمته ، وعلى المؤمن أن لا يغلق فكره ويقبض نظره بالتعرف على الله تعالى بالأدلة والبراهين المحدودة كالأدلة الشرطية ، ومثال من يفعل ذلك كمن راح ينظر إلى نور الشمس من خرم إبرة ، وضاق فكره أن يخرج إلى الساحة ليرى نور الشمس الباهر القوي .

وإذا كانت الشمس الظاهرة بنورها لجميع الخلق هي خلق من خلق الله تعالى فإن الذي خلقها وأظهرها أشد ظهوراً منها ، وهو الظاهر في جميع المظاهر أي الظاهر نوره وعظمته وقدرته في جميع المخلوقات بل في جميع الذرات ، ولو أنصف الطبيب والفلكي والباحث والجغرافي .. لو أنصف هؤلاء في التفكير وتحروروا من أسر التكبر والعجب لعرفوا أن كل شيء في الكون دال على الله تعالى ويشهد أن لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهذا معنى قوله تعالى : { سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق } وقوله سبحانه : { قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون } .

وقال جل وعز : { وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون } فعرفوا الله ورأوا آياته ظاهرة في كل شيء إلا أنهم لم يعترفوا وأعرضوا عناداً وكبراً.

قوله تعالى : { والذين هم بربهم لا يشركون } والمراد من الشرك في الآية الشرك الخفي لأن الآيات تذكر صفات أهل الإيمان فليس المراد الشرك الجلي الأكبر .

والشرك الخفي - ويسمى الشرك الأصغر - هو وقوف الإنسان مع الأسباب وغفلته عن المسبب ، ورؤيته الآثار وغفلته عن المؤثر وهي الغفلة عن معنى قولك : [لا حول ولا قوة إلا بالله] ، ومن لم يتحقق بهذا إيمانه على نقص .

واعلم أن الأسباب خلقها الله تعالى كالخدمة بين يديه، إن شاء أعملها لما خلقها له، وإن شاء أهملها، وليس للأسباب تأثير ذاتي، كما لا تملك ما أودع الله فيها من خصائص ومؤثرات، فالنار لا تحرق من ذاتها والمحرق بها هو الله تعالى، كما أن الدواء لا يشفي من ذاته والشافي هو الله تعالى، والماء الذي أغرق الله تعالى به قوم نوح لم يغرق نوحاً عليه السلام ولم يغرق من معه من المؤمنين لأن الماء لا يغرق من ذاته بل إن الله تعالى يغرق به من أراد وينجي من أراد، وهكذا....

قوله تعالى: { والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة } - أي يؤتون ما آتوا من أعمال صالحة وقلوبهم خائفة مشفقة أن لا يقبل منهم - { أنهم إلى ربهم راجعون } أي لأنهم إلى ربهم راجعون وسوف يسألهم عن صدقهم وإخلاصهم في أعمالهم مع الله تعالى فخافوا من ذلك ..

وقد سألت الصَّديقَةَ بِنْتُ الصَّديقِ حَبِيبَةَ حَبِيبِ اللَّهِ الْمُبَرَّاءَةَ فِي كِتَابِ اللَّهِ سَأَلْتُ سَيِّدَنَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ: { وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ } فَقَالَتْ: أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرِبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟ قَالَ ﷺ: [لَا يَا بِنْتُ الصَّديقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ].

فهم يرجون من الله تعالى القبول ويخافون إذا نظروا إلى أنفسهم أن لا يكونوا من أهل الإخلاص والصدق في أعمالهم .

قوله تعالى: { أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون } أي هؤلاء هم أهل الخيرات على الحقيقة، وليس أولئك الذين سبق ذكرهم من الكافرين الذين فتح الله عليهم أبواب خيرات الدنيا فظنوا أنهم على شيء وما ذلك إلا مكرٌ بهم واستدراج لهم كما تقدم بيانه .

١ كما كان يذكرها التابعي الجليل مسروق رحمه الله تعالى إذا حدَّث عنها رضي الله عنها (انظر حلية الأولياء ٤٤/٢).

وهؤلاء المؤمنون الصادقون سارع الله لهم بالخيرات فتسارعوا بالخيرات أي بفعل أعمال الخير والتقرب إلى الله تعالى { وهم لها } أي للخيرات {سابقون} أي يوم القيامة .

وقد دلت هذه الآية على ثلاثة أمور :

أولها : أن الذين يسارع الله لهم بالخيرات هم أهل الإيمان وأهل الخير من الله تعالى الذين وصفهم بقوله جل وعلا : {إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون} ... الآيات.

ثانيها: أن الله تعالى لما سارع لهم بالخيرات صاروا يسارعون بالخيرات أي بفعل أعمال الخير.

وثالثها : أن هؤلاء هم السابقون للخيرات يوم القيامة فإنهم يدخلون الجنة، وهؤلاء هم المقربون الذين أشار إليهم سبحانه بقوله : {والسابقون السابقون * أولئك المقربون}.

قوله تعالى : {ولا نكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق } - وهو كتاب الإحصاء العام الذي يحصي على العباد جميع أعمالهم - {وهم لا يظلمون} - أي لا يُنقص من حسناتهم ولا يُزاد من سيئاتهم .

قوله تعالى : {بل قلوبهم في غمرة من هذا} -والضمير يعود إلى الكفار الذين ذكرهم سبحانه في الآيات قبلها بقوله عز من قائل : {أيحسبون أننا نمدهم به من مال وبنين * نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون } وقلوب الكفار في غفلة عن أمور الآخرة .

وقوله تعالى : {في غمرة} وأصل الغمر تطلق على غمر الماء ، ومن غَمَرَهُ الماء فقد غيَّبه فلا يسمع ولا يرى ويشرف على الهلاك وكذلك شأن الكفار فلقد غمرت الدنيا وشهواتها غمرت قلوبهم فلا يتذكرون ولا يتفكرون بأمر الآخرة ، وفي الآية تنبيه وتحذير للمؤمن أن يحافظ على قلبه وأن لا تغمره الدنيا وظلماتها فيعمى ويصم عن أمور الآخرة .

وليعلم كل مؤمن أنه ليس وراء الله مرمى ولا دون الله منتهى ، فلتكن غايته ومقصده من العبادات وفعل الخيرات رضاء الله تعالى والتقرب منه لا أن يكون قصده من طاعة الله تعالى أن يجعله الله من أهل الكشف أو يخرق على يده العادات فإن ذلك يحصل للعابد السالك كرامة له وتنشيطاً لهمة في السير إلى الله تعالى وإلا فإنه إذا رأى من نفسه أنه حصل على المراتب وارتقى المقامات فقد انقطع به سبيل الوصول إلى حضرة الله تعالى .

وقد قال تعالى في سورة النجم - التي ذكر في أولها عروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السموات ثم إلى سدرة المنتهى إلى أن تجلى الله عليه بالرؤية - ذكر سبحانه في السورة قوله : {وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} فلم يقف صلى الله عليه وسلم مع ما رأى من العوالم الغيبية بل كان مقصده وغايته هو الله تعالى كما قال تعالى : {وَأَنْ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى} ولم تشغله صلى الله عليه وسلم تلك العوالم عن غايته ومقصده ألا وهو الله تعالى .

ولكم أيها المؤمنون في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فكونوا له مقتدين وبهديه مهتدين ، ولتكن غاية أحدكم ورغبته ومقصده هو الله تعالى ، ولا تشغلکم الأغيار عن الواحد القهار.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أكمل الأصول ، ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة الثالثة عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد:

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب الغنى غنى النفس^١ .

وقول الله تعالى : { أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ * إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ * وَلَا نَكْفُؤُا نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ * بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ } .

قال ابن عيينة: لم يعملوها، لا بد من أن يعملوها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس]^٢ .

لقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الغنى هو غنى النفس والقلب، وليس الغنى من كثرة أمواله وتوسعت تجارته .

١ صحيح البخاري كتاب الرقاق

٢ وقد ذكر الإمام البخاري رضي الله عنه هذا الحديث في كتاب الرقاق ،

الذي ضم جملة من الأحاديث التي ترقق القلوب وتوقظها من غفلتها.

والعرض المتقدم ذكره في الحديث هو المتاع الذي ينتفع به في الدنيا كالدار والمال والطعام والشراب وغير ذلك ، إذ كلُّ ما ينتفع به الإنسان في الدنيا هو من باب العوارض التي تعرض له فهي عرض.

وقد يُطلق العَرَض على ما يعرضُ على الإنسان فيقال :

عرض له عارض وعرض ومرض وآفة وغير ذلك^١.

وقد قال سبحانه في بيان عرض الدنيا : {فخلفَ من بعدهم خلفٌ ورثوا الكتابَ يأخذونَ عرضَ هذا الأدنى ويقولونَ سيغفرُ لنا وإن يأتهمُ عرضٌ مثله يُأخذوه ألم يُؤخذُ عليهم ميثاقُ الكتابِ أن لا يقولوا على اللهِ إلا الحقَّ ودرسوا ما فيه والدارُ الآخرةُ خيرٌ للذين يتَّقونَ أفلا تعقلونَ * والَّذِينَ يمسكونَ بالكتابِ وأقاموا الصَّلَاةَ إِنَّا لا نضيعُ أجرَ المصلحينَ} اللهم اجعلنا منهم. آمين

فقد ذكر سبحانه في هاتين الآيتين مواقف النَّاس مع الكتبِ الإلهية التي أنزلها الله تعالى عليهم ، فمنهم من يقرأ الكتاب ولا يعملُ به كما هو شأن كثير من الأمم السابقة، وبذلك يعرضُ سبحانه بهذه الأمة أنَّهم ورثوا الكتاب عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فيجبُ عليهم أن يعملوا ويتمسَّكوا به ولا يكونوا كالذين تمسَّكوا ظاهراً بالكتاب ، ولكنَّهم راحوا يحتالونَ على الكتاب بأن أحلُّوا ما حرَّم الله تعالى عليهم في الكتاب ليُجاروا أهلَ عصرهم ويكسبوا منهم.

١ انظر (تاج العروس) مادة (عرض) والعرضُ في اصطلاح علماء الكلام هو

ما يقابل الجوهر ، وتجد تعريف ذلك في أبحاث علم الكلام.

وهذا قوله تعالى: { فخلف من بعدهم خلف } - أي خلف سييء - {ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى} أي عرض هذا العالم الدنيوي الدني ، ولكنهم أخذوا ذلك بغير حق، إمّا عن تأويل للنص على ما يوافق أهواءهم أو اتباع لأقوال ضعيفة أو لا صحّة لها كما هو حال أهل زمننا في الاحتيال على نصوص الكتاب والسنة من أجل تحليل الربا فقد يسمونها بغير اسمها أو يعتبرونها ربحاً مشروعاً أو غير ذلك.

قوله تعالى : { يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا } - أي ولو كنّا مخطئين - {وإن يأتهم عرض مثله} - أي فلم يقتصروا على واحدة بل تكرّر ذلك منهم في سبيل الحصول على عرض الدنيا وإرضاء الناس ومجاراة العصر - {ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه} وفي هذا يخاطب الله سبحانه وتعالى هذه الأمة المحمّدية ليحذّره وينبّههم ألا يقعوا فيما وقع فيه من قبلهم من المكر والاحتيال على أحكام الله تعالى ، ثم قال سبحانه:

{والدّار الآخرة خيرٌ للذين يتقون أفلا تعقلون} * والذين يمسكون بالكتاب {أي يتمسكون بالقرآن وأحكامه وأوامره وأهمها الصّلاة، ولذلك ذكرها بالخصوص فقال عز وجل: {وأقاموا الصّلاة إنّنا لا نضيع أجر المصلحين}.

ولا بدّ لمن أراد التمسك بالكتاب لا بدّ له من الرجوع إلى بيانات سيّدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للكتاب وهي أحاديثه الشريفة صلى الله عليه وسلم.

١ مسك وتمسك بالشيء إذا استمسك به. انظر لسان العرب ١٠/٤٨٦

وقوله تعالى : { وَالَّذِينَ يَمَسُّونَ } أي يتمسكون بالكتاب ، وذلك لأن كتاب الله تعالى سبب ، طرفه بيد الله تعالى ، وطرفه الآخر مرسل لمن أراد أن يتمسك به ، ومن أخذ بالقرآن اعتقاداً وعملاً فقد تمسك بحبل الله تعالى فإمن عندئذٍ من الشرور والفتن ، وعلى شدة تمسكه بكتاب الله تعالى يكون أمنه ونجاته من فتن الدنيا وعذاب الآخرة .

وقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي عن أمير المؤمنين سيدنا علي كرم الله تعالى وجهه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

[أَلَا إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ، فَقُلْتُ: مَا الْمَخْرَجُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ : كِتَابُ اللَّهِ، فِيهِ نَبَأُ مَا كَانَ قَبْلَكُمْ، وَخَبْرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينُ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَهُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ عَلَى كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجِنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: { إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ } .

مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ].^٢

قوله تعالى : { يأخذون عرض هذا الأدنى } فقد وصف سبحانه عرض الدنيا بالدناءة ، فعلى الإنسان أن لا يصرف همته إلى جمعه والاستكثار منه ، ولتكن همته متوجهة إلى الأعلى ، وهو نيل ما عند الله تعالى من الفضائل و المكرمات ، قال سبحانه : { بل تؤثرن الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى } .

١ جاء في المعجم الكبير للطبراني قوله صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ سَبَبٌ طَرَفُهُ بِيَدِ اللَّهِ، وَطَرَفُهُ بِأَيْدِيكُمْ فَتَمَسَّكُوا بِهِ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَضِلُّوا وَلَنْ تَهْلِكُوا بَعْدَهُ أَبَدًا].

٢ سنن الترمذي كتاب فضائل القرآن

وكم من غني ، كثيرة أمواله وتجارته وعقاراته ، ولكن نفسه شحيحةً دنيئةً ،
فتراه يكدُ ويسعى ويجهد نفسه في سبيلِ الحصولِ على المالِ وكأنه فقيرٌ لا
شيء عنده!!

وإذا كانت صفاتُ الحرصِ والطَّمعِ والأملِ تغلبُ على الإنسانِ ولا يمكنه
استئصالها من نفسه فليصرفها في مرضاةِ الله سبحانه وتعالى ، فليحرص
على ما ينفعه لا على ما يعودُ عليه بالسُّؤالِ والحسابِ والعذابِ ، وليطمع
في مغفرةِ الله تعالى ورحمته ورضوانه لا في جمعِ حطامِ الدُّنيا وأموايلها ،
وليكن أمله وهمته متوجهةً إلى عمارةِ آخرته ، لأن الدُّنيا وما فيها لا تتسعُ
لطولِ أمله وعظيمِ رغبته ، لأن عمره فيها قصيرٌ محدودٌ ، أمَّا الآخرةُ فهي
دارُ الخلودِ ، والإنسانُ سيخلدُ فيها أبدَ الأبدِ ، فليسعَ أن يكونَ خلوده في
الآخرةِ خلوداً بحياةٍ ناعمةٍ في دارِ كرامةِ الله تعالى وضيافتهِ لعبادهِ المؤمنين.
وفي الحديث الذي رواه البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه ،
أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قال :

[لَوْ أَنَّ لِابْنِ آدَمَ وَادِيًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَادِيَانِ، وَلَنْ يَمَلَأَ فَاهُ إِلَّا
التُّرَابَ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ] ١

وقال الله تعالى : { إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ } - أي لَجَحودٌ لِنِعْمِ اللَّهِ تَعَالَى
عَلَيْهِ إِلَّا أَهْلَ الْإِيمَانِ - {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} أي يعلمُ أنَّ ما عنده من الله
تعالى ، ولكنه ينكرُ ويزعمُ أنَّ ما عنده هو بسعيه وجدّه ونشاطه ، كما قال
الله سبحانه وتعالى مخبراً عن قارون : { قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي } .

قوله تعالى : {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} إمَّا المراد أنَّه يحبُّ الخير ، فأهلُ
الإيمان يحبُّون خير الآخرة ، وأهلُ الدُّنيا يحبُّون خير الدُّنيا ويسعون في
طلبها ولو حصلوا منها على الكثير ، فما دام حبُّ الإنسانِ للخيرِ شديداً
فليجعلُ حبه للخيرِ الذي سيبقى معه أبداً.

١ صحيح البخاري كتاب الرقاق ومسند الإمام أحمد ١٢٢٥٦ وصحيح ابن
حبان كتاب الزكاة

أو المراد : { وإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ } أي الخير الدُّنيويّ ، وهو شأنُ الكنود الذي تعلّق بالدُّنيا وجحد نعمة ربّه ، فَمِنْ شِدَّةِ حُبِّهِ لخيرِ الدُّنيا صارَ شديداً بخيلاً ، والمعنى : وإِنَّهُ لَشَدِيدٌ أي ذو شِدَّةٍ وقسوةٍ وبخلٍ بسببِ حُبِّهِ لخيرِ الدُّنيا ، ويجدُ تلكَ الشِدَّةَ والقسوةَ فيه مَنْ عامله ببيعٍ أو شراءٍ ونحوه .

فَمِنْ شِدَّةِ حرصِ هذا على الدُّنيا وحبِّه لها صارَ شديداً حريصاً على أموالها ، وقد ذمَّ اللهُ تعالى مَنْ صفتَه هكذا وِزَجْرَهُ ، فقال جل وعز : { أفلا يعلم إذا بعث ما في القُبُورِ * وحُصِّلَ ما في الصُّدُورِ * إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ } أي فأينَ هذا من هولِ هذا اليوم الذي سيأتي عليه ويسأله اللهُ تعالى فيه ويحاسبه على شِدَّةِ حرصه وحبِّه للدُّنيا وتعلُّقه بها؟!

قوله تعالى : { أفلا يعلم إذا بعث^١ ما في القبور } أي : إذا بُعث من في القبور من الموتى وانتشروا على وجه الأرض

قوله تعالى : { وحُصِّلَ ما في الصُّدُورِ } أي فكما أظهرَ اللهُ تعالى خبايا مَنْ في القبورِ أظهرَ أيضاً الخبايا التي في الصُّدُورِ مِنْ حُبِّ دُنْيَا وَهَمَّةٍ وَعَزِيمَةٍ ، فكما أظهرهم اللهُ تعالى من قبورهم أبرراً ما في قلوبهم .

وفي روايةٍ ثانية للحديث عند ابن حبان عن أبي ذر رضي اللهُ عنه أنه قال :

قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:

[يا أبا ذر ، أترى كثرة المال هو الغنى ؟

قلت : نعم^٢ .

قال : وترى قلَّةَ المالِ هو الفقر ؟

قلت : نعم يا رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

قال : إنَّما الغنى غنى القلب ، والفقر فقرُ القلب [٣] .

١ يعني : بعث وأثير . انظر تفسير الطبري للآية الكريمة

٢ أي لأن هذا هو المعروف بين الناس .

٣ صحيح ابن حبان كتاب الرقائق

ومن آفات غنى المال أنه يميل عن صاحبه إلى ورثته فور موته وقبل تغسيله ودفنه ، وأما غنى النفس والقلب فيبقى مع الإنسان أبد الأبدين .

وإذا كان غنى المال يحصل للإنسان بجمع المال ، فليبحث الإنسان وليسع في تحصيل الأسباب التي تحصل له غنى النفس والقلب .

ومن العجيب أن الإنسان يسعى ويشقى في جمع ما ينفع غيره وهو ماله الذي سينتقل إلى ورثته بعد موته، ويهمل ويترك جمع ما فيه غنى نفسه وقلبه !

وفي الحديث الذي رواه الإمام البخاري وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : [أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله ؟

قالوا : يا رسول الله ، ما منا أحد إلا ماله أحب إليه ، قال : فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما أخر]^١ .

فليس كل ما جمعه الإنسان هو له ، إذ ليس له منه إلا ما قدمه من فعل الخيرات ، وأما ما سوى ذلك فقد تعب في جمعه وليس له منه شيء ، بل هو لمن بعده من ورثته .

واعلم أنه لا يستغني القلب إلا بالتقرب إلى الرب جلّ وعلا، وذلك بالتحقق بالكمالات الإيمانية العلمية والعملية التي ترضي الله تعالى وترضي رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم ، ولا يملأ القلب إلا حبُّ الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ورضا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وطريق ذلك التَّحَقُّقُ بالكمال العلمي والعملية ، والذي جاء بيانه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله تعالى للعالمين معلماً لهم الكتاب والحكمة ومزكياً لنفوسهم وقلوبهم، قال تعالى: { لقد منَّ اللهُ على المؤمنين إذ بعثَ فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبينٍ } .

^١ صحيح البخاري كتاب الرقاق واللفظ له وسنن النسائي كتاب الوصايا

فلا بد لسلوك طريق القرب من الله تعالى من علم وعمل ، وقد أشار إلى هذا قوله تعالى : { أولي الأيدي والأبصار } أي أولي القوّة في الطّاعة وعبادة الله تعالى وأولي البصائر القلبية التي تشهد العلوم الإلهية ، فلا بدّ إذاً من العلم النّافع والعمل الصّالح حتى يستغني القلب وتستغني النفس بفضل الله تعالى وبرحمته.

وبالعمل الصّالح يتقرّب العبد من ربّه ، ولا يزال كذلك حتى ينال محبّة الله تعالى ، كما قال سبحانه في الحديث القدسي:

[مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أَحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا ، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا] وفي رواية: [ولسانه الذي ينطق به، وقلبه الذي يعقل به] [وَأَنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيدَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدَّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ].^٢

يعني أنّ الله تعالى تولّى جميع حواسّ ومدارك هذا العبد المحبوب عنده ، وملاها نوراً من عنده ، وبذلك أصبح العبد المحبوب لا يلتفت إلا إلى الله تعالى ، ولا ينشغل إلا بالله تعالى ، فهّم وإن عملوا في الدنيا وباعوا واشتروا وتاجروا فإنّ مقصودهم من ذلك القيام بما أمر الله تعالى ، والسعي على عيالهم ونفع عباد الله تعالى ، إلا أن محبة الله تعالى تعمّر قلوبهم، وذكر الله تعالى يرطب ألسنتهم ، كما قال تعالى : {رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار}.

١ مسند أبي يعلى

٢ صحيح البخاري كتاب الرقاق

ومن تحقّق بذلك ونال مقام المحبة والمحبوبة من الله تعالى ، ونال مقام الرّضا فقد استغنى قلبه ونفسه عما سوى الله تعالى ، فإنّ هو عندئذ خسر مالاً في بعض تجاراته فلا يبالي ، لأنّ الغنى بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم مالىُّ قلبه ونفسه ، ولا تفرحه زيادةُ أمواله لأنّ الفرح بالله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم مستحکم على قلبه ونفسه ، وهذا ما أمر به سبحانه عباده المؤمنين للتّحقّق به فقال جلّ وعلا: {قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خيرٌ ممّا يجمعون}.

واعلم أنّ القلب لا يسكنُ ولا يطمئنُّ ولا يُملاً إلاّ بأنوارِ الرّبّ جلّ وعلا -وهذا ما يشعر به كلُّ مؤمنٍ إذا التجأ إلى ربّه جلّ وعلا فراراً من همومِ الدُّنيا وغمومها ومتاعبها- ومهما استزاد الإنسانُ من أموالِ الدُّنيا ومتاعها فلا يشبع ولا يكتفي، ويسعى دوماً نحو المزيد ، لأنّ ميدانَ قلبه واسعٌ كبيرٌ لا يسكنُ ولا يطمئنُّ إلاّ إذا غمرته أنوارُ الله تعالى ، ولا ينالُ ذلك إلاّ بمحبةِ الله تعالى والتّقرُّب إليه سبحانه بالأقوالِ الطّيبةِ والأعمالِ الصّالحةِ.

ونسأل الله تعالى التّوفيق، وصلى الله على سيدنا محمّد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة الرابعة عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

بَابِ حِفْظِ اللِّسَانِ، وَقَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ] وَقَوْلِهِ تَعَالَى: { مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ }.

ثم أورد بسنده إلى سهل بن سعد رضي الله عنه عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [مَنْ يَصْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لِحْيَتَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَصْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُؤْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ صَبِغَهُ].

وَعَنْ أَبِي شُرَيْحٍ الْخُرَازِيِّ قَالَ: سَمِعَ أُذُنَايَ وَوَعَاهُ قَلْبِي النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [الصَّبِغَةُ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ جَائِزَتُهُ ، قِيلَ: مَا جَائِزَتُهُ؟ قَالَ: يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ صَبِغَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَسْكُتْ]. اهـ

لقد جرت عادة المحدثين في كتب الحديث أن يعقدوا كتاباً خاصاً بالرقائق أو المواعظ أو الزهد ويجمعون فيه الأحاديث التي ترقق القلوب ، وتلطّفها من قوتها وتوقظها من غفلتها في الدنيا.

ولقد كان أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سمعوا الموعظة منه رقت قلوبهم ، وفي ذلك يقول أبو هريرة رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

[يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا لَنَا إِذَا كُنَّا عِنْدَكَ رَقَّتْ قُلُوبُنَا وَزَهَدْنَا فِي الدُّنْيَا وَكُنَّا مِنْ أَهْلِ الْآخِرَةِ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْسْنَا أَهَالِينَا وَشَمَمْنَا أَوْلَادَنَا أَنْكُرْنَا أَنْفُسَنَا ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ أَنَّكُمْ تَكُونُونَ إِذَا خَرَجْتُمْ مِنْ عِنْدِي كُنْتُمْ عَلَى حَالِكُمْ ذَلِكَ لَزَارَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ فِي بُيُوتِكُمْ].^١

وفي رواية ابن حبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : [لو تدومون على ما تكونون عندي في الحال ، لصافحتكم الملائكة حتى تظلكم بأجنحتها، ولكن ساعة وساعة]^٢.

وقد ورد هذا أيضاً عن حنظلة بن الربيع^٣ رضي الله عنه وغيره من الصحابة أيضاً .

وهذا العزْبَاضُ بْنُ سَارِيَةَ رضي الله عنه يقول كما روى الترمذي :

[وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا بَعْدَ صَلَاةِ الْعَدَاةِ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ رَجُلٌ: إِنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةٌ مُوَدِّعٌ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ يَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّهَا ضَلَالَةٌ، فَمَنْ أَدْرَكَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَعَلَيْهِ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ].^٤

١ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب صفة الجنة

٢ صحيح ابن حبان كتاب البر والإحسان

٣ كما في صحيح مسلم كتاب التوبة

٤ سنن الترمذي كتاب العلم

وفي رواية : [موعظة مضت منها الجلود]^١ - أي : اقشعرت وتألمت حتى كادت تحترق .

فلقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأثرون بمواعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم وتذكيره لهم مع أن قلوبهم قلوب الواصلين المقربين ، إلا أنهم لا يستغنون عن مواعظه وتذكيره وتعاليمه صلى الله عليه وسلم .

ولكل مؤمنٍ بل ولكل مقربٍ نصيبه وحظه من مواعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم مهما ارتقى في درجات القرب .

فإذا كان الصحابة رضي الله عنهم مع شدة إيمانهم وقوة إخلاصهم وصدقهم يحرصون على سماع مواعظ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجدير بك أيها المؤمن أن تحرص كل الحرص على سماع مواعظه صلى الله عليه وسلم وتذكيره وهديه وإرشاده صلى الله عليه وسلم ، حتى يرقى قلبك وتزكو نفسك، وتنتبه من غفلتك في الدنيا وأموالها، وتنشط همتك للعمل للدار الآخرة .

وفي هذا الباب أورد البخاري رضي الله عنه جملة من الأحاديث تبين خطر اللسان على الإنسان ولو كان مؤمناً صالحاً عابداً فإن لسانه قد يحبط أعماله الصالحة ويورده المهالك ، وقد قال سبحانه : { ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد } أي : ما من قول يتلفظ به الإنسان إلا كتبه عليه الملكان الموكلان بإحصاء أعماله وأقواله الصالحة والفسادة .

وقال تعالى : { وإن عليكم لحافظين * كراماً كاتبين * يعلمون ما تفعلون } فهم ملائكة كرام عدول ثقات بشهادة الله تعالى ، صادقون ، يكتبون جميع ما يصدر عن الإنسان من أقوال وأعمال ، وكلُّ من هذين الملكين رقيب عتيد أي : لا يغفل لحظة عن مراقبة الإنسان وما يصدر عنه في أقواله وأعماله ، وهو حاضر العتاد سريع الكتابة .

١ كما في مسند الحارث كتاب العلم

واللفظ في اللغة هو الطرح والرمي والإلقاء ويسمى الكلام الذي يلقيه الإنسان لفظاً^١.

وقوله تعالى : { من قول } يفيد عموم الكلام أي : ولو كان نصف كلمة، لأنها نكرة جاءت بعد نفي ، وقد بين لنا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - صاحب البيان عن القرآن الذي أنزل الله عليه القرآن وبينه له ثم أمره أن يبينه للناس فقال تعالى : { وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم} - بيّن صلى الله عليه وسلم لنا أن أمر اللسان أمر خطير، فقال : [مَنْ يَضْمَنْ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَضْمَنْ لَهُ الْجَنَّةَ].

[مَنْ يَتَكَفَّلُ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ أَتَكْفَلُ لَهُ بِالْجَنَّةِ]^٢

وفي رواية : [مَنْ تَوَكَّلَ لِي مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ تَوَكَّلْتُ لَهُ بِالْجَنَّةِ]^٣.

واللحيان تثنية لحي ، وهو عظم الفك الذي ينتهي إلى الذقن ، وسمي بذلك لأن اللحية تنبت عليه من طرفي الوجه ، والذقن هو مجمع اللحيين ، واللحية هي الشعر الذي ينبت على اللحيين ، وما كان غير ذلك فلا يسمى لحية في الشرع ولا في اللغة .

وقوله صلى الله عليه وسلم : [من يضمن لي ما بين لحييه] أي : من يضمن لي فمه [وما بين رجليه] أي : فزجه ، فمن أمسك فمه عن الحرام وحفظ فرجه عن الحرام ضمن له الجنة أصدق العالمين صلى الله عليه وسلم.

ولولا أن أمر الجنة كبير لما قال صلى الله عليه وسلم : [أضمن له الجنة] ، لأنه صلى الله عليه وسلم لا يضمن إلا عظام الأمور وكبارها .

١ انظر لسان العرب مادة : لفظ

٢ سنن الترمذي كتاب الزهد

٣ مسند الإمام أحمد ٢١٧٥٧

وَمِنْ أخطار اللسان : فحش الكلام والسب والشتم والسخرية والاستهزاء والغيبة والنميمة ، وُزِبَ كلمة يتكلم بها الإنسان لا يبالي بها أو ليضحك السامع ولكنها أخرجته عن دينه وهو لا يشعر ، أو أحبطت كثيراً من أعماله الصالحة وهو لا يشعر ، وقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الإمام أحمد : [إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُتُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُ بِهَا رِضْوَانَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ مَا يَظُنُّ أَنْ تَبْلُغَ مَا بَلَغَتْ يَكْتُتُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهَا عَلَيْهِ سَخَطُهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ].

وقد خلق الله تعالى كل حيوان أي : كل ذي حياة، وخلق له عقلاً يناسبه ويلائمه بحيث يهتدي بهذا العقل لما فيه بقاء وجوده وصلاح أمر حياته ونسله ، فيعرف ما يضره وما ينفعه من طعام وشراب ومأوى وغير ذلك ، لكنه سبحانه شرف الإنسان وكرمه بأن منحه عقلاً إنسانياً سامياً بالإضافة إلى العقل الحيواني ، وبهذا العقل الإنساني العلوي الرباني ارتقى الإنسان وسما وصار مستعداً قابلاً لحمل الأمانة الربانية ، ولذلك قال تعالى : {وحملها الإنسان} أي : لأن له عقلاً مميزاً عن سائر الحيوانات والمخلوقات {إنه كان ظلوماً جهولاً} أي : لأنه رأى نفسه ظلوماً جهولاً فتقدم لحمل الأمانة حتى يزيل عنه الظلم والجهل ويرتقي في مراتب الكمال الإنساني ، وهذه الأمانة هي التكليف الشرعية بما فيها من عقائد إيمانية وأعمال صالحة وأقوال طيبة وأخلاق وآداب .

وطالما أن الإنسان تقدم لحمل الأمانة فعليه أن يحملها بأمانة وصدق ، ولا يخون شيئاً منها ، وأن يقوم بأداء حقوقها وواجباتها عليه ، ومن جملة ذلك إذا أراد أن يتكلم فليكن كلامه شرعياً حسب ما يقتضيه منه حمله للأمانة.

وقد ذكر سبحانه في صفات أهل الإيمان أنهم عن لغو الكلام معرضون فقال جل وعلا: {والذين هم عن اللغو معرضون} فهم يُعرضون عن الكلام المباح الذي لا فائدة منه ، وهم من باب أولى معرضون عن الكلام الحرام ، فهم يتركون الكلام المباح خشية أن يقعوا في كلام مكروه أو حرام.

وقد بين صلى الله عليه وسلم أنه لا بد من القَوَد - أي : القصاص - في الآخرة بين كل مَنْ جرى بينهما خصام أو كلام مؤذٍ إلا من عفا عن صاحبه وصفح عنه في الدنيا .

ولقد كان بعض الصالحين يضع تحت لسانه حصاة حتى لا يتسرع في الكلام بل يتأني ويفكر فيما يريد أن يتكلم به ، فإن كان خيراً رفع الحصاة وتكلم ، وإلا أمسك عن الكلام^١ ، وذلك لما في الكلام من آثار وأخطار وأحكام ، وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه الترمذي: [وَهَلْ يَكُوبُ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟] ^٢ .

أي : فلا يكن لسانك أيها المؤمن كالحصّاد وهو المنجل الذي يحصد الزرع فيجمع الأخضر واليابس والحسن والقبيح ، بل اجعل لسانك أداة خير تستعمله في كل ما يقربك إلى الله تعالى من كلام طيب كالتسبيح والتحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر الله تعالى .

فسبحان من تشرفت بذكره الأفواه وسبحان من تشرفت بالسجود له الجباه.

وعارٌّ على مؤمن طيّب لسانه بذكر الله تعالى والصلاة على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدنّسه وينجّسه بعد ذلك بالقاذورات الحسية والمعنوية ، ومثله كمن تطيب وتزين لضيوفه ثم بعد أن أخذ جماله وكمالاه جعل شيئاً من القاذورات على ثيابه ووجهه ، فيقال له : لقد أفسدت ريح طيبك وخذشت رونق جمالك فلم فعلت ذلك ؟ .

وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على نقص عقلك وحمافتك ، ولو كنت عاقلاً لما فعلت ذلك .

١ جاء في كتاب الورع لابن أبي الدنيا عن أَرْطَاةَ بْنِ الْمُنْذِرِ قَالَ: (تَعَلَّمَ رَجُلٌ الصَّهْمَتَ أَرْبَعِينَ سَنَةً بِحَصَاةٍ يَضَعُهَا فِي فِيهِ لَا يَنْتَرِعُهَا إِلَّا عِنْدَ طَعَامٍ أَوْ شَرَابٍ أَوْ نَوْمٍ). اهـ

٢ سنن الترمذي كتاب الإيمان

وهذا شأن مَنْ تَحَلَّى وَتَطَيَّبَ بِذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَوْلِ : (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ) فَيَقَالُ لَهُ : لَا تَفْسُدْ طَيِّبَكَ وَلَا تَنْقُصْ كَمَالَكَ بِفَحْشِ الْكَلَامِ ، بَلْ وَلَا تَنْقُصْ إِيمَانَكَ وَتَحْبِطْ ثَوَابَ أَعْمَالِكَ بِالْغَيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالْوَقُوعِ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ ، وَإِنْ صَدَرَ مِنْكَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ فَبَادِرْ إِلَى التَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ وَاسْتَسْمِحْ مِمَّنْ اغْتَابَتْهُ أَوْ بَهَّتَّهُ أَوْ نَلَتْ شَيْئًا مِنْهُ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا تَنْفَعُ فِيهِ الْمَعْذَرَةُ ، وَيَجْرِي فِيهِ الْقَوْدُ - أَيِ الْقِصَاصِ - بَيْنَ الْخَلَائِقِ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى التَّوْفِيقَ لِمَحَابَّتِهِ وَحَسْنَ الظَّنِّ بِهِ .

وَنَسْأَلُ اللَّهَ التَّوْفِيقَ ، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

المحتوى

٤	المحاضرة الأولى
٩	المحاضرة الثانية
١٩	المحاضرة الثالثة
٣١	المحاضرة الرابعة
٤٤	المحاضرة الخامسة
٥١	المحاضرة السادسة
٦١	المحاضرة السابعة
٧١	المحاضرة الثامنة
٧٩	المحاضرة التاسعة
٨٨	المحاضرة العاشرة
٩٩	المحاضرة الحادية عشرة
١١٠	المحاضرة الثانية عشرة
١١٧	المحاضرة الثالثة عشرة
١٢٦	المحاضرة الرابعة عشرة

كُتُبُ لِلْمُؤَلِّفِ

- * حول تفسير سورة الفاتحة - أمّ القرآن الكريم .
- * حول تفسير سورة الحجرات .
- * حول تفسير سورة (ق) .
- * حول تفسير سورة الملك .
- * حول تفسير سورة الإنسان .
- * حول تفسير سورة العلق .
- * حول تفسير سورة الكوثر .
- * حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
- * هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
- * هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكير في الأكوان .
- * تلاوة القرآن المجيد - فضائلها - آدابها - خصائصها .
- * شهادة لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ :
- * فضائلها - معانيها - شواهدا ومشاهدا - مطالبها .
- * سيدنا محمد رسول الله ﷺ : خصاله الحميدة - شمائله المجيدة .
- * الهدى النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.
- * التقرب إلى الله تعالى : فضله - طريقه - مراتبه .
- * الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدين - فضائلها - آثارها - آدابها .
- * الصلاة على النبي ﷺ : أحكامها - فضائلها - فوائدها .
- * صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال .
- * الدعاء : فضائلها - آدابه - ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .
- * الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
- * الإيمان بالملائكة عليهم السلام ومعه بحث حول عالم الجن .

* حول ترجمة الإمام العلامة المرحوم محمد نجيب سراج الدين رحمه الله تعالى.

* شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .

* الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار.

* أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .

* مناسك الحج ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .

* الصيام : آدابه - مطالبه - فوائده - فضائله .

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام :

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام – المؤلفات المكتوبة

من آثار الشيخ الإمام

- * محاضرات حول الفضائل المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم .
- * محاضرات حول الإسراء والمعراج : آثاره - فضائله - أسرارهم.
- * محاضرات حول الإيمان بالقضاء والقدر.
- * دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم .
- * محاضرات حول عالم الجنة : مراتب الجنة - ألوان النعيم في الجنة - صفات أهل الجنة .
- * محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم - الجزء الأول .
- * محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم في الوعظ والتذكير - الجزء الثاني .
- * محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم - موقف تعليم الكتاب - الجزء الثالث.
- * محاضرات حول مقامات أهل الإيمان - الجزء الرابع .
- * محاضرات حول هجرة سيدنا رسول الله ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.
- * محاضرات حول تفسير خواتيم سورتي البقرة وآل عمران والمعوذات وأذكار بعد الصلوات.
- * محاضرات حول مقتضيات الشهادة بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ .
- * مجالس الحديث النبوي الشريف - الجزء الأول .
- * مجالس الحديث النبوي الشريف - الجزء الثاني .

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام :

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام - المؤلفات المكتوبة

قَبَسَات من المؤلفات

- * حُكْمُ أَبَوَيْ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الشَّرِيفَيْنِ .
- * آثار الزكاة وأنوارها ، وعقاب مانع الزكاة .
- * أربعون حديثاً من جوامع كلم النبي ﷺ .
- * الأمر بالمحافظة على الصلاة ، والتحذير من تأخيرها والوعيد الشديد لمن تركها
- * البشائر العُمر للمكثرين من الصلاة على سيد البشر ﷺ .
- * التوسل والاستغاثة بسيدنا محمد ﷺ .
- * الكلام حول الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده .
- * بيان قصة الغرائق الباطلة .
- * رحمة سيدنا محمد ﷺ للعالم .
- * سبب وجود بعض الأحاديث التي فيها ضعف في مؤلفات الإمام .
- * شفاعة سيدنا محمد ﷺ العامة والخاصة .
- * صلاة الاستخارة ودعاؤها .
- * حول مولده الشريف ﷺ والابتهاج والاحتفال بيوم مولده الشريف ﷺ .
- * سبب ذكر بعض البشائر المنامية في كتاب الصلاة على النبي ﷺ .
- * صلاة التراويح وعدد ركعاتها .
- * عصمة سيدنا محمد ﷺ من الخطأ في جميع أحواله .
- * وصول الثواب إلى الأموات .
- * معاني الصلاة الإبراهيمية .
- * محبة الصحابة لسيدنا محمد ﷺ .

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام :

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام – قبسات من المؤلفات

مجالسُ الحديثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

الجزء الخامس

للإمام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

جمع وتقديم
ولده

المهندس الشيخ محمد محي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما



مجالسُ الحديثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ

الجزء الخامس

للإمام الشيخ عبد الله سراج الدين الحسيني

جمع وتقديم

ولده

المهندس الشيخ محمد مُحيي الدين سراج الدين

رحمهما الله تعالى ورضي عنهما

اعتنى بها وخرَّج أحاديثها

خادم العلم الشريف

الدكتور بكري بريمو السمان

في هذه المجالس

بيانات بعض أحاديث سيدنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم

التي ذكرها الإمام البخاري

رضي الله عنه

في (الجامع الصحيح)

وهي مجالس الشيخ الإمام

في جامع (الحموي)

يوم الأربعاء

بعد شروق الشمس بقليل

أيها القارئ الكريم

هَبْ ثواب قراءتك سورة الفاتحة
إلى العَلَّامة الكبير والعارف الشهير
الإمام المفسِّر المُحَدِّث الشيخ
عبدِ الله سِرَاج الدِّين الحُسَيني
وإلى ولده العالمِ العاملِ
المهندس الشيخ
محمد مُحيي الدين سِرَاج الدِّين
رضي الله عنهما، وجزاك الله خيراً.
الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام
www.srajalden.com

المحاضرة الأولى بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب حجت النار بالشهوات

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : [حُجِبَتِ النار بالشهوات ، وحجبت الجنة بالمكَّارِه] (١) .

وفي رواية لمسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [حُقَّتِ الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات] (٢) .

ويتجلى في هذا الحديث ما أعطى الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم من جوامع الكلم^٣ ، وهو أن يتكلم ﷺ بكلمات موجزة لكنها جامعة لمعانٍ وأسرار كبيرة .

فقوله صلى الله عليه وآله وسلم: [حُجِبَتِ الجنة بالمكاره] أي: أُلقي الحجاب بين الإنسان وبين الجنة ، بحيث إن الإنسان إذا اقتحم هذا الحجاب دخل الجنة ، وهذا الحجاب هو المكاره أي التكاليف الشرعية التي شرعها الله تعالى لعباده بما فيها من أوامر ومَنَاهٍ -التي تكره النفوس الضعيفة فعلها.

١ في صحيحه في كتاب الرقاق .

٢ في صحيحه في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها .

٣ روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: [فَضَّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِسِتِّ: أُعْطِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ]...الحديث

فالمكارة في الحديث السابق هي المصاعب والمتاعب التي تصيب النفس حين قيامها بالتكاليف الشرعية.

فمن ذلك مثلاً: الصبر على الصلاة وأدائها في أوقاتها ، والصبر على الصيام، وعلى أداء مناسك الحج ، وهكذا أيضاً إسباغ الوضوء عند الكريهات - أي عندما يشق على النفس ذلك ، كما في حالة البرد وقلة الماء وغير ذلك.

وبصبر الإنسان على فعل هذه التكاليف الشرعية يخترق حجاباً بعد حجاب حتى لا يبقى بينه وبين الجنة حجاب.

وإن ما يُهَوِّنُ على الإنسان صبره على طاعة الله تعالى وتحمله المتاعب في ذلك هو احتسابه في صبره الأجر والثواب عند الله تعالى وإيمانه بوعد الله تعالى لما أعده للصابرين من عظيم الأجر والفضل عنده سبحانه وتعالى .

ألا ترى إلى التاجر يرحل عن أهله وبلده ويطوي المسافات الشاسعة ويتحمل المصاعب والمتاعب في سبيل الحصول على ربح مادي يعود بالخير على نفسه وأهله؟! ولولا ثقته بالربح من تجارته لما رحل وصبر وقاسى الشدائد ، فما بالك إذا بمن جعل الآخرة نصب عينيه وطمع فيما عند الله تعالى من أجر ونعيم ، فراح يكثر من العبادات والطاعات ممتثلاً قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُوْمِنُونَ بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ * لِيُوفِيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ .

ومتى ارتفعت الحجب بين العبد وبين الجنة صار أهلاً لأن يخاطب بقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ .

وليس هذا الخطاب مقتصرًا عند الموت فقط ، ولكن العبد يخاطب به في جميع العوالم وذلك على حسب قوة إيمانه ورفعة مقامه .

ومما يَحْرُمُ على الإنسان سماعه: سماع نغمة صوت المرأة حتى وإن كانت تتلو القرآن أو تمدح النبي ﷺ ، لأن نغمة صوت المرأة عورة ، أما مجرد سماع صوتها بكلام عادي لحاجة ما فلا بأس منه^١ .

وإذا قيل: إن فلاناً يسمع صوتها بتلاوة أو مديح ويخشع من صوتها؟

فيقال له: عليك أن تتقرب إلى الله تعالى بما شرع الله تعالى لك ، فقد تستحسن أموراً من نفسك لكن الشارع قَبَّحها ولم يشرعها فلا تقربها ، وكن متبعاً لما جاءك عن الله تعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم .

^١ جاء في حاشية ابن عابدين: نَغْمَةُ الْمَرْأَةِ عَوْرَةٌ، قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ [التَّسْبِيحُ لِلرِّجَالِ، وَالتَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ] فَلَا يَحْسُنُ أَنْ يَسْمَعَهَا الرَّجُلُ. اهـ. وَلِهَذَا مَنَعَهَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنَ التَّسْبِيحِ بِالصَّوْتِ لِإِعْلَامِ الْإِمَامِ بِسَهْوِهِ إِلَى التَّصْفِيقِ. اهـ.

وَذَكَرَ الْإِمَامُ أَبُو الْعَبَّاسِ الْقُرْطُبِيُّ فِي كِتَابِهِ فِي السَّمَاعِ: وَلَا يَظُنُّ مَنْ لَا فِطْنَةَ عِنْدَهُ أَنَّا إِذَا قُلْنَا: (صَوْتُ الْمَرْأَةِ عَوْرَةٌ) أَنَّا نُرِيدُ بِذَلِكَ كَلَامَهَا، لِأَنَّ ذَلِكَ لَيْسَ بِصَحِيحٍ، فَإِذَا نُجِيزُ الْكَلَامَ مَعَ النِّسَاءِ لِلْأَجَانِبِ وَمَحَاوَرَتِهِنَّ عِنْدَ الْحَاجَةِ إِلَى ذَلِكَ، وَلَا نُجِيزُ لَهُنَّ رَفَعَ أَصْوَاتِهِنَّ وَلَا تَمْطِيطَهَا وَلَا تَلْبِينَهَا وَتَقْطِيعَهَا لِمَا فِي ذَلِكَ مِنْ اسْتِمَالَةِ الرِّجَالِ إِلَيْهِنَّ وَتَحْرِيكِ الشَّهَوَاتِ مِنْهُمْ. اهـ ٤٠٦/١

وجاء في حاشية البجيرمي على الخطيب أنه يَحْرُمُ سَمَاعُ صَوْتِهَا وَلَوْ نَحْوَ الْقُرْآنِ إِنْ خَافَ مِنْهُ فِتْنَةً أَوْ التَّدْبِيحَ بِهِ. اهـ ٦٨/١٠

وجاء في كتاب (كشاف القناع) أنه يَحْرُمُ التَّلَدُّدُ بِسَمَاعِهِ صَوْتِ الْأَجْنِبِيَّةِ وَلَوْ كَانَ بِقِرَاءَةٍ - أي: بقراءة القرآن الكريم - خَشْيَةَ الْفِتْنَةِ، وَتَقَدَّمَ فِي الصَّلَاةِ: (وَتَسْرُّ بِالْقِرَاءَةِ إِنْ كَانَ يَسْمَعُهَا أَجْنَبِيًّا). اهـ ١٥/٥

ولقد سمع ﷺ تلاوة القرآن من أبي موسى الأشعري^١، وعبد الله بن مسعود^٢، وسالم مولى أبي حذيفة^٣ رضي الله عنهم، وكان هؤلاء من قراء الصحابة الكرام رضي الله عنهم الذين اشتهروا بحسن الصوت وجودته، كما سمع ﷺ مديحه من حسان بن ثابت رضي الله عنه^٤، ولكن لم يثبت أنه ﷺ سمع تلاوة القرآن من امرأة قط.

قوله ﷺ: [حجبت الجنة بالمكاره]: جمع مكرهه وهي ما يشق على النفس ويصعب عليها^٥، فعلى العبد أن يصبر نفسه على عبادة الله تعالى - وإن تعب وشق عليه ذلك - وقد قال الله تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾، وقال الله تعالى: ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ أي واصبر أنت على أداء الصلاة بآدابها وخشوعها ولا تتعجل فيها.

^١ انظر صحيح مسلم كتاب صلاة المسافرين وقصرها

^٢ انظر صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن

^٣ انظر سنن ابن ماجه كتاب إقامة الصلاة والسنة فيها

^٤ هو الصحابي الجليل حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري الخزرجي، شاعر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأحد المخضرمين الذين أدركوا الجاهلية والإسلام، عاش ستين سنة في الجاهلية ومثلها في الإسلام، توفي رضي الله عنه سنة ٥٤ هـ وهو ابن عشرين ومائة سنة.

وقد أنشد بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم فقال رضي الله عنه:

يا ركن معتمد وعصمة لا تُد وملاذ منتجع وجار مجاور

يا من تخيره الإله لخلقه فحباه بالخلق الزكي الطاهر

أنت النبي وخير عصابة آدم يا من يجود كفيض بحر زاخر

ميكال معك وجبرئيل كلاهما مدد لنصرك من عزيز قاهر

انظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر ١ / ٨٢ وأسد الغابة لابن الأثير

١ / ١٨٧

^٥ انظر فيض القدير: ٣٨٨١٣

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ - أي التي اطمأنت، أي أقامت على شرع الله تعالى وأوامره ولم تتحول عن ذلك أبداً - ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً﴾ - أي عن دين الله تعالى وشرعه - ﴿مَرْضِيَّةً﴾ من جانب الله تعالى، فهي راضية عن الله تعالى فيما شرع ، مرضية عند الله تعالى .

وهذا مما يجب على المؤمن أن يتحقق به : وهو أن يتمسك بشرع الله تعالى ونفسه راضية بما شرع الله تعالى غير متضجرة أو متذمرة أو أنها تتمنى لو أن الله تعالى لم يشرع لها هذا الأمر أو لم يحرم ذلك الأمر مثلاً .
ومن لم يذق قلبه طعم الرضا عن الله تعالى فيما شرع فإنه ما ذاق طعم الإيمان بعد .

جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : [ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً ^(١) ، وبالإسلام ديناً ^(٢) ، وبمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - رسولاً] ^(٣) .

ومن ذاق طعم الإيمان ثبتته الله تعالى عليه، ومن لا فهو على خطر، لأن بشاشة الإيمان لم تخالط قلبه بعد، بل الإيمان على حافة قلبه، فربما يدخل قلبه وربما يحول ، ونسأل الله تعالى السلامة والعافية. آمين

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي في زمرة عبادي، وقد أضافهم إليه سبحانه تشرifaً لهم وتكريماً ، أي فادخلي في جملة عبادي الذين ارتضيتهم لقربي وجواري .

^١ أي فيما قضى وشرع وحكم .

^٢ أي ديناً شرعياً يتقرب به إلى الله تعالى .

^٣ في صحيح مسلم في كتاب الإيمان

أو أن كلمة ﴿عِبَادِي﴾ جمع عابد، كصحاب جمع صاحب، والمعنى: فادخلي في جملة عبادي العابدين لله تعالى، وكفى الإنسان شرفاً أن يكون عبداً عبداً لله تعالى .

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾ أي: في زمرة عبادي الذين توليتهم بتولييتي الخاصة، وهم الذين أشار إليهم سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ فمن أراد أن يتولاه الله تعالى في جميع أموره ولا يكله إلى تولية نفسه فليبذل جهده أن يكون من الصالحين، وعلى قدر صلاحه تكون تولية الله تعالى له. وطريق الصلاح هو أن يصلح الإنسان عمله، بأن يكون تابِعاً لما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأن يكون مخلصاً فيه لله تعالى، فالصلاح يشمل صلاح العمل باتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وصلاح القلب بالإخلاص لله تعالى .

قوله تعالى: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ وذلك لأنه اقتحم حجب المكاره النفسية وعمل بطاعة الله تعالى فلم يبق بينه وبين الجنة حجاب ، فقبل لصاحب هذه النفس: ﴿وَأَدْخُلِي جَنَّتِي﴾ ، أما في الدنيا فهي جنة الإيمان بي ومحبي ومعرفتي ؛ وإن محبة الله تعالى ومعرفته هي جنة حقيقية ذاق نعيمها المؤمنون الصالحون ، وهو نعيم لا يماثله نعيم الدنيا مهما عظم ، حتى قال الشيخ العارف الكبير إبراهيم بن أدهم^١ رضي الله عنه:

^١ هو سيدي إبراهيم بن أدهم بن منصور بن يزيد بن جابر، القُدوة، الإمام، العارف، سيّد الرُّهَادِ، البُلْخِي، نَزِلُ الشَّامِ. مولده في حُدُودِ المائَةِ. قَالَ النَّسَائِيُّ: هُوَ ثِقَّةٌ، مَأْمُونٌ، أَحَدُ الرُّهَادِ. صَحِبَ الثَّوْرِيَّ، وَالْفُضَيْلَ بْنَ عِيَاضٍ رضي الله عنهما. ومن أقواله: مَنْ أَرَادَ التَّوْبَةَ، فَلْيَخْرُجْ مِنَ الْمَظَالِمِ، وَلْيَدْعُ مُخَالَطَةَ النَّاسِ، وَإِلَّا لَمْ يَنْلُ مَا يُرِيدُ.

تُوْفِيَ رحمه الله تعالى ورضي عنه سنّة اثنتَيْنِ وَسِتِّينَ وَمِائَةٍ، وَقَبْرُهُ يُزَارُ وَتَرْجَمَتُهُ فِي "تَارِيخِ دِمَشْقَ" فِي ثَلَاثَةِ وَثَلَاثِينَ وَرَقَةً. اهـ

انظر سير أعلام النبلاء ٧٠/٧

(لو يعلم الملوك وأبناء الملوك - أي ملوك الدنيا - ما نحن فيه من النعيم والسرور لجالدونا عليه بالسيوف) ^١ أي حتى يأخذوه منا.

وقال العارف الكبير الشيخ أبو سليمان الداراني ^٢ رضي الله تعالى عنه :
(أهل الليل في ليلهم : ألدّ من أهل اللهو في لهوهم ، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا) ^٣.

وقال رضي الله عنه : (وإنه ليمر بالقلب أوقات إن كان أهل الجنة في مثلها إنهم لفي عيش طيب) ^٤.

وأما في براخ الآخرة فينتقل العبد المؤمن من جنة إلى جنة، ويتقلب في النعيم حتى يدخل جنة المأوى، وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم :
[إِنَّمَا الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفْرِ النَّارِ] ^(٥).

واعلم أن الإنسان لا يذوق نعيم الجنة ولذاتها إلا إذا آمن ودخل الإيمان قلبه وذاق طعمه في الدنيا، فينشئه الله تعالى نشأة فيها حاسة الشعور باللذة والإحساس بالنعيم بكافة أنواعه.

^١ انظر الزهد الكبير للبيهقي ٩٢١١ وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني ٣٣٢١٣
^٢ هو سيدي الإمام الكبير زاهد العصر القدوة أحد الأبدال أبو سليمان عبد الرحمن بن أحمد الداراني.

وُلِدَ فِي حُدُودِ الْأَرْبَعِينَ وَمِائَةٍ.
كان عديم النظر زهداً وصلاً، وله كلام رفيع في التصوف والمواعظ.
قال الإمام الجنيد رضي الله عنه : شَيْءٌ يُرَوَى عَنْ أَبِي سُلَيْمَانَ أَنَا أَسْتَحْسِنُهُ كَثِيرًا:
(مَنْ اشْتَغَلَ بِنَفْسِهِ شُغِلَ عَنِ النَّاسِ، وَمَنْ اشْتَغَلَ بِرَبِّهِ شُغِلَ عَنِ نَفْسِهِ وَعَنِ النَّاسِ).

وَعَنْهُ: (الْفُتُوَّةُ أَنْ لَا يَرَاكَ اللَّهُ حَيْثُ نَهَاكَ، وَلَا يَفْقِدُكَ حَيْثُ أَمَرَكَ).
تُوِّفِيَ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى وَرَضِيَ عَنْهُ سَنَةَ خَمْسَ عَشْرَةَ وَمِائَتَيْنِ لِلْهِجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ الشَّرِيفَةِ

انظر سير أعلام النبلاء ٣٢٦/٨ و شذرات الذهب ٢٨/٣

^٣ انظر إحياء علوم الدين ٣٥٨١١

^٤ انظر البداية والنهاية ٤٤٢١١ وفيض القدير ٥٦٧٨١

^٥ انظر سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

ولو فُرض جدلاً أن مؤمناً أُخْرِجَ من الجنة وأدخل النار - وهذا لا يقع قطعاً - لكن لو فرض ذلك، لَمَّا شعر هذا المؤمن بعذاب النار وَلَمَّا أحس بالألم الحريق، لأن حاسة الشعور بالألم قد أذهبها الله تعالى عنه وأنشأه نشأة لذة ونعيم ، ولا استعداد ولا قابلية عنده للألم والعذاب .

ولذلك لَمَّا يمر المؤمن على الصراط - وهو جسر منصوب على جهنم - تقول له النار: [جُز يا مؤمن، فقد أطفأ نورك لهبي] ^١ أي فلا يؤثر فيك لهب النار لأن إيمانك وقاية لك.

ولو فرض أن كافراً من أهل النار أخرج منها وأدخل الجنة لَمَّا أحس بنعيمها ولذاتها، لأنه لا استعداد عنده للتعلم، ولأن حاسة الشعور بالنعيم قد أذهبها الله تعالى عنه وأنشأه نشأة جهنمية نيرانية .

ألا ترى إلى زبانية جهنم وهم في النار يعدُّون أهل النار ، لكنهم في نعيم مع الله تعالى ولا يشعرون بعذاب النار وآلامها .

ونسأل الله تعالى السلامة والوقاية، ونسأله جل وعلا التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

^١ انظر المعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي

المحاضرة الثانية بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد: بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب من جاهد نفسه في طاعة الله.

ثم أورد بسنده إلى معاذ بن جبل رضي الله عنه قال :

[بينما أنا رديف النبي ﷺ ، ليس بيني وبينه إلا آخرة الرّحل ، فقال : يا معاذ.

قلت : لبيك يا رسول الله وسعديك .

ثم سار ساعة، ثم قال : يا معاذ .

قلت: لبيك رسول الله وسعديك .

ثم سار ساعة، ثم قال : يا معاذ بن جبل .

قلت: لبيك رسول الله وسعديك .

قال: هل تدري ما حق الله على عباده ؟

قلت: الله ورسوله أعلم .

قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً .

ثم سار ساعة، ثم قال : يا معاذ بن جبل .

قلت: لبيك رسول الله وسعديك .

قال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟

قلت: الله ورسوله أعلم .

قال: حق العباد على الله أن لا يعذبهم [١.١هـ]

مجاهدة النفس هي إيقاف النفس عما نهى الله تعالى عنه، وحمّلها على امتثال أوامر الله تعالى، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَعَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ .

ومعنى قوله تعالى: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي خاف قيامه بين يدي ربه يوم القيامة للسؤال والحساب ، فحمّله هذا الخوف على أن ينهى نفسه عن محارم الله تعالى^٢ ، وأن ينهض بها إلى امتثال أوامره سبحانه ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ - أي رجوعهم ومصيرهم - ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ .

فهو سبحانه الذي يحاسب عباده كلهم، ولا تستبعد ذلك على الله تعالى، إذ إنه سبحانه ليس كمثله شيء، وهو القادر على كل شيء، فهو يحاسب جميع عباده في آن واحد وهو سريع الحساب جل وعلا.

أو أن معنى قوله تعالى: ﴿خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ أي خاف مقام ربوبيته سبحانه وعظمته وكبريائه ، وخاف أيضاً مقام ربه عليه بالشهود والمراقبة ، كما قال تعالى: ﴿أَقَمْنِ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ .

وقال جل وعلا: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ .

وقال سبحانه: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ .

وقال عز من قائل: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ .

^١ صحيح البخاري كتاب الرقاق

^٢ أي: ما حرّمه الله تعالى

فمن راقب رقابة الله تعالى عليه وعلمه سبحانه به واطلاعه على جميع حركاته وتقلباته وسكناته حمله ذلك على الخوف منه سبحانه، وإيقاف نفسه عند حدود الله تعالى، والعمل بأوامر الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا﴾ أي متى ترسو وتستقر، أي: وقد سألوا عن وقت الساعة منكرين وقوعها أو مستبعدين حدوثها، مع أن موت الإنسان هو دخوله في أول برازخ الآخرة، ومن مات فقد دخل باب الآخرة ولا رجعة له إلى الدنيا، والموت آت على كل إنسان فهو قريب إذًا، فما بالهم يستبعدون الساعة ويستمرون في غفلاتهم وإعراضهم؟!

كما أنه لم يبق من الزمن لقيام الساعة إلا القليل بالنسبة لما مضى على الدنيا من عمر، كما قال صلى الله عليه وسلم لما خطب الناس حتى دنت الشمس من الغروب: [أَلَا إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ الدُّنْيَا فِيمَا مَضَى مِنْهَا إِلَّا كَمَا بَقِيَ مِنْ يَوْمِكُمْ هَذَا فِيمَا مَضَى مِنْهُ] ^(١).

وتفكر في قوله صلى الله عليه وسلم: [فيما مضى منها] - أي الدنيا، ولم يقل: فيما مضى على بني آدم، إذ إن آدم عليه السلام هو آخر المخلوقات على وجه الأرض، وقد مضى على الدنيا قبله زمن طويل لا يعلمه إلا الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ - أي فيم أنت من التذكير بها يا رسول الله، فأنت تذكّر الناس، وما يتذكر منهم إلا القليل، ثم قال سبحانه: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْتَهَلُهَا * إِنَّمَّا أَنْتَ مُنْذِرٌ مِّنْ يَّخْشَاهَا﴾ أي فلا يتذكر بتذكيرك إلا من تعقل وتدبر وآمن بالآخرة فخشى الله تعالى وخاف عقابه فاتقى ذلك بالعمل بما أمر الله تعالى، واجتناب ما نهى الله تعالى عنه.

أو أن قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَلُهَا * فِيْمَ﴾ أي فيم يسألونك يا رسول الله، فهم يسألونك: متى ترسو الساعة؟ ففيم هذا السؤال؟

^١ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب الفتن عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه

﴿أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ أي أن بعثتك يا رسول الله من علامات الساعة، وفي هذا يقول صلى الله عليه وسلم: [بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين إصبعيه السبابة (١) والوسطى] (٢) .

فقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسِنُهَا * فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرِنَهَا﴾ أي فيم يسألونك؟ أنت من المذكرات بقرب الساعة ومن علاماتها .

وإن في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ تذكيراً للإنسان وتنبهها له على التزام الأدب مع الله تعالى في دعائه ومناجاته سبحانه وفي الإخبار عنه جل وعلا.

وقد أخبر سبحانه عن ملائكته بقوله جل وعلا: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ مع أن الملائكة عليهم السلام ليسوا من عالم التكليف إلا أنهم يخشون ربهم ويخافون عظمته وكبريائه وجلاله سبحانه وتعالى.

وإذا أردت أن تعرف أدب العبد مع الرب فانظر إلى أدب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع الله تعالى، ولك في الذي كان يسبح الله تعالى ويحمده ويثني عليه ويعظمه ويكبره على وجه انفرده في العالمين كلهم؛ لك فيه أسوة حسنة ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول:

[وأعوذ بك منك لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك] (٣) .

^١ وتسمى السبابة لأن الإنسان لما يعنف أحداً يشير بها ويحرك يده تجاهه .
وفي رواية: [وَقَرَنَ شُعْبَةَ] أحد رواة الحديث [بَيْنَ إِصْبَعَيْهِ الْمُسَبَّحَةِ وَالْوُسْطَى
يَحْكِيهِ] وسميت الْمُسَبَّحَةُ بذلك لأنه يشار بها عند التسبيح. (انظر عمدة القاري
١١٢٢) ويقال لها: الشاهدة ، لأن المؤمن يشير بها في تشهده .

^٢ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجمعة

^٣ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الصلاة

وقوله تعالى: ﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ أي الهوى المحرّم ، والهوى هو ميل النفس ، وإذا أطلق فيراد منه الهوى المذموم ، فينبغي على الإنسان أن يكبح ميول نفسه إلى المحرمات ، ويوقفها عند أوامر الله تعالى حتى يجعل هواه تابعاً لما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذلك يطيب هوى نفسه .

وأما من جعل شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم تابعاً لهوى نفسه فقد ضل وغوى، وهذا شأن من يأخذ من شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وافق هواه واستحسنته نفسه، وأما ما خالف هواه من شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيتركه ويهجره.

ويقال لمن هذا شأنه: أنت متّبع لهوى نفسك وآرائك على الحقيقة، وإنك وإن كنت تعمل بشيء مما جاءك به رسول الله صلى الله عليه وسلم فلأن هذا الشيء وافق هواك وعقلك.

وقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به] ^(١)، وفي رواية عند الطبراني: [ثم لا يزيغ عنه] ^٢ أي يجعل ما تهواه نفسه وتميل إليه تابعاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ويثبت على ذلك .

^١ قال الإمام النووي رضي الله عنه في أربعينه: حديث حسن صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح . اهـ .

^٢ قال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جامع العلوم والحكم عن حديث : [لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به] قال: وقد خرّج هذا الحديث الحافظ أبو نعيم في كتاب " الأربعين " وشرط في أولها أن تكون من صحاح الأخبار وحياد الآثار مما أجمع الناقلون على عدالة ناقله، وخرّجته الأئمة في مسانيدهم، ثم خرّجه عن الطبراني: حدثنا أبو زيد عبد الرحمن ابن حاتم المرادي، حدثنا نعيم بن حماد، حدثنا عبد الوهّاب الثقفي، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين ، عن عتبة بن أوس، عن عبد الله بن عمرو ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به ثم لا يزيغ عنه] . اهـ ١١١ ٤

وهذا معنى قوله ﷺ: [والمجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل] (١).

إذ إن هواه يدعو له لأمر، وسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو له لأمر يخالفه، فهو يجاهد نفسه ليحملها على متابعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء عنه.

وقد أورد الإمام البخاري رضي الله عنه هذا الحديث في هذا الباب ليبين أن عبادة الله تعالى هي طريق مجاهدة النفس.

قول سيدنا معاذ رضي الله عنه: [ليس بيني وبينه إلا آخرة الرّحل] وهي ما يوضع على ظهر الناقة أو الدابة حتى يستند إليها الراكب.

ولقد نادى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً رضي الله عنه مع أنه قريب منه، وذلك حتى يلفت فكره ويستحضر قلبه، وقد ناداه صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات حتى يلفت قلبه وعقله وفكره لأهمية وعظمة ما سيخبره عنه صلى الله عليه وسلم وسيعلمه إياه.

وإن في ندائه صلى الله عليه وسلم لمعاذ ثلاثاً قبل أن يفيض عليه ما أراد تعليمه له، إن في ذلك تعليماً وإرشاداً للمعلمين والمذكرين والواعظين: أن أحدهم إذا أراد تعليم غيره أو تذكيره ووعظه فعليه أن يلفت انتباهه أولاً ويجمع تفكيره وقلبه حتى يكون سامعاً مصغياً لما سيمليه عليه من العلوم والإخبارات والمواعظ، وهذا الأسلوب أعظم في النفع وأرفع في الفهم.

قول معاذ رضي الله عنه لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [لبيك] أي: أجبك يا رسول الله مرة بعد مرة، يقال: دعاه فلّباه أي أجابه .

وقوله: [وسعديك] أي: إن سعادتي في تلبيتي لأمرك يا رسول الله صلى الله عليه وسلم ٢.

١ طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٢٢٨٣٣

٢ انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود ٤٣٧٨٩

قوله صلى الله عليه وسلم: [هل تدري ما حق الله على عباده؟] أي: ما هو حق الله تعالى على عباده، والذي يجب أن يؤديه دون امتنان منهم، بل هو حق واجب أداؤه عليهم؟

قال صلى الله عليه وسلم: [حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً].

وذلك لأنه سبحانه هو رب العباد كلهم، والخلق كلهم عباد له جل وعلا، فله سبحانه حق عليهم أن يعبدوه لأنه ربهم أي خالقهم ورازقهم ومربيهم وممدهم، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ - أي لأنه ربكم وأنتم عباده، ثم بين سبحانه وجوه ربوبيته عليهم فقال عز من قائل: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وطالما أن كل مخلوق هو عبد لله تعالى مفتقر إليه في ذاته وذراته وإيجاده وإمداده؛ فعليه أن يعترف ويقر بذلك، وأنه عبد لله جل جلاله لا غنى له عن الله تعالى فليعبد العبد الله تعالى قياماً بحق الله تعالى عليه.

ومتى استطاع العبد أن يستغني عن ربه فليترك عبادته وأنى له ذلك وهو لا يملك لنفسه شيئاً حتى وجودها؟!.

لأن الله تعالى خلق الإنسان، ولم يستغن الإنسان عن ربه بل هو مفتقر إلى الله تعالى في كل لحظة أن يمدّه بالوجود والبقاء، ولو قطع عنه مدد الإيجاد لرجع إلى العدم.

ولو كان العبد رب نفسه لرزق نفسه بل لأوجدها على أحسن صورة وخلقة يريدتها، ولما أصابه المرض والهزم والموت، مع أنه لا يستطيع إحياء شعرة واحدة سقطت من رأسه إذا أصابه الصلع!

وقد قال سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ - أي: كلكم فقراء إلى الله تعالى بذواتكم وذراتكم فأنتم محتاجون لإمداد الله لكم في كل لحظة بل في أقل من اللحظة ﴿وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ أي: والله وحده سبحانه هو المستغني عن كل ما سواه، والمفتقر إليه ما عداه، وهو سبحانه الغني المحمود في غناه سبحانه، إذ يُمدُّ خلقه بالعطاء والرزق بأنواعه.

وإذا علم العبد ذلك وجب عليه أن يعترف بعبوديته لله تعالى، وأن يعبده كما شرع له سبحانه لأن في شرعه سبحانه لعباده تهذيباً لهم وإسعاداً وإصلاحاً لهم في الدنيا وفي الآخرة، فإن هم قاموا بعبادته سبحانه فقد قاموا بحق الله عليهم وقاموا بما فيه صلاحهم وسعادتهم.

وقد حَقَّ سبحانه أي أوجب على نفسه كرمًا منه وفضلاً أن لا يعذَّب مَنْ عَبَدَهُ ولم يشرك به شيئاً، وليس للعباد حق على الله واجب يطالبونه به ، بل هو سبحانه تفضل عليهم ووعدهم إن هم عبدوه ولم يشركوا به شيئاً أن لا يعذبهم ، وفي رواية : [فَإِنَّ حَقَّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ إِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ أَنْ يُدْخِلَهُمُ الْجَنَّةَ] ^(١) ، والله تعالى لا يخلف الميعاد ، قال تعالى : ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾ . لا أحد .

وليس في عبادة الإنسان لربه إحراج للعبد ومضايقه له إذ إنه سبحانه لم يكلفه إلا بما تطيقه نفسه، ولم يشرع له عبادته إلا ليزداد شرفاً وقرباً منه سبحانه، وفي هذا يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ وفي عبادتهم له سبحانه شرف لهم وإعزاز لهم ورفعة لشأنهم ومكانتهم عند الله تعالى ، لأن مَنْ تذل إلى العزيز أعزّه ، ومَنْ تقرب إلى الكريم أكرمه، فما بالك -ولله المثل الأعلى- برب العالمين الذي له العزة جميعاً ، وهو أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين؟! .

١ انظر المسند ٢١٠٥٨

كما أن في عبادة الله تعالى صبغة نورانية ربانية ينصبغ بها العبد العابد لربه، وهذه الصبغة ثابتة ملازمة له لا تنفك عنه أبد الآبدين كما قال تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ - أي الزموا صبغة الله- ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ أي ونحن أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم العابدون لله تعالى حق العبادة ، وشرفنا وفخرنا في ذلك .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين .

المحاضرة الثالثة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم.

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :
باب مَنْ نَوَقِشَ الْحِسَابَ عُدُّبَ.

ثم أورد بسنده إلى عدي بن حاتم رضي الله عنه قال : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: [ما منكم من أحد إلا وسيكلمه الله يوم القيامة، ليس بين الله وبينه ترجمان، ثم ينظر فلا يرى شيئاً قدامه، ثم ينظر بين يديه فتستقبله النار، فمن استطاع منكم أن يتقي النار ولو بشق تمرّة] .

قال الأعمش: حدثني عمرو عن خيثمة عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم:

[اتقوا النار، ثم أعرض وأشاح، ثم قال: اتقوا النار، ثم أعرض وأشاح، ثلاثاً، حتى ظننا أنه ينظر إليها، ثم قال: اتقوا النار ولو بشق تمرّة، فمن لم يجد فبكلمة طيبة] (١).

وفي رواية للحديث : [ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان ، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدّم من عمله، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدّم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرّة] (٢) .

قال الأعمش: وحدثني عمرو بن مرة عن خيثمة مثله وزاد فيه: [ولو بكلمة طيبة] .

١ صحيح البخاري كتاب الرقاق.

٢ صحيح البخاري كتاب التوحيد.

وفي رواية للحديث: [وأما العيلة: فإن الساعة لا تقوم حتى يطوف أحدكم بصدفته لا يجد من يقبلها منه، ثم ليقفن أحدكم بين يدي الله ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له، ثم ليقولن له: ألم أوتك مالاً؟ فليقولن: بلى، ثم ليقولن: ألم أرسل إليك رسولاً؟ فليقولن: بلى؛ فينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار، ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار، فليتقين أحدكم النار ولو بشِقِّ تمرّة، فإن لم يجد فبكلمة طيبة] (١).

وفي رواية للحديث: [ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه، ليس بينه وبينه ترجمان ولا حجاب يحجبه] (٢).

وتكليم الله تعالى هذا لعبده يكون قبيل السير على الصراط، بدليل قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [وينظر (٣) بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه]... الحديث، وقد ورد أن الصراط يُنصب على ظهراي جهنم^٤.

وهذا التكليم للسؤال والمحاسبة، ولا بد لكل إنسان أن يكلمه الله تعالى، فإن كان الإنسان مؤمناً صادقاً كان تكليم الله تعالى له للبشارة والتكريم، وأما إذا كان الإنسان كافراً أو منافقاً فيكون تكليم الله تعالى له للزجر والتوبيخ والتعنيف.

ويقول الله تعالى في القرآن الكريم مخبراً عن الكافرين: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي لا يكلمهم كلام رضا وتكريم، ولكنه كلام توبيخ وتعنيف، ولا ينظر إليهم نظرة رضا، بل يتجلى بالسخط والغضب عليهم.

فلما ينظر العبد أيمن منه وأشأم منه لا يرى إلا ما قدمه من عمل، وينظر أمامه فلا يرى إلا النار التي سيجتاها على الصراط.

^١ في صحيح البخاري كتاب الزكاة

^٢ في صحيح البخاري كتاب التوحيد

^٣ أي: العبد

^٤ جاء في صحيح البخاري كتاب الأذان قوله صلى الله عليه وسلم: [فَيُضْرَبُ الصَّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَائِي جَهَنَّمَ].... الحديث

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان] أي: ليس هناك حجاب يحجبه عن ربه ، وليس هناك واسطة في التكليم .

والترجمان - بضم التاء وفتحها -^١ هو الذي يتوسط بين أمرين، كمن توسط لك في تكليم فلان، ويطلق أيضاً على من يترجم لك من لغة إلى لغة.

وموقف العبد هذا بين يدي ربه للسؤال هو موقف رغبة وبشارة وتكريم للمؤمنين المتقين، وموقف رهبة وحذر وشدة للكافرين والفاسقين المصرين.

وإن عمل الإنسان محيط به لا يفارقه في براخ الآخرة كلها، ولذلك يراه العبد عن يمينه وشماله، فإن كان العمل صالحاً فرح صاحبه واستبشر، وإن كان فاسداً حزن وتأسف، وهذا قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَظَّتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ، فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ .

والتفات العبد أيمن منه وأشأم منه هو للاستغاثة والخلاص، فإذا كان عمله صالحاً رآه العبد وفرح واطمأن، وإذا كان غير ذلك رآه العبد وحزن واشتد خوفه وفزعه؛ وإذا علم العبد ذلك وعلم أنه لا يغيثه من هول وشدة ذلك الموقف إلا عمله فليحسن عمله في الدنيا، وليتق ربه سبحانه، حتى إذا وقف بين يديه يوم القيامة كان عمله وقاية له من سخط الله تعالى وعذابه، وفرح به واستبشر.

وقوله صلى الله عليه وآله وسلم: [ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان] أي ليس بينه وبينه واسطة في المكالمة، وذلك لأن الواسطة قد تخفف وطأة الهيبة وشدة الموقف على العبد، فما أعظم ذلك الموقف وما أشد خطره وهيبته؟!

^١ انظر عمدة القاري ٨٤١١٥

وفي هذا يقول سبحانه: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى * وَعَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ * - أي قيامه بين يدي ربه للسؤال -
﴿وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى * فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [اتقوا النار ولو بشق تمرة] ولكي يقي العبد نفسه من النار لا بد له من الأخذ بالوقاية التي تقيه عذاب الله تعالى وغضبه وعتابه وحجابه، وذلك بامثال ما أمر واجتناب ما نهى.

وقد أشار ﷺ إلى أن الصدقات تقي صاحبها من النار بقوله عليه الصلاة والسلام: [اتقوا النار ولو بشق تمرة] أي بنصف تمرة^١ - أي إن لم تجد إلا نصف تمرة تتصدق بها فافعل، وأما من كان عنده فلينفق وليتصدق مما أعطاه الله تعالى، فكل عبد يتصدق على حسب ما عنده من إيمان ومال، كما قال سبحانه: ﴿لِيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ * وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَّا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ .

فإذا قصدك فقير وأنت تعلم حاجته ولم يكن عندك إلا تمرة فعليك عندئذ أن تتصدق بنصفها لكي يقيك ذلك من عذاب الله تعالى إن كنت مخلصاً في ذلك مبتغياً وجه الله تعالى، لا تريد من وراء صدقتك رياء ولا سمعة ولا ظهوراً، كما قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا * لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا * وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ .

١ انظر عمدة القاري ٢٧٤١٨

وَمَنْ تَصَدَّقَ وَلَوْ بِشَيْءٍ قَلِيلٍ لَكِنَّهُ مَخْلُوصٌ فِي صَدَقَتِهِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَنْمِي صَدَقَتَهُ وَيُرَبِّيهَا حَتَّى تَصِيرَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، فَقَدْ رَوَى الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَاللَّفْظُ لَهُ عَنِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: [مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ^١ وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ^٢ وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرَبُّو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يَرْبِي أَحَدَكُمْ فَلَوْهُ^(٣) أَوْ فَصِيلُهُ^(٤)].

وهذا قوله تعالى: ﴿وَيُرِي الصَّدَقَاتِ﴾ أي ينميتها ويضاعفها للمتصدق بها على حسب إخلاصه فيها.

قوله ﷺ: [اتقوا النار ولو بشق تمرة فمن لم يجد فبكلمة طيبة] أي فليتصدق بكلمة طيبة يطيب بها قلب أخيه المسلم، وله بذلك أجر الصدقة عند الله تعالى.

وهذا يدل على أن المسلمين كلهم في نظر الشرع أغنياء، فمن كان فقير المال وليس عنده ما يتصدق به فقد شرع الله تعالى له ما يتصدق به وينال به أجر المتصدقين المخلصين.

ومن هذا ما رواه مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: [يا رسول الله ذهب أهل الدُّثور بالأجور:

يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم.

قال: أوليس قد جعل الله لكم ما تصدقون؟

^١ أي من مال حلال .

^٢ وذلك حتى ينميتها ويربيها، وليس لأنه محتاج إليها جل وعلا فهو سبحانه الغني عن كل شيء.

^٣ قال الإمام النووي في شرحه صحيح الإمام مسلم ٤٥٥١٣: (قَالَ أَهْلُ اللُّغَةِ: (الْفَلَوُ) الْمُهْرُ سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ فُلِي عَنْ أُمِّهِ، أَي: فَصَل وَعَزَلَ، وَالْفَصِيلُ: وَالدَّ النَّاقَةُ إِذَا فَصَلَ مِنْ إِزْبَاعِ أُمِّهِ، وَفِي (الْفَلَوُ) لُغَتَانِ فَصِيحَتَانِ أَفْصَحُهُمَا وَأَشْهَرُهُمَا: فَتُحَ الْفَاءُ وَضَمُّ اللَّامِ وَتَشْدِيدُ الْوَاوِ، وَالثَّانِيَّةُ: كَسْرُ الْفَاءِ وَإِسْكَانُ اللَّامِ وَتَخْفِيفُ الْوَاوِ).

^٤ أخرجه البخاري ومسلم كلاهما في كتاب الزكاة

^٥ أي نصف تمرة يتصدق بها.

إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمرٌ بالمعروف صدقة، ونهيٌ عن منكر صدقة، وفي بُضع أحدكم صدقة.

قالوا: يا رسول الله - ﷺ - أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

قال: أرايتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر، فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر^١.

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [كُلُّ سُلَامَى مِنْ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلُّ يَوْمٍ تَطَّلَعَ فِيهِ الشَّمْسُ: يَعْدَلُ بَيْنَ الْاِثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَيَعِينُ الرَّجُلَ عَلَى دَابَّتِهِ فَيَحْمِلُ عَلَيْهَا أَوْ يَرْفَعُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ: صَدَقَةٌ، وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خَطْوَةٍ يَخْطُوهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَيَمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ^٢ صَدَقَةٌ^٣].

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال لي النبي صلى الله عليه وآله وسلم: [لا تحقرنَّ من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق^٤ أي أن تلقاه ببشاشة وجه].

وفي رواية الترمذي قال صلى الله عليه وآله وسلم: [لا يَحْقِرَنَّ أَحَدُكُمْ شَيْئاً مِنَ الْمَعْرُوفِ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ فَلْيَلِمْ أَخَاهُ بِوَجْهِ طَلِيقٍ، وَإِنْ اشْتَرَيْتَ لِحْماً أَوْ طَبَخْتَ قِدْرًا فَأَكْثَرَ مَرَقَتَهُ وَاعْرَفَ لِحَارَكَ مِنْهُ^٥].

^١ في كتاب الزكاة.

^٢ وقد جاءت أحاديث أخرى تحذّر من وضع الأذى طريق المسلمين أو مواضع جلوسهم وساحاتهم.

^٣ صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير.

^٤ صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب.

^٥ سنن الترمذي كتاب الأطعمة.

فالصدقات متنوعة كثيرة، وصدقة كل إنسان على حسب حاله، وليس للغني أن يكتفي بالتسبيحات مثلاً كصدقات دون أن يتصدق من ماله، لأن الصدقة فيها نفع لنفس الإنسان ولغيره، فمن مر على فقير ومعه ما يتصدق به عليه وقال عنده: سبحان الله، ولم يتصدق عليه، فيقال له: نفعت نفسك بالتسبيح ولم ينتفع الفقير من تسبيحك شيئاً، والمطلوب منك أن تنفعه بأن تصله بالمال، فلا تقوم صدقة مقام صدقة أخرى، بل على الإنسان أن يأخذ بجميع أنواع الصدقات، ويضع كلاً منها في موضعها، فمن كان بحاجة للمال فتصدق عليه بالمال، ومن كان بحاجة إلى معونة فأعنه، ومن كان بحاجة إلى نصح فانصحه، وهكذا..

ولا يخلُ لسانك من التسبيح والتحميد والتكبير والتهليل والكلام الطيب مع الناس، وأن تلقاهم بالطلاقة والبشاشة، وهذا قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾، ومن جملة ما رزقك الله تعالى المال والقوة والبصر والسمع والعلم والجاه، وهكذا فقد أمرك الله تعالى أن تتصدق وتنفق مما رزقك، فالكلام الطيب من جملة ما يقي الإنسان عذاب النار، والكلام السيء مع الناس من جملة أسباب عذاب النار.

روى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا رأيتك طابت نفسي، وقرت عيني، فأنبئني عن كل شيء.

فقال ﷺ: [كل شيء خلق من ماء].

قال: فأنبئني بعمل إن عملتُ به دخلتُ الجنة.

قال ﷺ: [أفش السلام، وأطب الكلام، وصِل الأرحام، وقم بالليل والناس نيام: تدخل الجنة بسلام] ^١.

^١ في المسند ٩٩٩٦

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: علمني عملاً يدخلني الجنة.

قال ﷺ: [أطعم الطعام، وأفش السلام، وأطب الكلام، وصلّ بالليل والناس نيام، تدخل الجنة بسلام] (١).

وجاء في الحديث عن أبي شريح رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله -صلى الله عليه وآله وسلم - أخبرني بشيء يوجب لي الجنة.

فقال صلى الله عليه وآله وسلم: [طيب الكلام، وبذل السلام، وإطعام الطعام] (٢).

وفي رواية جيدة للطبراني قال: قلت: يا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - دلني على عمل يدخلني الجنة.

فقال ﷺ: [إن من موجبات المغفرة: بذل السلام، وحسن الكلام] (٣).

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [أطعم الطعام] أي أطعم الطعام أولاً لأرحامك المحتاجين ثم الأقرب فالأقرب، ولا يقتصر إطعامك الطعام على الأغنياء، وعلى من لك عنده حاجة فقط، فإن ذلك دليل نفاقك، بل عليك أن تكرم المحتاجين، لإيمانهم وصلاتهم وتقواهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾ فليكن ميزان الاعتبار والكرم عندك هو تقوى الله تعالى.

قوله ﷺ: [وأطب الكلام] أي مع المسلمين كلهم، لأن الإسلام جمع بينهم وآخى بينهم، وترتب على ذلك حقوق لهم وعليهم، وأما تخصيص طيب الكلام مع من تعرفه فقط فيدل على نقص في إيمانك.

١ قال المنذري في الترغيب: رواه البزار. اه كما في كتاب الأدب.

٢ رواه الطبراني وابن حبان في صحيحه والحاكم وصححه كما في ترغيب المنذري كتاب الأدب.

٣ كما جاء في ترغيب المنذري كتاب الأدب.

واعلم أن المؤمن لا يدخل الجنة حتى يطيب قلبه ولسانه وعمله وحاله، وتطيب كل ذرة فيه، ولو أن فيه ذرة فاسدة لمنعته عن دخول الجنة حتى تطيب، وفي هذا يقول صلى الله عليه وآله وسلم: [لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبَرٍ] ^(١)، أي حتى يطهر منها ويطيب، فيؤذن له بدخول الجنة؛ وإن خزنه الجنة يقولون لأهل الجنة لما يدخلونها: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

وإن أطيب كلمة جامعة لكل طيب، وعنهما تنشأ الأقوال والأعمال والأخلاق الطيبة، هي كلمة الإيمان، كلمة (لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) التي أشار إليها سبحانه وتعالى بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ * تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

وكما رسخت في قلب المؤمن نواة الإيمان وشجرة (لا إله إلا الله، سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم) كبرت الشجرة في أغصانها وفروعها وازداد ثمرها من الأعمال الصالحة والأقوال الطيبة.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [وأفش السلام] أي انشر السلام على من تعرف ومن لم تعرف، طالما أن الإسلام جمع وآخى بين المسلمين، فالسلام حق من حقوق الإسلام يطالب بإفشائه من كان مسلماً، وليس السلام على الآخرين من باب الفضل والامتنان عليهم.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم: [وصل بالليل والناس نيام، تدخل الجنة بسلام] يعني صلى الله عليه وآله وسلم بذلك المواظبة على قيام الليل والصلاة لله تعالى فيه.

^١ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب البر والصلة وسنن أبي داود كتاب اللباس

وفي الحديث الذي رواه الطبراني والحاكم واللفظ له عن عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

[إن في الجنة غرفة يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها].

فقال أبو مالك الأشعري -رضي الله تعالى عنه-: لِمَنْ هي يا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم-؟

قال ﷺ: [لمن أطاب الكلام، وأطعم الطعام، وبات قائماً والناس نيام] (١).

وفي رواية عند الإمام أحمد: [لمن ألان الكلام، وأطعم الطعام، وبات لله قائماً والناس نيام] (٢).

وهؤلاء هم أهل المنازل العالية في الجنة وهي الغرف، لأن الغرفة في اللغة تطلق على القصر العالي الذي بنيانه على وجه الأرض^٣، وقد قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾، وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾.

وفي الحديث الذي رواه البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ يَتَرَاءُونَ أَهْلَ الْغُرْفِ مِنْ فَوْقِهِمْ كَمَا يَتَرَاءُونَ الْكُوكَبَ الدَّرِّيَّ الْغَائِبَ فِي الْأُفُقِ مِنَ الْمَشْرِقِ أَوْ الْمَغْرِبِ لِتَفَاضُلِ مَا بَيْنَهُمْ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ تِلْكَ مَنَازِلُ الْأَنْبِيَاءِ لَا يَبْلُغُهَا غَيْرُهُمْ، قَالَ: بَلَى وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، رِجَالٌ آمَنُوا بِاللَّهِ وَصَدَّقُوا الْمُرْسَلِينَ] (٤).

وجاء في سنن الترمذي عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [إِنَّ أَهْلَ الدَّرَجَاتِ الْعُلَى لَيَرَاهُمْ مَنْ تَحْتَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ النُّجْمَ الطَّالِعَ فِي أُفُقِ السَّمَاءِ، وَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرُ مِنْهُمْ وَأَنْعَمًا] (٥).

١ مستدرک الحاكم كتاب الإيمان والمعجم الكبير للطبراني

٢ في مسنده ٦٣٢٦

٣ انظر تفسير البغوي ١٠٠١٦

٤ في صحيحه كتاب بدء الخلق

٥ في سننه كتاب المناقب

فهي غرف عالية شفافة لكيلا تحجب صاحبها عن التمتع بالنظر إلى الجنان والحدور والقصور وإن كان جالساً داخلها.

وقد استحق هؤلاء ذلك لأن الجزاء من جنس العمل، فلما أخلص هؤلاء مع الله تعالى في عباداتهم وصلواتهم سواء كانوا يصلون مع الناس أو في بيوتهم بحيث لا يراهم أحد، فهم مخلصون لله تعالى دوماً في الظاهر أمام الناس، وفي الباطن لما يقومون الليل حيث لا يراهم أحد، فصار هؤلاء من أهل العمل الظاهر والباطن، أي من أهل العمل الذي ظهر للناس، ومن أهل العمل الذي بطن عن الناس وخفي عنهم ولم يعلم به إلا الله تعالى، فحق لهؤلاء أن يدخلوا غرفاً يرى ظاهرها من باطنها، وباطنها من ظاهرها، يراها جميع أهل الجنة ويعرفون أن هذا القصر العالي قصر فلان وذاك قصر فلان وهكذا.

ونسأل الله تعالى ذلك من فضله، وأن يجعلنا من رفقاء أكرم خلقه عليه، سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم. آمين

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

المحاضرة الرابعة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب

ثم أورد بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : [عُرضت علي الأمم ، فأخذ النبي يمر معه الأمة ، والنبي يمر معه النفر ، والنبي يمر معه العشرة ، والنبي يمر معه الخمسة ، والنبي يمر وحده ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قلت : يا جبريل هؤلاء أمي ؟

قال : لا ، ولكن انظر إلى الأفق ، فنظرت فإذا سواد كثير ، قال : هؤلاء أمّتك ، وهؤلاء سبعون ألفاً قدّامهم لا حساب عليهم ولا عذاب .

قلت : ولمّ ؟

قال : كانوا لا يكتوون ، ولا يسترقون ، ولا يتطيرون ، وعلى ربهم يتوكلون .

فقام إليه عكاشة بن محصن رضي الله عنه فقال : ادع الله أن يجعلني منهم .

قال : اللهم اجعله منهم .

ثم قام إليه رجل آخر قال : ادع الله أن يجعلني منهم .

قال : سبقك بها عكاشة [١ . اهـ

^١ صحيح البخاري كتاب الرقاق

رواية : [فأخذ النبي] - بالضم على أنه فاعل - ، وفي رواية أخرى للبخاري :
[فأجد النبي]¹ - بالفتح على أن إعراب الكلمة للمفعولية.

ولقد كان عرض الأنبياء وأمهم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم
في ليلة إسرائه ومعراجه صلى الله عليه وسلم ، كما قال بعض العلماء ².

وقال العارفون رضي الله عنهم : لقد عرضت الأنبياء وأمهم على سيدنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم مرات متعددة ، في ليلة الإسرائ وغيرها ،
لأنه وردت عدة أحاديث عن الصحابة الكرام تتعلق بهذا الأمر ، وذلك بعد
هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة المنورة ³.

ولقد كان هذا العرض حقيقياً عن طريق الشهود العياني في اليقظة لا عن
طريق الرؤية المنامية، وإلا لكان أخبر عن ذلك صلى الله عليه وسلم كما هو
عادته إذا حدث عن منام قال ﷺ : [رأيت] ⁴ .

وفي رواية للحديث: [فجعل النبي يمر] ⁵ أي فكل نبى مرّ ومعه أتباعه.

¹ انظر فتح الباري ٣٨٩١١٨

² انظر شرح القسطلاني ٣١٥١٩

³ انظر الأدلة على ذلك فيما ذكره الحافظ ابن حجر في الفتح ٤٠٧/١١ في
باب: [يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب] وانظر روايات الحديث الشريف التي
ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره ٨٢/٢ عند كلامه حول قول الله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ

خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .

⁴ ومن ذلك ما جاء في صحيح البخاري في كتاب البيوع قوله صلى الله عليه وسلم:
[رأيت الليلة رجلين] ... الحديث، وانظر الحديث الشريف في بداية المحاضرة
الحادية عشرة من هذا الكتاب وفيه قوله صلى الله عليه وسلم : [بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ
النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ ...] .

⁵ طرف حديث في مسند الإمام أحمد ٣٦١٥

قوله صلى الله عليه وسلم: [ورأيت سواداً كثيراً]^(١) والسواد في الأصل ضد البياض ، ويطلق أحياناً على الشبح الذي يراه الإنسان من بعيد ولا يستطيع تمييزه أو عدّه^٢، فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما عرض عليه أشباحاً كثيرة ، فسأل عنها جبريل عليه السلام فقال له : [هذا موسى في قومه] كما في رواية للبخاري^٣ .

ثم رأى صلى الله عليه وسلم سواداً أعظم من ذلك السواد وقد سد الأفق من الجهات كلها - كما دلت عليه روايات الحديث^٤ - فقال له جبريل عليه السلام: [هؤلاء أمتك - أي يا محمد صلى الله عليه وسلم] .

وفي رواية أخرى عند الإمام أحمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [فرأيتهم فأعجببني كثرتهم وهينأتهم، قد ملئوا السهل والجبل، فقال - جل وعلا- : أرضيت يا محمد؟ - صلى الله عليه وسلم - فقلت: نعم]^٥... الحديث

وفي رواية أبي نعيم قال صلى الله عليه وسلم : [رَضِيتُ يَا رَبِّ]^٦ فإن أعظم الأمم اتباعاً لنبيها هي أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم أكثر الأمم عدداً والحمد لله .

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الطب

^٢ انظر شرح القسطلاني ٣٨٩١٥

^٣ في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء

^٤ انظر شرح القسطلاني ٣١٥١٩

^٥ المسند ٤١١١

^٦ انظر حلية الأولياء

وقد يلتبس على الإنسان أنه صلى الله عليه وسلم كيف سأل جبريل عن أمته وقد ورد في حديث آخر أنه يعرفهم بعلامة الغرة والتحجيل^١؟!

فيقال : لقد عرضت عليه أمته صلى الله عليه وسلم قبل أن يخلقها الله تعالى في هذا العالم الدنيوي التكليفي ، فلم تكن علامة الغرة والتحجيل^٢ ظاهرة عليهم لأنهم لم يخلقوا في عالم الدنيا بعد ولم يتوضؤوا ولم يصلوا بعد .

أما علامة الغرة والتحجيل فتكون ظاهرة عليهم لما يردون عليه الحوض يوم القيامة، فيعرفهم صلى الله عليه وسلم بهذه العلامة من بين سائر الأمم، بحيث لو تقدم أحد من أتباع الأنبياء ليشرب من حوضه صلى الله عليه وسلم لدفعه صلى الله عليه وسلم إلى حوض نبيّه، لأنه لا استعداد لغير أمته صلى الله عليه وسلم أن يشربوا من حوضه صلى الله عليه وسلم مباشرة ، وإن كانت حياض الأنبياء كلهم تستقي وتستمد من حوضه صلى الله عليه وسلم .

ولقد رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أمته الذين يأتون من بعده ويتبعونه ، وهم أمة الإجابة أي الذين استجابوا لدعوته صلى الله عليه وسلم وآمنوا به واتبعوه . اللهم اجعلنا منهم .

^١ روى الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة عن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: [إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةٍ مِنْ عَدَنٍ، لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَا يَنْبُتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ، وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، لَكُمْ سِيمًا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَّمِ، تَرُدُّونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ].

^٢ الغرة : أنوار في الوجه ، والتحجيل : أنوار في اليدين والقدمين التي أصابها ماء الوضوء في الدنيا ، وهذه علامة المؤمن المحمدي يوم القيامة . اه انظر تحفة الأحوزي ١٤٢١٢

وأما أمة الدعوة : فهم من بلغتهم دعوته صلى الله عليه وسلم وإن لم يؤمنوا به ، فجميع من على وجه الأرض منذ بعثته صلى الله عليه وسلم إلى يوم الدين هم أمة الدعوة ، فمنهم من أجاب دعوته صلى الله عليه وسلم وآمن ، ومنهم من أعرض وكفر .

وهؤلاء الذين آمنوا به صلى الله عليه وسلم واتبعوه هم أمة الإجابة والاتباع الذين نالوا الفضيلة والشرف على غيرهم من مؤمني الأمم السابقة، وقال فيهم سبحانه وتعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي كنتم خير أمة خيرة .

واعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يباهي بكثرة أمته المتبعة له صلى الله عليه وسلم يباهي بهم الأنبياء والأمم السابقة، فمن آمن به واتبعه صلى الله عليه وسلم فله البشرى بأن كان سبباً في زيادة أتباعه صلى الله عليه وسلم، وإدخال الفرح والسرور على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسوف يباهي به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قول جبريل عليه السلام: [وهؤلاء سبعون ألفاً قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب] أي أن هؤلاء جمع آخر .

وجاء في بعض الروايات : ثُمَّ نَهَضَ - أَي النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ - بعد أن حدث بهذا الحديث - فَحَاصَ النَّاسُ فِي أَوْلِيكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ : فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ - وهكذا اختلف الصحابة الكرام في أقوالهم حول هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب - فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرُوهُ فَقَالَ ﷺ : [هُمْ الَّذِينَ كَانُوا لَا يَكْتُوبُونَ وَلَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ]^١.

يعني أنهم أهل التوكل الخاص.

^١ انظر فتح الباري ٣٨٩١١٨

قوله صلى الله عليه وسلم: [لا يكتون] أي لا يتعاطون الكي، وإن كان الكي سبباً مباحاً لكنه غير قطعي .

وقال بعضهم: إنهم لا يتعاطون الكي لأن فيه شيئاً من الكراهة وإن كان جائزاً فعله لكن تركه أولى وهم لا يفعلون خلاف الأولى.

قوله صلى الله عليه وسلم: [ولا يتطيرون] أي لا يتشاءمون من أي شيء.

قوله صلى الله عليه وسلم: [ولا يسترقون] أي لا يطلبون من غيرهم أن يرقيهم، والرقيا: هي جملة تعاويد آيات قرآنية وأسماء إلهية يقرؤها الرائي على المصاب .

وهم لا يسترقون لأن في طلبهم هذا نوعاً من الاتكال على الوسطة والميل إليها وهي (الراقي)، ولكن هؤلاء يرقون أنفسهم بأنفسهم .

وفي رواية مسلم زيادة: [لا يرقون] ^١ أي لا يرقون أنفسهم أيضاً لأنهم أهل توكل خاص على الله تعالى .

وإذا قيل: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ثبت أنه رقى نفسه ^٢ وورقى بعض الصحابة الذين سأله ذلك ^٣؟

^١ انظر صحيح مسلم كتاب الإيمان

^٢ روى الإمام البخاري في صحيحه عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: [كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أوى إلى فراشه نفث في كفيه بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وبالمعوذتين جميعاً، ثم يمسح بهما وجهه وما بلغت يداه من جسده ... الحديث

^٣ روى البخاري في صحيحه عن السيدة عائشة رضي الله عنها قالت: [كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ بَعْضَهُمْ بِمَسْحِهِ بِيَمِينِهِ : أَذْهَبِ الْبَاسَ رَبِّ النَّاسِ ، وَاشْفِ أَنْتَ الشَّافِي ، لَا شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ ، شِفَاءٌ لَا يُعَادِرُ سَقَمًا] .

وروى ابن ماجه في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: [جاء النبي صلى الله عليه وسلم يعودني فقال لي: ألا أرقيك برقية جاءني بها جبرائيل؟ قلت: بأبي وأمي بلى يا رسول الله، قال: بسم الله أرقيك والله يشفيك من كل داء فيك { وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ } ثلاث مرات.

فيقال : إن أفعاله صلى الله عليه وسلم لجميع طبقات الناس وليبين مشروعية الرقيا والاسترقاء ، ولو أنه لم يَزُقْ أحداً ولم يأذن لهم أن يسترقوا لَفُهِم أنها حرام ، ففعله صلى الله عليه وسلم لبيان جواز الحكم .

وأهل التوكل الخاص هؤلاء المذكورون في الحديث الشريف هم أهل التسليم المطلق لله تعالى فلا يتعاطون شيئاً من هذه الأسباب ، ولما كان نيل هذا المقام عزيزاً كان عدد أهله قليلاً محدوداً ، وهم سبعون ألفاً ، وكان أجرهم عظيماً ، فهم يدخلون الجنة بغير حساب .

وإن الذي حمل هؤلاء على ترك التعاطي بالأسباب هو ما أكرمهم الله تعالى به من قوة اليقين به وصدق التوكل عليه ، وأما من ادعى ترك الرقيا وتعاطي الدواء وهو يفتقد يقين هؤلاء وقوة توكلهم فقد حرم نفسه ما أباح الله تعالى له من الأسباب ، وهو يفتقر إلى ما يقوم مقامها من الثقة بالله تعالى وصدق التوكل عليه سبحانه .

ومن أهل التوكل الخاص على الله تعالى الصحابية الجليلة السيدة أم أيمن بركة الحبشية حاضنة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما خرجت من مكة تريد الهجرة إلى المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم السلام جرّدها المشركون من مالها ومتاعها ، فأخذت الطريق إلى المدينة المنورة ، وكانت صائمة ، ولم تجد ما يطفئ ظمأها لما غربت الشمس ، فتدلى لها من السماء دلو وشربت منه حتى ارتوت ، ولم تشك بعد شربها هذا ظمأ طيلة حياتها حتى إنها كانت تصوم الهواجر - أيام الحر الشديد -^١.

^١ روى عبد الرزاق في مصنفه عن ابن سيرين، قال: (خَرَجْتُ أُمُّ أَيْمَنَ مُهَاجِرَةً إِلَى اللَّهِ وَإِلَى رَسُولِهِ ﷺ وَهِيَ صَائِمَةٌ، لَيْسَ مَعَهَا رَادٌّ وَلَا حَمُولَةٌ وَلَا سِقَاءٌ، فِي شِدَّةِ حَرِّ تِهَامَةَ، وَقَدْ كَادَتْ تَمُوتُ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، حَتَّى إِذَا كَانَ الْحِينُ الَّذِي فِيهِ يُفْطِرُ الصَّائِمُ، سَمِعَتْ حَفِيْفًا عَلَى رَأْسِهَا، فَرَفَعَتْ رَأْسَهَا، فَإِذَا دَلْوٌ مُعَلَّقٌ بِرِشَاءٍ أَبْيَضٍ، قَالَتْ: فَأَخَذْتُهُ بِيَدَيَّ، فَشَرِبْتُ مِنْهُ حَتَّى رُوِيْتُ، فَمَا عَطِشْتُ بَعْدُ، قَالَ: فَكَانَتْ تَصُومُ وَتَطْوِفُ لِكَيْ تَعْطِشَ فِي صَوْمِهَا، فَمَا قَدَرْتُ عَلَى أَنْ تَعْطِشَ حَتَّى مَاتَتْ).

فهؤلاء وإن لم يحمل أحدهم زاداً في سفره - أي لم يتعاط سبب الأكل والشرب - فإن قوة توكله وثقته بالله تعالى هي عين الأخذ بالسبب ، فمثل هؤلاء يكون في كرامة الله تعالى ورعايته دائماً أبداً .

واعلم أن هؤلاء قد تركوا تعاطي الأسباب المباحة فقط لقوة توكلهم على الله تعالى وثقتهم به سبحانه .

ولما جاء الصديق الأكبر رضي الله عنه بماله كله إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له ﷺ: [يَا أَبَا بَكْرٍ مَا أَبْقَيْتَ لِأَهْلِكَ؟ فَقَالَ : أَبْقَيْتُ لَهُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ﷺ]^١ .

وليس عند غير الصديق رضي الله عنه قوة توكل وثقة ويقين بالله تعالى تمكنه من التجرد عن ماله كله، ولذلك أقره رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد تزود رسول الله صلى الله عليه وسلم ليبين إباحة ذلك ، لأن أفعاله وأقواله صلى الله عليه وسلم تشريع لكافة الناس على مختلف درجاتهم، ففعله صلى الله عليه وسلم ليبين للناس جوازه، وإن لم يفعله لفهموا حرمة ، وطالما أنه مباح كان فعله صلى الله عليه وسلم له واجباً في حقه ليبين للناس أحكام شريعة الله تعالى . ومن هنا تفهم جهل وحماسة من يتشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم ويقيس أفعاله صلى الله عليه وسلم على نفسه .

وافهم من هنا -أيها العاقل- الحكمة في زواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة زينب رضي الله عنها ، وذلك حتى يبين جواز الحكم ، وهو زواج الإنسان من مطلقة من كان يدعي أبوته ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

^١ انظر سنن الدارمي كتاب الزكاة وسنن الترمذي كتاب المناقب وسنن أبي داود كتاب الزكاة

وقد سن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأُمَّته صلاة النوافل قبل المكتوبة وبعدها ولم يواظب على فعلها لئلا يفهم فرضيتها .

فعلى المؤمن أن يواظب على فعلها عملاً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلباً للأجر والثواب .

واعلم أن رقياً الإنسان لنفسه إذا كان حاضر القلب أفضل من أن يسترقى من غيره إلا إذا كان ذلك الرجل أقرب إلى الله تعالى منه .

واعلم أن التوكل الخاص على الله تعالى لا ينال إلا بعد معرفة بالله تعالى خاصة ، وليس الأمر باللسان ، ولو أن المؤمن توكل على ربه التوكل العام المطلوب منه لرزقه كما يرزق الطير ، فما بالك إذا بأهل التوكل الخاص!

وجاء في الحديث الذي رواه الترمذي عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ] - وهذا هو التوكل العام، وإلا فأين الطير من أهل التوكل الخاص - [لَرَزَقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا] ^١ .

ولو أنك وكلت إنساناً في أمرٍ ما كشاء أو بيع ونحوه ثم قلت له: لا تفعل شيئاً إلا بعد أن تراجعني فيه، لقال لك: فما هذه الوكالة التي وكلتني إياها؟! فلو وكل المؤمن أموره إلى ربه واتخذ ربه وكياً لرضي بأفعاله تعالى وتقبل ما يجري عليه من قضاء الله وقدره.

فما باله يقول: توكلت على الله، وإذا لقي ما يكره تضجر واعترض فأين توكله؟!

نعم كل ذلك يدخل تحت التوكل العام، أما أهل التوكل الخاص فهم أرفع درجة وأعلى مكاناً وكرامة عند الله تعالى.

ولما كان الناس على مراتب في معرفتهم برب العالمين، فهم أيضاً على مراتب في توكلهم، فتوكل كل إنسان على ربه يكون على حسب معرفته بربه سبحانه.

^١ سنن الترمذي كتاب الزهد

ولا تنافي بين تعاطي الأسباب والتوكل على الله تعالى ، بل على الإنسان مثلاً أن يتعاطى أسباب الرزق دون أن يعتمد على الأسباب بل يعتمد على خالق الأسباب ومسببها الذي إن شاء أعملها وإن شاء أهملها .

وإن أعظم من نال أعلى مقام في التوكل الخاص على الله تعالى هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد جاء في صفته صلى الله عليه وسلم في التوراة -بعد أن ترجمها الصحابة إلى العربية- ما رواه البخاري عن عطاء بن يسار قال: [لَقِيتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو بْنَ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قُلْتُ: أَخْبِرْنِي عَنْ صِفَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّوْرَةِ.

قَالَ: أَجَلَ وَاللَّهِ إِنَّهُ لَمَوْصُوفٌ فِي التَّوْرَةِ بِبَعْضِ صِفَتِهِ فِي الْقُرْآنِ:

﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ وَحِزْرًا لِلْأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمَّيْتِكَ الْمَتَوَكَّلَ] - أي لكمال توكله على الله تعالى - [لَيْسَ بِفِظٍّ وَلَا غَلِيظٍ، وَلَا سَخَابٍ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ، وَلَكِنْ يَغْفُو وَيَغْفِرُ، وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللَّهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَيَفْتَحُ بِهَا أَعْيُنًا عُمَيَّا وَآذَانًا صُمًّا وَقُلُوبًا غُلْفًا]¹.

وقال تعالى في محكم تنزيله : ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ .

ويوم حنين لما أصاب المؤمنين الفزع وتراجعوا تقدّم رسول الله صلى الله عليه وسلم وحده أمامهم مشجعاً لهم وهو يقول:

أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ²

وجاء في مسند الإمام أحمد عن أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه قال: [كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسُ] - أي في المعارك - [وَلَقِيَ الْقَوْمَ الْقَوْمَ اتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَا يَكُونُ مِنَّا أَحَدٌ أَدْنَى مِنَ الْقَوْمِ مِنْهُ]³.

¹ صحيح البخاري كتاب البيوع

² انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير

³ انظر المسند ١٢٧٦

- وفي رواية قال - أي سيدنا عليّ كرم الله وجهه - : [لَقَدْ رَأَيْتُنَا يَوْمَ بَدْرٍ وَنَحْنُ نَلُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَقْرَبُنَا إِلَى الْعَدُوِّ وَكَانَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ يَوْمَئِذٍ بَأْسًا]^١ لأنه صلى الله عليه وسلم حرز للأُميين وحِصن حصين لمن لجأ إليه، كيف لا وهو سيد المتوكلين على الله تعالى وإمامهم وأمامهم .

وقد بلغ من فضل الله تعالى على أهل التوكل الخاص الذين جاء ذكرهم في الحديث السابق أن يدخلهم الجنة بغير حساب، ويشفَعوا بغيرهم كما في رواية الترمذي أنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : [وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا]^٢ ... الحديث.

وفي رواية الإمام أحمد: [فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا]^٣ أي بشفاعته بغير حساب أيضاً، ونسأل الله تعالى ذلك من فضله مع سيد الأحاب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين .

١ المسند ٦١٩

٢ طرف حديث في سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

٣ طرف حديث في المسند ١٦١٣

المحاضرة الخامسة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب: يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: [يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مُحْصِنِ الْأَسَدِيِّ يَرْفَعُ نِمْرَةً عَلَيْهِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، قَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ لِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ].

وأورد بسنده إلى سهل بن سعد رضي الله عنه قال: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا أَوْ سَبْعُ مِائَةِ أَلْفٍ] - شَكَ فِي أَحَدِهِمَا^١ - [مُتَمَّاسِكِينَ، آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوْلَاهُمْ وَأَخْرَهُمُ الْجَنَّةَ، وَوُجُوهُهُمْ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ] ٢. ١هـ

^١ والشك من أبي حازم رحمه الله - أحد رواة هذا الحديث الشريف .

انظر شرح القسطلاني ٣١٧ ١٩

^٢ صحيح البخاري كتاب الرقاق

وفي هذا الحديث يبين صلى الله عليه وسلم صفة نورانية وجوه هؤلاء الزمرة لما يدخلون الجنة، وأن وجوههم تضيء إضاءة القمر ليلة البدر، وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم قوله: [أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ]^(١) أي في إضاءته ، ولا شك أن هؤلاء يدخلون الجنة بعد دخول الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وقد جاء في الحديث الشريف بيان صفة هؤلاء السبعين ، فقد روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : [يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ ، هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْفُونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ]^٢ فهم أهل التوكل الخاص على الله تعالى .

وَعُكَّاشَةُ بْنُ مَحْصَنِ رضي الله عنه : بتشديد الكاف وفتحها ، وتلفظ أيضاً بتسهيل الكاف وفتحها، هو الصحابي المعروف، من السابقين إلى الإسلام، ومن الذين شهدوا بدرًا وغيرها من الغزوات ، وقد استشهد رضي الله عنه في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه في الحروب مع أهل الردة^٣ .

وفي رواية أنه ﷺ قال له : [أنت منهم]^(٤) ، ولا تنافي بين الروایتين ، إذ دعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم أولاً ، ثم أخبره بأن الأمر محقق ثابت ، لأن دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم محقق الإجابة .

قوله صلى الله عليه وسلم : [سبقك بها عكاشة] لا يعني أن الرجل ليس من أهل الجنة، إذ لم يقل له صلى الله عليه وسلم : (أنت لست منهم) ، ولكنه صلى الله عليه وسلم أراد من وراء ذلك أموراً ، منها : أن يكون الإنسان عالي الهمة ، عظيم الرغبة إلى الأمور التي امتدحها الشارع ورغب فيها ، وأن يكون من الأوائل السابقين إلى طلبها ، وهذا هو قوله صلى الله عليه وسلم : [سبقك بها عكاشة] .

١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب بدء الخلق

٢ صحيح البخاري كتاب الرقاق

٣ فتح الباري ١٨ \ ٣٨٩

٤ طرف حديث في صحيح الإمام مسلم كتاب الإيمان

وأما ما ورد في بعض الروايات أنه صلى الله عليه وسلم قال له ذلك لنفاق فيه ، فهي روايات ضعيفة مردودة ^١ ، لأن رواية البخاري رضي الله عنه :

[فقام رجل من الأنصار] ، وهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين نصروا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وهم معروفون بالصدق والإخلاص ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : [آية الإيمان حب الأنصار ، وآية النفاق بغض الأنصار] ^(٢) .

وفي رواية عند الإمام أحمد: حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَكْرِ السَّهْمِيُّ حَدَّثَنَا هِشَامُ بْنُ حَسَّانَ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ مِهْرَانَ عَنْ مُوسَى بْنِ عَبِيدٍ عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: [إِنَّ رَبِّي أَعْطَانِي سَبْعِينَ أَلْفًا مِنْ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَهَلَّا اسْتَرَدْتَهُ، قَالَ: قَدْ اسْتَرَدْتَهُ] - أي طلبت الزيادة منه سبحانه - [فَأَعْطَانِي مَعَ كُلِّ رَجُلٍ سَبْعِينَ أَلْفًا، قَالَ عُمَرُ: فَهَلَّا اسْتَرَدْتَهُ، قَالَ: قَدْ اسْتَرَدْتَهُ فَأَعْطَانِي هَكَذَا.

وَفَرَّجَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ بَكْرِ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ وَبَسَطَ بَاعِيَهُ وَحَثَا عَبْدُ اللَّهِ، وَقَالَ هِشَامُ: وَهَذَا مِنَ اللَّهِ لَا يُدْرَى مَا عَدَدُهُ] ^(٣) .
وفي مسند الإمام أحمد أيضاً عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [أَعْطَيْتُ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، وَقُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَرَدْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَرَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَرَأَيْتُ أَنَّ ذَلِكَ آتٍ عَلَى أَهْلِ الْقُرَى وَمُصِيبٌ مِنْ حَاقَاتِ الْبَوَادِي] ^(٤) .

^١ انظر فتح الباري ١٨ \ ٣٨٩

^٢ صحيح البخاري كتاب الإيمان

^٣ المسند ١٦١٣

^٤ المسند ٢٢

وجاء في سنن الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ:

[وَعَدَنِي رَبِّي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا وَثَلَاثُ حَثِيَّاتٍ مِنْ حَثِيَّاتِهِ].

يقال في اللغة: ^١ حثا يحثو، وحثا يحثي، وحثية وحثوة، بمعنى عَرَفَ عَرُفَةً.

وهذا الفضل الإلهي الذي نالته هذه الأمة إنما هو بسبب رسولها صلى الله عليه وسلم وإكراماً له عليه الصلاة والسلام، فقد أعطاه الله تعالى مَنْ يدخل الجنة من أمته بغير حساب، وهم سبعون ألفاً - وهم أهل الأصالة في المقام - ويدخل مع كل واحد سبعين ألفاً بغير حساب أيضاً، وهناك ثلاث حثيات من حثيات الله تعالى يدخلهم الجنة بغير حساب أيضاً.

فما أعظم هذا النبي صلى الله عليه وسلم عند الله تعالى !

وما أكرمه على الله تعالى!

وما أعظم رأفته ورحمته بأمته صلى الله عليه وسلم!

كل ذلك يدخل في قوله تعالى :

﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ .

^١ انظر لسان العرب ١٦٤\١٤ مادة: حثا

وقد جاء في مسند الإمام أحمد عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:

[أَكْثَرْنَا الْحَدِيثَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ لَيْلَةٍ ثُمَّ غَدَوْنَا إِلَيْهِ فَقَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأَنْبِيَاءُ اللَّيْلَةَ بِأَمَمِهَا، فَجَعَلَ النَّبِيُّ يَمُرُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ الْعِصَابَةُ^(١)، وَالنَّبِيُّ وَمَعَهُ النَّفْرُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى مَرَّ عَلَيَّ مُوسَى مَعَهُ كَبْكَبَةٌ^(٢) مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَأَعْجَبُونِي فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ؟ فَقِيلَ لِي: هَذَا أَخُوكَ مُوسَى، مَعَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، قَالَ: قُلْتُ: فَأَيْنَ أُمَّتِي؟ فَقِيلَ لِي: انْظُرْ عَنْ يَمِينِكَ، فَانْظُرْتُ فَإِذَا الظَّرَابُ^(٣) قَدْ سَدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ، ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ عَنْ يَسَارِكَ، فَانْظُرْتُ فَإِذَا الْأُفُقُ قَدْ سَدَّ بِوُجُوهِ الرِّجَالِ، فَقِيلَ لِي: أَرْضَيْتَ؟ فَقُلْتُ: رَضَيْتُ يَا رَبِّ، رَضَيْتُ يَا رَبِّ.

قال: فقيل لي: إن مع هؤلاء سبعين ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب.

فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فدا لكم أبي وأمي، إن استطعتم أن تكونوا من السبعين ألف فافعلوا، فإن قصرتم فكونوا من أهل الظراب، فإن قصرتم فكونوا من أهل الأفق، فإني قد رأيت ثم ناسا يتهاوشون.

فقام عكاشة بن محصن فقال: ادع الله لي يا رسول الله أن يجعلني من السبعين، فدعا له، فقام رجل آخر فقال: ادع الله يا رسول الله أن يجعلني منهم، فقال: قد سبقك بها عكاشة.

قال: ثم تحدتنا فقلنا: من ترؤن هؤلاء السبعون ألف؟ قوم ولدوا في الإسلام لم يشركوا بالله شيئاً حتى ماتوا.

فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون^(٤).

١ بكسر العين، وهي الجماعة من الناس لا واحد لها، وهو ما بين العشرة إلى الأربعين. اه انظر عمدة القاري ١/١٥٤

٢ أي جماعة.

٣ قال النووي في شرحه صحيح مسلم: وأما الظراب فبكسر الظاء المغممة واحدها ضرب بفتح الظاء وكسر الراء وهي الروابي الصغار. اه ٦/١٩٣

٤ المسند ٣٦١٥

وفي رواية عند الإمام أحمد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 [فَرَأَيْتُهُمْ فَأَعْجَبْتَنِي كَثْرَتُهُمْ وَهَيْئَاتُهُمْ، قَدْ مَلَأُوا السَّهْلَ وَالْجَبَلَ، فَقَالَ - جل
 وعلا-: أَرْضَيْتَ يَا مُحَمَّدٌ؟ -صلى الله عليه وسلم- فَقُلْتُ: نَعَمْ] ^١ ... الحديث
 وقد جاء في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره عن بريدة رضي الله عنه قال:
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةٌ صَفٌّ،
 ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ] ^٢ .

وروى الطبراني عن عتبة بن عبد السلمي رضي الله عنه قال : قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : [إِنَّ رَبِّي وَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا
 بغيرِ حِسَابٍ، ثُمَّ يَشْفَعُ كُلُّ أَلْفٍ لِسَبْعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ يَحْيِي رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى
 بِكَفِّهِ ثَلَاثَ حَتِّيَّاتٍ .

فَكَبَّرَ عُمَرُ- رضي الله عنه- وَقَالَ: إِنَّ السَّبْعِينَ الْأُولَى لَيُشَفَّعُهُمُ اللَّهُ فِي
 آبَائِهِمْ، وَأَبْنَائِهِمْ، وَعَشَائِرِهِمْ، وَأَرْجُو أَنْ يَجْعَلَنِي اللَّهُ فِي إِحْدَى الْحَتِّيَّاتِ
 الْأَوَاخِرِ] ^٣ .

وهذا هو شأن الأكابر رضي الله عنهم ، أن أحدهم كلما ازداد معرفة بالله
 تعالى ازداد خشية منه سبحانه ، وازداد تواضعاً وذللاً لله سبحانه وتعالى ،
 وقد قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ
 رَاجِعُونَ﴾ .

^١ المسند ٤١١١

^٢ سنن الترمذي كتاب صفة الجنة وسنن ابن ماجه كتاب الزهد وسنن الدارمي كتاب
 الرقاق

^٣ المعجم الأوسط للطبراني واللفظ له وصحيح ابن حبان كتاب إخباره ﷺ عن
 مناقب الصحابة

جاء في سنن الترمذي أن السيدة عَائِشَةَ أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما قَالَتْ:

[سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ هَذِهِ الْآيَةِ:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾

قَالَتْ عَائِشَةُ: أَهْمُ الَّذِينَ يَشْرِبُونَ الْخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟

قَالَ: لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمْ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ وَهُمْ يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُمْ، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ] ^١.

ثم قال سبحانه في وصف هؤلاء:

﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾

فهم من الله تعالى على رجاء ، ومن أنفسهم على تخوف وحذر .

قوله صلى الله عليه وسلم : [مع كل ألف سبعون ألفاً] أي بشفاعتهم ، فهل هم معهم في الدخول إلى الجنة ، أم أنهم يتأخرون عنهم في الدخول لكنهم معهم من حيث لا حساب عليهم ؟

إن ظاهر الأمر أنهم يتأخرون عنهم في دخول الجنة ولكنهم معهم من حيث إنه لا حساب عليهم .

^١ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن وسنن ابن ماجه كتاب الزهد

وهناك من قال إنهم معهم في دخول الجنة لقوله صلى الله عليه وسلم :
[المرء مع مَنْ أَحَبَّ] ^(١) فيجعل الله تعالى بين المحب ومحبوه معية لا
تنفك .

وقد ذكر صلى الله عليه وسلم في الحديث أن هؤلاء يدخلون الجنة وهم
متماسكون ، فلا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم - أي أنهم يدخلون الجنة
دفعة واحدة وصفاً واحداً - فقد روى البخاري عن سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله
عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [لِيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ
أَلْفًا أَوْ سَبْعُ مِائَةِ أَلْفٍ] - شَكَ فِي أَحَدِهِمَا ^٢ - [مُتَمَاسِكِينَ، آخِذٌ بَعْضُهُمْ
بِبَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوْلَاهُمْ وَآخِرُهُمُ الْجَنَّةَ، وَوُجُوهُهُمْ عَلَى ضَوْءِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ
الْبَدْرِ] ^٣ اهـ

ولما كانت الجنة واسعة كبيرة عرضها السماوات والأرض كانت أبوابها
تناسب سعتها ، لأن أبواب مدخل الشيء تكون على حسب سعة الشيء .

١ قال الحافظ السيوطي في الجامع الكبير :

[المرء مع من أحب]: مالك في رواية معن ، وابن أبي شيبة ، وأحمد ، والبخاري ،
ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي عن أنس .

البخاري ، ومسلم عن ابن مسعود .

ابن منيع ، وأبو نعيم في الحلية ، والضياء عن أبي ذر .

عبد بن حميد ، وأبو عوانة عن جابر .

أحمد ، والبخاري عن أبي موسى .

الطبراني ، والشيرازي في الألقاب ، وابن عساكر عن عروة بن مضرس .

الطيالسي ، وأحمد ، والترمذي - حسن صحيح - وابن خزيمة ، والطبراني ، وابن

حبان ، والضياء عن صفوان بن عسال .

أبو عوانة ، وابن قانع ، والطبراني ، والضياء عن صفوان بن قدامة .

الطبراني عن ابنه عبد الرحمن .

الطبراني عن معاذ . اهـ

^٢ والشك من أبي حازم رحمه الله - أحد رواة هذا الحديث الشريف .

انظر شرح القسطلاني ٣١٧ ١٩

^٣ صحيح البخاري كتاب الرقاق

وكل واحد من هؤلاء الزمرة يدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر - أي ليلة بدوره وظهور نوره - ولا بد للأقمار من نور تستمد منه ، وهي شمس الذات المحمدية صلى الله عليه وسلم ، التي أضاءت وجوه هؤلاء حتى صاروا أقماراً في إضاءتهم . اللهم ألحقنا بهم . آمين

وقد دخل هؤلاء الجنة متماسكين حتى يكون كل واحد منهم على طمأنينة أن أصحابه وأحابه معه ، وفي هذا من اللذة والنعيم ما فيه .

كما أن في دخولهم متماسكين صفاً واحداً تكريماً وتوقيراً لهم كلهم ، وأن لكل منهم مقامه ورتبته ، والفضل في هذا كله للإمام الأعظم الذي تقدّمهم وفتح لهم أبواب الجنة صلى الله عليه وسلم .

وأما الزمرة التي تلي تلك الزمرة الأولى في دخول الجنة فيدخلون على مثل صورة أشد كوكب في السماء إضاءة ، كما جاء في الحديث :

[إِنَّ أَوْلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوْكَبٍ دُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً] ^١ .

وما هذا النور إلا نور الإيمان ، الذي سيظهر جلياً للمؤمنين يوم القيامة على وجوههم وأجسادهم يضيء لهم في البعد على حسب قوة إيمانهم ، وذلك لأن الدار الآخرة هي الحاqqة ، أي دار تكشف عن حقيقة ما انطوى عليه كل إنسان .

وإن الموت هو أول برزخ من برازخ الآخرة يدخله الإنسان ويبقى فيه معذباً إن كان كافراً ، ومنعماً إن كان مؤمناً إلى أن تقوم الساعة ، إذ إن إقامته في عالم البرزخ مؤقتة ، ولذلك جاء البيان الإلهي عن ذلك بكلمة : (الزيارة) ،

فقال الله تعالى : ﴿ أَهْلَكُمْ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴾

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء وصحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها

أي ولا بد للزيارة من أجل ، ولما سمع أعرابي قارئاً يقرأ هذه الآية صاح وقال: (بعث القوم ورب الكعبة)^١ .

وكما أن للإيمان والطاعات أنواراً تظهر على صاحبها يوم القيامة وتضيء له على حسبها ، كذلك فإن للكفر والمعاصي ظلمات تظهر على صاحبها وتظلم ما حوله ، كما قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَقَّعَهُ حِسَابُهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ يَرِنَهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ . اللهم اجعل لنا من لدنك نوراً .

وقال الله جل وعلا :

﴿ أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ الآية ، ونور الله تعالى لا يحجبه شيء ولا يقاومه شيء ، فإذا أشرق نور الله تعالى في قلب المؤمن انعكس على مداركه وجوارحه حتى يغمره النور من جميع الوجوه والاعتبارات والجهات ، وهذا هو نور الإيمان الكامل .

وأما من لم يتحقق بالإيمان الكامل فقد يستنير قلبه ولا يصل هذا النور إلى بصره مثلاً ، فتراه يمتد بصره إلى الحرام ، إذ لو استنار بصره لما وقع في الحرام لأن المحرمات ظلمات ، والطاعات أنوار تطرد الظلمات .

ولما دخل رجل من التابعين على سيدنا عثمان رضي الله عنه أيام خلافته - وكان هذا الرجل قد وقع بصره في الطريق على امرأة أجنبية أي امرأة لا تحل له - لما دخل على سيدنا عثمان رضي الله عنه نظر إليه وقال له :

(أيدخل عليّ أحدكم وفي عينيه أثر الزنا؟!)

فقال الرجل : أَوْحِيْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

^١ انظر تفسير ابن كثير للآية الكريمة

فقال سيدنا عثمان رضي الله عنه : لا ، ولكن قول حق وفراسة صدق^١ .
 فقد رأى سيدنا عثمان رضي الله عنه بنور إيمانه رأى ظلمة الزنا التي ظهرت
 على عين ذلك الرجل الذي نظر إلى الحرام ، وقد قال صلى الله عليه وسلم:
 [اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ، ثُمَّ قَرَأَ ﷺ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾] .^٢

وقد ورد في الحديث عنه صلى الله عليه وسلم أن وضوء المؤمن يغسل
 خطاياه - أي الصغائر - التي صدرت من أعضائه وجوارحه ، فقد روى مسلم
 وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:
 [إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوْ الْمُؤْمِنُ فَعَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ
 نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا عَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ
 يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، فَإِذَا عَسَلَ
 رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَسَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ، حَتَّى
 يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ] .^٣

وقد كان بعض الصالحين الأكابر رضي الله عنهم يرى آثار ظلمات الذنب
 وهي تمشي مع الماء يراها من المذنب حين يتوضأ، فيرى عكر الماء
 المتساقط من أعضائه .

ومن فضل الله تعالى على عباده أن حجبهم عن رؤية ذلك ، وإلا لوقعوا في
 بعضهم فضيحة وتشهيراً وذماً وقدحاً ، وإنما تكلم أهل الله تعالى عما أراهم
 الله تعالى من ذلك من أجل الوعظ والتذكير لا الفضيحة والتشهير ، كما نبه
 سيدنا عثمان رضي الله عنه الرجل ووعظه ونصحه بالتوبة إلى الله تعالى .

^١ انظر الرياض النضرة في مناقب العشرة للمحب الطبري ٢١٤ وفيض القدير

للمناوي ١٨٦١١

^٢ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن

^٣ صحيح مسلم وموطأ الإمام مالك كلاهما في كتاب الطهارة

وقد أخبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن زمرة أخرى من المؤمنين يدخلون الجنة بغير حساب أيضاً ، ففي الحديث الذي رواه ابن مردويه ومحمد بن نصر في الصلاة وابن أبي حاتم وغيرهم عن أسماء بنت يزيد بن السكن رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يجمع الله يوم القيامة الناس في صعيد واحد ، يسمعهم الداعي وينفذهم البصر، فيقوم منادٍ فينادي:

أين الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء؟

فيقومون وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب .

ثم يعود فينادي : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ؟ [

- أي أين قوَّام الليل بعبادة الله تعالى ؟ -

فيقومون وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب .

ثم يعود فينادي : ليقم الذين كانوا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله.

فيقومون وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يقوم سائر الناس فيحاسبون]^١.

وكل هؤلاء يدخلون الجنة بغير حساب بعد أن دخلها أولئك الذين أخبر عنهم صلى الله عليه وسلم وهم سبعون ألفاً ، لأنه جاء بنص الحديث: [هؤلاء أُمَّتِك، وهؤلاء سبعون ألفاً قَدَّامَهُمْ لا حساب عليهم ولا عذاب]^٢ الحديث كما رواه البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما .

^١ انظر الجامع الكبير للسيوطي

^٢ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق

وإن الله تعالى يُدخل المؤمنين الجنة على زُمر، قال عز من قائل: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ - أي جماعات بعد جماعات ، كل على حسب إيمانه ومقامه عند الله تعالى - ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي: والحال قد فُتحت أبوابها ، وقد فتحها الفاتح الأول ، وهو السيد الأعظم والحبیب الأكرم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، كما بين ذلك صلى الله عليه وسلم: فقد جاء في صحيح مسلم وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: [آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَاسْتَفْتِحْ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ] - أي بحقك أمرت - [لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ]^١.

أما الكفار فإنهم لما سيقوا إلى جهنم فتحت أبوابها أمامهم بغتة وفجأة حتى تبهتهم بنيرانها وعذابها - نسأل الله العافية - وفي هذا قال سبحانه في الآيات قبلها: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتُحَّتْ أَبْوَابُهَا﴾ أي فجأة .

أما أهل الجنة - جعلنا الله تعالى منهم بفضله وكرمه - فقد بدت لهم الجنة من بعيد وهم يمشون إليها ، ويرون خضارها ونضارها ، ويهب عليهم من نسيمها وريحها العبق ، مما يزيد في نشاطهم ونعيمهم وسكينة نفوسهم وأمانهم الذي أكرمهم الله تعالى به .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان ومسند الإمام أحمد ١١٩٤٨

المحاضرة السادسة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب الصراط جسر جهنم

ثم أورد بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال :

[قال أناس : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟

فقال : هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب ؟

قالوا: لا يا رسول الله .

قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟

قالوا: لا يا رسول الله.

قال : فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك ، يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول:

من كان يعبد شيئاً فليتبعه؛ فيتبع من كان يعبد الشمس ، ويتبع من كان يعبد القمر ، ويتبع من كان يعبد الطواغيت ، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة ^(١) التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم .

فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه؛ فيأتيهم الله في الصورة ^(٢) التي يعرفون ، فيقول : أنا ربكم .

فيقولون : أنت ربنا ، فيتبعونه ، ويضرب جسر جهنم .

^١ أي غير الصفة .

^٢ أي الصفة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأكون أول من يجيز ، ودعاء الرسل يومئذ : "اللهم سلم سلم" ؛ وبه كلاليب مثل شوك السعدان ، أما رأيتم شوك السعدان ؟ قالوا : بلى يا رسول الله .

قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عِظْمِهَا إلا الله؛ فَتَخَطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ ، منهم الموبق بعمله ، ومنهم المُخْرَدَلُ ثم ينجو؛ حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده ، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج؛ ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله ، أمر الملائكة أن يخرجوهم ، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود ، وحرّم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجونهم قد امتحشوا، فيصب عليهم ماء يقال له: ماء الحياة، فَيَنْبُتُونَ نَبَاتَ الْحَبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ ؛ ويبقى رجل منهم مقبل بوجهه على النار ، فيقول : يا رب قد قشبي ريحها ، وأحرقني ذكاؤها ، فاصرف وجهي عن النار؛ فلا يزال يدعو الله .

فيقول : لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره .

فيقول : لا وعزتك ، لا أسألك غيره ، فيصرف وجهه عن النار .

ثم يقول بعد ذلك : يا رب قربي إلى باب الجنة .

فيقول : أليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ؟ ويليك ابن آدم ما أغدرك .

فلا يزال يدعو فيقول : لعلّي إن أعطيتك ذلك تسألني غيره .

فيقول : لا وعزتك ، لا أسألك غيره ، فيعطي الله من عهود ومواثيق أن لا يسأله غيره ، فيقربه إلى باب الجنة ، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت ، ثم يقول : رب أدخلني الجنة .

ثم يقول: أوليس قد زعمت أن لا تسألني غيره ؟ ويليك يا ابن آدم ما أغدرك.

فيقول : يا رب لا تجعلني أشقى خلقك ؛ فلا يزال يدعو حتى يضحك ، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها ، فإذا دخل فيها قيل له : تَمَنَّ مِنْ كَذَا ؛ فيتمنى ، ثم يقال له : تَمَنَّ مِنْ كَذَا ؛ فيتمنى حتى تنقطع به الأماني .

فيقول له : هذا لك ومثله معه] .

قال أبو هريرة رضي الله عنه : وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً .

قال عطاء : وأبو سعيد الخُدري رضي الله عنه جالس مع أبي هريرة رضي الله عنه لا يغيّر عليه شيئاً من حديثه ، حتى انتهى إلى قوله : [هذا لك ومثله معه] ؛ قال أبو سعيد رضي الله عنه : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: [هذا لك وعشرة أمثاله] ، قال أبو هريرة رضي الله عنه: حفظت: [مثله معه] ^١ .

وفي رواية للبخاري: [هل تضارون ؟] ^(٢) - بغير تشديد - من الضرر والأذى .
وفي رواية له أيضاً: [لا تضامون ؟] ^(٣) - بتشديد الميم وضمها - من الضم والمزاحمة .

أما رواية: [لا تضامون ؟] ^(٤) بتخفيف الميم ، فهي من الضيم أي الظلم .
وفي رواية له أيضاً ^(٥): [هل تمارون ؟] من المراء، يعني الشك والارتياب .
ولا تنافي ولا تعارض في معاني هذه الروايات ، إذ إنه ﷺ يبين أنه لا تظالم ولا تزاحم ولا ارتياب ولا التباس على المؤمنين في الجنة حين يتجلى عليهم رب العالمين بالرؤيا ، فكل منهم يرى ربه سبحانه متجلياً على أهل الجنة دون أن يصيبه ضرر في ذلك ، أو أنهم لا يتزاحمون على ذلك، أو أنهم لا يشككون في ذلك، فلا ضرر ولا مزاحمة ولا شك ولا التباس .

قوله ﷺ : [يجمع الله الناس] - وفي رواية ^(٦) : [يُخَشِّرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ] - [فيقول : من كان يعبد شيئاً فليتبعه] أي من كان في الدنيا يعبد مع الله تعالى شيئاً فليتبّع معبوده ، ثم تذهب بهم هذه المعبودات إلى جهنم ، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴾

^١ انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق

^٢ كما في صحيح البخاري كتاب التوحيد وانظر عمدة القاري ١٨ \ ١٧٢

^٣ كما في صحيح البخاري كتاب مواقيت الصلاة

^٤ للبخاري أيضاً في صحيحه كتاب تفسير القرآن وانظر عمدة القاري ١٨ \ ١٧٢

^٥ كما في صحيح البخاري كتاب الأذان.

^٦ في كتاب الأذان.

فتتمثل لهم المعبودات التي عبدوها من دون الله تتمثل لهم بصور مثالية ويتبعونها إلى جهنم .

وجاء في رواية : [فينطلقون ، ويمثل لهم أشباه ما كانوا يعبدون ؛ فمنهم من ينطلق إلى الشمس ، ومنهم من ينطلق إلى القمر والأوثان من الحجارة وأشباه ما كانوا يعبدون] ^(١) يعني لا يدخل جهنم عين الشمس ولا عين القمر ، بل تُمثل لهم بحيث يرونها أنها هي الشمس التي كانوا يعبدونها في الدنيا وكذلك القمر ، لأن الشمس والقمر وسائر الكواكب والمخلوقات هي تؤمن بالله تعالى ، وتسبح الله تعالى على الدوام ، وتسجد له سبحانه ، قال سبحانه : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ ﴾ .. الآية .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم : [وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها] أي وتبقى هذه الأمة التي لم تشرك مع الله أحداً ويبقى فيها الدخلاء المنافقون الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، ولا بد عندئذ أن يميز الله تعالى المنافقين من المؤمنين ، فيجري الامتحان على عقائدهم الإيمانية ، وذلك بعد أن جرى عليهم الامتحان في أعمالهم الجسمانية ، وذلك لما أمروا بالسجود لله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ * خَشِعَةً أَبْصَرُهُمْ تَرَهِقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَلِيمُونَ ﴾ فقد أخبر سبحانه بهذه الآية عن موقف امتحان المكلفين بالسجود يوم القيامة ؛ وذلك أنه سبحانه يكشف عن نور عظيم ، يتجلى به على أهل الموقف ويدعوهم إلى السجود له تعالى .

^١ طرف حديث ذكره الحافظ المنذري في الترغيب في كتاب البعث وأهوال يوم القيامة وقال : رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم وقال : صحيح الإسناد . اهـ .

كما روى البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال : سمعت النبي ﷺ يقول :
[يَكْشِفُ رَبُّنَا عَنْ سَاقِهِ فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ، فَيَبْقَى كُلُّ مَنْ كَانَ
يَسْجُدُ فِي الدُّنْيَا رِيَاءً وَسُمْعَةً فَيَذْهَبُ لِيَسْجُدَ فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا] (١) .

وفي رواية مسلم : [فَيُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ فَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ لِلَّهِ مِنْ تِلْقَاءِ
نَفْسِهِ إِلَّا أَذِنَ اللَّهُ لَهُ بِالسُّجُودِ ، وَلَا يَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ اتِّقَاءً وَرِيَاءً (٢) إِلَّا
جَعَلَ اللَّهُ ظَهْرَهُ طَبَقَةً وَاحِدَةً كَلَّمَا أَرَادَ أَنْ يَسْجُدَ خَرَّ عَلَى قَفَاهُ] (٣)

والكشف عن الساق الوارد في الآية الكريمة وفي الحديث الشريف يفسره ما
رواه أبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وغيرهم عن أبي موسى رضي الله عنه
عن النبي ﷺ في قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ ﴾ قال :

[عن نور عظيم فَيَخِرُّونَ لَهُ سُجْدًا]^٤ .

وبعد أن يمتحن الله تعالى هذه الأمة - بمن فيها من منافقين - بعد أن
يتمحنهم في عقيدتهم الإيمانية القلبية يدعوهم إليه سبحانه أي إلى دار
ضيافته دار السلام ، وهي جنته سبحانه وتعالى التي أعدها للمتقين ، ولا بد
للوصول إليها من المرور على الصراط ، وهذا قوله ﷺ :

[فَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانِي جَهَنَّمَ]^(٥) .

^١ في صحيحه كتاب تفسير القرآن

^٢ أي خوفاً من الناس ونفاقاً

^٣ في صحيحه كتاب الإيمان

^٤ انظر الدر المنثور للحافظ السيوطي ١٠ \ ٨٠

^٥ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الأذان

والصراط والسرط بمعنى واحد^١ وهو الطريق الواسع الذي يتسع للمارين عليه، هذا الصراط - أي الطريق - الذي ينصب بين ظهراي جهنم ، هو في حقيقته صورة مثالية للدين والشريعة الإلهية التي هدى الله تعالى الناس إليها على السنة الرسل على نبينا وعليهم الصلاة والسلام ، وأمرنا أن ندعوه سبحانه للتوفيق للعمل بها فقال تعالى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ .

والهداية في الآية هي هداية البيان والدلالة ، وكذا قوله تعالى : ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ أي بيّنا له طريق الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ، وقال تعالى : ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ أي بينا له طريق الخير وطريق الشر .

أما هداية التوفيق التي أمرنا سبحانه أن ندعوه إليها فهي المشار إليها بقوله تعالى : ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ أي وفقنا يا رب للسير على الصراط المستقيم ، وهو صراط الشريعة التي جاءنا بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووفقنا للعمل بها كما وفقّت الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين .

ومن أراد أن يعرف كيف سيكون سيره على الصراط في الآخرة فلينظر الآن في نفسه وكيفية تمسكه بشريعة الله ودين الله جل وعلا .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم :

[ويضرب جسر جهنم ، فأكون أول من يجيز] .

وفي رواية للبخاري أيضاً : [فأكون أول من يجوز من الرسل بأمره] (٢) .

١ انظر لسان العرب مادة (سرط) ٣١٣١٧

٢ في صحيحه في كتاب الأذان .

ويقال في اللغة : جاز وأجاز الوادي إذا قطعه، جازه واجتازه بمعنى واحد ،
أي جاوزه بمعنى قطعه^١ .

وجاء في رواية للحديث^(٢) أنه يقال للمؤمنين قبل أن يجوزوا الصراط :

[ارفعوا رؤوسكم ، فيرفعون رؤوسهم ، فيعطيهم نورهم على قدر أعمالهم^(٣) ، فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين أيديهم ، ومنهم من يعطى نوره أصغر من ذلك ، ومنهم من يعطى مثل النخلة بيده ، ومنهم من يعطى أصغر من ذلك ، حتى يكون آخرهم رجلاً يعطى نوره على إبهام قدمه ، يضيء مرة ويطفأ مرة ، فإذا أضاء قَدَم قدمه ، وإذا طَفِئَ قام] .

وأما الكافر فلا إيمان عنده لذا فلا نور له يضيء على الصراط ، ولذلك يهوي في جهنم.

وأما المنافق الذي يخادع الله تعالى في الدنيا ويظهر للمؤمنين أنه مؤمن ويبطن الكفر فإن كلمة (لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم) التي قالها في الدنيا تضيء له على الصراط خطوة أو خطوات يسيرة ، ويظن في نفسه أنه سينجو بخداعه كما كان في الدنيا ، إلا أن الله تعالى يخادعه عقوبة على خداعه في الدنيا ، فيطفئ نوره ويظلم ما حوله ، فلا يستطيع السير على الصراط ، وينادي أهل الإيمان الذين يمشون أمامه ، يناديهم أن يتمهلوا ليستنير بنورهم ، ويسير على سيرهم ، إلا أنه لا استعداد عنده ليستنير بنور المؤمنين ، لأنه كافر منافق أعمى القلب ، لا يمكنه أن يهتدي بنور غيره ، ولا يستطيع بخداعه وكذبه أن ينجو ، لأن الدار الآخرة دار تحق فيها الحقائق ، وتظهر فيها الدقائق ، وتبلى السرائر ، ولذلك وصفها سبحانه بقوله : ﴿ الْحَاقَّةُ * مَا الْحَاقَّةُ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴾ .

١ انظر لسان العرب ١٥ ٣٢٦

٢ طرف حديث ذكره الحافظ المنذري في الترغيب في كتاب البعث وأهوال يوم القيامة وقال : رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والحاكم وقال : صحيح الإسناد . اهـ .

٣ أي أنهم يمشون على الصراط مستنيرين بنور إيمانهم وأعمالهم .

وقال سبحانه في بيان قوة أنوار المؤمنين على الصراط : ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَانِكُمْ أَلْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَنَفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ أي ارجعوا إلى الدنيا واسعوا في تحصيل النور ، بأن تؤمنوا بالله تعالى حقاً ، وتعملوا صالحاً ، وأنى لهم ذلك ؟

وما هذا الجواب إلا من باب السخرية بهم والتهكم ، ثم ينتهي الأمر بهم إلى الدرك الأسفل من النار .

وقد أخبر سبحانه عن المؤمنين وهم يسرون على الصراط أنهم يدعون الله تعالى ويسألونه أن يُثِمَّ عليهم نورهم ، حتى يدخلوا الجنة بسلام ، وأن لا يؤاخذهم على ذنوبهم وصغائرهم ، فإن الموقف موقف تدقيق وحساب ، والأمر يحتاج إلى مغفرة الله تعالى ورحمته ، فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ .

وأما سرعة المؤمنین فی السیر علی الصراط فیکون ذلك علی حسب قوة إیمانهم وصلح أعمالهم ، فمنهم من یمشي كالبرق الخاطف فی سرعته ، ومنهم كالریح العاصفة ، ومنهم كالطیر السریع ، ومنهم من یمشي كشد الرجال ، ومنهم من یمشي زحفاً ، ومنهم من یوتق بعمله أي یهلك بسبب سوء أعماله فتخطفه الكلاب التي علی حافتي الصراط ؛ فقد جاء فی حدیث رواه الإمام مسلم عن حذیفة رضی الله عنه أن رسول الله صلی الله علیه وآله وسلم قال : [وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنَبَتِي الصَّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا فَيَمُرُّ أَوْلَكُمْ كَالْبَرْقِ ، قَالَ: قُلْتُ: بِأَيِّ أَنْتَ وَأُمِّي أَيُّ شَيْءٍ كَمَرَ الْبَرْقِ؟ قَالَ: أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْبَرْقِ كَيْفَ يَمُرُّ وَيَزِجُّ فِي طَرْفَةِ عَيْنٍ، ثُمَّ كَمَرَ الرِّيحَ، ثُمَّ كَمَرَ الطَّيْرَ وَشَدَّ الرَّجَالَ^١، تَجْرِي بِهِمْ أَعْمَالُهُمْ، وَنَبِيُّكُمْ قَائِمٌ عَلَى الصَّرَاطِ يَقُولُ: "رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ" ، حَتَّى تَعْجَزَ أَعْمَالُ الْعِبَادِ حَتَّى يَجِيءَ الرَّجُلُ فَلَا يَسْتَطِيعُ السَّيْرَ إِلَّا زَحْفًا.

قال: وَفِي حَافَتِي الصَّرَاطِ كَلَالِبُ مُعَلَّقَةٌ، مَأْمُورَةٌ بِأَخْذِ مَنْ أَمَرَتْ بِهِ، فَمَخْدُوشٌ نَاجٍ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ^(٢).

وقد جاء عنه صلى الله عليه وسلم في بيان عظمة تلك الكلاب أن الكلوب الواحد من هذه الكلاب ليخطف قوماً مثل ربيعة ومضمر ، ففي الحديث عن عبيد بن عمير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [الصَّراط على جهنم مثل حرف السيف، بجنبتيه الكلاب والحسك، فيركبه الناس فيختطفون، والذي نفسي بيده وإنه ليؤخذ بالكلوب الواحد أكثر من ربيعة ومضمر]^(٣).

١ وشدها: عدوها البالغ وجزيها . انظر شرح النووي صحيح الإمام مسلم ٧٢١٣
 ٢ في صحيحه في كتاب الإيمان. وجاء في مرقاة المفاتيح ٣٥٥١/٨: مكْدوسٌ في النار أي: جمعت يده ورجلاه وألقي فيها.

٣ قال الحافظ المنذري في الترغيب في كتاب البعث وأحوال يوم القيامة: رواه البيهقي مُرسلاً، وموقوفاً على عبيد بن عمير أيضاً.

وما هذه الكلاليب إلا المحرّمات والشهوات التي نهى الله تعالى عنها في الدنيا ، فمن أصاب شيئاً منها في الدنيا ، ومات ولم يتب ، فقد عرض نفسه لأن تخطفه الكلاليب الممتدة من جهنم إلى حافتي الصراط .

وإن توبة من وقع في ظلم غيره أن يعيد إليه حقه إن كان الحق مالياً ، أو يطلب منه العفو والصفح إن كان الحق أدبياً خُلُقياً ، كالغيبة والنميمة والقدح والسب والشتم والسخرية وغير ذلك .

وأخطأ من ظن أنه إذا حج بيت الله تعالى فقد غفرت له سائر ذنوبه ومنها المظالم التي تتعلق بعباد الله تعالى ، إذ يقال له :

هل استفاد من ظلمته أو بهته أو اغتبتته أو شتمته ، هل استفاد من حجك شيئاً ؟

وهل عفا عنك وسامحك ؟

نعم إنه لا يعفو عنك إلا إذا أديت له حقه إن كان مالياً ، أو سألته العفو والصفح إن كان حقه عليك في الأعراس .

وإن من مات ولم يتب - ولأحد عنده مظلمة - فإنه سيأخذ من حسناته ، حتى إذا فنيت حسناته ولم يقضى ما عليه أخذ من سيئات هؤلاء الذين يطالبونه بحق وطرحت عليه ثم طرح في النار ، لأن التقاضي يوم القيامة بين العباد بالحسنات والسيئات لا بالدراهم والدنانير كما هو شأن الدنيا ،

وقد قال صلى الله عليه وآله وسلم:

[أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ.

فَقَالَ: إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَرَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أَخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ] (١).

^١ رواه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه في صحيحه في كتاب البر والصلة.

وإن الوقوع في أعراض الناس - من ذم وقبح وشتم وغير ذلك - أشد وقعاً وأثراً على نفس أحدهم من ذهاب شيء من ماله ، لأن من أكل شيئاً من مال غيره فقد يعفو عنه يوماً ما ، ويفوض أمره إلى الله تعالى ويعوضه الله تعالى ، أما من اغتاب غيره وذمه وشتمه فقد طعن في ذاته وانتقص من كرامته فتراه يغضب ولا يعفو إلا بصعوبة .

وإن الإنسان في الدنيا إنما يمشي على صراط شريعة الله تعالى ، فليكن في سيره متبعاً للإمام الأعظم صلى الله عليه وآله وسلم ، وليجتنب المحرمات والوقوع في الشهوات ، وليسأل ربه الثبات والسلامة ، حتى إذا صار في الآخرة ومشى على الصراط نال دعوة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: [اللهم سلّم سلّم] أي سلّم أتباعنا^١ .

وفي الحديث الذي رواه الترمذي عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [شِعَارُ الْمُؤْمِنِ عَلَى الصِّرَاطِ: " رَبِّ سَلِّمْ سَلِّمْ "]^(٢) أي أنهم يؤمنون على دعاء الرسل لهم: [اللهم سلّم سلّم] .

قوله صلى الله عليه وآله وسلم : [ومنهم المُخَرَّدَلُ ، ثم ينجو] أي يُصرع بسبب ذنوبه ثم يفيق وهكذا حتى يقطع الصراط^٣ .

وقد جاء أن في الصراط قناطر^٤ - أي محطات - تقف عندها العباد للسؤال والمحاسبة، فهناك قنطرة الصلاة وقنطرة الزكاة والصيام، وآخر القناطر قنطرة مظالم العباد ، ولا يقتحم أحد قنطرة على الصراط إلا إذا اقتحمها في الدنيا وقام بحقها .

١ انظر كتاب فتح الباري ١١١ \ ٤٥٢

٢ سنن الترمذي في كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

٣ انظر عمدة القاري ٢٣ \ ١٣٤

٤ ارجع إلى ما ذكره الشيخ الإمام في كتابه (الإيمان بعوالم الآخرة) في مبحث (قناطر الصراط) تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى .

فقد روى البخاري (١) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْظَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضِ مَظَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا].

وهذا بيان قوله تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ فلا يتعب أحد من أهل الجنة في معرفة منزله ، ولا يمكن لأحد أن يدخل منزل غيره ، لأن لكل واحد من أهل الجنة منزلة ونعيماً على حسب إيمانه وأعماله .

قوله صلى الله عليه وسلم : [حَتَّى إِذَا هُدُّبُوا وَنُقُّوا] يدل على أنه لا يدخل الجنة إلا المهدَّب النقي الذي لا غبار عليه ولا شائبة تشوبه ، بل صفته الطهارة والصفاء والنقاء ، وقد قال صلى الله عليه وسلم:

[لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ] (٢) أي حتى يتطهر من تلك الصفة التي تمنعه من دخول الجنة، ويتهدب ويطيب.

ونسأل الله تعالى أن يطهر قلوبنا وأنفسنا ويزكيها بالتزكية المحمدية التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. آمين

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين.

١ كما في كتاب الرقاق.

٢ رواه الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في صحيحه في كتاب الإيمان.

المحاضرة السابعة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إنك أنت العليم الحكيم .

أما بعد : بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب التواضع

ثم روى بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [إن الله قال : مَنْ عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب ، وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه ، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يمشي بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه] . اهـ

لقد روى الإمام البخاري رضي الله عنه هذا الحديث في كتاب الرقاق الذي ذكر فيه أحاديث ترفق القلوب القاسية وتنبهها من غفلتها .

ويسمى هذا الحديث (حديث الأولياء) و (حديث التقرب إلى الله تعالى) ، لأن فيه بيان طرق التقرب إلى الله تعالى ، وبيان مراتب التقرب من الله تعالى ..

وفي هذا الحديث القدسي يعلن الله تعالى فضل أوليائه وغيرته عليهم ونصرته لهم ، فمن هو ولي الله تعالى ؟

اعلم أن أولياء الله تعالى على مرتبتين :

فهناك الولاية العامة ، وهناك الولاية الخاصة .

فكل مؤمن تحقّق بالإيمان الكامل فهو ولي من أولياء الله جل وعلا ،
وهذه هي الولاية العامة ، وهذا قوله تعالى : ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

أي : أن هناك بين كل مؤمن وبين ربه محبة ومناصرة ، فالمؤمن ينصر دين
الله ، والله ينصره وهكذا .

وهناك الولي الذي تقرب إلى الله تعالى بالقربات والنوافل ، وهو المراد من
كلمة (الولي) عند إطلاقها ، وهذه هي الولاية الخاصة .

وكلمة (الولي) مأخوذة من الولاء وهي المحبة والنصرة ، فيقال : بين فلان
وفلان ولاء : أي محبة ، ويقال : بين فلان وفلان ولاء : أي نصرة .

وهي أيضاً تعني معنى القرب ، مأخوذة من : الولي ، فيقال : بين فلان وفلان
ولاء أي : قرب .

فالولي من تحقّق بثلاثة أمور : محبة لله تعالى ونصرة لدين الله تعالى
وتقرب إلى الله تعالى .

وكلمة (ولي) على وزن (فعيل) ، ويصلح فيه أن يكون فاعلاً ومفعولاً كما
هو في قواعد اللغة العربية .

فولي الله : أي : محب لله ومحبوب من الله تعالى ، وولي الله : أي : ناصر
لدين الله تعالى ومنصور من الله تعالى ، وأول ذلك أن ينصر الله تعالى على
نفسه فيتمسك بدينه كما قال تعالى : ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ .

و (ولي الله تعالى) بمعنى أنه متقرب إلى الله تعالى ، والكلمة مأخوذة من
(الولي) كما تقول في اللغة : فلان يلي فلاناً ، أي : يقرب منه ، فالولي إذاً
محب ومحبوب ، وناصر ومنصور ، ومتقرب إلى الله تعالى ومقرب من الله
تعالى .

والحديث المتقدم جاء في بيان معاني الولاية الخاصة .

وقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم الولاية العامة لجميع المؤمنين الصادقين
، والولاية الخاصة للمقربين إليه .

قال سبحانه في بيان الولاية العامة :

﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾..

وقال جل وعلا في بيان الولاية الخاصة :

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ البُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ .

وقد افتتح سبحانه الآية بقوله : ﴿أَلَا﴾ وهي للتنبيه حتى يلفت أفكار العقلاء إلى أمر عظيم ، وأن هؤلاء الأولياء لهم شأنهم الكبير عند الله تعالى .
وأما صفة أولياء الله تعالى فقال سبحانه : ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ أي : آمنوا إيماناً صادقاً كاملاً .

وعندما يصف القرآن الكريم أناساً بالإيمان فيعني : الإيمان الكامل الصادق الجامع .

قوله تعالى : ﴿وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ أي : فهم على تقوى الله تعالى حيث كانوا ومتى كانوا .

فقد جيء بكلمة ﴿كَانُوا﴾ حتى يبين أن أكوانهم كلها في التقوى ، لا أنهم اتقوا الله في الجامع مثلاً ولما خرجوا إلى الشارع تفلتوا من التقوى ، فصفة التقوى ملازمة للولي في جميع أحواله .

قوله تعالى : ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾

أما البشرى في الحياة الدنيا فقد بينها رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عنها فقال :

[هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو تُرى له]^١.

فتأتيهم البشائر من الله تعالى عن طريق عالم المنام بالرؤيا الصادقة ، وقد قال صلى الله عليه وسلم :

[ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة]^٢

وما كان من النبوة فإنه لا يكذب ..

فرؤيا المؤمن في منامه هي رؤيا صادقة لها اعتبارها ، ويترتب عليها أحكام . وقد ذكر سبحانه في القرآن الكريم ما يدل على شأن الرؤيا الصادقة واعتبارها في شرع الله تعالى وذلك لما أخبر عن قصة يوسف عليه السلام، وأما الرؤيا المختلطة فهي أضغاث أحلام أو تلاعب شيطان، ولها أحكام وآداب يتحتم فعلها على من رآها^٣.

ومهما رأى الإنسان في منامه من أمور فليتفاءل خيراً ، وليترك الوسواس جانباً وليكن تعبيره لها خيراً .

وقد تأتي البشائر من الله تعالى لأهل صفاء القلوب عن طريق الإلهامات القلبية الملكية من عالم الغيب .

وفي هذا يقول الله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا
وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾

^١المسند ٢٦٢٧٦ وسنن الترمذي كتاب الرؤيا

^٢ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التعبير

^٣ انظر بحث آداب الرؤيا في آخر كتاب (الدعاء) لشيخنا الإمام رضي الله عنه

وأما البشائر في الآخرة فتبدأ من الموت ، فتأتيهم الملائكة وتبشّرهم بالأمان والجنان ، وما أحوج الإنسان إلى البشائر في وقت الضيق والهَمّ والغَمّ !!
قوله تعالى :

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾

أي: وهذه من كلمات الله تعالى التي لا تتبدل ، فالأمر محكم نافذ لا يتبدل.
وقوله تعالى في الحديث القدسي :

[من عادى لي ولياً] يعني المؤمن الكامل أهل الولاية الخاصة .

[فقد آذنته بالحرب] ويكون المعنى : من عادى مؤمناً كاملاً محباً لله تعالى ناصرًا لدين الله متقرباً إلى الله بالتقوى، من عادى هذا الولي فقد عادى الله تعالى ، ومن عادى الله تعالى أعلن الله عليه الحرب .

وقوله سبحانه: [آذنته] ^١ أي أعلمته، يعني : فليعلم كل إنسان أن من كره أولياء الله تعالى أو أبغضهم أو عاداهم فقد أبغض الله تعالى وعادى الله تعالى، وليعلم أن الله تعالى قد أعلمه بالحرب ..

ومن أحب أولياء الله تعالى لأنهم مؤمنون، ولأنهم على تقوى لله تعالى ومحبة له فقد أحب الله تعالى ، لأن الله تعالى يحب أولياءه وينصرهم .
ولو أن الإنسان تفكر في قوله صلى الله عليه وسلم :

[آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار] ^٢ لاهتدى إلى أن حب أولياء الله تعالى دليل على محبة الله جل وعلا، وبغض أولياء الله دليل على النفاق ومرض القلب وعدم محبة الله تعالى .

^١ ومنه الأذان : وهو الإعلام بدخول وقت الصلاة .. والأذن هو الذي يبلغ غيره ما أريد منه ، ومنه قوله تعالى : ﴿فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ أي: ناداهم وأعلمهم .

^٢ صحيح البخاري كتاب الإيمان

فقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم حب الأنصار علامة على الإيمان الكامل الصحيح ، وذلك لأن الأنصار أحباب الله وأنصار الله ، نصرُوا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وإن من أبغض أولياء الله تعالى أو عادى أحداً منهم فقد أعلمه الله بالحرب ، ومن حاربه الله خسر الدنيا والآخرة ، نسأل الله العافية .

وبعد أن ذكر سبحانه منزلة أوليائه عنده وكرامتهم عليه وغيرته عليهم ، ذكر بعد ذلك سبحانه طريق الولاية وهو الطريق الذي يجعل المؤمن - إن هو سار عليه - يجعله ولياً لله تعالى فيكون من الذين يحبهم الله تعالى وينصرهم ويدافع عنهم ، ويعادي ويحارب من عاداهم، فقال سبحانه في الحديث القدسي :

[وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إليّ مما افترضته عليه] .

فلما كانت الولاية محبة لله وتقرباً منه ونصرة لدينه جل وعلا كان طريق التحقق بذلك أولاً هو التقرب إلى الله سبحانه بالفرائض ، فأول طريق القرب من الله تعالى هو القيام بما افترضه الله على عباده .

والفرائض التي فرضها الله تعالى على عباده المؤمنين كثيرة متعددة :

منها ما هو بين العبد وربّه وأولها الصلاة والصيام والزكاة والحج، ومنها ما هو مع خلق الله تعالى كصلة الرحم والتزام ما أحلّ الله تعالى في البيع والشراء وسائر المعاملات ، وأداء الحقوق والواجبات ، إذ إنها فرائض وليست مستحبات .

ومن زعم أنه يحج بيت الله الحرام كل سنة ويغسل ما ارتكبه من ذنوب خلال سنته كلها، فيقال له : إن صحّ حجك وكان خالصاً لله تعالى - لأن الرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

[من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه ^١]

^١ صحيح البخاري كتاب الحج

إذا تحققت بذلك فإن الله تعالى يغفر ذنوبك التي بينك وبينه سبحانه،
أما حقوق العباد والمظالم فلا بد أن تؤدّي إلى أهلها ، أو أن يعفو صاحب
الحق عن حقه، فلا تبرّر أيها العاقل لنفسك ارتكاب المخالفات والوقوع في
أعراض الناس ومظالم العباد بأن ذلك كله سيغفره الله لك في حجك !!

وتفكّر في قول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة الكرام رضي
الله عنهم : [أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا يا رسول الله من لا
درهم له ولا متاع، قال صلى الله عليه وسلم: المفلس من أمتي من يأتي يوم
القيامة بصلاته وصيامه وزكاته ، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا ، وأكل مال
هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيقعد ، فيقتصّ هذا من حسناته ،
وهذا من حسناته ، فإن فنيت حسناته قبل أن يقبض ما عليه من الخطايا
أخذ من خطاياهم فطرح عليه ثم طرح في النار]^١.

ومما تقدم يتبين لك أن أحب القربات إلى الله تعالى هو التقرب إليه سبحانه
بأداء الفرائض كلها كالبنيان المرصوص المتكامل ، لا أن تؤدي فريضة
وتهمل أخرى وهكذا..

وقوله تعالى في الحديث القدسي :

[وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه].

وفي هذا يذكر سبحانه مرتبة قُربِ النوافل ، وهي بَعْدَ القيام بالفرائض على
الوجه الأكمل .

والنوافل جمع (نافلة) وهي في لغة العرب تعني : الزيادة، فالفرض هو
الأصل والأساس ، ثم تأتي النوافل كزيادة^٢ على الفرائض ، ولا يرتقي إلى مقام
قرب النوافل إلا من تحقق بمقام قرب الفرائض بأن قام بها وأتمّها، ثم راح
يزيد في النوافل وأعطاهما حقها حتى يقال : إنه عَبَدَ الله تعالى بالنوافل .

^١ صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب وسنن الترمذي كتاب صفة القيامة

والرقائق والورع والرواية له

^٢ وكل شيء زدته للآخر يقال : أعطيته نافلة

وإن مقام قرب النوافل مقام كبير قلّ من يحصل عليه ، لأن كل مقام يتحقق به الإنسان فإنه يعطيه خصائص...، فمقام قرب الفرائض يجعل في صاحبه حباً لله تعالى ، بحيث إنه لو فاته شيء من الفرائض أو مُنِع من أداء فرضه فيجد من الحسرة والألم كأنه سُلِخ جلده ومزّقت عظامه؛ بسبب حبه الصادق لله تعالى وحبه لعبادة الله تعالى وولعه وتعشقه بها ، وكأن العبادة صارت جزءاً منه ، فإن فاته شيء منها فكأنما نقص شيء من جسمه .

ثم ينتقل المؤمن العابد إلى مقام قرب النوافل فيصير محبوباً بعد أن كان مُحباً ، وهذا قوله سبحانه في الحديث القدسي :

[ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه] .

أي : فصار محباً لله تعالى محبوباً من قِبَل الله تعالى .

واعلم أن المحبة ليست بالدعوى وإنما المحبة تحقق ، ولها شواهد صدق تدل على ثبوتها عند من ادعى المحبة، ألا ترى أنك لما تحب ابنك تكرمه وتسال عنه وتعتني به وتجيّب طلباته؟! .

ومن ادعى محبة غيره اشتاق لرؤيته، وسعى لزيارته والجلوس معه، وبَدَل جهده في إكرامه وفرح لفرحه وحزن لما يحزنه وهكذا.. فإذا كان هذا كله فيما بين الخلق، فما بالك بمحبة الله رب العالمين؟! - والله المثل الأعلى -

نعم إن محبة الله تعالى توجب على المحب أموراً يتحقق بها :

أولها: التحقق بمقام قرب الفرائض بأن يؤدي ما افترضه الله عليه على وجه تام غير منقوص .

ومن تحقق بذلك صار محباً لله تعالى صادقاً ، يرضى بما يرضي الله تعالى من أعمال وأقوال، وهذا هو الأساس الذي يُبنى عليه قرب النوافل .

وأهل النوافل على مراتب، وبذلك ينال المؤمن العابد محبة الله الخاصة له - وإن كان المؤمنون كلهم محبوبين عند الله تعالى بالمحبة العامة .

وَمَنْ نَالَ مَقَامَ قَرَبِ النُّوَافِلِ وَنَالَ مَحَبَّةَ اللَّهِ الْخَاصَّةَ لَهُ فَلَا بَدَّ لَهُ أَنْ يُعْطَى خِصَائِصَ هَذَا الْمَقَامِ، وَهَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيِّ الْمَتَّقِمِ : [فَإِذَا أَحْبَبْتَهُ كُنْتَ سَمِعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ..] .

وقد يزعم عابد أنه بلغ مقام قرب النوافل وذلك حسب الظاهر أنه يؤدي فرائضه كاملة ويزيد عليها بالنوافل كقيام الليل مثلاً وصلاة السنن وصيام أيام غير رمضان وهكذا فلم لم تظهر عليه خصائص وآثار مقام قرب النوافل وهي قوله جل وعلا في الحديث القدسي : [كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به] ؟

فيقال : إن هذا يعني أن النوافل التي تقوم بها ليست زيادة على فرائضك، بل هي تجبر نقص الفرائض التي تؤديها، وقد يكون هذا النقص ليس في الكَمِّ والعدد ولكن في الكيف، فهل أنت في صلاتك حاضر بقلبك مع الله تعالى خاشع له؟

وهل تؤدي صلواتك بأدابها وسننها على الوجه الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

وهكذا سائر عباداتك وقرباتك فتأتي النوافل لتجبر هذا النقص في الفرائض، ولا يسمى أحدٌ: (صاحب نوافل) إلا إذا كانت فرائضه كاملة تامة لا تحتاج إلى جبر وتكميل .

وقد أشار إلى هذا المعنى رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث :

[إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ عَمَلِهِ صَلَاتُهُ، فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ، وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ، فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: انظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ؟

فَيَكْمَلُ بِهَا مَا انْتَقَصَ مِنَ الْفَرِيضَةِ، ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى ذَلِكَ]¹.

¹ سنن الترمذي والنسائي كلاهما في كتاب الصلاة

ومن جهة أخرى فإن النقص في الفرائض قد يكون في تخلُّها شوائب الرياء، وعدم الصدق والإخلاص فيها مع الله تعالى فتأتي النوافل لتجبر نقص الفرائض وتكملها .

ومن هذا يعلم العاقل مدى حاجته إلى النوافل وعدم تركها ولو أن نوافله جاءت يوم القيامة وسدت نقص فرائضه لكان ذلك فضلاً كبيراً من الله تعالى عليه .

وإن من كَمُلَ له مقام الفرائض أي: أدى الفرائض كلها تامة فإن الجنة مضمونة له بدليل ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم لما سأله الأعرابي عن أركان الإسلام ثم قال للنبي ﷺ : [وَالَّذِي أَكْرَمَكَ لَا أَتَطَوُّعُ شَيْئًا وَلَا أَنْقُصُ مِمَّا فَرَضَ اللَّهُ عَلَيَّ شَيْئًا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ إِنْ صَدَقَ]¹.

وإن أصحاب مقام قرب الفرائض هم المقتصدون، وهم الأبرار، وهم أصحاب اليمين، وقد وصفهم الله تعالى بهذه الصفات في القرآن الكريم.

والأبرار جمع بَرٍّ ، وهو الذي جمع وتحقق بأنواع البرِّ الإيماني كلها وهي الشعب الإيمانية المتنوعة، وذلك لأن البرِّ هو الخير الكثير المتنوع، ولما كان الإيمان لا يتأتى منه إلا الخير فقد يطلق عليه الخير كما في الحديث:

[إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَيْرٍ فَأُخْرِجُوهُ مِنَ النَّارِ]² الحديث

¹ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الصوم .

وقال الحافظ ابن رجب الحنبلي في جوامع العلوم والحكم ٦١٢٣ :

(ومراد الأعرابي أنه لا يزيد على الصلاة المكتوبة ، والزكاة المفروضة ، وصيام رمضان ، وحج البيت شيئاً من التطوع ، ليس مراده أنه لا يعمل بشيء من شرائع الإسلام وواجباته غير ذلك ، وهذه الأحاديث لم يذكر فيها اجتناب المحرمات ؛ لأنَّ السائل إنما سأل عن الأعمال التي يدخل بها عاملها الجنة) .

² انظر مسند أبي يعلى الموصلي واللفظ له والسنن الكبرى للبيهقي

وقوله ﷺ : [مِنْ خَيْرٍ] أي : من إيمان ، بدليل ما جاء في رواية :
[إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ ، يَقُولُ اللَّهُ : مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ
مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرَجُوهُ]^١ ... الحديث
فالمقصد والبرّ هو الذي تحقق بمقام قرب الفرائض فأتى بها كاملة غير
ناقصة .

وقال تعالى في بيان أن الإيمان هو البر بأنواعه : ﴿ وَالَّذِينَ أَلْبَسُوا مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَعَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى
وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَعَآتَى
الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ
أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ الآية .

وأما من كملت له فرائضه وزاد عليها بالنوافل فقد التحق بالمقربين
السابقين كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ .
وهم أهل مقام قرب النوافل .

وقد ذكر سبحانه أصناف عباده المؤمنين من حيث موقفهم من القربات
والطاعات فقال تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ -
وهم أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ
مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴾ .

اللهم إنا نسألك من فضلك العظيم أن تلحقنا بهم يا رب العالمين . آمين

^١ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الإيمان

ولما سأل معاذ بن جبل رضي الله عنه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: [يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي عَنِ النَّارِ. قَالَ ﷺ : لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسِيرٌ عَلَيَّ مَنْ يَسَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ] - وهذا مقام قرب الفرائض

[ثُمَّ قَالَ ﷺ : أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟] - وينبئه ﷺ بذلك إلى مقام قرب النوافل- [الصَّوْمُ جُنَّةٌ] - أي : وقاية للصائم عن المعاصي- [وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ]^١.... الحديث

فالخيرات الواردة في قوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

بينها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله لمعاذ رضي الله عنه:
[أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟] .

وقوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقُ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ - أي : بتوفيق الله وعونه لا بمهارة العبد وفضائله، فالفضل أولاً وآخرأ لله تعالى .

وانظر في قوله جل وعلا : ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ وقوله عز من قائل : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فالفضل أولاً من الله تعالى عليهم بالمحبة والرضا، وكان هذا سبباً يحملهم على فعل ما يقربهم إلى الله تعالى ، ويحبونه جل وعلا ، ويكونون راضين عن قضائه وأحكامه وشرعه سبحانه ، مطمئنة نفوسهم لذلك، فلما تحققوا بذلك نالوا محبة الله الخاصة لهم ورضا الله عنهم .

^١ انظر سنن الترمذي كتاب الإيمان واللفظ له وسنن ابن ماجه كتاب الفتن

وقوله تعالى : ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ .

يعني : السابقون غيرهم في الدنيا بفعل النوافل هم السابقون غيرهم إلى المراتب العالية وإلى جنة رب العالمين، وأولئك هم المقربون قرباً خاصاً، لا غيرهم من أهل الدعوى .

واعلم أن مقام المقربين في نعيم الجنة أعظم من مقام الأبرار الذين هم دونهم في الرتبة والفضل والمقام، وقد ذكر ذلك سبحانه في عدة مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ * تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ * يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ * خِتْمُهُ مِسْكَ * وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ * وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ * عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾ .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ * عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ - وهي جمع أريكة يعني السرير ﴿يَنْظُرُونَ﴾ - أي ينظرون إلى نضار الجنة ونعيمها وإلى كل ما يتمتع به الإنسان بنظره إليه .

﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ﴾ - أي : فالناظر إليهم يرى في وجوههم أثر النعيم والرفاهية .

﴿يُسْقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ﴾ - أي من خمرة الجنة التي تعطي شاربها قوة وصحواً ونشاطاً - بخلاف خمرة الدنيا - وعلى كل إناء اسم صاحبه قد ختم عليه وهو مختوم بمسك الجنة .

﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ - أي : من أراد المنافسة وكانت همته للمنافسة قوية فليبذل النفس والنفس لينال ذلك النعيم .

وأما بذل النفس والنفس من أجل حطام الدنيا وأموالها المتروكة الفانية فهذا ليس من صفة العقلاء أولى الألباب .

والمنافسة هي بذل النفس والنفيس، فنفس الإنسان كريمة عزيزة على صاحبها، وعنده من النفيس ما وهبه الله له كالسمع والبصر والقوة والفكر والنشاط .

وإن شأن العاقل الفطن أن يبذل ما عنده من نفس ونفيس فيما هو ينفعه في المآل وهو ما بعد الموت .

قوله تعالى : ﴿ وَمِزَاجُهُ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴾ أي : يُمزج الرحيق المختوم -الذي يقدم للأبرار- يمزج بشيء من عين التسنيم التي تتسنى من جانب العرش، وهذه التسنيم هي عين يشرب بها المقربون صرفة خالصة دون مزج وذلك لقوة استعدادهم وفضلهم .

وقوله تعالى : ﴿ يَشْرَبُ بِهَا ﴾ فيه تضمين لمعنى فعل آخر أي : يشرب منها ويرتوي بها تمام الري، لا أن أحدهم يشرب ولا يرتوي ، بل يشرب حتى يرتوي ويمتلئ بها .

واعلم أن لكل طعام ولكل شراب في الجنة خصائص وآثاراً تظهر على الآكل أو الشارب كما أن هذا أمر مشهود معلوم في مآكل الدنيا ومشاربها، فلكل طعام خصائصه وآثاره ومنافعه للجسم وكذا لكل شراب، ولا يستغني الإنسان عنها ليتوازن غذاؤه ويصح جسمه .

أما خصائص الأطعمة والأشربة في الجنة فهي تُكسب الآكل أو الشارب العلوم والمعارف الإلهية، ويجدون فيها لذة ونعيماً في أرواحهم ومداركهم كلها، وهي تُعدهم وتُمددهم لتلقي الفيوضات الإلهية عليهم بالأنوار والأسرار وما هنالك من المشاهدات والتجليات .

وليست حياة أجسام أهل الجنة متوقفة على الأكل والشرب كما هو حال أهل الدنيا ، بل هم يأكلون ويشربون على سبيل التلذذ والنعيم والترقي الدائم المستمر إذ إنهم لما دخلوا الجنة قيل لهم ما جاء في الحديث الشريف :

[إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشَبُّوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنَعَمُوا فَلَا تَبْأَسُوا أَبَدًا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾^١

وقد أكرم الله تعالى المقرَّبين - وهم الذين سبقوا غيرهم بالنوافل - أكرمهم بخوارق العادات - العادات التي اعتاد عليها غيرهم - وتسمى هذه الخوارق (كرامات) أي : أموراً يكرمهم الله تعالى بها فتخرق لهم العادات المألوفة، وهذا معنى قوله تعالى في الحديث القدسي المتقدم: [فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ...] الحديث ، أي : يعطيه الله تعالى قوة في سمعه، وقوة في بصره، وقوة في مداركه، فيسمع ما لا يسمع غيره، ويرى ما لا يرى غيره وهكذا .

فمن ذلك ما كشف الله تعالى لسيد التابعين في زمانه سعيد بن المسيَّب رحمه الله تعالى ورضي عنه كشف له عن سماع الأذان من قبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أيام الحرّة لما التزم المسجد النبوي فكان يعرف وقت الصلاة بأذان يسمعه من ضريح رسول الله صلى الله عليه وسلم^٢.

وقوله جل وعلا في الحديث القدسي:

[ولئن سألتني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه] .

أي يعطيه الله تعالى سؤاله ولو كان الأمر غير معتاد عند غيره.

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها
^٢ جاء في مقدمة سنن الدارمي أنه لما كان أيام الحرّة - أي: أيام فتنة يزيد - لم يُؤدَّن في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم ثلاثاً ولم يُقَم - أي: لم يقيم فيه الصلاة - ، ولم يبرح سعيد بن المسيب رضي الله عنه من المسجد ، وكان لا يعرف وقت الصلاة إلا بهمهمّة يسمعه من قبر النبي صلى الله عليه وسلم.

ولما أسر المشركون خبيب بن عدي رضي الله عنه - وهو من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم- أسروه ليقتلوه وأوثقوه ومنعوا عنه الطعام والشراب فوجد يوماً يأكل من قطف عنب في يده، وإنه لموثق في الحديد، وما بمكة من ثمر^١.

ومردُّ ذلك إلى قوله تعالى في الحديث القدسي المتقدم: [ولئن سألتني لأعطينه].

ولا ترتب في ذلك أو تشكك في فهمه فإن الذي قدر على إخراج العنب من كرمه لهو قادر على أن يخلقه متى شاء وكيف شاء جل وعلا ، والأمر كله لله سبحانه .

وقال التابعي الجليل إبراهيم التيمي^٢ - وهو عالم كبير محدث ورع تقي زاهد - قال رضي الله عنه : (مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكْذَبًا)^٣ وهذا لشدة تواضعه وورعه.

^١ انظر صحيح البخاري كتاب الجهاد والسير

^٢ هو سيدي إبراهيم بن يزيد التيمي الإمام القدوة الفقيه عابد الكوفة، وكان أبوه يزيد من أئمة الكوفة أيضاً.

كان شاباً صالحاً قانتاً لله تعالى، عالماً فقيهاً كبير القدر واعظاً، توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة أربع وتسعين للهجرة النبوية الشريفة ولم يبلغ أربعين سنة.

انظر سير أعلام النبلاء ٦٠١٥

^٣ انظر صحيح البخاري كتاب الإيمان ، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح ١٧٦١ :

يروى (مكذباً) بفتح الذال، يعني إبراهيم بذلك: خشيت أن يكذبني من رأى عملي مخالفاً لقولي فيقول: لو كنت صادقاً فعلت خلاف ما تقول ، وإنما قال ذلك لأنه كان يعظ الناس - أي: فكان يخاف أن يكون واعظاً وليس متعظاً بما يقول.

ويروى بكسر الذال وهي رواية الأكثر (مكذباً) .

ومعناه: أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل، وقد ذم الله تعالى من أمر

بالمعروف ونهى عن المنكر وقصر في العمل فقال سبحانه: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قال: فخشي أن يكون مكذباً أي: مشابهاً للمكذابين. اهـ.

وقد ضاق الأمر على عياله يوماً وطلبوا منه أن يأتيهم بالبر - أي الحنطة - وأعطوه كيساً ليخرج ويشترى به وليس معه درهم ، فمر في طريقه على أرض فيها رمل أحمر فملاً الكيس رملاً منها وقال في نفسه : (أضعه جانب الباب ويخيل إلى أهلي أنه بر فربما أخروا خبزه إلى اليوم التالي) .

فوضع الكيس ومضى فجاءت زوجته وفتحت الكيس فرأت فيه برأً دقيقاً منخولاً جاهزاً للعجين والخبز فهيات الخبز فلما عاد إبراهيم بعد العشاء رأى الخبز فسألهم فقالت له زوجته: هذا من الدقيق الذي أتيت به أنت !^١

ولما هرب الحسن البصري^٢ رحمه الله تعالى ورضي عنه من الحجاج دخل إلى بيت حبيب ابن محمد^٣ رحمه الله تعالى ورضي عنه فقال له حبيب: يا أبا سعيد: أليس بينك وبين ربك ما تدعوه به فيسترك من هؤلاء؟ - أي: بحيث لا يرونك - ادخل البيت.

فدخل ودخل الشُّرط على إثره - ليقبضوا عليه - فلم يروه فذكر ذلك للحجاج فقال: بل كان في البيت إلا أن الله تعالى طمس على أعينهم فلم يروه^٤.

فمرّد ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي المتقدم: [ولئن استعاذني لأعيذنه] حتى يئس الحجاج منه وتركه .

^١ جاء في كتاب إكمال تهذيب الكمال ٣١٢١١ :

وقال الأعمش : خرج إبراهيم -رحمه الله تعالى ورضي عنه - يمتار فلم يقدر على الطعام، فرأى سهلة حمراء فأخذها ثم رجع إلى أهله، فقالوا: ما هذا؟ قال: هذه حنطة حمراء. فكان إذا زرع منها شيئاً خرج سنبله من أصله إلى فرعه حباً متراكباً.

^٢ هو سيدي الحسن بن أبي الحسن يسار، أبو سعيد، كان جامعاً، عالماً، رفيعاً، فقيهاً، ثقةً، حجةً، مأموناً، عابداً، ناسكاً، كثير العلم، فصيحاً، مليح الصورة، بهياً، وكان من الشجعان الموصوفين. اه انظر سير أعلام النبلاء ٥٦٥١٤

^٣ هو سيدي حبيب بن محمد العجمي، أبو محمد البصري، أحد الزهاد المشهورين الموصوفين بالزهد والورع والكرامات واستجابة الدعاء. انظر تهذيب الكمال ١٥

٣٨٩

^٤ انظر (جامع العلوم والحكم) للحافظ ابن رجب الحنبلي ١٧١٢٠

ومن ذلك أيضاً ما جرى لأبي مسلم الخولاني رضي الله عنه لما أراد الأسود العنسي أن يحرقه بالنار فلم تضره^١.

وهكذا يكرم الله تعالى أحبابه الصادقين بمكرمات وخوارق عادات حسب ما يقتضيه الحال الذي هم فيه .

ولقد كان أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل كرامات كثيرة واسعة أكرمهم الله تعالى بها بسبب اتباعهم الصادق لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ إن كل كرامة لولي هي معجزة لنبيه تدل على صدقه، لأن الولي ما نالها إلا باتباعه لنبيه.

ولم يكن أصحاب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يتظاهرون بالكرامات وخوارق العادات، بل كانوا يؤثرون الخفاء وعدم الظهور خوفاً من شوائب الرياء والسمعة، وقد شهد لهم سبحانه بالصدق والإخلاص، وأجرى على أيديهم خوارق عادات كثيرة، وأكرمهم بمكرمات عديدة حسب ما يقتضيه الحال، قال تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ .

وقال جل وعز: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ .

ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتباع سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأعمال والأخلاق والآداب .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين .

^١ انظر تفاصيل ذلك في كتاب : (التقرب إلى الله تعالى) لمولانا الشيخ الإمام رضي الله عنه في مبحث : (ذكر حادثة سيدنا عبد الله بن ثوب مع الأسود العنسي الكذاب) ومبحث (ذكر الدليل على ثبوت الكرامات لأولياء الله تعالى من الكتاب والسنة وبيان جملة منها) .

المحاضرة الثامنة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد :

روى الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال :

[كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال :

يا غلام إني أعلمك كلمات :

احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف]¹.

وفي رواية غير الترمذي :

[احفظ الله تجده أمامك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، واعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً]². اهـ
ذكر الإمام النووي رضي الله عنه هذا الحديث في باب المراقبة وهو الباب الذي عقده روضة من رياض الصالحين .

¹ رواه الترمذي في سننه كتاب صفة القيامة والرقائق والورع وقال : حديث حسن صحيح

² انظر مستدرک الحاكم والمعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي

وقد تقدم الكلام على بعض معاني المراقبة وهي :

ملاحظة القلب لاطلاع الرب سبحانه عليه ، وهي توجب اليقين الصادق بأن الله تعالى مطلع على العبد ، ويراه في جميع حركاته وسكناته وسائر أفعاله.

وقد أخبر سبحانه أنه الرقيب على عباده فقال جل وعلا :

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ وأخبر جل وعلا أنه الشاهد على خلقه، وهو معهم أينما كانوا، ولا يخفى عليه شيء منهم فقال عز من قائل:
﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾.

وقال تبارك وتعالى : ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلَمٌ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾.

وقال جل جلاله : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾.

فهو سبحانه يخبر عبده يوم القيامة بما عمل في الدنيا ، عن علم منه سبحانه وشهود منه جل وعلا .

واليقين هو العلم الجازم الذي لا يشك فيه أبداً، وقد سمي الموت بـ (اليقين) لأنه ما من أحد يشك فيه ، وفي هذا يقول سبحانه :

﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ .

وقال سبحانه في الإخبار عن المجرمين :

﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمَصْلِينَ * وَلَمْ نَكُ نُنْطَعِمُ الْمَسْكِينِ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ﴾ أي : الموت.

ولما توفي عثمان بن مظعون رضي الله عنه قال فيه سيدنا رسول الله
صلى الله عليه وسلم :

[أمّا عثمان بن مظعون فقد جاءه اليقين من ربه]¹ ... الحديث،

أي : جاءه الموت.

فكما لا يشك أحد أو يوسوس في وجود الموت ، بل إن كل إنسان على
يقين من وجود الموت ، فكذلك - بل على وجه أعلى وأكمل - يجب أن
يكون على يقين أن الله تعالى مّطلع عليه ويراه ، لأنه هو سبحانه أخبر
بذلك كما تقدّم في الآيات الكريمة .

وإنّ من تحقّق بمراقبة الله تعالى حفظ من ارتكاب المناهي والمحرمات ،
ومن غفل عن مراقبة الله تعالى وقع في المناهي والمحرمات .

وفي الحديث المتقدم بيّن سيدنا رسول الله لابن عباس رضي الله عنهما -
بل بيّن لكل واحد من أمته صلى الله عليه وسلم - : أن الله تعالى هو
الرقيب على عباده ، وهو معهم أينما كانوا ، فعليهم أن يكونوا على مراقبة
الله تعالى في جميع حركاتهم وسكناتهم وأقوالهم وأفعالهم .

ولما أوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن عباس رضي الله
عنهما بالكلمات الجامعة في الحديث المتقدم كان رضي الله عنه ابن عشر
سنوات ، وقد أردفه النبي صلى الله عليه وسلم خلفه على الدابة ، ويدل
ذلك على جواز أن يركب الدابة اثنان إذا كانت الدابة قوية لا بأس بها .

قوله صلى الله عليه وسلم : [يا غلام] - مع أن ابن عباس رضي الله
عنهما كان قريباً منه صلى الله عليه وسلم ولا تأتي (يا) إلا لنداء البعيد ،
أما مناداة القريب فبالهمزة كقولك : (أغلام) - نعم لقد ناداه صلى الله
عليه وسلم [يا غلام] حتى يحمله على الانتباه، ويلفت فكره وقلبه لِمَا
سيوصيه به صلى الله عليه وسلم .

¹المسند ٢٦١٨٦ وأصله في صحيح البخاري كتاب الجنائز

ثم قال له صلى الله عليه وسلم : [إني أعلمك كلمات]
أي كلمات جامعة نافعة في الدين والدنيا والآخرة ، وبذلك صار ابن عباس رضي الله عنهما متوجهاً بكليته إلى سيدنا رسول الله ﷺ مستعداً لتلقي ما سيمليه عليه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
قوله صلى الله عليه وسلم :

[احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده تجاهك]

وقد أراد صلى الله عليه وسلم بالكلمات جملاً كما هو معروف في لغة العرب

ولبيان معنى قوله ﷺ : [احفظ الله يحفظك] لا بد من الرجوع إلى ما جاء في الكتاب والسنة لتوضيح ذلك :

لقد جاء في الآيات القرآنية أن هناك حفظاً وهناك نسياناً ، فمن نسي الله تعالى نسيه الله عز وجل ، ومن ذلك قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

وقال جل جلاله : ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ أي : من ترك ذكر الله تعالى ودين الله تعالى تركه الله تعالى من رحمته ، فالنسيان المنسوب إلى الله تعالى هو الترك ، وليس نسيان العلم ، فلا يغيب شيء عنه سبحانه ، كما قال تعالى مخبراً عن سيدنا موسى عليه السلام قوله : ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴾ .

فقوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله يحفظك] أي : كن على تذكّر ومراقبة لله دائماً ، وعلى ذكر له سبحانه ، واحفظ الله أيضاً بأن تؤدي ما أمرك الله به من واجبات كما قال تعالى : ﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ

الْوَسْطَى ﴾ .

وقال تعالى: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾ أي : لا يتعدون ما حرّم الله تعالى،

وهناك حفظ السمع والبصر والجوارح عن معصية الله تعالى، وحفظ الفرج واللسان وهكذا.. كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلَّا عَلَىٰ أَرْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾.

وقال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل رضي الله عنه: [ألا أخبرك بملاك¹ ذلك كله] ؟

- وذلك بعد أن بيّن له أبواب الخيرات المقربة إلى الله تعالى -

[قال: قلت: بلى يا نبي الله ، فأخذ صلى الله عليه وسلم بلسانه وقال : كُفّ عليك هذا]².

فقوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله] كلمة جامعة لمعان كبيرة منها:

احفظ الله قلباً فلا تنسه ولا تغفل عنه فيشتغل قلبك بغيره سبحانه من أموال الدنيا وحطامها، واحفظ الله قولاً فلا تنس ذكره سبحانه ، بل اجعل لسانك رطباً من ذكر الله جل وعلا، واحفظ الله عملاً بأداء ما أوجبه عليك تبارك وتعالى، والانتهاه عما حرّمه سبحانه وهكذا ...

وعلى قدر حفظ العبدِ الله تعالى يحفظه هو سبحانه مما يضره في الدنيا والآخرة ، فيحفظ عليه إيمانه ويثبته عليه ، وأما من نسي الله تعالى وأعرض عنه فيتركه سبحانه كما قال جل وعز: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ والعياذ بالله تعالى .

¹ قال في تحفة الأحوذى ٧/٣٠٥: الْمَلَائِكَةُ مَا بِهِ إِحْكَامُ الشَّيْءِ وَتَقْوِيَّتُهُ، وَأَهْلُ اللُّغَةِ يَكْسِرُونَ الْمِيمَ وَيَفْتَحُونَهَا، وَالرَّوَايَةُ بِالْكَسْرِ.

² المسند ٢١٠٠٨ وسنن الترمذي كتاب الإيمان

واعلم أنه لا بد لتثبيت الإيمان في القلب وزيادته، لا بد من تعاطي أسباب ذلك وهي سماع الموعدة والتذكير بآيات الله تعالى وأيامه ، وحضور مجالس العلم النافع ، وهذا ما كان عليه السلف الصالح رضي الله عنهم ، حتى قال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم :

[نكون عند رسول الله ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّ رَأْيَ عَيْنٍ]¹

أي : يزداد إيمانهم وتسمو قلوبهم حتى تنكشف عنهم الحجب ، ويصيروا في مقام المشاهدة لقضايا الإيمان الغيبية .

فمن زعم أن مجالس الوعظ والتذكير وسماع آيات الله تعالى وأحاديث رسوله صلى الله عليه وسلم لا تنفع فقد خالف ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، وأهمل المواعظ التي جاءت عن سيدنا رسول الله ﷺ .

قوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله يحفظك] أي : يحفظك في الدنيا ويحفظك في الآخرة التي يُعدّ عالم القبر أول برازخها .

وكم يحتاج الإنسان إلى من يحفظه ويؤانسه ويبشره في وقت خرج فيه من عالم الدنيا ، وترك أهله وأولاده وأصحابه حيث شيعوه إلى قبره ثم ودّعوه وانصرفوا !

فلا يحفظ الإنسان من وحشة القبر إلا رب العالمين جل وعلا، ولا يحفظ الإنسان من أهوال الحشر وكربات الموقف وشدائده إلا رب العالمين، فمن حفظ الله في الدنيا حفظه الله تعالى في جميع العوالم التي سينتقل إليها ، ويحفظه من خطر المرور على الصراط حتى ينتهي به الأمر إلى الجنة التي هي دار السلام، وقد قال سبحانه :

﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ * هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ * مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ * ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ * لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴾ .

¹ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب التوبة عن حنظلة الأسدي رضي الله عنه

قوله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: قُرِّبَتْ مِنْهُمْ .

ومتى يكون هذا التقريب ؟

نعم في كل العوالم ، ففي عالم الدنيا تكون الجنة مشهودة في قلوب المتقين ، وأرواحهم تحوم حولها - وإن لم ترها أعينهم - ، ويجدون رَوْحَهَا وريحانها، وهذا على حسب مراتب أهل التقوى، فهناك التقوى من الكبائر، وهناك التقوى من الصغائر، وهناك تقوى المباحات، وهناك التقوى عما سوى الله تعالى، ويكون ذلك بمراقبته سبحانه وترك ما سواه جل وعلا.

وإذا صار أهل التقوى في البرزخ قَرَّبَ اللهُ إِلَيْهِمُ الْجَنَّةَ أَيْضاً ، فيجدون من رَوْحِهَا وَنَعِيمِهَا ما يجعلهم في أحسن حال وأطيب مقام .

وكذلك عندما يصير الناس في عالم الحشر فإن الله تعالى يقرب الجنة من المتقين ينظرون إليها بأعينهم ، وقلوبهم تواقه لدخولها فيقولون :

(قريباً ندخلها) ، وإن من قارب الشيء أخذ حكمه .

ألا ترى إلى المسافر- لما يرجع من سفره ويقرب من بلد إقامته - تراه ينسى تعبهُ ويزول عناؤه ، لأنه أشرف على الوصول إلى بلده ولقاء أهله وأحبابه ؟ !

قوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ -أي: يقال لأهل التقوى:

﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ أي : من نعيم الجنة وما فيها .

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي لكل رجّاع إلى الله تعالى حفيظ .

ومن هذا الحفيظ ؟

قال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾

أي : خشي الله بقلبه لا بظاهر بدنه فقط ، ويكون معنى الغيب في الآية : (القلب) ، وَمَنْ خَشِيَ قَلْبُهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى خَشِيَتْ جَوَارِحُهُ وَظَهَرَ أَثْرُ ذَلِكَ عَلَيْهِ .

أو أن معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ﴾ أي : خشي الله تعالى وإن لم يَرَهُ بعيني بصره.

وإن الإنسان لا يرى ربه في الدنيا ببصره ، ولكن يشهده بقلبه ويثبتته بعقله، ولا يرتاب في وجوده ووحدانيته سبحانه ، فأياته جل جلاله ظاهرة وبيّنة في كل نفس إنسان، وفي الأطراف الآفاقية .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال تعالى : ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ﴾ - آيات أيضاً- ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ وفي هذا تحريض على التبصر والتعقل في تلك الآيات النفسية والكونية.

واعلم أنه لما تجلى رب العالمين جل وعلا لجبل الطور لبيّن لسيدنا موسى أنه لا يمكن لأحد أن يراه بعيني بصره في عالم الدنيا اندكّ الجبل وذاب وتلاشى، قال جل وعلا: ﴿وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا﴾ أي أُغمي عليه، ولولا الروح الإنسانية الموسوية التي قام بها جسم موسى عليه السلام لذاب جسمه أيضاً وتلاشى، وهذا يدلّك على أن هناك رجالاً أقوى من الجبال .

ولقد كان التجلي الإلهي على الجبل جزئياً يسيراً¹ ولم يثبت له موسى عليه السلام ، أما سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فتجلى الله عليه تجلياً مُطلقاً على سدرة المنتهى - التي هي عالم كبير محيط بالسماء السابعة- وهذا قوله تعالى :

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ .

جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قوله : (يغشاها نور الخلاق سبحانه) .
وقال الحسن رضي الله عنه : (غشيها نور رب العالمين فاستنارت) .
وجاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال :

(غشيها رب العزة عز وجل)²

ومع ذلك فقد ثبت رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك التجلي ،
قال تعالى : ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ .

فالإنسان في عالم الدنيا لا يمكنه أن يرى ربه جل جلاله بعيني بصره
لضعف نشأة الإنسان الدنيوية ، لا لأنه سبحانه محجوب ، إذ كيف
تحجبه مخلوقاته ؟

فلا سماء تحجبه سبحانه ولا أرض ولا جبل ولا جسم ، وإنما السبب
ضعف النشأة الدنيوية لهذه المخلوقات وعدم لياقتها وعدم استعدادها
لرؤية رب العالمين في عالم الدنيا المتغير الفاني .

¹ روى الترمذي في سننه عن سليمان بن حرب قال : حدثنا حماد بن سلمة عن
ثابت عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ هذه الآية: ﴿ فَلَمَّا
تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ قال حماد : هكذا ، وأمسك سليمان بطرف إبهامه
على أنملة إصبعه اليمنى ، قال : فساخ الجبل ﴿ وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا ﴾ .

² انظر تفسير الألوسي والقرطبي والبغوي للآية الكريمة

ولما يصير الإنسان في عالم الجنة ينشئه الله فيها نشأة أبدية قوية ،
ولا موانع نفسية تحجبه كالذنوب والظلمات والشهوات الدنيّة ،
هناك عندئذ يصير أهلاً لرؤية رب العالمين جل وعلا .

واعلم أن أول لقاء للمؤمن بربه جل وعلا يكون بعد الموت مباشرة ، فمن
كان على درجة عالية من الإيمان ، ولم تكن هناك ذنوب تحجبه وتمنعه
من رؤية الله تعالى فإنه يرى ربه تبارك وتعالى ، كما هو عليه الصديقون
والشهداء رضي الله عنهم .

وقد أخبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصحابي الجليل
عبد الله بن حرام رضي الله عنه لما استشهد في غزوة أحد أخبر عنه
الرسول صلى الله عليه وسلم أنه نظر إلى ربه كفاحاً¹ - أي : من دون
حجاب .

وأما من مات ولم يتب من ذنوب كان قد اقترفها في حياته الدنيا ، فإن
تلك الذنوب تحجبه عن رؤية الله تعالى ، فتكون الذنوب بمنزلة السحب
التي تحجب عين الإنسان عن رؤية الشمس ، لكن الشمس طالعة مشرقة
لا يشك في ذلك الناظر إليها .

قوله صلى الله عليه وسلم: [احفظ الله تجده تجاهك]

- وفي رواية : [أمامك] -².

وقوله صلى الله عليه وسلم : [تجده] أي : وجداناً قلبياً ، لا وجداناً
بالرؤية العيانية ، وهذا ما يعرف بالمواجيد القلبية التي أشير إليها في كثير
من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، فمن ذلك قوله تعالى :

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ أي : بارتكاب كبيرة .

﴿أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾ أي : بارتكاب صغيرة .

¹ انظر صحيح ابن حبان كتاب إخباره صلى الله عليه وسلم عن مناقب الصحابة،
وسنن الترمذي كتاب تفسير القرآن .

² انظر مستدرک الحاكم والمعجم الكبير للطبراني وشعب الإيمان للبيهقي

﴿ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ﴾ أي : تائباً.

﴿يَجِدِ اللَّهُ﴾ أي : وجداناً قلبياً .

﴿عَفُورًا رَّحِيمًا﴾ أي : يشعر بارتياح في قلبه وانشرح بسبب رجوعه إلى الله مستغفراً تائباً ، ويُقبل الله عليه بالمغفرة والرحمة .

ولو كان هذا الوجدان بالرؤية البصرية للزم أن يرى كل تائب ربه بعيني بصره !

وهذا لا يكون ..

فافهم أن هناك مواجيد قلبية لا ينكرها المؤمن الصادق في توبته وإقباله على ربه ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ﴾

أي : جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم..

﴿فَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوْجَدُوا اللَّهَ﴾

أي : وجداناً قلبياً في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

﴿تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾

ومن ذلك قول الله تعالى في الحديث القدسي :

[يا ابن آدم مرضتُ فلم تعدني قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟

قال : أما علمت أن عبدي فلاناً مرض فلم تعده ، أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده]¹ أي : وجداناً قلبياً ، لأن شأن المؤمن المريض أن يكون متوجهاً إلى الله داعياً ربه بالشفاء والرحمة .

¹ صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب

وفي الأثر أن داود عليه السلام سأل ربه في مناجاته : [إِلَهِي أَيْنَ أَجِدُكَ] ؟
- أي وجداناً قلبياً - [قال تعالى : عِنْدَ الْمُكْسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَخَافَتِي] ¹
فمن وقع في الذنب فقد أظلم قلبه من أثر ذنبه ، لأن للذنوب ظلمات
على القلوب كما قال تعالى : ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ *
كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ .

وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم :

[إن العبد إذا أخطأ خطيئة نُكِّتت في قلبه نكتة سوداء ، فإذا هو نزع
واستغفر وتاب سُقل قلبه ، وإن عاد زيد فيها حتى تعلق قلبه وهو الران] ²
ومن استغفر من ذنبه وتاب منه زالت عن قلبه ظلمة الذنب وشهد بقلبه
نور ربه وهذا معنى قوله تعالى : ﴿يَجِدِ اللَّهُ عَفْوَراً رَحِيماً﴾

¹ انظره في الحلية لأبي نعيم والزهد الكبير للبيهقي والهَمّ والحزن لابن أبي الدنيا
والزهد للإمام أحمد بن حنبل بألفاظ متقاربة
² سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن واللفظ له وسنن ابن ماجه كتاب الزهد ورواه
الحاكم في المستدرک في کتاب الإیمان وابن حبان في صحیحہ والبیہقي في الشعب .
وقال في تحفة الأحوذی ۲۱۲/۸ :

قوله صلى الله عليه وسلم : [نكتت في قلبه] بصيغة المجهول من النَّكَّت ، وهو
في الأصل أن تضرب في الأرض بقضيب فيؤثر فيها .

[نكتة سوداء] أي جعلت في قلبه نكتة سوداء ، أي : أثر قليل كالنقطة ، شبه
الوسخ في المرآة والسيف ونحوهما ، وقال القاري : أي كقطرة مداد تقطر في
القرطاس ، ويختلف على حسب المعصية وقدرها ، والحمل على الحقيقة أولى من
جعله من باب التمثيل والتشبيه حيث قيل :

شبه القلب بثوب في غاية النقاء والبياض ، والمعصية بشيء في غاية السواد أصاب
ذلك الأبيض ، فبالضرورة أنه يذهب ذلك الجمال منه ، وكذلك الإنسان إذا أصاب
المعصية صار كأنه حصل ذلك السواد في ذلك البياض . اهـ

أي يجد الله غافراً له رحيماً به ، ويستأنس ويفرح بذلك حتى يصير قلبه قريباً من ربه جل جلاله ، ويشهد أنواره كأنه يراه بعينه .

فقوله صلى الله عليه وسلم : [احفظ الله تجده تجاهك]

أي : أمامك بالعناية والتوفيق وإلهامك للخير ، وبأخذه بناصيتك لما فيه رضاه ومحبته سبحانه ، فمن أراد أن يمشي في أموره كلها على بصيرة ونور من الله تعالى فليحفظ الله تعالى ، وعلى قدر حفظ العبد الله يجد نور الله أمامه بالهداية والتوفيق ، كما قال تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنتَقُوا اللَّهَ وَءَامِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ .

وقال تعالى : ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ أي يجعل لكم سبحانه نوراً خاصاً من هُده تفرقون به بين الحق والباطل ، وإن شأن النور أن يكشف لك الأمور ، وكلما قوي النور أظهر لك دقائق الأمور وخبايها .

ألا ترى - من باب ضرب المثال - ألا ترى إلى نور الشمس المحسوس إذا توجه شعاعه من نافذة الغرفة أظهر لك الغبار والهباء الدقيق المنتشر في الغرفة وخارجها ، والذي لم يكن للنور الخافت أن يُظهره ، فما بالك بنور الإيمان إذا دخل القلب وتمكن فيه وازداد ؟!

فإنه يكشف لصاحبه عن الأمور الملكوتية العالية وهكذا .

قوله صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله] أي : سل الله تعالى جميع حاجاتك ، فإن الأمور كلها بيده سبحانه ، وهو المدبّر لشؤون خلقه سبحانه .

وفي الأثر أنّ سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام قال :
[يا ربّ إنّهُ لتُعْرِضُ لي الحاجةُ من الدنيا ، فأستحيي أنّ أسألك ،

فقال سبحانه: سلني حتى ملح عجينك وعَلَف حمارك]¹

يعني أنّ كل الأمور، كبيرها وصغيرها، وجليلها ودقيقها، بيد الله تعالى ،
ولولا أنّ ييسرها سبحانه للإنسان لما تيسرت له .

ومَن فهم من قوله صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله] :

مَن فهم أنه لا يجوز سؤال غير الله ، وفهم النهي عن التوسط والتوسل ،
فقد ضل وأخطأ في فهم نصوص الكتاب والسنة .

نعم إن المراد من قوله صلى الله عليه وسلم : [إذا سألت فاسأل الله]

هو سؤال العبد المعترف بعبوديته لربه ، المفتقر إليه سبحانه في حاجاته
كلها، والموقن بأن حاجات الخلق كلها هي بيد الله وحده ، وهو القادر
عليها جل وعلا .

وأما سؤال غير الله تعالى لأمر فهو سؤال واسطة وسبب كما قال عز من
قائل: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ أي : من سألك حاجة فلا تنهره، وقد تكون
الحاجة مالاً أو علماً أو غير ذلك .

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً، والحمد لله رب العالمين

¹ كما في (جامع العلوم والحكم) لابن رجب الحنبلي

المحاضرة التاسعة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب حلاوة الإيمان

ثم أورد بسنده إلى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ].

وقال: باب : علامة الإيمان حب الأنصار

ثم أورد بسنده إلى أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

[آيَةُ الْإِيمَانِ حُبُّ الْأَنْصَارِ، وَآيَةُ النِّفَاقِ بُغْضُ الْأَنْصَارِ]^١ اهـ

إن الإيمان على أنواع، فهناك الإيمان الاعتقادي ويتضمن قضايا الإيمان الاعتقادية التي يجب على المؤمن أن يعتقد بها اعتقاداً جازماً لا يقبل الشك والارتياب، وهناك الإيمان العملي ويتضمن الأعمال الإيمانية كالصلاة ونحوها، وهذا ما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ أي: صلاتكم .

^١ صحيح البخاري كتاب الإيمان

فقد نزلت هذه الآية في بيان حكم أولئك الذين ماتوا من الصحابة رضي الله عنهم قبل أن تتحول القبلة إلى الكعبة المشرفة - وكانوا وقتها يصلون إلى بيت المقدس^١ - وكذلك نزل في بيان حكم أولئك الصحابة الذين كانوا في سرية وأدركتهم الصلاة واجتهدوا في تحري جهة القبلة، نزل قوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾^٢.

وهناك الإيمان القولي بنطق الشهادتين ثم الأقوال الطيبة .

وهناك الإيمان الأدبي الخلقى ، وفي بيان ذلك كله يقول سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: [الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان]^٣.

ومعلوم أن الحياء يعود إلى الأخلاق والآداب .

وأما قوله صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل عليه السلام لما سأله عن الإيمان: [أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره]^٤... الحديث فكان السؤال عن الإيمان الاعتقادي القلبي، وبين الرسول ﷺ في جوابه أصول قضايا الإيمان الاعتقادية .

وقد بين الرسول ﷺ في الحديث المتقدم أن للإيمان حلاوة يجدها المؤمن في قلبه إن هو تحقق بالصفات التي ذكرها صلى الله عليه وسلم بقوله: [أن يكون الله ورَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ] .

ولا بد لمن يجد الحلاوة من تذوق لها، وهذا التذوق لحلاوة الإيمان لا يجده إلا المؤمن المتحقق بما أخبر عنه رسول الله في الحديث المتقدم ، ومن فقد حاسة الذوق لم يعد يفرق بين الحلو والحامض والمر والمالح وهكذا.

١ انظر ما ذكره الحافظ السيوطي حول هذه الآية الكريمة في (الدر المنثور).

٢ انظر ما ذكره الحافظ ابن كثير حول هذه الآية الكريمة في تفسيره.

٣ صحيح مسلم كتاب الإيمان

٤ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

قوله صلى الله عليه وسلم: [أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا] وهذا هو أول مقام وأعظم مقام يجب على المؤمن أن يتحقق به حتى يجد حلاوته ويتذوقه وينعم به .

قوله صلى الله عليه وسلم: [مِمَّا سِوَاهُمَا] وتشمل هنا جميع أنواع المخلوقات من الإنس بما فيها الأهل والأولاد والدنيا وما فيها من الأموال والتجارات وغيرها .

وذلك لأن كلمة (مَنْ) في اللغة تطلق على من يعقل أو يعلم فقط، أما كلمة (ما) فتطلق على مَنْ لا يعقل أو لا يعلم .

وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَرَسُولَهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا فَيُقَالُ لَهُ :

إن هذا الأمر لا يتحقق بالدعوى ومجرد الكلام، ولكي تتحقق من ذلك انظر في نفسك وعملك إذا تعارضت عندك رغبات المحبوبين ، فهناك من الأوامر ما يحب الله ورسوله منك أن تفعله ولكن هواك وشهوات نفسك تحب غير ذلك، فإذا قدّمت هوى نفسك وما تحب على ما يحب الله ورسوله فأنت كاذب في دعواك لمحبة الله ورسوله ﷺ ، وهكذا إذا أنت قدمت ما تحب زوجتك أو أولادك أو أصحابك من أمور تعارض ما جاء عن الله ورسوله .

وخلاصة القول: أن أول علامات صدق المحبة بذل المجهود في اتباع المحبوب وطاعته .

قوله ﷺ : [وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ] يعني أن يحب المؤمن غيره من المؤمنين محبة خالصة لوجه الله تعالى وذلك بسبب إيمانه وصلاحه وهكذا، لا لشيء آخر من منافع دنيوية وهكذا .

وفي رواية للإمام النسائي : [ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ وَطَعْمَهُ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ فِي اللَّهِ وَأَنْ يُبْغِضَ فِي اللَّهِ]^١... الحديث ، فيحب المؤمن لإيمانه، ويبغض الكافر لكفره وعمله القبيح .

ولبيان علامة الحب في الله فقد قال الإمام العارف يحيى بن معاذ رضي الله عنه^٢ : [حَقِيقَةُ الْحُبِّ فِي اللَّهِ أَنْ لَا يَزِيدَ بِالْبِرِّ وَلَا يَنْقُصُ بِالْجَفَاءِ]^٣.

يعني أن فلاناً المحبوب عندك إن زاد في بره وعطائه لك زادت محبتك له، وإن هو قصر أو تجافى عنك نقصت محبتك له؛ فليست هذه من علامات المحبة في الله تعالى وإنما هي محبة لسبب آخر ، ومن أحب أحداً لغير الله تعالى بل لحظوظ نفسانية فهو حب غير مشروع، وتقع على صاحبه المسؤولية والمحاسبة يوم القيامة ، وكذا من أبغض أحداً لغير الله تعالى وذلك لأن القلب في هذه الحالة قد اشتغل بغير الله تعالى، ويجب على القلب أن يكون اشتغاله وتعلقه بالله تعالى وما يَدُلُّك عليه ويذكرك به سبحانه .

فكما يجري السؤال والحساب يوم القيامة على الأعمال الجارحية يجري أيضاً على الأعمال القلبية ومنها الحب والبغض .

قوله صلى الله عليه وسلم : [وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ] وفي رواية : [بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ]^٤ [كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْدَفَ فِي النَّارِ] .

^١ سنن النسائي كتاب الإيمان وشرائعه

^٢ هو سيدي يحيى بن معاذ الواعظ أبو زكريا ، أحد رجال الطريقة، ذكره أبو القاسم القشيري في " الرسالة " وقال في حقه: " نسيح وحده في وقته، له لسان في الرجاء خصوصاً وكلام في المعرفة "، ومن كلامه : (ليكن حظ المؤمن منك ثلاث خصال: إن لم تنفعه فلا تضره، وإن لم تسره فلا تغمه، وإن لم تمدحه فلا تدمه). توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة ثمان وخمسين ومائتين بنيسابور .

انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ١٦٧ \ ٦

^٣ انظر فتح الباري ٢٥ \ ١

^٤ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الإيمان

وإن كراهية الإنسان للنار كراهية طبعية جبليّة جُبل على كراهتها والنفور منها، ولا تلاؤم أو انسجام بين الإنسان والنار ، فلا يمكن له يوماً أن يتلاءم معها ، ولو أن أهل الأرض اجتمعوا ليقنعوا عاقلاً أن يمد يده إلى النار لنفر وما فعل، فكذلك المؤمن الحق ينفر من الكفر كراهية له بسبب ما فيه من قوة الإيمان، فنفرة المؤمن من الكفر كنفرة الجسم من النار .

ومن تحقق بهذه الصفات كلها فقد حاز على حاسة التذوق لحلاوة الإيمان وتنعم بها.

وفي الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : [ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا]^١ .

ولكي يتذوق الإنسان حلاوة العسل لا بد أن يكون صحيح الجسم نظيف اللسان، لا آفة ولا عاهة فيه، إذ لو أصيب الجسم بالحمى مثلاً لوجد طعم الأشياء مرّاً -ولو كانت حلوة المذاق- وليس له عندئذ أن يتهم العسل أو الماء بالمرار ، وذلك لأن حاسة تذوقه غير سليمة أما العسل فمعروف بحلاوته، والماء لا مرارة فيه، وإن لدى كل مؤمن حاسة لتذوق الإيمان ولكنه قد لا يجد ذلك بسبب اعتلال حاسة التذوق لحلاوة الإيمان وهي القلب ، وقد أرشد رسول الله الأمة إلى طريق التذوق لحلاوة الإيمان فقال: [ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ]^٢ الحديث

فقوله صلى الله عليه وسلم : [وَجَدَ بِهِنَّ] أي : بسببهن إن هو تحقق بهن، فهذه الأمور أسباب يأخذ بها المؤمن لتصح عنده حاسة ذوقه لحلاوة الإيمان .

^١ صحيح مسلم كتاب الإيمان

^٢ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

وقوله صلى الله عليه وسلم : [وَجَدَ بِهِنَّ] أي بالوجدان القلبي الذي هو الأصل في توزيع هذه الحلاوة على الجسم كله، أما الحلاوة المادية المحسوسة فلا يجد حلاوتها إلا اللسان الصحيح، أما بقية الحواس والجوارح فلا تجد ما وجدته اللسان من حلاوة ، وأما حلاوة الإيمان إذا وجدها القلب فتسري منه إلى جميع ذرات الجسم ويتلذذ صاحبه وينعم على وجه مستمر دائم ، بعكس حلاوة اللسان التي هي مؤقتة، تزول إن ابتلعها الإنسان .

فقوله صلى الله عليه وسلم : [وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ] أي الإيمان بشعبه كلها الاعتقادية والعملية والقولية والخلقية الأدبية؛ فيجد المؤمن في أداء عباداته وطاعاته حلاوة ونعيماً بسبب ما وجدته القلب من حلاوة الإيمان، فإذا صلى تلذذ وتنعم في صلاته ، وإذا صام شعر بلذة طاعة الصوم ، وإذا زكى شعر بلذة الزكاة وهكذا إذا ذكر الله بلسانه .

ومن شكا أنه لا يجد لذة في عباداته لله تعالى فيقال له: أنت تشبه الذي لا يجد في لسانه طعم الحلاوة بسبب اعتلال مزاجه أو أغشية فوق لسانه، فيجب عليك تصحيح حاسة التذوق عندك بالعمل بما جاء عن رسول الله ﷺ في ذلك - وهو التحقق بمحبة الله ورسوله فوق كل محبوب، ومحبة المؤمنين لإيمانهم وصلاحهم لا لمنافع ومكاسب شخصية أو دنيوية، وكرهية الكفر وما يجر إليه والنفور منه كما ينفر الجسم من النار - إذا أنت تحققت بذلك صحت حاسة تذوق الإيمان عندك ووجدت حلاوة الإيمان في قلبك ولذة الطاعات في أعمالك وأقوالك وأخلاقك وآدابك.

وليعلم كل مؤمن أن حسن الخلق من شعب الإيمان، وفي الحديث يقول صلى الله عليه وسلم: [أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا]^١ فيتفاضل المؤمنون في مقامات الإيمان على حسب تفاضلهم في حسن الخلق ، وأحسن الخلق خُلُقًا هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فهو أكمل الخلق إيماناً على وجه فرداني خاص به ﷺ .

^١ مسند الإمام أحمد ١٠٣٩٧ وسنن الترمذي كتاب الرضاع وسنن أبي داود كتاب السنة

واعلم أنه لا يمكن للمؤمن أن يدخل الجنة حتى يتحقق بجميع شعب الإيمان الاعتقادية والعملية والقولية والخُلُقِيَّة والأدبية ، ومن تحقق بجميع شعب الإيمان فهو مؤمن كامل الإيمان ، ولا يدخل الجنة إلا كامل الإيمان ، ومن مات وهو على نقص في إيمانه سواء الاعتقادي أو العملي أو القولي أو الخُلُقِي فسوف يمر على برازخ الآخرة وأولها عالم القبر ويصيبه من الأهوال والكربات على حسب نقصه ودائه حتى يطهر ويطيب ، وأما إذا كان داؤه مستحكماً فيه ولم تطهره أهوال البرزخ فإن جهنم آخر مرحلة لتطهير وتهذيب عصاة المؤمنين، ويبقى كل واحد فيها على حسب نسبة فسقه ومُجونه .

أما الكفار فهم خالدون في جهنم أبداً ، وتأتي النار على جميع ذراتهم حتى قلوبهم كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ * نَارُ اللَّهِ الْمَوْقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾ .

وأما المؤمن الفاسق فلا تصل النار إلى قلبه لما فيه من إيمان^١ ، وقد حرّم الله تعالى على النار أن تأكل مواضع السجود من بني آدم كما جاء ذلك في الحديث الشريف^٢.

وعندما يخرج عصاة المؤمنين من جهنم يُلقون في نهر الحياة فتربو أجسامهم وينشئهم الله نشأة تؤهلهم لدخول الجنة فيدخلونها وقد تطهروا وطابوا ، كما قال سبحانه : ﴿ طَبَّئُمْ فَأَدْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴾ .

^١ جاء في تفسير الخازن ٣٠٥/٦: أي يبلغ ألمها ووجعها إلى القلوب ، والمعنى أنها تأكل كل شيء حتى تنتهي إلى الفؤاد ، وإنما خص الفؤاد بالذكر لأنه ألطف شيء في بدن الإنسان ، وأنه يتألم بأدنى شيء ، فكيف إذا اطلعت عليه واستولت عليه ، ثم إنه مع لطافته لا يحترق إذ لو احترق لمات صاحبه ، وليس في النار موت ، وقيل إنما خصه بالذكر لأن القلب موطن الكفر والعقائد والنيات الفاسدة .

^٢ قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : [وَحَرَّمَ اللَّهُ عَلَى النَّارِ أَنْ تَأْكَلَ مِنْ ابْنِ آدَمَ أَثَرِ السُّجُودِ] وهو طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق

فلا يدخل الجنة إلا طيب القلب، طيب العقيدة، طيب الأفعال، طيب الأقوال، طيب الأخلاق، طيب المعاملة، وهكذا.. اللهم اجعلنا منهم . آمين
ومما يدل عليه الحديث المتقدم : [ثلاث من كن فيه وجد بهن]: أن الله تعالى ربط الأمور بأسباب لا بد من الأخذ بها حتى في قضايا الإيمان، ويدل أيضاً على فضل محبة الله تعالى ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنها سبب كمال الإيمان والترقي في مقامات الإيمان العالية .

واعلم أنه كثيراً ما تقترن محبة رسول الله ﷺ بمحبة الله تعالى لأنها الدليل الصادق على محبة الله تعالى .

ولقد كان جماعة من الكفار يدعون محبة الله تعالى ولما ظهر سيدنا رسول الله لم يتبعوه وظلوا على دعواهم لمحبة الله تعالى فنزل قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي ﴾^١.

فمن لم يتبع رسول الله ﷺ محبة له فهو كاذب في دعواه محبة الله تعالى. ومما يجب على كل مؤمن أن يعلمه أن كلام سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم هو كلام مَنْ آتاه الله تعالى جوامع الكلم، ولا بد لفهم جوامع الكلم من جوامع المعاني، فمهما بحث المؤمن وفهم من معاني كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يصل إلى الغاية والنهاية .

فما بال كثير من المؤمنين بل من أهل العلم يَمرون على أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وكأن معانيها معروفة عندهم ولا يحاولون أن يفهموا منها فوق ما فهموه أو عرفوه؟!

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

^١ انظر تفسير ابن كثير عند كلامه حول هذه الآية الكريمة

المحاضرة العاشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال

ثم أورد بسنده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، ثُمَّ يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَخْرَجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَيُخْرَجُونَ مِنْهَا قَدْ اسْوَدُّوا، فَيُلْقَوْنَ فِي نَهْرِ الْحَيَاةِ أَوْ الْحَيَاةِ] - شَكَ مَالِكٌ - [فَيَنْبُتُونَ كَمَا تَنْبُتُ الْحَبَّةُ فِي جَانِبِ السَّيْلِ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهَا تَخْرُجُ صَفْرَاءَ مُلْتَوِيَةً؟] ١. اهـ

لقد ذكر الإمام البخاري رضي الله عنه هذا الحديث في كتاب الإيمان الذي رتب فيه أبواباً لقضايا الإيمان، واستدل في هذا الباب من الأحاديث النبوية الشريفة بما يدل على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن المؤمنين في إيمانهم على درجات ومراتب، وقد يكون المؤمن على نقص كبير في إيمانه حتى إن الإيمان في قلبه مثل حبة الخردل .

ولذلك قال الإمام البخاري : (باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال) أي : بسبب الأعمال، إذ كلما ازداد المؤمن علماً وعملاً ازداد إيمانه ، وكلما نقص علمه وعمله نقص إيمانه، فقلوه : (تفاضل أهل الإيمان في الأعمال) أي : بسبب تفاضلهم في الأعمال؛ تفاضل واختلف إيمانهم، والفاء للسببية في قوله : (في الأعمال) ٢.

١ صحيح البخاري كتاب الإيمان

٢ جاء في (أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك) (٣/٣٥ أن من معاني (في) : السببية.

قوله صلى الله عليه وسلم : [يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ] أي : يدخل أهل الجنة الجنة على مراتب كما قال تعالى : ﴿ وَسَيَقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ أي جماعات جماعات، فصاروا في دخولهم زُمَرًا لاختلاف مراتب إيمانهم، وأيّهم أكمل إيماناً فهو أسبق إلى دخول الجنة .

ولما كانت أول المراتب الإيمانية وأعظم المراتب هي مرتبة الأنبياء كانوا هم عليهم الصلاة والسلام أول الزُمَر في دخول الجنة ، وأعظم الأنبياء إيماناً هو سيدنا محمد ﷺ وهو أول من يدخل الجنة بل هو الفاتح لأبواب الجنة .

وكذلك أهل النار يدخلون النار زمراً كما قال سبحانه : ﴿ وَسَيَقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ﴾ أي : على حسب كفرهم ، وآخر الزمر دخولا النار هم عصاة المؤمنين الذين ماتوا ولم يتوبوا ولم تنلهم المغفرة .

وعذاب عصاة المؤمنين في جهنم يختلف على حسب ذنوبهم ومعاصيهم، ثم يخرجون منها بشفاعات سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى تخرج آخر زمرة من عصاة المؤمنين بشفاعاة أرحم الراحمين جل وعلا .

أما الكفار فهم خالدون في جهنم لا يخرجون منها ، لقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا ﴾ .

واعلم أن مما يجب اعتقاده أن المؤمن العاصي إذا مات ولم يتب من ذنوبه فإن أمره مفوض إلى الله فقد يعذبه وقد يغفر له .

ولا يجوز الاعتقاد أن الله تعالى لا بد أن يعذبه ، أو لا بد أن يغفر له .

كما دل على ذلك ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أن من ارتكب كبيرة ولم يُقَم عليه الحد فأمره إلى الله ، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه .

وفي هذا يقول صاحب الجوهرة^١ :

ومن يمت ولم يتب من ذنبه فأمره مفوض لربه

ثم أخبر رسول الله ﷺ في الحديث القدسي :

[أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ] .

أي : من عصاة المؤمنين حيث إن الإيمان في قلب أحدهم مثل الحبة في صغره، وإنما يخرج هؤلاء من النار بسبب شفاعة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كما دلت عليه أحاديث ثانية، منها قوله ﷺ:

[فَأَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّي فَيُؤْذَنُ لِي وَيُلْهِمُنِي مَحَامِدَ أَحْمَدُهُ بِهَا لَا تَحْضُرُنِي الْآنَ] - وفي رواية : [فَأَنْطَلِقُ فَأَتِي تَحْتَ الْعَرْشِ، فَأَقْعُ سَاجِدًا لِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ، ثُمَّ يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ وَحُسْنِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِ شَيْئًا لَمْ يَفْتَحْهُ عَلَيَّ أَحَدٌ قَبْلِي] [٢]- [فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ وَأَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَأَشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ أَوْ خَرْدَلَةٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْزُقْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَأَشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةٍ خَرْدَلٍ مِنْ إِيْمَانٍ فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا فَيُقَالُ:

^١ (جوهرة التوحيد) : أحد أهم متون علم العقيدة والكلام عند أهل السنة

والجماعة ، والتمن عبارة عن منظومة شعرية تتألف من ١٤٤ بيتاً لمؤلفها

الشيخ إبراهيم بن إبراهيم بن حسن بن علي بن عبد القدوس بن الولي الشهير محمد بن هارون اللقاني المالكي المصري ، لقبه : برهان الدين ، وكنيته: أبو الإمداد، وأبو إسحاق ، واللقاني نسبة إلى لقانة - قرية من قرى مصر - وقد توفي رضي الله عنه سنة ١٠٤١ هـ

^٢ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن

يَا مُحَمَّدُ اذْفَع رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَهُ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعَ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ] - أي قالها معتقداً دون أن يعمل بمقتضاها أبداً - [فَيَقُولُ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي لِأُخْرِجَنَّ مِنْهَا مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ]¹ - أي : مع ملازمتها التي لا تنفك عنها وهي : محمد رسول الله ﷺ .

ثم قال صلى الله عليه وسلم : [حَتَّى مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ الْقُرْآنُ]² . - أي : وجب عليه الخلود وهم الكفار الذين أشركوا مع الله تعالى، وقال فيهم سبحانه : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ﴾ .

فحكم القرآن على المشركين بالحبس عن مغفرة الله تعالى وبخلودهم في النار .

وتختلف مدة بقاء عصاة المؤمنين في النار على حسب ما ارتكبه في الدنيا حتى إذا تطهروا من دنس ورجس الذنوب خرجوا من النار وقد اسودوا ، وفي رواية : [فَيُخْرِجُونَ مِنَ النَّارِ قَدْ امْتَحَشُوا]³ - أي : احترقت أجسادهم ، [فَيُلْقُونَ فِي نَهْرِ الْحَيَا] بدون همز أو تاء - ومعناه : المطر ، وسمي بذلك لأن به الحياة، وفي رواية : [أَوْ الْحَيَاةِ] ، وأما رواية : [الحياء] وهو الخلق المعروف فهي رواية بعيدة المعنى⁴ .

ويرجع اختلاف هذه الروايات إلى شك من الراوي .

ونهر الحياة نهر على باب الجنة وفيه ماء الحياة الذي إذا أصاب جسماً بالياً ميتاً حيي بإذن الله⁵ ، وليس المراد منه الماء المعروف عند أهل الدنيا إذ إن الأخير لا يحيا به الأموات .

¹ صحيح البخاري كتاب التوحيد

² طرف حديث في صحيح البخاري كتاب الرقاق

³ كما في صحيح البخاري كتاب الرقاق ، وقال العيني في عمدة القاري ٦ \ ٨٥ : (قد امتحشوا) ، بناء مثناة من فَوْق مَفْتُوحَةٍ وحاء مُهْمَلَةٌ وشين مُعْجَمَةٌ، وَمَعْنَاهُ: احترقوا ، ويروى بِضَمِّ التَّاءِ وَكسْرِ الحَاءِ. اهـ

⁴ انظر شرح الحافظ القسطلاني ١ \ ١٠٥

⁵ انظر عمدة القاري ١ \ ١٧٠

ولما مرض سيدنا أيوب عليه السلام مرضاً شديداً أمره سبحانه بقوله :

﴿أَرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسِلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ .

أي : أمره أن يضرب الأرض برجله فتبعث ماء أمره أن يغتسل بها، فلما اغتسل برى جسمه وذهب عنه الآفات والأمراض^١ بسبب ماء الحياة.

وبماء الحياة أيضاً أحيا الله تعالى الحوت الصغير الذي كان قد تزود به موسى عليه السلام في سفره^٢ مع فتاه وهو يوشع بن نون عليه السلام.

وكان الحوت عبارة عن سمكة كبيرة مملوحة معدة للأكل، فلما مروا في طريقهم في البحر على نبع من ماء الحياة أصاب ذلك الحوت قطرة منه فدبت فيه الحياة وقفز إلى البحر، وجعل الله مكانه مفتوحاً ليكون إشارة لسيدنا موسى عليه السلام إلى أنه بمحاذاة هذه الفتحة ترى الخضر عليه السلام^٣.

وقد أشار سبحانه إلى ماء الحياة بقوله جل وعلا: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾

وقوله تبارك وتعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ .

وماء الحياة قد حوى العناصر الحيوية كلها ، أما الماء المعروف ففيه نمط من أنماط الحياة للإنسان والحيوان والنبات .

ولمّا يُلقى عصاة المؤمنين الذين خرجوا من النار ؛ يُلقون في نهر الحياة تربو أجسادهم وتنمو بسرعة كما تنبت الحبة في حميل السيل .

والحِبَّة - بكسر الحاء وفتح الباء - هي جمع كلمة حَبَّة بالفتح - .

١ انظر تفسير الطبري ١١٦ \ ٣٦٤

٢ قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور ١١٦ \ ٣٩١ :

أخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال: أتى الحوت على عين في البحر يقال لها عين الحياة، فلما أصاب تلك العين ردّ الله إليه روحه.

٣ انظر تفسير ابن كثير عند كلامه حول قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا

حُوتَهُمَا﴾ . اهـ ١٥ \ ١٧٤

ومنهم من قال : هي مفردة، وتعني بذرة معينة تخرج في الصحارى بماء المطر.

وقوله ﷺ : [في حميل السيل] أي : في مجرى السيل فتنتبت البذرة بسرعة بسبب ما يحمله السيل من مواد حارة سريعة الإنبات^١ .

وبعدما تربوا أجسادهم وتنتبت ، يؤمر بهم إلى الجنة وقد طابوا .

وإذا علم الإنسان أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمن الطيب فعليه أن يسعى في الدنيا لتطهير نفسه وتطويبها بالأقوال الطيبة والأعمال الصالحة والبعد عن الفواحش والرذائل فيقال له ما جاء في الآية الكريمة : ﴿ طَبُّهُمْ فَأَدْخُلُوهَا

خَلِيدِينَ ﴾ .

وذلك حتى لا يعرض نفسه للعذاب في النار الذي هو لعصاة المؤمنين بمنزلة التطهير والتهديب .

ومن طاب في الدنيا أدخله الله جنة الإيمان والعرفان ، وبعد الموت جنة البرزخ وهكذا حتى يدخل جنة المأوى ..

ويدل الحديث المتقدم على تفاضل المؤمنين في درجات الإيمان، فمنهم من يكون إيمانه كحبة الخردل، ومنهم أصغر من ذلك، ومنهم من يكون إيمانه أكبر وهكذا، ومنهم من يكون الإيمان في قلوبهم كالجبال الرواسي .

١ جاء في لسان العرب ١١ ٢٩٣ : عن الكسائي: الحَبَّةُ حَبُّ الرِّيَاحِينِ ، وواحد حَبَّةٌ . وقيل: إذا كانت الحُبُوبُ مختلفةً من كلِّ شيءٍ فهي حَبَّةٌ ، وقيل: الحَبَّةُ بالكسر بُزُورُ الصَّخْرَاءِ مما ليس بقوت، وقيل: الحَبَّةُ نبتٌ يَنْبُتُ في الحَشِيشِ صِغَارٌ ، وفي حديثِ أهلِ النارِ: [فَيَنْبُتُونَ كما تَنْبُتُ الحَبَّةُ في حَمِيلِ السَّيْلِ] قالوا: الحَبَّةُ إذا كانت حُبُوبٌ مختلفة من كلِّ شيءٍ - والحَمِيلُ مَوْضِعٌ يَحْمَلُ فِيهِ السَّيْلُ - والجمع حَبَبٌ وقيل ما كان له حَبٌّ من النَّبَاتِ فَاسْمُ ذَلِكَ الحَبِّ: الحَبَّةُ .

وقال أبو حنيفة: الحَبَّةُ بالكسر جميعُ بُزُورِ النَّبَاتِ واحداً حَبَّةٌ بالفتح . وعن الكسائي قال: فأما الحَبُّ فليس إلا الحِنْطَةُ والشَّعِيرَ واحداً حَبَّةٌ بالفتح . اهـ

ولما نزل قوله تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ أُخْرِجُوا مِنْ دَيْرِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا﴾ قال أناس من الصحابة - منهم أبو بكر وعمر وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن رواحة وثابت بن قيس بن شماس وغيرهم رضي الله عنهم - قالوا : (لو أمرنا لفاعلنا) فقال صلى الله عليه وسلم : [إن من أمتي لرجالاً الإيمانُ أثبتُ في قلوبهم من الجبال الرواسي]^١ .

وكما يتفاضل المؤمنون في الدنيا في مراتب الإيمان يتفاضلون في الآخرة في درجات النعيم في الجنات، قال تعالى : ﴿وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: [إن أهل الدرجات العلى] - وهم المقربون - [ليراهم من تحتهم] - من أهل الجنة - [كما ترون النجم الطالع في الأفق من آفاق السماء، وأبو بكر وعمر منهم، وأنعمًا]^٢ .
وأهل الدرجات العلى هم المقربون، وأما من دونهم فهم الأبرار .

واعلم أنه ليس لأحد في الدنيا أن يفاضل بين الناس ويحكم على فلان أنه أفضل من فلان وهكذا، إذ إن علم ذلك عند الله تعالى وحده، وقد نهى سبحانه عن التفاضل بين الأنبياء إلا من فضله الله سبحانه، فما بالك بغيرهم إذا؟!

١ انظر ما ذكره الحافظ السيوطي في الدر المنثور حول تفسيره لهذه الآية الكريمة
٢ جاء في حاشية السندي على ابن ماجه ٥٠١١: قَوْلُهُ ﷺ: [وَأَنْعَمًا] مِنْ: أَنْعَمَ إِذَا زَادَ، أَيْ زَادَ عَلَى تِلْكَ الْمَرْتَبَةِ وَالْمَنْزِلَةِ، أَوْ مِنْ: أَنْعَمَ إِذَا دَخَلَ فِي النَّعِيمِ.
قَالَ السُّيُوطِيُّ فِي حَاشِيَةِ التِّرْمِذِيِّ فِي تَارِيخِ ابْنِ عَسَاكِرٍ فِي آخِرِ الْحَدِيثِ: فَقُلْتُ لِأَبِي سَعِيدٍ: وَمَا أَنْعَمًا؟ قَالَ: هُمَا أَهْلُ لِدَلِكْ، وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَى: وَحُقَّ لَهُمَا ذَلِكَ. اهـ

ولقد فضّل الله تعالى سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم على جميع الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ويليهِ سيدنا إبراهيم عليه السلام ثم سيدنا موسى وسيدنا عيسى وسيدنا نوح - وهم أولو العزم من الرسل - ثم من بعد ذلك من الرسل عليهم الصلاة والسلام فما لأحد علم بمن هو أفضل^١ .

فمن زعم أن سليمان أفضل من داود عليهما السلام ، أو أن زكريا أفضل من أيوب عليهما السلام فلا دليل شرعي له في ذلك ، وقد قال صلى الله عليه وسلم: [لَا تُفَضَّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ]^٢ وفي رواية: [لَا تُخَيَّرُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ]^٣ إلا بمن جاء نص بتفضيله على غيره، فافهم.

ولمّا يخرج آخر عصاة المؤمنين من النار ويؤذن له بدخول الجنة يخيل إليه أنها ملاءى^٤ فيقال له: انْطَلِقْ فَادْخُلِ الْجَنَّةَ، قَالَ ﷺ: [فَيَذْهَبُ لِيَدْخُلَ فَيَجِدُ النَّاسَ قَدْ أَخَذُوا الْمَنَازِلَ فَيَرْجِعُ فَيَقُولُ: يَا رَبِّ قَدْ أَخَذَ النَّاسُ الْمَنَازِلَ قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: أَتَذْكُرُ الرَّمَانَ الَّذِي كُنْتَ فِيهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لَهُ: تَمَنَّ قَالَ: فَيَتَمَنَّى، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَا تَمَنَيْتَ وَعَشْرَةَ أَضْعَافِ الدُّنْيَا]- وهي رواية الترمذي^٥ .

وفي رواية الإمام مسلم:

[فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مَلِكٍ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟

فَيَقُولُ: رَضِيْتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ.

فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيْتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشْرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ وَلَدَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيْتُ رَبِّ]^٦.. الحديث

^١ انظر فيض القدير للمناوي ٤٦٤١٣ والتنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني ٥٣٤١٥

^٢ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب أحاديث الأنبياء

^٣ انظر صحيح مسلم كتاب الفضائل

^٤ انظر صحيح البخاري كتاب الرقاق

^٥ انظر سنن الترمذي كتاب صفة جهنم

^٦ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

فانظر أيها المؤمن إلى ذلك وتفكر فيه كيف أن الله تعالى يكرم من في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان يكرمه بهذا العطاء العظيم، فما ظنك بمن هو أكبر منه إيماناً، وما ظنك بمن الإيمان في قلبه أمثال الجبال؟!

واعلم أن جنة الله تعالى واسعة كبيرة عرضها كعرض سماوات الآخرة وأرضها، لا سماوات الدنيا وأرضها، كما قال سبحانه: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾.

وقال عز من قائل: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾.

وإن أرض الدنيا المعروفة سوف تحشر يوم القيامة إلى أرض الآخرة لتشهد على ما عمل عليها.

ولو أن سماوات الآخرة مددتها وكذلك أرض الآخرة لعرفت إذاً عرض جنة الآخرة، فما ظنك بطولها ومدتها؟!

نعم إن مبدأ الجنة يبدأ من عالم السدرة، وسقفها عرش الرحمن جل وعلا، كل ذلك يدل على قدر عظمة نعمة الإيمان وفضلها وكرامتها على الله تعالى.

^١ روى الإمام أحمد في مسنده واللفظ له والترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: [إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله عز وجل للمجاهدين في سبيله، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله عز وجل فسألوه الفردوس فإنه وسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن عز وجل].

وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: ولابن أبي حاتم من طريق الربيع بن أنس: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾: العرش.

وقال الإمام القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو العرش وهو سقف الجنة.

وقال سبحانه: ﴿لِيُؤْفِقَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ .

ولا حد ولا انتهاء لفضل الله سبحانه.

ويتحتم على المؤمن أن يتعاطى أسباب زيادة الإيمان بأداء الأعمال الصالحة وتلاوة القرآن الكريم وحضور مجالس العلم فإنه يزيد المؤمن معرفة وخشوعاً لله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ .

ومما يزيد الإيمان في القلب سماع المواعظ والتذكير بقضايا الآخرة فإنها تجلو القلب وتزكي النفس، وفي هذا قال حنظلة بن الربيع رضي الله عنه :

[نكون عند رسول الله يُذَكِّرُنَا بالنار والجنة حتى كأننا رأينا عين]^١ . الحديث

ومن زعم أن حضور مجالس العلم والوعظ والتذكير لا ينفع ولا يقرب المؤمن إلى ربه جل وعلا فقد خالف ما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ بل وقد جحد موقفه صلى الله عليه وسلم مع الناس في تعليم الكتاب والحكمة كما قال سبحانه: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ .

وإن في سماع آيات الله تعالى أثراً كبيراً في قلب السامع إن هو ألقى سمعه وأشهد قلبه ما تسمع أذناه لأن لكلام الله تعالى روحاً تسري في القلوب فتحيا وتنعم، وكذلك لأحاديث رسول الله لأنها بوحى من الله جل وعلا، والله تعالى يقول: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ .

وقال سبحانه: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ .

ونسأل الله تعالى التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

^١ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب التوبة عن حنظلة بن الربيع الأسدي رضي الله عنه

المحاضرة الحادية عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال

ثم أورد بسنده إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال:

[بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ، مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجْرُهُ، قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الدِّينُ].^١ اهـ

تقدم الكلام في هذا البحث، وأن الإيمان يتفاضل لدى المؤمنين، وأنهم على مراتب في إيمانهم بسبب تفاضلهم في الأعمال .

قوله صلى الله عليه وسلم : [بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ] يذكر صلى الله عليه وسلم رؤيا منامية قد رآها ، والأصل في كلمة [بيننا]:(بين) فأشبع الفتحة حتى صارت ألفاً ، ويقال أيضاً : (بينما).

وإن رؤيا رسول الله ﷺ المنامية هي نوع من أنواع الوحي النبوي إليه صلى الله عليه وسلم ، لأنه صلى الله عليه وسلم تنام عيناه ولا ينام قلبه بل هو يقظان القلب دائماً .

وكذلك حَفِظَ اللهُ تعالى قلوب الأنبياء كلهم عن النوم والغفلة ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم: [إنا معشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا]^١ وذلك حين يوحى إليهم في المنام عليهم الصلاة والسلام.

^١ عزاه في كنز العمال لابن سعد عن عطاء مرسلأ ، وجاء في الصحيحين قول سيدنا رسول الله ﷺ لأم المؤمنين السيدة عائشة الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما : [يا عائشة إن عيني تنامان ولا ينام قلبي].

قوله صلى الله عليه وسلم : [رَأَيْتُ النَّاسَ يُعْرَضُونَ عَلَيَّ] أي : وهم الأمة
المحمدية المسلمة الذين سيأتون بعده إلى يوم الدين، فقوله صلى الله
عليه وسلم: [رَأَيْتُ النَّاسَ] أي المسلمين من الناس بدليل قوله صلى الله
عليه وسلم: [وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ] وفسر القُمْص بالدين ، فلا يدخل في الكفرة
قوله ﷺ : [رَأَيْتُ النَّاسَ] .

وإننا نرجو الله تعالى أن نكون قد عُرضنا على سيدنا رسول الله ﷺ ورانا
وعلى القمص الواسعة.

قوله صلى الله عليه وسلم : [وَعَلَيْهِمْ قُمْصٌ] : جمع (قميص) ، وتجمع
أيضاً على قمصان على وزن : [فُعْلان]^١ .

فرأى رسول الله ﷺ كل فرد من أمته يلبس قميصاً -وهو ما يتقمصه الإنسان
أي: يلبسه على اللحم، وأما ما يلبس فوقه فيسمى: (رداء) وهو أطول من
القميص^٢ .

والقميص في العرف الشرعي : ما كان طوله إلى ما تحت الركبة .

قوله صلى الله عليه وسلم : [مِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ] .

أي : فليست الأمة على مرتبة واحدة في لبس القمص، فمنهم من يبلغ
قميصه إلى ثديه فقط، ومنهم من يبلغ أكثر من ذلك وهكذا ..

وقوله صلى الله عليه وسلم: [الثُّدِي] - بضم الثاء المشددة وكسر الدال - :
جمع (ثدي)^٣ وروي أيضاً بالإفراد : [الثُّدِي]^٤ - بفتح الثاء - .

^١ انظر عمدة القاري شرح صحيح البخاري ١٧٣١١

^٢ جاء في المعجم الوسيط : (الرِّدَاء) مَا يَلْبَسُ فَوْقَ الثِّيَابِ . اهـ

^٣ انظر فتح الباري لابن حجر ٣٩٥١١٢

^٤ انظر عمدة القاري ١٤٨١٢٤ وقال القاري في مرقاة المفاتيح : [مِنْهَا] أَي: مِنْ
الْقُمْصِ [مَا يَبْلُغُ الثُّدِيَّ] بِضَمِّ الْمُثَلَّثَةِ وَكَسْرِ الدَّالِ وَتَشْدِيدِ التَّحْتِيَّةِ جَمَعَ الثُّدِيَّ،
وَفِي نُسْخَةٍ بِالْفَتْحِ وَالسُّكُونِ وَالتَّخْفِيفِ. اهـ

وفي رواية الحكيم الترمذي: [فَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَمِيصُهُ إِلَى سُرَّتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَمِيصُهُ إِلَى رُكْبَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ قَمِيصُهُ إِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ]¹

فأما أولئك الذين لم تبلغ قمصهم إلا إلى الثدي فهم أضعف المؤمنين إيماناً فقالوا: (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ) وفي قلوبهم ذرة إيمان، فلم يتجاوز قميص أحدهم ما بين حلقومه وقلبه فقط .

قوله صلى الله عليه وسلم: [وَمِنْهَا مَا دُونَ ذَلِكَ] - أي : فيما يبلغه القميص فمنهم إلى السرة ، ومنهم إلى الركبة وهكذا .

قال صلى الله عليه وسلم: [وَعَرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجْرُهُ] أي : قد بلغ ما تحت كعبيه ويجره على الأرض أيضاً .

[قَالُوا: فَمَا أَوْلَتْ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟].

وَوَقَعَ عِنْدَ التِّرْمِذِيِّ الْحَكِيمِ: [فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : عَلَيَّ مَا تَأَوَّلْتَ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟] - أي على أي شيء أولت ذلك؟ -

[قَالَ: عَلَيَّ الْإِيمَانُ]² .

والمراد أنه صلى الله عليه وسلم رأى أمته التي تأتي من بعده ويؤمنون به إلى يوم الدين، ورأى عليهم ﷺ ما تحققوا به من الدين - بما فيه من العقائد والأعمال والأقوال.

ويدل الحديث المتقدم على أن لرؤيا المنام اعتباراً وأحكاماً في شرع الله تعالى فلقد أول رسول الله ﷺ اللباس في المنام بالدين والإيمان .

وهناك أمور تُحمد في عالم المنام وتُذم في عالم اليقظة، إذ لا تؤخذ رؤيا المنام على ظاهرها في اليقظة، فمن ذلك أنه في اليقظة جاء النهي والذم على جر القميص، وأما في عالم المنام فكان ذلك أمراً محموداً يدل على كمال الإيمان والدين كما أوله رسول الله صلى الله عليه وسلم.

¹ كما ذكر ذلك الحافظ ابن حجر في الفتح ٣٩٥١١٢

² كما في الفتح ٤٨٩١١٩

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم:

[ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: الْمَنَانُ بِمَا أُعْطِيَ، وَالْمُسْبِلُ إِزَارَهُ، وَالْمُنْفِقُ سَلَعَتَهُ بِالْحَلْفِ الْكَاذِبِ]¹.

وإسبال الإزار تحت الكعبين أو جره على الأرض صفة المتكبرين المتجبرين، وجاء التحذير والنهي عن ذلك في عالم اليقظة، وأما في المنام فله أحكام تدل على معاني الكمال فافهم.

ويدل هذا الحديث أيضاً على أن عالم المنام عالم حقيقي له اعتباره وأحكامه، ويحتاج تعبيره إلى علم خاص ينطوي في علم النبوة، وقد قال ﷺ عن الرؤيا الصادقة: [ورؤيا المؤمن جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة]² وما كان من النبوة فإنه لا يكذب ، أي: يكون خبر هذا المنام ومدلوله أمراً حقاً لكن تعبيره يستلزم علماً خاصاً.

ولرؤيا المنام أنواع :

منها الرؤيا الصادقة الصالحة التي يراها المؤمن ، ولها شأنها وتأويلها .

ومنها رؤيا حديث النفس بأن يرى الإنسان نفسه في المنام على مثل ما يعمل في عالم اليقظة من ذهاب وتجارة وأكل وشرب وغير ذلك .

ومنها رؤيا أضغاث أحلام أي أحلام مختلفة لا انسجام فيها ، وقد يتخللها مخاوف ونزغات شيطانية ، ولهذه الرؤيا آداب بعد الاستيقاظ من النوم كما هدى إلى ذلك رسول الله ﷺ، منها : التعوذ بالله من الشيطان، وأن تتفل عن يسارك³.

¹ مسند الإمام أحمد بن حنبل بهذا اللفظ وهو في صحيح مسلم كتاب الإيمان بلفظ قريب

² طرف حديث في صحيح البخاري كتاب التعبير

³ جاء في صحيح مسلم كتاب الرؤيا قوله ﷺ: [الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ مِنَ اللَّهِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يُحِبُّ فَلَا يُحَدِّثُ بِهَا إِلَّا مَنْ يُحِبُّ، وَإِنْ رَأَى مَا يَكْرَهُ فَلْيَتْفَلَّ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثًا، وَلْيَتَعَوَّذْ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشَرِّهَا، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا أَحَدًا، فَإِنَّهَا لَنْ تَضُرَّهُ].

وارجع إلى ما ذكره مولانا الإمام في كتابه (الدعاء) في مبحث: الأدعية الواردة في آداب الرؤيا تجد ما ينفعك إن شاء الله تعالى .

أما الرؤيا الصادقة الصالحة فقد تتضمن بشائر من الله تعالى للرأي أو انكشافات عن قضايا غيبية ستجري فيما بعد ، وهذا النوع من الرؤى هو المعترف في شرع الله تعالى، وأشار إليه سبحانه بقوله :

﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ .

وقال رسول الله ﷺ في بيان معنى البشرى في الحياة الدنيا :

[هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل المسلم أو تُرى له]^١.

ومما يُذكر في أصول تأويل الرؤيا أنها تؤول بالأسماء، فمن رأى مثلاً أن فلاناً جاءه أو اجتمع به أو لقيه أو سلم عليه فليُنظر في اسم ذلك الرجل الذي رآه، ومن اسمه قد يعبر المنام .

وقد تعبر الرؤيا بحقيقة ما ترى لا باسمه، فلقد فسر رسول الله ﷺ رؤيا القميص بحقيقته وهي أنه يستر الجسم فهو يدل على الدين والإيمان في اليقظة وذلك للمناسبة بينهما، فالقميص يلبسه الإنسان لستر عورته وجسمه إذ يبلغ إلى ما تحت الركبة ويقي الحر والقرّ فكذلك الدين والإيمان يستر عوار الإنسان - أي : نقصه وعيبه - ويستر عورته أيضاً .

والعوار في اللغة هو النقص والعيب ويدل على صفات الرذيلة^٢ .

فلا يستر ذلك في الإنسان إلا تمسكه بدين الله تعالى .

وأمر الدين أيضاً بستر العورة عند الإنسان، وقد سميت العورة بذلك لأن النظر إليها قبيح مذموم، والعورة هي السوءتان المعروفتان عند الإنسان ، وعورة الرجل بالنسبة لأمثاله من الرجال هي من السرة إلى الركبة.

وعورة المرأة المؤمنة بالنسبة للنساء المؤمنات هي من السرة إلى الركبة - أي : إلى ما تحت الركبة، فعورة المرأة من المرأة كعورة الرجل من الرجل^٣ .

^١المسند ٢٦٢٧٦ وسنن الترمذي كتاب الرؤيا

^٢ انظر لسان العرب مادة (عور) .

^٣ انظر كتاب (بدائع الصنائع) ١٢٤١٥

وأما عورة المرأة بالنسبة لمحارمها - وهم الذين لا يصح زواجها من أحدهم على التأييد - فعورتها من هؤلاء: من الثدي إلى ما تحت الركبة مع ما يقابل ذلك من الظهر ودونه^١ .

وأما المرأة بالنسبة لزوجها فلا عورة لها ، ويحل له أن ينظر إلى ما شاء من جسمها، وأن يتورع عن النظر إلى سوءتيها أمر أكمل وأحسن لأن الإكثار له محاذيره وإن كان مباحاً^٢، وأما المرأة بالنسبة للأجنبي فلا يحل له أن ينظر إلى شيء منها .

فالدين يأمر الإنسان بستر عورته ويحفظه من العوار أي من صفات النقص والرذيلة، ويكمل صاحبه ويجمله ، فهو لباس كامل يستر به الإنسان عورته وجسمه ويتزين ويتجمل به، فينبغي على العاقل أن يلبس دين الله تعالى بأن يتحقق به، وإن الإنسان أعظم وأشد حاجة إلى هذا اللباس من لباسه الحسي الذي يتزين ويتجمل به، ولذلك لما أهبط الله تعالى آدم عليه السلام إلى الأرض قال سبحانه مخاطباً له ولذريته: ﴿يَبْنِيْٓءَآدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤْوِيْ سَوْءَاتِكُمْ﴾ - أي لباساً حسياً يستر عوراتكم - ﴿وَرِيْشًا﴾ - أي : وأنزلنا عليكم ريشاً أيضاً وهو ما تكسون به بيوتكم من أثاث وفرش ومتاع^٣ ، ثم لفت سبحانه انتباههم إلى ما هو أحوج وأهم فقال : ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ أي : فلا يكن هم أحدكم في لباس الدنيا ومتاعها وأثاث بيته فقط، إذ إن ذلك كله عَرَضُ زائل، بل يجب أن يكون همه الأكبر هو لباس التقوى الذي سيلبسه في الآخرة ظاهراً لجميع الخلائق ، وبه يُعرض على رب العالمين جل وعلا .

^١ انظر حاشية الصاوي على الشرح الصغير ٢٩٠١١

^٢ انظر كتاب تبیین الحقائق شرح كنز الدقائق ٣٦٧١٦

^٣ انظر ما ذكره الخازن في تفسيره حول هذه الآية الكريمة

وإذا كان من شأن الإنسان أن يصطحب معه ما يحتاجه من لباس ومتاع إذا أراد سفرًا إلى جهة معينة بحيث يكون ذلك اللباس يناسب تلك البلد التي سيسافر إليها، فما بال الإنسان يعرض عن اصطحاب لباس معه إلى عالم الآخرة الذي سيرحل إليه لا محالة؟!

وما ذلك اللباس إلا تقوى الله تعالى .

وإذا كان الإنسان يهتم بنظافة لباسه في الدنيا ويبذل جهده وماله في التزين والتجمل أمام الناس خاصة إذا قيل له : إنهم سينظرون إليك بدقة وإمعان وفيهم فلان وفلان من أولي الجاه والمنصب .. فجدير بالإنسان العاقل أيضاً أن يبذل جهده في أن يكون لباسه الذي سيراه عليه خلق الله كلهم أن يكون كاملاً جميلاً .. بل ولباسه هذا سيعرض على الله تعالى .

قال تعالى : ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ .

وفي ذلك قال عمر رضي الله عنه : [وتزينوا للعرض الأكبر]^١ .

وهو العرض على الله تعالى .. قال سبحانه : ﴿وَعُرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا﴾ .

وإن لباس الدنيا قد يتعرض للأوساخ وغيرها فيخلعه الإنسان ويرتدي غيره، أما إذا لبس لباس التقوى فعليه أن يحافظ عليه ولا يخلعه كمن قال فيهم سبحانه : ﴿وَأْتَلُّ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ﴾ .

وقد أخبر سبحانه في هذه الآية عن بلعم بن باعوراء الذي كان من عبّاد بني إسرائيل زمن موسى عليه السلام فلبس الآيات النازلات على موسى عليه السلام ثم انسلخ منها وتعرى عن لباس الدين فظهر قبحه وعواره^٢ .

^١ انظر سنن الترمذي كتاب صفة القيامة والرقائق والورع

^٢ انظر ما ذكره الحافظ السيوطي في الدر المنثور والحافظ ابن كثير في تفسيره حول هذه الآية الكريمة

ولقد أخبر رسول الله ﷺ في الحديث المتقدم أنه رأى عمر رضي الله عنه وعليه قميص يجره مما يدل على كمال إيمانه ودينه ، وذكر ذلك ﷺ منقبة لعمر رضي الله عنه ولا يعني أن غيره من الصحابة لم يبلغوا كمال الإيمان فافهم .

ولقد كانت بشارت سيدنا رسول الله ﷺ لعمر رضي الله عنه وإخباراته عن مناقبه تزيده رضي الله عنه تواضعاً وخشية لله تعالى ولا يرى لنفسه رفعة أو فضلاً على أحد من المسلمين .

ومما يذكر في هذا السياق أن رسول الله ﷺ كان قد سمى لحذيفة بن اليمان رضي الله عنه سمي له بعض المنافقين ، وأمره بكنم السر .

كما روى البيهقي عن عُرْوَةَ بْنِ الرَّبِيعِ رضي الله عنهما قَالَ: [بَلَّغْنَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ غَزَا تَبُوكَ نَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ فَأُوجِيَ إِلَيْهِ وَرَاحِلَتُهُ بَارِكَةٌ، فَقَامَتْ تَجُرُّ زِمَامَهَا حَتَّى لَقِيَهَا حُدَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، فَأَخَذَ بِزِمَامِهَا فَأَقْتَادَهَا حَتَّى رَأَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَالِسًا، فَأَنَاخَهَا ثُمَّ جَلَسَ عِنْدَهَا حَتَّى قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَاهُ فَقَالَ: " مَنْ هَذَا؟ " فَقَالَ: حُدَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " فَإِنِّي أُسِرُّ إِلَيْكَ أَمْرًا فَلَا تَذْكُرْنَهُ، إِنِّي قَدْ نُهَيْتُ أَنْ أُصَلِّيَ عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ " رَهْطِ ذَوِي عَدَدٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، لَمْ يُعْلِمِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذِكْرَهُمْ لِأَحَدٍ غَيْرِ حُدَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ، فَلَمَّا تُوفِّي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي خِلَافَتِهِ إِذَا مَاتَ رَجُلٌ يَطُنُّ أَنَّهُ مِنْ أَوْلِيَاكَ الرَّهْطِ أَخَذَ بِيَدِ حُدَيْفَةَ فَأَقْتَادَهُ إِلَى الصَّلَاةِ عَلَيْهِ، فَإِنْ مَشَى مَعَهُ حُدَيْفَةُ صَلَّى عَلَيْهِ، وَإِنْ انْتَرَعَ حُدَيْفَةُ يَدَهُ فَأَبَى أَنْ يَمْشِيَ مَعَهُ أَنْصَرَفَ عُمَرُ مَعَهُ فَأَبَى أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ، وَأَمَرَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ يُصَلِّيَ عَلَيْهِ! .

ومَاتَ رَجُلٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْهِ حُدَيْفَةُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ :

أَمِنَ الْقَوْمِ هُوَ؟

فَقَالَ: نَعَمْ.

١ انظر سنن البيهقي

قال: فقال: بالله، فمنهم أنا؟

قال: لا، ولكن أخبر أحدًا بعدك.^١

وعن ضبّة بن محصن العنزي قال: كان علينا أبو موسى الأشعري أميراً بالبصرة، فوجهني في بعثه إلى عمر بن الخطاب، فقدمت على عمر، فصريت عليه الباب، فخرج إلي، فقال: من أنت؟ فقلت: أنا ضبّة بن محصن العنزي. قال: فأدخلني منزله، وقدم إلي طعاماً، فأكلت ثم ذكرت له أبا بكر الصديق، فبكي، فقلت له: أنت خير من أبي بكر، فازداد بكاءً لذلك، ثم قال وهو يبكي: والله لليلة من أبي بكر ويوم خير من عمر وآل عمر، هل لك أن أحدثك بيومه وليلته؟^٢.....

- وأراد رضي الله عنه بهذه الليلة ليلة الهجرة التي قضاها أبو بكر رضي الله عنه مع سيدنا رسول الله ﷺ في غار ثور، ونزل في ذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ، وبالיום يوم الردة .

فانظر في خشية عمر من الله تعالى وخوفه أن يكون فيه شيء من النفاق وانظر في تواضعه وحفظه وتقديره لمقام سيدنا أبي بكر رضي الله عنه وفي ذلك إشارة إلى أمر هام وهو أن المؤمن مهما بلغ في المراتب وارتقى فيها فعليه أن لا يضيع مرتبة غيره، وأن يعترف لأهل المراتب بفضلهم وكرامتهم. ويجب التنبيه إلى أمر قد يجهله كثير من الناس إذ إن أحدهم قد يصف فلاناً بأنه (عُمري) يعني بذلك: أنه شديد في أمر الحق على غيره، ولكنك إذا دقت في أفعاله وأقواله لَمَا رأيت منه تلك الشدة والحرص على أمر الله تعالى .

^١ انظر مصنف ابن أبي شيبة وكتاب السنة لأبي بكر بن الخلال

^٢ انظر المجالسة وجواهر العلم للدينوري ٣٨٠١٥ ودلائل النبوة للبيهقي ومستدرک

لذلك يجب أن يفهم كل عاقل أن سيدنا عمر رضي الله عنه كان أول ما صرف شدته وعمريته على نفسه فهضم نفسه وطرده شيطانه، ونشر العدل بين الناس .

فمن مواقفه أنه خطب مرة فقال :

أيها الناس ما إكثركم في صدقات النساء ، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه إنما الصدقات فيما بينهم أربع مائة درهم فما دون ذلك؟ ولو كان الإكثار في ذلك تقوى عند الله أو مكرمة لم تسبقوهم إليها ، فلا أعرفن ما زاد رجل في صدقات امرأة على أربع مائة .

ثم نزل، فاعترضته امرأة من قريش - كانت تجلس مع النساء آخر صفوف الرجال - فقالت له : يا أمير المؤمنين، نهيت الناس أن يزيدوا النساء في صدقاتهن على أربع مائة درهم؟

قال : نعم، فقالت : أما سمعت ما أنزل الله في القرآن؟

قال : وأي ذلك ؟

فقالت : أما سمعت الله تعالى يقول :

﴿وَأَتَيْتُمْ إِحْدَهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بِهْتَنًا وَإِنَّمَا مٌبِينًا﴾

فقال : اللهم غفرًا ، كل الناس أفقه من عمر.

ثم رجع فركب - أي : صعد - المنبر فقال :

أيها الناس إني كنت نهيت أن تزيدوا النساء في صدقاتهن على أربع مائة درهم، فمن شاء أن يعطي من ماله ما أحب. اهـ

قال أبو يعلى: وأظنه قال : فمن طابت نفسه فليفعل^١.

^١ عزاه السخاوي في المقاصد الحسنة إلى مسند أبي يعلى بهذا اللفظ وقال : وسنده جيد قوي ، وعزاه إلى سنن البيهقي وسنن سعيد بن منصور ومصنف عبد الرزاق

وهكذا من نظر وتدبر في سلوك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
إذ كان كل واحد منهم مدرسة في سيره وسلوكه وذلك لأنهم نشؤوا على أنظار
سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته وتعليماته وإرشاداته
صلى الله عليه وسلم.

ونسأل الله التوفيق وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم
تسليماً، والحمد لله رب العالمين .

المحاضرة الثانية عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . أما بعد :

بالسند المتصل إلى الإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري رضي الله عنه قال :

بَابُ خَوْفِ الْمُؤْمِنِ مِنْ أَنْ يَحْبَطَ عَمَلُهُ وَهُوَ لَا يَشْعُرُ .
وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّمِيمِيُّ : (مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكْذَبًا) .

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ : (أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النَّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيْمَانٍ جَبْرِيْلٍ وَمِيكَائِيلَ) .

وَيُذَكِّرُ عَنِ الْحَسَنِ - رضي الله عنه قوله :- (مَا خَافَهُ) - أي ما خاف الله تعالى - (إِلَّا مُؤْمِنٌ ، وَلَا أَمِنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ) .

قال : وَمَا يُحْذَرُ مِنَ الْإِضْرَارِ عَلَى النَّفَاقِ وَالْعِضْيَانِ مِنْ غَيْرِ تَوْبَةٍ ، لِقَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم روى البخاري رضي الله عنه بسنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

[سَبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ] . اهـ

لقد ذكر الإمام البخاري رضي الله عنه هذا الباب في كتاب الإيمان الذي عقده في جامعه الصحيح ، وقد ذكر في كتاب الإيمان جملة من الأحاديث التي تتعلق بقضايا الإيمان .

وقد ذكر رضي الله عنه أن خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر هو من مقتضيات الإيمان الكامل، وعلى المؤمن أن لا يعطي الأمان لنفسه وأن لا يأمن مكر الله تعالى به، كما أن عليه أن لا يمدح نفسه ولا يرى لنفسه الفضل على غيره؛ فربما أحبط الله أعماله الصالحة وهو لا يشعر وذلك بسبب أمور قد يقع فيها .

ومن أعظم الأمور التي تحبط الأعمال : إساءة الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ كما قال تعالى : ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي : لو أن الإنسان علم بحبوط عمله لتدارك أمره ولكنه إذا لم يشعر بذلك فتكون المصيبة أعظم .

ويستفاد من الآية أن رفع الصوت على صوت رسول الله ﷺ يحبط العمل، وكذلك الجهر له بالقول، فمن باب أولى أن يحبط عمل من يرفع رأيه على رأي رسول الله ﷺ أو يقدم علمه وفهمه لأمر يخالف به ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^١ .

وقد يبدو ذلك واضحاً فيمن راح يضعف حديثاً جاء عن رسول الله ﷺ لأنه لم يوافق هواه ورأيه، أو أنه راح يتكلم في حكم شرعي ثبت بيانه عن رسول الله ﷺ وهكذا .

فإذا كان النهي عن رفع الصوت في حضرة رسول الله ﷺ لأنه يُحبط الأعمال الصالحة فإن رفع الفهم والرأي على فهم ورأي رسول الله ﷺ هو صريح الكفر والعياذ بالله تعالى.

^١ انظر البحث في ذلك مفصلاً في كتاب مولانا الإمام (حول تفسير سورة الحجرات) عند كلامه رضي الله عنه حول هذه الآية الكريمة.

وقد نص العارفون رضي الله عنهم أنه من جملة الأدب مع رسول الله ﷺ - والذي يغفل عنه كثير من الناس - أنه إذا تناظر اثنان في مسألة شرعية أو علمية وأفصح أحدهما عن رأيه، وراح الآخر يقول له : "قال رسول الله صلى الله عليه وسلم" ويسرد له حديثاً شريفاً ، والأول يستمر في كلامه ولا يصغي إلى حديث سيدنا رسول الله ﷺ فيكون بذلك قد رفع صوته فوق حديث سيدنا رسول الله ﷺ، وقد جاء النهي عن ذلك والتحذير من حبوط عمل مَنْ أساء الأدب في هذا الجانب مع سيدنا رسول الله ﷺ.

وينبغي على كل مؤمن إن هو سمع حديث رسول الله ﷺ أن يتأدب ويصغي إلى سماعه متأدباً وكأن رسول الله ﷺ هو الذي يخاطبه .

ويتحتم هذا الأمر أيضاً على أهل العلم إن جرى بينهم مناظرة علمية، فعلى أحدهم أن يصغي إن سمع الآخر يسرد له حديثاً عنه صلى الله عليه وسلم، ثم إذا أراد أن يبين حُجته أو فهماً آخر للحديث فليفصح عنه عندما يفرغ الآخر من سرده لحديث سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلا حبط عمله لأنه قاطع بكلامه حديث رسول الله ﷺ أو لم يصغ إليه متأدباً .

وقد جعل الله تعالى الأدب مع رسول الله ﷺ ميزاناً لكمال الإيمان والتقوى فقال عز من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ .

ومن جملة الأسباب التي تحبط أعمال الإنسان وهو لا يشعر:

الكلمة التي يتكلمها الإنسان يتألى بها على الله تعالى، فمن ذلك ما ورد في الحديث: [أَنَّ رَجُلًا قَالَ: وَاللَّهِ لَا يَغْفِرُ اللَّهُ لِفُلَانٍ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَعْفِرَ لِفُلَانٍ، فَإِنِّي قَدْ عَفَرْتُ لِفُلَانٍ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ]¹ .

¹ كما في صحيح مسلم كتاب البر والصلة والآداب .

وقال مولانا الإمام في كتابه (التقرب إلى الله تعالى) في الصفحة ٢٠٧ :
فمن حلف أن الله تعالى لا يغفر لفلان الذنب واستبعد ذلك عن الله تعالى، فإن الله تعالى يحبط عمله، ويغفر لذلك المذنب، فلا حكم على الله، وإنما الحكم لله تعالى.

أي : أحبط الله عمل ذلك الرجل الذي حكم على فلان أن الله لا يغفر له ..
فهل وكل الله تعالى فلاناً على خزائن مغفرته ورحمته ؟!

وهذا معنى قول الإمام البخاري : باب خوف المؤمن أن يحبط عمله - أي : بسبب قول أو فعل أو كلمة صدرت منه فحبط عمله بسبب ذلك وهو لا يشعر .. وليحذر أولئك الذين يأتي أحدهم بكلام يتخلله آية قرآنية كريمة أو حديث نبوي شريف ويأتي بها في سياق الهزل ليضحك الناس ويكون بذلك قد حبط عمله .

وإن النصوص الشرعية من آيات قرآنية وأحاديث نبوية لها حرمتها وقدسيّتها ، ولا ينبغي الإتيان بها في سياق الهزل والضحك .

قال الله تعالى في القرآن الكريم : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ * وَمَا هُوَ بِالْهَزْلِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا ﴾ .

قوله^١ : وقال إبراهيم التيمي - وهو من كبار التابعين وعبّادهم ومن أئمة الحديث أيضاً رضي الله عنه^٢ - قال : (مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكْذَبًا)^٣ .

^١ أي قول الإمام البخاري رحمه الله تعالى ورضي عنه

^٢ هو سيدي إبراهيم بن يزيد التيمي الإمام القدوة الفقيه عابد الكوفة، وكان أبوه يزيد من أئمة الكوفة أيضاً، كان شاباً صالحاً قانتاً لله تعالى، عالماً فقيهاً كبير القدر واعظاً، توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة أربع وتسعين للهجرة النبوية الشريفة ولم يبلغ أربعين سنة. اه انظر سير أعلام النبلاء ١٥ ٦٠

^٣ قال الحافظ ابن حجر في الفتح ١١ ٧٦ : يروى (مكذباً) بفتح الذال، يعني إبراهيم بذلك: خشيت أن يكذبني من رأى عملي مخالفاً لقولي فيقول: لو كنت صادقاً فعلت خلاف ما تقول، وإنما قال ذلك لأنه كان يعظ الناس - أي: فكان يخاف أن يكون واعظاً وليس متعظاً بما يقول، ويروى بكسر الذال وهي رواية الأكثر (مكذباً) ومعناه: أنه مع وعظه الناس لم يبلغ غاية العمل، وقد ذمّ الله تعالى من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقصر في العمل فقال سبحانه: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ قال: فخشي أن يكون مكذباً أي: مشابهاً للمكذبين. اه.

وهذا التخوف ليس تخوف حبوط العمل، وإنما تخوف الإنسان من أن يقول شيئاً ولم يتحقق به، وهو ما أشار إليه سبحانه بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

ولقد كان إبراهيم التيمي رضي الله عنه عابداً زاهداً ورعاً جامعاً للقراءات محدثاً واعظاً، ومع ذلك كله يخاف من أن يكون يتكلم بكلام تخالفه أفعاله فهو يخاف أن يكون ممن قال فيهم سبحانه: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾.

وقد خاف من هذه الآية كبار الصحابة وكبار العلماء والعبّاد، وقد خاطب فيها سبحانه أهل الإيمان فقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ فليحذر المؤمن أن يتكلم بكلام ينافي أفعاله، أو أن يوهم الناس بكلام أنّ فيه من الصفات كذا وكذا ولم يتحقق بها بعد .

وليسأل المؤمن ربه الستر والغفران وأن يجمله ويكمّله ويتمم النعمة عليه. واعلم أن من خاف شيئاً آمنه الله تعالى مما يخاف، ومن أمن من شيء وقع فيه.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ:

(أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النَّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ إِنَّهُ عَلَى إِيْمَانٍ جِبْرِيْلَ وَمِيكَائِيْلَ).

وجاء في رواية لغير الإمام البخاري ذكر عدة من الصحابة منهم أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها وعقبة بن الحارث والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما^١.

وكل من هؤلاء يخاف على نفسه النفاق - أي النفاق الأصغر وهو في الأقوال والأعمال ، ويسمى النفاق العملي .

أما نفاق الكفر فهو النفاق الأكبر ، وهو في العقيدة الإيمانية إذ يبطن صاحبه الكفر ويظهر الإسلام .

والنفاق الأصغر - وهو النفاق العملي - هو الذي كان يخافه الصحابة ، وهو أن يكون في عمل أحدهم شيء من عدم الإخلاص مع الله تعالى .

ويدخل في النفاق الأصغر : الرياء والسمعة وحب الظهور وحب ثناء الناس عليه، ومن جملة النفاق الأصغر أن يُخلف المؤمن وعده كما في الحديث

الذي رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

[آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان] ^٢.

وإذا استحكمت النفاق العملي في المؤمن فقد يجره إلى النفاق الأكبر وهو نفاق الكفر والعياذ بالله تعالى .

^١ قال الحافظ القسطلاني في (إرشاد الساري شرح صحيح البخاري) ١٣٦١ : (وقال ابن أبي مليكة) بضم الميم عبد الله بن عبيد الله القرشي التيمي المكي المؤذن القاضي لابن الزبير المتوفى سنة سبع عشرة ومائة (أدركت ثلاثين من أصحاب النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-) أَجَلُهُمُ السَّيِّدَةُ عَائِشَةُ وَأَخْتُهَا السَّيِّدَةُ أَسْمَاءُ وَالسَّيِّدَةُ أُمُّ سَلْمَةَ وَالْعَبَادِلَةُ الْأَرْبَعَةُ، وَعَقْبَةُ بْنُ الْحَارِثِ وَالْمَسُورُ بْنُ مَخْرَمَةَ (كلهم يخاف) أي يخشى (النفاق) في الأعمال (على نفسه) لأنه قد عرض للمؤمن في عمله ما يشوبه مما يخالف الإخلاص.

ولا يلزم من خوفهم ذلك وقوعه منهم، وإنما ذلك على سبيل المبالغة منهم في الورع والتقوى رضي الله عنّا بهم. اهـ

^٢ انظر صحيح البخاري وصحيح مسلم كتاب الإيمان

فمن شأن المؤمن الكامل أن يخاف أن يقع في النفاق الأصغر وهو النفاق العملي فيخاف مثلاً أن يخلف وعداً وعده أو يخون أمانة من ائتمنه وهكذا.

فمن وعد غيره أنه سيبيعه السلعة الفلانية إن هو حصل عليها ثم أخلف وعده فقد ارتكب حراماً، وليس له أن يحتج أنه لم يحصل عقد بالبيع بعد لأن نقض الوعد بالبيع حرام .

ومن بابٍ أشد حرمة أن يعقد الإنسان عقد بيع مع غيره ويتم الإيجاب والقبول منهما ثم يفسخ البائع عقده لسبب ما، فلا يحل له ذلك أبداً إلا إذا تراضى البائع والمشتري على فسخ العقد .

ولا يحل أيضاً للمشتري التراجع عن شرائه إلا إذا رضي البائع، قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ .

فمن لم يوف بوعده ففيه صفة من صفات النفاق العملي فما الظن بمن تراجع عن أداء شروط عقده؟!

ومن وعد صديقاً بشيء فليوف بوعده ولا يقل : هذا صبي لا يعقل!
فأنت الذي تعقل وأنت وعدت^١ .

ومن هنا يعلم العاقل أنه يجب أن يكون كلامه كلام إنسان كامل، كلامه مصون عن العبث، ويترتب على كلامه أحكام وعهود ووعود ومواثيق، وعليه أن يلتزم بما تكلم به .

^١ روى أبو داود في سننه في كتاب الأدب عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَامِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: [دَعْتَنِي أُمِّي يَوْمًا وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدٌ فِي بَيْتِنَا فَقَالَتْ: هَا تَعَالَ أُعْطِيكَ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهُ؟ قَالَتْ: أُعْطِيَهُ تَمَرًا، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَمَا إِنَّكَ لَوْ لَمْ تُعْطِيَهُ شَيْئًا كَتَبْتُ عَلَيْكَ كِذْبَةً].

ومن علامات النفاق العملي خيانة الأمانة سواء كانت مالية أو قولية، فمن شكا إليك أمراً أهمه ليسلي عن نفسه أحزانه، وقال لك : "دع هذا الأمر بيني وبينك، فاكتمه ولا تنشره على أحد"، ثم رحلت أنت تذيعة وتشيعه بين أقاربه وأصحابه فقد خنت الأمانة، وعلى ذلك يكون فيك خصلة من النفاق يجب أن تتوب منها .

ولقد كان أصحاب سيدنا رسول الله ﷺ يخاف أحدهم أن يقع في خصلة من النفاق الأصغر - العملي - مع أنهم أعظم وأفضل وأول من تحقق بالهدي المحمدي ﷺ والتزموه على مشهد ومسمع من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم - كان أحدهم يخاف من تغير الحال معه إن هو خرج من مجلس رسول الله ﷺ ، وخافوا أن يكون ذلك من النفاق .

فمن ذلك ما رواه الإمام مسلم عَنْ حَنْظَلَةَ الْأَسِيدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

- وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ^١ - قَالَ:

[لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَافِقٌ حَنْظَلَةُ، قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّ رَأْيِي عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَافَسْنَا^٢ الْأَرْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّبِيعَاتِ^٣ فَنَسِينَا كَثِيرًا، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا، فَاَنْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: نَافِقٌ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّ رَأْيِي عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَرْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالضَّبِيعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا.

١ انظر (الإصابة في معرفة الصحابة) (١/٢٤٦)

٢ أي: خالطنا

٣ أي: الحرف الدنيوية التي تكاد أن تضيع للإنسان فكره ووقته ، ومنه يقال عن المزرعة الكبيرة:(ضبيعة)، وأما إذا كانت صغيرة لا تضيع صاحبها فلا يقال عنها:(ضبيعة) .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ تَدُومُونَ عَلَيَّ مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافِحَتْكُمْ الْمَلَائِكَةُ عَلَيَّ فُرُشَكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ، سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ، سَاعَةٌ وَسَاعَةٌ^١.

فبين رسول الله ﷺ أن اختلاف الحال الذي يشعر به الإنسان ليس من النفاق طالما أنه على خشية من الله تعالى في السر والعلن وفي الخلوة والجلوة ، فقد يعترى المؤمن ساعة يصفو بها قلبه وتسمو بها نفسه ويشهد من أنوار الله ما لا يشهده في ساعة غيرها، وهكذا كان مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم مجلس نقاء وارتقاء، ترتفع فيه الحجب عن القلوب لقوة النور المحمدي الساطع فيجد الصحابة في مجلسه صلى الله عليه وسلم ما لا يجدونه إذا خرجوا من عنده ﷺ .

واعلم أن للعندية المحمدية ﷺ اعتباراً عظيماً وأحكاماً عالية أشار إليها سبحانه بقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ ، ولذلك قال العارفون رضي الله عنهم: [كل حال له مقال، وكل مقال له حال]^٢ .

فأقوال الرجال هي التي تورث الأحوال ، وهؤلاء الرجال هم الذين بلغوا مبلغ الرجال الكمل في مقامات الإيمان والتقوى، والذين ذكرهم الله تعالى بوصف الرجولية كقوله تعالى : ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ .

ومن ألتهته التجارة عن ذكر الله فليس له من صفة الرجولية إلا الاسم .

وقال تعالى : ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَهَّرُوا﴾ .

وقال تعالى : ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ .

^١ صحيح مسلم كتاب التوبة

^٢ قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة : (لكل مقام مقال): الخطيب في الجامع عن أبي الدرداء، والخرائطي في المكارم، وابن عدي في الكامل، كلاهما عن أبي الطفيل موقوفاً. اهـ

وقال الشيخ الأكبر سيدي محيي الدين بن عربي رضي الله عنه في الفتوحات المكية ١/١٥٢ : (لكل مقام مقال، ولكل علم رجال).

فإذا بلغ الرجل مبلغ الكمال : بلغ مبلغ الرجال في الإيمان والتقوى ، فإذا قال أحدهم مقالاً أورث أحوالاً في السامع صاحب القلب المستعد المتقبل لنور الحق .

وأما ما اشتهر على ألسنة بعض الناس من قولهم : [إن الكلام إذا خرج من القلب وقع في القلب ، وإذا خرج من اللسان لا يجاوز الآذان]^(١) فقد قال العارفون: وهذا الكلام مردود غير صحيح وإن اشتهر ونقل^٢ .

وذلك لأنه يخالف ما جاء في شرع الله تعالى فلقد تكلم سيدنا نوح عليه السلام بكلام من قلبه وخاطب قومه ودعاهم إلى الله تعالى فلم يؤمن منهم إلا القليل، وكذلك سائر الأنبياء والرسل على نبينا وعليهم الصلاة والسلام فقد تكلموا وخاطبوا أقوامهم بكلام صادر من قلوبهم النبوية المنبأة من جانب الحق جلّ وعلا ، ومع ذلك كان هناك من أقوامهم من سمع كلامهم وأعرض وكفر .

نعم إن الكلمة التي تخرج من القلب وتصادف قلباً مستعداً تؤثر فيه وتورث صاحبه الهدى والتقوى ، وأما القلب المقفل الغافل المعرض عن الحق فلا يتقبل أنوار الكلام الحق فلا يتأثر ولا يهتدي ، ومثال ذلك كالبذرة أو الحبة إذا رميتها في أرض خصبة رطبة طيبة تراها تنبت وتنمو وتثمر، وأما إذا صادفت أرضاً صخرية يابسة فلا تنبت ولا تثمر مع أن البذرة واحدة، فلم يستجب لدعوة الرسل عليهم السلام إلا أصحاب القلوب المستعدة فآمنوا واهتدوا ، وأما من لم يستجب فهم أصحاب القلوب الميتة كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ﴾ وأما من لم يستجب فهم أموات القلوب ، قال جل وعلا: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ .

١ وجاء هذا في كلام العرب . انظر كتاب العقد الفريد ١/١٦١ لابن عبد ربه

الأندلسي المتوفى سنة ٣٢٨ هـ

٢ انظر ما ذكره الشيخ الأكبر سيدي الشيخ محيي الدين بن عربي رضي الله عنه عن ذلك في كتابه الفتوحات المكية ١/٥

فقد يتكلم عالم بلغ مبلغ الرجال في الإيمان والعلم ، ويسمع كلامه ومواعظه وتذكيره جمهرةً من الناس ولا يتأثر منهم إلا أصحاب القلوب المستعدة الحية مع أن كلام ذلك الرجل كان صادراً من قلب مؤمن موقن ولا شك .

ويتبين لك مما تقدم أن لكل مقال أحوالاً، ولكل مقال رجالاً ، فإذا بلغ الرجل مبلغ الرجال أورث مقاله أحوالاً ، فمن ذلك ما جاء عن الإمام الجنيد^١ رضي الله عنه أنه لما بلغ مبلغ الرجال - أي : في الإيمان والعلم والكمال - قال له شيخه وخاله السري السقطي^٢ : "يا بني تكلم على الناس" - أي : عِظهم وانفعهم بعلمك فقد حق لك ذلك - فتقاصر في نفسه وقال له : "أنا أتكلم على علماء بغداد؟! - أي : وفيها من العلماء وقتئذ الأكابر والفحول - فبات تلك الليلة فرأى النبي صلى الله عليه وسلم في المنام وقال له : [تكلم على الناس] فاستيقظ وصلى ما تيسر ثم مضى إلى المسجد ، ومَرَّ في طريقه على بيت خاله السري حتى يخبره بالرؤيا ، فطرق الباب عليه ، فناداه من وراء الباب : أما صدقتني حتى أمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! .

فذهب إلى المسجد وجلس على الكرسي - وقد اجتمع الناس وتزاحموا لسماع وعظه وإرشاده - فجاء رجل مثلثم متنكر ووقف وقال :
يا إمام: ما معنى [اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله]^٣؟ .

^١ سيدي الإمام الأكبر و العارف الأشهر، شيخ مذهب الطريقة وعَلَم أعلام هذا الشأن، أصله من نهاوند، ومنشؤه بالعراق، وأبوه كان يبيع الزجاج؛ فلذلك يقال له: (القواريري)، توفي رحمه الله تعالى ورضي عنه سنة ٢٩٧هـ .
^٢ الإمام القدوة، أبو الحسن البغدادي ، ولد في حدود الستين ومئة، هو خال الجنيد وأستاذه رضي الله تعالى عنهما، صحب معروفاً الكرخي وهو أجلُّ أصحابه ، وكان أوجد أهل زمانه في الورع والأحوال السنية وعلم التوحيد ، وهو أول من يتكلم فيه ببغداد ، وإليه ينتمي أكثر المشايخ ببغداد، ومات بها سنة إحدى وخمسين ومائتين للهجرة ، وقبره بالشونيزية ظاهر يزار. اهـ

انظر سير أعلام النبلاء ١٢/١٨٥ والطبقات الكبرى للشعراني ٧٣

^٣ طرف حديث شريف رواه الترمذي في سننه في كتاب تفسير القرآن

فأطرق الجنيد ثم رفع رأسه وقال له : (أسلم يا نصراني ، فقد آن أوان إسلامك)، وكان الرجل نصرانياً متنكراً بزي المسلمين فأسلم وآمن^١. اهـ
وهكذا كان جواب الإمام رضي الله عنه جواباً عملياً ، وكان هذا أول مجالسه رضي الله عنه للتذكير .
ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً، والحمد لله رب العالمين .

^١ انظر وفيات الأعيان ٣٧٤/١ والرسالة القشيرية ٣٩٦/٢

المحاضرة الثالثة عشرة بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأكمل التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . أما بعد :

قال الإمام الشيخ محيي الدين النووي رضي الله عنه :

باب المراقبة : قال الله تعالى : ﴿الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبِكَ فِي
السَّجِدِينَ﴾ .

وقال تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ .

وقال تعالى : ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ .

وقال تعالى : ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ .

والآيات في الباب كثيرة معلومة .

وأما الأحاديث ، فالأول ، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : [بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ؛ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْدَيْهِ، وَقَالَ : يَا مُحَمَّدُ ، أَخْبَرَنِي عَنِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْإِسْلَامُ : أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ ، وَتُحَاجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا .

قال: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ.

قال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ .

قال: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ ، وَمَلَائِكَتِهِ ، وَكُتُبِهِ ، وَرُسُلِهِ ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدْرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ .

قال: صَدَقْتَ .

قال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ .

قال : أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ .

قال : فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ .

قال : مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ .

قال: فَأَخْبِرْنِي عَنِ أَمَارَاتِهَا، قال: أَنْ تَلِدَ الْأُمَّةَ رَبَّتَهَا ، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ .

ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا ، ثُمَّ قَالَ: يَا عُمَرُ ، أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ ؟

قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ .

قال: فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُمْ] . رواه مسلم . اهـ ^١

المراقبة هي أن يراقب العبد أن الله تعالى رقيب عليه دائماً، لا يخفى عليه منه شيء، قال تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ .

وأصل معنى المراقبة ملازمة رقبة الآخر، ولا يتصور هذا المعنى في حق المخلوق إذ قد يراقب إنسان غيره فترة مؤقتة ثم ينصرف عنه مع أنه لا يمكنه معرفة ما يجول في نفسه، قال سبحانه : ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ﴾ .

فالرقيب على الحقيقة هو الله تعالى، فهو سبحانه محيط بالعبد لا يفارقه، وهو معه بعلمه وقدرته وإحاطته جل وعلا .

^١ انظر رياض الصالحين ص ١٤

وعلى العبد أن يراقب مراقبة الله تعالى عليه حتى يكون قلبه دوماً متوجهاً إلى الله تعالى، لا يغفل عنه سبحانه.

وحقيقة المراقبة هي عبادة لله تعالى؛ إذ إن كون العبد يراقب أن الله تعالى رقيب عليه؛ ناظر إليه؛ مطلع على ظاهره وباطنه؛ هو في حد ذاته عبادة لله تعالى، وإن لم يذكر العبدُ بلسانه الله تعالى، يعني: أن اشتغال القلب بمراقبة الرب جل وعلا هو عبادة لله تعالى بل هو من أفضل العبادات، وفي هذا يقول سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ *الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ .

هذا الخطاب موجّه لسيدنا رسول الله ﷺ، والأمة لها حكم التبعية لسيدنا رسول الله ﷺ في هذا الخطاب .

ومن أراد أن يتوكل على أحد في أمر فلا بد أن يكون متصفاً بالقدرة والقوة على إنفاذ هذا الأمر، وإلا فما فائدة التوكل عليه؟!

ولذلك قال سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ﴾ أي: الغالب القوي، فمن كان متوكلاً فليتوكل على من له القدرة المطلقة والغلبة والعزة وهو الله تعالى.

﴿الرَّحِيمِ﴾ أي: الرحيم بمن توكل عليه فلا يخونه ولا يخذله ولا يمكر به.

﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أي: حين تقوم إلى الصلاة فإن الله يراك، ويرى تقلبك في الساجدين حين تدخل في الصلاة يا محمد يا رسول الله وتؤم الناس وتنتقل بهم من قيام إلى ركوع إلى سجود إلى قيام وهكذا... كل ذلك على مرأى منه سبحانه وتعالى .

وتشمل الآية وجوهاً من المعاني، منها الذي ذكرناه وهو: ﴿وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾ أي: حين الصلاة .

قوله تعالى : ﴿وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ أي : يراك سبحانه حين تقلب بصرك في الساجدين وراءك ، وذلك لأنه صلى الله عليه وسلم كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه .

ففي الحديث الصحيح عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إني لكم إمام، فلا تسبقوني بالركوع ولا بالسجود ولا بالقيام، فإني أراكم من أمامي ومن خلفي]...^١ الحديث

فهو صلى الله عليه وسلم ينبّه المصلين وراءه أن يلتزموا الحضور والخشوع، وأن يلتزموا متابعتة ﷺ، ولا يتقدموا عليه في أفعال الصلاة^٢.

ولذلك كان الصحابة رضي الله عنهم يلتزمون متابعة رسول الله ﷺ في صلاتهم معه وهم في غاية الحضور والخشوع لله تعالى لأنهم على مرأى من الله تعالى وعلى مرأى من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقوله تعالى : ﴿الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: إلى صلاة الليل متهجداً فإن هذا القيام له شأنه إذ كان صلى الله عليه وسلم يقوم في نصف الليل ليصلي ويدعو.

﴿وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ أي : تقلبك في المتهجدين الساجدين لله تعالى. ولقد كان صلى الله عليه وسلم يقوم في نصف الليل يصلي، ثم يمضي يتفقد بيوت بعض الصحابة في آخر الليل فيمرّ على بيوت الأشعرين وغيرهم ويسمع تلاوتهم للقرآن الكريم، فمن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم : [إِنِّي لَأَعْرِفُ أَصْوَاتَ رُفَقَةِ الْأَشْعَرِيِّينَ بِالْقُرْآنِ حِينَ يَدْخُلُونَ بِاللَّيْلِ، وَأَعْرِفُ مَنَازِلَهُمْ مِنْ أَصْوَاتِهِمْ بِالْقُرْآنِ بِاللَّيْلِ]...^٣ الحديث

١ مسند الإمام أحمد ١٢١١٠ واللفظ له وصحيح مسلم كتاب الصلاة
٢ وقد جاء النهي عن تقدم المقتدي على إمامه في أفعال الصلاة ، ونص الفقهاء على كراهة ذلك تحريماً . انظر حاشية العدوي ٣٠٩/١
٣ طرف حديث في صحيح البخاري كتاب المغازي وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة

- وعلى هذا يكون معنى قوله تعالى : ﴿وَتَقَلَّبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ .
- أي : تفقّدك لهم حين تمر على بيوتاتهم وتستمع لقراءاتهم .
- قوله تعالى : ﴿الَّذِي يَرِنُكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلَّبُكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ .

أي يراك في الصلاة ويرى قيامك من المجلس فهو صلى الله عليه وسلم على مرأى من الله تعالى في كل أحواله، ويدل ذلك على عناية الله تعالى به وأنه صلى الله عليه وسلم موضع نظر الحق جل وعلا، وفي هذا من التكريم والعناية الإلهية برسول الله ﷺ ما لا يعلمه إلا الله تعالى .

ومن ذلك قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَكَوَى﴾ يعني أنه صلى الله عليه وسلم على مرأى من الله تعالى وعناية به منذ صغر سنه الشريف صلى الله عليه وسلم.

واعلم أن الخلق كلهم على مرأى من الله تعالى وأنه سبحانه يراهم ويبصرهم وينظر إليهم أجمعين، لكن نظره سبحانه إلى أهل الإيمان والتقوى هو نظر رحمة ورضا وعناية خاصة، قال تعالى : ﴿قُلْ أُوْنِيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ .

من هم هؤلاء العباد ؟

قال تعالى : ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَعْمَانَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ .

وقال سبحانه : ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُلْ لِلَّذِينَ
أُوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ءَأَسَلَمْتُمْ فَإِنْ أَسَلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ۗ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ
الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۗ﴾ أي : بصير بأولئك العباد الذين خالفوك يا رسول
الله .

فانظر الفرق الكبير بين معنى العباد في الآية الأولى ، ومعنى العباد في الآية
الثانية، فالعباد في الآية الأولى هم العباد المتقون، وقوله سبحانه : ﴿وَاللَّهُ
بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۗ﴾ أي : بصير تكريم وعناية .

وأما نظره وبصره سبحانه بالعباد المخالفين في قوله تعالى : ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ ۗ﴾ أي : بصير علم وقدرة وشهود لأعمالهم، حتى إذا جاء يوم القيامة
نبأهم الله بأعمالهم، قال تعالى : ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ
شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۗ﴾ .

وقال جل وعلا : ﴿فَلَنَقُصَّنَّ عَنْهُمْ بَعْلِمَ ۖ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ ۗ﴾ .

ومما يتقدم يتبين لك أن للنظر أثراً كبيراً في المنظور إليه، وهكذا نظره
سبحانه لرسول الله ﷺ، فهو نظر رحمة ورضا وتكريم وعناية خاصة تليق
بمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ :

يعني : المؤمنين بالله تعالى^١ ، ويكون المعنى : تقلبك من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات وهكذا أباً بعد أب حتى وُلدت يا رسول الله طاهراً ، من نكاح ، لا من سفاح .

١ قال الحافظ السيوطي في الدر المنثور : وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ قال : ما زال النبي صلى الله عليه وسلم يتقلب في أصلاب الأنبياء حتى ولدته أمه. اهـ

وانظر ما ذكره الآلوسي حول تفسيره لهذه الآية الكريمة. وقال الشيخ الإمام رضي الله عنه في كتابه (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) في الصفحة ٢٦٧ :

وفي رواية عن قتادة وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى : ﴿وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّجْدِينَ﴾ قالوا : المراد بالساجدين المؤمنين .

وهذا يشمل أولاً الأنبياء الذين تقلّب في أصلابهم ، ويشمل غيرهم من بقية أصوله ، فإنهم كانوا على توحيد الله تعالى ، وخاصّة الأبوين الكريمين ، فإنّهما على الملة الحنيفيّة ، كانا موحدّين لله تعالى ، ومؤمنين به سبحانه ، على أصل الفطرة الدينية ، التي فطروا عليها ، بدليل قوله ﷺ : [بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى

كنت من القرن الذي كنت فيه] كما في البخاري وغيره . فكل قرن من آدم إلى قرنه ﷺ فيه مؤمنون ، وفيه كفار ، ولا شك أنّ المؤمنين هم أهل الخير ، فلما قال ﷺ : [بعثت من خير قرون بني آدم ...] الحديث ، أي : بعثت من خير المؤمنين الذين هم خير كل قرن حتى قرنه ﷺ ، فإنّ فيه المؤمنين الموحدّين - وإن كانوا قلة - ، فبعثت من خيرة كل قرن ، فدل ذلك على أنّ كل أصوله موحدة مؤمنة بالله تعالى ، ولا سيما الأبوين الشريفين .

روى أبو نعيم في (الدلائل) والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : [ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما ، فأخرجت من بين أبويّ فلم يصبني من عهر الجاهلية ، وأخرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً وخيركم أباً] صلى الله عليه وسلم . وأخرج أبو نعيم في (الدلائل) عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : [لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة ، مصفّياً مهدّباً ، لا تنشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما] صلى الله تعالى عليه وآله وسلم .

ولم يدخل عمود النسب النبوي المحمدي أيُّ دنس من أدناس الجاهلية والشرك بل كلهم كانوا على التوحيد من لدن والده الشريف السيد عبد الله إلى سيدنا آدم عليه السلام^١.

ولقد دلت الآية على أن الله تعالى هو رقيب على خلقه في جميع حركاتهم وسكناتهم وتقلباتهم، ومطلع على ما في بواطنهم، ويعلم ما تخفي صدورهم، فيجب إذاً على كل مؤمن أن يراقب مراقبة الله عليه، ويتأكد ذلك عليه حين يقوم إلى الصلاة؛ فليدخل في صلاته وهو حاضر القلب فيشاهد أنوار الرب بقلبه، وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم عندما سأله جبريل عليه السلام فقال: [فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ ﷺ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ]^٢

- أي: أن تعبد الله جل وعلا مشاهداً له بقلبك كأنك تراه بعينك، فإن لم تكن حصلت على هذا المقام فراقب مراقبة الله عليك، أي: فلتكن في عبادة الله بين حالين: إما حالك مشاهداً أو مراقباً، وإلا كنت غافلاً.

ولا شك أن مقام المشاهدة أعلى وأرقى، وهو على مراتب.

ولا بد من الاستعانة بالله تعالى واللجوء إليه سبحانه لدفع الوسوس الشيطانية والخواطر النفسانية التي قد تعتري الإنسان أثناء صلاته أو عبادته لله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ - أي: لا بنفسك - ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

^١ وانظر رحمك الله تعالى ما جاء في كتاب: (هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكر في الأكوان) في مبحث (حكم الأبوين الشريفين) في الصفحة ٢٨٧ حيث ذكر الشيخ الإمام رضي الله عنه فيه ما يثبت ويدل على نجاه والديه الشريفين صلى الله عليه وسلم وطهارة النسب المحمدي من النسب والشرك من لدن والده الشريف ﷺ السيد عبد الله إلى سيدنا آدم عليه السلام.

^٢ طرف حديث في صحيح مسلم كتاب الإيمان

وعلى كل مؤمن أن يستعين على حضور قلبه في عبادته لله تعالى وفي صلاته بأمر تمكّنه من الحضور والخشوع فيها، ومن أهمها :

أن لا يغفل عن مراقبة الله تعالى، ولا يغفل عن ذكر الله تعالى أثناء عمله في الدنيا من تجارات وبيع وشراء وغير ذلك، حتى إذا جاء وقت الصلاة قام إليها وهو على ذكر لله تعالى ومراقبة له سبحانه .

وأما من غرق في بحر الدنيا ومشاغلها وأرخی لنفسه العنان وغفل عن ذكر الله تعالى ومراقبته فإنه إذا جاء وقت الصلاة قام إليها متثاقلاً وأدى صلاته وفكره يجول في أمور الدنيا ولم يتمكن من الحضور والخشوع، وذلك لأن قلبه كان مشغولاً في الدنيا غافلاً عن الله تعالى، وفي هذا يقول سبحانه :
﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ أي : لأنهم يخافون يوماً وهو يوم الحساب والجزاء.

وليعلم كل مؤمن أنه لا بد لإيمانه أن يظهر أثره في أعماله وأقواله وبيعه وشرائه ومعاملاته، وفي نصحه وصدقه وفي سلوكه كله، وإلا فهو على نقص في إيمانه.

قال تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾ أي بالمعية العامة ﴿أَيُّنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أي : أنتم فال ﴿أَيُّنَ﴾ من صفتكم، وهو سبحانه لا أين له ولا كيف ولا كم، وكل ذلك من صفات الخلق .. وهو سبحانه منزّه عن الحلول بمكان أو الحدّ بزمان . فكان سبحانه ولا مكان ولا زمان، وهو الذي خلق المكان والزمان، وهو غني عن خلقه كلهم، وهو الآن على ما عليه كان جل وعلا .

وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ أي: سواء كنتم في المسجد أو في السوق أو في المنزل أو في المتجر فهو سبحانه معكم، وقد غاب عن أبصاركم أن تروه؛ ولكنه تبارك وتعالى معكم بعلمه وقدرته وبصره وإحاطته، فغاب عن أبصاركم أن تروه لكنه معكم بالمعينة المطلقة المنزهة اللاتقة بجلاله سبحانه .

وقد أخبر سبحانه عباده أنه معهم أينما كانوا حتى يكونوا على مراقبة له سبحانه، ولا تغفل قلوبهم عن ملاحظة ذلك، وهذا ما يحمل الإنسان على الكفّ عن مخالفة أمرٍ من هو معه، ولا يغيب عنه أبداً .

ورأى الإمام الجنيد رضي الله عنه رأى في منامه إبليس يضحك ويسخر من الناس فقلت له: أما تستحي من الناس؟!

فقال إبليس: لو كانوا ناساً ما كنت ألعب بهم كما يلعب الصبيان بالكرة، إنما الناس جماعة غير هؤلاء.

فقلت: أين هم؟ فقال: في مسجد الشونيزي^١، قد أضنوا قلبي وأتعبوا جسدي.

قال: فلما انتبهت لبست ثيابي ورحت إلى المسجد الذي ذكر فإذا فيه ثلاثة جلوس) -مراقبين لله تعالى يتفكرون- (فرجع أحدهم رأسه إلي وقال: يا أبا القاسم لا تغتر بحديث الخبيث)^٢.

^١ مسجد الشونيزية هو مسجد قديم جاء ذكره في عدد من المصادر التاريخية ، كان موقعه في مدينة بغداد ، وكانت هناك منطقة الشونيزي الصغير، الذي فيه محلة تعرف باسم محلة مقابر قريش، أما منطقة الشونيزي الكبير، فبقيت تعرف بمقبرة الشونيزية تارة، ومقبرة الجنيد البغدادي تارة أخرى ، وتضم محلة الشونيزية بداخلها رباط الشونيزية ومسجدها المذكور الذين كانا مقصداً لطلبة العلم وملاذاً لرجال التصوف آنذاك.

^٢ كما في البداية والنهاية للحافظ ابن كثير ١١٠/١١ وطبقات الأولياء لابن الملقن ١٣٢ وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي ١٩/١ وصفة الصفوة لابن الجوزي

-وقالوا ذلك من باب التواضع، وإلا فهم صلحاء، كاشفوا ما جرى بين الجنيد رحمه الله تعالى ورضي عنه وبين إبليس .

ولا تنكر - رحمك الله - شيئاً وصلك من هذه الأمور فقد نقلها من هو أعلم وأتقى وأورع منك وهو حجة الإسلام الإمام الغزالي رضي الله عنه^١، ولكن من شأن الإنسان أن يرد ما لا يتقبله عقله، وما ذلك إلا لضيق عقله وقلة علمه وغروره بنفسه، وهل يصح للإنسان أن ينكر شيئاً بحجة أنه لم يحصل عليه؟!!

فمثاله كمن قيل له : إن فلاناً وفلاناً من الأغنياء يملكون كذا وكذا من الذهب والأموال الطائلة فأنكر ذلك لأنه لا يملك شيئاً مما عندهم !

فانظر إلى كلام إبليس اللعين أنه لم يرض أن تطلق كلمة (الناس) على أولئك الغافلين عن الله تعالى، فهو يلعب بهم كما يلعب الصبي بالكرة، وإلا فالناس على الحقيقة هم أهل الإيمان والصلاح والتقوى .

وقد قال صلى الله عليه وسلم: [إن أفضل الإيمان أن تعلم أن الله معك حيثما كنت]^٢ أي : تعلم ذلك على يقين وتحقق .

ونسأل الله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً ، والحمد لله رب العالمين .

^١ في إحياء علوم الدين في كتاب المراقبة والمحاسبة ٥٠٩/٤

^٢ رواه الطبراني في المعجم الأوسط وأبو نعيم في الحلية

المحتوى

٥	المحاضرة الأولى
١٣	المحاضرة الثانية
٢٢	المحاضرة الثالثة
٣٣	المحاضرة الرابعة
٤٤	المحاضرة الخامسة
٥٧	المحاضرة السادسة
٦٩	المحاضرة السابعة
٨٧	المحاضرة الثامنة
١٠١	المحاضرة التاسعة
١٠٩	المحاضرة العاشرة
١١٩	المحاضرة الحادية عشرة
١٣٠	المحاضرة الثانية عشرة
١٤٢	المحاضرة الثالثة عشرة
	كُتِبَ للمؤلف
	من آثار الشيخ الإمام
	قَبَسَات من المؤلفات

كُتُبُ لِلْمُؤَلِّفِ

- * حول تفسير سورة الفاتحة - أمّ القرآن الكريم .
- * حول تفسير سورة الحجرات .
- * حول تفسير سورة ﴿ ق ﴾ .
- * حول تفسير سورة الملك .
- * حول تفسير سورة الإنسان .
- * حول تفسير سورة العلق .
- * حول تفسير سورة الكوثر .
- * حول تفسير سورة الإخلاص والمعوذتين بعدها .
- * هدي القرآن الكريم إلى الحجة والبرهان .
- * هدي القرآن الكريم إلى معرفة العوالم والتفكير في الأكوان .
- * تلاوة القرآن المجيد: فضائلها - آدابها - خصائصها .
- * شهادة لا إله إلا الله سيدنا محمد رسول الله ﷺ :
- * فضائلها - معانيها - شواهدا ومشاهدا - مطالبها .
- * سيدنا محمد رسول الله ﷺ : خصاله الحميدة - شمائله المجيدة .
- * الهدي النبوي والإرشادات المحمدية ﷺ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب السنية.
- * التقرب إلى الله تعالى : فضله - طريقه - مراتبه .
- * الصلاة في الإسلام : منزلتها في الدين - فضائلها - آثارها - آدابها .
- * الصلاة على النبي ﷺ : أحكامها - فضائلها - فوائدها .
- * صعود الأقوال ورفع الأعمال إلى الكبير المتعال ذي العزة والجلال.
- * الدعاء : فضائلها - آدابه - ما ورد في المناسبات ومختلف الأوقات .

- * الإيمان بعوالم الآخرة ومواقفها .
- * الإيمان بالملائكة عليهم السلام، ومعه بحث حول عالم الجن .
- * حول ترجمة المرحوم الإمام العلامة الشهير والعارف الكبير فضيلة سيدي الوالد الشيخ محمد نجيب سراج الدين الحسيني رضي الله تعالى عنه .
- * شرح المنظومة البيقونية في مصطلح الحديث .
- * الأدعية والأذكار الواردة آناء الليل وأطراف النهار.
- * أدعية الصباح والمساء ومعها استغاثات .
- * مناسك الحج ويليها أحكام زيارة النبي ﷺ وآدابها .
- * الصيام : آدابه - مطالبه - فوائده - فضائله .

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام :

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام - المؤلفات المكتوبة

مِن آثار الشيخ الإمام

- * محاضرات حول الفضائل المحمدية صلى الله عليه وآله وسلم .
- * محاضرات حول الإسراء والمعراج : آثاره - فضائله - أسراره.
- * محاضرات حول الإيمان بالقضاء والقدر.
- * دروس حول تفسير بعض آيات القرآن الكريم .
- * محاضرات حول عالم الجنة : مراتب الجنة - ألوان النعيم في الجنة - صفات أهل الجنة .
- * محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم - الجزء الأول .
- * محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم في الوعظ والتذكير - الجزء الثاني .
- * محاضرات حول مواقف سيدنا رسول الله ﷺ مع العالم - موقف تعليم الكتاب - الجزء الثالث.
- * محاضرات حول مقامات أهل الإيمان - الجزء الرابع .
- * محاضرات حول هجرة سيدنا رسول الله ﷺ من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة.
- * محاضرات حول تفسير خواتيم سورتي البقرة وآل عمران والمعوذات وأذكار بعد الصلوات.
- * محاضرات حول مقتضيات الشهادة بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ .
- * مجالس الحديث النبوي الشريف: الجزء الأول - الثاني - الثالث - الرابع .

وتجدونها كلها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام :

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام - المؤلفات المكتوبة

قَبَسَات من المؤلفات

- * الكلام حول الأدلة على أنه لا إله إلا الله وحده .
- * حُكْمُ أَبَوَيْ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ الشَّرِيفَيْنِ .
- * أربعون حديثاً من جوامع كَلِمِ النَّبِيِّ ﷺ .
- * شفاعة سيدنا محمد ﷺ العامة والخاصة .
- * التوسل والاستغاثة بسيدنا محمد ﷺ .
- * رحمة سيدنا محمد ﷺ للعالم .
- * عصمة سيدنا محمد ﷺ من الخطأ في جميع أحواله .
- * حول مولده الشريف ﷺ والابتهاج والاحتفال بيوم مولده الشريف ﷺ .
- * الأمر بالمحافظة على الصلاة ، والتحذير من تأخيرها والوعيد الشديد لمن تركها.
- * سبب وجود بعض الأحاديث التي فيها ضعف في مؤلفات الإمام .
- * سبب ذكر بعض البشائر المنامية في كتاب (الصلاة على النبي ﷺ).
- * البشائر الغرر للمكثرين من الصلاة على سيد البشر ﷺ .
- * آثار الزكاة وأنوارها ، وعقاب مانع الزكاة .
- * بيان قصة الغرائق الباطلة .
- * صلاة الاستخارة ودعاؤها .
- * صلاة التراويح وعدد ركعاتها .
- * وصول الثواب إلى الأموات .
- * معاني الصلاة الإبراهيمية .

وتجدونها وغيرها متاحة للتحميل

في الموقع الرسمي والوحيد للشيخ الإمام :

www.srajalden.com

في قسم : مؤلفات الإمام - قبسات من المؤلفات